

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة / العدد الرابع و العشرون / خريف / ٢٠١٨

عمر شبلي

تجليات أخلاق العرب في الشعر الجاهلي

د. عزيز طونني الأشقر

صورة المرأة في شعر ذي الرمة

د. ناصر عليق

نصر حامد أبو زيد بين تاريخية النص الديني وتأويله

د. علي عبد المنعم طالب

المواطنة بين قوسي الدولة والهوية

د. أحمد ياسين

دراسة تطبيقية لأنموذج جديد في المناخ الفسيولوجي

د. صلاح أبو شقرا

بلدة الفوارة قضاء الشوف دراسة في جغرافية التهجير

د. عبدالله السيد

صورة الإسلام والعرب في الإعلام الغربي

د. جهاد عيسى

عكار : الأوضاع الاقتصادية والمادية

د. محمد حسن دخيل

دور التنشئة السياسية في استقرار النظام السياسي

د. نازك بدير

الأحداث الغرائبية في متاهة الأرواح المنسية

د. رائدة علي أحمد

دراسة تحليلية نقدية على ضوء المنهج البنيوي

د. نصر قرحاني

معاة ١٩١٥ خلال الحرب العالمية الأولى

د. ليلي سعد

قصيدة الدردارة وبنائها الأسلوبية

مايكل موسى

بحث عن الموأل العربي

جابر علي جابر

اللغة و أثرها في تعزيز القيم الإنسانية

روبير البيطار

قراءة في كتاب من وحي المسيح

محمد إقبال حرب

منه الليل

د. سميرة طليس

ليتة - يحين الوطن

- موقف "المنافذ الثقافية"

من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

الهيئة الثقافية والإدارية

د. خديجة شهاب	د. هالة أبو حمدان	د. درية فرحات
د. نصر قرحاني	د. هبة الحشيمي	د. عيدا زين الدين
د. عماد هاشم	د. ندى الرمح	د. منى دسوقي
د. رضا العليبي (تونس)	د. ماغي عبيد	د. زهور شتوح (الجزائر)
د. علي أيوب	د. سمية طليس	أ. حكمت حسن
أ. مروان درويش	أ. إيمان صالح	أ. سوزان زعيتير
أ. زينب راضي	أ. فاطمة البزال	أ. رولا الحاج حسن

اللجنة المحكّمة

د. ديزيره سقال	د. حسن جعفر نور الدين	د. محمد فرحات
د. فؤاد خليل	د. لارا خالد مخول	د. علي حجازي
د. جمال زعيتير	د. مها خير بك ناصر	د. محمد عواد

المدير المسؤول

علي حمود

إخراج

عبد القادر نجيب كرزي

٧٠/٦٢١٤١٠

تصميم المجلة

عبير سمير نجم

العدد الرابع والعشرون - خريف ٢٠١٨

موقع المجلة الإلكتروني - www.al-manafeth.com
مركز المجلة: ريفيرا سنتر - كورنيش المزرعة - دار العودة - الطابق الخامس
الإشتراكات السنوية:

لبنان - للأفراد ١٠٠ ألف ليرة لبنانية - للمؤسسات ١٥٠ ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربية:

للأفراد ١٠٠ دولار - للمؤسسات ٢٠٠ دولار

للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

المحتويات

٥	تجليات أخلاق العرب في الشعر الجاهلي عمر شبلي
١٠	نصر حامد أبو زيد بين تاريخية النص الديني وتأويله د. ناصر عليق
٢٨	المواطنة بين قوسي الدولة والهوية د. علي عبد المنعم طالب
٤٩	بحث عن الموال العربي، ودراسة أسلوبية في قصيدة «موال بغدادي» للشاعر فاروق شوشة مايكل موسى
٦٦	مجاعة ١٩١٥ خلال الحرب العالمية الأولى وأثرها على لبنان د. نصر قرحاني
٧٨	حصار واحتلال الإسكندر الأكبر لمدينة صور عام ٣٣٢ ق.م. زياد جلبوط
٩١	دراسة تحليلية نقدية على ضوء المنهج البنوي (شاي أسود) أنموذجاً د. رائدة علي أحمد عاصي
١٢٢	استراتيجية التحليل الأسلوبية (نماذج مختارة من شعر فدوى طوقان) ملكة جوني
١٣٥	التدقيق اللغوي: خطوة لا بد منها زياد قسطنطين
١٥٠	اللغة وأثرها في تعزيز القيم الإنسانية في العصر العباسي أ. جابر علي جابر
١٦٦	التراكيب اللغوية أميرة يوسف
١٧٧	قصيدة الدردارة وبنائها الأسلوبية حسن عبد الله أنموذجاً د. ليلي محمد سعد
١٩٤	صورة المرأة في شعر ذي الرمة بين النمطية العربية والرموز الميثولوجية د. عزيز طوني الأشقر
٢١٣	مؤتمر الطرق التدريسية وإشكالية التكوين العلمي في ميادين التربية على... د. رضوان علي حسين العجل
٢٣١	النفط في لبنان: نعمة ونقمة في آن واحد منى محمد يونس
٢٤٣	ظروف ولادة مجلس التعاون الخليجي ١٩٨١ إعداد نعيم عبد الفتاح الطحان
٢٥٥	معلم القطاع الرسمي بين معاناته التربوية وهمومه المعيشية وانعكاسهما على أدائه التدريسي دة ليال عبد السلام الرفاعي - دة مهى راشد صوراني
٢٩٣	دراسة تطبيقية لنموذج جديد في المناخ الفسيولوجي د. أحمد ياسين

٣١١	إعادة القراءة في الهوية القومية عبر الشخصيات الأسطورية في الأدبين الفارسي والعربي السيد سيد حسين هاشمي
٣٤٠	بلدة الفوارة قضاء الشوف، دراسة في جغرافية التهجير د. صلاح عصام أبو شقرا
٣٦٤	محمد أبو علي صوفي في بردة من باسمين التجليات الصوفية في شعره عصام حمدان
٣٧٩	عكار الأوضاع الاقتصادية والمادية ١٩١٠-١٩١٩ د. جهاد عيسى
٣٩٥	صورة الإسلام والعرب في الإعلام الغربي «الإعلام الفرنسي أنموذجاً» د. عبد الله السيد
٤٢٥	منزلة الإبداع في ميزان النقد وجدلية الأخلاق والإباحية المطلقة... نزير عادل الذهبي
٤٢٩	أثر النشاط التمثيلي في تنمية مهارات الاستماع وزيادة التحصيل الدراسي في اللغة الفرنسية ملاك حاتم الطفيلي
٤٤٠	الشعرية في النص عند الشاعر إلياس أبو شبكة دراسة في ديوان: «أفاعي الفردوس» فدى عيس
٤٤٤	قراءة في كتاب «من وحي المسيح» لميخائيل نعيمة روبير البيطار
٤٦٣	البنية الإيقاعية الموسيقية في قصيدة «كازو» للشاعر مصطفى قاسم عباس إعداد سهى يونس الشمعة
٤٧٥	التكاذب الافتراضي على مواقع التواصل الاجتماعي فاطمة درويش
٤٨٦	دور التنشئة السياسية في استقرار النظام السياسي والتحول الديمقراطي د. محمد حسن دخيل
٥٠١	الأحداث الغرائبية في «متاهة الأرواح المنسية» و«استراحة مفيستو» لبرهان شاوي د. نازك سلمان بدير
٥١٤	نصوص زائدة محمود وهبة
٥١٥	ليتة... يحين الوطن! د. سميرة طليس
٥١٧	إنه الليل محمد إقبال حرب
٥١٩	Construction d'identités plurielles à Hermel Approche phénoménologique... Zeinab Hamade
٥٣١	Examining the Writing Proficiency of ESL College Students in Lebanon... Yusra Mazeh
٥٣٧	A Journey from Voiceless to Voiced: Kate Chopin's Short Fiction... Khoulood al- Dimashki
٥٤٨	Essay under the Microscope: Essay Dissection to Improve... Laila Koujan

تجليات أخلاق العرب في الشعر الجاهلي

عمر شبلي

يصل إلى مرتبة اليقين، ومزاحمة المقدس في حضوره.

ولكن هل كان للشعرن وفي الشعر حضورٌ أخلاقي، حتى رفعه العرب إلى مستوى القداسة واليقين؟. نعم لأن الأخلاق الحميدة والسامية كانت موجودة في تركيبة الإنسان العربي، حتى وهو جائع في الصحراء قبل البعثة النبوية رغم قساوة الصحراء وصعوبة العيش فيها، ورغم الدم الذي كان يسيل فيها لاستمرار الحياة. وحين نقرأ الحديث الشريف: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» نقف بدقة عند كلمة «لأتمم»، الكلمة هنا تقول بوضوح لا تأويل فيه: إن الرسول بُعث ليتمم مكارم الأخلاق التي كانت موجودة قبله. إن وضوح معنى الحديث لا يترك مجالاً للشك في وجود مكارم الأخلاق في الإنسان العربي حتى قبل مجيء الرسل والمصلحين.

هذا الحضور جعل الشعر دستوراً، وكانت قوة هذا الدستور تنبع من قوة الشعر نفسه، ولهذا كانت المعلمات تحمل

الشعر ديوان العرب، وتاريخهم وملحمة استمرارهم في وجدان التاريخ العربي على امتداد عصوره، فهو إلى الآن يحتلُّ مساحات شاسعة في النفسية العربية رغم ضمور معالم كثيرة كانت متجذرة فيها، ولشدة حضور الشعر كاد يلغي ما عداه، واتخذت البطولة معناها من سطوعها في الشعر، لأنه لم يكن صحافة العرب وماليء دواوينهم فحسب، بل كانت له قداسة تصعد به إلى درجة يقينية التنزيل والإلهام، ولهذا نسبت الموهبة لقوى غيبية، فلكل شاعر شيطان يوحى له بالشعر، وقد أدرك القرآن أثر الشعر وإقامته في الروح العربية، حين نسبت قريش إعجاز القرآن إلى الشاعر، وما نَفِيَّ القرآن صفة الشاعر عن الرسول العربي إلا إثبات لحضور الشعر في وجدان الإنسان العربي، فقد جاء في القرآن الكريم /الآية ٦٩ من سورة ياسين: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ السُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾. كان تأثير الشعر في النفس العربية

صفة القداسة إلى درجة تعليقها على أستار الكعبة، أو لأنها عُلِّقت في الوجدان العربي، وحُفِظت، ورُدِّدت في دواوين العرب كالمقدس نفسه. وفي كلتا الحالتين كانت المعلقات صورة عن قوة تأثير الشعر وقيادته التي لم يستطع الإسلام نفسه نسخها. فما هو سبب خلود الشعر وصموده في وجه تحولات الزمن الكبرى؟.

في رأيي هناك أسباب عدة لخلود الشعر، وتأتي وجدانيته في الدرجة الأولى، وفيض النبع الوجداني في الذات العربية على مرّ عناصر تكوينها إنه يخاطب الوجدان خارج صلابة العقل، وهو لغة الروح التي هي أبعد من الكلمات بمعناها القاموسي الرتيب. وهو برق الإحساس ودهشته وقدرته على اختراق الحجب والإشارات الحمراء التي يضعها العقل على مداخل النفس المشحونة بالرؤى والأحاسيس الحادة. وتأتي روعته من كونه المعبر عن بداوة الحضارة والروح والمعتقد. إن للروح بداوة كما للحضارة، وبداوة الروح هي انسجام عميق بين الرائي والمرئي بين عري الذات وعري الطبيعة نفسها، وخارج الأصباغ والتبرج، وهجوم المادة على ممتلكات الروح. وكل لبوس هو في النهاية غطاء وحجاب، لقد كان عري الحضارة يقابله اختراق روعي مقدس، وهياكل بينها الراؤون الكبار، والشعر أبرز

معابدها كان. لقد آمن العرب في جاهليتهم بالشعر إلى درجة العبادة، وما آيات هذه العبادة إلا أخلاق العرب نفسها.

خلد الشعر إذن لأنه كتاب أخلاق العرب المقدس، لقد أحبوا الشعرَ حتى التولُّه، وخافوه حتى قدّموا له القرابين. لقد اشترى الفاروق سكوت الحطيئة خوفاً من شعره الذي «ينفذ ما لا تنفذ الإبر». فما هي الأخلاق العربية في مرحلة ما قبل الإسلام، أو ما يسمونه الجاهلية، وكيف تجلّت في الشعر الجاهلي الذي لم يكن جاهلياً بقيمه. وسوف أحاول ذكر بعض أخلاقيات العرب التي حفظها في أشعارهم لكي لا تضيع.

الشجاعة كانت خُلُقاً فطرياً في الذات العربية، وسبب ذلك أن صعوبة الحياة كانت تتطلب قوة لحمايتها، وكانت حقيقة الموت وحتميته واستحالة تجنبه تدعو عنتره ليقول:

بكرتُ تُخَوِّفني الحتوفُ كأنني
أصبحتُ عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهلٌ
لا بدُّ أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي
أني امرؤٌ سأموت إن لم أُقتل
وكان من العيب أن يموت الإنسان حتف
أنفه في تلك الصحراء، كان من الفخر أن يموت الإنسان قتلاً، لأن قتله كان دفاعاً عن مكرمة كما يرون. يقول السمّوع:

وما مات منا سيّد حتفَ أنفه
ولا طلّ منا حيثُ كان قتيلُ
تسيلُ على حدّ الضُّبابِ نفوسنا
وليستْ على غير الضُّبابِ تسيلُ
ونحن أناسٌ لا نرى القتلَ سبّةً
إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ

والكرم كان من محاسن الأخلاق،
باعتراف الرسول نفسه حين أطلق سراح
بنت حاتم الطائي الجاهلي. حمل الشعر
العربي فضيلة الكرم التي كانت من ألصق
الصفات بنفسية الإنسان العربي، وروعة
الكرم كانت تتجلى في صحراء قاحلة، يقل
فيها الطعام والماء، وفي حياة قاسية كهذه
نما الكرم وترعرع في نفوس لا تزال درجة
كرمها تذهل قارئ معنى كرمها. إن حاتم
الطائي كان يعد عبده بالحرية إذا جلب له
ضيّفًا في ليلة عاصفة، لا زاد فيها ولا
مأوى. وكان يرى أن المال يصبح مالاً
حقيقياً حين يتحول إلى مآثر:

أماويّ إن المالَ غادٍ ورائحُ
ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذكرُ
إن روعة الكرم تتجلى حين يكون «كثير
الرماد إذا ما شتا»، وكانت سعادة عروة بن
الورد المعروف بعروة الصعاليك تبلغ
أقصاها وهو يحدث ضيوفه على مأدبة
طعامه:
وأكثر ما يلدُّ به فؤادي
منادمة الضيوف على الطعام

وقصيدة الحطيئة المشهورة يعرفها
الناس جميعاً، وهي تحكي قصة بدوي جائع
هو وزوجته وأطفاله في صحراء قاحلة. لقد
أمضى هذا البدوي ثلاث ليالٍ بلا طعام،
وحين جاءه ضيفٌ، ولا طعام عنده، فكّر أن
يذبح ابنه ليدرأ عنه صفة البخل:

وطاوي ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مُرمِلِ
ببيداءٍ لم يعرفَ بها ساكنٌ رسماً
وأفرد في شِعْبِ عَجوزاً إزاءها
ثلاثةُ أشباحٍ تخالهُمُ بهما
حُفَاةٌ عُرَاةٌ ما اغتدوا خبزَ مُلّةٍ
ولا عرفوا للبرِّ مذ خُلِقوا طعاماً
رأى شبحاً وسطَ الظلامِ فراعهُ
فلما بدا ضيفاً تشمّرَ واهتماً
فقال: هيا ربّاهُ ضيفٌ ولا قري
بحقِّكَ لا تحرمهُ تاليلةُ اللحمِ
وقال ابنه لما رآه بحيرةٍ
أيا أبني اذبحني ويسرُ له طعاماً
فروى قليلاً ثم أحجم برهتهً
وإن هو لم يذبح فتاهُ فقد هما
لقد ارتبط الكرم بالإيثار عند العرب، أن
تطعم غيرك، وأنت جائع مأثرة عليا أقرها
القرآن في الإنسان العربي: «ويؤثرون
على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة». وكانت
الحمية في الجاهلي ترفعه عن
السؤال، لأنها من كرم حماية النفس من
السقوط، ومن جميل الشعر في هذا المجال
قول الشنفرى الجائع المتصعلك:

أُدِيمُ مِطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمِيئَهُ
وَأُضْرِبُ عَنْهُ الذُّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ
وَأُسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كِي لَا يَرَى لَهُ
عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مِتَطَوَّلُ

إنه يماطل الجوع ليصرف عنه ذلَّ
سؤاله، ويستفُّ التراب لكي لا يرى لأحدٍ
فضلاً عليه، فمن الكرم التسامي، والجوع
المقيم في نفس نبيلة يهبُّ لها خبراً من نوع
آخر، لا يوجد إلا حيث يوجد كرم الأخلاق.

وكان العرب يحملون غريزة الإيمان،
حتى وهم يتقربون إلى الله بأصنامهم
والتمسح بأركان الكعبة، «ولئن سألتهم من
خلق السماوات والأرض ليقولنَّ الله» ولعل
نضح أرواحهم كان طريقاً لظهور الإسلام
فيهم «الله أعلمُ حيث يجعلُ رسالته». لقد
وصل الإيمان بهم إلى مستوى قناعة وإيمان
زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي نَفُوسِكُمْ
لِيخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمُ
يُوَخِّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلُ فَيُنْقَمُ

وكان شعر أمية بن أبي الصلت يتنبأ
ببعثة نبي عربي يربط الإنسان بالسماء،
وكان يؤمن بالحنفية، ولكنه لم يؤمن ببعثة
الرسول محمد. كان يقول:

أَلَا نَبِيٌّ لَنَا مَنَا فَيُخْبِرُنَا
مَا بَعْدَ غَايَتِنَا مِنْ رَأْسِ مَجْرَانَا!

كان العربي في تلك العصور يؤمن
بالدفاع عن أرضه وعرضه، وكان يعتبر
صون المحارم والدفاع عنها أعلى من
الحياة نفسها، لقد كان زهير بن أبي سلمى
يدعو للذود عن الوطن بالقوة، وكان يسمي
الوطن حوضاً، وذلك لورود أنعام القوم
على مائه ضمناً لاستمرار الحياة، وبهذا
كان الوطن بهذا المعنى عند العربي في
العصر الجاهلي هو الإنسان نفسه، فإذا
تهدَّمَ حوضه تهدَّمَ هو، يقول زهير:

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ

يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

الظلم هنا هو الدفاع عن الوطن بمعنى

تأويلي، لأنه مرتبط عند زهير بالدفاع عن

الوطن، وقد تُستخدم اللفظة استخداماً

تأويلياً، كما في قوله تعالى في سورة

الأنفال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ

الْمَكْرِينُ﴾.

كانت حماية النساء والذود عنهن

الشرف الذي لا يمكن التخلي عنه، لأن

التخلي عن حماية النساء عند العربي تعني

التخلي عن الشرف والحياة نفسها، يقول

عمرو بن كلثوم في معلقته:

عَلَى آثَارِنَا بِيضٌ حَسَانٌ

نَحَازِرُ أَنْ تُقَسِّمَ أَوْ تَهُونَا

يَقْتُننَ جِيَادِنَا وَيَقْلَنَ لِسْتَمُ

بِعَوْلَتِنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

وقصته مع ملك المناذرة معروفة، عندما

أرادت أمُّ الملك عمرو بن هند إهانة أمه ليلي بنت المنهال. وما زلنا نذكر معركة ذي قار ودور المرأة فيها. وكان عنتره مملوءاً بالأسى حين سببت عبلة بنت مالك، وهو بعيد عنها:

**لهفي عليك إذا بقيت سبيّة
تدعين عنتر وهو عنك بعيد**

وكانت إغاثة الملهوف والدفاع عن المستجير من الأسباب التي ربط طرفه بن العبد حرصه على الحياة بها:

**وكري إذا نادى المضاف مُحَنَّباً
كسيدي الغضا ذي السورة المتورّد**

وكان العربي يأبى أن ينام على الضيم، ويرى أن سكوته عن الثأر والدفاع عن وجوده حذفٌ لمعنى أن يكون، أحد الشعراء عيرَ قومه حين قبلوا نياقاً دياتٍ لقتلاهم، فكأنهم يشربون دم قتلاهم الأحمر حين يشربون حليب النوق الأبيض:

**وإنّ الذي أصبحتم تشربونه
دمٌ غير أن اللون ليس بأحمر**

لقد تأثرت أخلاق العرب بقساوة الصحراء، إلا أن أخلاقهم ظلت متعلقة بالأسمى تنشده في ظروف حياتية صعبة. وحين يحافظ الإنسان على خلق قويم في ظروف صعبة يصبح هذا الخلق تراثاً وجزءاً من بنيته الروحية. يقول لبيد مبيناً حرص أهله على الأمانة بكل تجلياتها العالية:

**وإذا الأمانة قُسمت في معشر
أوفى بأوفر حظنا قسماً**

إن أمة تختزن في عناصر تكوينها هذه القيم العليا لهي أمة جديرة بالبقاء، لقد حملت في وجدانها وسلوكها هذه القيم في صحراء قاحلة لا ينبت فيها غير الجوع والظمأ.

إننا نستطيع أن نرث هذه القيم لو نبذنا وأبدنا مزارع الطائفية والمذهبية والاعتماد على غيرنا، ممخطئاً من يظن أن غيره يصنع مصيره، الأمم تجدد شبابها بقيمتها وأصالتها وانفتاحها على ثقافة إنسانية تغربلها الحياة، وتسقط منها ما يناقض إنسانية الإنسان.

نصر حامد أبو زيد بين تاريخية النص الديني وتأويله

د. ناصر عليق⁽¹⁾

مقدمة

بقيت إرهابات هؤلاء المفكرين تتأرجح بين هاوٍ ومُحترف، وبالتالي، لم تنسجم أفكارهم وتطلعاتهم ولم تتكامل في ما بينهم لتُشكّل نسقاً فكرياً أو مدرسة يُعتمد عليها في مُناظرة المدارس الأخرى بحجج وأدلة وبراهين؛ ذلك لأنهم ينطلقون من منابع فكرية مختلفة ويختلفون في الكفايات والأهداف وكذلك في المناهج والأدوات.

إنّ سيطرة فكرة تبني الاعتماد على الذات من دون مواكبة الحداثة والعصرنة خلقت مناخاً معادٍ للانفتاح والاجتهاد الفكري والديني، وبالتالي، أبعدت أدوات البحث المعرفي العقلاني في شتى مجالات المعرفة، وأسهمت في حضور جمود النقل على حيوية العقل وتفاعلت روح التقليد على روح الإبداع.

هذا النمط الثقافي والفكري يُميط اللثام عن وعي زائف للواقع المُعاش الذي يؤدي وظيفة أيديولوجية تتلبس قناع الدين باسم

برزت مؤشرات ومعطيات جديدة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كانت علة ظهور ثلة من الباحثين النهضويين الذين لم يرق لهم قراءة التراث الإسلامي والنص الديني بالطريقة والأسلوب الذي كان يمتاز بالرتابة والجمود، بل قدّموا قراءة مغايرة لجمود ساقهم إلى التقوقع والانعزال وبالتالي كانت قراءتهم تتماشى وتتفاعل وتتكامل مع مُتطلبات العصر والحداثة والإصلاح والتجديد في الفكر الديني.

تميّزت أفكارهم وازدانت بقراءة نقدية للذات والنص الديني من خلال تكثيف واعتماد المناهج الحديثة التي تواكب العصر بمختلف تجلياته المُتحرّرة من القيود والتي تُسهم إسهاماً فعالاً في تفعيل الحوار وقبول الآخر.

(1) أستاذ في قسم الفلسفة في الجامعة اللبنانية الفرع الخامس.

الدين ولمصالح اجتماعية وسياسية واقتصادية هادفة تخدم أصحاب المشروع من دون غيرهم، وبالتالي تفقد الحقيقة معناها والحكمة حضورها وتتحوّل إلى أزمة بنيوية في المجتمع تُساعد على إعدام العقل في حضوره الخلاق.

من هنا انطلق نصر حامد أبو زيد في بلورة منهج ونسق جديد في قراءة النص الديني عبر التاريخ من خلال قراءة علمية إنسانية، ليتكامل مع النمط العقلي المُبدع الذي يسعى إلى التنوير والعدالة الاجتماعية لفئة من الناس غلب عليها طابع الظلم وهي الأغلبية في المجتمع في مقابل الأقلية الظالمة.

وانطلاقاً من هذه المعطيات تصدّى نصر حامد أبو زيد لعناوين شتى لم تكن دينية فكرية فحسب بل تعدّت إلى نقد الفكر الإسلامي والسياسي وقارب تعتبر محرمة تتعلق ببنية النص الديني المقدّس المتمثّل بالنص القرآني والسنة النبوية الشريفة.

ومع طرحه لهذه الأفكار بقي نصر حامد أبو زيد يعتبر نفسه واحداً من تيار نهضوي مثقف طرح أفكاره في خمسينيات القرن الماضي الذي كان يضم طه حسين وأمين الخولي وغيرهما، وهو تيار أهم ما

يُميّزه بحسب أبو زيد «قراءته للنصوص الدينية طبقاً لآليات العقل الإنساني»^(١).

إن ما يُميّز نصر حامد أبو زيد من غيره من الباحثين هو تصدّيه لعناوين طالما كانت مُحَرّمة لأنّها تهرّز قُدسيّة النصّ الديني، وكذلك اعتماده المنهج التاريخي في قراءة النصوص وتطبيقه على مصادر التشريع الأول ألا وهي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بوصفهما مُنتجان ثقافيان ماديان، وبالتالي أزال عنهما أهمّ سماتهما وهي القُدسية.

من هنا لا بُدّ من طرح إشكالية هذا البحث والتي تُحاكي الفكر الحرّ والمتقدم والنهضوي الذي طرحه نصر حامد أبو زيد: فهل استطاع تكريس واقع جديد يواجه من خلاله الرتابة في قراءة النص الديني؟ وكيف قدّم مشروعه النقدي أمام جيل من المُنغلقين على ذواتهم لا يسعون نحو الحداثة والعصرنة والانفتاح على الآخر؟

وعليه، يعتبر نصر حامد أبو زيد، أن أول مهام المثقف والباحث إخضاع الفكر الديني - القديم منه والحديث - للدرس والتحليل بأسلوب ومنهج علميين، وذلك من أجل ما يُطلق عليه هو «تكوين وعي علمي بالتراث».

من هنا ينخرط نصر حامد أبو زيد في مشروع نقد الفكر الديني. فهو لا يفصل

(١) أبو زيد، نصر حامد، نقد الفكر الديني، لا ط، القاهرة، دار سينا للنشر، سنة ١٩٩٢، ص(٨).

بين مهامه الأكاديمية وهمومه السياسية والاجتماعية، فخطابه يطرح وعياً مُتميزاً، وهمومه المعرفية تتصل بهموم أكثر اتساعاً هي هموم الثقافة والوطن، فالأسئلة والافتراضات التي يطرحها الباحث، ليست سوى استجابة نوعية لهموم الوطن والمجتمع، ولهذا يقف نصر حامد أبو زيد إلى جانب من يُسميهم بقوى «التقدم والعقل والحرية» ضد قوى «الخرافة والأسطورة وقتل العقل».

مفهوم التاريخية في فكر نصر حامد أبو زيد:

لم يكن مفهوم التاريخية من المواضيع الحديثة التي بحثها المفكرون عبر التاريخ، إنما ضربت جذوره ربما إلى القرن السادس عشر، ويُعرّف «ألان تورين» مصطلح التاريخية «بالقدرة التي يتمتع بها كل مجتمع في إنتاج حقله الاجتماعي والثقافي والتاريخي الخاص به، ما سوف أدعوه بالتاريخية؛ هو إذاً الطبيعة الخاصة التي تتميز بها الأنظمة الاجتماعية التي تمتلك إمكانية الحركة والعقل على نفسها بالذات، وذلك بوساطة مجموعة من التوجهات الثقافية والاجتماعية»^(١).

إنّ تاريخية النص وبالخصوص النص القرآني انبعثت عربياً مع المفكر المصري

نصر حامد أبو زيد والتي قد اقتبسها من أفكار التاريخانية الغربية الموشحة بالأدوات (الهرمينوطيقية).

يعتمد مرتكز تاريخية النص الديني على أساس أنّ النص القرآني هو نصّ بشريّ كُتب بلغة بشرية، وبالتالي يجب التعاطي معه من منظور تاريخاني وهرمينوطيقي. وهذا ما نجده في كتابات ونصوص محمد أركون ونصر حامد أبو زيد وحسن حنفي ومحمد عابد الجابري.

إن فكرة تاريخية النص القرآني شرّعت الأبواب لكشف الغطاء القدسي عن النص المقدّس وبالتالي إبعاد مفهوم الوحي عن القرآن الكريم.

ومن وجهة نظر فإن خطاب التنوير في العالم الإسلامي لم يستطع اجتياز وكسر الحصار الذي فرضه الخطاب الديني الأصولي، ولم يتمكّن من التأسيس للأفاق المعرفية الجديدة، وعجز عن صياغة الوعي التاريخي والعلمي بالنصوص الدينية، وذلك بسبب تجاهل البعد التاريخي في القرآن، وعدم الالتفات إلى الجانب البشري والثقافي فيه. وللخروج من هذا المأزق والوصول إلى الوعي العلمي والتاريخي بالنصوص الدينية، يتعيّن علينا الانتقال إلى الجهة المقابلة للخطاب الديني الذي يعتبر الله هو

(١) أركون، محمد، الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ط١، بيروت، الدار البيضاء، سنة ١٩٨٨، ص(١١٦).

المُتَكَلِّم والناطق بالنصوص الدِّينية، ويمنح النص الدِّيني قداسة وروحانية، ويلبسه ثوبًا ميتافيزيقيًا.

يعتقد نصر حامد أبو زيد أن مفهوم التاريخية الذي اعتمده في مؤلفاته ولد غريبًا في مجتمع لم يتفاعل مع القراءة الحرة والخلاقة للنص الدِّيني فقال: «هناك من يُمارس مطابقة لما في الأذهان على ما في الأعيان» حيث يقول: «إننا نجد ما يُبرِّره بقدر تعلُّقه بذهنية العوام، لكن حيث توجد في عقول المثقفين والنُّخب من رجال الثقافة والإعلام، ومن المعلمين وأساتذة الجامعات، تصبح علامة على وجود أزمة عقلية خطيرة تنذر بكارثة. وحين تتجاوز الظاهرة حدود العامة والنُّخب وتصل إلى عقول المُتخصصين في مجال الفكر يكون ذلك دليلًا على وقوع الكارثة. وهو الحاصل في مجال الفكر الدِّيني وعند الكثيرين من علمائه المُتخصصين»^(١).

يبدو أن أبا زيد اعتمد الموقف التاريخي مُقارِبًا فيه علاقة الفكر بالواقع وعلاقة المعرفة بالأطر الاجتماعية وهذا ما أكده بأنه «مفهوم لا يعني دائمًا الزمانية، بل يعني أننا ملزمون باستعادة السياق

التَّاريخي لنزول القرآن من أجل أن نتفهم مستويات المعنى وآفاق الدلالة، فنستطيع التميُّز في مجال الأحكام والتشريعات بين مستويات لم ينتبه إليها أسلافنا»^(٢).

إن ما قصده أبو زيد بتاريخية النص القرآني يندرج في:

– إن النص نزل في التَّاريخ بمعنى أنه تشكل في واقعه وزمانه، وبالتالي خضع لمُتغيرات ومُتطلبات وظروف تفاعل معها على مدار أكثر من عقدين من الزمن، وهذا التفاعل كان تفاعلًا حرًا مُفتحًا على جوانب الحياة كلها.

– إن النص ينتمي لمكانه التاريخي وبيئته الاجتماعية، ومن الطَّبِيعي أن يحمل ملامحها وخصائصها، بمعنى أنه محكوم بالثقافة والتقاليد والأعراف الاجتماعية والثقافية والسياسية التي يحملها هذا المجتمع ويشير أبو زيد إلى «أن كل النصوص تستمد مرجعيتها من الثقافة التي تنتمي إليها»^(٣) وأنها «ليست نصوصًا مفارقة لبنية الثقافة التي شكَّلت في إطارها بأية حال من الأحوال، والمصدر الإلهي لتلك النصوص لا يلغي إطلاقًا حقيقة كونها نصوصًا لغوية بكل ما تعنيه اللغة من

(١) أبو زيد، نصر حامد، التفكير في زمن التكفير، ط١، القاهرة، دار سينا للنشر، سنة ١٩٩٥، ص(١٩٩).

(٢) أبو زيد، نصر حامد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، لاط، لات، ص(١١).

(٣) أبو زيد، نصر حامد، (النص، السلطة، الحقيقة)، ط٢، بيروت، المركز العربي الثقافي، سنة ١٩٩٧، ص(٨).

ارتباط بالزمان والمكان التاريخي والاجتماعي»^(١).

ويؤكد أبو زيد أن عدم حضور النهضة العربية والإسلامية بل وفشلها - إن حضرت - يعود إلى غياب الوعي العلمي للذات وإبعاد المفهوم العقلي عن مُتطلبات الواقع المُتجدد وبصيرورة تاريخية جامعة. إذ لا يُمكن فصل الوعي الحاضر كضابطة عقلية عن الثقافة والفكر، بالإضافة إلى إهدار التّاريخية وإبعادها عن السياق الثقافي العام.

هذا التّراث الماضي هو الذي اختزل العقل العربي وسلبه إمكانية التّصوّر والتقدّم وأبعده كل البُعد عن مسار يرتقي به العقل بالإنسانية إلى مراحل تسبق عصرها، لتتألق في رزمة عناوين تستطيع من خلالها إثبات حضورها أمام الانحطاط الفكري والجهل المُقتنع.

والخطاب الديني، ومنذ عصر التدوين وضع نفسه ضمن دوائر تفكيرية خاصة تُحيط به، وتحميه من كل الجهات من خلال القداسة، والسلطة لذلك بدأ أبو زيد هجومه على الخطاب الديني التراثي ابتداء من المُسلمات التي اعتبرها الخطاب الديني قواعد شرعية، فقام بنسفها وإلغاء القداسة عنها مُعتبرها شأنًا عاديًا لا تحميه لا

قداسة، ولا اعتبارها نصوصًا إلهية، مُركّزًا في البداية على قضية خلق القرآن. ويتساءل أبو زيد ما هو المانع أن نضع القرآن أمام النقد والتحليل وفق المناهج العلمية الغربية الحديثة؟.

من هنا اعتبر أبو زيد القرآن خطابًا إلهيًا ولا يمنع ذلك إمكانية التحليل، وبالتالي فهو نص تاريخي له وجوده العقلي في الزمان والمكان، لذلك يجب أن نفهم ونعيش ونتفاعل مع القرآن بطريقة مُغايرة ومحايدة ومُجردة عن الموروث القبلي والتقليدي، لأن الخطاب الديني المعاصر لم يستطع الخروج من فكرة ترسيخ الماضي في الحاضر كما هو، وكذلك لم يستطع استيعاب الحاضر كما هو وبقي عاجزًا عن التعبير عن مشاكله، وبالتالي فإن تغيير الواقع حسب أبي زيد يعود لتغيير موقفنا من التراث، وإعادة النظر به وطريقة فهمنا للقرآن.

وعلى الرغم من تأكيد نصر حامد أبو زيد على تاريخية النصّ القرآنيّ فإنّه لا يغفل عن تاريخية فهم القرآن، ومن هنا فإنّه يصف القرآن بالتحرك وعدم الثبات، وإنّ هذا التغيّر من جهةٍ وليد تاريخية اللغة، والمجتمع وامتزاج اللغة بالثقافة والمجتمع «تاريخية النص»، كما هو من جهةٍ أخرى رهناً ببشرية تفسير القرآن. فما أن يتصدى

(١) م. ن. ، ص. (٩٢).

الإنسان - حتّى إذا كان نبياً - لتفسير القرآن فإنّ هذا يودّي إلى قابليّة الفهم والتفسير للتغيّر. من هنا نجد أبا زيد يقول: «إنّ القرآن نصّ ديني ثابت من حيث منطوقه، لكنّه من حيث يتعرّض له العقل الإنسانيّ - ويصبح «مفهوماً» - يفقد صفة الثبات، إنّه يتحرّك وتتعدّد دلالاته. إنّ الثبات من صفات المطلق والمقدّس، أمّا الإنسانيّ فهو نسبيّ متغيّر»^(١).

وانطلاقاً من هذا الموقف قام أبو زيد بصياغة رؤية نموذجية متقدمة فرّق فيها بين الخطاب الديني والدين، فالخطاب الديني عبارة عن مجموعة نصوص يُفسّر من خلالها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتُمثّل هذه النصوص البوصلة الأساسية في فهم النص الذاتي. أما الدين من وجهة نظره فهو نصّ مقدّس ثابت تاريخياً.

يرفض أبو زيد النظرة السكونية الجامدة والمتوارثة، ويدعو إلى صياغة الفكر العربي عامة، انطلاقاً من خلخلة البنى المعرفية المتأصلة في الثقافة العربية، وبالتالي يحاول أن يصوغ التراث خصوصاً الديني صياغة جديدة باستخدام الآليات والمناهج العلمية - بطبيعة الحال - الغربية، هذه الصياغة إنما كانت مُستندة إلى أفكار عصر النهضة الغربي خصوصاً فكرة «العلمانية»،

وقد تحولت هذه الفكرة عند أبي زيد إلى رغبة جامحة في إلغاء القداسة عن التراث، وفصله كمعنى فكري إنساني عن القرآن.

وبعبارة أخرى أدى الاندماج بين الدين والتراث إلى نزع القداسة عن التراث، وتحويله إلى منظرية التفاعل المُستمر إلى نظرية شرح الشرح، وبالتالي ساد التكرار والترتيب والشرح المُهيمن بحواشيه على النصوص ما أدى إلى ركود الثقافة التي عُزّزت في الركود العربي الذي ينتج هذه الثقافة.

مفهوم التأويل عند نصر حامد أبو زيد:

لم يجتمع الدارسون على موقف وتصوّر جامع عن التأويل والتفسير في القرآن الكريم، بل سار كل فريق مُستدلاً ومؤكدًا وجهة نظره، وموقفه من خارج القرآن وخاصة من الحديث النبوي الشريف، وهكذا انقسم الدارسون أو شارحو القرآن إلى مُفسّر ورافض للتأويل وإلى مؤول لا يرى في التفسير علاجاً فعالاً، وطريقاً نموذجياً لفهم القرآن فهماً علمياً.

لكن اعتبر بعض الباحثين التفسير والتأويل، إما من المترادفات كما جاء في لسان العرب: «وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن التأويل فقال: «التأويل والمعنى

(١) أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، ط١، بيروت، دار المنتخب العربي، سنة ١٩٩٢، ص(٩٩).

والتفسير واحد»^(١)، أو أحدهما مُتضمّن في الآخر، فذكر الطوفي أقوالاً في تعريف التفسير والتأويل منها: «إنهما مُترادفان، وقيل التأويل أعم لجريانه في الكلام وغيره، وقال عقب ذلك: ويجوز استعمال أحدهما موضع الآخر مجازاً»^(٢).

وإلى هذا الرأي الأخير ذهب نصر حامد أبو زيد فقال: «وعلى ذلك يكون التفسير جزءاً من عملية التأويل، وتكون العلاقة بينهما علاقة الخاص بالعام من جهة أو علاقة النقل بالاجتهاد من جهة أخرى، وهي العلاقة التي يُعبّر عنها القدماء بأسماء الرواية والدراسة»^(٣).

هكذا آمن أبو زيد بوجود نواة صلبة (التأويل)، هي التي تحاكي المفاهيم القرآنية بطريقة، وأسلوب مرّن تجعل من بنية النص الديني بنية مطواعة تتعايش، وتتلاءم مع مختلف الأزمنة والأمكنة، وبالتالي لا يُمكن لهذه النواة إلا التفاعل الإيجابي بُغية إنتاج علاقة جدلية مع الواقع الذي يتشكّل منه النص.

من هذه الحالة تتولّد نماذج قوامها النص الديني، والواقع تسهم في تجلّي التأويلات

النصية المُتعددة فيقول: «إذا كانت الحضارة تتركز حول نص بعينه يُمثّل أحد محاورها الأساسية، فلا شك أن التأويل وهو الوجه الآخر للنص - يُمثّل آلية هامة من آليات الثقافة والحضارة في إنتاج المعرفة»^(٤).

وفي سياق تبيان المعنى الحديث، والمعاصر لمصطلح «التأويل» وذلك في إطار الفكر العربي الإسلامي، حيث يتبيّن أن كثيراً من مُفكرّي عصر النهضة العربية الذين آمنوا بالتأويل كمبدأ، لم يتجرؤوا على القول بتأويل النص القرآني، إنما حصرُوا ذلك بالنصوص الإنسانية، إلا أن قلة منهم أباحت تأويل النص الديني (القرآني) كعلي عبد الرزاق وطه حسين؛ ونصر حامد أبو زيد وحسن حنفي وسواهم.

فهذا حسن حنفي يُعد أن معنى النص قد «يتغيّر حسب الأصول النفسية للقارئ الواحد، وحسب الفروق بين الأفراد وتبعاً للبيئات والحضارات والعصور. وقد يأخذ النص الواحد معانٍ مختلفة طبقاً لمراحل العمر، وطبقاً للتجارب المكتسبة حتى ليبدو النص مساوفاً وتابعاً لتطور الفرد في مراحل عمره، وكأن أعماق الشعور تطابق تطابقاً موضوعياً مستويات النص»^(٥).

(١) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار المعارف، لاط، لا ت، ج ١، ص (١٧٢).

(٢) الإكسيري في علم التفسير، تحقيق عبد القادر حسين، لاط، القاهرة، مكتبة الأدب، لا ت، ص (٢).

(٣) أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، ط ٢، بيروت، المركز الثقافي العربي، سنة ١٩٩٤، ص (٢٣٣).

(٤) أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، مرجع مذكور، ص (٩١).

(٥) حنفي، حسن، قراءة النص، ملف الهرمينوطيقا والتأويل، مجلة ألف، سنة ١٩٨٨، ص (١٧).

استطاعت أن تخترق باسم النص صفوف قواعد الخصوم»^(٢).

هذه الحيلة التي تُمثّل دهاءً بعيداً عن الدين وحتى عن ميثاق الحروب، نقلت المعركة من مجالها العسكري والسياسي إلى المجال الديني باستعماله وسيلة للوصول إلى السلطة، فإن مبدأ التحكيم هذا بطبيعة الحال أدى إلى إلغاء العقل، وتحويله إلى مجرد تابع يقتات بالنصوص ويلوذ بها. هذه الخطوة مهّدت الطريق إلى القضاء على فرقة المعتزلة من خلال الاستعانة باستعمال النص ومُحاصرة، بل ومحاولة تدمير العقل العربي - الإسلامي وحصره في دوائر ضيقة حتى جاء أبو حامد الغزالي الذي سدّد الضربة القاضية للعقل العربي - الإسلامي.

ويؤكد أبو زيد أن الخطاب الديني السلفي الذي كرّسه الغزالي مع فرقة الأشاعرة في استبعادهم العقل لصالح النقل، يتعارض مع الأسس الإسلامية الصحيحة لأنه بطبيعة الحال يتعارض مع جوهر العقل الذي من خلاله نقف على حقيقة الدين والفلسفة فقال: «وهكذا ينتهي الخطاب السلفي إلى تعارض مع الإسلام حين يتعارض مع أساسياته «العقل»^(٣).

من هنا، يرمي مشروع أبو زيد إلى نقد التراث وتحليله مع التركيز على النص القرآني بشكل خاص بوصفه محور الثقافة الإسلامية فيقول: «القرآن نص لغوي يمكن أن نصفه بأنه يُمثّل في تاريخ الثقافة العربية نصاً محورياً»^(١)، كما يرمي إلى تقديم تأويل علمي نموذجي، وموضوعي للتراث يُحاكي فيه الواقع بكل تفاصيله وحيثياته، ويقوم على تفكيك وتشريح وتحليل الخطاب الديني على أسس منهجية جديدة لم تعدها المنظومة الفكرية من قبل.

لم يترك أبو زيد مكاناً ولا مجالاً إلا قدّم نقداً للتراث الديني لأنه يُعد وقوفه على مثل هذه الإبداعات هو واجب علمي يلزمه باحث جريء، ومُتجرّد لا يأبه للسلطة الدينية أو المدنية الحاكمة. وأبرز مسألة وقف في وجهها هي محاولات إلغاء العقل لصالح النقل، ويشير أبو زيد إلى الحيلة التي لجأ إليها معاوية بن أبي سفيان في معركة صفين في موضوع رفع المصاحف قائلاً: «وتعود أولى محاولات إلغاء العقل لحساب النص إلى حادثته رفع المصاحف على أسنّة السيوف، والدعاء إلى «تحكيم كتاب الله» من جانب الأمويين في موقعة «صفين» ولا خلاف على أنها كانت «حيلة» أيديولوجية

(١) أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، مرجع مذکور، ص(٩).

(٢) أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مرجع مذکور، ص(٤٢).

(٣) أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مرجع مذکور، ص(٤٣).

من هنا، أبو زيد أن المشكلة الكبرى بين النصِّ الديني والعقل لا يُمكن أن يُساوم عليها وفق معايير مرنة حيناً وصارمة حيناً، آخر فقال: «إن أقصى ما يكون أن يقدمه الخطاب السلفي للفكر العقلاني التجديدي هو اعترافه أن النصِّ الديني قابل لتجديد مفهومه زماناً ومكاناً، لكنه يحصر ذلك في حدود النصوص التشريعية، ثم يعود ليسحب اعترافه هذا حين يُعلن القاعدة الفقهية الشهيرة «لا اجتهاد في ما فيه نص» لأن النصوص بينة في ذاتها ناطقة على نفسها وهي لا تحتاج إلى تأويل»^(١).

يُمكننا القول إنه إذا كان الخطاب الديني السلفي يرفع هذه القاعدة الشهيرة في وجه العقل المُجتهد والمُنفتح، والمُنثور والمُتجرد فإنه بالحقيقة يقوم بعملية خداع إيديولوجي مأكرة على طريقة ما قام به معاوية في رفع المصاحف على رؤوس الرماح في صفين، لأن هذا الخطاب قدم رؤية شمولية من خلال النصِّ الديني لا تتماشى مع الحداثة.

ومن هذا المُنتلق يُصبح الاجتهاد مُباحاً بل مطلوباً، وضرورة علمية بامتياز على قاعدة العقل التأويلي الذي يجعل من النصِّ الديني ينطق من دون أية محاذير ويُحاكي

المكان والزمان من خلال صيرورة اجتماعية مُستمرة لا تقف عند حدود المُطلق، بل تُخضع كل النصوص إلى المساءلة والتحقيق، وهذا ما أشار إليه الطبري قائلاً: «النصِّ الديني صالح لكل مكان وزمان، فهذا علي بن أبي طالب عليه السلام يؤكد أن ليس للقرآن أن ينطق عن نفسه، إنما ينطق به الرجال، القرآن هو خط مسطور بين دفتين، لا ينطق، إنما يُنطق به الرجال»^(٢)، ويرى أبو زيد أن مدخل التأويل العلمي الموضوعي للنصِّ الديني هو الدراسة الأدبية التي من خلالها يتحقق الوعي العلمي للنص الذي يجتاز التوجه الإيديولوجي المُسيطر على ثقافتنا.

بالاستناد إلى ما تقدّم يمكننا القول إنه بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب المُحدّد، والدقيق يبني أبو زيد منهجه التأويلي الخلاق وكأنه يُغرّد خارج سربه، هذا المنهج الذي فاجأ العامة والخاصة والنخب والشرائح الاجتماعية كافة حيث بات اسمه يتردد تحت كل العناوين في المسجد والندوات الفكرية، ومنابر السلطة وحلقات التكفير ما أدخله في حلقة صراع، وبالتأكيد، ومع هكذا مفهوم مُغلق وغير مُنثور سيتهم بالتكفير وإهدار دمه.

(١) أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مرجع مذكور، ص(٥٧).

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، لا ط، مصر، دار المعارف، سنة ١٩٦٣، ج٥، ص(٦٦).

هذه النقلة النوعية في المنهج ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإنجازات اللغوية التي تجمع بين السيموطيقا، والهرمينوطيقا في شبكة علائقية من المفاهيم التي تربط بين القارئ والمقروء في فعل القراءة، هذه الطريقة ترى أن النص الديني ليس في الحقيقة سوى نص لغوي، حتى لو كان مؤلفاً من آيات القرآن، وهذا ما أشار إليه أبو زيد قائلًا: «إن النصوص الدينية هي نصوص لغوية شأنها شأن أي نصوص أخرى في الثقافة، وإن أصلها الإلهي لا يعني أنها في درسها وتحليلها تحتاج لمنهجيات ذات طبيعة خاصة تتناسب مع طبيعتها الإلهية الخاصة»^(١).

إن البحث المُستمر عن مناهج دراسة النص القرآني، والعمل على تطويره بما يتماشى مع العصر هو ضرورة مُلحة من أجل إبداع آفاق جديدة تتجاوز بموجبها كل القراءات السابقة التي باتت باهتة ومكررة ولكن ليس على مبدأ القطيعة مع الماضي إنما على مبدأ التفاعل الإيجابي مع إضاءات الماضي المحدد بالشروط التاريخية والزمنية، ولأن النص القرآني نزل ليكون عالمياً، وخاتماً للرسالات السماوية يجب أن لا يتوقف عن إنتاج الدلالة في كل زمان ومكان.

من هنا تأخذ القراءة التأويلية المعاصرة عند نصر حامد أبو زيد مشروعيتها وهي نفس المشروع التي استخدمها المعتزلة في تأويل نصوص القرآن، طبقاً لمفهوم العقل، وهي أيضاً نفس المشروع التي استخدمها ابن رشد مُقدِّماً بذلك العقل على النقل، وإن كانت هذه العملية التأويلية عند نصر حامد أبو زيد قد استفادت من مُنجزات الدراسات الألسنية الحديثة، ومناهج النقد الأدبي المعاصرة. فمما لا شك فيه أن التأويل لازمة من لوازم اللغة كما يُصرِّح ابن عربي: «فما في الكون كلام لا يتأوَّل.. فمن التأويل ما يكون خطأ عن مُراد المُتكلِّم وإن كان التأويل إصابة في كل وجه، سواء أخطأ مراد المتكلم أو أصاب، فما من أمر إلا ويقبل التَّعبير عنه ولا يلزم في ذلك فهو السامع الذي لا يفهم ذلك الاصطلاح ولا تلك العبارة»^(٢)، ونبقى في إطار المشروع التأويلية الخاضعة لبنية النص القرآني فإننا نرى نصر حامد أبو زيد يُصرِّح: «إن تعددية الفهم والتأويل ليست تعددية مُضافة إلى النص، بل هي تعددية كامنة في بنيته إلى حد كبير»^(٣).

فعلى هذا الأساس يُمكننا التأكيد أنَّ النصَّ الديني المُتمثَّل بالقرآن الكريم يحتوي على كل الحقيقة المطلقة والفهم النسبي في

(١) أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مرجع مذکور، ص(١٣٨).

(٢) ابن عربي، الفتوحات المكية، لا ط، بيروت، دار صادر، لا ت، ص(٤٥٣ - ٤٥٤).

(٣) أبو زيد، نصر حامد، (النص - الحقيقة)، ط٢، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧، ص ١١١.

آن معاً، وبما أن هذا النص يخاطب البشرية جمعاء حتى يوم القيامة، يُخاطب فيه الغني والفقير، العالم والجاهل، الكبير والصغير، فهذا يعني أننا مخاطبون به خطاباً مباشراً بالقدر نفسه الذي خوطب به السلف، وكذلك بما سيتخاطب به الأجيال القادمة.

من هنا فإن القراءات التي حصلت في الماضي كانت بطبيعة الحال تفاعلاً أولياً مع هذا النص، وفقاً للأرضية المعرفية والثقافية لكل جيل بحسب المستوى الفكري والثقافي لهذا الجيل، وبالتالي، أصبحت تلك القراءات أو بعضها على الأقل تراثاً لنا وكما ستصبح في ما بعد تراثاً للذين سيأتون من بعدنا. لذلك لا يُمكننا التسليم لكل الموروث من دون عرضه على محكمة العقل حتى نطرد الدخيل من الأفكار الملوثة للعقول، ونبقي على الأفكار الرائدة في مجال التجديد والإبداع.

هذه القراءة لا تتوقف، تبدأ من الحاضر الراهن وتنطلق إلى الماضي، والتراث بأدوات منهجية علمية سليمة ثم تعود، وترتد إلى الحاضر كتغذية راجعة في حركة لا تهدأ ولا يقر لها قرار، وهذا ما يؤكده أبو زيد قائلاً: «إنها الحركة التي تؤكد الحياة وتنفي سكوت الموت إنها حركة الوجود والمعرفة في نفس الوقت»^(١).

بناءً عليه، فإن فعل القراءة يبدو أمراً غير بسيط، إذ يفرض نفسه كعملية مُعقّدة، ومُرَكِّبة يستلزم إنجازها جهداً كبيراً في تحديد الأولويات للعبور إلى المبتغى في مساحة تشتبه فيها القضايا، والنصوص والمُتون على القارئ الذي وضع نفسه أمام تحديات مأزق عدم الاعتراف بالتحوّل الطبيعي للثقافة، بل للحضارة الإنسانية نحو غدٍ أفضل وواعد ومُميِّز.

لذلك اتجه أبو زيد نحو النص القرآني من زاوية، باعتباره، مركز إبداع التراث. مُعتمداً على سيل عارم من الثقافة الحديثة التي طرقت كل أبواب المعرفة إلى أن وصلت إلى نظرية تأويل النصوص التي تتمحور، وتهتم بأليات الشرح والتحليل والتقدير السليم.

لذا، فإن الاستخدام القرآني البنوي لفعل التأويل، على الرغم من تنوعه، أكسبه دلالة واضحة جعلت منه حركة ذهنية لإدراك الظواهر. فالنص القرآني هو نص لغوي ثقافي، في ما له من تراكيب وبُنى ودلالات مرتبطة بنصوص أخرى، ولما له من صلات مع ثقافة العرب وواقعهم المُجتمعي، وبما له من هذا وذاك فإنه لا يُمكن أن يُفهم إلا بالتأويل. لأن ألوهية المصدر القرآني لا تنفي الارتباط بين النص

(١) أبو زيد، نصر حامد، إشكاليات وآليات التأويل، ٣، بيروت، المركز الثقافي العربي، سنة ١٩٩٤، ص(٩).

لا نهاية وفقاً لتجدد هذا الواقع التاريخي الذي يُحاكي الحاضر، والمستقبل كما حاكي الماضي وهذا ما يطلق عليه أبو زيد «التعدّد التأويلي».

وبناءً على هذه التعددية التأويلية؛ فإن إمكانية إطلاق العنان للمعنى في النص القرآني تُصبح وارداً، أي أن المعنى يُمكن له أن يستوعب الزمن اللا متناهي، فيعود الحاضر ليتصل بالماضي من زاوية تربط الفكر الاجتماعي المعرفي المعاصر بما ينطق به الوعي التراثي المُتحرك.

فالنص الديني بما يُمثله في بنيته وتراثه التأويلي على علاقة وثيقة بفكر القارئ الذي يسعى دائماً إلى التماهي في عمق النص، ويتفاعل مع أفقه ومستواه، وبالتالي تصبح قراءة النص قراءة تأويلية وبمثابة الوجه الآخر للقارئ، ولظاهر النص التي تمثل آلية من آليات إنتاج المعرفة حيث لا يُمكن اعتبار النص صالحاً لكل زمان ومكان ما لم يُصبح مُنتجاً ثقافياً، يُمكن التحرك بمحتوياته من خلال اللغة.

من هنا أضحى النص الديني يُستقرأ من جوانب مُتعددة ومن مدارس وثقافات متعددة تتداخل فيه العديد من العوامل الثقافية منها والتربوية والدينية، والعلمية والمنطقية الذاتية...

والواقع التاريخي، وهو ما يلاحظ بوضوح في «أن النصوص دينية كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة والمصدر الإلهي للنصوص الدينية لا يخرجها عن هذه القوانين لأنها تأنسنت منذ تجسدت في التاريخ واللغة، وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي مُحدّد. إنها محكومة بجدلية الثبات والتغير، فالنصوص ثابتة في المنطوق مُتحركة مُتغيرة في المفهوم»^(١).

من هنا نجد أن كل عملية تهميش لجدلية العلاقة بين النص من جهة، وبين زمانه ومكانه من جهة أخرى تفرض انفصاماً، وتباعداً بين المُتلقي حيث هو المحور الذي يُخاطبه الله عز وجل عبر النص القرآني.

وكان نصر حامد أبو زيد يطرح فكرة نقل النص القرآني من أطره الزمانية البعيدة إلى الحاضر الواعي المُتفاعل مع المُستقبل، وبالتالي لا يُمكن لنا العودة إلى النص الديني لا سيما القرآني إلى مراحل النزول بل علينا أن نستعمل النص الديني في حياتنا المعاشة، دون العودة إلى الوراثة.

إن انقطاع الوحي بموت الرسول (ص) لا يعني ولا يُغيّر من طبيعة العلاقة بين النص والواقع التاريخي، بل إن فهمنا لمعنى النص يتجدد وباستمرار في حيوات إلى ما

(١) أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مرجع مذكور، ص(٥٨).

وعلى سبيل المثال تعتبر القراءة المُعتزلية نفسها القراءة الدينية الحقيقية للنص الديني التي وباللا وعي الثوري التجديدي انحاز إليها نصر حامد أبو زيد معلناً سلطة العقل على ما عداه من أطر المعرفة، وبالتالي لم يتجاوب مع تحليل الأشعري للنص الذي حاربه مروراً بالغزالي وصولاً إلى النهضويين في القرن التاسع عشر وما بعده؛ الذين اعتمدوا على التراث وحده في شرح الشرح، والدخول في سلسلة مُكررة لا تُقدّم خطوة معرفية إلى الأمام.

فلا يأنس أبو زيد لأي تصوّر بعيداً عن العقل لا يتفق مع الفهم العلمي للظاهرة، وبالتالي يرفض التفسير الأسطوري، ويدعو إلى فهم وتفسير موضوعي مدعم بالقوانين العلمية.

وهنا أيضاً يُقدّم أبو زيد اجتهاداً اجتماعياً تقدمياً عقلانياً ومتنوراً في ما خص المرأة، فهو يرى، أن كثيراً مما جاء في القرآن حولها أتى على خلفية واقع عرفي سائد اضطر النص القرآني إلى التعامل معه من موقف تقدّمي وتحرّري إلى حد كبير. ويدخل في هذا، مسألة الميراث والشهادة والزواج والطلاق والحجاب، ومسألة تعدد الزوجات وكل المسائل الأخرى المُتعلقة بالمرأة. ففي قضية تعدد

الزوجات مثلاً يشير أبو زيد إلى «أن هذا التعدد قبل الإسلام كان بلا حدود، فأتى الإسلام ليختصر هذا التعدد بأربعة، وقد وضعت لهذا الرقم «أربعة» شروط تجعل من المُستحيل تحقيقها، وأن النص القرآني هو أول نص في اللغة العربية يخاطب الرجل كما يخاطب المرأة (القانتين والقانتات... المؤمنين والمؤمنات.. التائبين والتائبات...) فعلى المستوى اللغوي هناك مساواة بين الجنسين، إلا أن الفقهاء تأثروا بما كان قبل الإسلام، فحملوا حواء الخطيئة التي حملتها إياها التوراة حين أنزلت مع آدم من الجنة إلى الأرض. في حين أن القرآن يُحمّل آدم المسؤولية عن ذلك»^(١).

هذا البُعد الاجتماعي- السياسي للمنهج، هو الذي جعل نصر حامد أبو زيد يتعامل مع «أسباب النزول» بوصفها السياق الاجتماعي والسياسي للآيات القرآنية. هذا السياق الذي يُنتج «إسلاماً تأويلياً» يُحقّق مصلحة الأمة، وأحلامها المشروعة عبر نشر ثقافة تنويرية قائمة على تثبيت العدل الاجتماعي للأغلبية المقهورة.

هذه القراءة التجديدية المعاصرة والتي تصبّ دائماً في دائرة الحركة العقلانية النقدية، وضعها صاحبها (نصر حامد أبو زيد) في إطار المواجهة مع التيار التقليدي

(١) انظر: أبو زيد، صحيفة الوطن، بتاريخ ٢١/٦/١٩٩٩.

جزرياً مع المفهوم المُستقر في الثقافة من أن دلالة النص تتجاوز حدود الزمان والمكان»^(١).

لم يترك نصر حامد أبو زيد الذين يستغلون، ويستخدمون الدين كغطاء في خدمة مصالحهم الشخصية في شأنهم بل حمل عليهم في مُختلف كتاباته، وعمل على فضحهم وعدّهم يستعملون الدين دفاعاً عن أيديولوجياتهم لأن سلطة النص ظاهرة وموجودة في الحضارات الإنسانية كافة، حيث يُصار دائماً إلى توظيف النص الديني واستعماله، وأدلجته وقراءته قراءة ذاتية أيديولوجية.

من هنا كان تمييزه بين الظاهرة القرآنية، والظاهرة الإسلامية التي معها كان يُمكن القول إن قراءات الفرق والمذاهب الإسلامية لا تخرج عن هذا المعنى. حيث أخذت كل فرقة تُسقط على النص قراءتها الخاصة. ذلك أنّ الخلافات الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية بين مُختلف الأفرقاء وعلى مدى تاريخ الدولة الإسلامية كان يتم التعبير عنها من خلال لغة دينية ذات طبيعة أيديولوجية، حيث كان يتم استنطاق النص بما يؤيد توجهات ومصالح كل فريق.

وعليه، فإن تاريخ الفكر الإسلامي،

السلفي المُثقل بأيديولوجيا التبعية للماضي. هذه الأيديولوجيا التي تقوم على مبدأ فصل النص عن واقعه بغية إقامة نص مُطلق على واقع مُطلق. هذا الفهم الأحادي الجانب للتراث يرتبط بأدوات معرفية لها مُسوغاتها التاريخية، وهي مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالذهنية الدفاعية عن هوية الأمة التي تبدو لصحابها مُهدّدة بالضياع والتشتت. وإن مثل هذه المُسوغات التي تفرض على الثقافة قراءة أحادية مُغلقة للنص وللهوية معاً اكتسبت أصحابها قدسية من غير المسموح لأي مُتنور أن يناقشها. وقد تثبت مشروعيتها عندما انتصر الفكر الأشعري على الفكر المُعتزلي انتصاراً سياسياً وعقائدياً، فانحسر التيار المعروف بتيار «أهل الرأي» لصالح التيار المعروف بتيار «أهل الحديث».

يقول نصر حامد أبو زيد: «عن التفسير الصحيح - عند من يُطلقون على أنفسهم اسم «أهل السنّة» - قديماً وحديثاً - هو التفسير الذي يعتمد على سلطة القدماء... والتمسك بهذا التفسير، بوصفه التفسير الوحيد الصحيح استناداً إلى سلطة القدماء، يؤدي إلى ربط دلالة النص بالأفق العقلي، والإطار الثقافي لعصر الجيل الأول من المسلمين. وهذا الربط يتعارض تعارضاً

(١) أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، ط ٢، بيروت، المركز الثقافي العربي، سنة ١٩٩٤، ص (٢٢٢-٢٢١).

وتجنّب الإعادة والتكرار. لذلك، ندرك في القراءة التأويلية المعاصرة، وأنه لا وجود للسود ولا للقيود الفاصلة، كما ندرك أهمية عبور المسافات وانطواء الزمن. وأهم ما في القراءة التأويلية المعاصرة هو استحضار المحذوف وهذا هو مدار التأويل. حيث يكمن خلف الظاهر القاطع الذي يجب البحث عنه في الفراغ الخلاق أو في اللا وجود أو في المسكوت عنه حيث هو لا يقل أهمية بأية حال عما ظهر وبان في النص. فهو عنصر أساسي من عناصر الثقافة الدينية والإنسانية حيث يتضح في كل مرة وجه آخر للحقيقة والوجود.

وهكذا يُمكن القول إن القراءة التأويلية المعاصرة، تمتلك نظرية لها مشروعيتها، تلك النظرية التي تعتمد على مبدأ الاستفادة من «منجزات» الدراسات اللسانية الحديثة، ومناهج النقد الأدبي المعاصرة، بحسبها نتاج العصر الراهن أي الوليد الشرعي لهذا التاريخ المعاصر.

وفي ظل هذه القراءة التأويلية المعاصرة، يرفض أبو زيد كل القراءات الجاهزة التي أطلق البعض عليها «القراءة الصحيحة» تمييزاً لها عن «القراءة الزائفة» لأن التأويل كما يفهمه أبو زيد «هو طائفة لا

يصبح شكلاً آخر من أشكال التاريخ الاجتماعي والسياسي من هنا أتت دعوة أبي زيد إلى التحرر من سلطة النصوص، إذ ليس المقصود من ذلك، كما يوضح أبو زيد، التحرر من النصوص الأساسية كالنص القرآني مثلاً، إنما التحرر من كل نص يجعل منه صاحبه نصاً موازياً أو بديلاً عن النص الأساسي (القرآن)، فجاءت هذه الدعوة التي أطلقها أبو زيد في سبيل إطلاق الحرية للعقل الإنساني، كي يناقش ويتجادل مع الواقع الاجتماعي بغية إقامة علاقة قوية مع الله أساسها الحب، والاختيار وقوامها مبدأ «العبادية» وليس «العبودية»^(١).

وهنا، لا بُدّ من التوضيح أن دعوة أبي زيد لإطلاق حرية العقل الإنساني، إنما تعني في ما تعنيه، إطلاق محاولة فقهية معاصرة بأسلوب علمي وجاد، من أجل صياغة نظرية إسلامية تُعالج المشكلات الاجتماعية، والسياسية للمواطن العربي الإسلامي. وهذا لا يحصل إلا عن طريق تأويل جديد، ومعاصر للنص الديني المقدّس (القرآن) يقود بدوره إلى قراءة جديدة للتراث الديني عنوانها «وعي علمي بالتراث»^(٢).

هذا الوعي يقوم على إعادة تأويل النص

(١) أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مرجع مذکور، ص(١٥).

(٢) أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، مرجع مذکور، ص(١٠).

من هنا؛ فالحضارة لا يمكن أن تستريح لأن شعوباً، ونخباً راهنت على غرس بذور الحرية في حقل الفكر باعتماد الوعي الجمعي لشعوب لطالما أرغمت على الرضوخ إلى الظروف، فما كان لها إلا أن حصدت ما زرعت.

هذا الواقع الذي تعيشه أمتنا العربية، والإسلامية تقف فيه على أطلال الماضي، وتنتقل بالذاكرة إلى أيام توجت فيها ملكة على عرش الحضارة الإنسانية بامتلاكها منظومة ثقافية وفنية وفكرية وقيمية عريقة.

لذلك خرجت كوكبة من النهضويين الأحرار الذين لم ترُق لهم حياة الخنوع والاستسلام والتقليد، حاولوا جاهدين رفع الصوت عاليًا في وجه الطغاة والكسبة من عمائم، ورجال دين، وقانون، ودولة، وسياسة، عملوا للخروج من هذه الأزمة المركبة لإعادة إنتاج ثقافة جديدة عنوانها التسامح والغيرية وصناعة التاريخ، وبالتالي صناعة حضارة جديدة.

وعندما بادر نصر حامد أبو زيد في مشروعه النقدي للتراث الإسلامي كان يدرك ويعلم أهمية النقد، وفعاليتها في فكر الأمة للخروج بها من واقعها المرير، والمؤلم مُستعملاً شتى السبيل والوسائل لنشر أفكاره التي عدّها البعض خروجًا على

تنتهي من وجهات النظر المتعدّدة، وجهات نظر لا يلغي بعضها بعضًا، إذ ليس ثمة مقاييس مُطلقة للحكم بتفوق وجهة على غيرها، لأن القرآن لم يكن نصًا جاهزًا أنزل كله مرة واحدة، بل نزل على مراحل وتبعًا للأحداث التي حصلت طوال عشرين عامًا. فكانت بذلك نصوصه توظيفًا لمجريات الدعوة الجديدة واستجابةً لحاجاتها، ولذا كانت أكثر تفاعلاً مع عصرها وأكثر انفتاحًا على ظروفها التاريخية اللاحقة»^(١).

الخاتمة:

إن الواقع المرير الذي تعيشه الأمة العربية، والإسلامية على المستوى الثقافي والفكري نتيجة قمع السلطات الدينية، والمدنية للحريات وللنهوض المجتمعي العام أدّى بالنخب، والمُثقفين إلى الهجرة عن أوطانهم أو زجهم خلف القضبان أو اعتماد سياسة كمّ الأفواه التي تنادي بالاجتهاد، والتأويل والحداثة والعصرنة، والعولمة التي تنطلق جاهدة لبناء ثقافة حرة مستقلة مبنية على قبول الآخر، ورفض كل من يسعى لبناء سلطته الدينية أو المدنية على حساب كفاح ونضال المظلومين. وبالتالي تُؤسس هذه الثقافة المُنفتحة على حضارة تتلاقى مع حضارات اهتمّت بالإنسان من دون العودة إلى دينه أو مُعتقده أو عرقه أو لونه.

(١) أبو زيد، نصر حامد، الخطاب والتأويل، ط١، بيروت، المركز الثقافي العربي، سنة ٢٠٠٠، ص(٢٦٣).

الملة، والبعض الآخر ارتباطًا بالغرب الكافر مُتناسين ما قاله محمد عبدو بعد رحلته إلى أوروبا حيث قال: وجدت الإسلام ولم أجد مسلمين.

إن ما قدّمه نصر حامد أبو زيد من أفكار ومواقف وأطروحات، تميزت بالجرأة من خلال العناوين التي طرق أبوابها والتي قد تؤدي به إلى أعواد المشانق، لكن ما حصده من تهجير وإبعاد، وتكفير وهدر دم ومال كان نتيجة تصديّه، ولأول مرة لمجالات وعناوين يُمنع حتى الاقتراب منها.

ومهما كانت أفكار، ومواقف أبي زيد سواء كنا نؤيدها أو نرفضها لا نستطيع إلا الاعتراف بأنها خلقت مناخًا حوارياً، ولو كان في بعض الأحيان حاداً، أدّى في نهاية المطاف إلى إحداث ثغرة في الجدار يؤسس من خلاله إلى مرحلة جديدة في خطاب الأمة.

كان الهدف من صرخة أبي زيد إحداث صدمة مُفاجئة، والسعي للخروج من المأزق التاريخي الذي تواجهه الأمة على مرّ العصور والذي تجلّى في ابتداع سلاح التكفير، والقتل والإرهاب سياسة اعتمدها حملة الأفكار الظلامية، والشمولية الذين يختصرون الدين الإسلامي بظاهرة تفرض شكلها الخادع، والفارغة من محتواها الإنساني والأخلاقي.

من هنا؛ انبرى نصر حامد أبو زيد حاملاً مشروع النقد، والإصلاحي

مُنسجماً مع المُعطيات الحديثة، والراهنة من مناهج وأدوات تفكير حديثة تعتمد على المعرفة النقدية للذات للوصول إلى إعادة بناء جديدة لتراثنا على أُسس جديدة تُماشى مُنجزات العصر؛ وأية أمة لا تملك بنية ثقافية نقدية لا يُمكن لها أن تجاري، وأن تنخرط في منظومة الفكر العالمي. وبالتالي، الأمة بل والحضارة التي لا تعمل على إعادة النظر في منطلقاتها الفكرية ستؤول في النهاية إلى الانهيار.

لذلك، لا بدّ من طرح السؤال الآتي: إلى متى ستبقى الأمة العربية، والإسلامية أمة مُستهلكة لا تعرف الإنتاج والإبداع الفكري؟ والجواب قدّمه نصر حامد أبو زيد، مع ثلة من المفكرين، عندما أعطوا العقل الحيز الأول في كل المجالات، ليقوم بدوره في صحوة معرفية حضارية شاملة قادرة على التغيير بشكل عملي بعيدة كل البعد من التنظير.

والأبرز في خطاب نصر حامد أبو زيد كان محاولته إعادة بناء الثقافة العربية الإسلامية بصيغ عملية علمية نهضوية تبدأ، ولا تنتهي بإعادة ترتيب العلاقة بين العقل والدين.

وهذا إن تحقق ستتسع مساحة الحرية، والديمقراطية والإبداع والإنسانية بكل أشكالها.

ولعلّ ما قدّمه ابن رشد قبل قرون خلت خير دليل على ذلك؛ فهو الذي واءم بين

الشريعة والفلسفة في الوقت الذي سبقه أبو حامد الغزالي إلى دقّ أول إسفين بين الفلسفة والشريعة وبين العقل والنقل.

وعلينا كما يُشير نصر حامد أبو زيد أن لا نستسلم أمام الظروف، فأوروبا لم تكن أحسن حالاً منذ عدة قرون عندما كانت في سباتها بل اندفعت، وانبعثت فيها روح الثورة والتغيير والتحرّر الفكري، بدأت بثورة معرفية ثقافية موجهة ضد الكنيسة وضد الواقع المُتردّي الذي كان يحكم سياسات متخلفة.

من هنا قام أبو زيد ولم يسكت رغم تهديده، وقف أمام المغالطات التاريخية، استعمل الوعي الفردي، والجمعي لإدراك الهوية التي تتداخل فيها مُنغبرات اقتصادية وتاريخية واجتماعية وثقافية، وإرادة قوية استطاع أن يسمع الآخرين صوته وفكره ومُعتقده. حتى وصل إلى وجدان الأمة من خلال مشروعه الفكري النقدي الذي يهدف إلى إنشاء خطاب نهضوي يرتفع إلى المستوى العقلاني؛ ليجتاز من خلاله العينة المُسيطرة على الواقع والتي تُحاصر العقل بالمُحرّمات والمُقدسات.

والنهضة التي سعى إليها نصر حامد أبو زيد تكمن في النهج التجديدي الذي يتطلبه الخطاب النهضوي على مستوى التحديّ الذي تواجهه الأمة العربية، والإسلامية من خلال توظيف الأفكار، واستثمارها والانتقال

بها إلى مرحلة يُمكن أن يُؤسس عليها لبناء تفكير عقلاني ديناميكي.

لذلك لا بُدّ من العودة إلى الرشدية التي تُجيز تحرير العقل العربي والمسلم من الموروث الديني للوصول إلى المعقول العقلي.

وهنا تبرز المسؤولية التي تقع على عاتق المُفكرين العرب، والمُتنبئين المسلمين في إعادة إحياء الجانب العقلي التنويري للفكر العربي الإسلامي، وإخراجه من أزمته الراهنة من خلال استخدام مناهج وتقنيات مُستوحاة من علوم الإنسان، والمجتمع لإعادة تفعيل مفاهيم التغيير الثقافي والاجتماعي في سياقات متبدلة.

وفي النهاية لا بُدّ من الوقوف على ما قدّمه نصر حامد أبو زيد في خطابه الفكري التنويري الذي ساهم في إحياء الرشدية من جديد، والتي تندرج في سياق حرية العقل والاختبار وتحقيق الذات.

بالفعل لقد استطاع نصر حامد أبو زيد تكريس واقع جديد في جيل مُفكّر ومتقف واجه من خلاله الرتابة في الخطاب الديني، والتقليد في النص الموروث، حتى انطلق التساؤل في أدمغة المُتقفين والمُفكرين في فضاء كان من غير المسموح لهم التحليق في عناوينه، قدموا أنموذجاً خلاقاً ونوعياً دحضوا فيه أفكار المُنغلقين على ذواتهم، وفتحوا آفاقاً ومجالات عديدة وواسعة نحو الحداثة والعصرنة والانفتاح.

المواطنة بين قوسي الدولة والهوية (مقاربة معرفية في ضوء الرؤيتين: الغربية والإسلامية)

د. علي عبد المنعم طالب^(*)

تمهيد:

أولاً: المدلول الاصطلاحي للمواطنة

تُسْتَحْدَمُ في إطار التداول دلالات عدّة للمواطنة، فيراد بها أحياناً الانتماء النشط إلى طائفة دينية أو جماعة مصالح أو طبقة اجتماعية أو عضوية في أي مجتمع سياسي مستقل، بل إننا نلاحظ أحياناً استعمال عبارة «المواطنة الخاصة» مطبقة على الدائرة المنزلية. غير أن فكرة المواطنة تحيل في معناها الدقيق إلى فكرة المشاركة السياسية وحق المساهمة في تشكيل الإدارة العامة.

تشكل المواطنة الخاصية القانونية للفرد الذي يتمتع بامتيازات يقوم في مقابلها بأداء مجموعة من الواجبات. وهذه الامتيازات التي من بينها حق التصويت، وحق الترشح للوظائف الانتخابية، وحقّ الخدمة في الجهاز الإداري للدولة، وحقّ

لا يخلو دستور في أي دولة عالمية من مفهوم المواطنة، ووضع قيود معينة عليها، من شأنها حفظ كيان الدولة، أو حرية المواطنين.

وعلى الرغم من ذلك، تعاني المكتبة العربية والإسلامية من نقص في الدراسات حول مفهوم المواطنة وحقوقها وواجباتها، الأمر الذي أدى إلى كثير من الخلط حول هذا المفهوم، وتداخله مع المفهوم الغربي من خلال مصطلحات تمثل مفاتيح الخطاب السياسي في الوقت الراهن.

فما هي المقاربة النظرية التي احتوت عليها طبيعة العلاقة بين المواطنة من زاوية، وكل من الدولة والهوية من زاوية أخرى، على صعيد الفكر السياسي المعاصر؟ وما التصور الإسلامي الذي يمكن طرحه رصداً لأبعاد هذه المقاربة وتجلياتها؟

(*) أستاذ محاضر في الجامعة الإسلامية.

ظل سيادة القوانين المدنية (Civil Codes) التي كانت تضمن المساواة بين المواطنين وبعضاً من الحقوق لفائدة الغرباء، ثم ما لبث أن تطور الأمر، لتكون المساواة شاملة دونما استثناء مع مرور الزمن.

وقد ركزت الأدبيات الغربية في تحديدها لمفهوم المواطنة على الالتزام بالمبادئ المدنية والقيم الديمقراطية وإدانة جميع الفوارق الجنسية والعرقية بل وحتى الدينية، لتنصهر في بوتقة واحدة هي «الهوية المدنية»، والتي تضم جميع المواطنين في ظل سياسي مشترك ووحيد، وهذا الفهم للمواطنة يركز على جملة من المفاهيم الأساسية^(٢).

أ - الوضع القانوني: الذي يفيد أن يكون الفرد عضواً في مجتمع سياسي معين أو لدولة منضبطة بجملة من القوانين، مع مراعاة المساواة واحترام النظام العام. كما أنّ مسألة الحق الواجب تشمل الجميع دونما استثناء، وعادة ما تكون رابطة الجنسية هي المعيار الأساس في تحديد المواطن، كما يترتب على المواطنة القانونية ثلاثة أنماط من الحقوق والواجبات: سياسية ومدنية واجتماعية - اقتصادية،

التملك، وحرية الرأي والاعتقاد، تشترك في أن استخدامها يمثل عنصراً لا ينفصل عن عمل النظام السياسي بأكمله. وسواء أكانت المواطنة وطنية تتعلق بحقوق وواجبات الفرد داخل الدولة التي ينتمي إليها، ويحمل جنسيتها، أو قومية تتعلق بالانتماء إلى قوم أو عرق (عربية أو أوروبية أو أفريقية)، فإنها في دلالتها العامة عبارة عن مجموعة من الحقوق المادية والمعنوية، الفردية والجماعية، تتكفل الدولة بصيانتها، وتمكين المواطنين منها، في مقابل مجموعة من الواجبات يسدي بعضها المواطنون في شكل خدمات، تحت إشراف ومراقبة الأجهزة الإدارية للدولة.

على أنّ لفظ (Citizenship) هو مصطلح غربي منبثق عن معتقدات المجتمع المدني البرجوازي الذي تزامن مع الحيوية الاقتصادية والعلمية التي عرفتها أوروبا خلال الثورة الصناعية، هذا المصطلح يركز على العلاقة بين الفرد والدولة، كما أنّه مشتق من المصطلح الآخر، وهو (City) أو المدينة، وبالتالي فإنّ المصطلح يحمل بين ثناياه تحيزاً إلى المدن بشكل لافت^(١).

ظهرت المواطنة بمفهومها الغربي في

(١) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا: «المواطنة والنوع الاجتماعي - دراسة فكرية»، الأمم المتحدة، نيويورك، ٢٠٠١.

(٢) سامح فوزي: المواطنة، (ط١)، مصر - القاهرة، مركز القاهرة للدراسات - حقوق لبنان، ٢٠٠٧، ص ٩.

إلى كيان سياسي معين، وأكثر من ذلك الانتماء للوطن وليس مجرد الإقامة فيه.

مرّت المواطنة في الفكر السياسي المعاصر بثلاث مراحل كبرى أرسّت مبادئها الدولة القوميّة الديمقراطية المعاصرة، وهي: تكوين الدولة القوميّة، المشاركة السياسيّة وتداول السلطة بشكل سلمي، وأخيرًا إرساء حكم القانون وإقامة دولة المؤسسات^(٢).

هذه التحوّلات دامت قرابة خمسة قرون من الزمن، انتقل مفهوم المواطنة خلالها من شكله التقليدي - الذي يعود بجذوره إلى الفكر السياسي الإغريقي والروماني - إلى المفهوم المعاصر الذي يستند إلى عصر النهضة والتنوير وقضايا حقوق الإنسان والدعوة إلى أن يكون الشعب هو مصدر كل السلطات.

من خلال التعريفات الكثيرة التي قدمت للمواطنة،^(٣) نخلص إلى أن المواطنة في الأنظمة الديمقراطيّة على وجه التحديد تجعل كل من يحمل جنسيّة الدولة من البالغين يتمتع بحقوق المواطنة بشكل كامل

ففي الجانب السياسي هناك جملة من الحقوق كالانتخاب والترشيح والتنظيم، ومن بين الواجبات دفع الضرائب. وتتمثل الحقوق المدنيّة بالانخراط في الأحزاب والنقابات والجمعيات الأهلية. أما الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة فهي تشمل الحقّ في الإضراب والأجر العادل والضمانات الاجتماعيّة^(١)...

ب - المشاركة في الحياة العامة، وتشمل الجوانب التالية:

- خفض القيود على الفاعلين السياسيين والأحزاب السياسيّة في مجال المنافسة السياسيّة.

- انتخابات نزيهة تدار من خلال سلطة محايدة وتمتلك الكفاءة والموارد اللازمة.

- منح المرشحين المساواة الكاملة وحرية الوصول والتواصل مع الجمهور من خلال وسائل الإعلام.

- ضمان حقّ الناخبين في الإدلاء بأصواتهم مع رفع جميع الحواجز والعقبات الإداريّة والتنظيميّة.

ج - العضوية السياسيّة: وتعني الانتماء

(١) وسام صقر: الثقافة السياسيّة وانعكاسها على مفهوم المواطنة لدى الشباب الجامعي في قطاع غزة (٢٠٠٥ - ٢٠٠٩)، رسالة ماجستير في كليّة الإقتصاد والعلوم الإداريّة، جامعة الأزهر، ٢٠١٠، ص ١٠٤.

(٢) علي الكواري: مفهوم المواطنة في الدولة الديمقراطيّة، مؤتمر مشروع دراسات الديمقراطيّة، جامعة أكسفورد، إنجلترا، ٢٠٠٠، ص ٥.

(٣) نائر كاظم: العولمة والمواطنة والهويّة، مجلة القادسيّة في الآداب والعلوم التربويّة، العدد ١، المجلد ٨، ٢٠٠٩، ص ٢٥٦.

علاقة الفرد بالدولة، وهي علاقة يحددها الدستور والقوانين المنبثقة عنه وتضمن المساواة بين المواطنين من خلال شرطين مهمين: الأول هو الدولة الوطنية، والثاني هو نظام ديمقراطي قائم على الموازنة بين الحقوق والواجبات.

كما أن هناك بُعداً آخر هو ثقافي - سلوكي، فالتربية على المواطنة تتطلب وجود مشروع ثقافي، فالمجتمعات التي كرّست قيم المواطنة الصالحة ومبادئها هي تلك المجتمعات التي تمتلك مشروعاً ثقافياً، وتعمل عبر وسائط الثقافة والإعلام والاتصال والتحصيل العلمي على ترويج وغرس هذه المنظومة القيمية وتربية الأجيال على أساسها^(٣).

بالإضافة إلى ذلك، تتضمن المواطنة الاعتراف بالفرد باعتباره مواطناً يمتلك في النظم السياسية الديمقراطية جزءاً من السيادة السياسية، ويحتفظ بحق ممارسة المواطنة على طريقته الخاصة، وطبقاً لقيم وعادات وقوانين المجتمع الذي ينتمي إليه. يرتكز هذا الحق على مبدأ المساواة ضمن مجتمع مؤسس على قيم ومؤسّسات

دون تمييز، على خلاف الدول غير الديمقراطية التي تجد فيها الجنسية مجرد رابطة تبعية لا تعني بالضرورة الحصول على حقوق معينة، فضلاً عن مدى وجود مثل هذه الحقوق في حدّ ذاتها.

ومن حيث الاصطلاح أيضاً هناك فرق بين المواطنة والوطنية. فالمواطنة (Citizenship) هي صفة المواطن التي تحدد الحقوق والواجبات الوطنية، وأما الوطنية (Patriotism) فتفيد معنى حب الوطن وهو ارتباط وجداني وعاطفي، وتعبّر عن اعتزاز المواطن بالانتماء والاستعداد للتضحية من أجل الوطن والالتزام بالمبادئ والقيم والقوانين والمشاركة الفعالة في كافة الأنشطة والمجالات^(١).

ويظهر ممّا سبق أنّ المواطنة في الفكر السياسي المعاصر لها أبعاد وتحليلات منها ما هو تاريخي حيث اقترنت بحركة نضال التاريخ الإنساني من أجل العدل والحرية والمساواة، ومنها ما هو سياسي كما استقر المصطلح اليوم في الأدبيات السياسية والفكرية بشكل عام^(٢).

وهناك بعد مادي - قانوني يتجسد في

(١) عجيل النشمي: تحديد الوسطية في مفهومي الوطن والوطنية (www.de_nachmi.Com) (تاريخ التصفح ٢/١٨/٢٠١٨).

(٢) بان غانم الصانع: التأصيل التاريخي لمفهوم المواطنة، مركز الدراسات الإقليمية. (تاريخ التصفح: ٢/١٨/٢٠١٨) (www.iasj.net\isaj, func).

(٣) المصدر نفسه.

المواطنة. هذا المجتمع لا يعمل بصفة مقبولة إلا عندما يبني فضاءً عمومياً يوفق بين التنوعات الثقافية والدينية المرتبطة بالبنية السوسولوجية للمجتمع، ويتجاوز في الآن نفسه الانقسامات ومظاهر اللامساواة في المجتمع.

وعلى هذا الأساس، غدت المواطنة مقولة مركزية للديمقراطية، ومُقَوِّمًا أساسياً من مقومات الحداثة السياسية والاجتماعية، بل إن خُلُوَّ دستور أية دولة من الإشارة الواضحة إلى هذا المفهوم وضرورة صيانتها والمحافظة عليه يُعَدُّ من منظور الأخلاق الديمقراطية مخالفة قانونية وسياسية فاضحة، وانتقاصاً من مشروعية السلطة السياسية ذاتها. إلا أن الحقوق والواجبات المُحدَّدة لصفة المواطنة ليست بالضرورة متجانسة أو متساوية بالنسبة لكل الأفراد في المجتمعات، حيث تختلف باختلاف أيديولوجيات الدول والإشكالات السياسية والثقافية التي أثارها المواطنة تاريخياً.

والمواطنة تتأثر عمومًا بالنضج والوعي السياسي والارتقاء الحضاري لدى الأفراد، كما تتأثر بالقيم والمعتقدات وأيضاً بالتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تشهدها المجتمعات

وبالمتغيرات العالمية، وبالتالي فإنه من الصعب تحديد مفهوم دقيق وثابت للمواطنة.

ثانياً: التصور الإسلامي للمواطنة

المواطنة في اللغة على وزن مفاعلة، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور: «الوطن هو المنزل الذي تقيم فيه، وهو موطن الإنسان ومحلّه.. وأوطنه اتخذه وطناً، وقد يسمى به المشهد من مشاهد الحرب حيث جاء في القرآن الكريم: «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة...»، ووطنت الأرض واستوطنتها اتخذتها وطناً، وتوطن النفس على الشيء كالتمهيد»^(١).

وتفيد المواطنة من خلال المعنى اللغوي مكان الإقامة، والفرد عمومًا في الدولة الإسلامية مهما كان توجهه أو نسبه فله حقّ ثابت في العيش الكريم في المكان الذي يقيم فيه، والمواطنة في الإسلام تكتسب بتوفير شرطين: الأول الانتماء إلى الإسلام والثاني السكن في الدولة الإسلامية، والمسلم الذي يسكن خارج إطار الدولة الإسلامية لا يملك إلا النصر للإسلام والمسلمين، أما غير المسلمين الذين يقطنون في حدود الدولة الإسلامية فيتمتعون بحقوق المواطنة بشرط تقديم الولاء والطاعة للدولة.

(١) ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، ج ١٣، ص ٤٥١.

المسلمين وغير المسلمين من الوثنيين واليهود، وقد نصَّ على حقوقهم وواجباتهم باعتبارهم مواطنين.

ويقوم مفهوم المواطنة في الإسلام على أساس المساواة في الحقوق والواجبات بعيداً عن كل الاعتبارات الدينيّة أو المذهبيّة أو العرقيّة، فالاعتبار الوحيد هو الجانب الإنساني، والإسلام عرف هذا المبدأ وكرّسه منذ أربعة عشر قرناً خلت، فالنبي (ص) عندما هاجر إلى المدينة وجد فيها نسيجاً اجتماعياً متعددًا يتألف من المسلمين واليهود والعرب الوثنيين، ويتألف المسلمون من أنصار ومهاجرين، والأنصار بدورهم فريقان الأوس والخزرج، هذا النسيج الاجتماعي غريب في تركيبه وتأليفه، وقلماً وجد مثيل له في أنحاء الجزيرة العربيّة.

وبالرغم من ذلك كله، أراد النبي (ص) أن يؤسس من خلال هذا التعدّد والتنوّع دولة قوية تنعم بالسلام، ويتشارك فيها الجميع بمختلف أطيافهم واتجاهاتهم. وعلى هذا الأساس، جاءت صحيفة المدينة لتكرّس ملامح الدولة المدنيّة في الإسلام، والتي تنبذ كل فرق بين مواطنيها مهما اختلفت دياناتهم أو أعراقهم أو أجناسهم، وأنّ

واللافت في هذه المسألة أنّ شعوباً كثيرة من غير المسلمين وجدت ضالتها، وعاشت في كنف الحرية والمساواة، وتمتعت بحقوق المواطنة كاملة في ظل الدولة الإسلاميّة ورعايتها، ومن خلال المبادئ الأصليّة التي كرستها، ولا أدل على ذلك دستور المدينة الذي وضعه النبي (ص) في السنة الأولى من الهجرة الموافق لسنة ٦٢٣ ميلادية، وقد نظم النبي (ص) العلاقات بين سكان المدينة وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخيّة، والهدف من هذا الكتاب توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد سميت في المصادر القديمة بالميثاق والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظ «الدستور»^(١).

تجدر الإشارة إلى أنّ لدستور المدينة أهميّة بالغة في التاريخ الإسلامي، فقد شكل منعطفاً دينياً وسياسياً وحضارياً على مستوى البشر جمعاء، بالإضافة إلى كونه نموذجاً يُحتذى به ليس على مستوى الجزيرة العربيّة فحسب، بل على مستوى العالم أجمع في كل زمان ومكان^(٢).

كان دستور المدينة ميثاقاً بين

(١) علي الصلابي: السيرة النبويّة، ط١، مصر- القاهرة، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٧، ص ٣٢١.
(٢) علي ناصر: المعاهدات في الإسلام - دستور المدينة نموذجاً، مجلّة الوحدة الإسلاميّة، السنة الحادية عشر، العدد ١٣٠، أكتوبر ٢٠١٢.

أطراف هذه الوثيقة عليهم واجب النصر والتعاون والدفاع عن حدود الدولة ضد أي عدوان خارجي^(١).

وقد حملت صحيفة المدينة بين ثناياها مسألة تقنين خروج الإنسان من القبيلة إلى رحاب الأمة، فقبل هذا الدستور كانت شخصية الفرد منصهرة في كيان القبيلة، ولكن التطور اللافت والجدير هو أنه جعل من الفرد شخصاً مسؤولاً ومكلفاً، كما سنّ هذا الدستور قاعدة متينة في التكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة وفي جميع الميادين المادية والمعنوية، بالإضافة إلى التضامن والمساواة القانونية، كما نلاحظ جلياً أنّ هذا الدستور استخدم مصطلح الأمة بمعنى الرعية السياسية - المتعددة الديانات (فالمؤمنون أمة واحدة من دون الناس.. ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم).

وفضلاً عن أنّ النبي (ص) قد جمع السلطة الزمنية إلى السلطة الدينية والروحية، إلا أنّ هذه الدولة لم تكن دولة دينية بالمعنى الذي عرفته مجتمعات ودول غير إسلامية، فهذه الدولة قد جمعت المسلمين من سكان المدينة والمهاجرين

واليهود والعبرانيين وكذلك الأعراب ومن بقي على وثنيته^(٢).

لقد دلّت صحيفة المدينة على أحكام شرعية عدة، حيث جاء في متنها ما يلي:

١ - المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس.

ويدلّ هذا البند على أن الإسلام هو الذي يؤلف وحدة المسلمين لا غيره، وهو الذي يجعل منهم أمة واحدة، وعلى أن جميع الفوارق فيما بينهم تذوب ضمن نطاق الوحدة الإسلامية الشاملة.

٢ - المسلمون جميعاً على اختلاف قبائلهم يتعاقلون فيما بينهم، ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط.

ويدلّ ما ورد في هذا البند على أن من أهم سمات المجتمع الإسلامي ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين في كل أشكاله. فهم جميعاً مسؤولون عن بعضهم في شؤون دنياهم وآخرتهم. وإن عامة أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على أساس المسؤولية التكافلية^(٣).

٣ - وجاء في متن الصحيفة: «ذمة

(١) علي جمعة: نماذج التعايش مع الآخر - دستور المدينة نموذجاً، مركز آفاق للدراسات والبحوث. (تاريخ التصفّح: ٢٠١٨/٢/١٨) (aafaqonter.com/Post/517).

(٢) محمّد عمارة: صحيفة المدينة ودولة المواطنة، شبكة الحوارات الإعلانية. (تاريخ التصفّح: ٢٠١٨/٢/١٨) (www.alhiwar.net/Show News. Php%20News.%20Php).

(٣) محمّد سعيد البوطي: فقه السيرة، ط١، بيروت - لبنان، دار الفكر، ص٢٠٨.

٣ - وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

أسست تجربة النبي السياسية مجتمعاً فريداً في إطار زمانه ومكانه، فلقد جمعت في طياتها الجماعة الدينيّة والجماعة السياسيّة على أسس الحقوق والواجبات المشتركة مع مراعاة الخصوصيات الدينيّة لكل فئة، فكانت هذه الحقوق والواجبات المشتركة تقوم على قاعدة الاعتراف بالغير كقيمة إنسانيّة، وتلتقي في مسارات عدة، كاحترام النظام، والمشاركة في الدفاع عن الوطن (وإن عليهم النصر على من دهم يثرب)، واحترام الدستور (وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة)، والإنفاق من أجل حماية المجتمع وتطوره (إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) أي: إذا حدثت الحرب، وشارك فيها اليهود إلى جانب المسلمين، فهم ملزمون بدفع ما تحتاج إليه الحرب من نفقات.

ويترتب على هذه الرؤية الانتصار لكل المواطنين على اختلاف أديانهم وانتماءاتهم، والدفاع عنهم، وحماية الذين يشاركون المسلمين في الانتماء إلى الدولة العادلة وإن كانوا على غير دين الاسلام. وفي مقابل ذلك لم يكن للمسلمين الذين اختاروا العيش

المسلمين واحدة، يجير عليهم أديانهم، والمؤمنون موالي بعض دون الناس».

ويشير هذا البند إلى مدى الدقة في المساواة بين المسلمين، وأن ذمة المسلم محترمة، أيًا كان لونه وجنسه ومقامه بين الناس، والاستجارة بالمسلم القوي محفوظة، فمن استجار بأحد من المسلمين، فليس لغيره - أيًا كانت سلطته - أن ينتهك حرمة هذه الاستجارة^(١).

٤ - وجاء في متن الصحيفة أيضًا: «كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله».

وتتركز دلالة هذا البند على أن المرجع لحل أي خلاف هو كتاب الله عز وجل وسنة رسوله (ص).

هذه الأحكام الأربعة تتعلق بالمسلمين فيما بينهم.

أما بالنسبة للأحكام التي يمكن اعتمادها بين المسلمين وغيرهم فيمكن أن تستمد من تجربة النبي (ص) المطبقة في بنود الصحيفة التالية:

١ - إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢ - وإن عليهم النصر على من دهم يثرب.

(١) م. ن. ص ٢٠٩.

الدولة الإسلامية بحقوق المواطنة، ومن بينها حماية الدولة لهم مقابل أداء واجباتهم الضريبية، وعدم الاعتداء على المجتمع، باستثناء بعض يهود المدينة الذين أخلوا بهذا الواجب، فكان ذلك مبرراً كافياً لمحاربتهم، ولم يكن الداعي هو دينهم، وإنما خروجهم عن الميثاق، وهذا الحق في المواطنة والذي مكن غير المسلمين من العيش بسلام في ظل الدولة الإسلامية بقي أصيلاً على مر الزمان، فقد برز تاريخ الإسلام من حروب الإبادة والاضطهاد الديني والعرقي، بدءاً من دولة المدينة، وصولاً إلى الحقب الزمنية التي عرفها تطور الدولة الإسلامية. وفي ذلك يقول الإمام علي (ع) عن أهل الذمة وما حازوه من أمان في أرض الإسلام: «إنما أعطوا الذمة ليكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا»^(٣).

بناءً على ما تقدّم، كانت الصيغة الإسلامية التي اعترفت بحقوق أهل الذمة وحمايتهم، تصوراً متقدماً وغير مسبوق في علاقة الأقلية بالأغلبية داخل سلطة سياسية واحدة، هذه العلاقة يمكن تلخيصها فيما يلي:

أ - اعتراف الدولة الإسلامية بحقوق

خارج نطاق الدولة هذا الحق، حتى وإن استنصروهم في الدين على قوم كافرين بينهم وبين أرض الإسلام عهد وميثاق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾^(١).

وهذا الحكم منطقي ومنسجم مع طبيعة الدين الإسلامي. فهؤلاء الأفراد ليسوا مواطنين في الدولة الإسلامية، ومن ثم لا تكون بينهم وبينها ولاية، ولكن هناك رابطة العقيدة وهذه لا تترك على المجتمع الإسلامي تبعات تجاه هؤلاء، اللهم إلا أن يُعتدى عليهم في دينهم، فيفتنوا في عقيدتهم مثلاً، فإذا استنصروا المسلمين في مثل هذا الأمر، كان على المسلمين أن ينصروهم في هذه وحدها، ذلك لأنهم لم ينضموا إلى الوجود الفعلي لهذا الدين المتمثل بالدولة الإسلامية، باعتبار أن الأصل هو مصلحة الدولة الإسلامية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود، فهذه لها الأولوية^(٢).

وتشير الشواهد التاريخية إلى أن سكان المدينة من غير المسلمين تمتعوا في ظل

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ط٧، بيروت - لبنان، دار الشروق، ج٣، ص١٥٥٩.

(٣) راشد الغنوشي: الإسلام والمواطنة. (www.aljazeera.net\Knowledgegate\opinions) (تاريخ التصفح ١٨/٢/٢٠١٨).

الأقليات الدينية، واستقلالية هذه الأقليات في تسيير شؤونها الخاصة.

ب - عدم مشاركة الذميين في الدفاع عن الدولة الإسلامية أثناء الحرب.

ج - سقوط الجزية عن غير القادرين على حمل السلاح من أهل الذمة كالأطفال والنساء.

د - مساواة أهل الذمة مع المسلمين أمام القضاء.

هـ - يؤدي أهل الذمة ضريبة (جزية) مقابل منحهم الأمان وعدم تعرضهم لأي خطر (وهذا خاص بالرجال القادرين على حمل السلاح).

و - لا يشغل أهل الذمة مسؤوليات سامية داخل الدولة الإسلامية بسبب عدم الولاء التام⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار، لم تختلف المواطنة التي أرسى قواعدها الإسلام في شيء عن المبادئ والتقنيات التي عرفها الفكر المعاصر، وأن صحيفة المدينة التي أصّلت قواعد مجتمع متعدد دينياً وعرقياً ومذهبياً سبقت الأطروحات كلّها التي زعمت أسبقيتها في التأصيل والتأسيس لحقوق المواطنة، كأطروحة الفيلسوف الألماني المعاصر «يورغن هابرماس» الذي تحدث عن تضامن المجتمع في إطار تعدده الثقافي.

ثالثاً: المواطنة والدولة في سياق الفكر المعاصر

ركّزت دساتير الدول الحديثة ونظمها على تحديد ملامح المواطنة وحقوقها وشروطها. ودرجت هذه النظم لفترات طويلة على تحديد مواصفات المواطن وأبعاد المواطنة على ضوء منطلقات تستوعب مشارب الأمة ومنابع تفكيرها ومصادرها المرجعية المعتمدة تاريخياً وثقافياً ودينياً، وكذا على ضوء استراتيجيتها الخاصة. ولقد أدى ذلك إلى تعدد وتباين في الوثائق السياسية والتربوية من مجتمع لآخر في تحديد مفهوم المواطنة الصالحة.

ومع ظهور متغيرات عصرية وعالمية جديدة، بدأ يسود منطلق جديد في تناول مفهوم المواطنة يختلف عن المنطق السائد في الفترات التاريخية المنصرمة. ومفاد هذا المنطق - الذي يعد من إفرازات العولمة - أن تتوحد مواصفات المواطن مع اختلاف المجتمعات وطبائعها الثقافية والاجتماعية بل والدينية.

وتشهد ساحة الفكر العالمي اهتماماً بالغاً في تحليل هذا المنطق، ليس في مجال المواطنة فحسب، وإنما في تداعيات العولمة كلّها وما تحمله من أوهام وحقائق

(1) خالد يابموت: المواطنة في الفكر السياسي الإسلامي، مجلة الكلمة، العدد ٥٤، ٢٠٠٧.

أيديولوجية، بما في ذلك التدايعيات السياسية والاقتصادية والثقافية. وكثرت الكتابات وتباينت الاتجاهات في هذا التناول تأييداً أو تفنيدياً.

تُعدّ المواطنة المعاصرة الرابط الذي يجمع المواطن بوطنه، وذلك وفق عقد اجتماعي، يتنازل بموجبه كل مواطن عن بعض من حقوقه من أجل تحقيق مفهوم الدولة كما جاء في نظريات العقد الاجتماعي، هذه الدولة تحفظ الحقوق والواجبات للمواطنين كلّهم من دون استثناء، وتتجاوز كل الاختلافات العرقية والدينية والمذهبية، كما أنّ فلسفة المواطنة تقوم على خدمة وأمن وحفظ الوطن، وتجعل ذلك فوق كل اعتبار، وعند إحساس الفرد بتمتعته بجميع الحقوق الدستورية والقانونية في ظل دولة قوية، تحترم خصوصيته، وينعم فيها بالرعاية والحماية، يكون ذلك حافزاً مهماً في الدفاع عن وطنه والسهر على خدمته وأمنه^(١).

وتكمن حقيقة العلاقة بين الدولة والمواطنة في فكرة السيادة، فالسيادة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدولة، وهي أحد أركانها الثلاثة إلى جانب الأرض والشعب،

والسيادة تمثل رمزية الدولة وهبتها، وهي معيار الشرعية، والدولة تستمد سيادتها من قيمة المواطنة، ويتمثل ذلك في سيادة الشعب نفسه، وإلى ذلك يشير «اسبينوزا» بقوله: «لكي يعيش الناس في أمان وعلى أفضل نحو ممكن كان لزاماً عليهم أن يسعوا إلى التوحد في نظام واحد، وكان من نتيجة ذلك أنّ الحق الذي كان لكل منهم بحكم الطبيعة على الأشياء جميعاً أصبح ينتمي إلى الجماعة، ولم تعد تتحكم فيه قوته أو شهرته، بل قوة الجميع وإرادتهم»^(٢).

لقد تحوّلت الدولة الحديثة في الغرب، ومن خلال السياقات التاريخية، من دولة الحماية إلى دولة الرعاية التي تحفظ مكوناتها جميعها وتقف على مسافة واحدة منهم جميعاً بغض النظر عن أصولهم وأعرافهم ودينهم واتجاهاتهم وميولهم الفكرية والمذهبية، فدولة المواطنة هي دولة كفاءات وليس ولاءات، واستطاعت الدولة في الغرب من إيجاد توليفة مناسبة تتعامل مع الاختلافات القائمة بين مكوناتها البشرية، فاعترفت بالفوارق الدينية والعرقية، وأوجدت لها القنوات اللازمة للتعبير عنها بما يصب في مصلحة الوطن، فتحول الاختلاف القائم إلى تنوع وثناء،

(١) شابة محمد: المواطنة بين حقيقة المفهوم وتحديات الواقع، الحوار المتمدّن، العدد ٤١٤، ٢٠١٣.

(٢) اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، (ط٤)، لبنان- بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧، ص ٣٨٠.

ومُنحت الدولة مزايا ومواصفات ما كانت لتحصل عليها لو لم تتخذ المواطنة سبيلاً ومنهجاً للتعايش^(١).

ذلك، إنها حالة نفسية لدى المواطن تعزز من تشاركية وتفاعله مع دولته ومجتمعه^(٢).

ويقوم إطار المواطنة في المنظور الحضاري على مفهوم الجماعات المتوافقة والمتشاركة سياسياً، والتي تنبذ الخصوصيات الذاتية والمصالح الآنية للجماعات الفرعية لصالح الإطار العام أي مصلحة الدولة وبنائها واستقرارها وقوتها، هذا هو السبيل المفضي إلى المواطنة السليمة والحفاظ على الوحدة والتماسك والانسجام، فمفهوم المواطنة الجامع والحاضن لكل التعبيرات والآراء والأفكار والتوجهات لا يتأتى بانسحاب وإقصاء وتهميش الخصوصيات الثقافية، وإنما يتأتى عبر تأسيس القواعد القانونية الثابتة والراسخة، أي دولة القانون ودولة الحقوق المدنية التي تسمح بالمشاركة والتعدد والتنوع لكل المكونات الثقافية والاجتماعية، وهذا لا يعني في الحقيقة التشريع للفوضى، وإنما وفق ضوابط وتفاهات مشتركة ومنظمة^(٣).

إنّ الكثير من الأزمات والصراعات

ويميز بعض الباحثين بين ثلاثة مفاهيم هي: المواطنة والمواطنة والمواطنة. فمفهوم المواطنة (Citizenship Consciousness) هي حصيلة اجتهاد شخصي، وتعني عملية الإدراك الذهني لماهية المواطنة والآليات التي تمكّن من تحقيقها، أما مفهوم المواطنة العملية (Citizenship Process) فهي العملية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤدي إلى تشييد وبناء مفهوم المواطنة، وأما المواطنة (Citizenship) فالمفهوم يشير إلى علاقة الفرد بالدولة، والتي يعيش في ظلها، ويكّن لها الولاء العملي والوجداني، وذلك في مقابل حماية الدولة له وعدم مساسها بالكرامة الإنسانية، وبالتالي فإن المواطنة شبكة من العلاقات المنتظمة لعلاقة الفرد بالدولة، هذه العلاقة تمكن من توليد الإحساس بالأمان والانتماء، وهو ما يعبر عن كون المواطنة ليست حالة سياسية وقانونية وجغرافية فحسب، بل أكثر من

(١) بدر الشيبب: المواطنة أساس التعايش في الدول الحديثة. (تاريخ التصفح ١٩ / ٢ / ٢٠١٨) (www.mozon.net\act).

(٢) مسعود الرضي: أثر العولمة في المواطنة، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد ١٩، صيف ٢٠٠٨، ص ١١٤-١١٥.

(٣) محمّد محفوظ: في معنى المواطنة، صحيفة الرياض الإلكترونية. (تاريخ التصفح: ١٩ / ٢ / ٢٠١٨) (www.Ahriyadh.com\16992).

أي انتماء آخر، وذلك هو الأساس القانوني الذي ينظم ويحدد العلاقة المتبادلة بينه وبين الدولة^(١).

لكن الإشكال والتحدي الكبيرين في الفكر السياسي المعاصر يتمثلان في ظهور مفهوم الدولة العالمية، وما طرحه من تناقضات بين مفهوم سيادة الدول ومفهوم المواطنة.

رابعاً: إشكالية العلاقة بين المواطنة والهوية في رحاب العولمة

تؤثر العولمة على الانتماء الوطني والمحلي للأفراد بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك من خلال تأثيرها على الإدراك والوعي بأهمية التمسك بالهوية الثقافية والدينية والوطنية، ويتحقق هذا التأثير سواء كان التغيير نحو العولمة تدريجياً أم أنه تغير يخضع له الفرد دون أن تكون لديه القدرة على مقاومته أو رفضه، وذلك بسبب انعدام البيئة الثقافية، وبسبب فاعلية الوسائل التي يستخدمها الآخر في التأثير على البنية الاجتماعية للثقافات الأخرى.

أمام هذه العولمة، تحتاج المجتمعات إلى الشعور الوجداني بالهوية وبالمواطنة التي تعد إحدى أهم ركائز الديمقراطية التي

والتوترات التي عرفتها العديد من الأنظمة والمجتمعات، والتي أدت في الأخير إلى هشاشة وانهيار الدول، وتصعد أركان البناء السياسي والاجتماعي ناجم عن غياب مفهوم المواطنة لصالح الولاءات الخاصة على حساب الإطار الوطني العام والمشترك، وهو ما فاقم من التوترات وأوجد الفوارق والتباين في النسيج الاجتماعي وأفضى إلى نشوء إفرزات اجتماعية وسياسية بعيدة عن بعضها، بل ومتقاتلة ومتناحرة في كثير من الأحيان لا يجمع بينها إلا الاسم والعنوان. ومن هنا، كان لزاماً أن تكون الخطوة الأولى في بناء صرح دولة قوية و متماسكة و متضامنة بين أطرافها ومكوناتها هي تأسيس علاقة تتجاوز كل الأطر والعناوين الضيقة، ويكون الجامع الذي تنصهر فيه كل المكونات هو المواطنة، ومن خلال كل هذا، فإن رابطة المواطنة لا تعني أن تكون رابطة قسرية وقهرية، وإنما طوعية واختيارية قائمة على المشاركة والتعايش والاختيار الحر والمسؤول.

وعليه، فالمواطن هو العضو الكامل في الدولة، والمواطنة تمثل وضعية قانونية أساسية في الدولة الحديثة، ويقف الفرد أمام الدولة كمواطن ولا يمثل شيئاً آخر أو

(١) مسعود الرضي: م.س. ص ١٦.

تسعى المجتمعات المعاصرة إلى اتخاذها كمنهج للممارسة في الحياة الاجتماعية.

وفي إطار الهوية، نجد أن المواطنة في واقع الأمر نمط من أنماط الهوية المجتمعية، على الرغم من كونها السمة القانونيّة السياسية للفردية في المجتمعات المعاصرة إلا إنها تمثل نمطاً من الشعور الوجداني الذي يدفع إلى الالتزام بالقوانين التي تسعى إلى الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه.

وما تسعى إليه العولمة هو خلق نمط من المواطنة العالمية التي تتميز بكونها نوعاً من الهوية الإنسانيّة المشتركة التي تقوم على حساب الهوية الثقافيّة للمجتمع الذي يعيش فيه الفرد، وذلك من خلال قيامها بإلغاء أو تجاوز الحدود الثقافيّة للمجتمعات الإنسانيّة، فضلاً عن تأثير العولمة في الهويات الفرعيّة التي تتميز بها الجماعات داخل البناء الاجتماعي الواحد، فهل تكون المواطنة العالمية بديلاً عن المواطنة المحليّة (الوطنية)؟

إنّ الحديث عن الهوية هو حديث عن إطار عام تتقاطع فيه مجموعة من العلوم، فالهوية حقل معرفي دارت حوله نقاشات عديدة، وتعددت حوله التصورات، وتناوله

بالتنظير علماء الاجتماع والعلوم السياسية والعلوم القانونية والتاريخ وعلم النفس والأنثروبولوجيا والفلسفة، كما يجد مجالاً في العلوم التطبيقية، وبالتالي فهذا الحقل له إطار معرفي نسقي يعود أصله إلى العلوم الأخرى.

ويختلف المفهوم الذي نعرفه اليوم عن الهوية عمّا كان عليه الوضع قديماً، فمفهوم الهوية السائد اليوم يرجع إلى ظهور سيادة الدولة القوميّة في أوروبا في القرن الثامن عشر، فالشخص الآن ترتبط هويته بكيانه السياسي أي بحدود الدولة السياسية التي يعيش داخلها بغض النظر عن عرقه أو لغته أو دينه، وإذا رجعنا إلى التاريخ في عصوره القديمة نجد شعوباً كالفينيقيين والفرس والروم والهنود، جمعت بينها هوية رابطة مثل المكان والعرق واللغة والدين والتراث وكان الإحساس بالهوية الترابطة بينها قوياً^(١).

وعند الحديث عن الهوية الجماعيّة، هناك هوية متصلة بالقوميّة وبالأمّة (Nationalism) وهوية وطنيّة (National Or Patriot) وهوية دينيّة (Religious) وهوية اجتماعيّة (Social) ولذلك يعتبر مصطلح الهوية من المصطلحات الحديثة

(١) أحمد حسن: الهوية والمواطنة ومفهومها القديم، (www.alhdiKassalla.maktabblog.com). (تاريخ التصحّح: ٢٠١٨ / ٢ / ١٩).

في ذات الاتجاه، يشير «أندرو فنسنت» إلى مفكرين مثل: «هيردر» و«فيشته» و«هيجل» تحدثوا عن الهوية بمفاهيم مختلفة تحمل تعابير تشير إلى مفهوم العضوية، والعضوانية، وترفض تعبير القومية باعتباره التعبير عن روح الشعب، وبالتالي صيغت نظريات مبكرة حول تصنيف الأجناس والهويات اللغوية والثقافية رفضت العالمية ومفهوم الكونية، وأصبح هناك كيانات سياسية متعددة في شكل دول وجماعات عبر قوميات وجماعات متعددة القوميات وما وراء القومية وقوانين وتشريعات جنسية.

فالهوية بذلك مصطلح يختزل مفاهيم التبعية والتشخيص والولاءات، لتحديد بناء مجتمع ما وتميزه عن مجتمع آخر، ومسألة محددات الهوية من أصعب ما يمكن بحثه أو الاستقرار على تعريفه، فالهوية صناعة تتم باتفاق عناصر المجتمع على نسج خيوطها المتشابهة^(٣).

وتحمل الهوية مضامين متعددة يمكن التعبير عنها أو تجسيدها من خلال:
أ - المكوّن الاجتماعي: من حيث المكانة

التي بدأت تثير علماء السياسة نظراً لأهميته ولأيديولوجيته القابلة للتناول من عدة زوايا. ونقلًا عن «كنيث هوفر»، عُرِفَت الهوية في المجلة الأمريكية لعلم النفس أنها ببساطة صنعة القوة، وقد اهتم علماء السياسة بهذا المفهوم، فكان أول بحث علمي عن الهوية سجل عام ١٩٧٥ في كتاب (سياسة الهوية Political Of Identity) لـ «موراي إيدلمان» وأن علماء السياسة لم يكونوا مهتمين بشدة بمسألة الهوية فمئذ عشرين سنة من ذلك التاريخ حاول (Kenneth Hoover) أن يركز على العلاقة بين الهوية والعنف السياسي^(١).

ويسأل «كينيث هوفر»: لماذا الهوية؟ ومن ثم يجيب على السؤال أنّ الناس يخلقون دولاً قوية كاملة فقط لإثارة النقطة حول من هم، وكم هم مختلفون عن أناس آخرين في الجانب الآخر للحدود، وأنّ الهوية ونظام القوة في أصله يتضمن كل أنظمة القوة السكانية لإشباع الحاجات الإنسانية، أما المواطنة فهي إحدى علامات الهوية، بالإضافة إلى أنها منزلة قانونية، وتؤهل إلى الحقوق^(٢).

(١) Kenneth R. Noover, and Vernon D. Johnson: identity violence, reclaiming civil society, Journal of note studies, vol 3, 2004, P.83.

(٢) الطيّب عبد الجليل محمود: إشكالية الهوية وبناء الدولة الوطنية المعاصرة، الخرطوم - السودان، دار عزة، ٢٠٠٨، ص ١٧.

(٣) مهّد المبيدخين: هل هويتنا موحدة قبل أن تطلب المساواة؟ مجلة الدستور الأردنية، العدد ١٦٢٧، ٢٠١٢.

والطبقة والوظيفة، أو عناصر المكون البيولوجي المنبثق عن العرف أو اللون أو الجنس. ومن هنا، يمكن التعبير عن الهوية عبر الانتماء إلى الإثنية أو القبلية أو العائلة أو المولد.

ب - المكوّن الثقافي: من حيث الدين أو اللغة أو العادات والتقاليد والأعراف والقيم الاجتماعية المشتركة أو الملبس، وكذا الأساطير والخرافات والمعتقدات الحسية والمعنوية والرموز ووحدة المصالح والمصير والتاريخ المشترك، وهذا ما يجعل الإنسان كائنًا ثقافيًا، وكل حضارة تقدم نمطًا وهوية نوعيّة لشخصيته، وذات خصوصية معينة^(١).

ج - المكوّن السياسي: من حيث الدولة الوطنية أو القومية ونظام الحكم وشكل الدولة ونظام الإدارة العامة والسيطرة على جهاز الدولة، أو من حيث المواطنة والجنسية والبناء الدستوري والقانوني، أو الأيديولوجية الموجهة للبناء الرئيسي والنوعي (كالأحزاب السياسية والمجتمع المدني...).

وقد يبدو أنّ هناك تعارضًا في المفاهيم بين الهوية التي تعني السمات المشتركة

التي يتعارف عليها مجتمع الأفراد، وبين المواطنة من حيث أنها تتجاوز سمات الهوية وتتعالى على كل الخصوصيات العرقية والدينية، ويمكن أن نجد حلاً لهذا التعارض باعتبار أن الهوية مكوّن تاريخي ارتضاه الأفراد بمحض إرادتهم، في حين أن المواطنة تمثّل عقدًا سياسيًا واجتماعيًا للأفراد، علمًا أنّ المواطن يركز على الهوية السياسية كقاعدة للعلاقة بين أعضاء المجتمع السياسي (الوطن)، ويتضمن هذا المبدأ منظومة حقوق وتكاليف متقابلة^(٢).

من هنا، فإنه لا غنى للمجتمعات الإنسانية عن المواطنة بوصفها هوية جماعية ينضوي تحت لوائها جميع أفراد المجتمع، ومن ثم ضمان التماسك الاجتماعي. كما أن التمسك بالهوية الجماعية أو المجتمعية التي يمكن أن نطلق عليها تسمية المواطنة هي إحدى أهم العوامل التي تسهم إسهامًا مباشرًا في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمعات الإنسانية جميعها، سواء اندرجت في نظام العولمة أم لا.

وتسعى العولمة من خلال تبشيرها بمجتمع القرية الكونية إلى خلق نمط من المواطنة العالمية التي يكون قوامها الترابط

(١) ماري شهرستان: أسمى الهوية، مجلة تحولات، العدد ٧، مارس ٢٠٠٦.

(٢) توفيق الحسن: الوطن، الهوية الوطنية، والمواطنة - توضيح للإشكاليات، مركز آفاق للدراسات والبحوث. (تاريخ التصحّح: ٢٠١٨/٢/١٨) (٢٠١٨/٢/١٨) (aafaqcenter.com\inalex.php\post\269).

ويرى عبد الوهاب الأفندي أنّ مصطلح مواطن يرد للدلالة على الفرد الكامل العضوية في المجتمع السياسي، ويقابله في الطرح الإسلامي لفظ «المسلم» وذلك راجع إلى أنّ المجتمع الديني يؤكد على مصطلح الأمة الإسلامية التي تتناغم مع مصطلح المواطنة بالمعنى الإيجابي للمواطنة النشطة^(١).

وعند مراجعة ما جاء في بنود الصحيفة النبوية الكريمة، نلاحظ أنّ الإسلام رسم علاقات المجموعات مع مؤسسات الدولة الناشئة، حيث جاء في النص الحرفي للصحيفة ما يلي: «هذا كتاب من محمد رسول الله (ص) بين المؤمنين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة من دون الناس». فأوردت الصحيفة كلمة (الأمة) للدلالة على أنّ جميع قاطني هذه الدولة هم أمة واحدة ضمن دولة واحدة متساوون في الانتماء لها دون تمييز، وكل باحث ومفكر يمتلك الموضوعية والحيادية سيجد في مصطلح (الأمة) التعبير القانوني والدستوري للمواطنة وأنها كانت خطوة حضارية متقدمة تجاوزت في بعدها القانوني والاجتماعي الزمن والتاريخ^(٢).

المصيري بين أبناء الجنس البشري الذين يعيشون في مجتمع واحد إذا ما اتاحت الفرصة إلى تحقق مجتمع القرية الكونية الموحد وعليه، فإن الهوية الاجتماعية (الخصوصية المجتمعية) هي صورة من الانتماء الفرعي الذي يشكل الهوية الفرعية التي لا غنى لأفراد المجتمع عنها.

خامساً: المواطنة والدولة بين التصورين الإسلامي والغربي

ينبني الفكر الإسلامي لمفهوم المواطنة على روح الجماعة ومشاركتها وتفاعلها داخل جسم الأمة (الدولة) بثتّى صورته ومظاهره الدينية والاجتماعية والثقافية، وذلك من خلال احتواء الروابط والعلاقات، بعيداً عن كل التجاذبات والحساسيات تحت مصطلح جامع هو الأمة، والذي لا يخضع لأي تعصب أو انتماء مذهبي أو عرقي أو ديني.

كما أنّ الفكر الإسلامي يمقت الفردانية المطلقة والمفرطة، والتي يدعو إليها الفكر الغربي الحديث، حيث يتضمن هذا الأخير الذهاب بالحرية الفردية إلى أبعد مدى وهو ما يفضي إلى القضاء على ثقافة وفلسفة الجماعة التي يدعو إليها الإسلام.

(١) محمّد جودي: المواطنة بين الدين والعلمانية- لبنان أنموذجاً، مجلة عود التّد، العدد ١٠٤، فبراير ٢٠١٥.
(٢) زغب السرجاني: مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية، موقع قصّة الإسلام. (تاريخ التّصنّح: ٢٠/٢/٢٠١٨) (istanstory.com).

في إطار المدنية يدعو إلى مواكبة التطورات الثقافية والسياسية، وتغيير الذهنيات^(١).

وثمة من يشير إلى مسألة الالتباس في المصطلحات، فيرى أنّ أهم مصدر للالتباس هو أنّ الوطنية أو القومية مفهوم غربي في الأساس، بينما مفهوم الأمة مفهوم إسلامي، ويتعلق مفهوم الأمة أصلاً في الإسلام بالرابطة الأخوية الدينية وهي طوعية واختيارية وينبثق منها مفهوم الجماعة باعتبارها رابطة تضامنية لحمتها الالتزام بالقيم الإسلامية. وبالمقابل، فالرابطة الوطنية رابطة تعاقدية، وهي - وإن كانت طوعية نظرياً - إلا أنها أصبحت في العصر الحالي إجبارية، لأن الإنسان يولد وهو مرتبط بهوية وطنية يصعب عليه استبدالها^(٢).

وعلى الرغم من تعدد المبادئ والحقوق التي يتضمنها مفهوم المواطنة وعناصرها، فإنها تركز على بعدين أساسيين تكررت الإشارة إليهما بوصفهما الأرضية الصلبة والشروط اللازمة للحياة الغربية بمضامينها السياسية والاجتماعية وهما: "المساواة" و "الحرية"، هذان البعدان هما

بهذا المعنى ترتفع أولوية الأمة في المجتمع الإسلامي على كل المحددات الجغرافية، فالأمة الإسلامية تجمعها رابطة مشتركة، وقد أشار «جمال الدين الأفغاني» إلى أنّ الرابطة المليّة تتجاوز عند المسلمين جميع العصبية والروابط القومية، كما أنّ منظومة المواطنة في الإسلام تركز على قاعدة المصلحة العامة في إطار المجتمع، كما تضمنت المنظومة القيمية للمواطنة الإسلامية قيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان التي جعلها الإسلام فرائض وواجبات، فيجوز للإنسان أن يتنازل عن الحق، أما الفرض والواجب فلا يمكن التنازل عنه بأي حال من الأحوال، ولا سيما فيما يتعلق بحقوق الضعفاء لدى الأقوياء.

والمواطنة الإسلامية التي تركز حقوق المواطنين مسلمين وغير مسلمين في إطار الدولة المدنية والسلطة السياسية في الإسلام ضرورة لمحاربة الاستبداد والاستئثار بالرأي، وذلك بهدف ضبط النظام العام، وتحقيق مصالح الناس، ودفع الأضرار والمفاسد، وجلب المصالح والمنافع التي يتأسس عليها المجتمع، كما أنّ مفهوم المواطنة في الإسلام والذي يقوم

(١) علي خليفة: المواطنة والدولة في الإسلام - في نقد الإسلام كنظام سياسي، مجلة المستقبل العربي، العدد ٤٢٧، سبتمبر ٢٠١٤، ص. ٧.

(٢) عبد الوهاب الأفندي: كل الهويات الإسلامية والعربية الحالية مصطنعة، موقع الإتحاد العالمي للعلماء المسلمين. تاريخ التصحّح: ١٨ / ٢ / ٢٠١٨ (umsonline.org/or/olefault).

بالمجتمع وارتباط مفهوم المواطنة بمفهوم الهوية والمجتمع المدني، وفي هذا السياق تطورت التحليلات والدراسات من مستوى علاقة الفرد بالمجتمع إلى علاقة الفرد بالدولة لتمثل التعريف الأساسي والجوهرى لفكرة المواطنة.

وفي هذا الإطار، يمكن الإشارة إلى الإسهامات الكبيرة التي قدمها «جون جاك روسو» في تطور مفهوم المواطنة من خلال تركيزه على علاقة الفرد بالدولة، وقد تحدث في نظريته عن العقد الاجتماعي بضرورة استقلالية الفرد، وضمان تمتعه بحريته وحقوقه في مواجهة الدولة، وأشار «مارشال» إلى تطور نظرية المواطنة من خلال الحقوق الفردية المختلفة فقد ظهرت الحقوق المدنية أولاً كالحريات العامة والمساواة القانونية في القرن الثامن عشر، ثم تطورت الحقوق السياسية إلى المواطنة السياسية ثانياً كالحق في الانتخابات، والمشاركة السياسية، ثم تطور المفهوم إلى المواطنة الاجتماعية، كالحق في الانتفاع من الموارد الطبيعية^(١).

كما أن هناك علاقة وطيدة بين المواطنة والديمقراطية في الأدبيات الغربية المعاصرة، والتي تحدث عنها الفيلسوف

الليدان مكنّا المفهوم الجديد للمواطنة من جعل الشعوب أقراناً أو شركاء بغض النظر عما بينهم من اختلافات حضارية، وتلك هي الأرضية التي يتأسس عليها الفكر الغربي المعاصر، ليتوحد الجميع في مواجهة التحديات العصرية على قاعدة الهوية والحقوق والواجبات والقيم الاجتماعية، وليس على قواعد الأديان والثقافات والأعراف والتقاليد.

وفي أدبيات الفكر الغربي، مرّ مفهوم المواطنة بمحطات تاريخية متعددة حتى وصل إلى الحدّ المتعارف عليه الآن، فقد ارتبط بتطور الجماعة السياسية في الغرب، وتشكل الأنساق الاجتماعية داخلها، بداية من مجتمع المدينة اليونانية مراراً بتشكيل الطبقات الاجتماعية خلال الثورة الصناعية، ثم ظهور الرأسمالية والدولة القومية، وبحسب «كرستيان ليملك» (Christian Lemke)، فإن ظهور الدولة القومية في أوروبا قد أثر بشكل كبير في ترسيخ مبدأ المواطنة، وقد تعددت المداخل في المدرسة الغربية التي تدرس مسألة المواطنة، فهناك المدخل الفلسفي والذي يربط مفهوم المواطنة بقيم العدالة والمساواة وحقوق الإنسان، وهناك المدخل الاجتماعي الذي يتناول بالدراسة تحليل علاقة الفرد

(١) محمّد عبد الوهاب: الهوية والمواطنة في الخطاب الليبرالي المعاصر، جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٢١١٧، يناير ٢٠١٢.

تتعارض مع ما تدعو إليه الثقافة العالمية التي تقوم بتسويقها القوى الكبرى المهيمنة على العالم.

٢ - المواطنة الدستورية: وهي المرتبطة بالحقوق والواجبات، حيث لم يعد الأمر مرتبطاً بالولاء للهوية القومية، وإنما مرتبطاً بالولاء الدستوري، أي الجنسية.

٣ - المواطنة العالمية: وهي المواطنة المبنية على الاهتمام بالشأن العالمي والمتغيرات الدولية، وهو نتاج ظاهرة العولمة وتأثيراتها على الشعوب^(١).

ويلاحظ من التناول الغربي للمواطنة وأبعادها اعتماد الفكر على مفهومي الخطية والجبرية في تحقيق المساواة والديمقراطية، فكل دول العالم مجبرة على أن تتبع الخط الأوروبي في هذا المجال، وأنه لا سبيل إلا اتباع هذا الخط الذي تمثل أوروبا قمته وتصنف المجتمعات البشرية طبقاً لقربها أو بعدها عن هذا الخط.

وثمة تغافل من الأطروحات الغربية لطبيعة المجتمعات الأخرى بمكوناتها الثقافية والمؤسسية، ومن ثم تقويم إمكانية التغيير للمجتمعات التي ليست على صورتها بما في ذلك أسس الثقافة وأنماط التفكير ومنطلقاته وحتى النظم والمؤسسات؛ وهذا ما لا يمكن تحقيقه نظراً

الألماني المعروف «يورغن هابرماس» (J. Habermas)، حيث يشير إلى مفهوم الديمقراطية التشاورية، والتي تستوجب ثلاثة أنواع من الحقوق يجب أن يتمتع بها جميع المواطنين في الدولة دون النظر إلى تمايزهم العرقي أو الجنسي أو الديني، ونجد من هذه الحقوق:

أ - الحقوق المدنية: كالحق في الحياة والحرية وحماية القانون وحماية الفكر وحرية التعبير والرأي وفق قوانين الدولة.

ب - الحقوق السياسية: وهي الحق في الانتخاب، حق الترشيح، حق العضوية في الأحزاب السياسية والمنظمات الأهلية والجمعيات، حق الحصول على المعلومات وتقلد الوظائف في الدولة.

ج - الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية: ومنها إفساح المجال للنقابات والحق في الإضراب، والحق في الرفاه الإجتماعي والاقتصادي، والرعاية الصحية والأمن الغذائي.

أضف إلى ذلك أنّ المواطنة في الفكر الغربي اتخذت أشكالاً عبر المراحل التاريخية المتعاقبة ومنها:

١ - المواطنة التقليدية: وهي المواطنة المبنية على الخصوصية الثقافية، وهي

(١) مسعود الريفي: م. س، ص ١١٨.

لما تمتلكه المجتمعات من ميراث تاريخي
ومخزون ثقافي وروحي ونفسي.

وفي الختام، إن كون طبيعة الشريعة
الإسلامية مستوحاة من عند الله، وخاتمة
الشرائع التي لا شرائع بعدها تجعل مما
قدمته عن الإنسان والحياة والكون نموذجًا
يستوعب البشرية بأكملها وتصلح لكل
زمان ومكان، ومن ثم فإن صفة العالمية
والعمومية والديمومة هي من صفات
الشريعة الإسلامية وإحدى مكوناتها، فما
الجدل والصراع وكثرة التغيرات والتطورات
وتعدد المواثيق والبيانات والهيئات
والاجتماعات، وتطور الدساتير والقوانين
في العالم غير المسلم إلا نتيجة حتمية
لاعتمادهم على اجتهادات وضعية لا تلبث
أن تتغير وتتبدل لأنها تخرج باستمرار عن
إطارها الزماني والمكاني.

بحث عن الموال العربي ودراسة أسلوبية في قصيدة «موال بغدادية» للشاعر فاروق شوشة

مايكل موسى

تذوق الأدب القديم، من دون الحديث، خصوصاً إذا كانت المادة الأدبية شعرية، كالشعر الحر - مثلاً - إذ لا يزال القارئ المتلقي مابين مؤيد له ومعارض، على الرغم من شيوعه، بالإضافة إلى الصعوبات التي قد تواجه الباحث في دراسة الشعر الحر، لميل هذا الشعر إلى الرمز والإيحاء أكثر من المباشرة والتقرير، ما يحتم قراءة النص غير مرّة، بغية الوصول إلى مفاتيح عامّة تفصح عن الرؤية في القصيدة.

بيد أنّ الباحث - على الرغم من ذلك كلّه - لا بدّ من أن يضع في حسبانته جملة من الأمور، منها:

أولاً: لاضير من توجه الباحث في دراسته وبحثه إلى التراث، شريطة أن لا يؤدي ذلك إلى التكرار والتشابه واجترار التراث، جمعاً وتصنيفاً وإعادة إنتاج.

ثانياً: إنّ الابداع ليس حكراً على زمن ما

المقدمة

غالباً ما يتوجّه الباحث الأدبي إلى التراث - إذا ما أُتيحت له فرصة الاختيار - لاختيار مادة يتناولها في بحثه، ومرّد ذلك إلى أمور عدّة، يقع في مقدّماتها: قوّة تلك النصوص وجودتها، وثراؤها وغناها، شكلاً ومضموناً، ما يشكّل مادة دسمة تتيح للباحث حرية الاختيار والتنقل بين موضوعاتها المتنوعة والمتشعبة، أضف إلى ذلك سبباً آخر هو كثرة المصادر التي تناولت النصوص التراثية، بحثاً ودراسةً، تفصيلاً وتمحيصاً، ما يجنب الباحث الكثير من العناء ويوفّر له بالتالي السهولة واليسر في تناول المادة التي وقع عليها اختياره، فتهيئ له تلك المصادر مفاتيح التعمق والتوغّل في سبر أغوار تلك النصوص، ولعلنا لا نغفل سبباً آخر، هو اتّجاه الأذواق - في غالبيتها العظمى - حتّى اليوم إلى

أو عصر معيّن، وإن اختلفت المعايير النّقديّة والبلاغية، فلكلّ عصر مبدعوه، وموازينه النّقديّة.

ثالثًا: من شروط البحث العلمي أن يقدّم إضافة نوعيّة في مجاله، فيكون جديدًا أو تجديدًا في ذلك المجال، إلا أنّ تناول بعض الباحثين للتّراث لم يؤدّ إلى نتائج جديدة، فمعظم تلك النّتائج كانت وصفية أكثر منها تحليلية، ما جعلها بحثًا للماضي، في الماضي، ولأجله فقط.

رابعًا: إنّ إدراك أهميّة التّراث وغناه، لا يعني التّوقّف عنده والاقْتصار عليه، بل الإفادة منه بحسبانه أساسًا ومرتكزًا، ومن ثمّ الانطلاق في بناء دراسات وبحوث جديدة تتّسم بالمعالجة العلميّة والموضوعيّة لظاهرة ما، في نصّ معيّن، بغضّ النّظر عن زمنه.

خامسًا: على الباحث أن يتحلّى بالحياديّة في نظرتّه ومعالجته للنّصوص، فلا يزدري الحديث ويقاطعه لمجرّد حدثته، ولا يمجد القديم ويتواصل معه لمجرّد قدمه، وإن كان القديم رمزًا للأصالة والإبداع.

سادسًا: إنّ المعرفة تكاملية وتراكمية، فالاهتمام بالتّراث على مرّ السّنين، ووفرة مصادره، وتدريسه في المدارس والجامعات، أدّى إلى تكوين خلفيّة ثقافية لدى الباحث تدفعه دفعًا إلى دراسة التّراث، وبالتالي تتحكّم أليًا في توجّهه، وهذا الأمر

أدّى بدوره إلى محو شخصيّة الباحث، فلا نكاد نلمسها في بحثه ودراسته.

سابعًا: إذا كان الأدب عمومًا، والشّعْر خصوصًا - في أيّ أمة - سجلًا لتاريخها، ووثيقة تسجّل مآثرها، ومرآة عاكسة لبيئة شعبها، وثقافته، وأحوال معيشتها، ألا يعني ذلك وجود قطيعة زمنيّة أو فجوة تاريخيّة بين القضايا التي تتناولها نصوص التّراث، وبين القضايا المعاصرة التي يعيشها الباحث؟ وهذا ما يدفع إلى التّساؤل: ألا يفرض الواقع المعاش نفسه على الباحث فيدفعه لدراسة النّصوص الحديثة التي تعبّر عن هذا الواقع وتجسّده؟ ألا يدفعنا الوضع الاجتماعي والسياسي المتأزّم الذي نعيشه الآن إلى دراسة الأدب الحديث بحسبانه نتاجًا نابعًا من رحم هذه الأزمة يعكس صورها وأبعادها؟ ويعالج هموم الأُمّة وقضاياها؟ ألا تستحقّ نكبة فلسطين السّلبية - مثلاً - أن نقف عندها لدراسة شعر محمود درويش أو سميح القاسم أو فدوى طوقان؟ ألا تستدعينا أحداث بغداد الأخيرة لدراسة ما كتب في هذا الحدث الجلل على الرّغم من ندرة ما كتب قياسًا بأهميّة الحدث وجسامته؟ وأخيرًا، إذا كان القدماء بدراساتهم وبحوثهم المستفيضة التي وصلتنا في نصوصهم الأدبيّة والفكرية قد وفّروا لنا أرضية خصبة لدراسة التّراث والتعرّف إلى تاريخنا من خلال دراسة تلك النّصوص، ألا يضع ذلك

المبحث الأول: فاروق شوشة ومؤاله في صفحات

أولاً سمات فاروق شوشة الشعريّة وتوجّهاته:

نتلمّس في شعر شوشة الأسلوب الدافئ واللغة العذبة السهلة، فهو صاحب الخبرة والتراث، عشق الشعر فعشقه! وأعطاه كل ما في وجدانه. ويستطيع المتأمل في شعره أن يضع يده على سمات أساسية وبصمات بارزة منها رحلته في البحث عن الحب والعشق، فكتب للمرأة عدّة دواوين منها: «أحبك حتى البكاء»، و«العيون المحترقة». فالمرأة عند شوشة أساس من أسس الشعر، كما كتب لها «إلى مسافرة»، و«لؤلؤة في القلب»، و«هئت لك» و«سيّدة الماء»، و«الجميلة تنزل إلى النّهر»..

وعُرف شوشة أيضاً بحسّه الوطني والقومي، ومناهضته للاستعمار، ومناصرته للقضايا العربيّة، وعلى رأسها القضية الفلسطينيّة، وغالباً ما نجد أنّه يحتجّ على ما يصيب الأمّة من عدوان وهوان، فيميل خطابه إلى النبرة السياسيّة العالية مرّة، وإلى الحوار الداخلي مرّة أخرى، وتختلف هذه النبرة من قصيدة إلى أخرى، ومن ديوان إلى آخر؛ فتراه راثياً مرّة لأحوال الأمّة العربيّة التي جعلت السّاقطين بني صهيون يراهنون على ما أضعنا من ملك بتخاذلنا حتّى صارت الأرض تطوى

الباحث اليوم أمام مسؤوليّة تجاه الأجيال القادمة؟ فيوفّر لهم مصادر أدبيّة أو أبحاثاً تمهّد لهم الطّريق لدراسة تراثهم أيضاً والتّعرف إلى تاريخ أجدادهم الأدبي، وإلى خصائصه وسماته؟

وعلم الأسلوب فوق هذا وذاك - على الرّغم من جذوره العميقة - هومن العلوم الحديثة، ألا يشكّل ذلك حافزاً لتطبيق نظريّاته على النّصوص الحديثة؟ وإذا كان الأسلوب هو الإنسان - بحسب جورج دي بوفون - ألا يعني ذلك ارتباط هذا الإنسان بواقعه ومعايشته المرحلة التّاريخيّة؟. تلك الأمور والتّساؤلات نتج عنها نشوء توجّه في هذا البحث نحو دراسة أسلوبية، مادّتها قصيدة حديثة نظّمت على نظام التّفعية، لشاعر معاصر، تتناول القصيدة قضيّة سياسيّة معاصرة، هي الغزو الأميركي لبغداد، شاعرنا هو فاروق شوشة، رمز الخصوبة الإبداعيّة، الذي ألّف للمرأة روائع من شعره، كان آخرها ديوان «أحبك حتى البكاء» الذي فاجأ به القرّاء في ذكرى احتفاليّته بالسّبعين من العمر. فأبي تدفق وأيّ مشاعر متأجّجة يملكها عاشقنا السّبعيني؟!

أمّا قصيدته المتناولة في هذا البحث، فهي رائعتة «مؤال بغدادي»، التي نظمها في جرح بغداد النّازف، بغداد الأم التّكلى، والأرملة التي لم تتزوّج قط!

عندما تظن أنك الذي يصولُ
أو يجولُ
أو يُسيرُ الفُلكَ
تُساقُ مثل ثورٍ هائجٍ
في متحف الزجاج والخزف
قرونه معقوفةٌ
ووجهه مكَّمٌ
وسمعه أصمٌ
فلا يرى أبعد من وليمة تُقام
أو جريمة مدبرة
وهو يُقاد للدمار كل يوم
ممتلئًا بالزهو والخرَف^(٢).

ثانيًا: لحة عن ديوان «مؤال بغدادي»:

«مؤال بغدادي» هو آخر دواوين الشاعر
فاروق شوشة، إذ صدرت طبعته الأولى عن
الدار المصرية اللبنانية عام ٢٠٠٧م. وقد
وقع الاختيار عليه في هذا البحث لعدة
أسباب، من بينها: أنه آخر دواوين الشاعر،
ولذا فهو يمثل خلاصة تجربة شعرية ثرية
تربوعلى نصف قرن من الإبداع الشعري،
وفيه معالجة لهموم أمّتنا العربية، إذ خصّها
بنصف قصائد الديوان مقدّمًا إيّاها على
سواها، وهي القصائد الست الأولى:

من تحتنا، ولم يبق لنا سوى التّباريح
والأذكار والآهات، وتراه غاضبًا محتجًا
تارة أخرى؛ فقد صفع الوضع المتأزم
والواقع العربي الشّاعر بحقائق في غاية
المرارة، وفاجأه بتخاذلات لا مبرر لها،
وممارسات مشوهة للفعل السياسي، الأمر
الذي أعلن معه الشّاعر «انكسار حلم جيل
كامل عاش على أمل بل يقين أن تمسك
أصابعه بخيوط النّجوم في السّماء، وترتفع
قاماته إلى أعلى من المستحيل، وتلتمع أمام
عينيه بروق الغد الواعدة، وأقانيهما الثلاثة
التمثّلة في: الحبّ، والحرية، والشّعْر»^(١).
وفي ديوانه «مؤال بغدادي» نقرأ أبياته:

الفاكون بنا عاثوا وما شبعوا

وطائر العرب مقصوص جناحاه

والساقطون بني صهيون ما فتنوا

يراهنون على ملكٍ أضعناه^(٢)

يتحلّى شوشة بجرأة كبيرة في توجيهه
انتقادات لاذعة للرؤساء الخانعين لإرادة
الصّهيونية العالمية، فيقول مصورًا سيطرة
«اللوبي الصّهيوني» على صنّاع القرار
الأمريكي، وتحديداً على الرّئيس نفسه،
فيخطبه بصراحة تامّة ومن دون أدنى
وجل:

(١) فاروق شوشة، أبو سنة وانكسار الحلم، جريدة الأهرام المصرية، ١٨ من أبريل ٢٠٠٤ ص ١٣.

(٢) فاروق شوشة، مؤال بغدادي، الدار المصرية - اللبنانية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٩٣-٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١-١٢.

(مفتتح، طوبى لصانع السلام، من مواطن مصري إلى رئيس أمريكي، مؤال بغدادي، بغداد، إرفع يدك).

ينزف الجرح العراقي في هذا الديوان، ولكن جراحاً أحرّ تتفتّح في قصائده، فالوعي الوطني والقومي لفاروق شوشة يثير في وجدانه هذه الحمية التي تدفعه إلى الكتابة الشعريّة المتوهّجة، فتراه ينتقل من بغداد إلى فلسطين، وينتقي رمزاً من رموز المقاومة: مروان البرغوثي، الأسير البطل، فيخطبه قائلاً:

ارفع يدك

لست مقيداً كما وهموا

ولكن نحن أدينا يكبلها الخور

ارفع يدك في وجه جلاديك واستعصم

بشيء لا يراه الناس سارٍ

في دماغك مثل برق أو شرر

غير أنّ السبب الأهم والأبرز في اختيار هذا الديوان، وهذه القصيدة تحديداً، هو المناسبة التي نظمت فيها القصيدة، ذلك الحدث الجلل الذي قوّض أركان بلد كان قبلة العلم والفنّ والأدب، ورمزاً للعروبة.

سبب تسمية الديوان بالمؤال البغدادي:

اختار الشاعر فاروق شوشة عنوان إحدى قصائده «مؤال بغدادي» لتكون عنواناً للديوان، وكأنّه يريد أن يلفت القارئ إلى

هذه القصيدة، فعندما يختار الشاعر عنوان إحدى القصائد عنواناً للديوان، تكون هذه القصيدة هي «قصيدة الديوان»، أي أنّها هي المركز الدلالي في كثير من الأحيان، فكما تُكنى الأمّ باسم أكبر أبنائها، يُكنى الديوان باسم أهمّ قصائده وأكثرها جمالية على الإطلاق، فهي العلم المرفوع رمزاً لأخواتها من القصائد، وذلك كلّه لأسباب كامنة في فكر الشاعر ونفسيته، وما لاشكّ فيه أنّ موضوع القصيدة هو الأكثر بروزاً في نظر الشاعر، أو هو الأكثر إلحاحاً على وجدانه، فتراه يحاول أن يصوّر وينقل شيئاً من هذا الإحساس إلى القارئ. وما لاشكّ فيه أيضاً أنّ إيثار الشاعر لهذا العنوان من دون سواه ليس اختياراً عشوائياً، وليس تخلّصاً من عبء وضع عنوان للديوان بأيّ حال، بل إنّ الاختيار مقصود.

ولو أنعمنا النظر في عنوان القصيدة، فسنجد أنّ هناك أكثر من معنى في مضمون هذا العنوان، الأوّل: هو أن تكون كلمة بغدادي نعناً لكلمة مؤال أو مضافة إليه، على اعتبار أن المؤال بغدادي في نشأته ونسبته، والثاني: قد يكون شوشة قصد نسبة المؤال لنفسه، فالبغدادي هو اسم لأحد جدود الشاعر شوشة، إذ أن اسمه الكامل فاروق محمد عبد المنعم البغدادي شوشة، فكانت القصيدة مؤاله الخاصّ الذي ينشده متحسراً وباكياً على ما

آل إليه مصير بغداد^(١)، والثالث: أن تكون القصيدة قد جاءت إحياءً لقصيدة تحمل الاسم ذاته، نظمها الشاعر نزار قبّاني، وألقاها في أثناء زيارته لبغداد في العام ١٩٦٢، والتي نالت شهرة واسعة، بل صارت نشيداً تغنى به البغداديون حينها، ومن أبياتها:

مدي بساطك، واملاي أكوابي
وانسي العتاب، فقد نسيت عتابي
عيناك يا بغداد، منذ طفولتي
شمسان نائمتان في أهدابي
لا تنكري وجهي... فأنت حبيبتي
وورود مائدتي، وكأس شرابي
بغداد... جئتك كالسفينه متعباً
أخفي جراحاتي وراء ثيابي
ورميت رأسي فوق صدر أميرتي
وتلاقت الشفتان بعد غياب

ومع جمالية القصيدة القبّانية وروعها، إلا أنّها من حيث المضمون لا تتفق مع عنوانها، ومع ما تعنيه كلمة موال، فهي أقرب إلى التشبّب والغزل في المليحة ببغداد، ويبدو أنّ شوشة كان أكثر توفّقاً في اختيار عنوانه، فهذه الكلمة (الموال) ظلال، تتسم بالحزن، والأسى، وندب الحال، والشكوى من الواقع المرّ الأليم، وهي معبّاة

بالشجن الفيّاض، وبالحنين الموجوع، وهي مسلاة لأصحاب المواجه والأحزان والنكبات، ويبدأ الموال الشعبي خصوصاً عند المصريين - عادةً بنداء اللّيل ونداء العين، ونداء اللّيل: لطوله وجثومه وغياب راعي نجومه، ولظلامه المنشور الضارب بأطنابه، ففي هذا النداء استعطاف واسترحام، كما أنّ فيه تعجباً من هذا الطول المفرط والظلام الملول الذي يرخي سدوله، ونداء العين: يعني سهرها في هذا اللّيل وعدم إخلادها إلى هدأة الرّاحة بسنة أو نوم، ويقظتها الدائمة جرّاء هذه الهموم، وكون هذا الموال ببغدادياً أو لبغدادياً يعني أحزان ببغداد النّازلة وأوجاعها القتالة، والعين هي عيننا السّاهرة من الأسى والأشجان^(٢).

وأياً يكن الأمر، فالقصيدة في النّهاية، موال حزين، إنّها بكائيّة فاروق شوشة.

المبحث الثاني: دراسة أسلوبية في قصيدة (موال ببغداد)

في الأسلوبية شاعت أحياناً دراسة النّص ابتداءً من ذاته، واعتماداً على النّص من الدّاخل، بعيداً من دور المؤلّف والقارئ، والمؤثّرات الخارجيّة، ولكنّ نظريّة الفصل هذه بين المؤلّف والنّص، أثبتت فشلها على

(١ - ٢) فاروق شوشة صفحة مضيئة في كتاب الشعر العربي، تأليف لجنة من النقاد والشعراء، اصدار ائبينة النعيم الثقافية ٢٠٠٧، ص ١٩٠.

مستوى التّطبيق من الوجهة الأسلوبية، والواقع أنّ الفصل بين الكاتب وظروفه وتشكيله للنّص، يضعف الدّراسة النّقديّة ويحطّ من مستواها. وهكذا، فإنّ ما يحيط بالكاتب من علاقات وظروف نفسيّة، اجتماعيّة، فكريّة، عاطفيّة، وتجارب وخبرات، له أكبر الأثر في تشكيل المادّة الفنيّة للأديب والعلاقات الدّاخلية القائمة بينها، فهناك علاقة وثيقة بين تجارب الشّاعر وخبراته وأفكاره ومشاعره واختياره لأسلوب معيّن، أو إلحاحه على صيغ معيّنة، وانتقائه لكلمات من دون سواها في تشكيل نصوصه.

لذا تأتي أهميّة الرّبط بين المؤلّف والنّص، كما أنّ التّحليل الأسلوبي غالباً ما يتّخذ طابعاً مقارناً، إذ كثيراً ما يعتمد إلى مقارنة أسلوب كاتب ما بكاتب آخر، ومدى الاقتراب أو الاختلاف بين الأسلوبين.

وعليه، إنّ عمليّة الرّبط بين العلاقات الخارجيّة والدّاخلية للنّص، تساعدنا كثيراً في تحليل معظم الظواهر الأسلوبية فيه، وغالباً ما يلجأ إليها في تفسير تلك الظواهر، فمعظم الظواهر الأسلوبية الملحّة التي نتلمسها في أدب ما - كديوان شعر مثلاً - لا يمكن إيجاد تفسير مقنع لها، ما لم نلّم بالعلاقات الخارجيّة المحيطة بالشّاعر وبظروفه النفسيّة.

اتّجاهات علم الأسلوب:

يتفرّع علم الأسلوب إلى ثلاثة اتّجاهات: الاتّجاه الأوّل: علم الأسلوب العام، ويتمّ من خلاله دراسة القوانين التي تحكم الدّرس الأسلوبي، من دون التّركيز على لغة معيّنة، وهو علم نظري، غير تطبيقي، ويوازي علم اللّغة العام.

الاتّجاه الثّاني: اتّجاه يدرس الخصائص الأسلوبية في لغة معيّنة، وهو يمثّل الجانب التطبيقي لعلم الأسلوب، ويتناول التّنوعات اللّغويّة، على غير أساس فردي، وإنّما يبحث في طاقات التّعبير في لغة معيّنة.

الاتّجاه الثّالث: اتّجاه يدرس الظواهر الأسلوبية في نتاج كاتب معيّن، محاولاً رصد الظواهر الملحّة في عمله الأدبي، وأسباب تميّز إنتاجه الفني عن غيره من الأدباء، وهذا هو الاتّجاه المتّبع في معظم البحوث والرّسائل الجامعيّة، ومنها هذا البحث.

وفي داخل هذه الاتّجاهات، سيخدم علم الاسلوب مستويات التّحليل اللّغوي، وهي: أوّلاً: المستوى الصّوتي: ويأخذ بالاعتبار الوقف، الوزن، النّبر، والمقطع، وكذلك التّنغيم كعناصر أسلوبية لافتة ومهمّة، تميّز مبدعاً عن مبدع آخر.

ثانياً: المستوى الدّلالي: وهو من أهمّ عناصر البحث والتّحليل الأسلوبي، ويركّز

على الكلمات وتركيباتها، وتجاور الألفاظ وعلاقتها بالمعنى، والصيغ الاشتقاقية وعلاقتها، وتأثيرها في المعنى، ولدراسة المجاز دور مهم على المستوى الدلالي، والمقصود: الاستخدام الاستعاري المتميز، الدال على قدرة ابتكارية في تجاوز المؤلف.

ثالثاً: المستوى التركيبي: وهو عنصر مهم في البحث الأسلوبي، ومن أهم الملامح التي تميز أسلوب المبدع، ويدرس العناصر التالية: طول الجملة وقصرها، أركان التركيب كالمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، وعلاقة الصفة بالموصوف، وترتيب التركيب، إذ إن تقديم عنصر أو تأخيرها يؤدي إلى تغيير في الدلالة، ودراسة الروابط، كالفاء، الواو، ثم، إذن، وانعكاساتها على الأسلوب.

الأسلوبية والبلاغة والنقد الأدبي:

شكلت البلاغة أساساً للدراسات النقدية قديماً وحديثاً، على الرغم من العيوب التي أتمت بها البلاغة القديمة، من إغراقها في الشكلية، واقتصارها على الدراسة الجزئية التي تتناول اللفظة المفردة ومن ثم الجملة، وبهذا تحولت البلاغة إلى قانون صارم، والخروج عليه أمر مرفوض.

غير أن الأسلوبية كوسيلة إدراك للأسلوب، وهو صفة الإبداع الفني، ومجال

التفرد والتميز، جاءت بالوسائل التعبيرية الموروثة كمجال من مجالاتها، وليس كقوانين مقدسة، ولكن على اعتبار أنها إمكانات لغوية يتم رصدها وتحليلها لاكتشاف النظام الذي يحكمها، وهكذا؛ خرجت الأسلوبية عما قدمته البلاغة من قوانين جامدة، روتينية، وآلية، إلى محاولة اكتشاف النص الأدبي، ونظام صياغته، إذ تكون هذه الصياغة جزءاً جوهرياً في العملية النقدية، وبوسع النقد الاتكاء على المعينات الأسلوبية في تفكيك الظاهرة اللغوية لإعادة تركيبها، وكشف علاقاتها، واستكشاف الميزة الجمالية فيها، فكان دور الأسلوبية سد الثغرات في علم البلاغة، وتوفير العناصر الاستكمالية للنقد الأدبي، في محاولة الكشف عن المظاهر المتعددة للنص الأدبي، وإن كان لا يمكن نفي التداخل القائم بين البلاغة القديمة والأسلوبية الحديثة.

كما شكلت الأسلوبية الجسر الرابط بين النقد الأدبي وعلم اللغة؛ فاللغة أساس الدراسة الأسلوبية، وهي تستكشف طبيعة العناصر اللغوية التي جمعت تحت نسق واحد، متمثلاً في نص أدبي متكامل.

وتجاوزت الأسلوبية اعتماد اللغة كأساس لدراسة النص إلى إزالة الحواجز بين اللغة والأدب، في محاولة لسد الثغرة التي تركها النقد الأدبي، الذي ينصب في

مفجوع يتشبَّث بتلابيب أمه الرّاحلة، رافضاً
تصديق حقيقة الممات!

ابتدأ فاروق شوشة مؤّله بنداؤ اللّيل
والعين، كعادة المنشدين المصريين، لكنّه
تعدّى إلى مناداة الأحلام الضّائعة والقمر
الغائب، والحبّ المقتول، والوجد الذي
انتحر، والشّوق الذي مات.

يا ليل يا عين يا أحلام يا قمر
يا حب يا وجد يا أشواق يا سهر

ثمانية نداءات، وثمانية مناديات، في أوّل
ابتداء! وحرف النّداء هنا (يا) ينادي به
القريب والبعيد، فهذه المناديات قريبة -
بعيدة معاً، ولا يقصد بالنّداء هنا الإقبال
بقدر ما يقصد التّفجّع والحسرة على ما
أصاب كلاً من هذه المناديات، وبما أنّ
القصيدة هي «مؤّال»، فقد بدأت باللّيل
والعين، وما سواهما مفتقد في بغداد، بعد
أن أصابها ما أصابها؛ فلا أحلام، ولا قمر،
ولا حبّ، ولا وجد، ولا أشواق، ولا سهر.
لقد تولّى هذا كلّ، وانحسر وكأّنه ينادي
هذه المناديات ليقول لها: أين أنت؟ وهل
يوجد شيء من هذا وقد تفرّق الأصحاب،
وهجروا ديارهم، ونأى مزارهم؟ وتراه -
في مقاطع قصيدته العشر - يتوقّف فجأة
عن مناداته، ليتوجّه بعدها باستفهاماته، ثمّ
يعاود النّداء مرّة أخرى، فمرّة يتوقّف ليطلب
الاستسقاء، ولكن أيّ استسقاء؟ إنّه ماء
دجلة الذي استحال إلى مُهل يقطع الأمعاء،

اهتمامات جلّها نفسيّة واجتماعيّة، ما
أضعف علاقته باللّغة، ولهذا لم تقدّم لنا
المناهج النّقديّة سوى حياة الشعراء،
تاريخهم، ومدارسهم الفنيّة التي ينتمون
إليها، من دون تقييم النّص الأدبيّ كبناء
لغويّ جماليّ فنيّ.

المبحث الثالث: دراسة تطبيقية في قصيدة
(مؤّال بغداديّ)

أولاً: على مستوى التّركيب:

الأساليب الإنشائيّة الطّليّة:

ينقسم الكلام من حيث معناه إلى خبر
وإنشاء، وما يهمّ في هذه الدّراسة هي
الأساليب الإنشائيّة وتبيين دالاتها الفنيّة
وعلاقتها على مستوى المعنى، ومن هذه
الأساليب:

النّداء:

يُعرّف النّداء بأنّه التّصويت بالمنادى
لإقباله إليك، ويخرج النّداء إلى أغراض
بلاغية متنوّعة، من الصّعب حصرها في هذا
الموضع، وهذا ما يجتهد إليه هذا البحث من
اجل استجلاء هذه المعاني، وبيان قيمتها
البلاغية على مستوى المعنى، وعلاقة ذلك
بالحالة النّفسيّة والشّعورية للشّاعر.

ويشكّل النّداء مع الاستفهام ظاهرتين
رئيسيتين في قصيدة مؤّال بغداديّ، فقد بدا
الشّاعر أنّه لا يصل إلى نقطة إشباع من
خلال نداءاته واستفهاماته، بل بدا كأنّه طفل

المتّصلة ومعناها الاضرار عن الحكم
السّابق عليها، ويبدو أنّ شاعرنا قد انتقل
في ابياته هنا من النداءات المتكرّرة إلى
الاستفهامات المتتالية، وهي معظمها
استفهامات استنكاريّة، مستخدماً فيها الاداة
يا، وقد بلغ عدد النداءات في القصيدة سبعة
وعشرين نداءً، جاء أحدها على صيغة
الندبة^(١).

واضيعة العمر بين القهر والصلف

وسالف قادننا رغماً إلى الخلف

والمناداة تتنوّع في القصيدة، فمرّة
يخاطب الشّاعر اللّيل في عمومه، ومرّة
ينادي ليل بغداد من دون سواه، وتراه يعود
في مقاطعه اللاحقة؛ فيشارك الأيام بمناداته
والسّرّاب الخؤون والبدد، وما ذاك إلاّ لأنّ
الشّاعر أدرك في قرارته أنّ لافائدة من نداء
الأحياء، أو أنّه لم يعد هناك أحياء ولا من
يلبّي النداء، فتوجّه بنداؤه إلى الجمادات.
وأولها اللّيل. الواقع أنّه هذا وذاك معاً، فهو
ليل بلا آخر، وهو في الوقت نفسه جرح
بعيد الغور ليس له شفاء قريب، والملاحظ
هنا أنّه عندما توجّه النداء في أوّل القصيدة
كان (يا ليل) ثمّ بعد ذلك تحوّل إلى (يا ليل
بغداد) ثمّ هو هنا (يا ليلنا) فلم يعد اللّيل
المطلق، ولم يعد ليل بغداد، بل إنّّه في

فهل هو انتحار؟ فهذه هي الحال التي
صارت إليها بغداد، ظلام ووحشة، وهجير
محرق، وعطش مميت، وتحوّل ماء دجلة
والفرات إلى «مهل» يغلي كغلي الحميم،
وهو المعدن المذاب المنصهر والقطران
والقيح، فلم يعد يجري فيهما الماء، والمتكّم
يطلب إلى المخاطب - مع هذا - أن يسقيه
مهل دجلة، فهذا احتجاج صارخ يصل إلى
درجة الانتحار من هذا الوضع لعلّ هذا
يجدي الذين عبّروا مسرعين كالطّيف:

هات اسقني مهل دجله

في نهلة بعد نهله

لعلّ ماء المذللّ

يصير يوماً تعله

لكلّ من رحلوا كالطّيف أو عبّروا

لم ندر هل صدقوا في العهد أو غدروا

وهنا تتمكّل الشّاعر (المنشد) الحيرة،
ويتساءل هل صدق الصّحب في عهدهم أم
غدروا؟ وربّما عكس الأسلوب الذي صيغ به
السؤال حيرة الشّاعر وقلقه وعدم قدرته
على تمييز ما يجري في شطّ المزار
(الواقع)، فلقد أتى الشّاعر بـ (هل) التي
تختصّ بالتّصديق؛ أي ثبوت النسبة بين
المسند والمسند إليه، مع (أم المنقطعة) لا

(١) فاروق شوشة صفحة مضيئة في كتاب الشعر العربي، تأليف لجنة من النقاد والشعراء، اصدار اثنية النعيم الثقافية،
٢٠٠٧، ص ٢١٠.

الواقع والحقيقة ليلنا جميعاً وظلامه حلّ
بالجميع، وإذن مثل دال اللّيل مركزاً دلاليّاً
في القصيدة، تكرر لفظه فيها ثلاث عشرة
مرة، وتوجّه الخطاب إليه في أكثر من مقطع
من مقاطعها، وشكّل بنية رمزيّة تمثّل الظلم
والظلام والعسف والقهر والطغيان
والجبروت^(١).

وتستمرّ القصيدة في مقطعها الخامس
في مناجاة اللّيل الحزينة:

يا ليل يا عين يا أيّام يا أبد
ويا سرايا خؤونا كلّ بدد
هيك انقشعت، فهل جرّبت ما نجد
ونحن فجر حسير كلّ كمد
ولم يعد في ماقي دمعنا مدد
كانت وكانوا وكنا
قلباً غفا واطمأناً

ثمّ تراه يجمع بين النداء والاستفهام،
فهو لا يستنطق الجمادات في محاولة أن
يجد أجوبة لديها لما تتملّكه من أسئلة
محيّرة، بل يبثّها همومه وشجونته بصيغة
الاستفهام الإنكاري، عن كلّ ما يجري على
أرض الواقع.

يا ليل بغداد: هل بغداد بغداد؟

وهل لموالها شدو وإنشاد؟

وهل لأطيّارها في الأفق ميعاد؟

وهل ستهجع أرواح وأجساد؟

ومع استدعاء اللّيل، والعين، والأيام،
والأبد، يستدعي المنشد المتسبّب فيما آل
إليه الواقع من آلام وأحزان ومعاناة،
يستدعي السراب الخادع (الاحتلال)، الذي
ترأى لأهل الواقع المظلم أنّه المخلص الذي
سيأتي حاملاً لهم الحرّية والاستقلال
والتمتّع بثروات بلادهم، فإذا بهم في واقع
أسوأ من ذي قبل، وإذ بالمخلص (سراباً
خؤوناً كله بدد)، لذا يدعو المنشد أن يرحل
(هيك انقشعت) وأن يشعر بما هم فيه من
محن ومصائب وآلام (فهل جرّبت ما
نجد؟)، فواقعهم يمكن أن يعود إلى إشراقه
وجماله، لأنّه يحمل بذور ذلك، إنّه فجر إلّا
أن كثرة ما يتعرّض إليه من محن أصابه
بالإعياء، فذهب صفاؤه وإشراقه، ولم يعد
أيّ شيء على حاله (لا النّاس ناس، ولا
بلدانهم بلد).

هيا تلتفت فما في دارهم أحد

لا النّاس ناس، ولا بلدانهم بلد

فقد تغير كلّ شيء، ولم يعد هناك أحد،
حتّى من بقي منهم، فليسوا على ما كانوا
عليه، فهل هذا ما تريد أيّها اللّيل الثّقيل.

(١) المصدر السابق نفسه.

الاستفهام:

يعود شوشة إلى الاستفهام في مواله
الباكي، ونراه يقول:

يا ليل بغداد هل بغداد بغداد

وهل لموالها شدو وإنشاد

وهل لأطيّارها في الأفق ميعاد

وهل ستهجع أرواح وأجساد

آهاتها كلّ يوم فيك تزداد

هذه الاستفهامات الأربعة كلّها استفهامات إنكارية، فليست بغداد التي نعرفها هي بغداد، ولم تعد مدينة للغناء كما كانت. إذ خرس موالها وصمت، ولم يعد لطيورها في جوّها أمان، فلم تعد تلتقي كما كانت بل تفرقت بدءاً كما تفرقت أهلها، ولم تعد مدينة السلام، مدينة تهجع فيها الأرواح أو تهدأ الأجسام، فالآلام تزداد يوماً بعد يوم، وتبدل سحر بابل، وحلّ محلّه أزيز الرصاص، ودويّ القنابل التي تزلزل كلّ شيء وتفجّر كلّ مستقرّ وكبّلت الحريّات واستخزي كلّ من فيها، فليس فيهم مقاتل عنها، وصفدت الأمجاد، واستعلنت المخازي وصارت شارات بدلاً من شارات المجد المدبرة.

ثمّ يتبع هذا الصّوت المتعاطف بمجموعة آخر من الأسئلة التي تشكك في وجود شيء من هذا، قال:

هل ثمّ دار ومأوى

أم جبّ حلم ومهوى

وهالك دون مثوى

محوه بالأمس محوا

فهل يفيق، وهل ينجو من الخبل؟

وهنا تأتي هذه الأسئلة ردّاً على ما فات، فيأتي السّؤال الأوّل «هل ثمّ دار ومأوى؟» لأولئك الباحثين عن طلل وعن رصيف وعن مقهى، وتأتي «أم جبّ حلم ومهوى» لأولئك الباحثين عن أمل، وتأتي «وهالك دون مثوى محوه بالأمس محوا» لأولئك الباحثين عن مفاتيح جرح غير مندمل وعن بقايا صبا ولّى على عجل، ويأتي السّؤال الأخير ردّاً على الطّارق الذي يدقّ أبواباً بلا ملل، بحثاً عن مخرج فيتوجّه إليه، فهل يفيق وهل ينجو من الخبل؟ أم أنّ مقدوره إغفاءة الأجل إلى غير نهاية؟ وهكذا يرد بعض هذا المقطع على بعضه، فيحكم دائرة القنوط، ولذلك يستمرّ - معاوداً - في المقطع الرّابع، نداء هذا الليل، ليل بغداد المطبق بظلامه ووحشته.

ولعلّ ذلك يرجع إلى شدّة اندهاش الشّاعر لما يجري في بغداد الحضارة والتّاريخ، وما آل إليه أمرها من دمار وتخريب بأيدي أعدائها تارة، وعلى يد العملاء تارة أخرى، وهي أمور تجعل المرء حيراناً، ويريد الشّاعر أن يشرك معه المتلقي في دهشته واستنكاره وتعجّبه، لذا،

كان لجوؤه لهذا اللون من الأسلوب، حتى
إنه ليشرح الجمادات ويسائلها، ومن ذلك
تشخيصه لليل بغداد وندائه وطرح العديد
من التساؤلات عليه، إذ يقول في بداية
المقطع الثاني من القصيدة:

هل أنت باقٍ هنا يا ليل أم عابرٌ

وهل وعيت الذي يبكي له الشاعرُ

وهل مددت يداً للباثس العائرُ

وهل هبطت على ركنٍ بلا زائرُ

لم يبقَ منه سوى تذكاره الغابرُ

تواصل مناجاة هذا الليل القاهر
المستبدِّ، ونحن أمامه لا نملك من أمر
أنفسنا شيئاً، وصوتنا في هذه المناجاة
الحزينة هو صوت «المتكلم» الشاعر، فنحن
لا نعرف إن كان هذا الليل باقياً إلى غير
نهاية، أم هو عابر سوف ينقش عمّا قريب،
وهل يدرك أصلاً هذه المعاناة، وهذا البطش
الذي أوقعه على بغداد، أو هو لا يبالي
(وهل وعيت الذي يبكي له الشاعر)، وهنا
ندرك من هذه الصفات أنّ هذا الليل الباطش
هو قوّة البغي والعدوان فكيف يمدّ يداً
للباثس العائر؟ إنّ هذا الليل لا يعنيه في
شيء ممّا حلّ به أو وقع عليه، فسواء أكان
هذا الركن مأهولاً أم كان مهجوراً، لم يبقَ
به إلا الذكرى الغابرة، ثمّ يأتي القرار أو
الردّ في أبيات المجتث التي تحسم الإجابة
عن التساؤلات الماضية.

الأمل الذي بدا في المقطع السابق واهناً
ضعيفاً ممثلاً في فجر حسير كلّ كمد،
يظهر في المقطع السادس متشخصاً بعيداً،
تستحثّه القصيدة ألاّ ينتظر طويلاً، فنحن
في شوق إليه ولهفة، وتبدأ المقطع
بالتساؤل عنه:

من أنت يا شاخصاً في البعد تنتظر

لعلّ ضوءاً من الأفاق ينهمر

أو ظلمة من دياجي القهر تنحسر

لا تنتظر أحداً فالقلب منكسر

والسرّ يطوى بعيداً ثمّ يستتر

إني أنادي أنادي

من قاع ليل الحداد

أصبح أين بلادي

وأين مالي وزادي

هل أنت من توجوك اليوم، وانتشروا

للسلب والنهب، والتاريخ يندثر

إنّ قوّة الأمل تشخّصت في واقف ينتظر
على بعد، لا يرى بوضوح، مشكوك فيه لعلّه
الضوء المأمول الذي يراد له أن ينهمر من
الأفق فيؤدّي إلى انحسار ظلمة من دياجي
هذا القهر الماحق. أيّها الأمل لا تنتظر
فالقلوب كسيرة ولا تجعل سرّك ينطوي
بعيداً عنّا. تأتي أبيات المجتث في مكانها
المعهود صارخةً نادبة، ونجد أنّنا أمام ليل
آخر هو ليل الحداد العميق القاع، وتخرج

الصَّيْحَة من هذا الجبِّ المظلم «أين بلادي»
ويتكرَّر النَّداء دون جدوى، ويكون السَّؤال
التَّالي عن الماء والزَّاد، وهما مقومًا الحياة.
فقد سلبوا البلاد وسلبوا معها مقومات
الحياة، ويظهر الشُّك في ذلك الشَّخص عن
بعد ينتظر ولا يتقدَّم «هل أنت من توجَّوك
اليوم» للإلهاء وشغل الأنظار عنهم حتى
يتفرَّغوا هم للسَّلب والنَّهب وتحطيم
التَّاريخ. لقد رأى الزَّائر إنسانًا شاخصًا في
البعد (المادِّي والمعنوي) ينتظر لعلَّ ضوءًا
(نهارًا) من الأفاق ينهمر (يأتى متدفِّقًا)
حاملًا النُّور والخلّاص إلى الواقع، أو لعلَّ
ظلمة من ظلمات القهر والاستبداد تنحسر.
ولكنَّ الزَّائر يخبره ألاَّ ينتظر أحدًا، فالواقع
المظلم قد أحكم سيطرته، وأخضع الكلَّ له،
وانتشر (للسَّلب والنَّهب)، وعلى الرِّغم ممَّا
يقوله الزَّائر للمواطن، إلاَّ أنَّ المواطن يعلن
أنَّه لن يستسلم، وسيظلُّ ينادي من قلب هذا
الواقع المظلم (من قاع ليل الحداد)، ويصيح
(أين بلادي؟ وأين مائي وزادي) حتَّى تعود
بلادها إلى سابق عهدها، وحتَّى ينعم أهلها
بخيراتها وثرواتها التي سلبت ونهبت على
يد المستعمر الغاصب.

الأمر والنهي:

لأمر والنهي دورهما في قصيدة
شوشة وإن كانا أقلَّ الأساليب الإنشائيَّة
شيوعًا في القصيدة، إذا قورنت بأسلوبَي
النَّداء والاستفهام الغالبين على القصيدة؛

فمن خلال هذين الأسلوبين برزت مشاعر
الشَّاعر الآخر عدا البكاء والحزن الصَّارخ،
وهذا يتجلَّى في عباراته:

هات اسقني مهل دجلة، هيَّا تلفت فما
في دارهم أحد، لا تنتظر أحدًا فالقلب
منكسر، دوسي على الشُّوك وامضي،
وباركي كل أرض.

ثانيًا: على مستوى الصُّورة:

الصُّور الشعريَّة هي أهمُّ ما يميِّز
الشَّاعر، لأنَّ قيمة الشُّعر إنَّما تتجسَّد بها،
وهي التي تحيل المعاني المجرّدة إلى
امتثالات عينيَّة تنفعل لها الحواس ويستثار
بها الوجدان.

أكثر شوشة في قصيدته من لونٍ واحدٍ
من التَّشبيه، وهو التَّشبيه التَّمثيلي، وهو ما
يكون وجه الشُّبه فيه صورة منزعجة من
متعدِّد، ويعدُّ «التَّشبيه التَّمثيلي» أقصى
امتداد للصُّورة البلاغيَّة، يُلاحَظ ثراء
الصُّورة (التَّشبيه) وإيحاؤها من خلال
مجيء الطَّرفين في صورة مضاف ومضاف
إليه (ماء المذلَّة)؛ أي تحوُّل الطَّرفان من
مركَّبين منفصلين إلى مركَّب واحد، على
الرِّغم من عدم غياب أيِّ طرف منهما على
مستوى الصِّياغة، ويلاحظ كذلك استخدام
المواطن للأداة (لعلَّ) التي هي لتصوير
وتقديم ما هو محال وغير متوقَّع في
صورة الممكن والمتوقَّع، وفي ذلك دلالة

على مدى الألم والمعاناة التي يعيشها المواطن العراقي، (لعلّ ضوءاً من الافاق ينهمر) كما نجدها في: (دوسي على الجمر وامضي بركان جمر وومض)، (تصون أشلاء عرض)، ويصوّر اختلال الموازين وتغيّر الزّمان في أمة كُبلت، فصار المجد فيها أصفاداً وأما المخازي فهي شارارات!:

في أمة كُبلت، فالمجد أصفاد

أما المخازي فشارارات وأمجاد!

كما نتلمّس صوراً استعارية في موال شوشة، والاستعارة: نقل لفظ من معناه إلى معنى مجازي، مع وجود قرينة تدلّ على أنّ المعنى الأصلي للفظ غير مقصود، وقد تكون القرينة ظاهرة أو تفهم من فحوى الكلام^(١)، ونجدها في القصيدة بقوله: (أمومة من رحيق الطلّ والوقت، هزرتها فاستطالت وبالرياحين مالت)، كما تطالعنا صور بديعية كالجناس: وهو توافق لفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى، ونجدها في قوله: (محوه محوًا، يأكل صدعًا وتحت الصدع ندفن، يردّ الموت بالموت، أما كفى ذلك يكفي، من ليل خوف لخوف، ما بين حتف وحتف)، ولا نغفل الطباق، ويطالعنا في قول شوشة: (لا النَّاس ناس ولا بلدانهم بلد، غدًا سيأتي ويمضي).

ثالثًا: على مستوى الموسيقى:

يبني الشّاعر قصيدته بطريقة مقطعية حتّى يعطي لإنشاده فرصة للتّنوع الإيقاعي والموضوعي، وتتألّف قصيدة «موال بغدادي» من عشرة مقاطع، يتكوّن كلّ مقطع من أحد عشر بيتًا، الخمسة الأولى منها تأتي على البسيط المشطور (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن) ثمّ تأتي أربعة أبيات على المجتث المنهوك (مستفعلن فاعلاتن)، ثمّ يعود الشّاعر في البيتين الأخيرين إلى البسيط المشطور، وفي المقطع الأوّل من القصيدة توجد فيه قافية / رويّ (الرّاء) في البسيط المشطور، وهو صوت مجهور مكرّر يتميّز بقوّة وضوحه السّمعي، وكذلك الحال بالنّسبة إلى (اللام) التي جاءت قافية رويّ في المجتث المنهوك، ومن ثمّ يبرز علوّ درجة الصّوت في مقطع النّهاية (القافية) للإفصاح عن خطورة ما يعانيه الواقع، أمّا في المقطعين (الثّاني والثّالث) فالإيقاع يتّسم بالرتابة والهدوء، ويشيع نغمًا حزينًا وجوًّا جنائزيًا يعكسان حسرة الشّاعر وحزنه لما آلت إليه بغداد. وفي المقطعين (الثّاني والثّالث) نلاحظ أنّ الإيقاع فيهما يتّسم بالرتابة والهدوء، ويشيع نغمًا حزينًا وجوًّا جنائزيًا يعكسان

(١) معين الطالب في علوم البلاغة، محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٠، ص ١٠١.

لا تنتظر أحدًا، فالقلب مُنكسرٌ

وما بين بعد الخروج إلى الهمس في المقطع السابع، يعود الإنشاد مرّة ثانية إلى الجهر والإعلان الصّارخ مع المقطع الثامن، إذ توجد قافية / روي (الميم، والضاد)؛ رغبة من المنشد الزائر والمواطن في استنهاض الهمم، وعدم اليأس والاستسلام للواقع الراهن، في محاولة منه لاستنهاض الهمم. ولا تغفل دلالة النّفي الممتزجة بالاستنكار في سؤال الشّاعر (هل هو الوطن؟) التي جاءت في ختام القصيدة، أنّ إيقاع النّهاية ما زال يتّسم بعلوّ درجة الصّوت، إذ يظهر في المقطعين قافية / روي حرف (الدّال) وهو صوت أسناني لثوي شديد (انفجاري) مجهور، و(اللام) وما يتصف به ايضاً من الجهر وقوّة الوضوح السّمعي. كما ساعد على علوّ درجة الصّوت في مقطع النّهاية.

الخاتمة

استطاع الشّاعر من خلال هذه القصيدة أن يعبر عن حلمه القومي وصوته الدّاتي، كما استطاع أن يجسّد صوت المواطن العراقي المتشابك في مدّه وجزره، مابين أحزان الأمس، وآلام اليوم، دون أن يتحوّل الحزن إلى يأس، أو المعاناة إلى إحباط، بل كلّما طغى على شوشة اليأس، طفق علينا ببارقة أمل جديد، لعلّها البارقة التي تحدو

حسرة الشّاعر وحزنه لما آلت إليه بغداد، وظهر هذا بوضوح في بقية مقاطع القصيدة، ويبدو أنّ الشّاعر استخدم التّكرار، في مناداته واستفهاماته، وتعداد الأشياء المؤلمة القاسية التي تسود الواقع بشكل متتابع متلاحم دون اللّجوء إلى استخدام وسيلة العطف تارة، ومن ثمّ معاودته للاستفهام المقترن بالعطف تارة أخرى، جعل من الشّاعر يبدو كما لو أنّه يضطرّ أحياناً للتوقّف أو الإبطاء لالتقاط انفاسه! فتراكم الاستفهام بـ (هل) والذي لا يعمد الشّاعر من ورائه إلى طلب التّصديق أو الاستفهام عن تحقّق الفعل من عدمه، فاستخدام حرف العطف (الواو) قد أعاق المتكلّم في تصريحاته، وأبطأ من إيقاع حديثه. وكان الاستفهام المجرد من العطف، للإسراع بالإيقاع، يعود المنشد الزائر مع المقطع الخامس، ويكرّر قوله: «يا ليل، يا عين»، كما فعل مع المقطع الأول، إلّا أنّه هذه المرّة يستدعي معهما الأيام التي لا تبقي شيئاً على حاله، والتي لا تعرف دوام الحال «يا أيام، يا أبد».

حتّى إذا وصلنا إلى المقطع السادس لاحظنا لغة الخطاب الذي يبدؤه شوشة كأول حوار:

من أنت يا شاخصاً في البعد تنتظر؟

لعلّ ضوءاً من الآفاق ينهمرُ

أو ظلمة من دياجي القهر تنحسرُ

- العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧.
- بيير جيراو، الأسلوب والأسلوبية، ترجمة الدكتور منذر عياشي، طبعة مركز الإنهاء القومي.
- د. صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وأجراءاته، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٩٩٨.
- عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤.
- فاروق شوشة، ديوان موال بغداد، الدار المصرية اللبنانية للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧.
- محمد أمين الضناوي، معين الطالب في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١٠.
- نهيل أحمد كنانة، دراسة أسلوبية في شعر أبي فراس الحمداني، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية - نابلس، ٢٠٠٠.

المصادر المساعدة

مجموعة مقالات الكترونية

- أحمد فضل شبلول، فاروق شوشة وبداية جديدة في السبعين، مجلة انهار، العدد ٧٠، حزيران ٢٠٠٦.
- أحمد فضل شبلول، فاروق شوشة قمة في الابداع، مقال على شبكة ناشري الالكترونية.
- د. صلاح فضل، شعرية فاروق شوشة، مقال على موقع الندوة العربية، نقلاً عن جريدة الأهرام المصرية.
- علي عطا، وجوه في الذاكرة: وجه جديد للشاعر فاروق شوشة، الموقع الالكتروني لمجلة لها.
- محمد عبد العباسي، الشاعر شوشة عندليب لغتنا الجميلة، مقال نشر في صحيفة دنيا الرأي الالكترونية
- نصير الخزرجي، قراءة في ديوان الموال الزهيري، دراسة على موقع شبكة النبا المعلوماتية.
- ويكيديا الموسوعة الحرة، نقلاً عن كتاب الأدب الشعبي العراقي، للأديب ماجد شبر.

الغريق للتمسك بقشّة! أو من يبهبه التماع السراب فيحسبه ماء! وقد تكون بارقة من لم يزل يتمسك بالأمل على الرّغم من ظروف القهر والاستبداد، وعلى الرّغم من ظلمة الطّغيان ووحشته وجبروته، فيوقد قناديل الأمل لتضيء له الطّريق، من يدري؟! لقد وفق شوشة من خلال بلاغة النّصّ، والتحام بنيته، والاستخدام العروضي المميّز، والانتقال من وزنٍ إلى وزنٍ، ومن صورةٍ إلى أخرى، وتوظيفه مختلف الأساليب البلاغية، واستخدامه للأساليب الإنشائية، والإيقاع الصّوتي المميّز، استطاع من ذلك كلّ أن يحقق نجاحًا باهرًا، وإدراكًا كبيرًا للهدف، كما وتمكّن من أن يحدث تلوينًا في أسلوب النّصّ، وأن يشيع نغمًا حزينًا وجوًّا جنائزيًا يعكسان حسرة الشاعر وحزنه لما آلت إليه بغداد، كما استطاع أن يبرهن انتفاء أن يكون الشّعور قد صار بهتانًا يمشي في الأسواق، ويؤكد أنّ الشاعر الحقيقيّ مَنْ يتوّج بتاج الإحسان، وقصيدته مع كلّ ميزات الجمالية والتعبيرية، مع روعتها، فإنّها تمسّ الوجدان، وتلامس الجرح المتوغّل في أعماق النّفس، كما لا تنكأ الجراح بقدر ما تشكّل لمساتها بلسمًا، أو نجد فيها تعلقًا عمّا ألمّ ويلمّ بنا.

المصادر والمراجع

- أحمد بن فارس، الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب

مراجعة ١٩١٥ خلال الحرب العالمية الأولى وأثرها على لبنان

د. نصر قرحاني

جبلي، حالا دون تمتعه ببحبوحة اقتصادية تتيح لأبنائه سبل العيش الوفير، الأمر الذي جعله من أكثر بلدان المنطقة تأثراً بهذا الحصار.

ثم إنَّ هذا الواقع الجغرافي، كان قد دفع فريقاً من أبنائه منذ القدم، لأن يولي وجهه نحو الخارج حيث البحر المتنفس الوحيد لكل من ضاقت أمامه سبل العيش. ومع حلول حكم العثمانيين وما رافقه من نظام إقطاعي؛ أثقل كاهل الفلاح بالضرائب.

ومن الضغوط السياسية قيدت حرية الفكر والرأي، تصاعد تيار الهجرة إذ غادر الفلاح أرضه تهرباً من الضرائب وهجرة أرباب الفكر والقلم بلادهم توخياً للحرية المنشودة. ويكفي أن نذكر في هذا المجال، أنه في ما بين عامي ١٩٠٠ و١٩١٤م، انخفض عدد سكان لبنان إلى خمس وعشرين بالمئة، أي ما يوازي مئة ألف نسمة. وكانت تقع على عاتق هؤلاء المهاجرين، مسؤولية على أنفسهم وإرسال

شهد لبنان خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ضيقاً اقتصادياً منقطع النظير، فنزلت به من جرائه أفزع النكبات الاجتماعية التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً.

فمع دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور، فرض الحلفاء على الشواطئ السورية واللبنانية حصاراً اقتصادياً الهدف منه الحؤول دون دخول سفن الأعداء إليها، وهو الأمر الذي جعل لبنان يتعرض لأزمة اقتصادية أخذت وطأتها تزداد مع مرور سنوات الحرب وتهدهه بأوخم العواقب. فنتيجة تدابير الحلفاء هذه، توقفت حركة الاستيراد والتصدير؛ وانقطعت الموارد الغذائية من الخارج. فضلاً عن حرمان اللبنانيين من المساعدات التي كانت تردهم من أبنائهم المغتربين.

والواقع أن التركيبة الجغرافية لجبل لبنان وتوقعه، بمقتضى قانونه الأساسي لعام ١٨٦١م ضمن حدود ضيقة معظمها

ما توفر لديهم من مال إلى ذويهم في لبنان^(١).

كان من الطبيعي والحالة هذه، أن يلحق الحصار البحري المفروض على السواحل أضرارًا جسيمة بلبنان فمع انسداد المنافذ البحرية، توقف سير العمل فيه. ومع مرور سنوات الحرب، نفذت المدخرات منه وخسر المورد الضئيل الذي كان يبيعه للمعامل الفرنسية^(٢) حتى موارد الصيد فقد ضاقت سبلها في وجه أبنائه؛ حين أقدمت السلطات المحاصرة على تحديد مناطق الصيد ضمن نطاق ضيق الأمر الذي اضطر الصيادين إلى الاكتفاء بالقليل من هذا المورد. ولم تجد محاولات السلطات العسكرية الفرنسية التخفيف من وطأة الحصار عن اللبنانيين، بالسماح لهم بالاتجار مع مدن الساحل، ضمن نطاق ضيق من أجل الحصول على المؤن^(٣) إذ لم تكن لتجنيبهم الكوارث التي حلت بهم من جراء انقطاع مواردهم من الخارج، خاصة بعد أن أقدم الحلفاء على تشديد حصارهم الاقتصادي بصورة غير

إنسانية لدى إقدام الإنكليز على احتجاز باخرة محملة بالمواد الغذائية والألبسة في ميناء الاسكندرية، كان قد أرسلها المغتربون السوريون واللبنانيون في مصر والسودان إلى ذويهم، استجابة لنداءات الاستغاثة التي أطلقها الجياع، مفضلين أن تتلف محتوياتهم وهي راسية في مكانها على أن توزع على المنكوبين وقد برر الجانب البريطاني خطواته هذه، بدافع الخوف من أن تستفيد السلطات التركية من حمولة الباخرة^(٤).

لم يكن الحصار البحري كل ما ابتلي به لبنان. فلقد حملت السنة الثانية للحرب، أعظم الكوارث وأشدّها أثرًا على الوضع الاقتصادي. فمئذ أواسط نيسان من عام ١٩١٥م، أخذت أسراب الجراد تغزو البلاد مغطية سماءها حتى كادت تحجب شمسها، آتية على الأخضر واليابس، مجردة الأرض من خضرتها ومحاصيلها بعد أن غزت بجيوشها البساتين والحقول، حتى غدت صحراء الشويفات وكروم الساحل وكأنها أثرٌ بعد عين^(٥).

كان اقتحام هذه الآفة الفتاكة لأجواء

(١) فليب حتي: لبنان في التاريخ، بيروت، نيويورك، ١٩٥٩، ص ٥٧٧.

(٢) يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام، الجزء الثاني، بيروت، لادارة بدون تاريخ، ص ٨٥٣-٨٥٤.

(٣) خليل كنعن: بيروت في التاريخ، الجزء الأول، ١٩٦٣م، ص ١٨١.

(٤) يوسف مزهر: مرجع سابق، ص ٨٥٣-٨٥٤.

(٥) لحد خاطر: عهد المتصرفين في لبنان ١٨٦١-١٩١٨م، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٧م، ص ٥٠. وابراهيم.

الأسود: تنوير الاذهان في تاريخ لبنان، المجلد الثالث، لا دار، بيروت، ١٩٢٥م، ص ٢٥.

كانت العملة المتداولة في الامبراطورية العثمانية قبل عام ١٩١٤م، الليرة العثمانية الذهبية وتوابعها من نصف ليرة ذهباً، والعملة الفضية المجيدي ونصف المجيدي وربعه، والقطع المعدنية الممزوجة فضة، كالزهرراوي والبشلك ونصف البشلك والبرغوث، ثم المتليك والغرش ما كان يشكل فوضى مالية متشعبة تختلف باختلاف البلاد، إذ كانت أربعة أرباع الليرة لا توازي الليرة قطعة واحدة، ومثلها أربعة أرباع المجيدي التي كانت لا توازي المجيد قطعة واحدة، وكذلك البشلك لا يعتبران بشلكاً. وإذا كان السعر الحكومي لليرة هو مائة غرش صاغ، فإنه عند المداولة ١٢٤ غرشاً. هذا الواقع النقدي الفوضوي، أهاب بالحكومة لأن توحد عملتها، فأصدرت قراراً قضى أن يتم التداول بالليرة العثمانية اعتباراً من ١٣ كانون الاول من عام ١٩١٥م بمائة وثمانية غروش وأن يتداول المجيدي في مركز الولاية وملحقاتها. وحدد البشلك لهذا القرار بالعقاب وفقاً لأحكام المادة الرابعة والسبعين من قانون الولايات الصادر في ٩ تشرين الثاني من عام ١٣٣١ هجري^(٢).

لبنان نذير شؤم وخراب إذ تراءى من ورائه شبح مجاعة رهيبة هددت البلاد والعباد. فبعد هذه الغزوة غدت الأرض قاحلة ماحلة، وتعطلت الأشجار عن الإنتاج. ذلك أن هذه الحشرة بعد أن قضمت الفروع تمكنت من التحكم بالأصول والجذوع، وكان لشدة هولها أن ألقى الرعب في النفوس ما دفع الأهالي إلى مكافحتها بمساعدة الدولة لكن من دون نتيجة تذكر وأمام هول القضاء عليها فارضة على كل متخلف عن السخرية أجرة عامل. وبفضل هذه الجهود أمكن انتزاع بيوض هذه الآفة وتسميد الأرض^(١).

على أن النكبات التي نزلت بلبنان لم تقف عند هذا الحد، إنما أخذت تتوالى عليه الواحدة تلو الأخرى، فكان ثالثها عام ١٩١٥م عندما أقدمت الحكومة على طرح نقد ورقي جديد في الأسواق بكميات كبيرة ولأول مرة في تاريخها^(٢). بدافع حاجتها الماسة إلى المال لمواجهة نفقات الحرب الباهظة التي تخوضها. وقد كان إجراؤها هذا بالغ الخطورة نظراً لافتقار النقد المستحدث إلى التغطية الذهبية والأدهى من هذا، أنها أجبرت مواطنيها على التعامل به بدل الذهب.

(١) الأهرام العدد ١١٧٢٣، ١٢ مايو، ١٩١٦ م، وإميل يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد ال عثمان، دار النهار للنشر، بيروت - ١٩٨٠ م، ص ٢٤٨، و خليل كنعان، مرجع سابق، ص ١٦٨.
(٢) جرجس المقدسي: اعظم حرب في التاريخ، بيروت، ١٩٢٧، ص ٥٧.
(٣) خليل كنعان: مرجع سابق، ص ١٧٣-١٧٤.

إلى ثلاثين غرشاً، وكلما هبط سعر النّقد تصاعدت الأسعار^(٣).

ومع تزايد حاجة الدولة إلى الذهب، كانت تضطر إلى إصدار المزيد من بيانات حظر التّعامل به، معتمدة أسلوب الترهيب حيناً، والتّرعيب حيناً آخر. ففي عام ١٩١٧م، أصدر جمال باشا بياناً حذر فيه المواطنين من التّعامل بالذهب تحت طائلة المسؤولية وفي بيان آخر، أعلنت الدولة استعدادها لأن تمنح كل شخص يستبدل من خزينتها عشر ليرات ذهبية بعشرة ورقية، شهادة بصدق عثمانيته، في حين عمدت إلى بث عيونها وأرصاها في كل مكان لاكتشاف المخزون منه، وذلك بمداهمة المتجولين والمسافرين وتفتيش جيوبهم تارة، أو بارسال شرطتها إلى مخازن الصاغة لمصادرة ما يريدون من صناديقهم طوراً^(٤).

كان النقد الورقي بمثابة كارثة حلت باللبنانيين. فتحت وطأة الضائقة الاقتصادية التي نزلت بهم وحاجتهم الماسة إلى المال، اضطروا إلى الاعتراف بمساواة الليرة الورقية للذهبية على الرغم

لاقى النّقد الورقي الذي ضمنت المانيا جزءاً منه، رواجاً في الأسابيع الأولى من طرحه في التّعامل. وقد بذلت الدولة جهوداً ملحوظة من أجل تثبيته. إلا أنّ هذا الأمر لم يستمر طويلاً، إذ لم يكد يمضي شهر واحد على ذلك حتى اخذت قيمته بالهبوط على الرغم من المراقبة المشدّدة التي فرضتها على التجار وإقدامها على نفي بعض المضاربين بأسعاره. وعلى الرّغم من هذا الهبوط، فقد أصرت الحكومة على اعتبار الليرة الورقية مساوية للذهبية، مرغمة الناس على التّعامل بنقدها الجديد بدل الذهب، كما أبقت على قيمته المساوية للذهب في الدوائر الرسمية تستوفي منه الضرائب وتدفع النفقات والرواتب^(١) غير أنّ تدني قيمة النقد بصورة مستمرة، جعل أهالي حوران، وهي أكثر المناطق إنتاجاً للقمح، يرفضون التّعامل به الأمر الذي حمل السلطات في ولاية بيروت لأن تنذر الممتنعين عن قبض العملة بالعقاب وبإحالتهم إلى المحكمة العسكرية^(٢).

ومع كل هذه الإجراءات، فقد واصل النقد المستحدث هبوطه حتى وصل سعر الليرة الواحدة إلى أربعين غرشاً وأحياناً

(١) جرجس المقدسي: مرجع سابق، ص ٥٧ ويوسف الحكيم، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٢) خليل كنعان: مرجع سابق، ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) إميل يوسف حبيش: مرجع سابق ٩٧-١٠٥.

(٤) انطوان يمين: لبنان في الحرب العظمى، الجزء الاول، بيروت ١٩١٩، ص ١١٧.

عن دولة مثقلة خزينتها بنفقات الحرب الأمر الذي أدى إلى اختفاء المواد الغذائية من الأسواق. وازداد الوضع سوءاً مع امتناع أصحاب الأفران بدورهم عن قبض نقد الدولة المستحدث»^(٣).

لم تدع الدولة وسيلة إلا ولجأت إليها لمواجهة متطلبات الحرب ونفقاتها الباهظة من دون الاكتراث بالأضرار التي قد تلحقها إجراءاتها بالمواطنين. فقد كانت أولى خطواتها في هذا المضمار، تشكيل لجنة في الخامس عشر من تشرين الأول من عام ١٩١٥م، أعضاؤها من العرب دعيت «لجنة التكاليف الحربية» مهمتها مصادرة ما يحتاج إليه الجيش من متاجر التجار من مؤن ضرورية. وقد عمدت هذه اللجنة إلى تسليم التجار مقابل ما تصادره من متاجرهم، لائحة بالكميات المصادرة شملت كل مادة وجدت في الأسواق وكانت ضرورية في نظر اللجنة، كالأطعمة المحفوظة والأقمشة، إضافة إلى الأخشاب والترابفة الإفرنجية والحديد وسواها من المواد التي رأت الدولة أنّها ضرورية لإقامة استراتيجيتها العسكرية على جبهات القتال^(٤).

من الأضرار الجسيمة التي يلحقها بهم هذا الاعتراف. وتحت وطأة العوز والفقر، كان المحتاج الذي يقترض ألف ليرة ورقية، يضطر إلى أن يعترف، بموجب سند، أنه قبض المبلغ بالليرات الذهبية نقداً وعداً^(١).

ليس هذا فحسب بل لقد وصل الأمر بالدائن، أن لا يكتفي أن يرد له المدين الليرة الورقية أخرى ذهبية، أي خمسة أضعاف قيمتها الأصلية بل أضاف إليها الربا الفاحش بمقدار ثلاثين أو خمسين بالمئة. وكثيراً ما كان يرضى بهذا الربح، كي يضمن دينه، وكان على المدين أن يرهن لديه أرضه بيعاً بنصف ثمنها، وإذا حان الوقت ولم يرد هذا ما يتوجب عليه، ذهبت منه أرضه^(٢).

وعلى هذا كانت النكبة التي لحقت باللبنانيين جراء هذا النقد مزدوجة. فقد أدى من جهة إلى ضياع جزء من ثروتهم المادية، ومن جهة أخرى، أحدثت ركوداً في حركة البيع والشراء نتيجة تهرب الناس وخاصة التجار من قبضه، مفضلين الاحتفاظ بما لديهم من غلال، وبضائع على أن يبيعوها بأوراق نقدية متدنية القيمة لافتقارها إلى التغطية الذهبية ولصدورها

(١) يوسف الحكيم:، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٢) عمر أبو نصر: الحرب العظمى، ج ٤٨، م ٢، بيروت، لبنان، ص ٤.

(٣) إميل يوسف حبيس، مرجع سابق، ص ٩٧-٩٤.

(٤) انطوان يمين: مرجع سابق، ص ٣١.

كما شملت الغلال والأغذية على اختلافها والفواكه. ثم لم تلبث المصادرات أن تجاوزت هذا الحد، لتصل عام ١٩١٥م إلى وسائل النقل البدائية كالدواب والمواشي الأمر الذي جعل المزارعين يواجهون صعوبات شتى، إذ لم يعد بإمكانهم حراثة أرضهم أو زراعتها، هذا إضافة إلى الأضرار التي أصيب بها نظام الري نتيجة استخدام الناس بأعمال السخرة والزامهم بشيء من الأعمال الاستراتيجية. وما زاد في التضيق على المواطنين أن الدولة حرّمت عليهم آنذاك قنص الطيور ذات الوبر والريش وكذلك الغربان^(١) من دون أن يعرف هدفها من وراء ذلك على أن مصادرات لجنة التكاليف الحربية، لم تقف عند هذا الحد، بل تبادت هذه في مهماتها بعد أن امتدت يدها إلى مكينات الخياطة وإلى عمالها الذين سيقوا إلى الثكنات العسكرية لتسخيرهم في خياطة ملابس الجنود. أمّا أجورهم فكانت عبارة عن تحويلات على الخزينة كالتالي كانت تعطيتها للتجار. وتشددت الدولة في جميع الإعانات من التجار، فحين لاحظت أن هؤلاء كانوا يخفون كل شيء يمكن مصادرتة، أصدرت تعليماتها أن هؤلاء كانوا يخفون كل شيء

يمكن مصادرتة، أصدرت تعليماتها أن يقوم كل صاحب متجر بتقديم لائحة بما لديه من بضائع. وهددت كل من لا يعطي بياناً صحيحاً، بالغرامة والسجن. إلا أن إصراف لجنة التكاليف الحربية وتجاوزاتها، خاصة بعد إقدامها على احتجاز الكثير من البضائع التي لا علاقة لها بالجيش ولا فائدة له منها، جعل تجار بيروت يواجهون اليها الانتقادات صراحة ومن دون وجل^(٢).

كان لبنان بعيداً عن متناول يد لجنة التكاليف الحربية، لكنه مع ذلك لم يسلم من أضرارها نظراً للانعكاسات التي خلفتها أعمالها على واقعه الاقتصادي نتيجة ارتباطه الوثيق بالسوق الاقتصادية في بيروت خاصة وببقية المناطق المجاورة عامة. فلقد كانت بيروت بالنسبة إليه مركز النشاط التجاري وشرائه الحيوي، يعتمد عليها في الحصول على حاجاته المعيشية؛ إذ إن معظم بائعي المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية فيه كانوا يقيمون فيها إقامة تكاد تكون دائمة حيث يتعاطون التجارة. من هنا كان فقدان المواد الغذائية أو ندرتها في هذه المدينة من شأنه أن يؤثر تأثيراً مباشراً على السوق المحلية اللبنانية. كما أن ارتفاع الأسعار كنتيجة حتمية لفقدان معظم

(١) الأهرام العدد ١١١٨٧، ٥ أكتوبر، ١٩١٦. وعمر أبو النصر، مرجع سابق، ج ١١ زم ٢، ص ٧٩ documents économiques, politiques: la famine au liban N 2,P.5-6.

(٢) عمر أبو نصر: مرجع سابق، ج ١١، م ٢ ص ٤.

الحطب» جعلت مهمتهم تقديم الحطب اللازم وأطلقت يدهم في قطع ما يروونه مناسباً من الأشجار وذلك بموجب أمر خطي منها ولقاء أثمان بخسة تدفع لأصحابها. ولما كانت قد أجازت للملتزمين تقديم وثيقة إعفاء من الخدمة العسكرية لقاء قدر معين من الحطب، فقد أقبل أبناء بيروت على الملتزمين يقدمون لهم كميات كبيرة من الحطب تهرباً من الخدمة العسكرية^(٣).

إلا أن الأمر بلغ درجة من الخطورة حين أقدم البعض على قطع أشجار التوت عندما أغرتهم السلطات بوثائق الحبوب اعترافاً بخدماهم. ولا يخفى ما لهذا العمل من أضرار جسيمة تلحق بثروة لبنان من الحرير^(٤).

كان هذا جراً ما سلبته لجنة التكاليف الحربية من غلال بلغ مقدرها في سوريا وحدها عام ١٩١٥م تسعة أعشار ما لدى الناس من الحبوب^(٥). عدا سائر المواد الغذائية والاستهلاكية من بيروت وسائر المناطق وما ألم بلبنان من نكبات متلاحقة نتيجة الحصار البحري والجراد والنقد الورقي، إذ عمت البلاد أزمة اقتصادية فائقة

المواد الاستهلاكية أو صعوبة العثور عليها في الأسواق، كان لابد أن يلحق أضراراً جسمية بلبنان واللبنانيين. ثم إن الدولة على الرغم من إحجامها عن إرسال لجنة المصادرة إليه، فإنها لجأت إلى وسيلة أخرى للحصول على بعض ما تحتاجه منه، فعمدت إلى جمع إعانات من السكان، وكانت عبارة عن نقود أو أواني نحاسية وأكياس من الجفصين^(١). وهكذا يكون لبنان قد أصيب آنذاك بنكبتين. نكبة لجنة التكاليف الحربية بشكل غير مباشر، ونكبة لجنة الإعانات بشكل مباشر. لكن الأضرار التي لحقت به تعاضمت مع امتداد يد الدولة إلى ثروته الدفينة والحربية. فنظرًا إلى حاجتها الملحة إلى المحروقات بسبب ما تبتلعه جبهات القتال من كميات ضخمة منها، ولنفاذ ما لديها من الفحم، فإنها لجأت إلى دعوة أهالي بيروت إلى البحث عن قيمة المنجم الاستراتيجية. كما راحت تقطع الأشجار في لبنان كما من بيروت ودمشق^(٢).

وتسهيلاً لخطتها أوجدت طبقة من المواطنين، أطلقت عليهم لقب «ملتزمي

(١) يوسف مزهر: مرجع سابق، ص ٨٥٩.

(٢) خليل كنعان: مرجع سابق، ص ١٧٦. واحد أعضاء الجمعيات العربية، ثورة العرب، ص ١٧٣.

(٣) انطوان يمين: مرجع سابق، ص ١٣٩.

(٤) اميل يوسف حبيش: مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٥) لوتسكي: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٢٣٧، دار التقدم ١٩٧١ موسكو.

واحدة في الاسبوع^(١)، وهو الأمر الذي أوقع البلاد في أزمة حبوب حادة.

كانت أزمة الحبوب التي بدأت بوادرها منذ عام ١٩١٥م واستمرت تتفاعل حتى عام ١٩١٧م، أعظم كارثة حلت بلبنان. والواقع أن هذه الأزمة لم تكن وليدة عامل واحد، إنّما هي نتيجة عدة عوامل طبيعية وبشرية تضافرت جميعها وأدت إلى خلق هذه الأزمة الخطيرة. فالثلوج التي تساقطت والأمطار التي هطلت عام ١٩١٥م، شكلت أحد العوامل التي حالت دون وصول أسباب المعيشة من الداخل إلى سكان الولايات المجاورة. ثم إن رداءة المواصلات وسوء معالجة الدولة لها. إضافة إلى السياسة الاقتصادية التي انتهجها جمال باشا حيال لبنان والتي اتصفت بالتقاعس إلى حد ما، بإمداد لبنان بما يكفيه من الغذاء لأسباب قد يكون مرد بعضها إلى أسباب سياسية، هذه العوامل مجتمعة، تركت انعكاسات بالغة الخطورة على الأوضاع المعيشية. فنتيجة لها شهدت البلاد نقصاً كبيراً في كميات القمح التي ما لبثت ان انقطعت انقطاعاً شبه تام عن بيروت ولبنان، بعد أن وقفت وسائل النقل حائلاً دون وصولها إليهما بشكل منتظم، إذ كانت أقواتهما تنتقل عبر السكك الحديدية، وقد كان على وسيلة النقل

الخطورة نظراً لما تمخض عنها من مجاعة قل نظيرها، أودت بحياة آلاف الجياع، عدا مظاهر البؤس والتشرد والخراب.

أزمة الحبوب:

مع استمرار الحصار البحري واحتجاب الموارد المالية من المغتربين، وامتناع ورود القمح من المناطق الداخلية، ونتيجة لبوار الزراعة لعدم توفر الأموال، أخذت الحالة الاقتصادية تزداد، لبوار الزراعة لعدم توفر الأموال، فبمرور الوقت توقف سير العمل في البلاد، واختفت السلع من الأسواق وفرغت جيوب الناس وصناديقهم من المدخرات. ثم إنّ نتيجة لزيادة الطلب على المواد الغذائية، خاصة بعد أن أقدمت الدولة على إغراء المواطنين بمنحهم الاعفاءات من الخدمة العسكرية لقاء ما دعت «بوثائق الحبوب»، ازدادت ارتفاعاً ومعها ازدادت ندرة هذه المواد في الأسواق. ما أدى إلى تعاضم الضائقة الاقتصادية التي تفاقمت خطورتها لدى إقدام السلطات العثمانية على فرض حصار جزئي على المنطقة نتيجة تخفيض عدد رحلات القطار الحديدي، بين بيروت وحلب بداعي حاجتها الماسة إلى المحروقات، جاعلة حملتها تقتصر على حاجات الجيش الغذائية. ثم عادت مرة أخرى لتقلص هذه الرحلات فجعلتها رحلة

(١) اميل يوسف حبيش: مرجع سابق، ص ٣١. وخبيل كنعان. مرجع سابق، ص ١٥٣-١٥٤.

هذه، مع قلة الوقود وصعوبة المرتقى وتقادم الآلة، أن تقوم أولاً بنقل حاجات الجنود والمهمات الحربية، وبعد ذلك ينظر في تأمين الأقوات لأبناء لبنان والساحل^(١)، يضاف إلى هذا كله، قرار الحكومة الذي قضى باختصار عدد رحلات القطار الحديدي بين بيروت وحلب والذي مع الوقت أدى إلى توقف نقل القمح وامتناع وروده من الداخل، فضلاً عن إقدام المسؤولين على مصادرة المؤن والغلال لتنقل إلى تركيا ومراكز تموين الجيوش الألمانية والاستيلاء على ما في الأسواق من بضائع أجنبية لخزنها احتياطياً لحاجات الجنود^(٢).

جهود الدولة لمواجهة الأزمة

ألقت أزمة الحبوب الهلع في نفوس المواطنين في بيروت ولبنان وأخذوا يتوجسون شراً من أزمة طحين، وقد أخذت بوادرها بالظهور مع مطلع عام ١٩١٦م. وقد حاول المسؤولون التخفيف من روع الأهالي بالوعود بتأمين احتياجاتهم من الأقوات. وفي سبيل ذلك، سافر متصرف جبل لبنان علي منيف سعيّاً وراء الحصول على ما يكفي السكان من الحبوب. غير أنّ

ضعف وسائل النقل، جعل مساعيه غير مجدية بالدرجة المطلوبة^(٣) في حين أجرى مبعوثان من بيروت وهما ميشال سرسق وسليم عبد الهادي اتصالات بجمال باشا وأطلعاه على حالة المدينة الجائعة. إلا أن ما ظفرا به لم يساهم في إنقاذ الجياع، ذلك أن ما سمح به الباشا لم يكن ليبلغ عشر الكمية المحددة للاستهلاك الأمر الذي أدى إلى استفحال الأزمة التي باتت تهدد حياة السكان. ومواجهة هذا الواقع، اضطرب بعض المواطنين إلى المجازفة بحياتهم والجنوح إلى عمليات تهريب الحبوب من المناطق الداخلية إلى بيروت، وشهدت هذه العمليات نشاطاً ملحوظاً، خاصة بعد قرار الحكومة الذي قضى بمنع ورود القمح من المناطق الداخلية. إلا أن ما كان يحمله المهربون لم يساهم في إنقاذ المعوزين من براثن الجوع المميت، كما لم يؤد إلى هبوط أسعار الحبوب التي واصلت ارتفاعها نتيجة جشع المحتكرين الذين راحوا يتاجرون بلقمة عيش الفقراء البائسين.

مع تعاظم خطر المجاعة أخذت الجهود تتكثف لمواجهتها بإيجاد الحلول الناجحة لها، إن على صعيد الدولة أو على صعيد الفعاليات الاقتصادية في لبنان وبيروت.

(١) جرجس المقدسي: مرجع سابق، ص ٤٩.

(٢) عادل اسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج ٤، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٠٦.

(٣) جرجس المقدسي: مرجع سابق، ص ٤٩.

فبعد مشاورات جرت بين جمال باشا وكل من والي بيروت عزمي بك، ووالي سوريا تحسين بك، متصرف جبل لبنان التركي علي منيف، تقرر تأسيس مكاتب للقمح والإعاشة في معظم المدن السورية وفي القرى القريبة من الخط الممتد بين دمشق ورياق فحلب. إلا أن الغاية منها كانت بالدرجة الأولى تأمين حاجات الجيش ومن ثم إفساح المجال للتجار لشراء كميات من القمح لتنقل إلى بيروت ومنها إلى بعض المحطات اللبنانية التي كان أهمها في حدث الساحل بين بعبد وبيروت لبيع هناك حرًا. ولهذا كان هذا التدبير عاجزًا عن حل المشكلة القائمة الأمر الذي دفع المسؤولين إلى وضع حلول جديدة تحد من خطر الأزمة. فبفضل مساعي علي منيف أمكن تشكيل لجنة من قبل مجلس الإدارة تخضع للمتصرف، مهمتها توزيع الحنطة تحت إشرافه. غير أنها هوت لتقوم على أنقاضها في ٨ حزيران ١٩١٦م شركة حبوب استمدت رأسمالها من أغنياء لبنان وجعلها المتصرف أسهمًا قيمة السهم الواحد منها ٢٥٠ ليرة عثمانية ذهبًا. وقد شارك وجهاء من بيروت في تأسيس الشركة يحدوهم إلى ذلك دافعان: دافع الإثراء الشخصي ودافع تخفيف المجاعة عن لبنان واختير

نجيب بك الأصفر، وهو من أهالي بيروت، ليكون مديرًا لها. وقد اقترح مؤسسو الشركة أن يباع الكيلوغرام الواحد من قمحها بسعر ستة غروش نقدًا ورقياً مع إضافة غرش واحد تحت اسم عمولة تكتفي به الشركة لقاء نفقات الإدارة. وحظي هذا الاقتراح بموافقة جمال باشا وأركانته المختصين بشؤون الإعاشة في الجيش^(١).

كان معدل ما يرد إلى مركز الشركة في بعبد يكفي لتأمين موظفي الحكومة أولاً: وما يزيد عن ذلك يخصص للأهالي. لهذا بدت هذه التدابير عقيمة الفائدة؛ لكونها لم تحل المشكلة القائمة ولم تحل دون استفحال موجة الغلاء التي أخذت بالتعاظم نتيجة فساد الإدارة؛ وقيام علاقة مشبوهة بين المشرفين على الشركة والمحتكرين، ولعجزها عن تأمين الحبوب لقطاعات الشعب كافة، بعد أن اقتصرت مهماتها على تأمين متطلبات الموظفين الذين كانوا لا يمثلون سوى شريحة محدودة من السكان. غير أن هذه الشركة، تمكنت من جهة أخرى أن تقوم بالمهمة الموكلة إليها على الوجه المطلوب. فمع مطلع عام ١٩١٧م، قامت بتوزيع القمح على موظفي الدولة بمعدل مئتين وخمسين غرامًا لكل فرد من أفراد العائلة وبسعر سبعة غروش للكيلو غرام

(١) يوسف الحكيم: مرجع سابق، ص ٢٤٩-٢٥٠. ابراهيم الأسود، مرجع سابق، ص ٥٣.

جنتها من جراء التصرف بقسم كبير من مختلف الأغذية التي بيعت إلى السوق السوداء بأسعار فاحشة قدرت بما يفوق العشرة أضعاف وأحياناً العشرين ضعفاً من قيمتها الأصلية^(١). ولقد كشفت تحقيقات اللجنة التي شكلت للتدقيق في حسابات الشركة وفي مخالقات المشرفين عليها، مثالب القائمين على مستودعي «بطرام» و«جونية»، كما فضحت أعمال السلب والنهب التي اقترفها هؤلاء وتبين منها أن ملتزمي الحبوب في هذين المستودعين كانوا يوزعون الجزء اليسير من الكمية الواردة والمخصصة للأهالي، ويبيعون القسم الأوفر بعد خلطه بالتراب والحصى. كما تبين من هذه التحقيقات أن الوثائق التي كانت تعطىها الإدارة للمستودعات حصرت بالقلة القليلة من السكان.

الواحد، في حين كان سعره في السوق الحرة عشرة أضعاف هذه القيمة. وبناء على هذا، فقد جاءت تدابير الدولة هذه منقوصة، إذ باتت الأغلبية العظمى من السكان خاضعة لجشع المحتكرين الذين باعوا ضمائرهم لقاء أرباح غير مشروعة بعد أن أخذوا يبيعون القمح بأسعار فاحشة. ليس هذا فحسب، بل لقد أتاح تدخل العسكريين بأمر نقل القمح من المراكز الرئيسية في سوريا، إلى المستودعات القائمة في لبنان الفرصة للمتلاعبين بأمر الشركة والقائمين على شؤونها، الإقدام على غش القمح بخلطه بالزوان والكرسنة وحتى بالتراب. ومع انعدام الثقة بالممسكين بإدارة هذه المؤسسة أخذ المطلعون على خفاياها، ينددون بتجاوزات المخالفين وبسوء ائتمانهم من دون استثناء، حتى جمال باشا ومعتمديه وأصدقائه لم يسلموا من الانتقادات، ولو بصورة مبطنة، ومن دون الجهر بأسمائهم خوفاً من ملاحقة الإدارة العرفية. وبفضل الرشاوي التي دفعت للقادة العسكريين، تمكن المشرفون على الشركة من تحقيق الأرباح الضخمة. فلقد قدرت كميات القمح التي وردت إلى بيروت ولبنان أثناء الحرب عبر هذه الشركة، بألوف الأطنان، هذا عدا الأرباح الطائلة التي

(١) يوسف الحكيم: مرجع سابق، ص ٢٥١-٢٥٢.

هوامش البحث

- ١ - فليب حتي: لبنان في التاريخ، بيروت نيويورك ١٩٥٩، ص ٥٥٧.
- ٢ - يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام، الجزء الثاني، بيروت، لا دار بدون تاريخ، ص ٨٥٤-٨٥٢.
- ٣ - خليل كنعان: بيروت في التاريخ، الجزء الأول، ١٩٦٢ ص ١٨١.
- ٤ - يوسف مزهر: مرجع سابق ص ٨٥٢-٨٥٤.
- ٥ - لحد خاطر: عهد المتصرفيين في لبنان ١٩١٨-١٨٦١، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٧، ص ٥٠، و ابراهيم الاسود: تنوير الازهان في تاريخ لبنان، المجلد الثالث، لا دار، بيروت ص ٢٥.
- ٦ - الأهرام العدد ١١٧٢٣، ١٢ مايو، ١٩١٦، وأمير يوسف حبيش: جهاد لبنان واستشهاده، ص ١٥٨.
- يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٤٨، و خليل كنعان، مرجع سابق، ص ١٦٨.
- ٧ - جرجس المقدسي اعظم حرب في التاريخ، بيروت، ١٩٢٧، ص ٥٧.
- ٨ - خليل كنعان: مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٤.
- ٩ - جرجس المقدسي: مرجع سابق، ص ٥٧ ويوسف الحكيم، مرجع سابق ص ٧٢.
- ١٠ - خليل كنعان: مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٤.
- ١١ - ١٢ - اميل يوسف حبيش: مرجع سابق ٩٧-١٠٥.
- ١٣ - خليل كنعان: مرجع سابق ص ١٧٢.
- ١٤ - انطوان يميني: لبنان في الحرب العظمى، الجزء الأول، بيروت ١٩١٩، ١١٧.
- ١٥ - يوسف الحكيم، مرجع سابق، ص ٢٥٥.
- ١٦ - عمر أبو النصر: الحرب العظمى، ج ٤٨، م ٢، بيروت، لبنان، ص ٤.
- ١٧ - اميل يوسف حبيش، مرجع سابق ص ٩٤-٩٧.
- ١٨ - انطوان يميني: مرجع سابق، ص ٣١.
- ١٩ - الأهرام العدد ١١١٨٧، ٥ اكتوبر ١٩١٦. وعمر أبو النصر، مرجع سابق، ج ١١، م ٢، ص ٧٩ Documents économiques, politiques et scientifiques publiés par l'Asie Française: La Famine au liban, N=2,p.5-6
- ٢٠ - عمر أبو النصر: مرجع سابق، ج ١١، م ٢ ص ٤.
- ٢١ - يوسف مزهر: مرجع سابق، ص ٨٥٩.
- ٢٢ - خليل كنعان: مرجع سابق ١٧٦، وأحد أعضاء الجمعيات العربية، ثورة العرب، ص ١٧٣.
- ٢٣ - انطوان يميني: مرجع سابق، ص ١٣٩.
- ٢٤ - اميل يوسف حبيش، مرجع سابق، ص ١٠٩.
- ٢٥ - لوشكي: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٢٣٧، دار التقدم، ١٩٧١، موسكو.
- ٢٦ - اميل يوسف حبيش: مرجع سابق، ص ٣١، و خليل كنعان: مرجع سابق ص ١٥٢-١٥٤.
- ٢٧ - ابراهيم الاسود: مرجع سابق، ص ٥٤.
- ٢٨ - جرجس المقدسي: مرجع سابق، ص ٤٩.
- ٢٩ - عادل اسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج ٤، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٠٦.
- ٣٠ - جرجس المقدسي: مرجع سابق، ص ٤٩.
- ٣١ - اميل يوسف حبيش: مرجع سابق، ص ٥٢.
- ٣٢ - يوسف الحكيم: مرجع سابق: ص ٢٤٩-٢٥٠ و ابراهيم الاسود، مرجع سابق، ص ٥٢.
- ٣٣ - يوسف الحكيم: مرجع سابق، ص ٢٥١-٢٥٢.

حصار واحتلال الإسكندر الأكبر لمدينة صور عام ٣٣٢ ق.م.

زياد جليوط

مقدمة:

القسم الأول: الإسكندر الأكبر - شخصيته
القيادية وحملته على الشرق

لا بد لنا في بداية هذا البحث من تسليط الضوء على شخصية الإسكندر الأكبر وهو القائد العسكري الذي لم يخسر معركة قط والابن المتأثر بوالديه، والتلميذ الذي اكتسب المعرفة والحكمة من أستاذه ارسطو. نتناول أيضًا في هذا القسم الاستراتيجية القتالية للإسكندر بالإضافة إلى كبريات معاركه أي معركة إيسوس التي خاضها ضدّ الفرس ففتحت له أبواب الشرق وأبواب المجد.

١ - شخصية الإسكندر الأكبر

وُلد الإسكندر عام ٣٥٦ ق.م. في مقدونيا شمال اليونان^(١). بحلول عامه الثلاثين كان قد أسس إحدى أكبر وأعظم الامبراطوريات التي عرفها العالم القديم.

يتناول هذا البحث معركة حصار واحتلال الإسكندر الأكبر لمدينة صور التي جرت أحداثها عام ٣٣٢ ق.م. وقد قاومت مدينة صور التي كانت قائمة على جزيرة في البحر الإسكندر خلال هذه المعركة طوال سبعة أشهر، وكادت أن تقضي على أحلامه التوسعية. شكّلت هذه المعركة في الغرب موضوعًا لعشرات المؤلفات ولكنها شبه غائبة عن الساحة العسكرية أو الثقافية أو التاريخية في لبنان. من هنا تكمن أهمية الإضاءة عليها وفق منهجية علمية حديثة تعتمد بشكل رئيس على المصادر التاريخية للمؤرخين القدماء وترتكز على آخر المكتشفات التي توصل إليها علم الآثار.

(١) متوديبوس زهيلات، الإسكندر الكبير، دار طلاس، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٩، ص ١٢.

والفلسفة. أيقظ أرسطو في قلبه رغبته المتوقّدة للمعرفة وإقباله على القراءة وقيل أنّ الإلياذة كانت من أحبّ الكتب إلى قلبه. تأثر كثيرًا بأخيل بطل هذه الملحمة، وربما كان ذلك من بين الأسباب التي دفعته إلى الصمود أمام أسوار صور كما فعل قبله أخيل أمام أسوار طروادة^(٣).

كان الإسكندر قائدًا فذاً لم يخسر معركةً قط، على الرغم من أن أغلب الجيوش التي قاتلها فاقت جيشه عدداً وعدةً وذلك يعود إلى حسن استغلاله لموقع المعارك ولتدريبه المستمر لعناصر المشاة والخيالة ولاستراتيجياته المقدامة، كنّ له جنوده ولاءً مطلقاً لانخراطه شخصياً في المعارك ووجوده دائماً معهم أثناء التدريب، سلّح جيشه بألة قتل متطورة سبقت عصرها، هي عبارة عن رماح يصل طولها إلى ستة أمتار قادرة على قتل الخصم عن بعد.

٢ - استراتيجية الإسكندر القتالية

يُرَكِّز أصحاب الاختصاص الذين عالجوا العبقرية العسكرية لدى الإسكندر المقدوني على مجموعة من العوامل التي ساهمت في

تأثر بوالده الملك فيليب كثيرًا وورث عنه جيشاً قوياً، ومملكة سيطرت على كامل المُدن اليونانية. أحبّ والدته الملكة أولمبياس إلى حدّ التماهي، وأحبّته لدرجة أنها اتُّهمت بقتل زوجها فيليب لتوريثه العرش. منذ صباه تأثر الإسكندر بأرسطو معلمه الخاص وكبير فلاسفة اليونان. أحبّ الإسكندر القتال وبرع بالقيادة فكان واحداً من أعظم الجنرالات على مرّ العصور^(١).

كان لأبوي الإسكندر أثر كبير في تكوين شخصيته. فوالده واسعة الطموح، تعتقد أنّها من سلالة الآلهة، وأنّ الإسكندر هو ابن الإله زوس وبالفعل بدأ الطفل يفتن بكلام والدته^(٢). إنّ هذه الأفكار وفقاً لبلوتاركهي ما أبقى قلب الإسكندر وروحه شامخة لا تعرف اليأس طوال تلك السنوات من الحملات والفتوحات التي خاضها. أمّا والده، فكان مثله الأعلى الذي يقتدي به في كل خطوة، إذ شبّ على رؤيته يُحقق النصر تلو الآخر.

تأثر الإسكندر بمعلمه أرسطو، الذي درّبه تدريباً شاملاً في فنّ الخطابة والأدب وحفّزه على الاهتمام بالعلوم والطب

(١) Arrian, The Campaigns of Alexander, Penguin Books, London, 1971, p. 123.

(٢) كانت أولمبياس امرأة قوية وغامضة وكان تأثيرها على الإسكندر هائلاً. نشرت شائعة تقول إنها حملت من زيوس، ملك الآلهة، الذي جاءها في هيئة أفعى. نتيجة لذلك سيعيش الإسكندر طفلة حياته مفتوناً بفكرة أنه قد لا يكون بشراً بل ابناً لزيوس.

(٣) أرسطو هو كبير فلاسفة اليونان وأحد تلامذة أفلاطون. كتب في مواضيع متعددة كالفيزياء، والشعر، والمنطق.

ينسى نفسه عند سماع صوت البوق المعلن
بدء القتال.

اتبَعَ الإسكندر في معاركه أسلوب
الجهة المنحرفة فضمَّنت له النصر، إذ إنَّ
جوهر الخطة التي أخذها عن أبيه، يقوم على
أن تسعى خيالة الميمنة، بزخم هجومي
شديد، إلى زحزحة ميسرة العدو عن
مواقعها ودحرها إلى الراء، بينما يبقى
الجناح المقدوني الآخر صامداً، فيتسنى له
إذ ذاك التوغل من الجانب في صفوف العدو
والطعن في خاصرته المكشوفة.

٣ - حملة الإسكندر على الشرق - معركة إيسوس

مات الملك فيليب فخلفه الإسكندر وهو
في العشرين من عمره على عرش مقدونيا
واليونان. احتاج الإسكندر إلى سنتين
ليوحّد البلاد اليونانية كلها تحت قيادته
واتجّه بعد ذلك نحو المشرق. كانت
الإمبراطورية الفارسية تحكم العالم القديم
بأكمله (صورة ١) فوق أول صدام بين
الطرفين في معركة نهر الغرانيق في تركيا
الحالية. كانت معركة الغرانيق شبه مرتجلة
إلا أنها فتحت الباب أمام المنازلة الكبرى
في إيسوس الواقعة أيضاً في تركيا حيث
حشد الملك الفارسي داريوس جيشاً فاق
عديده المئتي ألف مقاتل.

انتصاره في المعارك التي خاضها جميعها.
أهم هذه العوامل هي القدرة التي كانت لدى
هذا القائد على الاستفادة من طبيعة الأرض
مهماً اختلفت مميزاتها. تميّز أيضاً الإسكندر
بالاندفاع الدائم وبالإصرار على أن يكون
موقعه على رأس جنوده ضمن أسلوب
جديد في القتال عُرف بأسلوب الجهة
المنحرفة^(١).

لم يختر الإسكندر قط في معاركه
ساحة القتال أو أرض المعركة، بل كان
ينازل العدو عندما يلتقيه؛ أي فور وصوله
إليه وفي المكان الذي يكون الخصم قد
اختاره وتمركز فيه. إن نظرة الفاتح الثاقبة
والملمّة بكلّ معطيات ساحة القتال وقدرته
الكبيرة على تعبئة جنوده وترتيب قطاعات
جيشه، جعلته قادراً على تنسيق فرقه وفق
طريقة تتماشى وطبيعة الأرض، فيحوّل ما
كان يُفرض عليه لصالحه.

كان القائد، في تلك العصور، يخوض
المعركة على رأس جنوده، وهذا ما ينطبق
على الإسكندر أكثر من غيره. كان القائد
المقدوني يحتفظ لنفسه غالباً باليمين في
المهاجمة، تاركاً لأشهر قوّاده مهمة تثبيت
العدوّ على الميسرة، وكان اختياره هذا
يلائم طبعه الهجومي، فقد عُرف باندفاع
الشديد في الهجوم، حتّى قيل عنه أنه يكاد

(١) متوديبوس زهيلاتي، الإسكندر الكبير، دار طلاس، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٩، ص ٥٢.

أمر الخيالة بالانتقال سرًا من اليمين إلى اليسار من وراء صفوف جيشه بهدف مفاجأة الفرس ومهاجمتهم في نقطة ضعفهم.

جعل الإسكندر هدفه خرق ميسرة الفرس للوصول إلى وسط جبهتهم حيث كان الملك الفارسي يُتابع من على مركبته الفخمة، مجرى القتال. لمّا رأى هذا الأخير أنّ الإسكندر أصبح على قاب قوسين منه، لوى عنان مركبته وهرب لا يسأل على شيء. كان ذلك إيذانًا بتبعثر جيش الفرس وتشرذمه فانهار سريعًا وانتصر المقدونيون انتصارًا حاسمًا. كان لانتصار الإسكندر أثرًا معنويًا وعسكريًا عظيمًا على جنوده، على الرغم من عدم قدرتهم على إلقاء القبض على ملك الفرس.

القسم الثاني: خلفية وأسباب حصار الإسكندر لصور

شكل انتصار الإسكندر الأكبر في معركة إيسوس دفعًا كبيرًا لأحلامه التوسّعية. أدرك عندها ضرورة تعقّب الجيوش الفارسية التي أعادت تنظيم نفسها، لتدميرها في سبيل تحقيق النصر النهائي. كان ذلك مستحيلًا في ظل التفوق البحري للأسطول الفينيقي الداعم للفرس فقرر الزحف إلى المدن الفينيقية لإخضاعها.



صورة ١: خريطة الامبراطورية الفارسية^(١)

بدأت المعركة عندما علم الإسكندر أنّ داريوس وصل إلى سهل إيسوس وركّز قواه فيه، فأدرك أنّه المكان الأفضل للمعركة. كان السهل ضيقًا ما شكّل عاملاً إيجابيًا لجيش الإسكندر الذي لم يكن يتجاوز الثلاثين ألفًا؛ وسلبياً للجيش الفارسي الكبير إذ كان يعيق انتشاره. حتّى الإسكندر القواد والجنود على المضى في أقصى سرعة فوصل عند حلول الظلام إلى الممرّ الذي يؤدي إلى معسكر الفرس، فاجتازه بعد أن أمّن مرتفعاته، ثمّ أراح جنوده على المنحدرات المشرفة على سهل إيسوس حتّى الفجر.

لم يكن عسيرًا على الفاتح، أثناء هبوطه إلى السهل، الإحاطة بتفاصيل تمرّكز فرق العدو. لاحظ بعينه أنّ الفرس عمدوا إلى تكثيف خيالتهم على ميمنتهم، فأدرك أنّهم قد يعدّون العدة للقيام بحركة التفاف حول الميسرة المقدونية. أكمل تعبئة صفوفه ثمّ

(١) المصدر: متوافر على الموقع: <http://edsitement.neh.gov/edsitements-persian-wars-resource-pages>، الإترنت، الدخول ٢٠١٨/٥/١٥.

مدينة صور عبر التاريخ

تقع صور على الشاطئ الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط في المنطقة التي عرفت نشأة الحضارة الفينيقية العريقة وازدهارها. بناها أهل صيدا في القرن الثامن والعشرين ق.م. لتعرف بعد عشرين قرناً ازدهاراً وعظمة لم يكن لهما مثيل في ذلك العصر. جذّب ازدهار المدينة أطماع شعوب الشرق الأدنى القديم إليها ما سبّب لها الكثير من المآسي والمصاعب التي كانت تعظم أو تصغر مع اختلاف الوقت والمعتدي.

أنشئت صور مع بداية الألف الثالث ق.م على مجموعة من الجزر المنتشرة على مسافة حوالي الألف متر من اليابسة. كانت نواة المدينة عبارة عن هيكل للإله ملقرت تُحيط به تجمعات سكنية مرتكزة في معيشتها على الصيد. أطلق الصوريون على مدينتهم اسم «صُر» والذي يعني بالفينيقية الصخر دلالة بذلك على الأرض الصخرية القاسية التي بُنيت عليها⁽¹⁾. لم تؤد المدينة دوراً بارزاً في الألفيتين الثانية والثالثة ق.م. فيما بلغت عصرها الذهبي مع حلول الألفية الأولى ق.م.

شهدت صور في الألفية الأولى ازدهاراً

عمرانياً وتجاريًا وثقافيًا لم يعرفه تاريخ المنطقة من قبل. في بداية هذه الفترة، قام ملكها حيرام بوصل الجزر ببعضها رادماً جزءاً من البحر. جاب الصوريون المتوسط ووصلوا إلى سواحل الأطلسي، وأسّسوا لهم المستعمرات والمحطات التجارية ومن بينها قرطاج التي ستشكل لاحقاً جيشاً عظيماً بقيادة هنيبعل كاد أن يقضي على روما. خرج من صور أيضاً قدموس فعلم الأبجدية للإغريق وأوروبا فأعطت اسمها للقارة الأوروبية.

أثار ازدهار صور أطماع شعوب الشرق الأدنى القديم من آشوريين ومصريين وفرس وغيرهم. هادنت حيناً بدفع الجزية، وقاومت أحياناً بأسوارها العالية فحافظت بذلك على حريتها، وازدهارها إلى حين وصول المقدونيون إليها. ففي العام ٣٣٢ ق.م. مرّ الإسكندر أمامها بغية إخضاعها وإكمال طريقه إلى مصر للسيطرة عليها. كانت صور حينها تملك أسطولاً بحرياً عظيماً وكانت متحالفة مع الفرس فشكّلت بذلك تهديداً لمشروع الإسكندر، فقرر احتلالها مهما كلف الأمر.

٤ - وصول الإسكندر إلى فينيقيا

على الرغم من انتصار الإسكندر في

(1) Jidejian, N., Tyre through the Ages, Dar el-Mashreq Publishers, Beirut, 1969, p. 39.

معركة إيسوس على الفرس إلا أنّ البحر المتوسط بقي تحت السيطرة الفارسيّة بسبب انضمام السفن الفينيقية للأسطول الفارسي. كان لا بد للإسكندر من مكافحة التفوق البحري الفارسي، وكان عليه أيضًا أن يتعقب الفرس لمحاربتهم في بلادهم. كان ذلك مستحيلًا في ظل التفوق البحري للأسطول الفينيقية الداعم للفرس فقرر الإسكندر الزحف إلى المدن الفينيقية.

يعود تاريخ العلاقات الفينيقية اليونانية إلى ما قبل حملة الإسكندر على الشرق. فالمستعمرات الفينيقية التجارية كانت منتشرة في عمق أرض المقدونيين، وكانت المنافسة الاقتصادية على أشدها بين الطرفين^(١). أدت هذه المنافسة إلى مشاركة الأساطيل البحرية الفينيقية في الحملات التي شنّها الفرس سابقًا على مقدونيا واليونان، وقد بدا واضحًا للمقدونيين أن احتلال أرواد وجبيل وصيدا وصور سوف يضمن لهم القضاء على منافسهم التاريخي، أضف إلى ذلك أنّ السيطرة على هذه المدن سوف تحرم الفرس مواقع استراتيجية وأساطيل بحرية في غاية الأهمية.

بدأ الملك المقدوني، كما ذكرنا سابقًا، سيره بعد معركة إيسوس بمحاذاة الشاطئ الفينيقية^(٢). قابل في طريقه ابن ملك أرواد فقدّم له هذا الأخير تاجًا من الذهب مع مفتاح المدينة، وكل ما يخضع لسيطرة ملكها الذي كان في البحر الإيجي يقود أسطوله تحت أمره ملك الفرس. تابع الإسكندر سيره إلى جبيل فاستسلمت من دون مقاومة وعند وصوله إلى صيدا استقبله أهلها بحفاوة واعتبروه محررًا لهم من النير الفارسي. في ظل ذلك، كانت صور، خلفًا للمدن الفينيقية الأخرى تميل إلى عقد معاهدة مع الإسكندر لا إلى الخضوع له.

فتحت أرواد وجبيل وصيدا إذا أبوابها للجيش المقدوني مدركة مخاطر المقاومة، بينما قرّرت صور الوقوف على الحياد. رفض الإسكندر مبدأ الحياد فصور هي قاعدة بحرية ذات أهمية بالغة فقرّر محاصرتها لاحتلالها مهما كلف الأمر. قاوم الصوريون الإسكندر ببسالة وقد ساعدهم على ذلك موقع صور القائمة على جزيرة في وسط البحر تحيط بها الأسوار العالية. استمر الحصار سبعة أشهر وكادت المدينة أن تقضي على مشروع الإسكندر التوسعي

(١) تقع مقدونيا في شمال اليونان الحالية وقد اختلف المؤرخون حول هوية المقدونيين كون الرأي السائد كان يحصر بلاد اليونان بجنوب جبال الألب. يسيطر اليوم الرأي القائل أن المقدونيين واليونانيين هم شعب واحد وعليه يمكن أن نتحدث عن علاقات تاريخية كانت تربط الفينيقيين بالمقدونيين مرتكزين على قدم العلاقة بين فينيقيا واليونان.

(٢) متوديس زهيلات، الإسكندر الكبير، دار طلاس، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٩، ص ٥٧.

لولا استنجاهه بأساطيل المدن الفينيقية الأخرى التي تدخلت لصالحه فحسم المعركة.

٥ - الأسباب المباشرة للمعركة

اختلف موقف صور عن مواقف مثيلاتها من المدن الفينيقية. رفض أهلها الخضوع للإسكندر واثقين من عظمة اقتصادها وقوة تحصيناتها وقدرة أسطولها، ورحبت بالفاتح المقدوني عند اقترابه منها لكنها رفضت استقباله في هيكلها أو داخل أسوارها. شكّل هذا الموقف تحدياً كبيراً للإسكندر ففرض حصاراً على المدينة بغية إضعافها فاحتلالها.

كانت صور قائمة على جزيرة في وسط البحر تُحيط بها الأسوار المنيعة وتحميها الأبراج العالية، يفصل بينها وبين البر قناة بحرية بعرض حوالي الكيلومتر الواحد وكان لديها أسطولاً بحرياً عظيماً. لم يكن هناك مكان حول الجزيرة لنصب السلالم وتسلق الأسوار، مُقابل ذلك لم يكن للإسكندر سُفن يستطيع بواسطتها قذف أبراج المدينة بالمنجنيق، ولو حصل على بعضها، فعدم ثباتها وتلاعب الأمواج بها يجعلان قذائفها أقلّ فعالية.

عندما وصل إلى مشارف صور، أرسلت المدينة وفداً قدّم للقائد المقدوني تاجاً من الذهب وكثيراً من المؤن الغذائية كبادرة حسن نية، فأظهر حفاوة باستقبال الوفد وأبلغه رغبته في تقديم القرابين لمقرت في هيكله داخل الأسوار. كانت رغبة الإسكندر تنطوي على غايات مبيّنة، فدخل قائد عسكري للصلاة في هيكل المدينة، وكان هذا الأمر في حينه بمثابة إقرار بزعامته فرفض الصوريون الطلب^(١).

شجّع الوفد القرطاجي، الذي وصل إلى صور للمشاركة باحتفالات العيد السنوي لمقرت، الصوريين على منع الإسكندر من دخول المدينة، دعاهم الوفد إلى الثبات في وجهه واعداء إياهم بالمساعدات التي ستأتي عن قريب من قرطاج. في هذه الأثناء، قرّر المحاولة من جديد فأرسل وفداً إلى المدينة مُهدداً الصوريين، ما جعلهم يلقون القبض على الوفد وقتلوا أعضائه ورموا جثثهم من فوق أسوار المدينة فكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى للمعركة^(٢).

٦ - المراحل التحضيرية للمعركة

رفضت صور الخضوع للإسكندر الأكبر، فحشد أمام أسوارها في كانون الثاني سنة ٣٣٢ ق.م. جيشاً قوامه خمسون

(١) Clausewitz, Carl von, On War, David, Campbell Publishers Ltd, London, 1993, p: 120.

(٢) DeVries, Kelly. "Siege of Tyre, 332 BC." In Battles that Changed Warfare 1457 BC - AD 1991, 28-37, Amber, London, 2008, p:30..

ألف عنصر. بدأ القائد المقدوني يخطُّ لاحتلال المدينة، فشحن عزيمة جنوده وأقنعهم بضرورة خوض المعركة. جَمَعَ المعلومات، ووضع خطة، استمدَّ مضمونها، بحسب زعمه، من الإله هرقل، فأضفى عليها بذلك بعداً دينياً وجعلها غير قابلة للنقد. وكانت خطته تقضي بوصل الجزيرة باليابسة بواسطة ممرٍّ من الأحجار، ينتقل عليه الجنود سيراً لمهاجمتها^(١).

المدينة فاتحاً له أبوابها، فدخلها وقدّم القرايين في هيكلها^(٢). فاستوحى خطته من حلمه، وقرّر ردم القناة البحريّة التي تفصل الجزيرة عن الساحل ما يؤمّن له الانتقال على أرض صلبة لمهاجمة المدينة، استطلع المحيط فوجد أن الأخشاب والصخور اللازمة للأعمال متوفرة في غابات لبنان والمنطقة الساحلية^(٣).

جمع جنوده وألقى فيهم كلمة بليغة، ذكّرهم أنّ هذه المدينة هي الوحيدة التي تجاسرت على مجابّتهم، وإيقاف موجة انتصاراتهم؛ قال الإسكندر: «أصدقائي، لا يُمكننا الذهاب إلى مصر، وبعدها إلى فارس من دون السيطرة على صور بأسطولها البحريّ العظيم وموقعها الاستراتيجي. إنّ احتلال صور ومن ثمّ مصر، سوف يحرم الفرس من القدرة على إعادة تجميع قواهم ويمهّد لطردهم إلى منطقة نهر الفرات». حلم الإسكندر أنّ الإله هرقل أمسكه بيده، وقاده سيراً على أرض صلبة باتجاه أسوار

قام المهندسون المقدونيون بغرز صفّين متوازيين من الدعائم الخشبيّة عند النقطة الساحليّة الأقرب للجزيرة وباتجاهها، ملأوا بعد ذلك، المساحة الفارغة بين الدعائم بالردميّات التي كان يؤتى بها من البرّ، تقدّمت الأعمال بسرعة في البداية ولكنّها تباطأت مع ازدياد عمق المياه. راقب الصوريّون ما يجري بقلة اكتراث، لا سيما وأنّ الممرّ لم يكن ظاهراً فوق مياه البحر في البداية، وكان البحّارة الصوريّون يقتربون بسفنهم من العمال مستهزئين، فيسألونهم إن كان ملكهم الإسكندر أقوى من إله البحر الفينيقيّ^(٤).

(١) Arrian, The Campaigns of Alexander, Penguin Books, London, 1971, p. 124.

(٢) في الميثولوجيا الإغريقيّة هرقل هو ابن زيوس الأكبر وهو الذي أنقذ جبل أوليمبوس من شرور عمّه إله الموت. إنّ الحديث عن هرقل في هذا الإطار يرمز إلى المصاعب الكثيرة التي ستواجه الإسكندر ولكنه سيتغلب عليها تماماً كهذا البطل الأسطوريّ المؤلّه.

(٣) إسم لبنان كان يطلق على الجبال المشرفة على الساحل الشرقيّ للبحر الأبيض المتوسط وقد ذكر لبنان للمرة الأولى في التاريخ في الألفيّة الثالثة قبل الميلاد حيث قصده البطل الأسطوريّ غلغامش باحثاً عن الخلود في جبال الأرز. الأمر نفسه فعله المصريّين الذين استعملوا خشب الأرز في بناء الأهرامات وفي تصنيع مراكب الشمس الفرعونية.

(٤) Arrian, The Campaigns of Alexander, Penguin Books, London, 1971, p. 124.

القسم الثالث: سير الأعمال القتالية وانتصار الإسكندر

اندلعت الأعمال القتالية ضد صور، فقاوم الصوريون الإسكندر الأكبر ببسالة، ساعدهم في ذلك موقع المدينة القائمة على جزيرة في البحر تحيط بها الأسوار العالية.

التفوق السوري في بداية المعركة

لاحظ الصوريون، مع تقدم الأعمال المقدونية، أنَّ قسماً من الممرِّ البحري بدأ بالظهور فوق سطح الماء (صورة ٢). أدركوا حينها حجم الخطر الذي قد يهددهم في ما لو استطاع العدو إنجاز البناء وقرروا المواجهة، كان ميزان القوى يميل لصالحهم في البداية، فنفذوا هجمات منتظمة على بناء الممرِّ، تميزت المعركة بحركية صورية عالية وقدرة على ابتكار الجديد دائماً، كما ونفذت وحدات خاصة من سكان الجزيرة أعمالاً قتالية في عمق دفاع العدو.



صورة ٢: جزيرة صور أثناء الحصار الكبير^(١)

أرسل الصوريون قوارب قتال خفيفة إلى جانبي الممرِّ على متنها جنوداً رموا سهامهم على العمَّال المقدونيين فقتل وجرح الكثير منهم. لم يتكبد الصوريون أية خسائر مقارنةً بالمقدونيين الذين وقفوا على ممرِّ ضيق وسط البحر عاجزين عن حماية أنفسهم، زوَّد الإسكندر رجاله بدروع مصنوعة من الجلد والحديد، ولكن الحماية التي قدَّمتها بقيت محدودة، فلجأ لاحقاً إلى حرف اتجاه الممرِّ ليتلاءم مع التيارات المائية الجارفة وقام بتوسيعه ليسمح بمناورة أكبر.

قام ببناء برجين متحركين من الخشب لتأمين حقول مراقبة، ورمي لصالح عمَّاله وأرسلهما إلى الممرِّ (صورة ٣). جهَّز الصوريون سفينة قديمة، ومأوها بالأغصان اليابسة والزفت والكبريت ثمَّ أضرمو النار فيها ووجَّهوها لترتطم بالأبراج. انتشرت النيران بسرعة، وقَبِل أن يتمكن العمَّال من حصرها، أحاطت بالبرجين وبأسلحة الحصار الأخرى، وأتت على كلِّ المنشآت الخشبية.

(١) المصدر: متوافر على الموقع http://www.infobarrel.com/The_Siege_Of_Tyre_332_BC، الإنترنت، الدخول: ٢٠١٨/٥/١٥.

في ظل هذا التخطيط، أدى الحظ دوره إلى جانب القائد المقدوني فاستطاع إدخال أسطول بحريّ كبير، لصالحه في المعركة فيما أنهى جنوده بناء الممرّ، وأصبح بإمكانه أن يصلَ إلى أسوار صور عبر البرّ، إلى جانب ذلك لم يصل التعزيز الذي كان ينتظره الصوريّون من قرطاج، وقد غيرت هذه الأحداث مجرى المعركة وقلبت ميزان القوى لصالح الإسكندر.

عادت أساطيل صيدا وجيبيل وأرواد إلى قواعدها، بعد أن كانت تساعد الفرس في معاركهم. هذه المدن هي الآن في قبضة الإسكندر، ما جعل أساطيلها أيضاً تحت سيطرته. كان يُدرك أنه يسير بخطى ثابتة نحو الهزيمة ما لم يدخل في استراتيجيته آلة الحرب البحريّة، فسارع إلى فرض حصار بحريّ على صور مستعيناً بالسفن الفينيقية، نفذ الصوريّون هجوماً بحرياً لفكّ الحصار ولكن الحظ لم يحالفهم ففشل الهجوم^(٣).

انتهى بناء الممرّ وأضحى من الممكن الوصول إلى صور عبر البرّ. نُصبت أبراج الحصار حول الأسوار وثُبّتت عليها المدقّات



صورة ٣: أبراج الحصار وأسوار المدينة^(١)

نَفذت مجموعات صغيرة من الصوريّين عمليات قتاليّة خاصّة، فقامت بالتسلّل إلى الشاطئ، حيث كان العمّال ينقلون الحجارة، فتَمّت مهاجمتهم وقُتل الكثير منهم على حدّ الرمح، وهاجمت فرقُ خاصّة العمّال المقدونيّين الذين كانوا يقطعون الأشجار في جبل لبنان ملحقّة بهم الخسائر، بالإضافة إلى ذلك سَبَح الغطّاسون تحت الممرّ لنزع الدعائم الخشبيّة فانهارت الصخور المرتكزة عليها^(٢).

٧ - انقلاب ميزان القوى لصالح المقدونيّين

أخضع الإسكندر آسيا كلّها بسرعة لا مثيل لها، ووقفَ أمام أسوار صور يخسر الوقت ولا يحقّق أيّة نتائج. بدأ يفكّر بفكّ الحصار ومتابعة الزحف إلى مصر، لكنّه كان يخشى على اسمه وشهرته.

(١) المصدر: متوافر على الموقع http://joseph_berrigan.tripod.com/ancientbabylon/id34.html، الإنترنت، الدخول: ٢٠١٨/٥/١٥.

(٢) رؤوف سلامة، أعلام ومشاهير: الإسكندر الكبير، دار المستقبل، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٧.
(٣) اختار الصوريّون فترة بعد الظهر لتنفيذ الهجوم كونها فترة الإستراحة لدى المقدونيّين. أسعف الحظّ الإسكندر الذي لم يكن قد أخذ قيلولته بعد، فقاد هجوماً بحرياً معاكساً محققاً النجاح.

وبدأوا بإجلاء مَنْ استطاعوا إجلاءه من نساء وشيوخ وأطفال إلى قرطاج ورُفعت الصلوات في هيكل ملقرت علّه يتدخّل لنجدة المدينة^(٣).

٨ - الهجوم المقدوني الحاسم

رأى الإسكندر أنّ الوقت قد حان لشنّ الهجوم الحاسم على صور، فالمتغيّرات التي طرأت على سير أحداث المعركة كانت لصالحه بحرياً وبرياً. شنّ هجومه الحاسم في شهر آب مستعملاً عظيم قواه فاستطاع فتح ثغرة في الأسوار ساعدته على دخول المدينة. دافع الصوريّون عن أرضهم حتى الرمق الأخير فكان ذلك سبباً آخر لجعل انتقام الإسكندر كبيراً، فارتكب أفظع الجرائم في صور بعد دخولها، ثمّ عمد إلى تنظيم احتفالات النصر بداخلها، وتقديم القرابين لإلهها، علّ ذلك يرمّم سمعته التي كادت أن تُسحق.

شنّ المقدونيّون هجوماً حاسماً على صور، فقد كانت الأبراج والمدقّات تحيط

(صورة ٤)^(١). تمّ تركيز الأبراج على الأرض اليابسة حيث أمكن وعلى سفن مزدوجة من ناحية الأعماق. دافع الصوريّون ببسالة فملأوا أكياساً من الجلد ووضعوا داخلها أعشاباً بحريّة والصقوها بالأسوار لتخفيف صدمات المدقّات، ثم ملأوا قدوراً بالرمل المتوهّج والزيت المغلي، وأفرغوها من أعلى الأسوار، فكانت حبّات الرمل تغرز في دروع المقدونيّين وأجسادهم.



صورة ٤: مدقّة حصار^(٢)

وصل إلى صور وفد قرطاجيّ معلناً أنّ قرطاج لن تتمكّن من إرسال التعزيزات كونها منشغلة هي الأخرى بالحرب، كما ورأى كبير الكهنة في حلمه الإله بعل وهو يغادر المدينة، فكان ذلك نذير شوّم كبير. أدرك الصوريّون خطورة الموقف،

(١) المدقّات هي جسور خشبية ضخمة مزودة بمعدن عند مقدمتها ومحمولة على برج خشبي يستعملها المحاصر لدق أو تصديع أسوار المدينة المحاصرة.

(٢) المصدر: متوافر على الموقع <http://www.dreamstime.com/stock-photos-battering-ram-image20132163>، الإنترنت، الدخول: ٢٠١٨/٥/١٥.

(٣) أسست الأميرة أليسار مستعمرة قرطاج عام ٨١٤ ق.م. ومعنى قرطاج هو «قرتٌ حدّشتُ» أي «المدينة الحديثة» (في اللغة الفينيقية: قرّت تعني قرية أو مدينة، وحدّشت تعني حديثة)، فأصبح الاسم «قرطاج» بعد تأثره بطريق النطق اللاتيني. عظمت قرطاج وأسست إمبراطورية عظيمة سيطرت على أجزاء واسعة من حوض البحر الأبيض المتوسط. من قرطاج خرج القائد العسكري العظيم هنيبل الذي كسر هيبة روما في معركة كان.

باستثناء من يلجأ منهم إلى معابد المدينة، جاب المنادون الشوارع، يعلنون ذلك مراراً لكنّ أحداً من المدافعين لم يرضخ، فحصلت مجازر أدت إلى مقتل ثمانية آلاف صوريّ. مشى الإسكندر على الدماء متوجّهاً إلى هيكل ملقرت وقدم الأضحية فيه أمام جنده وأمام ملك صور والهيئة الإدارية الذين أجبرهم على الحضور^(٢). كان فرح الإسكندر عارماً فالكابوس الذي كاد أن يقضي على أحلامه، قد انتهى^(٣).

خاتمة:

في نهاية البحث يمكننا القول إن معركة حصار صور تعتبر نموذجاً يحتذى به في حبّ الوطن حتّى الشهادة. فقد قاومت صور ولفترة سبعة أشهر واحداً من أعظم الجيوش التي عرفها التاريخ وكادت تهزمه. إنّ الشواهد على ملاحم الشجاعة التي سطرها الصوريّون وصّلت إلينا من خلال المؤرّخين المقدونيّين أنفسهم، ما يُسبغ عليها كثيراً من المصداقية، وقد تختلف النظرة إلى ما فعل الصوريّون وفقاً لاختلاف الزمان والمكان، فيرى البعض مثلاً، أن خيار الخضوع للإسكندر الذي

بالجزيرة من كل صوب إلى أن استطاع المهاجمون فتح ثغرة في الجدار الجنوبيّ. وجّه الإسكندر جهده الرئيس باتجاه الخرق، فرمت السفن السلالم ووثب بعض المقاتلين عبرها إلى المدينة. في هذه الأثناء تقدّمت السفن الفينيقيّة باتجاه المرفأ وتمكّنت من دخوله فتدفّق المقاتلون المقدونيّون إلى الداخل، وما إن ضعف جهاز الدفاع، حتّى شكّلت الأبراج الملاصقة للأسوار جسور عبور لآلاف المقاتلين.

واجه الصوريّون آلة القتل المقدونيّة ببسالة قلّ نظيرها عبر التاريخ، احتمى عدد من الشيوخ والنساء والأطفال في هيكل ملقرت، وأغلق عدد آخر أبواب المنازل منتظراً مصيره، بينما التجأ آخرون إلى السفن الفينيقيّة الرابضة في المرفأ^(١)، أمّا الرجال، فقد اختاروا المقاومة حتّى الرمق الأخير. سعد من ليس لديه منهم سلاح إلى سطوح المنازل واستلوا حجارة وصخوراً، رموا بها الأعداء أثناء مرورهم في الأزقة، وانتشر الجنود المسلّحون أمام المنازل يقاتلون حتّى الموت.

أمر الإسكندر بقتل جميع السكان

(١) على الرغم من مشاركة هذه السفن في الحرب إلى جانب الإسكندر، إلّا أن صلات القربى التي تربطهم بأبناء صور دفعتم إلى نجدة إخوتهم، ولو سراً.

(٢) احتفل المقدونيّون بالنصر فنظّموا مباريات رياضيّة وسباقات بالمشاعل وكانت المعابد في المدينة والسفن مزينة بالأعلام والأنوار في مظاهر احتفاليّة ضخمة.

(٣) Plutarque, La vie des hommes, Didier, Paris, 1844, p. 291.

وأن تساعد في التنبيه على ضرورة الحفاظ على المواقع الأثرية في لبنان باعتبارها شاهداً على الأحداث الغابرة، علّ ذلك يؤدي إلى الإقلاع عن النّظر إليها كمصدر محتمل لجّني الأموال السريع عن طريق سرقة الآثار أو عدم التبليغ عن وجودها في حال تمّ اكتشافها.

المراجع

- متوديوس زهيلاتي، الإسكندر الكبير، دار طلاس، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٩.
- رؤوف سلامة، أعلام ومشاهير: الإسكندر الكبير، دار المستقبل، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٥.
- Arrian, The Campaigns of Alexander, Penguin Books London 1971.
- Clausewitz, On War, Campbell Publishers Ltd, London, 1993.
- DeVries, Siege of Tyre, 332 BC, In Battles that Changed Warfare 1457 BC - AD 1991, 28-37, Amber, London, 2008.
- Jidejiañ Tyre through the Ageš Dar el-Mashreq Publisherš Beirut 1969.
- Plutarquē La vie des hommesš Didieř Paris 1844.

المواقع الالكترونية:

- <http://edsitement.neh.gov/edsitements-persian-wars-resource-pages>:
- http://www.infobarrel.com/The_Siege_Of_Tyre_332_BC
- http://joseph_berrigan.tripod.com/ancientbabylon/id34.html
- <http://www.dreamstime.com/stock-photos-battering-ram-image20132163>.

اتخذته باقي المدن الفينيقية، كان من الممكن أن يوفّر على صور الدمار الذي حلّ بها. في جميع الأحوال، ومهما اختلفت وجهات النظر، يَبقى ثابتاً أنّ أهل صور بذلوا أنفسهم من أجل مدينتهم - ومن المهم أن نذكر أيضاً - أن دعم صيدا وجبيل وأرواد للإسكندر أدى إلى قلب ميزان القوى لصالحه. إن تحليل هذا الموقف لا يجب أن يكون من خلال إسقاط عاموديّ للحاضر على الماضي، وبالتالي فإنّ هذا التوجه لا يمكن فصله عن الخلفية التاريخية والجغرافية لذلك العصر. إلا أنّ الدرس الذي يمكن استقائه هو أنّ تشرذم الأخوة نتيجة إعلائهم لمصالحهم الضيقة أدّى إلى تدمير صور.

ولا بد لنا من التأكيد أيضاً أن معركة صور تعدّ مصدرًا مهمًا لا بل نادرًا يمكن الارتكاز عليه في محاولة فهم التّاريخ العسكري للفينيقين، فقد اشتهر هذا الشعب ببراعته في التجارة والعمارة والإبحار وباختراعه الأبجدية، لكننا لم نعرف الكثير عن قدرته العسكرية، لذلك فإنّ أحداث هذه المعركة تعتبر كنزًا من المعلومات في التّاريخ العسكري. وقد تَصَلح لتشكيل نواة لدراسة أكبر وأشمل تُلقّي المزيد من الضوء على تاريخ الفينيقين العسكري، كما ونأمل أخيرًا أن تساهم هذه الدراسة بالتوعية على أهمية التّاريخ لفهم الحاضر واستقاء العبر،

دراسة تحليلية نقدية على ضوء المنهج البنيوي (شاي أسود) أنموذجاً

د. رائدة على أحمد عاصي

يتلاءم إلى حدّ كبير مع تطلعاتي لذا وجب على الدراسة اعتماده.

والمنهج البنيوي التكويني، هو فرع من فروع البنيوية، نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد والماركسيين، للتوفيق بين أطروحات البنيوية في صيغتها الشكلانية وأسس الفكر الماركسي أو الجدلي في تركيزه على التفسير المادي والواقعي للفكر والثقافة عموماً، ويعدّ غولدمن من مؤسسي هذا المنهج وهو يرى في منظور مادي أن الأدب والفلسفة من حيث أنهما تعبيران عن رؤية للعالم - في مستويين مختلفين - فإن هذه الرؤية ليست واقعة فردية، بل واقعة اجتماعية، تنتمي إلى مجموعة أو إلى طبقة. من خلال نسق فكري يفرض نفسه، في بعض الشروط على مجموعة من الناس

المقدمة

يهدف هذا البحث إلى معرفة البناء الروائي لرواية شاي أسود «ربيع جابر» باعتبار أن البناء الروائي هو الكلّ اللغوي السردي الذي تنتظم عناصره في نظام يصنع أدبيته، ويكسب فاعليته، وقد نتفق مع توماشفسكي على «أن دلالات العناصر المفردة للعمل تشكّل وحدة هي الغرض الذي يتكشف خلال العمل كله»^(١).

هذه الوحدة التي شكلتها دلالات العناصر من اللغة المنتظمة لتصنع الأدبي هي محتوى دراسة البحث، كما أنها الصيغة السردية التي تشتمل القضايا كلّها المرتبطة بمختلف طرائق تنظيم الإخبار السردية^(٢). وعليه فإن المنهج البنيوي التكويني

(١) الشكلانيين الروس؛ نظرية المنهج الشكلي، تر. د. إبراهيم الخطيب، بيروت، والرباط، مؤسسة الأبحاث العربية والشركة المغربية للنشر، ط ١، ١٩٨٢ ص ١٧٥.

(٢) نبيل أيوب؛ الطرائق إلى نص القارئ المختلف، بيروت لبنان دار المكتبة الأهلية ط ١. ص ١١٢.

توجد في شروط مشابهة، أي على بعض الطبقات الاجتماعية^(١).

وقد اعتمد الروائيون أسلوب الصياغة الذي تُقدّم من خلاله المادّة القصصية، أو الطّريقة التي يدرك بها الراوي العالم، ويقدمّ بها الرواية، وقد اعتبر **تودوروف**^(٢) أنّ المنظور الروائي يعني مظهر القصّ (Aspect) وصيغته (Mode).

والصيغة هي سجالات القول (Registre de la parole)، ويمكن حصر هذه السّجلات في سجلّين أساسيين هما: العرض والسرد^(٣) فالعرض «سرد خالص ينتهي إلينا عن طريق الأسلوب المباشر، أو عن طريق المقارنة والتأمّل»^(٤). والسرد هو شريط الحكّي أو ذاكرة النص^(٥)، وهو عبارة عن «جملة طويلة معلوماتية، تمثّل على نحو ما خلاصة تقريبيّة لسرد

قصير»^(٦). والسرد نوعان: الأول «محض عادي، محدود بتسجيل ما حدث»^(٧) ويعرف «بالسرد التاريخي»^(٨) ويستهدف الوثائق الواقعية. والثاني «يسعى إلى تأسيس علاقات بين الحقائق»^(٩) ويعرف «بالسرد القصصي»^(١٠) ويقوم على الخيال والأسلوب الأدبي.

أمّا الصيغة فهي تشتمل على كلّ القضايا المرتبطة بمختلف طرائق تنظيم الإخبار السردية^(١١). وقد كثرت في النقد الدّراسات التي تحكم رؤية المؤلّف بتشكّل البناء الروائي، وتنوّعت الآراء حول حضور الراوي في الخطاب الروائي ودرجة هذا الحضور في مكوّناته.

وقد أطلق النقاد على رؤية المؤلّف تعريفات عديدة، بدءًا من أعمال **دو سوسير**^(١٢) «اللسانيات» مرورًا بالنقاد

- (١) لوسيان غولدمن وآخرون؛ البنية التكوينية والنقد الأدبي، مؤسسة الأبحاث العربية ط٢ بيروت لبنان ص ٤٧.
- (٢) تزيفتان تودوروف؛ باحث وناقد روسي من أشهر من نقل إلى الفرنسية نصوص الشكليين الروس، بحث في بنية القول الأدبي وأوضح معنى الشعرية، وحدد القوانين العامة للعمل الأدبي من مؤلفاته: الأدب والدلالة - ما هي البنيوية- شعرية النثر - نظرية الرمز والرمزية والتأويل. راجع موسوعة ويكيبيديا.
- (٣) سعيد يقطين؛ تحليل الخطاب الروائي، بيروت المركز الثقافي العربي، ط٤، ٢٠٠٥. صص (١٧١ - ١٧٢ - ١٨٩).
- (٤) م. ن. ص ١٧٣.
- (٥) مها حسن القصراري؛ الزمن في الرواية العربية، ص ٢١١.
- (٦) رولان بارت؛ التحليل البنيوي للسرد، تر. أنطوان أبو زيد، بيروت، منشورات عويدات، ط١، ١٩٨٨. ص ٢٥٦.
- (٧) بول ريكور؛ فلسفة بول ريكور، تر. سعيد الغانمي، بيروت، المركز الثقافي العربي ط١، ١٩٩٩. ج١. ص ٢٣٤.
- (٨) بول ريكور؛ م. س. ج١. ص ١٣٩.
- (٩) بول ريكور؛ م. س. ص ٢٣٤.
- (١٠) م. س. ص ١٣٩.
- (١١) نيل أيبوب؛ الطرائق إلى نص القارئ المختلف، م. س. ص ١١٢.
- (١٢) فرديناند دو سوسير ١٨٥٧-١٩١٣م؛ عالم لغويات سويسري ومن مؤسسي علم الإشارات، يعتبر أب المدرسة

حول الفصل بين الروائي والراوي، والكشف عن العلاقة بينهما من جهة، ومن جهة أخرى بين الراوي وبين المروي.

فالروائي هو الكاتب الذي «يبتكر الأحداث أي بمعنى أنه ينتجها خياليًا»^(٦) أما الراوي فهو «صوت يختبئ خلفه الكاتب»^(٧)، وبه ترتبط «وجهة النظر». وبحسب تقنية الرواية تتشكل علاقة الراوي بالروائي والشخص، ويُشكّل مفتتح الدراسة، ويتولّى السرد «من موقع مختلف، من حيث «وجهة النظر»، ونقطة انطلاق الرؤية واتجاهها»^(٨).

فمن هو الروائي أو الراوي وما هي رؤية المؤلف في تشكّل البناء الروائي، وما

الأوروبيين نحو؛ برسي لوبوك^(١)، هنري جيمس^(٢) جوليا كريستفيا^(٣)، جيرار جينيت^(٤) وتودوروف، وصولاً إلى النقاد العرب مثل؛ حميد لحمداني، سعيد الغانمي، عبد المحسن طه بدر، يمنى العيد، سيزا قاسم، سعيد يقطين ونبيل أيوب وغيرهم.

وقد تعدّدت المصطلحات حول تحديد هذه الرؤية، فعُرفت «زاوية الرؤية» أو «وجهة النظر» أو «الرؤية السردية» أو «التبئير»، وكلّ هذه المصطلحات، وإن تعدّدت، فوظيفتها واحدة، إنّها تقوم باحصاء الكيفيّة التي يروي الراوي ما يراه. لأنّ «كل رواية هي رواية لحكاية أو لفعل أو لأشخاص يفعلون»^(٥). وقد أجمع النقاد

البنوية، مع علمنة الثورة الصناعية أراد علمنة اللغة، من مؤلفاته : دروس في الألسنية العامة. راجع موسوعة ويكيبيديا .

(١) بيرسي لوبوك؛ (١٨٧٩-١٩٦٥) م، ناقد انكليزي، ميّز بين الأسلوب الوصفي والأسلوب الدرامي، لم يكن يتجاوز المستوى الشكلي إلى الأبعاد المعرفية لتلك الأشكال، يعدّه النقاد من خلال كتابه «صنعة الرواية» أفضل ناقد كتب حول الرواية على الإطلاق.

(٢) هنري جيمس (١٨٤٣-١٩١٦) م؛ هو مؤسس وقائد المدرسة الواقعية من الأدب الخيالي، اشتهر بسلسلة من الروايات يصور فيها التلاقي بين أميركا وأوروبا. راجع موسوعة ويكيبيديا .

(٣) جوليا كريستيفا؛ ١٩٤١م، عالمة لسانيات محللة نفسية فيلسوفة من أصل بلغاري، انتجت كمية هائلة من الأعمال تشمل الكتب والمقالات التي تطلع على التناص والسميائية والتهميش، في مجالات اللسانيات، نظرية الأدب والنقد والتحليل النفسي والسير، وتحليل الفن وتاريخ الفن جنباً إلى جنب مع رولان بارت وتودوروف وجولدمن وجيرار وليفي شتراوس ولاكان، وكانت واحدة من البنويين. موسوعة ويكيبيديا .

(٤) جيرار جينيت؛ ناقد وباحث فرنسي، يعد من أبرز ممثلي التحليل البنوي ونظرية الأشكال الأدبية، من مؤلفاته الصور - ومدخل إلى معمارية النص- وإيمائيات. راجع موسوعة ويكيبيديا .

(٥) يمنى العيد؛ التحول في التحول، بيروت، دار الآداب، ط١، ١٩٩٣. ص ١٠٥.

(٦) بول ريكور؛ الوجود في الزمان والسرد، م. س. ص ١٩٢.

(٧) يمنى العيد؛ التحول في التحول، م. س. ص ١١٨.

(٨) م. ن. ص ٢٨.

هو المنظور الروائي. وكيف تشكّل السرد في رواية شاي أسود؟

أولاً - المنظور الروائي

يعتبر تودوروف^(١) أنّ المنظور الروائي يعني مظهر القصة وصيغته (Mode) et (Aspect) فالصيغة هي سجلات القول (Registre de la parole)، ويمكن حصر هذه السجلات في سجلين أساسيين هما: العرض والسرد^(٢) فالعرض «سرد خالص ينتهي إلينا عن طريق الأسلوب المباشر، أو عن طريق المقارنة والتأمل»^(٣) أما السرد فهو شريط الحكيم أو ذاكرة النص^(٤)، وهو عبارة عن «جملة طويلة معلوماتية، تمثّل على نحو ما خلاصة تقريبيّة لسرد قصير»^(٥)

وللحصول على «جملة سردية لا بدّ من وجود ذكر لحدثين، أحدهما يشار إليه، والآخر يُوفّر الوصف الذي بصيغته يُنظر إلى الحدث الأول»^(٦).

والسرد نوعان: الأول «محض عادي، محدود بتسجيل ما حدث»^(٧) ويعرف

للإجابة عن هذه الأسئلة علينا دراسة البحث من خلال المباحث التالية: أولاً موقع الراوي ويضمن علاقاته بالشخصيات، وبمنظومة القيم العامّة التي تعتنقها الشخصيات في الرواية، والمستوى الأيديولوجي. وأساليب التعبير التي يلجأ إليها الراوي في عملية القصّ، وهي كثيرة تندرج تحت أسلوبين عامين هما المباشر، غير المباشر. ثانياً تشكيل السرد الروائي ويتضمّن البعدين الأفقي والعمودي، فالبعد الأفقي يحتوي على السرد الاستذكاري الخارجي والداخلي أما البعد العمودي فيحتوي على تسريع السرد عن طريق الخلاصة والحذف ثم إبطاء السرد عن طريق المشهد والوقفة الوصفية وثالثاً بناء الشخصيات عن طريق وظائفها، هوياتها، وعلاقاتها ثم خاتمة فالمصادر والمراجع.

- (١) تريفنان تودوروف؛ باحث وناقد روسي من أشهر من نقل إلى الفرنسية نصوص الشكلين الروس، بحث في بنية القول الأدبي وأوضح معنى الشعرية، وحدد القوانين العامة للعمل الأدبي من مؤلفاته: الأدب والدلالة - ما هي البنيوية- شعرية النثر - نظرية الرمز والرمزية والتأويل. راجع موسوعة ويكيبيديا.
- (٢) سعيد يقطين؛ تحليل الخطاب الروائي، صص (١٧١ - ١٧٢ - ١٨٩).
- (٣) م. ن. ص ١٧٣.
- (٤) مها حسن القصراري؛ الزمن في الرواية العربية، م. س. ص ٢١١.
- (٥) رولان بارت؛ التحليل البنيوي للسرد، م. س. ص ٢٥٦.
- (٦) بول ريكور؛ الزمن والسرد، م. س. ج ٢، ص ٨٣.
- (٧) م. ن. ج ١. ص ٢٣٤.

«بالسرد التاريخي»^(١) ويستهدف الوثائق الواقعية. والثاني «يسعى إلى تأسيس علاقات بين الحقائق»^(٢) ويعرف «بالسرد القصصي»^(٣) ويقوم على الخيال والأسلوب الأدبي.

أ - الراوي، موقعه، وعلاقاته بالشخصيات

يؤدّي القصّ راوٍ يقع خارج أحداث القصة، وعلى الرغم من أنّه غير مشارك فيها أو مشاهد لها، إنّهُ حاضر في عالمها، يعرف كلّ شيء، بذلك يكون من فئة «الراوي < الشخصية» أو الرؤية من خلف، يستخدم ضمير الغائب في هذه الحالات ومن الأمثلة على ذلك:

«ينظر إلى رفوف الكتب»، «الحرب أخذت منه أمًا»، «يتذكّر والده»، «كان ينزل إلى أسفل الوادي كلّ ليلة»، «يبدأ حسام بالابتعاد عن عربة البائع».

ولكنّه يتنحّى جانباً في كثير من الأحيان، ويختفي فجأة لتحضر الشخصية، ويقصّ بضمير المتكلم، «أنا أعرف»، أنا بطل هندي، أنا رئيس الميلودراما»، ثم يستعيد موقعه ويظهر معلقاً.

يبدأ الراوي القصّ، فنعلم أن «حسام» الشخصية الرئيسية، يقع في مشكلة تتلخّص

بعدم اشتهاؤه للحياة؛ «حياتي كلّها لحظة واحدة، لحظة موتي»، إنّهُ شخصيّة مهزومة، فشل في مواصلة الحياة، وفي إقامة علاقات مع الآخرين، بسبب رؤيته العدميّة للوجود، يقول: «اخترعت العزلة وسكنت في قلبها. بلى. طوعاً اخترت جحيمي». فهو «لا يؤمن بحقيقة وجوده وماديّة هذا الوجود» لذلك من السهل عليه أن «يكتشف أنّه غير موجود»، ويعلم أيضاً أنّ «كل كلام عن الشعور والمشاعر هو حتماً كذب وخداع».

تبدو تعليقات الراوي من خلال الكشف عن شخصية حسام لأنّها تعاني من وحدة «أصيلة قديمة مُعتّقة غير طارئة غير مُستجدة»، يفصلها عن العالم سدّ منيع.

يسترسل الراوي في إخبارنا بواسطة الحوار الداخلي والخارجي الذي يدور بينه وبين الشخصيات، ليكشف عن أجواء الحرب وتأثيراتها السلبية على جيل الشباب، ويتدخّل الراوي معلقاً. ثم يغيب عن الأحداث، ويختبئ خلف الشخصيات، ليفسح المجال أمامها لتعبّر عن ذاتها، وتكشف عن طباعها وتوجّهاتها ومواقفها، وعن العلاقة في ما بينها.

وقد يبرز تداخل تعليق الراوي على ما يجري مع تعليق الشخصية الرئيسية،

(١) م. س. ج. ١. ص ١٣٩.

(٢) م. س. ص ٢٣٤.

(٣) م. س. ص ١٣٩.

الثلاثة علاء والياس وربيع وجوه مغطاة بالأقنعة».

ومن الملاحظ أنّ تعليقات الراوي وتدخّلاته تُنصّص بين مزدوجين والأمثلة، عليها كثيرة، وكأنّ الراوي يسكن نفس حسام، يتغلغل إلى داخله، ويكشف مشاعره، ما يفكر به، وما يُسرّه أو يُعلنه.

الراوي إذا يرى مع الشخصية الرئيسة على القدر نفسه، إنّه يعرف ما تعرفه، ويلم بخفايا الآخرين. كما يلاحظ أنّ الراوي يتدخّل مباشرة بين الحين والحين، ليبعد الالتباس الحاصل لدى القارئ، بأنّه هو الشخصية الرئيسة، ومن الأمثلة على ذلك: «وفكرت: يا حسام يا زكي لماذا تؤلّف مسرحية مكرّرة ومكرورة إلى هذه الدرجة، اخترع أمرًا جديدًا حاول بعض التجديد».

يتوهم القارئ أنّ ضمير المتكلم عائد إلى الراوي، ولكن الراوي يستدرك بعد ذلك ويضيف عبارة «يعرف أنه يهلوس، كي يبعد هذا الالتباس».

وإن يكن الراوي يوظّف أصوات الشخصيات، ويجيد ذلك في كثير من الأحيان، لأنّه يبقى مهيمناً، فإنّه يتدخل حيث تدعو الحاجة، ويتخذ تدخّله مظهرًا واحدًا انتفاء رغبة حسام، ومن خلفه الراوي، في تقييم الحرب، العبثية التي تفتّح وعي حسام عليها، فوقع في شرنقتها، ولكنّه لم يستطع مواصلة الحياة بعد

وتدفعنا إلى التساؤل؛ إلّا ما تعود وجهات النظر، إلى الراوي أم إلى الشخصية؟ ولكن سرعان ما نكتشف أنّ البطل قليل الكلام، وهو يقوم بمهامه، يقول الراوي: «يتذكر الآن أنه ضحك»، يفكر، «يتخيل، يهلوس»، «يزعم أنّ الحياة لا قيمة لها». يخبر الراوي ما يحدث، ويُنطق الشخصية بخطاب يُظهر معاناة حسام نتيجة تميّزه عن غيره، وما انتهت هذه المعاناة، وكلّ ما يعرفه ويؤمن به بقوة أنّ «الموت نوم، والحياة أرق».

الراوي حاضر في أحداث الرواية، لكنّه لا يتدخل، ويتبيّن حضوره من التفاصيل الدقيقة التي يكشف عنها، فهو يعرف حركات حسام وأفعاله بكلّ دقّة «هو يلعب بالمظلة يرميها ويلتقطها، يرميها ويضعها فوق كتفه، ويفتحها ويغلقها»، ينزل باتجاه مبنى السفارة الإيطالية، يحلو له أن يتفرج على مصاريع الشبابيك الخضراء»، «يضجر من السفارة [...] يعود إلى شارع الحمراء، ويمشي باتجاه الهورس شو [...] يتوقف [...] يشتري كعكة بدون زعتر.

كما يعرف الراوي أفكار حسام وهلوساته؛ «يفكر أنه جائع، أنه يدوخ أنّ العالم يدور حوله». «يفكر حسام أنّ العالم مرآة، مجرد مرآة»، «يتخيلها تعضّ على شفرتها السفلى، يتخيّل اللؤم في صوتها، هي اللطيفة الرقيقة [...] هي حبيبته التي تدعى سهى». أو يصف أصدقاءه «الفرسان

عبثيته وسوداويته. والثاني يتمحور حول أيام الجامعة والأصدقاء الثلاثة والحببية، فهذه الذكريات ليست المسؤولة عن عبثية حسام وسوداويته، بقدر ما هي مسؤولة عن تفكك علاقاته مع الآخرين على الرغم من حبه الصادق لهم.

يتوصل حسام إلى أن يكتشف أنه غير موجود إلا في الخيال. إذاً هو للأعمال التخيلية من أدبية وغير أدبية، فقد اختبأ الراوي خلفه، وردّد معه «أريد أن أكتب عن الحرب التي تسحق الروح، وتمزّقها كما تمزق السكين أحشاء بقرة»، إنّه الهرب من مضاعفات الواقع إلى الخيال.

ب - المستوى الأيديولوجي

يقوم الراوي وفق منظومة قيمه الأيديولوجية بصوته حيناً وبصوت حسام الشخصية الرئيسة حيناً آخر، فنسمع صوت حسام معلناً موقفه من الحرب وفق منظومة قيمه، وهي مرآة تعكس وجهة نظر الكاتب، لأنه يتعاطف معه ويؤيّد، فيقوم من خلاله منظومة قيمه الأيديولوجية. ومن الأمثلة على ذلك مسألة اختياره الشخصية الرئيسة والصفات والأفعال التي نسبها إليها.

حسام إنسان غير منتم، مثقف، «لقد ترك الجامعة منذ سنين طويلة» كان «طالب هندسة». أمّا «الآن يجد نفسه في حالة متطرّفة من خياليته». يعيش مع ذكرياته وهو أجسه وأحلام اليقظة، «لقد تجاوز

انتهاؤها، بل ظلّ هاجسها مسيطراً عليه، ما جعله إنساناً مهزوماً قلقاً عبثياً، وقرّر أن «العالم وهم [...] يفكّر: الرعب والليل والضحك والخيانة، من يتحمّل هذا إلا إذا كان وهمًا».

ونسمع صوت الراوي معلقاً واصفاً الحالات التي تنتاب الشخصيات وسلوكها أيضاً في الحوار بين حسام والأصدقاء. أو بينه وبين سهى.

يمكن القول إنّ الراوي عاين مشاعر حسام، وفسّر الحالات التي شعر بها، وعلّق عليها وعلى سلوكها، وربط هذا السلوك بالمشاعر.

ومن خلال علاقة الراوي بحسام يتحدّد موقعه وعلاقته به على الشكل التالي: إنه يمقت الحرب ويرفض منهجها في الحياة، ويعتبرها عبثية لا جدوى منها، وتنتفي رغبتة في تقيّمها، ولكنّه يبرّر عبثية حسام وسوداويته حين تعاطف معه، وردّ هلوسته إلى الحرب المتأصلة فيه، وأوحى بدورها في مضاعفتها، وأعلن مع حسام «أن الحياة الحقيقية لا تعاش في الحاضر وإنما في ما بعد».

يعتبر الراوي أن الذكريات المبتوثة في متن الرواية لها بعدين أساسيين في تكوين شخصية حسام؛ الأول متعلق بذكريات الطفولة، وما رآه من مشاهد الحرب، أو ما سمع عنه من مجازر، وحملها مسؤولة

الخرافات الجماعية إلى خرافات خاصة به [...] والهلوسة بمفهومه عدم التفكير بمنطق أو شيء من هذا القبيل، وعدم القدرة على التمييز [...] وعدم القابلية أو القدرة على الحديث.

يعاني حسام من أزمة نفسية، غير أنه قارئ نهم لكل الأجناس الأدبية من شعر وقصة ورواية، محبٌ لكل الأعمال التخيلية، وأهمها السينما والمسرح، «تتشكل كلمات القصيدة في دماغه بسهولة». «يقف قرب شبّك التذاكر [...] ينظر إلى الملصقة على الحيطان العالية لهدف الدعاية للأفلام القادمة [...] يشاهد ويحلل بسرعة». «يلم «بكتب جرجي زيدان». يتخيل؛ فلأنه هذه المسرحية منذ البداية كانت مجرد مسرحية».

هذه الصّفات الموسومة بصفات سوداوية عبثية يقدّمها الراوي من منظوره القيمي، وكأنّه يعلن موقفه ليس من الحرب وحسب، إنما من الحياة برمّتها، ويهرب من الواقع الأليم الذي خلا إلا من الدمار ومشاهد الدم والمجازر.

ونتساءل من الذي يكتب، بطل الرواية أم الراوي نفسه؟ ونسمع صوتاً في نهاية الرواية، يكشف النقاب عن وجه صاحبه، يقول «كانت مجرد مسرحية، يؤدّيها رجل واحد، يُدعى حسام وفي جمجمته ألف قصة وقصة».

من هذا السياق يقدّم الراوي منظومة قيمه الأيديولوجية، لأنّ انحيازه إلى حسام مؤشّر على ذلك، فصوت حسام مرآة يعكس صوت الراوي ومواقفه، نسمع صوته من منظور قيم الراوي الأيديولوجية. يعتبر الراوي أنّ الذكريات المبتوثة في متن الرواية لها بعدين أساسيين في تكوين شخصية حسام. الأول متعلق بذكريات الطفولة، والثاني يتمحور حول أيام الجامعة والأصدقاء الثلاثة والحبّية.

كما يرى الراوي من منظومة قيمه أنّ الحرب مولّدة لمختلف الأزمات النفسية، فيجعل من بطله شخصية تعاني أزمة نفسية رافضة للحرب، إنّها شخصية حيادية، لم تنجرّ في الحرب، رفضت منطقتها الذي يجعل من «صنف الذئاب التي لا تقبل بالانتماء إلى قطيعها».

ويعلن موقفه، باعترافه أنّ الحرب عبثية، قضت على جيل الشباب الذي تفتّح وعيه عليها، فانجرّ وراءها قاتلاً سارقاً مقترباً المحرمات، ومن لم يعزف على أوتارها السامة رمته في أحضان هذا العالم، «الوهم»، مأزوماً معانياً أسوأ معاناة. ويخلص إلى وجوب التحرر من ضرورة البحث في الحرب اللبنانية لأنها حرباً معقّدة، أخلت ذاكرة جيل الشباب الجماعية من كلّ ما لا يمتّ إلى هذه الحرب بصلة.

كما يقوم الراوي جيل الحرب، فإذا كانت

أما في المدينة فالأمر اختلف كثيراً
«أضواء الأعمدة الكهربائية تشع وتخرق
الفضاء، كما تخرق السكاكين العريضة
جسد طفل رضيع، إنها الحرب يفكر».

من الواضح أن الراوي انحاز إلى القرية،
ولكنه لم يُثر إشكالية الريف والمدينة بقدر
ما لجأ إلى إظهار المفارقات التي حصلت
أبان الحرب، والتشويه الذي تركته بصمات
الحرب على المكان، أكان ريفاً أم مدينة.

ج - المستوى التعبيري

يبدأ الراوي القصّ مُستخدماً صيغة
ضمير الغائب، وهو يقع خارج الأحداث،
غير مشارك، وهذا لا يعني أن الراوي لا
ينوع في أساليب التعبير، فالأساليب تتناوب
وتتداخل لتحقيق تكاملاً في البناء الروائي،
وغنى على مستوى التعبير. فنجد تنوعاً في
الأساليب بين مباشر وغير مباشر، ومباشر
حر وغير مباشر حر.

يبدأ الراوي القص بصوته مباشرة
مستخدماً، أسلوب سرد غير مباشر، وهو
سرد خبري تصويري «ينظر إلى رفوف
الكتب بينما يرتدي ثيابه، يأخذ المظلة
المعلّقة بالمسمار المدقوق في الباب
الخشبي [...] شقته صغيرة، غرفة ومطبخ
وحمّام في الطابق الرابع. ليس في البناية
مصعد كهربائي [...] يُدعى حسام يقضي
سحابة النهار في تجليد الكتب وفي الليل
يقرأ قليلاً ويشاهد السينما كثيراً».

الحرب نعمة على بعض المستفيدين منها،
فهي نقمة على الكثيرين، كما يقوم برؤيته
النقدية تفكك العلاقات الاجتماعية، فقد
فرقت الأصحاب أصحاب حسام؛ علاء
والياس وربيع، فرقتهم الحرب، فأماتت
علاء انتحاراً، وهجرت الياس إلى فرنسا
وربيع في صيدا وهو في بيروت، وفرقت
الأحباب، وحالت دون وصول بعضهم إلى
البعض الآخر، كما فصلت جيل الشباب عن
تاريخه ملقية به في العدمية. كما يرى من
منظومة قيمه أن الحرب مولدة لمختلف
الأزمات النفسية، حسام عبثي سوداوي
مأزوم نفسياً، وصديقه علاء انتحر، وكان
ضحية الحرب.

ويبين أيضاً خطورة الفرز الطائفي «لولا
الحرب لكان أعطى مريم لمحمد، وترك
لجورج أن يأخذ فاطمة، يدرك أن مريم
كانت ستشعر بالسعادة مع محمد أكثر من
جورج».

ولم ينس الراوي رؤيته القيمية للريف
والمدينة، يتذكر حسام الريف، وقد خيم
عليه جو من الإلفة والمحبة والاستقرار
وراحة البال والعمل في الأرض «على ضوء
القمر». ويتذكر «شجرات السماق الصغيرة
على حواف حقل البندورة، وقد أحاطت بها
حبوب الوزال والسنديانات الصغيرة، يتذكر
حركتها عند هبوب الرياح». كان ذلك في
الماضي قبل الحرب.

الجدران صفراء، السقف أصفر، الباب الخشبي مطلي باللون الأصفر، اللمبة أشعاعها أصفر [...] حتى البلاط لونه أصفر. يراقب دوائر الدخان تخرج من فمه صغيرة وتكبر رويداً رويداً بينما ترتفع باتجاه السقف». وفي موضع آخر يصف الراوي طريقة حسام في تحضير الشاي في إبريق نحاسي، ويشرب «الشاي أسود» ليوحي بالسوداوية التي يعيش فيها.

ومن الأساليب التي اعتمدها الراوي أيضاً أنه يقرب القراء منه، ويخاطبهم أحياناً على أنه يقيم علاقة مباشرة معهم، فيحضره أحياناً وكأنه يخاطب أحداً ما، تحضر هذه العلاقة في نهاية الرواية، ويتصور الراوي حضور القارئ ووجوده أمامه، يُصغي إليه «افهموا القضية جيداً، إذا فهتمم عذرتهموني».

مما تقدم يتبين أنّ الرواية يسودها نسق أسلوبية يتمثل بالتنوع والتشابك الذي يبرز فيه حضور المباشر وغير المباشر بكل أنواعه. وذلك بفضل تنوع الأصوات، وتعدد الشخصيات في الرواية، ذلك ما يمثل بناء منظور روائي جديد، يمثل وجهات نظر مختلف الفئات الاجتماعية والسياسية، فتحضر أصوات متباينة ومتناقضة حول رؤية الحرب من زوايا مختلفة. وحين نجمع زوايا النظر يمكننا جمع صورة متكاملة عن الحرب وأثرها على المجتمع والسياسة.

وقد تواتر هذا الأسلوب في مواضع كثيرة في الرواية، مستخدماً سرد غير مباشر خبري. «يتذكّر والده يدعى حسام ولقد ترك الجامعة منذ سنين طويلة، وهو يقطن الآن وحيداً في شقة صغيرة لبنانية صفراء قديمة». «هكذا يفكر حسام بينما يقطع الطريق إلى [...] ويمشي باتجاه مصرف لبنان المركزي».

ثم يوكل الراوي الكلام إلى الشخصيات، فينتقل من الأسلوب غير المباشر إلى الأسلوب المباشر الذاتي، أو الذاتي الحرّ، على نحو الحوار الداخلي؛ «أكون الشخص الآخر؟ الآخر الذي لا يشبه وجهي وجهه، هل أكون أنا هو؟ ذلك الآخر، الآخر الذي لم أراه قطّ في تلك المنامات التي تُنسى». أو قوله: «أي عالم حقيقي، أي مهزلة، أي كذب. يفكر حسام». وفيه يختلط صوت الراوي بصوت حسام، ويقع القارئ بلبس في من يتكلم الراوي أم حسام

ثم ينتقل الراوي إلى السرد المباشر. يدير الحوارات بين حسام وسهى أو بين حسام وعلاء. أو بين حسام والياس. أو بين حسام وصبي البويا.

كما اعتمد أسلوب السرد التصويري لوصف حالة حسام كي يجعل القارئ يكتشف نفسيته المريضة التي انعكست على الموجودات، فظهرت صفراء باهتة لا قيمة لها. «هذه غرفة صفراء، يفكر حسام.

ويترك للقارئ أن يكتشف حقيقة هذا العالم المفطور على الشر.

ثانياً - تشكيل السرد الروائي

ينطوي السرد على أفقين؛ أفق التجربة، وأفق يتجه نحو الماضي «ولا بد أن يكتسب صياغة تصويرية معينة، تنقل الأحداث إلى نظام زمني فعلي وأفق التوقع»^(١). وبين التجربة والتوجه نحو الماضي يُمكن الحديث عن الحركة السردية في بعدها الأفقي والعمودي..

١ - البعد الأفقي: يمثل التغييرات الزمنية العارضة، ويؤدي إلى قيام إحدى مفارقتين؛ الاستذكار أو الإستباق والاسترجاع أو الاستشراف^(٢).

أ - السرد الاستذكاري: السرد الاستذكاري هو استرجاع فترة ماضية، تكون للمدى البعيد أو القريب، «لأن كل عودة للماضي تشكّل بالنسبة إلى السرد استذكّاراً يقوم به لماضيه الخاص، ويحيلنا من خلاله إلى أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة»^(٣). وهو نوعان الاستذكار الخارجي والاستذكار الداخلي.

فالاستذكار الخارجي فيه عودة إلى ما قبل بدء الحاضر السردية^(٤). والاستذكار الداخلي، وفيه يستدعي الراوي أحداثاً في الماضي، لكنّها لاحقة لزمن بدء الحاضر السردية، وتقع في محيطه، «ونتيجة لتزامن الأحداث يلجأ الراوي إلى التغطية المتناوبة، حيث يترك شخصية، ويصاحب أخرى لتغطّي حركتها وأحداثها»^(٥). فكيف ساهمت الاستذكارات في استرجاع الماضي، وما الهدف منها؟

الاستذكارات الخارجية

بطل الرواية حسام «أنهى عامه الثالث والثلاثين». يعود بذاكرته إلى المدى البعيد «إلى ما يقارب العشرين عاماً، يصرّح عنه بقوله «إنّها الحرب [...] ماتت [أمه] كان عمري عشر سنين تقريباً». ويسترجع أحداثاً ووقائع مريرة عاشها في أثناء الحرب، «إنّها الحرب يجد نفسه في الملجأ [...] إنّه تمدّد تحت البطانية ورأسه في حضن أمه». كما يتذكّر عمله في الحقل «المجرفة في تجويف الزيتون الضخمة. جنب خيمة القصب». ويسترجع علاقته

(١) بول ريكور؛ الوجود والزمان السردية، تر. سعيد الغانمي، م. س. ص ٣١.

(٢) حسن بحراوي بنية الشكل الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٩. ص ١٩٥.

(٣) حسن بحراوي؛ م. س. ص ١٢١.

(٤) عبد المجيد زراقط.؛ في بناء الرواية اللبنانية، بيروت منشورات الجامعة اللبنانية، لاط، ١٩٩٩. ص ٧٠٦. ومها حسن القصاروي؛ الزمن في الرواية العربية. ١٩٥.

(٥) م. ن. ص ١٩٩.

التي تطراً على القصّة والخطاب معاً، ويتعلّق بوتيرة سرد الأحداث من حيث سرعتها وبطؤها. فكيف كانت الحركة السردية ببعديها الأفقي والعمودي في الرواية؟

ثالثاً - تسريع السرد، وإبطاء السرد

١- تسريع السرد

يقوم السرد على تقنيتين أساسيتين: الأولى تسريع السرد والثانية إبطاء السرد. أولاً - تسريع السرد هو عبارة عن مقطع صغير من الخطاب يغطّي فترة زمنية من القصّة. ويعتبرها النقاد اختزال فترة زمنية طويلة المدى أو قصيرة المدى من حياة البطل أو من الأحداث. ويتم بطريقتين الخلاصة والحذف.

أ - الخلاصة: يرى النقاد أنّ الخلاصة هي وحدة من الزمن، تقابل وحدة أصغر من زمن الكتابة، وتمثّل الطابع الاختزالي الذي يفرض مروراً سريعاً بإيجاز مكثّف على الأحداث. وهي من حيث الفترة الزمنية نوعان: الأول محدّد يشتمل على مساعد، والثاني غير محدّد ويصعب علينا تخمين المدّة التي يستغرقها، بسبب الغياب الكلي للقرينة الزمنية^(١). كما تقوم على مستويين؛ الخلاصة الاستذكارية؛ وهي

بسهى «يتذكّر الآن أنّه ضحك وقال لها «هبلّة كبيرة». ويتذكّر صداقته بعلاء والياس وربيع». و«يتذكّر ليلة ما قبل سنتين تقريباً»

تختلط الاستذكارات والخيالات والهلوسة مع الواقع في ذاكرة حسام، ما يشير إلى تمزّق الذات في حرب عبثية، عبثت بحياة حسام، وجعلته إنساناً عبثياً لا يقيم وزناً ذا شأن للحياة.

كما يسترجع حسام أحداث الحرب، عبر شريط التذكّر العائد لأكثر من ثلاثين عاماً، وهو يساوي عمره حين ولد لفترة زمن القصص. يسترجع أمّه التي استشهدت، وتركته طفلاً يائساً.

هذه الأحداث المؤلمة ساهمت في تكوين شخصية حسام العبثية، وعكست رؤيته العدمية بالوجود. ومن الملاحظ أنّ الاستذكارات تعود إلى قبل بدء الحاضر السردية، وهذا ما عرف بالاستذكارات الخارجية، ولكننا لا نعثر على استذكارات واحدة لاحقاً لزمن بدء الحاضر السردية في الرواية، ما يدلّ على أنّ جذور الحرب المتجذّرة في حسام والتي جعلته إنساناً غريباً، يصعب عليه التواصل مع الذاكرة الاجتماعية.

٢ - البعد العمودي: يتمثل بالتغييرات

(١) حسن بحراوي؛ م. س. ص ١٥٠.

الغاية الأساسية لكلّ خلاصة. ونجد أنّ الخلاصة الاستذكارية قلّما تعود بنا إلى تحديد مقدار المدّة الزمنية الملخّصة. وفي الرواية أمثلة كثيرة على ذلك، منها: يتذكر حسام موت والدته، يضعنا أمام تخمين المدّة التي تعود إلى زمن موتها. وإذا ما عرفنا أنّه يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا، ويذكر أنّ والدته ماتت وهو في العاشرة، يعيدنا ذلك إلى ثلاثة وعشرين عامًا إلى الماضي.

أو من خلال العودة إلى الماضي، نتبيّن حالة حسام وواقعه الأليم. فحسام «يتذكّر والده [...] يتذكّر الفلاحين [...] يتذكّر الحقل المزروع [...] كان ينزل إلى أسفل الوادي كلّ ليلة [...] يأخذ المجرفة، ويصعد إلى رأس النبع على ضوء القمر».

وفي أسطر قليلة يسرد لنا أخبارًا وحوادث تعود إلى الماضي، «ويتذكر ليلة ما قبل سنتين». ترتبط هذه الأحداث بأخبار سهى حبيبته وبلقائه الأول بها. كما يُلخّص علاقته بصديقه علاء، ويسرد أحداث انتحاره.

هذه الذكريات العائدة من الماضي تتربّص في حاضره، وتحلّل الحيز الأكبر من حياته، إنّهُ منذ الطفولة نما على مشاهدته العنف والدم والقتل، ما جعله

عبارة عن كتابة اختزالية، تكتفي بالإشارة السريعة إلى الأحداث الماضية، محقّقة بذلك سرعة قياسية. وخلاصة الحاضر، وهي لا تتحرّر من الماضي، بل تضع معطياته في خدمة الحاضر، وتفسح المجال أمام القارئ لكي يستجمع صورة الأحداث، وهي تساعدنا على معرفة تطور مجرى الأحداث^(١). وفي الرواية نماذج كثيرة من الخلاصات وهي على النحو التالي:

يؤدّي الرواي ما حدث تارة تلخيصًا استذكاريًا، وتارة أخرى تلخيص الحاضر، فمن التلخيص الاستذكاري الذي يميل إلى اشتغال الماضي، وكأنّ الرواي مثل فئة الشباب الذين شبّوا على أصوات الصواريخ ومشاهد الدم، التي انطبعت في ذاكرتهم، وجعلتهم غير قادرين على متابعة حياتهم بشكل طبيعي، لأنّهم لم يتحرّروا من ظلّ الماضي الذي ظلّ يتحكم في خلفيتهم، كما يفسح الرواي المجال أمام القارئ كي يستجمع صورة الأحداث، كتلك التي تتعلّق بموت والد حسام؛ «الحرب أخذت منه أمًا رائعة، لا يعرف كيف ينسى هذا، يفكّر في يد البنت المقطوعة من المفرق». أو يفكّر بوالدته «يحاول ألاّ يتذكّرها ممدّدة داخل التابوت الخشبي الطويل».

فالرواي يسرع بالسرد الذي يشكّل

(١) م. س. ص ١٥٢.

يسوّغ العبثية والسوداوية المتأصلتين في شخصيته، واللتين تعودان إلى الحرب التي ساهمت بتفكك العلاقة الحميمة مع أصدقائه، ثم مع حبيبته سهى، وحالت دون الزواج منها.

أ - خلاصة الحاضر:

وردت في الرواية، وقد أسهمت في رسم الوضع الحاضر لحسام، والتي من خلالها تمهد للقارئ ليتقبّل التطورات الحكائية اللاحقة، ويتفهمها على نحو: «ينظر إلى رفوف الكتب بينما يرتدي ثيابه. يأخذ المظلة المعلقة بالمسمار المدقوق في الباب الخشبي ثم يفتح الباب ويخرج من شقته [...] ليس في البناية مصعد كهربائي ينزل الدرج [...] يخرج إلى الشارع».

أو يقدم الشخصية الرئيسة بإيجاز «يدعى حسام، يقضي سحابة النهار في تجليد الكتب، وفي الليل يقرأ قليلاً، ويشاهد السينما كثيراً». وكان «وقت الغروب قريب إلى قلبه كوقت الفجر. في هذين الوقتين وحسب، يشعر أنه في حالة اندماج كلية مع ذاته».

أو يوجز ما حدث في لقاءات كثيرة، ويقدم للشخصيات الثانوية تقديمًا سريعًا «يكتشف حسام أنه سوف يُصلب على يد

الفرسان الثلاثة بعد ثوانٍ، ولن يكونوا ثلاثتهم لكنّ روح الثالث ستكون حاضرة في الجو».

وقد يعرف بصاحب هذه الروح في مكان آخر، «سيحضر من تبقى على قيد الحياة: الياس القادم من فرنسا وربيع القادم من صيدا، ونعرف أنّ الصديق الثالث هو علاء».

وبمثل هذه الأمثلة يخبرنا الراوي سيرة حياته، ويخصّها. ثم يلخص قصيته بقوله «افهموا القضية جيدًا إذا فهمتم عذرتوموني، من الفجر إلى العصر، ومن العصر إلى الفجر، لا شغل لي إلاّ تجليد الكتب، لا أحبّ أحدًا ولا أطلب أيّ أحد بحبّ [...] كلّ ما في الأمر إنني ضجرت، اخترعت العزلة منذ البداية، سكنت في قلبها. بلى طوعًا اخترت جحيمي منذ البداية».

ب - الحذف أو الإسقاط:

الحذف تقنية زمنية تقضي بإسقاط فترة طويلة أو قصيرة من زمن القصّ، وعدم التطرّق لما جرى فيها من وقائع وأحداث^(١) بمعنى أنه القفز بالأحداث، وإلغاء زمن ميّت في القصّة، وهو نوعان الأول يُشار إلى الجزء المحذوف من القصة، ويعرف بالحذف المحدّد. وفي الثاني لا

(١) حسن بحراوي؛ م. س، ص ١٥٦. حميد لحمداني. م. س. ص ٦٣. مها القصراوي. م. س. ص ٢٣٣.

يشار إلى الجزء المحذوف ولا تذكر المدة الزمنية المحذوفة، ويعرف بالحذف غير المحدد.

ويكون القفز بطريقتين: الأولى السكوت عن الجزء المحذوف من القصة. والثانية البياض المطبوعي، الذي يعقب انتهاء الفصول. وقد يكون وقفًا للسرد، وإبطالاً لحركته، وليس قفزًا، بل هو مجرد تسريع له. ويميز **جينيت جيرار** من الوجهة الشكلية للحذف بين ثلاثة أشكال هي: الحذف المعلن، والحذف الضمني، والحذف الافتراضي.

فالحذف المعلن هو إسقاط الزمن الصريح من القصة، سواء أكان الحذف محددًا أو غير محدد. والضمني هو الذي لا تنوب عنه أية إشارة زمنية أو مضمونية، «يدركه القارئ بقرائن الحكيم نفسه»^(١)، لأنه يؤدي إلى انشطار الزمن في اتجاهات مختلفة بين الماضي والحاضر والمستقبل، ويجعلنا غير قادرين على تحديد مواطن الحذف»^(٢). فيتصرف في ترتيب الأحداث بما يوافق تطور الحكمة القصصية. أما الافتراضي فهو غير معلن تغيب القرائن الواضحة التي قد تسعف القارئ على تعينه إلا عن طريق افتراض حصوله. والحذف بمختلف أنواعه يساهم في تسريع السرد،

ويلغي فترات زمنية. فيلجأ إليه الروائي لصعوبة سرد الأيام والحوادث بشكل متسلسل. فكيف استخدم ربيع جابر الحذف في شاي أسود؟

امتد زمن القص في «شاي أسود» من عصر اليوم حتى فجر اليوم الثاني، أما زمن الوقائع فواكب محطات زمنية وتواريخ عاشها **حسام** تعود إلى طفولته. هذا ما وجب استذكارات كثيرة، وردت عن طريق الحذف لفترات زمنية، والقفز بالأحداث إلى الأمام، وهي لتشكّل مرتكزًا أساسيًا في حياته، كما جعلته ينظر إلى الوجود بمنظار سوداوي، تطفى عليه الرؤية العدمية للحياة. وهي على النحو التالي:

ألف - الحذف المعلن المحدد: يتذكر **حسام** أمه التي ماتت بقذيفة، وهو طفل لم يبلغ العاشرة من عمره «عندما ماتت كان في الصف الأول المتوسط». ويحلم بها مسترجعًا الزمن الذي أثار في تكوين شخصيته، ويقفز بالسرد مسرعًا بالأحداث. و«يتذكر موضوعًا كتبه في الثاني المتوسط، حول رحلة قام بها مع أصدقاء له». من دون أن يذكر تفاصيل هذه الأحداث.

لقد ألغى فترة زمنية طويلة وحددها مصرحًا عنها. كم «يتذكر ليلة قبل سنتين

(٢) مها حسن القصراوي؛ م. س. ص ٢٣٦.

(١) G. genette. Fugures. 111. p.190.

تقريباً» ويقفز بالزمن «ثلاث عشرة سنة كرمشة عين كأن ذلك كان بالأمس». «قبل يومين فقط أعاد قراءة الأشعار». «قبل سنتين من شهر أيار دعاه ربيع إلى الغداء».

باء - الحذف المُعلن غير المحدد:

يعود بالذاكرة إلى سنين طويلة «هذه التعبيرات تذكره بأيام الدراسة الابتدائية والمتوسطة». حذف الراوي سنين كثيرة من عمر حسام، ولم يحددها. أو «يعود تاريخ الكتابة على هذه الورقة إلى آخر يوم قضاه في الجامعة، كطالب في فرع الهندسة الميكانيكية». تذكر مختار رأس بيروت «لقد زاره قبل بضع سنين وتكلم معه». يقول: «بعد ليالي قليلة من سقوط بحمدون يحلم أنه يلعب الكرة». أو قوله: «لا يعتبر أيام الملجأ جزءاً من الحرب. الحرب التي انجرت فيما بعد. بعد سنة واحدة من مغادرته الجامعة».

هذه الفترات الزمنية التي حذفها الراوي من السرد لم تؤثر على وتيرته بقدر ما ساهمت في تسريعه والقفز به إلى زمن يساهم في تغيير مجرى الأحداث وعلى القارئ أن يعود إلى عمر حسام، ويقوم بعملية حسابية طويلة ليحتسبه، ويحدد في أي عمر كان حين كان في المرحلة الابتدائية والمتوسطة.

جيم - الحذف الضمني: حسام يتذكر

«الحرب» يتذكر «والده» وكان ينزل إلى

الوادي كل ليلة، أحياناً مع والده وأحياناً مع صديق [...] يتذكر تلك الأيام بأصغر تفاصيلها». أو كيف يحصي «كل ليلة» من أيام الحرب. أو قوله: «مرّة حكى لعلاء عن ردود فعله الغريبة» أو قوله: «عندما أتذكر». ويتذكر أمه ويقفز بالسرد زمناً مبهماً «منذ زمن بعيد لم يعد يفكر بها». «يتذكر قصّة كتبها منذ زمن بعيد». «كنت مرّة». «قرأ مرّة». «يتذكر هيدك الأيام».

وهنا يحذف الراوي مدّة زمنية غير معلنة أو محدّدة لأنه لم يصرّح عنها، بل أشار إليها بتلميح صريح، يصعب على القارئ تعيينها بشكل دقيق. وكيف للقارئ أن يحدّد هذه المرّة، وفي أي سنة كانت؟ إنّها فترة مُموّهة بما يكفي، لذا يصعب على القارئ تعيينها.

دال - الحذف الافتراضي: ندر الحذف

الافتراضي في رواية «شاي أسود»، ويعود السبب في ذلك إلى طبيعة السرد غير المباشر الذي قام على الضمير الثالث، وظلّ الراوي ممسكاً بشريط الأحداث، يرويها واصفاً محللاً معقّباً متدخللاً مهيمناً هيمنة كلية. وإن وجد الحذف الافتراضي، فهو لا يغطّي سوى لقطات قصيرة المدى لا تتجاوز السطر الواحد في الغالب، ونكاد نراها في كل صفحة تقريباً.

في المُحصّلة تكاد رواية «شاي أسود» تكون رواية زمن سكوني مطابقاً لرؤية

حسام للعالم. زمنه الحاضر كان عبارة عن استذكارات وهلوسات وأحلام يقظة، ما يشير إلى انتفاء رغبته في الحياة. ويكون حسام قد مثّل فئة المثقفين الذين ضاعت آمالهم وأحلامهم من التآزّات التي عاشوها في مرحلة الحرب.

٢ - إبطاء السرد عن طريق المشهد والوقفّة الوصفية

يتم توقيف السرد وتعطيل وتيرته من خلال تقنية المشهد والحوار.

أ - المشهد: هو تقنية تقوم على الحوار، فتنتقل لنا الشخصيات كما هي، لأنّها تكسّر رتابة السرد الروائي، ورتابة الحكّي بضمير الغائب المهيمن، وفيه «يكون زمن السرد مساوياً زمن الحكاية»^(١)، «من حيث مدة الاستغراق»^(٢)، «ويخلق حالة من التوازن»^(٣). وقد وضع تودوروف قياساً معيارياً للمشهد، إذ يُحقّق تقابلاً بين وحدة من زمن القصّة، ووحدة مشابهة من زمن الكتابة^(٤). وهو يميل إلى التفصيل في الغالب، فهذا يعمل على إبطاء السرد وقطع خطيّته، لأنّ الشخصية تتقدّم لتقدّم نفسها. والمشهد «يعطي للقارئ إحساساً

بالمشاركة الحادّة في الفعل [...] ولا يفصل بين الفعل وسماعه سوى البرهة التي يستغرقها صوت الروائي في قوله»^(٥).

وقد اعتبر معظم النقاد أن المشهد نوعان من حيث الزمن؛ مشهد استذكاري؛ وفيه إضاءة ثغرات كان السرد قد أغفلها. ومشهد آني يعمل على نموّ الحدث وتطوره»^(٦). وللمشهد وظائف عديدة منها: ممارسة النقد اللغوي، وتجريب أساليب الكلام واللهجات والرتنات الإقليمية والمهنية الأثر الدرامي، تسهياً لفهم تطوّر الأحداث وفهم الشخصيات. والكشف عن طبائع الشخصيات وكوامن نفسياتهم، وطرق تفكيرهم ومستوياتهم الاجتماعية والفكرية، وإظهار الحركة التلقائية والعفوية في السرد، وتقوية أثر الواقع والإيهام به، وتكوين صورة عن المتكلم ومعرفة وجهة نظره تجاه القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية من دون الحاجة إلى وسيط سردي، بل يضعنا المشهد مباشرة أمام المواقف المعلنة. وتطوير الحدث وتنميته. ثم كسر الرتابة من خلال بثّ الحركة والحيوية في السرد^(٧). فكيف وظّف ربيع

(١) حسن بحراوي؛ م. س. ص ١٦٦. مها حسن قصرأوي؛ م. س. ص ٢٤١.

(٢) حميد لحداني؛ الفضاء الروائي. بيروت، المركز الثقافي العربي، ط ٣، ٢٠٠٠. ص ٧٨.

(٣) جان ريكاردو؛ قضايا الرواية الحديثة، ص ٢٥٣. (٤) تزفيتان تودوروف؛ الشعرية، ص ٤٩.

(٥) سيزا قاسم. م. س. ص ٦٥. (٦) مها حسن القصرأوي. م. س. ص ٢٤٠.

(٧) حسن بحراوي؛ م. س. صص (١٦٦-١٦٧) ومها حسن القصرأوي؛ م. س. راجع (٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-٢٤٢).

جابر إبطاء السرد عن طريق المشهد والوقفه الوصفية؟

زمن الكتابة. ويترتب عن ذلك تباطؤًا في التتابع الزمني للقصة^(١).

ندرت المشاهد الحوارية في الرواية، ويعود ذلك إلى طبيعة الزمن السردية. والملاحظ أن المشاهد المتواترة في الرواية وُضعت بين مزدوجين للدلالة على أنها دخيلة على السرد، ولا تقوم بوظائفها التي كشفنا عنها سابقًا، إنما سلّطت الضوء على طبع حسام وكوامن نفسه وطريقة تفكيره ومستواه الاجتماعي والفكري والنفسي. مثال: «(قالت سهى)» أو «قالت له سهى... قال لها...» أو بين حسام وعلاء.

أما **جينيت جيران** فقد اعتبر أن الوصف لا يحدّد أبدًا استراحة أو انقطاعًا للقصة، كما كان يعدّه التعبير التقليدي «انقطاعًا في الفعل» ولهذا فإنّ المقطع الوصفي لا يفلت أبدًا من زمنية القصة^(٢) فهو يعمل على خدمة القصة، ويكون عنصرًا أساسيًا في العرض. كما اعتبر **بارون** إن لا قيمة للوصف كغاية، ولكن القيمة تكمن في كونه يضيف شيئًا مفيدًا على السرد، ويقوّي الجانب الشعري في القصة.

ب - الوقفة الوصفية: هي كما المشهد، كلاهما يعمل على تعطيل زمنية السرد، وتعليق مجرى القصة لفترة قد تطول أو تقصر. وهي تُحدث خللاً في الإيقاع الزمني السردية، فتوقفه، وتجعله يراوح مكانه بانتظار فراغ الوصف من مهمته. وفيها «تتسع مساحة النص بينما تكون سرعة الحادثة صفرًا».

يقوم الوصف على ثلاثة طرائق: الأولى الوصف عن طريق النظر، وما يعرف بالرؤية البصرية، وهي أكثر الطرق استخدامًا في النصوص الروائية. والثانية الوصف بالحديث عن الشيء، وفيه يجب تقديم تقنية مفضّلة عن الشيء الموصوف. والثالثة الوصف بالعمل، ويكون بالاشتغال على شيء^(٣).

وقد اعتبر **هامون** واضح النظام السيميائي لفنّ الوصف أن الوصف تقنية زمنية في المقام الأول، فالوقفه الوصفية تفقد التوازي بين زمن القصة وزمن الخطاب، فيتقلّص الزمن التخيلي، ويتسع

من هذا المنطلق يمكن القول إنّ الوقفة الوصفية، على تنوعها واختلافها، تساهم في انتظام السرد وتُجنّب الرتابة ونواقص الوتيرة المتتابة للحكي^(٤). إضافة إلى وظائف كثيرة منها: تزيينية، وهي مجرد

(١) حسن بحراوي. م. س. ص ١٧٩.

(٣) م. ن. ص ١٨٠.

(٢) G. Genette. Fugures. 111. 139.

(٤) م. س. ص ١٧٨.

حالهما أو حين يصف نفسه ومكان إقامته،
تعكس وقفته الوصفية علاقته بالإنسان
والمكان والزمان، ليعطي صورة عن تلك
العلاقة من جهة، وعن تلك الشخصية
العبثية من جهة أخرى.

إنّ الوقفة الوصفية التي اعتمدها الراوي
لا تهدف إلى التزيين وإبراز الجمال فحسب،
إنما تؤدّي دوراً في إضافة شيء جديد يفيد
جوانب القصة، ويقوّي الجانب الشعري فيها
على نحو: «هذه غرفة صفراء، يفكر حسام.
الجدران صفراء، السقف أصفر، الباب
الخشبي مطلي باللون الأصفر، اللمبة
أشعاعها أصفر[...] حتى البلاط لونه أصفر.
يراقب دوائر الدخان تخرج من فمه صغيرة
وتكبر رويداً رويداً بينما ترتفع باتجاه
السقف».

إنّ أكثر ما يحتاجه الوصف عنصرين
أساسيين هما البصر والضوء، إضافة إلى
المكان الذي يطلّ منه الواصف، والمسافة
التي تفسح بالمجال للرؤية البصرية
لمشاهدة الموصوف. وحسام يستخدم هذه
العناصر ليضيء الجانب الوصفي في
روايته فهو «يشاهد، يقف على الرصيف
الحجري العريض.. يرى». ينظر «واقفاً أمام
مكتبة أنطوان يتفرج».

يؤدي الراوي الوصف معتمداً على

استراحة، لها دور جمالي خالص. أو
تفسيرية توضيحية رمزية. وهي تلعب دوراً
في بناء الشخصية، وبناء الحدث، وخدمة
بنية السياق السردي بصورة عامة. أو
وظيفة إيهامية، وتلعب دوراً في إيهام
القارئ بالواقع الخارجي، بإيراد التفاصيل
الصغيرة، بحيث تختلط الأمور على القارئ،
ويتوه بين تحديد الوصف، ما إذا كان
تخيلاً أم واقعياً، ويعتبر نجيب محفوظ
«أن أكثر التفاصيل صناعة لإيهام القارئ
بأنّ ما يقرأ حقيقة لا خيال»^(١). فكيف
وظّف ربيع جابر الوصف لخدمة القصة؟

يفتح الراوي السرد ويعطيه مبرراته، ثم
يقدم لوحة فنية للطقس «يتوقف المطر عن
الهطول، لون الجو هو بلون البرتقال...».
لهذه الوقفة دلالة زمانية ونفسية، تدلّ على
حاضر المدينة التي يتجول فيها حسام.
ويلحظ المتغيرات التي أصابتها أثناء
الحرب، ويعيش الحالة المأساوية التي
فجرت الحرب في نفسه.

يتوقف عن المشي في «حديقة الصنائع»
يقف متأملاً ومتذكراً طفولته في آن واصفاً
الشقة التي كان يقطنها طفلاً».

كما يبرر الوصف حضوره بعنصر
المقابلة بين الماضي والحاضر وبين
المدينة والريف ما قبل الحرب، كيف تبدّل

(١) نجيب محفوظ في مقابلة أجراها فاروق شوشة. مجلة الآداب. يونيو ١٩٦٠. ص ٨٢.

الحواس، وهي أبرز مستلزمات الوقفة الوصفية، فهو يقوم على الرؤية البصرية الشبيهة بما تلتقطه عدسة الكاميرا، ويتوقّف على أفعال وصيغ تؤسّر على الحركة التي تنتقل بها العين الواصفة.

ولأنّ الراوي أراد أن يظهر شخصية حسام شخصية مأزوكة عبثية لجأ إلى تنوع الوقفات الوصفية في الرواية، حيث ساهمت في توقيف السرد وإبطاء وتيرته، ذلك ما أدى إلى تخلخل في الإيقاع الزمني للسرد. وفقد التوازي بين زمن القصة وزمن الخطاب، فتقلّص الزمن التخيلي، واتسع زمن الكتابة. كما أن إيراد التفاصيل الصغيرة أوهم القارئ بالواقع الخارجي بحيث اختلط الأمور عليه، وتاه بين تحديد الوصف، ما إذا كان تخيلياً أم واقعياً.

٣ - بناء الشخصيات: وظائفها، هوياتها، علاقاتها

تنتمي الشخصية الروائية إلى العالم التخيلي بكلّ ما يحتويه من بشر وأشياء،

ترتبط بمنظومة معيّنة في ذهننا، وتعيش فينا بكلّ أبعادها، وتؤدّي الوظيفة نفسها في الحياة الاجتماعية، وهي عنصر قائم في بنية سردية لا يمكن عزلها عنها^(١).

وقد حدّد فلاديمير بروب^(٢) وغريماس^(٣) هوية الشخصية في الحكى من خلال مجموع أفعالها، والعلاقة بينها وبين مجموع الشخصيات الأخرى. وهذا ما أشار إليه ميشال زرافا، واعتبر أن هوية الشخصية الحكائية ليست ملازمة لذاتها، بل هي تركيب جديد، يقوم به القارئ، أكثر مما هو تركيب يقوم به النص، و«هويتها موزّعة في النص عبر الأوصاف والخصائص وتكرار الاسم العائد إليها في الحكى، ولا تكتمل صورتها إلا عندما يكون النصّ الحكائي قد بلغ نهايته»^(٤). ولا يعني أنّ اكتمال صورة الشخصية يعطي دلالة واحدة حولها، لأنّ تعدّد القراء واختلاف تحليلاتهم، يؤدّي إلى تعدّد وجوه الشخصية ودلالاتها^(٥). فما هو النموذج العملي الذي اعتمده غريماس؟

(١) رفيف رضا صيداوي؛ النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية، بيروت دار الفارابي، ط ١، ٢٠٠٣. صص (٢٤٣-٢٤٩).

(٢) فلاديمير بروب؛ (١٨٩٥-١٩٧٠)م؛ باحث وعالم روسي، من جماعة الشكلين الروس اختص بدراسة الفولكلور الروسي، درس الأنثولوجيا، وضع قوانين علم بنية الحكاية. راجع موسوعة ويكيبيديا.

(٣) جوليان غريماس (١٩١٧-١٩٩٢)م؛ هو باحث في علم المعاني البنيوي؛ دكتور في الآداب. من كتبه «علم المعاني البنيوي» ودراسات في السيميوتيك. راجع موسوعة ويكيبيديا.

(٤) حميد لحمداني؛ بنية النص السردية، م. س. ص ٥١.

(٥) حسن بحراوي؛ بنية الشكل الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٩. صص (٢١٩-٢٢١).

ميّز غريماس بين العامل والمُمثّل، واعتبر أنّ العامل قد يكون ممثلاً بممثّلين أو أكثر، وقد لا يكون شخصاً ممثلاً بل يكون لفكرة الدهر أو التاريخ، وقد يكون جماداً أو حيواناً. فالشخصية دور يُؤدى في الحكي بغضّ النظر عمّن يؤديه^(١).

وقد ورّع غريماس الوظائف إلى عوامل ستة، تأتلف في ثلاث علاقات هي كالتالي:



(٣)

المُمثّل هو شخصية تمثّل صورة فرد، يقوم بدور ما في الحكي، فهو شخص فاعل، يشارك مع غيره في تحديد دور عاملي واحد أو أدوار عاملية متعدّدة.

نخلص بالقول إلى أنّ نظرية غريماس في النموذج العاملي دعمها أكثر من باحث وناقذ، وقد عملوا على توضيحها وتطويرها وفقاً لما تقتضيه طرائق التحليل والبحث عن الشخصية في العمل الروائي، بحيث يستطيع الباحث أن يحدّد هوية الشخصية^(٤)، وتحوّل الأدوار التي يمكن أن يقوم بها الشخص الواحد^(٥)، وقد يكون علامة على رؤية ما للشخص^(٦).

والعوامل ترتبط بجانبين أساسيين، الجانب الوظيفي، وهو يشمل الأفعال التي يقوم بها المُمثّل، والجانب الوصفي، ويشمل الألقاب والأسماء المتعدّدة التي تحدّد صفاته^(٢). ولا يرى غريماس تعارضاً بين التحليل الوظيفي والتحليل الوصفي، إنّما يرى هناك تكاملاً أساسياً بينهما.

وبناء عليه سندرس شخصيات الرواية معتمدين بذلك النموذج العاملي. كاشفين النقاب عن مدى ارتباطها بالواقع المعيش، عن طريق تحديد دوائر العلاقات والعوامل والممثلين وهوية الممثلين وتحوّل الممثلين وتعدّدهم وآلية الصراع وتحقّق الذات الفاعلة وإحصاء الشخصيات ودلالات كلّ ذلك في الرواية.

فالوظائف هي أدوار تقوم بها الكلمات داخل الجملة، وتكون فيها الذات فاعلاً، والموضوع مفعولاً يضعهما غريماس في شكل متعارض كالتالي:

الذات # الموضوع / المُرسل # المُرسل إليه.

(٢) حميد لحمداني؛ م. س. ص. ٥٣.

(٣) حميد لحمداني؛ م. س. ص. ٣٦. وعبد المجيد زراقط؛ م. س. ص. ٢٧٠ - ٢٧١.

(٤) عبد المجيد زراقط؛ م. س. ص. ٢٧٣.

(٥) م. ن. ص. ٢٧٣.

(٦) م. س. ص. ٢٧٣.

١ - تحديد دوائر العلاقات ودلالات ذلك

يتخلّى حسام عن أي طموح أو رغبة، ويعيش بحسب قناعته فقط «لأنه ليس ميئاً»، فيسير في شوارع المدينة هائماً على وجهه، لا هدف لديه سوى التجوّل، ودخول دور السينما، ومشاهدة واجهات المحال التجارية. وقد يعود السبب في ذلك إلى أنه «لا يؤمن بحقيقة وجوده ومادية هذا الوجود». يعيش في شقته الصغيرة، في وحدة «أصيلة قديمة معتقة»، «متطرّفة في خياليها»، و«يكتشف أنّه غير موجود إلاّ في الخيال»، وكأنه «إنسان مزيف»، وأكثر من ذلك فهو «ليس إنساناً».

لم يبق لحسام من حاضره شيء، فهرب إلى الماضي حيث الذكريات، وبقي وحيداً. تتسم طريقته في الحياة، بحسب حبيبته، «بالمحدودية»، ويقضي صحابة النهار في تجليد الكتب، وفي الليل يقرأ قليلاً، ويشاهد السينما كثيراً. كي يحقّق عزلته قطع علاقته بحبيبته على الرغم من حبه لها. وكان له أصدقاء يحبّهم، ولكنهم تفرّقوا، واكتشف أن المجتمع «جبل من أكاذيب»، يفرض على أفرادهِ قيماً مُتَعَفِّنة مخادعة، يقعون دونما إرادة منهم في شباكه. فلم تعد «تعرف من أنت ولا أحد يعرف حقيقتك». ويؤمن أن الحياة «خشبة مسرح».

و«يغرق الفرد في الحكاية، الحكاية التي اخترعها، ويدخل الدور، ويعود إنساناً عادياً».

انحصرت أفعال حسام على التذكّر والتخيّل والتوهّم والهلوسة، وهي أفعال دالّة على «الحالة» وليست على «الحركة»، وإذا قام بحركة ما، فمن أجل التجوّل في شوارع المدينة، بلا هدف. فقط مختلف الأحاسيس الإيجابية والسلبية^(١) حيال محيطه. هرب من مواجهة الواقع باللجوء إلى الخمرة والشاي الأسود والهلوسة والحبوب المهدئة للأعصاب وأحلام اليقظة. وأصبح «يعيش خارج الزمن»، إيماناً منه بأنّ «الحياة الحقيقية لا تُعاش في الحاضر». أما الحياة التي يحيها فهي عبارة عن «حكاية يحكيها معتوه ملؤها الصخب والعنف»، وكي يخفّف من ثقل العنف والصخب لجأ إلى الماضي، وعاش في الذكريات التي طفت على صفحة مخيلته، ومنعت عليه التواصل مع العالم. فشعر أنه «غريب عما حوله، فعلاً هو إنسان غريب الأطوار». غريب عن العالم لأنه «لا يخلو من المصالح».

ولم يبق لحسام من علاقة بعالمه سوى خياله وهلوساته، وحلمه بعالم نقيّ تمثّل بالفتاة الصغيرة، الفتاة التي تأتي في

(١) م. س. ص ١٦.

اللحظة الأخيرة، وصبي البويا ورحم أمه، فسعى للبحث عن «لحظة هادئة [...] تشبه لحظة الفجر»، وحين سيطر زمن الحاضر عليه، وسيّد قيم الحرب على هذا العالم، صرخ إلى أمه «تعالى وخذيني إلى زمن الطفولة المفقودة».

حسام هو الشخصية المحورية، العامل الذات، وهو شخصية عبثية محكومة بالهلوسة والهواجس والذكريات وأحلام اليقظة، وتعاني من أزمة نفسية متأصلة فيها، تطلّ على هذا الوجود من نظرة سوداوية فقدت إيمانها بعالم أصبح «بلا إله»^(١)، وإن كان موجوداً، فهو يقيم في لحظة محدّدة «هي لحظة الفجر». إذا كان حسام العامل الذات، فما هي «رغبته»، العامل الموضوع؟ وكيف تمثّل في الرواية؟ وهل تحقّق أم لا؟

تتلخّص رغبة العامل الذات في وجود عالم نقّي يسوده الأمن والسعادة والصفاء، وهو على النحو التالي:

١ - الأمن: رفض حسام منطق الحرب والانجرار فيها، واتّخذ موقفاً حيادياً، «حمل كاميرا، وتحول إلى مصوّر مغامر»، ولكنّه سرعان ما قرّر أن يعزل نفسه عن أجواء القتل ومناخ الحرب. كما رفض العمل على «مشروع سينمائي طويل، يهدف إلى توثيق

الحروب الأهلية في لبنان». و«إقامة حلقات عن الضيع المختلفة الطوائف وعن المجازر». لم يترك «للتيار أن يسحبه إلى دوامته لا. قاوم وذهب بعيداً. «لم أدنّس روحي».

٢ - العودة إلى عالم نقّي: كان ينهض في منتصف الليل مرعوباً من الكوابيس ومن الدم، ويصاب «بهلع وخوف شديد»، لا يهدأ إلا «في حضن أمه». ويعترف أنّه «إذا كان صار لوني أصفر يكون صار هيك من وقتها»، من أجل ذلك رغب في العودة إلى «رحم أمّه الميّتة». وكلّ ما يمثّله هذا الرحم من حماية ورعاية وبراءة، كالفجر، والطفلة الصغيرة، وصبي البويا، والضيعة «حيث الجمال، وطهر الأرض، وألفة الناس، وفطرتهم.

٣ - وجود «بطل وجداني [...] ومخلوق يؤمن به بشكل متواصل، ظلّ يغامر، ويتحدّى كلّ شيء، مخلوق يشبه التّابع الذي يحمل أسلحة الفارس، يقصد في الخلفية، ويؤمن بالبطل، دون هذا المخلوق البطل لا يكون أبداً».

٤ - يرغب أن يكون شخصاً آخر، شخصاً لا «يشبهه»، شخصاً «كذا أو كذا»، يمتاز «بالقوة والمجد»، ويكون أكبر وأقوى وأهم».

(١) م. س. ص ٦١.

أيام المروءة والشجاعة، والسهر على ضوء قنديل الكاز، ولحظات الفجر، ولونه الخرافي، والضوء مثل لون التفاح البري، ولون السحر.

٤ - الأصدقاء: علاء يحبه، فهو بمثابة المرأة التي يرى بها نفسه، «يحكي مع علاء كأنه يحكي مع نفسه [إنه] نصفه الآخر». والياس ظل على اتصال به، يلتقيه كلما سنحت له الفرصة، وربيع الذي كان يحته على الاهتمام بما حوله، والنظر إلى العالم بعين واقعية؛ «أنت طبيعتك إنك ما بتهتم»، وحننا حاول أن يساعده في إيجاد عمل، لكنه رفض، ونضال كان الصديق «المشترك» بينه وبين حنا، ويمضي معه «الأيام الحلوة»، وهانني ووائل عاش معهما تجربة في مرحلته الجامعية، وكشفت عن حياته. حاول أن يساعده كي يتخلص من عبثيته ومرضه ولكن من دون جدوى.

لكن أصدقاءه تحولوا في ما بعد إلى عامل معاكس، واعتبروه مسؤولاً عن انتحار علاء، وحزن والده، وسفر سهى إلى أميركا هرباً من حبها الفاشل.

خامساً - الحلم : تمثّل بالفجر والفتاة الصغيرة والقصص الخيالية وأسماء من التاريخ. غالباً ما كان يلجأ إلى «أفلام خرافية». والقصص والكتب القديمة، ويتماثل مع البارون دي كلابيك، والشاعر اليوناني كافافي، وشارل هولمز، ولاكي

وأمام عجزه عن تحقيق رغبته يعتبر أنّ الحياة «وهم»، لا قيمة لها، لا تُعطي إلاّ «الصداع المهول». فيهرب إلى الخيال والشاي الأسود الثقيل والفاليوم والكحول.

يمكن القول في ضوء ما سبق إنّ حسام يمثّل العامل الذات ورغبته الموضوع، تحرّك الرغبة العامل الذات، السعي الذي يهدف إلى تحقيقها، فيندمج العاملان المرسل والمرسل إليه في العاملين الذات والموضوع وتقتصر دائرة الاتصال عليهما.

٤ - العوامل والممثلون

أ - ممثلو العامل المساعد

- الماضي: يتمثّل بالشخصيات التالية:

١ - سهى: الحبيبة التي شعر معها باللذة والسعادة. عاش معها «قصة حب مجيدة»، واعتبرها «أجمل بنت في العالم»، وأصبح «مجنوناً [أ] بها». وحين انصدم بالعالم الواقعي الموضوعي أدرك أنّ «العلاقة بينه وبينها صدفه وأخطاء». وقرّر ألاّ يتزوجها، وكسر قلبها، تركها تنهار، وتساقر وتترك البلد.

٢ - الأم: يحلم بالعودة إليها حيث النقاء والحنان والرعاية، حين كان يشتدّ عليه الخوف يلجأ إلى «حضانها» أمه المميّزة «بجمالها ولطفها ونكائها».

٣ - القرية: يحلم «بضيعة كبيرة مليئة بالناس»، و«الحقول الخضراء»، و«الزوّادة»

لوك، وتختخ والوطواط، ومغامراته الرائعة، ومجالات المغامرات.

مختار بيروت: أحبه، لأنه قدّم إليه خدمة بالمجان؛ «لم يقبل أن يأخذ منه ليرة واحدة مقابل الختم الذي وضعه على تلك الصورة الشمسية».

حبوب الفاليوم: تخفف من «الصداع المهل» الذي كان يرافقه كظله، وحين يشعر بألم شديد في رأسه يلجأ إلى «حبوب الفاليوم [...] وينا».

الويسكي والنشاي الأسود: النشاي والويسكي يخفّان من وحدته، يهرب إليهما كلّما دعت حاجته إلى التماس الراحة، يجلس على السرير، وقد أحيط «بابريق شاي وعلبة سجائر ورفوف كتب وقنينة الويسكي».

الناس: حياديون يقدّمون المساعدة مقابل ثمن، أو صدفة كبائع الكعك، وبائع كلاري يا فول، لولا أخت سهى، ونادلة غريبة الأطوار في السينما.

ب - ممثلو العامل المعاكس

الحرب: وقد تمثّلت بما يلي:

الملجأ: اللحظات التي عاشها في الملجأ لحظات اختلاط بين الواقع والحلم، وحفرت مكاناً مؤلماً في قلبه، رافقه في مراحل عمره تاركاً الأسى والحزن والرعب «أهل البناية يتكدّسون بعضهم فوق بعض».

الكوابيس: كان ينهض على كوابيس من الدم ومن الرعب نتيجة رؤيته «جثة الرجل الملقى تحت الجسر، وقد شبع موتاً».

الموت: متمثّل بموت أمّه إثر إصابتها بشظية مرّقت جسدها. وانتحار صديقه الحميم علاء، «طلقة واحدة، وخرج النخاع من الرأس». ومشاهد المجازر التي رآها أو سمع عنها.

المسلحون: وهم «المقاتلون الأقوياء، يشربون النبيذ المعتق فوق الجثث المكوّمة تحت أقدامهم، يتبادلون الأنخاب، ويضحكون».

رفاقه ربيع والياس وروح علاء: كان يخاف مواجهتهم، ويعتقد «أنه سوف يصلب على يد الفرسان الثلاثة». كان «كلّما يتذكّر علاء يتذكّر الحرب». وروحه تطارده، وتشعره بالذنب وعقدة الضمير، ربيع والياس «سوف يسخرون منه، ويصعدونه إلى الجلجلة، جلجلة المحاكمة الأخيرة [...] سيقولون أنت قتلته».

صاحبة الملك: استأجر منها شقّة، لكنّها طردته منها، لأنّها «وجدت من يدفع ضعف الإيجار». فتشرّد في الشوارع باحثاً عن مسكن جديد.

٥ - هوية الممثلين

حسام: يمثل العامل الذات، مثقف، فقد ثقته بحقيقة وجوده، ولم يعد يؤمن بها،

يقضمها يشعر بالألم في أسنانه [...] يبصق القطعة التي قضمها إلى داخل الطنجرة، ترتطم بالقعر محدثة صوتاً خافياً». وإذا أراد أن يغسل وجهه، فيضعه «فوق المجلى، الأطباق الوسخة تُصعد رائحة العفن إلى نفسه».

هذه العبثية جعلته يتوقع في عالم خيالي، ليس فيه سوى الحنين والذكريات، وكأنه بديل عن الانتحار الذي اختاره صديقه الحميم علاء، «الوجه الآخر له»، وكان كلما «نظر في المرآة يفكر [...] حسام وعلاء وجه واحد».

إذا كان علاء وضع حدًا لعبثيته في الانتحار والموت الفعلي، فقد اختار حسام العزلة، وهي الموت المعنوي له، والنتيجة واحدة، حسام وعلاء غير فاعلين، عاجزان، هاربان من قدرهما. قد يعود سبب اختيار حسام الوحدة إلى نشأته، فهو «وحيد أهله، ماتت أمه وهو صبي، ترك بيت والده بعد أن غادر الجامعة، عرف الحبّ المجنون عن فتاة تكبره بعامين»، وحين اكتشف أنه «إنسان غريب الأطوار» هجرها دون أن يترك لها أية ملحوظة أو أي خبر. انزوى في شقته، وقرّر أنه «لا يريد أن يفكر [...] بأي إنسان يعرفه، ليس من شيء يستحق هذا العناء».

كره الحرب والعنف ومشاهد الدم، ورفض الانجرار فيها، لكنّ الحرب جرّته

فأهمل نفسه، وترك «لحيته البيضاء» تُعبّر عن عبثيته، لأنها «تشكل جواز مروره، يبدو مجرد عجز، لا خطر منه، طعامه الوحيد الحنين والذكريات». ذلك ما يجعله «يقطن وحيداً». يمثّل حالة ظاهرة فرضتها الحرب وويلاتها. أعزب له من العمر ثلاثة وثلاثون عاماً، يتماثل بيسوع المسيح وجلجلته، وينتظر ساعة صلبه. كما يتماثل بأبطال القصص الخرافية. انتسب إلى الجامعة الأميركية قسم الهندسة، وأمضى سنته الأولى اليتيمة فيها، وقرر ترك الجامعة والتسكع بالطرقات. إنه أناني، مفرط في أنانيته «ينظر إلى المرآة، وينعت نفسه بالساحر النرسييس». يحبّ الهزيمة، لأنها الانتصار الحقيقي، كونها تحوّلته إلى رمز، ويُعرّف من هو.

تتماثل حياته بحياة الحيوانات التي تعيش في «زريبة»، «يبوّل واقفاً، لا يغسل يديه، فقط يمسحها ببنطلون البيجاما». لا يأبه برمي ماء [...] يعود إلى الغرفة، يجلب إبريق الشاي دون أن يغسل يديه». يصدر أصواتاً «كررر، كررر، عمداً، يُخرج حسام هذا الصوت من حنجرته». يأخذ «طنجرة المعكرونة [من البراد] يُسَخِّنُها، يحملها كما هي، ويدخل بها إلى غرفته، ويأكل بأصابعه [...] يشعر بالشبع، [...] يضع الغطاء فوقها، ويجذب البطانية فوق قدميه، ويشعل سيكارة [...] وينام». وقد «يمسك تفاحة

إلى الجنون، فأصيب بمرض نفسي، وانفصل عن واقعه، وعاش تائهًا في عالم خيالي، يقوم على التخيل والهلوسة وأحلام اليقظة، وأصبح إنسانًا «حيًا ميتًا»، منفصلاً عن ماضيه وحاضره ومستقبله.

يدرك الحقيقة، ويخاف منها، «سوف يموت وحيدًا، كما عاش وحيدًا، لأن من يسعى إلى العزلة في حياته لن يقدر أن يلقي غيرها في مماته».

سهى: مثلت العامل الموضوع في مرحلة من مراحل عمر العامل الذات، أحبها، وسعى للحصول عليها، فأحبته كثيرًا وكانت «العاشقة»، «أعطته بلا حدود»، و«كتبت له؛ إنك هنا في داخلي، وتحت أظفري»، على الرغم من ذلك قرّر أنه لن يتزوج بها، واعتبر أن قراره «خطيئته التي لا تُغتفر».

هي فتاة مثقفة، متحرّرة، تتفق مع حسام «أن كل واحد [منهما] بيقدّر ينام مع أي شخص»، وعندما عاشرتة عرفت أنه «ذكي، ولكنك مريض نفسيًا». حاولت جاهدة مساعدته وإعادته إلى حالته الطبيعية ولكن من دون جدوى. حين تركها قرّرت السفر إلى أميركا، والإقامة عند اختها «يولا».

الأهل: الأم والأب والعم: الأم هي العالم النقي الذي فقده طفلاً، والرحم مخزن الحنان والرعاية الشائعين. والأهل هم

الذكريات الجميلة التي تسكن الذات، تطلع على البال وتشعل نار الشوق والحنين إلى تلك الأيام، وترمي حسام في أحضان الحسرة على ما فاتته و«يقرر أنه لن يبكي».

الفتاة الصغيرة وصبي البويا والفجر: شخصيات تسيطر على الخيال، وتصبح حلمًا يدغدغه كلما اشتدّت سيادة الحرب، وقيمها المتمثلة بالسرقة والقتل واللواط وكوابيس الدم والعرب والعنف، فيرغب في وجود عالم طاهر كالأطفال نقي كالفجر.

«الفرسان الثلاثة» علاء والياس وربيع أصدقاؤه:

علاء: مثقف، يصفه الراوي بأنه ملحد لا يؤمن بالله، عبثي، غريب في عبثيته، لا يملك أدنى طموح أو حلم، وهو على خلاف عشيرته البعلبكية المتدينة «إلى حدّ الأصولي» وحيد على نصف دزينة من الفتيات صغير العائلة، وعلى صراع دائم مع والده.

ويعده حسام «ثلاثي الذكاء والبدانة والسرعة، شخصية تراجيدية، والضحك غريب عن طبيعته «غير أنه صادق»، كان وحده الصادق»، «في عينيه حزن متطرف الأنثوية، حزن يرمز إلى روح مكسورة حتى العظم». هجر أهله، وقرر «أن ينضمّ في صفوف حركة أمل ثم إلى حزب الله». «حارب وقتل وذبح، ومارس كلّ الفظاعات الممكنة، وتوصل إلى كلّ القوة والسلطة».

الحروب الأهلية، لكنّ حسام رفض خوفًا من انجراره في عمل قذر.

نضال: مثقف، يعمل في مطار بيروت الدولي، يلتقي حسام في فترات متقطعة، كان قد أمضى معه «الأيام الحلوة».

هاني: يملك خلفية حسام الفلسفية «فلسفة الوهم والعبث»، ارتاح لمنطق الحرب، وانجر إليها رغمًا عن عائلته، وعندما «إلتحق في صفوف المقاتلين، ووقف على الحواجز، تطوّق خصره القنابل اليدوية، عيناه مليئتان بالجنون»، تخلّى أهله عنه وتبرأوا منه»، «أقام في الضاحية الجنوبية».

كمال الأخوت: شخصية تحمل اسمها، ضحية الحرب، مسلوب العقل، كفر بالحرب وصناعاتها، واعتبر أن الله عاجز عن السيطرة على الكون، ونشر العدل، «يسأل والده» عن الله ومن أية طائفة هو، «مات متأثرًا بجراحه بعد إصابته «اللغم مزق جسده».

إن الشخصيات التي سبق ذكرها هي عبارة عن جيل تفتّح وعيه على الحرب، فضاع في غربة نفسية وعبثية غريبة، كل على طريقته، والمحصلة النهائية أن الحرب مسؤولة عن ضياعهم وقتل الأمل في نفوسهم وعبثيتهم. فقطعوا صلتهم بحاضرهم وألغوا ذاكرتهم التاريخية.

٦ - تعدّد المثليين وتحولهم

يقطع حسام علاقته في هذا العالم الذي

وحسام يحبه غير أنه «يشك» به، ويعتقد أنه واقع في غرام سهى، ويرميه «بالنجاسة» و«الشر»، كما يفكر أن سهى «خانته، ذهبت إلى علاء دون علمه»، و«علاء يعتبر حسام ممثل نمرة واحد». ولأنه «غريب متوغّل في غربته»، انتحر وسلّم الروح إلى خالقها.

الياس: مثقف، ينتمي إلى عائلة غنيّة، «مهذب خريج مدارس الفريير»، سعى جاهدًا لتحقيق رغبته، التقى حسام في الجامعة الأميركية بينما كان «يدرس المسرح»، وأصبح مخرجًا سينمائيًا، إبان الحرب «غادر إلى فرنسا»، وأقام في عاصمتها، وظل على تواصل مع حسام وربيع، يلتقي بهما كلّمًا عاد إلى الوطن. شكّل مصدر خوف لحسام، لأنّه يعدّه مسؤولاً عن انتحار علاء.

ربيع: «الفارس الثالث» صديق وفيّ، محبّ، مخلص، متزوج وله طفلة، مُحاصر في صيدا، ناقد لاذع، يواجه حسام ويؤريه نفسه على حقيقتها بهدف الإصلاح والهداية. ويتهمه بالتخاذل والإهمال، ويعده مشاركًا في انتحار علاء، لأن هذا الأخير تتلمذ على يديه، وتأثر بأفكاره الفلسفية، وأصبح عبثيًا غريب الأطوار.

حنا: مثقف، خريج الجامعة الأميركية، مغترب يقيم في فرنسا، صديق حسام، لم يمنع سفره من الحفاظ على صداقته له، حاول مساعدته، طالبًا منه إخراج فيلم عن

إلى مقاتلين (علاء، هاني، كمال). ومنهم من يمضي إلى بلاد الاغتراب (حنا، الياس)، ومنهم من يهرب إلى الوهم والعبثية (حسام)، ويعجز العامل المساعد عن المساعدة. فالحرب قوة قاهرة، تقتل، تهجر، تنشر الرعب، تفصل الإنسان عن واقعه، وترميه في عالم الهذيان والهلوسة عالم «الوهم».

٧ - آلية الصراع وتحقق الذات

يلغي عالم حسام وجوده الفاعل، ويرغب في استعادة هذا الوجود، ويسعى إلى تحقيق رغبته، فكيف يتمّ الإلغاء؟ وكيف يعيه؟ وهل يحقق رغبته أم لا؟

حسام وحيد أهله، يتلقّى علومه الإبتدائية في القرية، ويعيش حياة هادئة في جو عائلي حميم، يتفتحّ وعيه على مشاهدة الدمّ، يرى القتل «تحت الجسر»، وثيابه منزوعة عنه، «وجسده مشوّه منذ تلك اللحظة بدأ يخاف، وينهض من فراشه ليلاً مرعوباً، ويحتمي في حضان أمه. تُقتل والدته بشظية، وهو صبي في الأول المتوسط، ومع فقدائها يفقد الشعور بالسلام والطمأنينة والرعاية.

يترك حسام القرية رغماً عن والده، ويذهب إلى بيروت، يلتحق بالجامعة الأميركية، «كلية الهندسة»، وفي الجامعة يتعرّف على ثلّة من الأصدقاء، وبعد تجربة عابرة في الجامعة، يكتشف أنّ الحياة وهم،

يعتبره وهمًا، ويعيش في عالم يقوم على الخيال والهلوسة والوهم، ويؤمن أن هذا العلم لا يزول إلا بزوال الذاكرة التي تحمله في أحشائها، لأنّ «الحياة لا تفهم على حقيقتها إلا من خلال الذاكرة، [و] ليس ثمة خداع يفوق خداع الذاكرة. هذه الذاكرة التي لم تحفظ سوى مشاهد «الرعب والليل والضحك والقتل والخيانة». يريد حسام أن يبلغها، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق التخييل والوهم، لأن الإنسان لا يتحمّل كل هذا «إلا إذا كان وهمًا». فالهلوسة والهذيان طرق تؤدي إلى الوهم، يسير فيها، ويواجه مصيره بمفرده، فيختار عزلته «موته».

يفقد العامل الذات حبه للحياة، وتنعدم طموحاته، ويواجه «الحرب» العامل المعاكس المدمر، التي تقف بوجهه، وتسدّ عليه أبواب الأمل، فيرفض منطقتها أو الانجرار فيها، وعندما يضيع أصدقاؤه في أتونها، يتحولون من عامل مساعد إلى عامل معاكس. فيتركهم ويختار عالمًا بديلاً عن عالمه، ويتّخذ عالمًا مساعدًا. أو يتلقّى المساعدة من شخصيات عابرة، وهي مساعدة بثمن «بائع الكعك» بائع الفول و«صبي البويا». أو من القصص الخيالية والسينما والكتب الأدبية، فيسوقه إلى العزلة، «الجلجلة»، «الموت المعنوي»، ويصبح غير فاعل.

أما الشخصيات الأخرى «الأصدقاء»، فمنهم من يمضي إلى الموت، حين تحولوا

«يتخيّل حياته مثل شخصية روائية في كتاب، لأنّه مؤمن أنّ مثل هذه الحياة القائمة على القتل والتهجير والسرقة والخراب واللواط والاستجواب والخيانة، لا تحيا إلا في الوهم.

٨ - إحصاء الشخصيات، عوامل وممثلين وهويات ودلالات ذلك

الخاتمة

عالج هذا البحث تشكيل البناء الروائي، وبين موقع الراوي، وعلاقاته بالشخصيات، وزاوية النظر التي انطلق منها، لتحديد موقفه من الوجود، مستعيناً بشخصية تمثل جيل الشباب ليبيّن أن الحرب اللعينة هدمت نفوس الشباب وقضت على مستقبلهم وكيانهم الوجودي فاستحالوا بشرًا عبثيين

وهي ليست جديرة بأن تعاش، ويزيد إيمانه بأفكاره هذه حين نشبت الحرب الأهلية، وهو في سنته الجامعية الأولى، ويشاهد التغيير الذي طرأ على المجتمع، ويرى الناس تتحول إلى «ذئاب كاسرة»، وتتعرّز علاقات «المصلحة»، فيصطدم في هذا الواقع الأليم، ويتخذ لنفسه عزلة، ويسكنها مع هواجسه وهلوساته وخياله وبعض كتب أدبية وقصص خيالية، لعلّ ذلك يكون تعويضاً عن عالم نقّي فقده.

نلاحظ في ما سبق صراعاً يتمثّل في ذات الشخصية المحورية، هذا الصراع يهدف إلى محو الذاكرة التي اعتبرها حسام مسؤولة عما تختزنه من مشاهد دموية وانحرافات اجتماعية وأزمات اقتصادية ونفسية، ولكنّ العزلة تعجز عن تعويض حسام ما فقده، فيصرخ: «أنا مريض حقاً».

العامل	الممثل / الشخصية	الهوية	الثبات والتحول
الذات	حسام	متقف، منفصل عن واقعه	يمثل حالة / ظاهرة
الموضوع	الوجود الفاعل في عالم نقّي	فردى	يتحول إلى وهم (يتخيّل نفسه شخصية روائية)
المرسل	الذات	فردى	
المرسل إليه	الموضوع - الذات	فردى	
المساعد	القصص الخيالية	شخصيات تاريخية خرافية	
	سهى	فردى	تحول إلى معاكس
	الفرسان الثلاثة (علاء، ربيع، الياس)	أصدقاء	تحول إلى معاكس
	حنا وائل هاني	أصدقاء	
المحايد	الناس، بائع الكعك والقول	حياديون، فرديون	يدفعهم المال والمصلحة الخاصة
المعاكس	الحرب والمسلحون	عبثية، قتل، تهجير، عنوة	تشتدّ وتسبب أزمات نفسية
	صاحبة الملك	فردى	انتهازية
	القصص الخيالية	شخصيات وأحداث	تعزله عن مواجهة الواقع وتجعله إنساناً غير سوي

ثانياً : المراجع

- ٢ - أيوب، نبيل؛ الطرائق إلى نص القارئ المختلف، بيروت لبنان دار المكتبة الأهلية ط١. ص ١١٢.
- ٣ - الشكلايين الروس؛ نظرية المنهج الشكلي، تر. د. ابراهيم الخطيب، بيروت، والرباط، مؤسسة الأبحاث العربية والشركة المغربية للناسرين، ط١، ١٩٨٢ ص ١٧٥.
- ٤ - بحرأوي، حسن؛ بنية الشكل الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٩.
- ٥ - زراقط، عبد المجيد؛ في بناء الرواية العربية، بيروت منشورات الجامعة اللبنانية، لاط، ١٩٩٩.
- ٦ - صيداوي، رفيف؛ النظرة الروائية في الحرب اللبنانية، بيروت دار الفارابي، ط١، ٢٠٠٣.
- ٧ - العيد، يمى؛ الراوي الموقع والشكل، مؤسسة الاتحاد العربية، ط١، ١٩٨٦.
- ٨ - العيد، يمى؛ تحول في التحول، بيروت، دار الآداب، ط١، ١٩٩٣.
- ٩ - القصراوي، مها حسن. الزمن في الرواية العربية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٤.
- ١٠ - يقطين، سعيد؛ تحليل الخطاب الروائي، بيروت المركز الثقافي العربي، ط٤، ٢٠٠٥.
- ١١ - لحمداني، حميد؛ بنية النص السردي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٠.
- ١٢ - لحمداني، حميد؛ الفضاء الروائي. بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٠.
- ١٣ - محفوظ، نجيب؛ في مقابلة أجراها فاروق شوشة. مجلة الآداب. يونيو ١٩٦٠.

المراجع المعرّبة

- ١٤ - بارت، رولان؛ النقد البنيوي للحكاية، تر. أنطوان أبو زيد، بيروت، منشورات عويدات، ط١، ١٩٨٨.
- ١٥ - تودوروف، تزفيتان؛ النقد الأدبي، تر. سامي سويدان، بيروت، مركز الإنماء القومي، ط١، ١٩٩٦.
- ١٦ - ريكور، بول؛ الوجود والزمان والسرد، تر. سعيد الغانمي، فلسفة بول ريكور، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٩.

مشردّين تائهين انعزاليين. هذه الصفات كانت نتيجة حتمية لحرب أثرت على سلوك البشر، وبرزت عجز الإنسان المثقف ومعاناته إزائها إذ اختلطت فيها الأسباب، وتنوعت الظروف.

ومن ناحية السرد، بيّن البحث أن الروائي استطاع تحديد الزمن، وأرخ لمرحلة خطيرة، وإن لم يعتمد بذلك على خطية الزمن، إنما لجأ إلى التفسير الزمني، وقد تمثّل هذا التفسير في البعد الأفقي، من استذكار واستشراق، والبعد العمودي من تسريع الأحداث، عبر الخلاصة أو الحذف، أو تعطيل الزمن السردى من خلال المشهد والوقفه الوصفية.

وقد صور الروائي الشخصية الرئيسة «حسام» شخصية انهزامية غارقة في أزمات محطمة، عاجزة عن التغيير، نتيجة ما رافقها من ذل وانكسار وانسحاق، وكانت أكثر شخصيات الرواية غير منتمية، شخصية إشكالية تثير الكثير من الأسئلة في شأن انتمائها وفي غدها الذي لا ترى فيه مستقبلاً مشرقاً بل تراه يدخل في نفق مظلم.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ١ - جابر، ربيع؛ شاي أسود، بيروت، دار الآداب. ط١. ١٩٩٥.

استراتيجية التحليل الأسلوبي (نماذج مختارة من شعر فدوى طوقان)

ملكة جوني^(١)

تستدعي التنظير لها للشروع في التطبيق عليها، بغية الكشف عن خباياها ورصد محتوياتها، والدعوة إلى ترسيخها. والأسلوبية واحدة من العلوم التي تبحث في ميدان اللغة؛ لأن أهمية استراتيجية التحليل الأسلوبية تكمن في أنها تكشف عن المدلولات الجمالية في النص، وذلك من طريق النفاذ إلى مضمونه وتجزئة عناصره؛ فالتحليل الأسلوبي يسهم بقدر كبير في إبراز وجهة نظر الشاعر وميوله وأفكاره وملامح تفكيره، ويحيلنا إلى ما وراء الألفاظ والسياق من مغزى ومعنى ينشد الشاعر وينطوي عليه النص، إذ ليس من مهام الباحث الأسلوبي إصدار الأحكام على العمل الشعري بقدر ما يحاول إبراز الصور الجمالية الفنية فيه.

إن الباحث الأسلوبي في دراسة النص الشعري محكوم بالعودة إلى مرجعية أو

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى تبيان السمات الأسلوبية في شعر فدوى طوقان، وتقديم دراسة متواضعة لاستراتيجية التحليل الأسلوبي، عساها تكون أنموذجاً يُركن إليه في مقاربة النصوص الشعرية.

وقد اشتملت هذه الدراسة على ثلاثة عناصر أساسية: خصص الأول «للإنزياح»، وتناول الثاني «التكرار»، أما العنصر الثالث فقد حمل عنوان «المفارقة».

الكلمات الرئيسية

فدوى طوقان، التحليل الأسلوبي، الإنزياح، التكرار، المفارقة (العنوان، الإنكار، التقابل).

المقدمة

من المتعارف عليه أنّ أيّ دراسة علمية

(١) طالبة في المعهد العالي للدكتوراه في الجامعة اللبنانية / قسم اللغة العربية .

خلفية يتكئ عليها، تتمثل في أمور نحوية لغوية صوتية وتركيبية ودلالية، وهي أمور لا يستطيع الأسلوبى التخلّى عنها، لكونها أساس التحليل الأسلوبى وعماده.

وقد احتلّت الدّراسات الأسلوبية مكانة متميزة في الدراسات النقدية المعاصرة «يقوم كثير من هذه الدراسات على تحليل الأعمال الأدبية واكتشاف قيمتها الجمالية والفنية انطلاقاً من شكلها اللغوي»^(١).

إنّ أعمال فدوى طوقان الشعريّة أهمّ مرآة تعرض حياتها، وبما أنّ معرفة سيرة الشاعرة الشخصية تساعد على فهم أشعارها، فقد اكتفينا بترجمة موجزة لحياتها، علماً الغرض الرئيس هو استكشاف سمات التحليل الأسلوبى في قصائدها.

نبذة موجزة عن حياة فدوى طوقان

فدوى طوقان شاعرة فلسطينية، ولدت العام ١٩١٧، وكان ترتيبها السابعة بين عشرة من البنين والبنات في عائلتها. وقد تعهّد أخوها (إبراهيم طوقان) بتثقيفها، فكانت قارئة نهمّة، أطلعت على نتاج الشعراء العرب، وتعلّمت اللغة الإنكليزية. ومن صور الإبداع التي منحها قوة البقاء

في الساحة أنها جعلت الكلمة المنثورة تتعاقد مع الكلمة المنظومة في رسم صورة لحياتها، مما جعل سيرتها تمتد عبر تسعة دواوين وكتابين، ومن هذه الأعمال: (رحلة جبلية رحلة صعبة/ وحدي مع الأيام/ الليل والفرسان). وفي يوم الجمعة الثاني عشر من كانون الأول للعام ٢٠٠٣) ودّعت الشاعرة هذا العالم لتنتقل إلى الرفيق الأعلى، عازفة سمفونية اللحن الأخير.

الأسلوبية

ترتبط الأسلوبية بالدّراسات النقدية والبلاغية واللغوية ارتباطاً وثيقاً؛ وقد ظهرت على أنها منتج نقدي في بدايات القرن العشرين، نتيجة تطوّر الدّراسات اللغوية الحديثة «يطلق على هذا المصطلح في الإنكليزية» (stylistics) وفي الفرنسية (La stylistique)^(٢).

والأسلوبية علمٌ يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ويدرس الخطاب موضوعاً على مبدأ هوية الأجناس، «لذلك كان موضوعها متعدّد المستويات، مختلف المشارب، ومتنوّع الإتجاهات»^(٣). وباختصار، فإنّ الأسلوبية «مجموعة الإجراءات التي ترتبط على نحو وثيق فيما بينها، بحيث تؤلّف

(١) أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، القاهرة، دار غريب، لا ط، ص ١٣.

(٢) محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، القاهرة، دار نوبار، ط ١، ١٩٩٤، ص ١٨٥.

(٣) كراهام هاف: الأسلوب والأسلوبية، تر. كاظم سعد الدين، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ط ١، ١٩٨٥، ص ٢٩.

نظامًا استشعاريًا يتحسّس البنى الأسلوبية في النص»^(١).

تحديد استراتيجية التحليل الأسلوبي

لعل من أبرز عناصر استراتيجية التحليل الأسلوبي التي انتشرت في معظم الدراسات الأسلوبية التي عناها الباحثون الأسلوبيون أكثر من غيرها، قد تجسدت في الإنزياح التركيبي، إضافة إلى التكرار لما له من شأن في التأكيد وسبق الإصرار. أما عنصر المفارقة فهو من «أصعب العناصر التي يفهمها الطالب أو الباحث في هذا الميدان»^(٢).

العنصر الأول: الإنزياح التركيبي

الإنزياح في اللغة هو «نَزَح: نَزَحَ الشيء ينزحُ نزحًا ونزوحًا: بَعُدَ، ونزحت الدار فهي تنزح نزوحًا، إذا بعدت»^(٣). واللافت أن ابن منظور قد أوضح أنّ كلمة (نزح) تعني البعد، فالإنزياح إذًا هو الابتعاد عن المعنى الأصلي والمعجمي.

أمّا في الإصطلاح، فقد اختلفت الآراء حول تحديد مفهوم الإنزياح باختلاف المدارس والمذاهب، وهذا ما جعلنا نجد

صعوبة في التحديد. وقد حصر (ميشال ريفاتير/ Michael Riffaterre)^(٤) مفهوم الإنزياح «بأنّه يكون خرقًا للقواعد حينًا، ولجوء إلى ما ندر من الصيغ حينًا آخر»^(٥). والمقصود من ذلك انحراف الأسلوب وطريقة التعبير عن القواعد اللغوية الموضوعية وتجاوزها، إذ يكون الإنزياح خروجًا عن تلك المعايير الثابتة تارة، ولاجئًا إلى ما قلّ استخدامه من الصيغ التعبيرية. وقد تعددت تسميات الإنزياح، فأطلقوا عليه العدول؛ فالإنزياح أو العدول في الخطاب العادي يكون مثل الصدمة أو المفاجأة لدى المتلقّي، إذ يتجاوز الأمر العادي لكون الكاتب أو الشاعر قد كسر حاجز التوقّع لدى القارئ المتلقّي.

تُرى، كيف تجلّى الإنزياح التركيبي في شعر فدوى طوقان؟

سنوردُ بعض الأمثلة الشعرية على عنصرين أساسيين من عناصر الإنزياح التركيبي وهما: الحذف والتقديم والتأخير.

ألف: الحذف

يعدّ الحذف سمة أسلوبية لغوية متميّزة

(١) حسن ناظم: البنى الأسلوبية في أنشودة المطر للسياب، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٣١.

(٢) فتح الله، أحمد سليمان: الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مصر، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٥٤.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط ٦، ١٩٩٧، ج ١٠، ص ٦١٤، مادة نزح، عم ٢.

(٤) أستاذ في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأميركية، وباحث في الدراسات الأسلوبية.

(٥) عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط ١، ٢٠٠٦، ص ١٢٤.

المقطع الشعري. ويبدو أن شعور الشاعرة بالغرابة والألم في المدينة جعلها متشائمة إلى درجة أنها لا تود ذكر الاسم، فاستبدلته بالنقاط. لذا، جسد حذف الإسم (الشوارع والأرصفة) تلك الصفات السلبية بما فيها من قسوة الحياة وشعور بالغرابة والوحدة. وقد تحذف الجملة، إذا لاحظنا في الموقف إبانة عن ذلك.

وإذا كان القارئ مدرِّكاً إدراكاً تاماً موقع الحذف، وتقدير الجملة المحذوفة، فإنه وحده القادر على التأويل لما يتوقَّر عليه من الشروط التي تمكِّنه من الربط بين عناصر الأسلوب المذكورة والمحذوفة، مما يحقق إنسجاماً واتساقاً على مستوى الأسلوب. وقد ورد هذا الحذف في شعر فدوى طوقان، قائلة^(٢):

فما أعزُّ منك يا
أماه إلا الأرض
يا ولدي!
أماه موكبُ الفرح
لم يأتِ بعدُ
لكنه لا بدَّ أن يجيء
لا بدَّ أن...

تتوجَّه نحو توليد الإيحاء وتوسيع الظاهرة الدلالية؛ وهو تكثيف لغوي ينتج عنه «لغة تداولية في هيئة صيغ موجزة»^(١)، وهو دليل على إشارية اللغة، لأن الوضوح في المنتج المبدع يبعده من كثافته، ويعود به إلى الوضوح المطلق ليحتمل منتجه عبثية صياغية لا توجد اللذة ولا تحقق في ذهن القارئ مبتغاه.

لقد برز الحذف في شعر فدوى طوقان، وكان ذا ارتباط وثيق بالدلالة الشعرية. قالت^(٢):

وتلقفني في المدينة هذي الشوارع
والأرصفة

مع الناس، يجرفني مدها البشري
أموجُ مع الموج فيها، على السطح
أبقى

بغير تماس
ويكتسح المد هذي....
وجوهٌ وجوهٌ وجوهٌ وجوهٌ
حذفت الشاعرة الإسم المشار إليه بالتنقيط في قولها (يكتسح المد هذي...)، ومن الواضح أن المحذوف هو كلمة (الشوارع/الأرصفة) التي دار حولها هذا

(١) عبد العظيم السلطاني: نازك الملائكة بين الكتابية وتأنيث القصيدة، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠١٠، ص ٢٠٢.

(٢) فدوى طوقان: الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار العودة، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٥١٨.

(٣) فدوى طوقان، م. ن، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

يحدو خطاه المجد

يا ولدي!

يا...

حذفت الشاعرة الجملة المكوّنة من فعل وفاعل المشار إليها بالتّنقيط في قولها (لا بد أن...) وذلك لأن الشيء المرتجى لم يحدث، بل سدّه مسدّ نقيض سلبي. وقد جنّبت الشاعرة التكرار الذي قد يؤدي في هذه الحالة إلى خلل في بنية النص.

وحذفت الشاعرة المنادى في السطر الشعري الأخير (يا...)، وتبيّن من خلال السياق أنّ المحذوف هو (ولدي) ليصبح التقدير (يا ولدي)، فأتى حذف المنادى صدى للحب الذي قرنته الشاعرة بالأرض، إذ إنّ حبّ ولدها يعادل حب المكان/ فلسطين، لأن كليهما لصيق بالآخر.

باء: التّقديم والتّأخير

تعدّ دراسة التّقديم والتّأخير ذات أهميّة كبيرة في استراتيجيّة التّحليل الأسلوبيّ، ذلك من أجل معرفة أسلوب مبدع ما. والتّقديم والتّأخير صيغة جمالية تحقق أغراضاً دلالية للمنشئ لا تتحقق بالترتيب النمطي لأجزاء التركيب، وهو ميزة امتازت بها اللغة العليا، لغة القرآن الكريم. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١)، بتقديم الضمير المنفصل (إيّاه) على الفعل (تعبدون)، إذ قصرت العبادة لله تبارك وتعالى.

والتقديم والتأخير في الجملة العربية من المباحث المهمة التي حظيت بعناية كبيرة من قبل النحاة والبلاغيين، وإذا طبّقنا هذا القول على شعر (فدوى طوقان) فإننا نجد تقديم الخبر على المبدأ في قولها^(٢):

صمتٌ وقتامٌ

ليلُ القدس...

وعلى الأرض دخانٌ وحطامٌ

قدّمت الشاعرة الخبر (صمت/قتام) على المبتدأ (ليل القدس) جوازاً لا وجوباً، وذلك للفت الانتباه إلى التناقض الذي يحلّ مع ليل القدس الذي لا يعرف الهدوء، بسبب الإحتلال الإسرائيلي واعتداءاته المستمرة. وقد غدا ليل القدس مليئاً بالرعب والظلم والوحشة.

ونلاحظ أيضاً تقديم الخبر (على الأرض) على المبتدأ (دخان/حطام)، والخبر هنا شبه جملة (جار ومجرور) متعلّق بخبر مقدّم محذوف تقديره موجود؛ وتقديم الخبر في هذا التركيب اللغوي أتى وجوباً؛ وعليه يكون تقديم الخبر ذا دلالة معنوية، فالأرض امتلأت بالدخان والحطام نتيجة

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٢) فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٤٨٢.

العدو الصهيوني الذي نشر الرعب في
المكان كله.

ومن جهة أخرى، شكّل تقديم المصدر
(عبثًا) في شعر فدوى طوقان عنصرًا
أسلوبياً بارزًا؛ وقد يرجع هذا الاستخدام
إلى رغبة الشاعرة في تجديد الألفاظ
وإحيائها. قالت^(١):

عبثًا يا أهل البيت

جارحة هذي الأمنية

لكنّ لم يبقَ لدينا

منك إلاّ قعقة الصوت

ضيعنا الأشياء الأصلية

ولقد أعيانا يا أحبابي

رش السكر فوق الموت

بدأت الشاعرة تجربتها الشعرية المعلنة
بتقديم المصدر (عبثًا) على أجزاء الكلام
الأخرى، لتنبّه المتلقي إلى مضامين كلامها.
والعبث هو اللّعب، وكأنها بهذا المصدر
المقدم تشهر هويّتها الاعتقادية، إذ إنّ
المتبقي هو صدى الصوت وخسارة الوطن،
ولن تحصل على جواب لأسئلة يحار فيها
ذهنها.

العنصر الثاني: التكرار

يعدّ التكرار من أهم العناصر التي اعتمد
عليها التحليل الأسلوبي. وقد جاء تعريفه
في اللغة كالاتي: «التكرار مصدر كرّر إذا
ردّد وأعاد، فالكرُّ: الرجوع، ويقال: كرّر
الشيء تكريرًا وتكرارًا أعاده مرّة بعد
أخرى»^(٢). أما في الاصطلاح، فعلى الرغم
من تباين نظرة العلماء إلى التّكرار
واختلافهم حوله، إلاّ أنّ رؤيتهم له ظلّت
تصبّ في قالب واحد من خلال وجهات نظر
مقاربة، فهي لم تخرج عن حدود حسابانه
«إعادة للفظ والمعنى»^(٣). التّكرار إذا، نسقُ
تعبيريّ يُعتمد عليه في بنية القصيدة
العربيّة، يقوم فيها على أساس من الرّغبة
لدى الشاعر، ونوع من الجاذبية لدى
القارئ، من خلال معاودة تلك السّمات التي
تأنس إليها النّفس التي تتلهّف إلى اقتناص
ما وراءه من دلالات مثيرة.

ويذهب الشاعر من خلال التّكرار إلى
لفت انتباه القارئ لبعض العناصر ذات
الأهمية، فتكون الكلمات المفاتيح في
القصيدة التي لا يمكن تجاوزها وإغفالها،
في أثناء قراءة النّصوص الشعريّة، وقد

(١) فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ٥٦٠.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ١٤١، مادة كرر، عم ١.

(٣) فهد ناصر عاشور: التّكرار في شعر محمود درويش، الأردن، عمّان، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط ١، لا ت،
ص ٢١.

والتكرار والإنفتاح والتردد^(٣). وكان تكراره تأكيداً لفكرة الشاعرة التي نجدها تحاكي دلالات سيطرت على ذاتها وأفكارها، مثل الثورة على المحتل وعلى الجفاف الفكري، والرغبة في التحرر والإستقلال والإبداع الحقيقي، ورفض الظلم والإحتلال، وربما الجوع الثقافي وإبراز صراع الأنا مع الآخر. فهي إذاً، تهدف إلى الأسمى والأفضل وتحقيق الأمن والسلام لوطنها ولشعبها، وإلى كل ما هو جديد في المواقف والأفكار. قالت^(٤):

يوم فشا الطاعون في مدينتي

خرجت للعراء

مفتوحة الصدر إلى السماء

أهتف من قرارة الاحزان بالرياح:

هبي وسوقي نحونا السحاب يا

رياح

وأنزلي الأمطار

تطهر الهواء في مدينتي

وتغسل البيوت والجبال والأشجار

هبي وسوقي نحونا السحاب يا

رياح

يكون هذا التكرار مسلطاً على حرف أو كلمة أو عبارة. وبما أن التكرار يكشف عن اهتمام الشاعر بالمفردات والعبارات المكررة، فهو يفيد الناقد في الكشف عن المعاني والدلالات المنحرفة.

وللتكرار في شعر فدوى طوقان مزايا فنية وأسلوبية على مستوى التجربة والخبرة والتعمق في أغوار الحياة - من خلال ما يحدثه التكرار من تأثير الحياة - إذ تعددت وظائفه بين التوكيد والإيحاء وتركيب الصورة وبناء القصيدة. لهذا، تعددت الأنماط التكرارية في شعر فدوى طوقان وفقاً للآتي:

ألف: التكرار الصوتي

يعدّ التكرار الصوتي من الأنماط التكرارية المنتشرة في الشعر بخاصة، وفي النثر بعامة، ويتمثل «هذا التكرار في تكرار حرف يهيمن صوتياً في بنية المقطع أو القصيدة»^(١). وللممثل على التكرار الصوتي نأخذ قصيدة «الطاعون» التي تكرّر فيها حرف الراء إحدى عشرة مرة، وهو «صوت صامت لثوي من المجموعة الذلاقية»^(٢)، ومن أهم صفاته: «الجهر والإنحراف

(١) حسن الغرني: حركة الإيقاع في الشعر العربي المعاصر، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٨٢.

(٢) عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٨، ص ١٧٤.

(٣) عبد القادر عبد الجليل: م، ن، ص ١٧٥.

(٤) فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٤٣٧.

ولتنزل الأمطار!

ولتنزل الأمطار!

ولتنزل الأمطار!

باء: التكرار اللفظي

يعدّ التكرار اللفظي نمطًا من الأنماط التي اعتمدها الشعراء، «وهو تكرار كلمة تستغرق المقطع أو القصيدة»^(١). وقد كرّرت فدوى طوقان اللفظة الواحدة في بدايات الأسطر بشكل عمودي متتال، ركّزت فيها على لفظة جوهرية مكانية تكرّرت عدّة مرات لتصنع إيقاعًا متميزًا للمقطع، تعطي له جمالية موسيقية، قد تربطها بجمالية القافية الموحدة. قالت^(٢):

هنا نحن، وهذا المكان

يلفّ الغرام سماه وأرضه

هنا نحن، هذي يدي في يديك

هنا نحن بعد الطّواف البعيد

وبالنظر إلى العنصر التكراري الذي ركّزت عليه الشاعرة (ظرف مكان / هنا) فإننا ندرجه في النوع الذي تسميه نازك الملائكة بالتكرار الأشعوري الذي تعرفه على أنّه تكرار «جيء في سياق شعريّ كثيف يبلغ أحيانًا درجة المأساة، ومن ثمّ،

فإن العبارة المكرّرة تؤدي إلى رفع مستوى الشعور في القصيدة إلى درجة غير عادية»^(٣).

لذا، فإنّ تكرار الظرف المكانيّ (هنا) يشير إلى أهمية المكان عند الشاعرة، ومدى تعلّقها به وتأثيره عليها.

جيم: تكرار العبارة

ورد في بعض قصائد الشاعرة تكرار حرفي لبعض العبارات الشعريّة، أي من دون إحداث تغيير فيها، ومن ذلك قولها^(٤):

أنا راحلٌ أرسلتها

ومضيتُ في ركب الزّمان

أنا راحلٌ أرسلتها

وبتّ حيرى في مكاني

على قلبي كساطور مسمّم

أنا راحلٌ ومضى

يردّدها فراع الكون حولي

أنا راحلٌ وقفْتُ

يعميني غبارك في الطريق

لم أعد خلفك كنتُ كالمشدود في

مهوى سحيق

لقد تكرّرت العبارة (أنا راحلٌ) خمس

(١) حسن الغرني: حركية الإيقاع في الشعر العربي المعاصر، ص ٨٢.

(٢) فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٢٢٠ - ٢٣١.

(٣) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٤، ٢٠٠٧، ص ١٨٧.

(٤) فدوى طوقان، م. س.، ص ٢٤٩.

مرات، وتلاها فعل ماضٍ (أرسلتها/هوت/ مضى/وقفتُ)، وهذا دليل على أنّ العبارات المكررة لا تأتي صدفة، وإنما على دراية من الشاعرة التي تختار لها مواقفها وأوقاتها المناسبة لظهورها، لكنه ليس الأمر باليسر اكتشاف مبدأ الشاعرة في إيراد هذه المقاطع المكررة، لأنّ ذلك قد يتبع الدلالة أو يتبع التركيب أو الإيقاع.

العنصر الثالث: المفارقة

جاء في لسان العرب أن المفارقة في اللغة تعني «الفرق خلاف الجمع، فرقة ويفرقة فرقا... والتفرّق والإفتراق سواء، ومنهم من يجعل التفرق للأبدان والإفتراق في الكلام؛ يقال فرقت بين الكلامين فافترقا، وفرقت بين الرجلين فتفرقا... وتفرّق القوم: فارق بعضهم بعضاً... وفرق لي رأي، أي بدا وظهر»^(١). فالمفارقة من ناحية أصولها وبنائها هي مفاعلة من فرّق، ونقصد بذلك مظاهر التناقض والتضاد التي تنتظم فيها ظواهر الحياة والوجود.

أمّا في الاصطلاح، فالمفارقة (IRONY) تقوم على عبارة تبدو متناقضة في ظاهرها (Paradox)؛ وهذا التناقض يوهّم القارئ بمواجهة موقف غير متّسق،

مما يدفعه إلى إمعان النظر، وسبر أغوار هذا التناقض، «لينكشف له عالم: كله غرابة وخيال وسحر. المفارقة إذاً من أهمّ الآليات الأسلوبية - مع الإنزياح - التي تعين المبدع على الإنفلات من دائرة البساطة والمباشرة ومن ثم الدخول في آفاق الشعرية الضبابية، والشفافية البعيدة، والجمالية الساحرة»^(٢).

المفارقة إذاً معناها الإنحراف أو الإنزياح، وبمجرد ذكرها إلى جانب الانحراف تحمل دلالة ما وهي هذه المقاربة في الحقل الدلالي، فضلاً عن المقاربة في الحقل الفني أو الأسلوبي.

وفي قصائد فدوى طوقان انقسمت المفارقة إلى أشكال وأنواع صادرة عن دلالات المفارقة وما تحمله من معان ومواقف:

ألف: مفارقة العنوان

ورد في الأعمال الشعرية الكاملة للشاعرة العديد من القصائد التي تشير عنونها بتناقض وتضاد (أنا والسرّ الضائع/كوابيس الليل والنهار/في قبضتي الربيع والحزن/المغرّد السجين/الروض المستباح).

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٢٩٩-٣٠٠، مادة (فَرَّقَ)، عم ١.

(٢) سي ميويك، موسوعة المصطلح التقدي، المفارقة، تر. عبد الواحد لؤلؤة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٩٣، ص ٢٧.

يستخدم اللّغة غير المباشرة من خلال الأساليب الإنشائية، وهذا المعنى يثير التّساؤل والغرابة لحجم المفارقة التي يكتنفها الموقف»^(١).

والأصل أن تسير الأمور طبيعياً، فتأتي النتائج محدّدة ومتوقّعة تتناسب مع طبيعة الوضع والموقف، لكن حين تأتي النتائج مختلفة تثير الغرابة والإنكار والسخرية، لأنّ ردّ الفعل المتحقّق يبدو مفارقاً للصورة التي تتوقّعها. ومن أمثلة هذه المفارقة قول الشاعر^(٢):

قُلْ لِي أَيُّهَا الشَّاعِرُ

لِمَاذَا الشَّعْرُ حِينَ يَشِيخُ

لَا يَسْتَلُّ سَكِينًا وَيَنْتَحِرُ؟

إنّه تساؤل مليء بالغرابة والسخرية والإنكار، لكن ما يحدث وما يجعل تأكيده أكثر أنّه جاء بأسلوب إنشائي ذي شحنة تعبيرية عالية المستوى، لأنّ الشاعر تدرك أنّ الشعر لا يشيخ. وقد وفّقت الشاعرّة حين أوردت هذه الصورة التي أعطت قوة في النّفوس، لأنّ الشعر ليس كائنًا حيًّا. ولماذا أسلوب الأمر في (قُلْ)؟ ولماذا أسلوب الإستفهام في (لماذا)؟ كان كلّ هذا محاولة ترسيخ لمفارقة الإنكار والسخرية

بُنيت هذه العناوين على مفارقة جمعت بين نقيضين؛ ولعلّ التناقض ليس خافياً على النظرة العجلى، فالشاعرة تمثّل المغرد، والعدو يمثّل السجين، وهي هنا جمعت بين الحرية والعبودية في سياق أسلوبيّ واحد متّسق في جملة (المغرد السجين) التي تمثّل عنوان إحدى القصائد. واللافت أنّ الجمع بينهما أخرج الجملة من حدودها اللغويّة البسيطة إلى مفارقة تحكّمت بهذا العنوان وإلى أداة من أدوات الشعارة لخلق نصّها، فيتمثّل لنا صراع قوي وأبدّي على المستوى الكوني بين الحرية والعبودية. إنّه صراع جسّد المفارقة وصنع المخالفة، فأوحى بالغرابة في ثنائية ضديّة بين التغريد رمز الحرية، والسجن رمز العبودية والقيد.

باء: مفارقة الإنكار

إنّ هذه المفارقة تفيض بالسخرية، وتتوسّل السؤال لإظهارها وتعميقها وتخفيفها لمستوى معيّن من الإنكار ترغّب الذات الشعارة في إثارته وتثبيته، «إذ يكمن الفرق بين المفارقة السخرية والمفارقة الإنكاريّة في أنّ النمط الأول يعتمد اللّغة المباشرة الخبريّة، في حين أنّ النمط الثاني

(١) سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعريّة، القاهرة، دار إيتراك للطباعة والنشر والتوزي، ط ١، ٢٠٠١، ص ٢٦.

(٢) فدوى طوقان: الأعمال الشعريّة الكاملة، ص ٢١٤.

لحال الشعر، إذا دامت وطالت شيخوخته وعجزه.

جيم: مفارقة التقابل

يقوم هذا النمط من المفارقة على موقفين متضادين معاً، يتبنى كل موقف فيهما نظرة تناقض نظرة الموقف الثاني، إذ يعمل كل موقف على تدعيم نفسه بالحجة والقصدية البليغة. ومن أجل تحقيق هذا النوع من المفارقة، حاولت فدوى طوقان أن تداعب ريشتها الخيال لتعزز مفارقة تثير الذهن وتسيطر على النفس، وتذهب بالخيال إلى أبعد الحدود، وتسرّ خاطر لذلك التقابل بين الموقفين على طرف نقيض. وتجلى هذا في قولها^(١):

يا نمر، يا حبيب أختك الكسيرة
الجناح

يا جرحاً جديداً غار

في قلبي المغشّي بالجراح

لا تقرأ كلماتنا

فكلّ بيوتنا أوراق

وكلّ دموعنا أحجار

إنّ المتتبع لهذه المقطوعة الشعرية يجد نفسه أمام موقفين متضادين، إذ جاء السطران الأخيران صورة شعرية في غاية

الروعة من خلال أسلوب النهي الذي سبقهما مجازاً بقرينة عقلية (لا تقرأ)، ذلك أنّ التقابل الذي تحقّق بين البيت والبيت الحقيقي حجر صلب صامد يقاوم الشدائد كلّها. أمّا الورقة فهشة وسريعة التمزّق، فكيف يتحقّق الجمع بينهما؛ لعله إثارة لحال القصيدة الحداثوية التي باتت بيتاً ورقياً لا معنى ولا روح ولا جمال ولا قوّة فيها؛ والدمعة رمز الصدق والشفافية في الفرح والخوف والنّدم، كما تشير إلى الحركة والليونة والحياة. أما الحجر فيرمز إلى الصّلابة والجمود والقساوة وانعدام الإحساس. ولماذا قُوبل بكلّ هذه الصفات الضدّية؛ لعله الأمر ذاته في المقابلة الأولى، مقابلة تعمّق بشكل بارز وصارخ ذلك التّقابل بين الماضي والحاضر وانعكاسهما على مفهوم القصيدة.

تمكّنت الشاعرة بهذا التقابل المركّب من أن تختصر الحالة النفسية المتأزّمة للشعر، وانتقالها من واقعها الذي يحمل مأساتها وآلامها على فقدان أخيها (نمر)، فكان تقابل وضع القارئ/المتلقي أمام مشهد واسع الهوة بين المتوقّع والمتحقّق بأسلوب كلّ دهشة وغرابة.

(١) فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٣٧٨.

الخلاصة

الأسلوبية الحديثة التي يعتمدها الباحث من أجل إثبات فكرته، وقد استفادت الشاعرة من أنماط مختلفة من التكرار منها: التكرار الصوتي، والتكرار اللفظي وتكرار العبارة.

المفارقة التي تنوعت أشكالها، انطوت في مجملها على المفارقة اللفظية والسياقية، لأن الذات الشاعرة من خلال العمل المبني على المفارقة التي تتحول إلى ذات لغوية شرط ألا تكون اللغة مجرد لغو، بل لا بد من أن تكون هذه الذات اللغوية واعية بحقيقة التجربة من خلال أدق تفاصيلها، إذ لا تجعل زمام اللغة الموجهة على الدوام نحو التجربة التي يفلت منه، بل يحتفظ بذلك البصيص من الأمل، ليتمكن القارئ من أن يمسك بخيوطها، ويبقى أسير حركتها في سبيل البحث عن غاية الشاعر والمغزى الحقيقي لهذه القصيدة أو تلك. ومن الواضح أن فدوى طوقان وظفت المفارقة بأشكالها المتنوعة في قصائدها.

يستنبط مما أسلف ذكره أن فدوى طوقان شاعرة عربية حداثة جاء شعرها مفعماً بالسّمات الأسلوبية، إذ إن عناصر (الإنزياح والتكرار والمفارقة) كانت في خدمة مستواها الفكري لبيان مضامين قصائدها.

هذه بعض الخطوات التي تمّ الإستعانة بها لتحليل نماذج مختارة من شعر فدوى طوقان تحليلاً أسلوبياً، ويبقى هناك الكثير من الجزئيات التي يقوم عليها هذا النوع من التحليل، لأنه يستفيد من المناهج النقدية الأخرى كالبنوية والسيميائية وغيرهما، وتبقى لكل قارئ رؤيته الخاصة للظواهر الموجودة في النص، لكن الشيء الذي لا يمكن الاستغناء عنه هو الطريقة المنهجية في التحليل، فكل ظاهرة يجب البرهان عليها، وبيان طبيعتها، وإبراز دلالاتها المرجوة من توظيفها الصحيح؛ وهذا ما حاولنا تطبيقه من خلال بعض السمات الأسلوبية التي استعنا بها في هذا التحليل الأسلوبي. وقد توصلنا إلى أبرز الاستنتاجات، ومنها:

الأساليب الانزياحية التي يتجسد دورها في البحث عن المعاني الخارجة عن النطاق المألوف وتحديد الأسلوب والدلالات الناتجة عنه، ودورها في إبراز التعابير والجماليات المشكّلة صوراً غير مألوفة تركيبياً مثل الحذف والتقديم والتأخير. وقد وفقت الشاعرة في توظيف هذه الأساليب الانزياحية، وبدا شعرها بناءً متكاملًا صبت فيه مقدرتها اللغوية.

التكرار الذي يعد من أبرز سمات

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط ٦، ١٩٩٧.
- ٣ - درويش، أحمد: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، القاهرة، دار غريب، لا ط، لات.
- ٤ - سليمان، فتح الله أحمد: الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مصر، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط ١، ٢٠٠٨.
- ٥ - السُّلْطَانِي، عبد العظيم: نازك الملائكة بين الكتابية وتأنيث القصيدة، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، ٢٠١٠.
- ٦ - شوقي، سعيد: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية، القاهرة، دار إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠١.
- ٧ - طوقان، فدوى: الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار العودة، ط ١، ٢٠٠٥.
- ٨ - عاشور، فهد ناصر: التكرار في شعر محمود درويش، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط ١، لات.
- ٩ - عبد الجليل، عبد القادر: الأصوات اللغوية، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٤.
- ١٠ - عبد المطلب، محمد: البلاغة والأسلوبية، القاهرة، دار نوبار، ط ١، ١٩٩٤.
- ١١ - الغرفي، حسن: حركية الإيقاع في الشعر العربي المعاصر، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط ١، ٢٠٠٠.
- ١٢ - ميوبك سي: موسوعة المصطلح النقدي، المفارقة، تر. عبد الواحد لؤلؤة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٩٣.
- ١٣ - المسدي عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط ١، ٢٠٠٦.
- ١٤ - الملائكة، نازك: قضايا الشعر المعاصر، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٤، ٢٠٠٧.
- ١٥ - ناظم، حسن: البنى الأسلوبية في أنشودة المطر للسياب، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٢.
- ١٦ - هاف، كراهام: الأسلوب والأسلوبية، تر. كاظم سعد الدين، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ط ١، ١٩٨٥.

التدقيق اللغوي: خطوة لا بدّ منها

زياد قسطنطين

ضروريّ القيام بتدقيق لغويّ لأيّ كتاب أو صحيفة أو مجلة قبل الطباعة بالشكل النهائيّ. التدقيق اللغويّ هو تصحيح الأخطاء الصرفيّة والنحويّة ويشمل مراحل عدّة:

قراءة النصّ أو جملة ما قراءة أولى، للتأكد من سلامة التركيب اللغويّ من حيث علاقة الإسناد (المسند والمسند إليه) وموضع وقوع أركان الجملة. الفعل إذا كانت جملة فعلية، والمبتدأ والخبر إذا كانت جملة اسمية، ثمّ قراءة ثانية أكثر تعمّقاً لمحاولة إيجاد أخطاء لغوية.

في بعض الأحيان يتمّ نصب اسم كان وأخواتها أو رفع خبرها أو رفع اسم إنّ وأخواتها أو نصب خبرها؛ في أحيان أخرى يُنصب الفاعل أو يُرفع المفعول به أو المضاف إليه. من الأخطاء أيضاً إبقاء حركة رفع المضارع بعد جزم الفعل بأداة جزم. بعد تصحيح الأخطاء اللغوية، يتمّ النظر إلى صياغة الجملة كي لا تكون ركيكة وضعيفة لغويّاً.

تجب مراعاة مستوى القراء، لا سيما إذا

عندما نذهب إلى المكتبات، نرى على الرفوف عدداً كبيراً من الكتب يكاد يبلغ المئات والآلاف من مختلف الأنواع؛ من ينظر إليها، يظنّ للوهلة الأولى أنّه من اليسير تأليفها، وإنجازها بنسخها النهائية وطباعتها؛ لكنّ هذا الأمر غير صحيح، بل لا يمتّ إلى الحقيقة بأيّ صلة.

من أهمّ المراحل التي يمرّ بها تأليف كتاب: التدقيق اللغويّ، أي تصحيح الأخطاء الصرفيّة والنحويّة والعمل على التخلّص منها بشكل نهائيّ. ويتمّ ذلك من خلال المكتسبات اللغوية في قواعد اللغة العربيّة في المدرسة وكذلك من خلال التخصص في اللغة العربيّة وآدابها في الجامعة. أيضاً بعد الاطلاع عن كثبٍ على سير الأمور في دور النشر والمراكز التربويّة، خصوصاً بالنسبة إلى التدقيق على صعيد اللغة.

يجب تبيان أهميّة التدقيق الصرفي والنحويّ في الكتب المدرسيّة بالأخصّ، كي تأتي مراعاة قواعد اللغة العربيّة، فتكون لغة سليمة، خالية من الأخطاء اللغوية، ألفاظها بعيدة من الغموض والالتباس.

كانوا من التلاميذ، من حيث عمرهم والمرحلة الدراسية والصف الذي ينتمون إليه وبالتالي إدراكهم واستيعابهم وطاقتهم الفكرية.

كلُّ فئةٍ من التلاميذ تستخدمُ معجماً خاصاً يُميّزها عن الفئات الأخرى.

من ضمن الأخطاء اللغوية أخطاء في التشكيل وهذه مرحلة جدُّ مهمّة في عملية التدقيق؛ أيضاً يجبُ تمييز اسم الفاعل من اسم المفعول، الفعل المعلوم من المجهول وذلك بهدف تلافي الالتباس وكذلك الأمر بالنسبة إلى ياء النسبة والياء الأصلية.

من ضروريّات أسلوب التدقيق والتشكيل وضع ألف مع فتحتين للنكرة المنصوبة عند الضرورة. أيضاً يجبُ الانتباه إلى الأخطاء الطباعية، إذ إنّ أيّ كتاب لا يُمكن أن يخلو من هذه الأخطاء.

بالإضافة إلى ذلك، أحياناً تُستخدم كلمات في غير موضعها وبذلك لا تُعبّر عن المعنى فلا تتناسق الكلمة مع موضعها. كما تجدرُ الإشارة إلى ضرورة تدقيق حسن استخدام علامات الوقف، لأنّها جزء لا يتجزأ من عملية التدقيق اللغوي.

من المسلّم به ضرورة أن تتمّ قراءة الكتاب أكثر من مرّة من قبل أكثر من مدقّق واحد، فما لا يلحظه الواحد، يلحظه الآخر.

كلُّ هذه المراحل إلزاميٌّ المرورُ بها بغرض إجراء تدقيق لغويّ على درجة عالية من الجديّة والاحترافية.

بعضُ الأشخاص يعتبرون أنّ تأليف كتابٍ هو أمرٌ سهلٌ ويتمّ بسرعة، ولكنّ إنتاج كتابٍ ما يُعتبر أمراً في غاية الصعوبة والدقّة، لأنّه يحتاجُ إلى بذل جهودٍ لا مثيل لها، ويتطلّب القيام بأعمالٍ مضمّنة.

إنّ تأليف كتابٍ هو مشروعٌ تربويٌّ ثقافيٌّ كبيرٌ. لا يتمّ بالسرعة التي يظنّها البعض ولا بالسهولة التي يتمّ توهمها.

يستحيل إنجاز كتابٍ من دون إجراء تصحيحٍ وتدقيقٍ وإعادة صياغة له على الصعيد اللغويّ؛ بالإضافة إلى إجراء عدّة قراءات له. إنّها مرحلة أساسية من مراحل إنتاج كتابٍ أكان أدبيّاً أم علميّاً، لا بل من دون المرور بهذه المرحلة الشديدة الأهمية، لا يُمكن تأليف كتابٍ ولا طباعته بصورة نهائيةٍ وإلاّ يُعتبر كتاباً لا قيمة له ومشروعاً كُتب له الفشل والإخفاق قبل أن يُبصر النور.

ماهية التدقيق اللغويّ

أ - تعريف التدقيق اللغويّ:

ورد في «محيط المحيط»:

(١) «التدقيقُ مصدر دقّق، عند العلماء:

(١) البستاني بطرس: محيط المحيط، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، إعادة طبع ١٩٩٨، ص ٢٨٦.

إثباتُ الدليل بالدليل، أو كما قال السيّد الجرجاني: إثباتُ المسألة بدليل، دقّ طريقه لناظريه، المدقّق أعلى رتبة من المحقّق».

ورد في «معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة»: «دقّ في الشيء: نظرَ فيه متفحّصًا مستقصيًا، كان كثير التدقيق فيه»^(١).

ورد في «المنجد في اللغة العربية المعاصرة»:

«دقة: صفة الأداء أو المنتج عندما يقترب من الكمال أو المثالية، اهتمام بالغ بالتفاصيل، انتباه شديد للجزئيات، ما يدل على كفاءة في التمييز بين أصغر الفوارق، دقة ملاحظة ما يُمكن من تقدير الأشياء بصورة واضحة صحيحة. دقة معانٍ: جواب في غاية الوضوح، ملّم بكل جوانب السؤال»^(٢).

دقيق: صحيح، محكم ومضبوط، يولي أصغر التفاصيل أصغر عناية وانتباه^(٣). يُلاحظ كل شيء لا يفوته شيء، قادر

على تمييز دقائق الأمور وإدراك الفوارق التي لا يلاحظها معظم الناس. دقّ في: تثبّت من صحّة شيء، راجعه، أنعم النظر فيه، درسه بعناية وانتباه.

تدقيق: مراقبة شيء وفحصه بدقة للتحقق من صحّته. تدقيقية: صفة من هو شديد الانتباه للتفاصيل. مدقّق: شديد الانتباه للتفاصيل^(٤).

ورد في «أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد»: «دقّ: أنعم الدقة، صيره دقيقًا»^(٥)، ورد في «الوافي»: دقّ في الشيء: استعمل فيه الدقة»^(٦).

ورد في كنز اللغة العربية: دقّ: أحكمه^(٧). ورد في «لغة العرب»: دقّ في الشيء: نظر فيه متفحّصًا مستقصيًا مستغرقًا أبعاده بتفاصيلها وجزئياتها^(٨).

كما ورد في «المنار»: الدقة: الضبط، الإحكام، التنظيم، ضدّ الفوضى؛ دقّ: أمعن النظر فيه^(٩).

(١) رضا يوسف: معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٦، ص ٧٠٤.

(٢) مجموعة من المؤلّفين: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، بيروت، دار المشرق، ٢٠٠٨، ص ٤٧٤.

(٣) مجموعة من المؤلّفين: المنجد الأبجدي، بيروت، دار المشرق، ١٩٩٣، ص ٤٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٧٥.

(٥) الشرتوني سعيد: أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٢، ج ١، ص ٣٤٢.

(٦) البستاني، عبدالله: الوافي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٠، ص ٣٠٠.

(٧) غالب حنا: كنز اللغة العربية، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٢٠١.

(٨) عبد المسيح، جورج: لغة العرب، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ج ١، ط ١، ١٩٩٣، ص ٤٤٨.

(٩) الياس، جوزف؛ ناصيف، جرجس: المنار، بيروت، دار الرمال، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٣٣٢.

يتطلبُ التدقيق اللغويُّ التقصِّي والبحثَ عن الأخطاء على صعيديَّ الصرف والنحو بغرض تصحيحها، وتقديم عملٍ سليم لغويًّا، خالٍ من الأخطاء اللغويَّة.

هذا الأمرُ يستدعي سبرَ أغوار الكلماتِ ضمن السياق الذي تردُّ فيه، لتبيان مدى صحَّة استعمالها وملاءمتها المعنى. واختيار الألفاظ الأكثر تعبيرًا عن المعنى والأكثر مناسبة للموقف التلفُّظي.

(١) المدقق هو شديد الانتباه إلى التفاصيل، وهو من يقوم بالتدقيق؛ والمدقق اللغويُّ هو ذلك الشخص الذي تُنَاط به مهمَّة تصحيح الأخطاء اللغويَّة، وهي مسؤوليَّة كبيرة لا يُستهانُ بها. التدقيق اللغويُّ هو إذاً إجراءٌ تصحيح وتنقيح لنصِّ معيَّن أو صفحة أو كتاب بأكمله: هو جزءٌ أساسيٌّ من التحرير، من أهمِّ مراحل إنجاز كتاب. هو البحثُ عن أخطاءٍ صرفيَّة ونحويَّة وتصحيحها بعد تبيان استعمالها الصحيح وتمييزه من الخطأ.

يعتمدُ المدقق اللغويُّ الدقة والتركيز لدرجةٍ عالية جدًّا، وإلاَّ غفلت عنه أشياء كثيرة. التدقيق اللغويُّ ليس عملاً بسيطاً بل على درجةٍ عالية من الصعوبة والتعقيد؛ يشمل أموراً عدة: القراءة المتكررة أي التي

تجري لمراتٍ عدَّة، بالإضافة إلى التصحيح على صعيديَّ الصرف والنحو كما سبق وذكرْتُ، ويشمل من ضمن تصحيح الأخطاء الصرفيَّة عمليَّة التشكيل أحياناً.

لا يُمكن التقليلُ من أهميَّة التدقيق اللغويِّ، هو أكثر من ضروريِّ. يتطلَّب إجراءُ التدقيق اللغويِّ وقتاً طويلاً لكي يجري كما ينبغي: يجبُ إجراء تصحيح على مستويي الصرف والنحو، كما يجبُ الانتباه إلى الأخطاء الطباعيَّة والأخطاء التي تشوبُ عمليَّة التعريب (٢)، أي حين يتم نقل لفظ أجنبي إلى اللغة العربيَّة.

لا يُمكن إجراء التدقيق اللغويِّ بشكلٍ سطحيٍّ بل بصورةٍ معمَّقة، ولذلك يجبُ الدخول في تفاصيلِ الجمل والكلمات وحتى الأحرف، بغرض اكتشاف مكنوناتها غير الصائبة وغير المناسبة، إذاً التدقيق اللغويُّ هو تصويبٌ للألفاظ والعبارات وضبطها بالشكل التامُّ وبأسلوبٍ محكم.

يشملُ التدقيق اللغويُّ مراجعة الكلمات في النصِّ المكتوب أو المنطوق وتعديل ما فيه من أخطاءٍ لغويَّة، نحويَّة، صرفيَّة، إملائيَّة، صياغيَّة، وإعادة تشكيله بعد تصحيح الأخطاء وتطبيق القواعد اللغويَّة عليه.

(١) مجموعة من المؤلِّفين: المنجد في اللغة العربيَّة المعاصرة، بيروت، دار المشرق، ط٣، ٢٠٠٨، ص ٤٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٦١.

التعليمية، المواقع الإخبارية والمواقع الدينية الملتزمة بالفصحى، أكانت مكتوبة أم مسموعة.

إنّ قضية التدقيق اللغويّ مُتَشَعِّبَة، ومشكلاتها كثيرة، لكن بوجه عامّ يتمّ الاحتكام إلى المعاجم وعلماء النحو والصرف واللغة في أيّ مسألة يوجدُ خلافٌ حولها.

التدقيق في خدمات اللغة هو المراجعة النهائية والفاحصة للنصوص المطبوعة. يتمّ التدقيق مثلاً عند طباعة نصّ مكتوب باليد لتحويله نسخة إلكترونية. ولما كان من النادر حالياً استخدام ذلك، حيث أصبحت مألوفة الطباعة في النسخ الإلكترونية؛ فقد تحوّل الطلب إلى ما يُسمّى «المراجعة» وهو فحص الأخطاء (إملائية ونحوية واصطلاحية... إلخ) في النسخة شبه النهائية.

المراجعة هي إعادة النظر في كتاب ما وتصحيحه من الأخطاء الطباعية؛ التدقيق النهائي وتصحيح الأخطاء الإملائية والنحوية والاصطلاحية وهو ما يتمثّل في الخروج عن المألوف بالنسبة لمتحدّث اللغة الأصلي^(١) المدقّق اللغوي هو حارس اللغة؛ إنّ الكتب، وقبل أن تذهب إلى دور الطبع،

من هو المراجع اللغويّ أو المدقق اللغويّ أو المصحح اللغويّ؟ وما آتته التي تؤهّله للتصحيح اللغويّ؟

هو كلُّ من يعمل في مراجعة النصوص، آتته هي القواعد اللغوية النحوية والإملائية والصرفية، المحفوظة في الذاكرة المدرجة عنده.

لا يستطيع أيّ شخص أن يعمل في التصحيح اللغويّ لمجرّد أنّه يتميّز بحفظه القواعد اللغوية، بل يجب أن يتمتّع بالمهارة اللغوية وكلُّ حافظ القواعد لا يتمكن من التصحيح اللغويّ، إلا إذا تمّتع بالمهارة اللغوية.

ويُشترط في المصحح اللغوي أن يكون مؤهلاً لغويّاً لا ورقياً.

مجالات العمل في التصحيح اللغويّ متعدّدة منها:

السينما (التاريخية والدينية)، الأفلام والمسلسلات الكرتونية، البرامج التاريخية والأفلام الوثائقية، البرامج التعليمية المسرودة والنشرات الإخبارية.

المنشورات المقروءة وتشمل: الصحف، المجلّات، الكتب، القصص والروايات.

المواقع الإلكترونية وتشمل المنتديات

(١) مجموعة من المؤلّفين: المعجم العربيّ الأساسي، لاروس، تونس، المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٨، ص ٧٢١.

يدقق فيها ليُزيل ما تتضمن من عيبٍ وخطأ من الممكن أن يكون قد وقع فيه الكاتب^(١).

ب - أنواع التدقيق اللغوي:

● من حيث الألفاظ:

تجب الإشارة إلى أنه في الكتب الأدبية، يتم التركيز على إعادة صياغة الألفاظ والعبارات بما يتناسب مع طبيعة هذا المجال الإبداعية^(٢)، فالإبداع هو إيجاد شيء غير مسبوق وهو أن يشتمل الكلام على عدة ضروب من البديع، فالإبداع هو سمة الأدب. فتكون هذه العبارات غير سهلة ولا يفهمها الجميع. أما في الكتب العلمية، فيتم استعمال ألفاظ سهلة، مانوسة وتتميز بالبساطة والبعد من التعقيد بما يتناسب وطبيعتها العلمية الموضوعية.

إذا التدقيق اللغوي أنواع، كل مؤسسة تربوية أو دار نشر أو صحيفة أو مجلة تعتمد نوعاً معيناً تتميز به، ويبدو جلياً في المؤلفات الصادرة عنها، فضلاً عن أن كل مدقق لغوي يعتمد أسلوباً معيناً للقيام بعملية التدقيق اللغوي.

ج - طرائق إجرائه:

^(٣) تشمل مرحلة التحرير اللغوي إعادة صياغة النص، وفي بعض الأحيان حذف

المعلومات غير الضرورية، من أجل الوصول بالنص إلى أفضل معنى يتلاءم والرسالة الأصلية للنص. فتحرير الكتاب هو إصلاح الكتاب وتجويد خطه.

من المهم التركيز على كل كلمة على حدة، من ثم ربطها بالجملة، فالمقطع بعدها. إذا كل عمل يجري وفقاً لمعايير محددة، يتطلب اتباع أسلوب ومنهجية في غاية الدقة، كذلك الأمر بالنسبة إلى التدقيق اللغوي، حيث إنه يتم على مراحل، وهذا العمل يجب أن يستوفي شروطاً محددة.

يجب أن يتم التدقيق في كل كلمة والتأكد من ملاءمتها السياق والمعنى وكذلك الأمر بالنسبة إلى سلامتها على صعيدي الصرف والنحو، بالإضافة إلى التأكد من سلامة عملية التعريب في حال حصولها. كل ذلك يجب أن يتم بمهنية واحترافية وإلا أتى العمل ناقصاً غير مكتمل، غير صائب وتشوبه العيوب والأخطاء المختلفة. يجب اتباع تسلسل منطقي في المرور بالمرحل المختلفة، لا يجوز البدء بما لا يتناسب ومجريات عملية التدقيق اللغوي وأهدافها المتوخاة، على سبيل المثال، لا يمكن البدء بإعادة صياغة جملة معينة قبل فهم المعنى المراد منها.

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠٧.

(٢) البستاني، بطرس: محيط المحيط، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، إعادة طبع، ١٩٩٨، ص ٢١.

(٣) Journal of Arabic department:the Arabic manuscripts &methods of editing&publishing, 1996, p29-41.

د - أهداف التدقيق اللغوي:

إنَّ الهدفَ الأساسيَّ من التدقيق اللغويّ هو تلافِي الأخطاءِ الصرفيّة والنحويّة، فالكتابُ الذي يحوي أخطاء لغويّة، لا قيمة له ومصيرُه الفشل، ناهيك بالسمعة السيئة التي تنتشرُ حوله، والأهمّ من كلِّ ذلك أنّ كتابًا كهذا ينشرُ الأخطاء بين الناس، الذين يُردّدونها على ألسنتهم وفي مجالسهم ومن يُريدُ منهم أن يكتب نصًّا يكتبه بأسلوبٍ غير صحيح فتُضحى شائعة بينهم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصحيفة أو المجلة.

إنَّ الكتابَ الخالي من الأخطاء اللغويّة يُصيبُ نجاحًا كبيرًا، حتّى لو لم يُحقّق كسبًا ماديًّا وفيرًا، إذ إنّه يلقي إعجابًا من كلِّ شخص يُطالعُه، بسبب لغته السليمة الصائبة ودقته في إصاغة المعنى.

التدقيق اللغويّ هو كمن يحملُ غربالًا يفصلُ الجيد عن السيئ؛ الهدفُ منه القضاء على الأخطاء الشائعة التي تُفسدُ العقول والألسنة. وهذه الظاهرة تشكّل خطرًا على اللغة العربيّة، إنَّها كالورم الخبيث الذي يجبُ استئصاله والقضاء عليه بشكلٍ جذريّ.

هذا بالإضافة إلى الأخطاء الطباعيّة التي

كثُرَ وجودُها، فهي تُضَيِّعُ المعنى وتُسبِّبُ الالتباسَ والغموض. من نتائج التدقيق اللغويّ أنّه يجعلُ التلاميذ والطلاب وسائر الناس والقراء يعتقدون على القراءة والكتابة والتكلم والتعبير بشكلٍ سليمٍ وصحيح.

التدقيقُ في النصِّ يتناولُ^(١) الأسلوب أي طريقة الكاتب في الكتابة، وقواعد النحو والصرف، والاتّساق الفكريّ ودقّة إيصال المعلومة. فمهمّة المدقق اللغويّ هي الوصولُ إلى صورةٍ نهائيّة للنصّ المترجم تتسمُ بسلاسة النصّ الأصليّ عند قراءتها بل وأفضل أحيانًا.

للتدقيق اللغويّ أهدافٌ كثيرة منها:

١ - تطبيقُ قواعد اللغة العربيّة بهدف التدرّب على القراءة، الكتابة والتعبير بصورة سليمة؛ وجعل الكتاب أكثر سهولةً وفي متناول الجميع.

٢ - العملُ على نشر اللغة العربيّة الصحيحة التي تشكّل جزءًا أساسيًا من تراثنا وهويّتنا الثقافيّة؛ أيضًا حصرُ الأخطاء وضبطُ عمليّة انتشارها وشيوعها والحدّ من تواترها.

٣ - إنجازُ عملٍ على درجة عالية من الجودة والدقّة والاحترافيّة وإنتاج أفضل عملٍ ممكن؛ حيث إنّ أيّ كتابٍ مهما كان

(١) مجموعة من المؤلّفين: المعجم العربيّ الأساسي، لاروس، تونس، المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٨، ص ٦٣٣.

نوعه، إن لم يجر له تدقيقٌ على صعيد اللغة وإعادة قراءةٍ وتعمُّقٍ في محتوياته ومضمونه، بالإضافة إلى استقصاءٍ وبحثٍ عن جميع الأخطاء التي من الممكن أن تكون موجودةً، والعمل على تصحيحها بشكلٍ جذريٍّ وكاملٍ ونهائيٍّ، فسوف يكون ناقصًا في الشكل والمضمون لأنه عملٌ غير جادٍ ويحوي الكثير من الأخطاءٍ بمختلف أنواعها: صرفيةً ونحويةً وإملائيةً، في صياغة الجمل والعبارات. كما أنه سيكون أيضًا على درجةٍ كبيرةٍ من الرداءة والسوء لأنه يفتقر إلى أحد أهم عناصره: اللغة الصحيحة السليمة.

٤ - إنجازُ عملٍ متكاملٍ، تامٍّ، جادٍ، لا تشوبه شائبة، على درجةٍ كبيرةٍ من المهنية والاحترافية ولا يدعُ مكانًا للنقد والنقاد: فكثرُ من النقاد ينتظرون فرصة توجيه الانتقادات لمؤلفي الكتب ولو كانت انتقادات عشوائية تُرمى يمينًا ويسارًا، وفي غالب الأحيان من دون الاستناد إلى سببٍ وجيهٍ أو حججٍ وأدلةٍ وإثباتاتٍ منطقيةٍ ومقنعةٍ.

٥ - القضاء على الأخطاء اللغوية، جميعها، إن أمكنَ بأنواعها المختلفة، لأنَّ هذه الأخطاء من شأنها إفساد الناشئة، فهي تنتشر بين التلاميذ وتفسد العقول. هذا الأمر يؤدي إلى انتشار لغةٍ مختلفة كليًا عن

اللغة العربية الفصحى، التي قواعدها الصرفية والنحوية معروفة منذ زمنٍ بعيدٍ.

٦ - تقديم المعلومات التي هي ذات طابعٍ علميٍّ بأفضل صورةٍ ممكنة، لغتها صحيحة، ألفاظها سهلة ومتناسقة أي منتظم بعضها إلى بعض وفيها توافق وانسجامٌ وتتابع أفكار بترتيبٍ، عباراتها واضحة وقريبة إلى الأفهام، من اليسير استيعابها، وذلك لكي تُفهم دون كدٍّ ومعاناةٍ أو حاجةٍ إلى إعمال الفكر بشكلٍ مضمّنٍ متعبٍ ومعقدٍّ^(١).

٧ - تحقيق الابتكار والتجديد: فمن صلبِ عملية التدقيق اللغوي، إجراء إعادة صياغةٍ لعددٍ كبيرٍ من الجمل والعبارات واستبدال الألفاظ بأخرى تكون أكثر صحةً وأكثر ملاءمةً ومناسبةً وأكثر تعبيرًا عن المعنى المراد، وبذلك تحدث عمليتنا التجديد والابتكار من خلال ابتداءٍ صيغٍ مختلفة لمجموعةٍ لا بأس بها من الجمل والمفردات.

٨ - نشر مفاهيم ومعارف لغوية جديدةٍ من خلال إيصال المعلومات المطلوبة بوساطة لغةٍ صائبة، خالية من الأخطاء اللغوية، ما يؤدي إلى تعويد التلاميذ على استخدام صيغٍ وتراكيبٍ سليمةٍ.

(١) مجموعة من المؤلفين: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، بيروت، دار المشرق، ط٣، ٢٠٠٨، ص١٤٠٦.

مراحل إجراء التدقيق اللغوي

أ - من القراءة الأولى إلى القراءة النهائية:

عندما يستلم المدقق اللغوي كتاباً ما أو جزءاً منه، بداية عليه أن يقرأ النسخة التي هي بين يديه قراءة أولى ثمّكنه من تكوين فكرة أولية عن الموضوع الذي تتمّ معالجته. يبدأ بربط الأفكار بعضها ببعض بشكلٍ منطقي، يتأكد من استعمال الألفاظ في مكانها المناسب بما يتلاءم والمعنى المراد منها.

ثمّ يُعيد القراءة ويبدأ بالتأكد من صوابية التركيب اللغوي للجمل من حيث علاقة الإسناد أي المسند والمسند إليه وجواز التقديم أو التأخير أو عدمه^(١)، فغاية الإسناد هي إنشاء نسبة تامة بين كلمتين تؤلفان عمدة الجملة كنسبة الخبر إلى المبتدأ أو نسبة الفعل إلى الفاعل. بعد ذلك ينظر إلى الجملة من حيث صياغتها، فيتمّ إجراء إعادة صياغة لها إذا تطلّب الأمر ذلك بهدف التخلص من ركاكة الجملة والعمل على جعلها فصيحة.

ثمّ يتمّ تشكيل الكلمات بحسب النوع المطلوب استخدامه. تجبّ مراعاة طبيعة كل كتاب ويتوجّب توحيد استعمال ألفاظ وعبارات وتراكيب وصيغ معينة، لذلك

تنبغي معاودة القراءة بشكلٍ متكرّر بهدف عدم حصول أيّ التباسٍ أو غموضٍ أو تحوير للأهداف الدراسية التي يجب الالتزام بها وتطبيقها وإلاّ أصاب الهيكلية العامة للدرس خللٌ.

بعد الانتهاء من هذه المرحلة، يجب التركيز على التشكيل، لهذا السبب تجري إعادة قراءة الكلمات المشكّلة بهدف التأكد من صحّة التشكيل وسلامته، فلا أحد من المدققين معصومٌ من الخطأ بمعنى أنّ أيّ مدقق لغوي مهتما كان متضلعاً بشؤون اللغة ومكتسباً خبرة طويلة في مجال التدقيق اللغوي وحائزاً شهادات في اللغة العربية، فإنّه قد يُخطئ ولا سيّما في تشكيل الألفاظ وذلك لعدّة أسباب منها: قلة التركيز، فأخطاء كثيرة قد لا تُصحّ سهواً لا عن سابق تصوّر وتصميم.

كلّ مرّة تتمّ قراءة نصّ ما، يجري لحظّ عددٍ من الأخطاء والنواقص وما يحتاج إلى إجراء تعديلٍ عليه؛ فالقراءة الواحدة لا تكفي أبداً بل إنّها تُساهم في إنجاز أقلّ من نصف المطلوب.

من المعروف أنّ الكتاب يجب أن تتمّ قراءته ومراجعته من قبل أكثر من مدقق واحد؛ فما لا يلحظه المدقق الأوّل، يلحظه الثاني، وذلك بغرض إنجاز عملٍ متكاملٍ

(١) الدحداح، أنطوان: معجم لغة النحو العربي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط٤، ٢٠٠٩، ص٣٤-٣٥.

ومثالي من الناحية اللغوية وبصورة عامة على درجة عالية من الجدية والمسؤولية والمهنية والدقة. فالقراءة الأولى تختلف عن سائر القراءات: القراءة الأولى هي سطحية لا تدخل في التفاصيل والأعماق، في حين أنّ بقية القراءات هي معمقة وتُعنى بتفاصيل النص المكتوب وسبر أغواره والإمساك بمفاصله.

خلال القراءة الأولى، يتم التركيز على الأمور الالفتة للنظر، تُكشف الأخطاء الفاضحة مهما كان نوعها: صرفية-نحوية-إملائية-أو في ما يتعلق بصياغة الجملة. على سبيل المثال: كتابة تاءٍ مربوطة بدلاً من التاء الطويلة، أو رفع اسم إن بدلاً من نصبه، أو نصب المبتدأ عوضاً عن رفعه، وسواها من الأخطاء اللغوية أو المطبعية الفاضحة التي تتراءى للعين بشكل واضح.

بعدها، تبدأ قراءة ثانية، يُجريها الشخص الذي أجرى القراءة الأولى أو شخص آخر يتولى القيام بهذا الأمر: في هذه القراءة، يلحظ المدقق الأخطاء التي وُجدت وتمّ تصحيحها، ويتابع القراءة بحثاً عن المزيد منها؛ ولكن هذه المرة يقوم بالدخول في التفاصيل، أي أنّه يتعمق ليس فقط في كلّ فقرة أو جملة، بل يبدأ بالغوص في كلّ كلمة على حدة، بدءاً بالنظر إليها من الجانب الإملائي، ثمّ من الجانب الصرفي، ثمّ من الجانب النحوي.

خلال هذه القراءة، يتم اكتشاف أخطاء لم تُلاحظ في القراءة الأولى؛ من ثمّ تبدأ قراءة ثالثة، بعد إجراء تصحيح الأخطاء الساحقة من الأخطاء، يتم تصحيح ما تبقى منها، وهي تكون غالباً قليلة تكاد لا تُذكر، إذا عدّها قليلٌ وطبيعتها مختلفة، ليست أخطاءً جسيمة بل بسيطة، على سبيل المثال: الأخطاء الطباعية وأقصد الأخطاء الناتجة من جراء عملية صفّ الحروف والطباعة بصورة غير دقيقة وتغلب عليها السرعة والعجلة من دون التركيز عليها بما يكفي أو حتى إجراء مراجعة لها. هذه القراءة، من الممكن أن تكون الأخيرة، ولكن يُفضل أن تتمّ قراءتها لمزيد من المرات ومن قبل أشخاص آخرين لم يطلعوا عليها سابقاً ولم يجرؤوا تصحيحاً لها من قبل، لأنّه وكما قلت سابقاً إنّ ما يراه مصحح معيّن لا يلحظه غيره من المصححين.

إنّ القراءة الأخيرة، يجب أن تكون على درجة عالية من الجدية، لأنّ من يقوم بها تُنشط به مسؤولية كبيرة، هذه المسؤولية الملقاة على عاتقه، يجب أن تجعله يركّز على عمله إلى أقصى حدّ ممكن.

ب - التأكّد من ملاءمة الألفاظ معناها:

يجب على المصطلحات أن تُعبّر عن المعنى بشكلٍ تقريريّ مباشرٍ واضح ومحدّد ودقيق، دون غموض أو موارد أو

لبس حيث إنّ الكلمة يُفهم المعنى المراد منها ولا تشمل أكثر من معنى واحد؛ يجب أن تتم عملية الانتقاء بشكلٍ دقيق. إذاً يجب اختيار الألفاظ التي تناسب المعنى المقصود منها، وإلا حُرِّفت ونُقِلت إلى مكانٍ آخر، أيضاً يجب أن توضع اللفظة في السياق المناسب. يجب استخدام اللفظة المناسبة في الموضوع المناسب. هذا الأمر يؤدي في نهاية المطاف إلى إنجاز عملٍ واضح ودقيق وبعيدٍ من الغموض والالتباس ويتوخى الأهداف الموضوعية. إنّ الملاءمة والتناسب هما صفتان ملازمتان للألفاظ التي يفترض أن تعبر عن المعنى، الألفاظ التي لا تتلاءم والمعنى، تأخذ مجرى التفكير إلى موضعٍ غير متوخى الوصول إليه.

لا يمكن استخدام ألفاظ ومصطلحاتٍ في غير موضعها المناسب؛ المهم هو حسن اختيار الألفاظ لكي تناسب السياق. بهدف التعبير عن معنى ما، يجب استخدام مصطلحاتٍ معينة دون سواها وهذا الأمر يتطلب كفاءة واحترافية ودقة في العمل من أجل استخدام اللفظ المناسب في المكان المناسب. يمكن استعمال ألفاظ تعبر عن معنى مختلف اختلافاً كبيراً عن معناها

الحقيقي الذي يجب أن تعبر عنه، وبالتالي تكون غير ملائمة للسياق أي حيث ترد وبالنظر إلى ما يُصاحبها من ألفاظ. بغرض أن تلائم الألفاظ معناها، يجب أن يتم استخدام حقلٍ معجمي مناسبٍ لمحور الكلام، إذاً توجد معايير وأصول ومبادئ ونقاطٍ معينة يجب الالتزام بها والعمل على تطبيقها وذلك بهدف إتمام عملٍ ناجح يُراعي المعايير الموضوعية له.

إذاً، من الضروري دائماً استخدام الألفاظ المناسبة لسياقها، ويُعتبر هذا الأمر في غاية الأهمية، وإلا لا يمكن كتابةً معيناً أن يكون جيداً، لأنه لا يُحقق الغرض المرجو من تأليفه. من الضروري أن يتم استعمال الألفاظ الأكثر مناسبة وملاءمة للسياق الذي تقع فيه والأكثر تعبيراً عن الدلالة لتُفهم بسرعةٍ وسهولةٍ. في حال تم استخدام ألفاظٍ غير مناسبة. ينبغي دائماً استخدام اللفظ المناسب في المكان المناسب، لكي تكتمل عملية إنتاج المعنى وكي تتم كما يجب^(١). إنّ المعنى الواحد للجملة يتألف من عدة معانٍ جزئية، ولكن هذه المعاني ليست هي المراد ونظم الجملة وإنما هي وسيلة لغاية منشودة، تتمثل في المعنى الدلالي الواحد، أي أنّ المعاني

(١) حميدة، مصطفى: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٧، ص ١٣٠.

الجزئية تتشابه وتتفاعل ساعية إلى غاية مستهدفة منها هي إبراز معنى دلالي واحد.

(١) الجملة سلسلة من المكونات التي تتفاعل في ما بينها كي تؤدي في النهاية المعنى الواحد المنشود. والألفاظ والجملة المقبولة دلاليًا لا بد أن تتضمن علاقات تلاؤمية صحيحة: فالجملة المكونة من ألفاظ عدة هي الوحدة المتضمنة معنى دلاليًا واحدًا. لنفترض أن لفظًا ما استعمل في غير مكانه، فإن المعنى سوف يلتبس لا بل سوف يفهم هذا اللفظ فهمًا غير صحيح. من أهم شروط نجاح أي كتاب، أن تُلائم الألفاظ معناها وهكذا يستطيع الشخص الذي يقرأه أن يستوعب المعنى المقصود من كل جملة أو لفظة فيه. في حال لم تحصل الملاءمة بين اللفظ الواحد ودلالته، فإن الغموض سوف يكتنف الكتاب أو الوحدة أو الدرس أو حتى الصفحة الواحدة أو الفقرة الواحدة أو الجملة الواحدة. إن الألفاظ ومعناها لا ينفصلان: الواحد منهما يكمل الآخر، وعندما تحكّمهما علاقة ملاءمة، فإنهما يحققان الهدف المنشود؛ ولكن عندما تفصل بينهما هوة عميقة بسبب الاختلاف الكبير بينهما، فإن العبارة التي تتضمنهما، سوف يضيع معناها في مكان بعيد من النص.

ج - إشكالية تعريب المفردات العلمية:

إن موضوع تعريب المفردات والمصطلحات العلمية بالغ الأهمية، فهو يُشكل نقطة أساسية في عملية تأليف أي كتاب. إن تعريب المفردات العلمية ليس بالأمر السهل، بل إنه عملية فيها الكثير من الصعوبة والتعقيد وقبل كل شيء إن هذا الأمر يتسم بالدقة.

غالبًا ما تتم عملية ترجمة المصطلحات والمفردات العلمية من اللغة الإنكليزية أو الفرنسية إلى اللغة العربية بأسلوب خطأ وغير دقيق، فتأتي الألفاظ غير صحيحة ولا تُلائم السياق الذي توجد فيه، وبالتأكيد لا تعبّر عن المعنى المنشود والمقصود: فما كان في اللغة الإنكليزية ليس هو نفسه في اللغة العربية، فقد تغير معنى الألفاظ ليصبح منافيًا للمعنى الوضعي لها. فالمصطلحات الأجنبية يجب أن تعرب وتوضع في عبارات اصطلاحية وجملي مفيدة تكون واضحة محدّدة لا تسبّب أي غموض أو التباس، بل تُصيب المعنى بأكبر قدر ممكن.

تبقى الإشكالية الكبرى، أن مفردات علمية لا يوجد لها مقابل في اللغة العربية، يُعبّر عن معناها مئة في المئة، وإنما يكون

(١) المصدر نفسه، ص ١٣١.

قريباً من المعنى وهذا الأمر قد يؤدي إلى عدم إيصال فكرة معينة بالأسلوب المناسب، كما هي الحال في اللغة الأجنبية، ما يسببُ غموضاً لا بل أكثر من ذلك تحويراً لمعنى هذه المصطلحات والمفردات والألفاظ، وهكذا لا يفهم التلاميذ المفاهيم كما هي بشكلٍ صحيح. أيضاً توجد مشكلة أخرى بعد حصول عملية التعريب، وهي عدم التمكن من استيعاب معنى هذه المفردات والمصطلحات، فهي كما كانت في اللغة الأجنبية أسهل إلى الأفهام وأوضح.

وقد لا تتم إصابة المعنى بشكلٍ كاملٍ. وعندما لا توجد الترجمة الحرفية لمصطلحاتٍ علمية، يُصار إلى كتابتها كما تلفظ في لغتها الأجنبية، ولكن هذا الأمر غير محبب لأنه يؤدي إلى إفقار اللغة العربية من الألفاظ التي يجب استعمالها بدلاً من هيمنة مصطلحاتٍ دخيلة على لغتنا العربية؛ وهذه المصطلحات الدخيلة تجعل لغة هذه الكتب ركيكة ضعيفة، غير متماسكة لناحية المضمون، وتؤدي إلى تعليم لغة غير اللغة العربية الفصحى التي يدركها الجميع.

إنّ نقل المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية يُشكل تحدياً كبيراً بالنسبة إلى من يقوم بعملية الترجمة وكذلك الأمر بالنسبة

إلى من يدقق فيها لغوياً. إنّ هذه المفردات والألفاظ يجب أن تترجم بصورة دقيقة وصحيحة وواضحة ومحددة. ولكن تبقى المعضلة في عدم ترجمة المصطلحات بشكلٍ صحيح.

لا يوجد معايير محددة تجري عملية الترجمة وفقاً لها، بل إنّها تخضع للاستنباط والرأي الشخصي: كل شخص يُترجم وفق ما يراه مناسباً، ولذلك قد يشوب هذه العملية بعض الأخطاء والنواقص، ما يؤدي أحياناً كثيرة إلى حالة من الغموض والالتباس.

تجدد الإشارة إلى أنّ محاولات عدة جرت عبر التاريخ من خلال مدارس للترجمة من أجل تعريب المفردات العلمية من اللغات الأجنبية منها: الشيخ عبد الله العلايلي، المجمع اللغوي في دمشق وجامع الأزهر في مصر. وإنّ حركة ترجمة المصطلحات العلمية وتعريبها من اللغتين الفرنسية والإنكليزية، نشطت في مطلع القرن التاسع عشر على يد علماء النهضة؛ وأيضاً مثلت حملة نابوليون على مصر بداية اطلاع العرب على منجزات أوروبا^(١).

بعض الكلمات الأجنبية لها ترجمة في اللغة العربية؛ على سبيل المثال: كلمة

(١) الزرکان، علي، محمّد: الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، ص ٢٠.

الإنكليزية إلى العربية، بالإضافة إلى استعمال مواقع إلكترونية على شبكة الإنترنت، وظيفتها القيام بعملية الترجمة، إلا أن هذه المواقع التي غالباً ما يتم الاعتماد عليها بشكل أساسي، لا تقدم الترجمة المطلوبة بشكل صحيح ودقيق.

الترجمة من لغة إلى أخرى لها أصول ومبادئ تحدّد معالمها، لا يمكن تجاهل هذه الأصول، يجب الالتزام بها. كما أن الترجمة من اللغة الإنكليزية أو الفرنسية إلى العربية ليست بالأمر السهل البسيط، بل هي على درجة عالية من الصعوبة وتحتاج إلى بذل جهود كبيرة ليُصار إلى مطابقة المعنى بين اللغتين.

أحياناً، يتم استخدام ألفاظ معينة بدلاً من أخرى بسبب التقارب الحاصل في المعاني، وهذا الأمر يؤدي إلى وقوع التباس كبير بسبب عدم إصابة المعنى وعدم وضوح الدلالة فيحصل غموض وإبهام، ما يؤدي إلى ضياع المعنى وعدم إيصال المعلومة بشكل صحيح ولا يفهم المعنى المراد منها كما يجب، بل يتم تلقي معلومات غير صحيحة وبأسلوب غير صائب وغير مناسب.

تعددت النظريات في هذا المجال، ولكن المهم هو أن تتم الاستعانة بالمراجع الموثوق من صحتها وصوابيتها والتي أعدّها كبار الأساتذة الجامعيين في حقل

«تلفزيون» تترجم «تلفاز»، «كومبيوتر» يُلفظ بالطريقة نفسها في العربية والإنكليزية وكما يمكن ترجمته بكلمة «حاسوب»، كلمة «unit» تترجم «وحدة» وهي من الكلمات التي لها مقابل في اللغة العربية.

ولكن بعضها الآخر ليس له ما يُوازيه في العربية، فيكتب بالعربية ولكن يُلفظ كما هو بلغته الأجنبية؛ ومن الكلمات الأجنبية أكانت فرنسية أم إنكليزية التي لا يوجد لها ما يُوازيها في العربية: ميوز - سيلولوز - كالسيت - غرافيت - أوكسجين - كيروسين - بورسلين - فولت - بريونات - فيرودات - البروتين - هيدرا - كلور - فوسفور - أمبير - ألومنيوم. أحياناً تتم ترجمة بعض الألفاظ العلمية بطريقة غير صحيحة، فتستعمل كلمات في غير موضعها المناسب وهذا ما يدخل ضمن أخطاء الترجمة وتحديداً هنا أقصد الأخطاء في التعريب وهذا الأمر يؤدي إلى عدم إصابة المعنى، لا بل بذلك يتغير معنى الكلمات والجمل ويلتبس ويصيبه الغموض.

عادةً تتم الاستعانة بوسائل عدة للقيام بعملية الترجمة، أهمها المكتسبات اللغوية عند كل مترجم ومخزونه اللغوي والثقافي، بالدرجة الأولى، ثم يتم استخدام معاجم لغوية ومتخصصة لنقل المفردات والمصطلحات من اللغة الفرنسية أو

- تفضيلُ الكلمات العربيّة الفصيحة على الكلمات المعرّبة وتفضيلُ الكلمات المفردة لسهولة الاشتقاق منها.

- تفضيلُ الكلمة الدقيقة على الكلمة العامّة، ومراعاة اتّفاق المصطلح العربيّ مع المفهوم العلميّ للمصطلح الأجنبيّ دون تقيّد بالدلالة اللفظيّة لهذا الأخير وتفضيلُ الكلمة التي يوحي جذرها بالمفهوم الأصليّ بوضوح في حالة المترادفات.

- مراعاة المصطلحات والدلالات العلميّة التي اتّفق عليها المختصّون، المترجمة وبخاصّة المعرّبة.

في التعريب، تتوجّب مراعاة ما يلي:

- تفضيلُ ما سهلَ نطقه في رسم الألفاظ المعرّبة عند اختلاف نطقها في اللغات الأجنبيّة والتغيير في بنية المصطلح المعرّب للحصول على صيغة مستساغة.

- ضبط المصطلحات عامّة وخصوصًا المعرّبة منها بالشكل، توخيًا لسلامة نطقها ودقّة دلالتها.

الاختصاص من البارعين المحترفين. لأنّه عندما يتمّ الاعتماد على شبكة الإنترنت، لا تُعرب الكلمات بالشكل الصحيح والمطلوب، بل بصورة غير دقيقة، هذا الأمر يؤدي إلى نشر مفاهيم ومبادئ ومعلومات غير صحيحة، وبالتالي تشييع معارف غير صحيحة وبعيدة كلّ البعد من الدقّة والموضوعيّة.

إذًا، وبهدف تعريب المفردات العلميّة تعريبًا صحيحًا ينبغي العمل على تطبيق النقاط الآتية:

- ضرورة وجود مناسبة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغويّ ومدلوله الاصطلاحيّ، ولا يُشترط أن يُغطي المصطلح كلّ جوانب المصطلح العلميّ.

- وضع مصطلح واحد للمفهوم العلميّ الواحد في الحقل الواحد وتجنّب تعدّد الدلالات للمصطلح الواحد. ويُفضّل اللفظ المختصّ على اللفظ المشترك.

- إحياء استعمال ما صلح من مصطلحات في التراث العربيّ وإشراك المختصّين ومستعملي المصطلحات في وضعها.

اللغة وأثرها في تعزيز القيم الإنسانية في العصر العباسي

أ. جابر علي جابر

بالتوازن بين العرب وبقية الأمم، بُني على أساس الاطلاع على تجارب وعلوم الأمم السالفة، التي طوّعت هذه العلوم لخدمة الإنسان. وقد خلق هذا التبادل الفكري والثقافي، المبني على اللغة، أوامر متينة وروابط صحيحة بين العرب المسلمين من جهة، وغير المسلمين من المترجمين من جهة أخرى أيًا كانت ديانتهم أو قومياتهم، مما أسهم إسهامًا مباشرًا في تعزيز وتقوية التعايش والتسامح الديني وجعل المجتمع أكثر انسجامًا فقد مارس أهل الذمة^(١) نشاطهم الثقافي والعلمي بحرية تامة دون أية عراقيل أو عقبات أو اعتراضات وكانت غالبية المؤلفات والمصنفات التي ترجموها تعبر عن أصول وعقائد أديانهم، كما قاموا بتعليم أبنائهم في كنائسهم وأديرتهم، بل إن بعضهم تتلمذ على أيدي معلمين

إنّ اللغة كان لها أبلغ الأثر في شيوع وسيادة القيم الإنسانية خلال العصر العباسي، لما كان لها من أثر بارز في تعزيز العوامل الثقافية والحضارية من ناحية، ولما وضعه خلفاء بني العباس من معايير مادية ومعنوية لمن يقدم - من غير المسلمين - إلى الأمة فكرًا مؤسسًا له أو منقولاً عن الأمم الأخرى إلى الدولة العباسية. وهذا الفكر المنقول لم يكن له سبيل علمي حقيقي إلا اللغة على مختلف أنواعها. وقد هدف العلماء والمفكرون من غير المسلمين، في علومهم إلى ما يخدم الإنسان بشكل عام، فنقلوا علوم الأمم الأخرى من خلال ترجمتها إلى اللغة العربية، فضلاً عن ترجمة الفكر العربي، والعلوم العربية من لغتها الأم إلى اللغات الأخرى، فكان هنالك ثقافتان تتصاف

(١) الذي هو غير المسلم الذي يقيم في الدولة الإسلامية معدوداً من رعاياها، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، فله حق ممارسة شعائره، ومعتقداته في ظل الدولة العربية الإسلامية.

مسلمين، وتتلذذ عدد من أبناء المسلمين على أيدي معلمين منهم، ولاسيما في المجالات التي برزوا وبرعوا فيها، وهذا يدل على مساحة الحرية الواسعة التي عاشوها وحجم الأمان الذي تمتعوا به ووافر العدل الذي نعموا به.

وسيكون مدار الحديث في هذا البحث حول قيمتين أساسيتين من قيم التعامل الإنساني: العيش المشترك والتسامح.

العيش في اللغة والاصطلاح

العيش لغة

وردت مفردة العيش في المعاجم العربية بفتح العين: العيش^(١): الحياة والمعيشة التي يعيش بها الإنسان من المطعم والمشرب، وتعایش القوم بالألفة والمحبة أو المودة: عاشوا مجتمعين على الألفة والمودة^(٢) وعاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشة وعيشة ومعيشاً، العيش

والمشرب، والعيشة: ضرب من العيش، يقال: عاش عيشة صدقٍ، وعيشة سوء^(٣).

وفي لسان العرب^(٤)، وردت مفردة العيش أيضاً بفتح العين وسكون الشين، وتعني عاش - عيشاً، وعيشة ومعاشاً، ومعيشاً، ومعيشة، وعيشوشة، أي صار ذا حياة، عيش، وأعاش - أعاشه، جعله يعيش، وعایشه بمعنى عاش معه وتعيش: سعى وراء أسباب المعيشة، وتعایش القوم بالألفة والمودة.

العيش اصطلاحاً

لا بد من القول إن العيش يحمل مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية تهدف جميعها إلى إيجاد بيئة ملائمة لإسعاد المجتمع البشري، وفي هذا السياق قال ابن خلدون^(٥): «إن الاجتماع الإنساني ضروري»، ومن أسس التعايش الإنساني هو التعارف، فالتعارف هو السبيل لكسر

- (١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت: ١٧٠هـ/ ٧٩٠م)، كتاب العين، تح: د. عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، د.ت)، ٢/ ٢٦١.
- (٢) الهنائي، علي بن حسن الملقب: كراع النمل، (ت: ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، المنجد في اللغة، دار المشرق، ط ٣٧، (بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٥٤٠.
- (٣) الأزهرى، ابو منصور محمد بن أحمد، (ت: ٣٧٠هـ/ ٩٨٥م)، تهذيب اللغة، تح: د. أحمد عبد الرحمن مخيمر، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ٢/ ٢٦٩-٢٧٠.
- (٤) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت: ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، ط ٣، (بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) ٨/ ٥٤٠.
- (٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، المقدمة، دار القلم، (بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص ٤١.

ورجل مِسْمَاحٌ، أي جَوَادٌ^(٤) وتقول العرب: عليك بالحق (فان فيه لمسما - كمسكن - أي متسعاً) و(السماح رَبَاحٌ)، أي المساهلة في الاشياء تربح صاحبها. والسماح السماحة - الجود، وسمح به: أي جاد به، وسمح لي: اعطاني والمسامحة: المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا^(٥). فالتسامح كلمة رقيقة لا يعرف معناها الا صاحب العقل الناضج، هي كلمة بسيطة لكن معناها جميل ومكانتها أسمى عندما تتحول إلى قيمة إنسانية تُبنى عليها قواعد أساسية في التعامل والعيش المشترك.

التسامح اصطلاحاً

عُرِّفَ التسامح على أنه تصرف وتصور ورؤية فكرية أزاء العقائد والممارسات المختلفة وليس المتوافقة^(٦)، وقد وردت معانٍ عدّة واصطلاحات للتسامح، كلٌّ يعطيها تعريفاً حسب وجهة نظره:

١ - احتمال المرء بلا اعتراض، ولا اعتداء

الجهل المتبادل وتعميق التآلف الاجتماعي البشري^(١)، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢)، ان هذه الآية ألغت تماماً التفاخر بالأنساب، لا لكرامة بعضكم على بعض، بل لكي تتعارفوا ويتمّ أمر اجتماعكم.

إذن، العيش المشترك أو التعايش: هو مبدأ لتقبّل الآخر ضمن أجواء تتعدد فيها الثقافات والديانات، ضمن مجتمع واحد^(٣).

التسامح في اللغة والاصطلاح

التسامح لغة:

أصل كلمة التسامح في اللغة العربية يعود إلى فعل ثلاثي أو مادة (سمح)، سَمَحَ: رجلٌ سَمَحٌ، ورجالٌ سُمَحَاءٌ، وقد سَمَحَ سَمَاحَةً، جاد بماله وسمح لي بذلك يَسْمُحُ سَمَاحَةً وهو الموافقة فيما طلب. والتَّسْمِيحُ: الشرعة، ورُمحٌ مُسْمَحٌ: تُقْفُ حتى لان،

(١) المحمداوي، د. علي عبود، خطاب الهويات الحضارية من الصدام إلى التسامح، دار ابن النديم، (وهران، د.ت)، ص ١١٧-١١٨.

(٢) سورة الحجرات، الآية/ ١٣.

(٣) الخطيب، عمر عودة، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم الاجتماعية، دار العلم للملايين، (بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ١٨٥.

(٤) الفراهيدي، كتاب العين، ٢/ ٢٧٢.

(٥) الجوهري، الصحاح في اللغة، ١/ ٥٥٤؛ محمد مرتضى الحسيني (ت: ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس، (بيروت، د.ت)، ١/ ٤٨٦.

(٦) مليكان، مصطفى، التسامح وجذور اللاتسامح، مركز دراسات فلسفة الدين، (بغداد، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م)، ص ٨١.

الرأي هي مشكلة تعاني منها البشرية، وقد تتطور هذه المشكلة لتصبح في نهاية الأمر بابًا مفتوحًا للصراع؛ وذلك أن أغلب الصراعات والصدام بين الحضارات والأديان سببه الاختلاف والتقاطع في الرأي، والجدال الذي يفضي في نهاية الأمر إلى النزاع ثم الحرب.

القيم الإنسانية:

القيم من المفاهيم الجوهرية في جميع مجالات العلوم، وهي ذات صلة بالعلاقات الإنسانية بكافة صورها، وذلك لأنها ضرورة اجتماعية، ولأنها معايير وأهداف لا بد أن نجدها في كل مجتمع منظم سواء أكان متأخرًا أو متقدمًا، وهي تتغلغل في الأفراد في شكل اتجاهات ودوافع وتطلعات، وتظهر في السلوك الظاهري والشعوري واللاشعوري، وفي المواقف التي تتطلب ارتباط هؤلاء الأفراد، وتعبّر القيم عن نفسها في قوانين^(٦). والقيمة لغة: واحدة القيم، فعلها «يقوم»

على حقوقه الدقيقة بالرغم من قدرته على دفعه^(١).

٢ - عُرّف على أنه: استعداد عقلي أو قاعدة سلوكية قوامها ترك حرية التعبير عن الرأي لكل فرد حتى وإن كنا لا نشاطره رأيه^(٢).

٣ - والمعنى الآخر هو: احترام ودي لآراء الآخر، وذلك باعتبارها مساهمة في الحقيقة الشاملة^(٣).

٤ - وعرف التسامح كذلك على أنه: موقف من يقبل لدى الآخرين وجود طرق تفكير وطرق حياة مختلفة عما لديه، فيصبح مبدأ التسامح مبدأً توافقيًا، ويكون الغرض منه ليس الأخذ بالممنوعات بل الوصول إلى التوافقات^(٤).

٥ - وتعريف آخر أن تترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه وإن كانت مضادة لآرائك^(٥). ويبدو أن هذا التعريف - على الرغم من إيجازه - هو أكثر شمولية، فمشكلة التعبير عن

(١) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، (قم، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ١/ ٢٧١.

(٢) لالاند، اندريه، (ت: ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م)، الموسوعة الفلسفية، ٣/ ١٤٦٠.

(٣) المرجع نفسه، ٣/ ١٤٦١.

(٤) علي، عاطف، التسامح والثقافات، مجلة التسامح، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ع٥، (عمان،

١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م)، ص ٣٠٠.

(٥) صليبا، المعجم الفلسفي، ص ٢٧٢.

(٦) دياب، فوزية، القيم والعادات الاجتماعية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٦٦م)، ص ١٦.

وماضيها «قوم»، وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء. فالقيمة ثمن الشيء بالتقويم. تقول تقاوموه فيما بينهم^(١). وما له قيمة إذا لم يدُم على شيء^(٢).

أمّا المفهوم الاصطلاحي للقيم، فليس من السهل أن تحيط به من جميع أطرافه إذ يختلف باختلاف العلم الذي ينسب إليه.

فالقيم هي مجموعة من الأحكام المعيارية المتصلة بمضامين واقعية يتشربها الفرد من خلال انفعاله مع المواقف والخبرات المختلفة ويشترط أن تنال هذه الأحكام قبولاً من جماعة اجتماعية معينة حتى تتجسد في سياقات الفرد السلوكية أو اللفظية أو اتجاهاته واهتماماته^(٣).

والقيم محطات ومقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال والموضوعات والمواقف الفردية والجماعية من حيث حسنها وقيمتها والرغبة بها، أو من حيث سوءها وعدم قيمتها وكراهيتها، أو في منزلة معينة بين هذين الحدين^(٤).

والقيم معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية وعامة، تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة، ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية ويقوم فيها موازين يبرر فيها أفعاله ويتخذها هادياً ومرشداً، وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد، فتحدّد لكلّ منهم خلّانه وأصحابه وأعداءه^(٥).

نستطيع أن نصل إلى خلاصة في تعريف القيم على ضوء تعريفات كثيرة:

القيم هي مجموعة المبادئ والتعاليم والمعتقدات والقناعات والضوابط الأخلاقية التي تحدّد سلوك الفرد، ونظرته إلى أيّ موضوع سيكولوجي: إنسان، حدث، سلوك، وترسم له الطريق السليم الذي يقوده إلى أداء واجباته الحياتية ودوره في المجتمع الذي يعيش فيه وينتمي إليه. وهي إلى جانب ذلك السّياج المنيع الذي يحميه من الوقوع في الذنب وتحوّل بينه وبين ارتكاب أيّ عمل يخالف ضميره، أو يتنافى مع مبادئه وأخلاقه وتجعله قادراً على اتّخاذ

(١) ابن المنظور، لسان العرب ٢٢١/١٢. والجوهري: الصحاح في اللغة، ١٠١/٢، مادة قوم.

(٢) الفيروز أبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ/١٤١٣م)، القاموس المحيط، تحمكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان الطبعة الثامنة (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، باب الميم فصل القاف، ص ١١٥٢.

(٣) زاهر، ضياء، القيم العملية التربوية، مركز الكتاب والنشر، (القاهرة - ١٩٦٦م)، ص ٢٤.

(٤) الكيلاني، ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية، مكتبة هادي، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٢٩٩.

(٥) السيد، فؤاد البهي، علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، (القاهرة، ١٩٥٤م)، ص ٢٩٤.

موقف سلوكي تجاه هذه المواضيع
السيكولوجية: القبول، الرفض، اللامبالاة،
التعاطف، التحامل...

إذا أُضيفت الإنسانية إلى القيم ونُسبت
إليها ووصفت بها يمكننا صوغ التعريف
الآتي:

القيم الإنسانية هي مجمل المواقف
والميول والنزعات التي ترفع من شأن
الإنسان، وترقى به إلى السمو بأخلاقه
وتصرفاته، وتجعله في نظر غيره محمود
الخصال، ممدوح الفعال. وكلما كان الإنسان
شديد الاتصاف بهذه القيم، كلما اكتسب
هذا الإنسان أبعاداً فكرية وأخلاقية وعقلية
سامية تحده به للتمييز عن سائر
المخلوقات فهماً ووجداناً، خلقاً وأداءً.

**أثر اللغة العربية في تعزيز العيش المشترك
والتسامح الديني بين المسلمين وغير
المسلمين**

أثرت حركة الفتح العربي الإسلامي
للعراق وبلاد فارس والشام ومصر تأثيراً
كبيراً في حياة المجتمع العربي الإسلامي؛

لأن التوسع الإسلامي بمظاهره العسكرية
والبشرية والفكرية، أحدث احتكاكاً ثقافياً،
وحركة علمية كبرى نابعة من الإسلام،
فأقبل سكان البلاد المفتوحة على دراسة
مصادر الشريعة الإسلامية: القرآن،
الحديث، الفقه، وبرز فيهم الكثير من العلماء
الذين أصبح لهم أثر كبير في نشر الثقافة
العربية والحركة الفكرية^(١).

تميّز العصر العباسي باختلاط كبير بين
العرب وسكان البلاد المفتوحة، واستطاع
الخلفاء العباسيون بسياساتهم المتسامحة
المنفتحة أن يحدثوا امتزاجاً قوياً بالعناصر
والأقوام والشعوب والجماعات المختلفة^(٢)،
وهذا الامتزاج لم يبلغوه بامتلاك الأراضي
الجديدة، بل بلغوه باحترام الاختلاف
 والتنوع والتعدد الديني والفكري والثقافي
والاجتماعي الذي تميزت به تلك
المجتمعات^(٣).

وفي ظل التسامح الفكري، ظل كثير من
اللغات الأصلية متداولة حتى في أكثر
البيئات عروبة مثل: (العراق، وبلاد الشام)،

(١) ابن النديم، محمد بن إسحق (ت: ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)، الفهرست، مكتبة الانجلو، (القاهرة، ١٣٤٨هـ)، ص ٩٩-١٠٠؛ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت: ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، (بيروت، د.ت)، ص ٣٣.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٥١-٥٢؛ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، (ت: ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، تاريخ بغداد، تح: الدكتور بشار عواد معروف، دار العرب الإسلامي، (القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ٩٥/٤.

(٣) ابن الفظطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (ت: ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء)، مكتبة المثنى، (بغداد، د.ت)، ص ٢٢١-٢٢٣.

ونقصد بها الآرامية أو السريانية، فضلاً عن الفارسية والتركية واليونانية وغيرها^(١).

وبذلك امتزجت الثقافة العربية الإسلامية بثقافات أمم كثيرة، فتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة، وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية والطبية، كل ذلك تمّ عبر احتكاك اللغة العربية بغيرها من اللغات.

وسنشير إلى أبرز لغتين كانتا سائدتين في ذلك العصر:

اللغة العربية:

لا يخفى على ذي لب، ما للغة العربية من أهمية عظمى، كونها لغة القرآن^(٢) الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا يصح ان يقرأ المسلم القرآن الكريم إلا باللغة العربية، من قول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ

عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾^(٤)، وتعدّ قراءة القرآن الكريم ركن من أركان الصلاة، التي هي ركن من أركان الإسلام، وهي لغة أهل الجنة كما ورد في الحديث الشريف، قال رسول الله (ص): (أحبُّوا العرب لثلاث: لأنّي عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي)^(٥).

ومن هذا المنطلق نجد الثعالبي^(٦)، يعبر عن هذه اللغة أبلغ تعبير فيقول في مقدمة كتابه فقه اللغة وسرّ العربية: «... ومن أحبّ الرسول العربي (ص) أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ العربية، ومن أحبّ العربية عُني بها وثابر عليها، وصرف همته إليها...».

ومن هنا اكتسبت اللغة العربية القداسة النورانية والخلود السرمدية، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٧)، فيحفظ الله تعالى كتابه بحفظ اللغة العربية، فهي باقية ببقائه إلى يوم الدين، فضلاً عن كونها كانت وما زالت وسيلة من وسائل التعايش بين المسلمين وغيرهم، فضلاً عن

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٥؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٧، ٣٢٩.

(٢) الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، (بيروت، ١٩٩٥م)، ص ٥٠.

(٣) سورة الزخرف، الآية / ٣.

(٤) سورة الشعراء، الآيات / ١٩٣-١٩٥.

(٥) الهيثمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي (ت: ٩٧٤هـ/١٥٦٧م)، مبلغ الإرب في فخر العرب، تح: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، (القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ٢٠.

(٦) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت: ٢٤٩هـ/١٠٣٧م)، فقه اللغة وسرّ العربية، تح:

عبد الرزاق المهدي، احياء التراث العربي، (بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ص ١.

(٧) سورة الحجر، الآية: ٩.

كونها لغة الشعر العربي والحضارة العربية الإسلامية. فاللغة العربية - ذاتها - لغة حية^(١) أدت رسالتها في الحياة خير أداء، وعبرّت في عصورها الأولى عن حاجات المجتمعات التي تتخذها لغة لها، تعبر عن مطالبها وآمالها وعلومها وآدابها وفنونها^(٢)، وما زالت مستعدة للتعبير عن الحياة، وما جدّ فيها، ومستعدة أن تتسع أكثر من ذي قبل لكل جديد مبتكر ومخترع حديث، وهي من أغنى لغات البشر ثروة لغوية، لذا فقد أقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم اللغة العربية^(٣)، ودراسة آدابها، وأخذوا يصوغون أفكارهم وعلومهم وآدابهم بما ينسجم والدين الإسلامي

والتقاليد العربية، فأصبحت العربية اللغة السياسية والثقافية السائدة^(٤)، وقد أدى انتشارها إلى الشعور بالانسجام والتجانس بين أبناء الأمم المفتوحة رغم اختلاف قومياتهم وأديانهم، فوحدت اللغة العربية انتماءهم وشعورهم وأهدافهم، وكان لها أثر في إقبال الكثير من غير المسلمين على الدخول في الإسلام^(٥). لم يكن إقبال غير العرب على تعلّم العربية وترك لغتهم الأصلية بالإكراه والإجبار وإنما كما قال المستشرق بارتولد^(٦): «إن غلبة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة، وإنّ تسامح العرب أدّى إلى انتشار العربية»، فدرس حنين بن اسحق^(٧) اللغة العربية

(١) علي، عبد الرحمن عبد الحميد، الأدب العربي (العصر الإسلامي والأموي)، دار الكتاب الحديث، (القاهرة، ٢٠٠٥م)، ص ٢٤.

(٢) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة: حسين مؤنس، دار الهلال، (القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م)، ص ٢١٠.

(٣) ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ٣، (بيروت، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م)، ١/ ١٣٣؛ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط ١٦، (بيروت، ٢٠٠٥م)، ١/ ٢٣.

(٤) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٤٤.

(٥) ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين بن الفلاح (ت ١٠٨٩هـ - ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمد الأرنؤوط، دار ابن كثير، (دمشق - ١٩٨٦م)، ٢/ ٩٢؛ ديمومبين، موريس غودفروا، النظم الإسلامية، ترجمة: فيصل السامر وصالح الشماع، (بغداد، ١٩٥٢م)، ص ١٢.

(٦) بارتولد، فاسيلي فلاديميروفيتش، الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف، ط ٣، (القاهرة، د.ت)، ص ٣٠.

(٧) أبو زيد حنين بن اسحق العبادي، نسبة إلى العباد: وهم من أهل الحيرة، الطبيب المشهور، عرف لغة اليونانيين معرفة تامة، وتعلم العربية وآدابها عندما ذهب إلى البصرة، ودرس هناك على تلاميذ الفراهيدي وسيبويه كان له الفضل في إدخال كتاب العين للفراهيدي إلى بغداد، سافر إلى جنديسابور لدراسة الطب، والى بلاد الشام والإسكندرية لتعلّم

حتى أصبح حجة فيها^(١).

والصابئة وأهم ما برزوا فيه: الترجمة من اليونانية والسريانية والهندية إلى العربية، فضلاً عن ترجمة الموروث الفارسي إلى العربية^(٤)، واستفاد اليهود من العلوم العربية التي كانت سائدة في الدولة العربية الإسلامية، فترجموا بعضاً من المؤلفات العربية إلى العبرية، واتقن بعضهم اللغة العربية وآدابها، واهتموا بقواعد النحو^(٥)، لكن اليهود كانوا أقلهم تأثيراً في الحضارة وتأثراً بها، كما قال المستشرق ديورانت^(٦): «ولم يكن لليهود القابلية الفكرية والعلمية على الإبداع الفكري...».

يبدو أن بروز هؤلاء اليهود في بعض الميادين يعود إلى إطلاعهم على الحضارة العربية الإسلامية ودراستها، فاستقوا من

وبعد أن قطع الموالي^(٢) وأهل الذمة مرحلة كبيرة في تعلم اللغة العربية وآدابها، وأخذوا ينقلون إليها علومهم، استطاعوا بذلك إضافة علومهم وأفكارهم إلى ذخيرة العرب المسلمين، فتكونت من مزيج تلك الحضارات حضارة مطبوعة بالطابع العربي والأسلوب العربي، وأخذت تنمو وتزدهر منذ العصور الإسلامية الأولى (الراشدي والأموي)^(٣) وآتت ثمارها في العصر العباسي، وهذا ما أسهم في إشاعة روح التعايش والتسامح الديني الذي أغدقه العرب المسلمون على من عاش معهم من أصحاب الديانات والملل المختلفة، فنبتت منهم عناصر من اليهود والنصارى

اللغات، بلغت مؤلفاته (٢٥٠) كتاباً في مختلف صنوف المعرفة توفي سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م. لمزيد من التفاصيل ينظر: صاعد الأندلسي، صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد الثعلبي (ت: ٤٦٢هـ/١٠٧٠م)، طبقات الأمم، دار الطليعة، (بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٣٦؛ القفطي، اخبار العلماء، ص ١٧١؛ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ١٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، احسان عباس، دار صادر، (بيروت، د.ت)، ٢/٢١٧.

(١) ابن أبي اصبيعة، عيون الانباء، ص ١٨٥.

(٢) هم المسلمون من غير العرب، ومعظمهم من الفرس والأتراك، ومفردها الموالي: مولى وتعني في اللغة: الرب، والمالك، وتعني أيضاً العصبية والناصر، والحليف، وما انضم إليك فعزك والمولى المعتق، ابن منظور، لسان العرب، ٤/٥؛ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت: ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، تاج العروس، (بيروت، د.ت)، ٦/٢٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(٤) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٥) زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، (القاهرة، د.ت)، ٢/١١٤؛ غنيمه يوسف رزق الله، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، دار الوراق، ط ٢، (لندن، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ١٦٧.

(٦) ديورانت، ول وايريل، موسوعة قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار نوبليس، (بيروت، ٢٠٠٨م)، ١٤/١٣٦.

وأثر النجوم على مستقبل الإنسان أيضًا، وقد علموا الطلاسم والسحر والكهانة والتنجيم والتقويم^(٥).

ولما اتصل الصابئة بالخلافة العباسية، صار لهم شأن كبير في نقل هذه العلوم إلى العربية، ولعل ازدهار الحضارة وتطور العلوم في العصرين الأموي والعباسي، يعود إلى رغبة المسلمين في الاطلاع على علوم الأمم الأخرى ومعارفهم^(٦).

إنَّ إقبال أهل الذمة بأعداد كبيرة على الدخول في الإسلام، ساعد كثيرًا على انتشار اللغة العربية بينهم، بهدف إتقان القرآن الكريم وفرائض الإسلام، واقتضت الحاجة بالنسبة لهم إلى تنقيط الحروف العربية، وإلى معرفة قواعد اللغة العربية، وهو ما اصطلح على تسميته فيما بعد بـ: علم النحو^(٧).

مناهلها المختلفة، ولم يتم ذلك إلا عن طريق تعايش المسلمين معهم، وكان لإشاعة التسامح الديني الذي استمده العرب المسلمون من تعاليم القرآن والسنة النبوية أثره في حسن معاملة أهل الملل الأخرى^(١). فالنصارى في العراق، مثلاً، قد نَعِمُوا بعد الفتح الإسلامي بالحرية الدينية، ولما كان أغلبهم عربًا، فقد التفوا حول المسلمين، وأقبلوا على العناية باللغة العربية وآدابها، وأخذوا ينقلون من السريانية إلى العربية^(٢)، وقد برز الصابئة في علم الفلك، والتنجيم^(٣)، وعدوه عنصرًا مهمًا من العناصر التي يعتمد عليها دينهم ومستقبلهم، فهم يعتقدون أن كل كوكب يحكم في يوم من الأيام، ويتحكم ملائكة معنيون بالأيام، ومن هنا كانت لهم صفات فلكية^(٤). إن اهتمام الصابئة بدراسة الفلك والتنجيم، يعود إلى اعتقادهم بالتنبؤات

(١) الشافعي، محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م)، اختلاف الحديث، تح: عامر أحمد، (بيروت، ١٩٨٥م)، ص ٥١٠.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٤؛ اليوزبكي، توفيق سلطان، تاريخ أهل الذمة في العراق، دار العلوم للطباعة والنشر، (الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ٣٨٢؛ ارنولد، سير توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، (القاهرة، ١٩٧١م)، ص ٧٠.

(٣) دراوور، الليدي، الصابئون المندائيون، دار صادر، (بيروت، ١٣٦٥هـ/ ١٩٦٤م)، ص ١٣٣-١٣٥؛ خالد، عقيد، وأحمد، ويحيى، الصابئة المندائيون وعقائدهم، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص ٢٥.

(٤) ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/ ٥٠، ٣/ ٢١٠.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ٢/ ٥٠.

(٦) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٣٧؛ سيديو، ل. أ.، تاريخ العرب العام، ترجمة: عادل زغير، نشر البابي الحلبي، (القاهرة، ١٩٤٨م)، ص ٣٨٣-٣٨٥.

(٧) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، المقدمة، دار القلم، (بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص ٤٥٤-٤٥٥؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٦-٢٧.

ورسم الحرف، وأنواع الخطوط، فضلاً عن تعليم الأمثال والحكم، وقواعد اللغة وأدائها^(٥).

اللغة السريانية

لغة سامية مشتقة من اللغة الآرامية، وتُعد تطوراً طبيعياً لها، موحدتين بين اللغتين^(٦).

نشأت اللغة الآرامية، وهي أصل اللغة السريانية في الألف الأول قبل الميلاد، لتكون ضمن عائلة اللغات السامية^(٧)، وأصبحت من القرن السادس قبل الميلاد لغة التخاطب الوحيدة في الهلال الخصيب إلى ما بعد الميلاد، إذ تحورت تدريجياً واكتسبت أسمها الجديد (اللغة السريانية)

كان على سكان البلاد المفتوحة أن يتعلموا العربية وأن يقرأوا ويكتبوا بها ليستفيدوا منها في دينهم وديانهم، حتى أنهم تعلموا النحو لإصلاح لغتهم^(١)، وأقبلوا على تعلّمها فعلاً ونقلوا إليها علومهم وحتى كتبهم المقدسة كالتوراة والإنجيل والزبور^(٢)؛ وذلك لإظهار تراثهم الحضاري والثقافي للفاتحين نتيجة شعورهم برغبة المسلمين للاطلاع على علوم ومعارف الأمم الأخرى^(٣). والأبلغ من ذلك، كانت اللغة العربية تدرس في الأديرة^(٤)؛ لأنها من اللغات الأساسية، ولم يكن تعليمها مقتصرًا على القراءة والكتابة، بل كان يُعلّم إلى جانبها أصول الكتابة،

- (١) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن بن محمد بن أحمد (ت: ٣٥٦هـ/٩٦٦م)، الأغاني، دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١)، ١٧٦/٥؛ أحمد أمين، فجر الإسلام، (الحياة العقلية)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، ١٣٥٩هـ/١٩٤١م)، ص ١٧٥.
- (٢) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت: ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، التنبيه والاشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، (القاهرة، د.ت)، ص ٩٨-٩٩؛ ماجد، عبد المنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، (القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م)، ص ١٥٧.
- (٣) الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم الأدياء المسمى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ٤٨٣/٢؛ اليوزبكي، تاريخ أهل الذمة في العراق، ص ٣٨٢.
- (٤) دي، طرازي، خزائن الكتب، دار الفكر، (بيروت، د.ت)، ص ٥١٢؛ اسحق، روفائيل بابو، مدارس العراق في العصر العباسي، دار الحرية للطباعة، ط ٢، (بغداد، ١٩٧٣م)، ص ٣٧؛ ينظر: لويون، حضارة العرب، ص ٢٧.
- (٥) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، ط ٤ (د، م ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ٢٩٨/٨.
- (٦) الأصفهاني، الأغاني، ١٧٨/٥؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٣٢؛ داوود، المطران إقيليمس يوسف، اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية، مطابع الآباء (دمشق، ١٩٩٦م)، ص ٩.
- (٧) د. هبو، تدريس اللغة السريانية ضروري للمهتمين بالدراسة الأدبية المقارنة، بحث ضمن كتاب اللغة السريانية وسيط لنقل التراث الأدبي القديم، صحيفة الفداء، مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، محافظة حماه، ٢٩ ت ٢٠١٠م.

في القرن الرابع الميلادي تزامناً مع انتشار المسيحية في بلاد الشام^(١).

تعد السريانية، اللغة الأم لطوائف السريان والكلدان في العراق وسوريا خاصة، إذ أضحت من أهم العوامل التي تجمعهم، فضلاً عن أن هناك اتصال دائم بين اللغة السريانية واللغة العربية^(٢).

اكتسبت اللغة السريانية، أهمية دينية خاصة في المسيحية، أولاً لأن يسوع المسيح (ص)، قد تكلم بالآرامية، التي تعد بمثابة اللغة الأم للسريانية^(٣) - كما أسلفنا- وثانياً لأن العديد من كتابات آباء الكنيسة، والتراث المسيحي قد حُفظ بالسريانية إلى جانب اللغة اليونانية، وأشار السيوطي^(٤)، إلى أن السريانية هي لغة أهل

القبور، الذي فسّر سبب ذلك بكون السريانية لغة الأرواح والملائكة، في حين أشار ابن أبي شيبة^(٥)، إلى أن السريانية هي لغة يوم القيامة، على أن يتكلم داخلو الجنة لاحقاً العربية، وفي ذلك أشار ابن كثير^(٦) عن سفيان الثوري، قال: « لم ينزل وحى إلا بالعربية، ثم يترجم كل نبي لقومه بالسريانية واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية»، أما الإمام ابن حنبل^(٧)، فقد ذكر أن السريانية كانت لغة النبي آدم (ص)، والنبي نوح (ص).

كانت اللغة السريانية ردحاً طويلاً من الزمن لغة العلوم والفنون والآداب، لاسيما في مدينة الرها^(٨) (أورفة حالياً في تركيا)، والتي نشأت فيها، أولى المدارس السريانية.

(١) داوود، اللمة الشهية في نحو اللغة السريانية، ص ١٧.

(٢) بشور، وديع، سوريا صنع دولة وولادة امة، دار اليازجي، (دمشق، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م)، ص ١٣٤.

(٣) داوود، اللمة الشهية في نحو اللغة السريانية، ص ٢٠.

(٤) وقال الحافظ السيوطي في منظومته: ومن غريب ما ترى العينان ان سؤال القبر بالسريان ينظر: السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م)، ٣١/٦.

(٥) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد(ت: ٢٣٥هـ / ٨٤٩م)، المصنف في الأحاديث والآثار، تح: اسامة بن إبراهيم بن محمد، المكتبة الوقفية، (د. م، ٢٠٠٢م)، ٤٧٤/١.

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ط ٢، (الرياض، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)، ١٥/٨.

(٧) ابن حنبل، الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد الشيباني(ت: ٢٤١هـ / ٨٥٥م)، العلل ومعرفة الرجال، المكتب الإسلامي، (بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٨م)، ص ٥٨٢٢.

(٨) الرها: مدينة سريانية تاريخية في الجزيرة الفراتية بين الموصل والشام ستة فراسخ، عرفت لاحقاً في العصور الكلاسيكية ب: اسمها بالرومية: أذاسا أهلها يتحدثون اللهجة السريانية من اللغة الآرامية، ضمت إلى الإمبراطورية الرومانية سنة ٢١٢م، ثم أصبحت بعد انتشار المسيحية فيها مركزاً دينياً وثقافياً مهماً للمسيحية والسريانية، تعاقب عليها البيزنطيون والفرس الساسانيون قبل أن يدخلها المسلمون صلحاً بقيادة عياض بن غنم سنة ١٧هـ / ٦٣٨م، وقال قوم: انها سميت ب: الرها بن الروم بن لفظي بن سام بن نوع . ينظر: الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي(ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، ط ٢، (بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٥٥م)، ٣/١٠٥-١٠٦.

وتقسم إلى لهجتين متقاربتين، الأولى: السريانية الغربية نسبة إلى لغة أهالي غرب نهر الفرات، والثانية هي السريانية الشرقية، نسبة إلى لغة أهالي شرق نهر الفرات.

تكتب اللغة السريانية بالأبجدية السريانية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً تُجمع في خمس كلمات: أبجد، هوز حطي، كلمن، سعفص، قرشت^(١). واللغة السريانية تكتب من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى الصفحة إلى أسفلها، مثلها مثل كل اللغات السامية. والجدير بالذكر، أن العربية، والعبرية، والسريانية من أصل واحد، والفروق بينها ناجمة عن التطور الطبيعي للمجموعات بحسب مناطق انتشارها، وبخصوص ذلك قال ابن حزم الأندلسي^(٢): «إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً، أن السريانية والعبرانية والعربية، التي هي لغة مضر لا لغة حمير، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها».

التفاعل الحضاري بين اللغة العربية والسريانية

لابدّ لنا بعد تقديم هذه النبذة القصيرة عن اللغتين العربية والسريانية، أن نتطرق إلى التفاعل بين هاتين اللغتين، الذي أدى بالتالي إلى تفاعل بين الحضارتين: الحضارة العربية الإسلامية، والحضارة السريانية، وليس إحلال لغة وثقافة مكان أخرى.

ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وتوجهت جيوشه إلى تحرير البلاد المجاورة، ونشر الإسلام فيها، فسانده المسيحيون العرب، إذ فتحوا أبواب المدن بذاتها مهللين للفتاحين^(٣)، لتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة من التفاعل بين الحضارتين العربية والسريانية، ومن ثم بين اللغتين، ومما ساعد على نضوج هذا التفاعل وبروزه بشكل فعال، معاملة المسلمين لهم بالحسنى، فضلاً عن الحرية الدينية التي أتاحتها لهم الدين الإسلامي بتعاليمه السمحاء^(٤)، مما جعلهم يتغلغلون في

(١) داوود، يوسف، اللعنة الشهية في نحو اللغة السريانية، ص ١٧؛ اللغة السريانية لغة ثقافة وحضارة، قناة عشتار الفضائية ٢٩ ت سنة ٢٠١٠، ويذكر في هذا الخصوص أن اللغة العربية كانت تستخدم الترتيب ذاته، قبل أن يقوم نصر بن حارث الليثي بترتيبها المعمول به اليوم.

(٢) الأحكام في أصول الأحكام، تح: أحمد محمد شاكر، دار الأفاق الجديدة، (بيروت، ١٩٨٠م)، ٣٠/١.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك، تح: عبد، علي مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٢، (بيروت، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، ١٤٧/٢-١٥٠؛ بشور، سوريا صنع دولة، ص ١١٤-١٢٠.

(٤) ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن اسحق بن إبراهيم (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م)، بغداد مدينة السلام، تح: صالح أحمد العلي، دار الطليعة، (بغداد، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م)، ص ٦٣؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٣٨/٢؛ هويدي، فهمي، موطنون لا ذميون، دار الشروق، ط ٣، (بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص ١٠٢.

المنصور وهارون الرشيد وابنه المأمون بالعلوم، فقد عُهد بعملية الترجمة إلى السريان، فكانت الترجمات تتم على مرحلتين، من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية^(٥).

نقل العرب المسلمون الأدب السرياني إلى لغتهم، وقد أشار المؤلفون: ابن النديم^(٦)، وابن جليل^(٧) والقفطي^(٨) وابن أبي أصيبعة^(٩)، وغيرهم إلى العديد من المؤلفات التي تُرجمت من السريانية إلى العربية في أرجاء الدولة العباسية^(١٠).

ازدهرت الترجمة على أيدي السريان

مفاصل الدولة وقطاعاتها الحيوية، مثل: بناء الأسطول وجباية الضرائب، ونالوا امتيازات عديدة أخرى^(١).

استمر الوضع على حاله، طوال عصر الدولة الأموية باستثناء مدة قصيرة من التوتر في العلاقة، غير أنه بعد زوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، بدأت مرحلة أخرى متمثلة بمرحلة الترجمة^(٢)، إذ كان العرب يجهلون اللغة اليونانية التي دُونت بها أغلب المؤلفات العلمية القديمة، أمثال مؤلفات أرسطو^(٣) وأفلاطون^(٤)، وغيرهما.

ومع اهتمام الخلفاء، ولاسيما أبو جعفر

- (١) ابن جليل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ت: بعد سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)، طبقات الأطباء والحكماء، تح: فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (القاهرة، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م)، ص ١٦؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧٣؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٤٠؛ بشور، سوريا صنع دولة، ص ١٤٨.
- (٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٠٤؛ المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، شذور العقود في ذكر النقود، نشر جيرارد، (د. م، ١٩٩٧م)، ص ٣٢؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٥.
- (٣) أرسطو طاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق. م): فيلسوف يوناني قديم، كان أحد تلاميذ أفلاطون، ومعلم الاسكندر الأكبر، كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، والحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم، هو ثاني أكبر الفلاسفة الغرب بعد أفلاطون، من مقولاته: الفقر والد الثورة والجريمة، إن تدرك يعني أن تعاني، السعادة مرهونة بنا، وللمزيد من التفاصيل ينظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٨٦.
- (٤) أفلاطون: يعني اسمه (واسع الأفق) (٤٢٨-٣٤٨ ق. م): فيلسوف يوناني كلاسيكي رياضياتي، كتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعد مؤسس أكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم، تأثر بأفكار معلمه سقراط، كما تأثر بإعدامه الظالم، أسس أفلاطون الفلسفة المثالية، يغلب على مؤلفاته طابع المحاوراة. للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٩-٨٠.
- (٥) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٩؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٧.
- (٦) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٣.
- (٧) ابن جليل، طبقات الأطباء، ص ٦٨.
- (٨) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧١.
- (٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٧.
- (١٠) ابن النديم، الفهرست، ص ١١٠؛ ابن جليل، طبقات الأطباء، ص ٦٥؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٤٩.

خلال المدة الممتدة بين (١٣٢-٢٩١هـ/ ٧٥٠-٩٠٤م)، فقد عكفوا على ترجمة أمهات الكتب السريانية واليونانية إلى العربية، وكان على رأس أولئك المترجمين في بيت الحكمة: حنين بن اسحق الطبيب النسطوري - كما ذكرنا - فقد ترجم إلى اللغة السريانية رسالة من رسائل جالينوس، وإلى العربية تسعاً وثلاثين رسالة أخرى، وترجم أيضاً كتب المقولات الطبيعية والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتاب الجمهورية، وكتاب القوانين والسياسة لأفلاطون، فكان المأمون يعطيه ذهباً زنة ما ينقله من الكتب، وقيل أنه كان يكتب بخط عريض وبحروف كبيرة من أجل الحصول على أكبر كمية من الذهب^(١)، وكتابات كلها

كتبها على ورق سميك^(٢)؛ لذا كان سبباً في بقاء ترجماته إلى عصور متأخرة؛ لأن الورق السميك أكثر قدرة على مقاومة الزمن.

وقد أقام المأمون الترجمان يوحنا بن البطريق^(٣)، أميناً على ترجمة الكتب الفلسفية من اليونانية والسريانية إلى العربية، وتولى كتب أرسطو وأبقراط^(٤)، وساعدت هذه الترجمة على الاحتكاك بـ: السريان (النصارى) فساد التعايش بينهم الذي تولد نتيجة نشاط الباحثين من المسلمين والنصارى، وأدى هذا الانفتاح إلى التعاطي فيما بينهم فأنتمر عن تعلم السريان للغة العربية، وشجعهم على تعلم اليونانية التي أصبحت الأساس الذي اعتمد

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٩؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ١٣/١٣٠؛ على الرغم من الثقة الكبيرة بهذين المصدرين، إلا أن هذه المعلومة غير دقيقة، إذ ليس من المعقول أن يكون هذا العالم الجليل بهذه العقلية المادية، وهو صاحب الإنتاج الغزير في مجال النقل والترجمة والتأليف أولاً، كما ان الخليفة العباسي لم يكن من السذاجة بحيث يتصرف هكذا ثانياً.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٧.

(٣) يوحنا بن البطريق أو يحيى بن البطريق: ترجمان، أميناً على الترجمة، حسن التأدية للمعاني، أكن اللسان في العربية، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، عاصر الخليفة الرشيد والمأمون، ترجم لأفلاطون الجمهورية، وطيماسوس، وكذلك لأرسطو الحيوان، والآثار العراقية والعالم، وجزء من كتاب النفس، توفي سنة ٢٠٣هـ/٨١٥م. الحموي، معجم الأدباء، ٣٥/١١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢١٠/١.

(٤) أبقراط: ابن اقليدس بن أبقراط، ولد حوالي سنة ٤٦٠ ق.م، وتوفي حوالي سنة ٣٧٧ ق.م، أبو الطب وأعظم أطباء عصره، أول مدون لكتب الطب، خلاصه من آثار الفلسفة وظلمات الطقوس السحرية معتمداً على المنهج العلمي في ملاحظة الحالات المرضية، نسبت له الكثير من المؤلفات، صاحب فكرة القسم الشهير الذي يقسمه الأطباء قبل مزاوله مهنة الطب، من حكمه: كل مرض معروف السبب موجود الشفاء، إنما نأكل لنعيش، لا نعيش لتأكل، ليس معي من فضيلة العلم، إلا علمي بأني لست العالم. ينظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٧٤.

العربية، كان لها الدور الأكبر في تعزيز قيمة العيش المشترك بين النصارى والمسلمين وما نتج عنه من زوال للحواجز الدينية بين الديانتين، فعاشوا وتعايشوا كأبناء دولة واحدة يقدمون لها كل أنواع البذل في سبيل رفعتها كما وتحيطهم بوافر الرعاية وواسع العدل.

تتمة البحث في العدد القادم

عليه العرب والمسلمون، وكان لهم الفضل الكبير في نقل الفلسفة والعلوم إلى العربية في العصر العباسي^(١).

نخلص إلى القول، إنَّ كرم الخلفاء العباسيين الذين قدموا الحفاوة للسريان^(٢)، وخدمة السريان للعلم والفلسفة بما ترجموا من أمهات المصادر العلمية والفلسفية، واللغة السريانية التي لعبت دور الوسيط لنقل العلوم والمعارف من اليونانية إلى

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٤١١؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٩٥/٤؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٣٩.

(٢) ابن جليل، طبقات الأطباء، ص ٦٣؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٩.

التراكيب اللغوية

أميرة يوسف

المفاعيل، المفعول به، المفعول المطلق...، إضافة إلى الوظائف النحوية التي يؤديها المركب الاسمي والفعلية والمركب شبه الإسنادي.. تتعدد التسميات ولكن جميعها وحدة متقاربة ومتداخلة ومتقاربة من الناحية الصرفية والنحوية، فهي كل لا يتجزأ وعلينا في هذا البحث أن نتبين علاقة هذه المصطلحات ببعضها البعض وكيف يمكن تطبيقها في المدارس والجامعات سيما وأن لغتنا بالنسبة إلينا هي انتماء وثقافة وهوية ووطن، ومثاقفة، فنثقافة كل فرد في مجتمعنا كامن في لغته، في معجمها ونحوها وصرفها ونصوصها وفنونها.

أهمية الموضوع:

تأتي أهمية البحث عن هذا الموضوع المتعلق بالتراكيب اللغوية في اللغة العربية، نظراً في الحاجة إلى التعبير عن الرغبات والمشاعر والأفكار، كأدوات تتوالد منها التراكيب اللامتناهية وفق قواعد محكمة

مقدمة:

إن التراكيب اللغوية محور الدراسات النحوية قديماً وحديثاً، وتعدُّ محور اهتمام اللغويين، وذلك لأن الهدف من اللغة هو تحقيق الحاجات الحياتية التي تنأى من الإستعمال التركيبي لألفاظ اللغة حيث إن استعمال المتكلمين للجملة في التفاهم والتعاشير يعدُّ هو الأساس الذي تبنى عليه العلاقة بين المتكلم والمخاطب. ولذلك تكمن أهمية الحديث عن المستوى التركيبي للغة العربية نتيجة امتلاكها مميزات خاصة في أصواتها وكلماتها وتراكيبها ونصوصها، وهذه السمات تتوضَّح حيث يعبر بواسطتها عما يختلج في النفس ويجول في خاطر للتواصل مع الآخر. لذا فكانت العلاقة بين الكلام والجملة وأركان الجملة وتكويناتها من أهم القضايا التي أثارها النحاة، تتناول الجملة الإسمية البسيطة والمركبة والموسعة، المذكرّة والمؤنثة والفعلية بأنواعها المثبتة والمنفية والشرطية...، وتتناول كلمات الإسناد: الحال، التمييز،

ومتَّفَق عليها عند علماء النحو قديماً وحديثاً.. كما وإنَّ البحث في التَّراكيب اللُّغويَّة في لغتنا العربيَّة يفتح الباب أمام المتلقِّي للاجتهاد والتَّنقيب عند العديد من الخصائص اللُّغويَّة لتراكيب اللُّغة العربيَّة لا سيَّما وإنَّ البحث مهما جهد الباحث فيه فهو معرَّض للتَّقصير وما الكمال إلاَّ لله تعالى.

إنَّنا في هذا البحث نحاول إبراز خصائص التَّراكيب اللُّغويَّة فنبدأ ببيان النقاط البحثيَّة الموجزة والمتعلقة بالموضوع فنتناول: مفهوم اللُّغة قديماً وحديثاً، مستوياتها ودلالاتها ووظائفها، أنواع التَّراكيب اللُّغويَّة: مركَّب اسمي، مركَّب فعلي، مركَّب حرفي، مركَّب شبه إسنادي، والفرق بين التَّركيب اللُّغوي والنَّحو، الفرق بين الأساليب والتَّراكيب، هذا إضافة إلى المتشاكل الثقافي الذي يلج فكر كلِّ مثقف في اللُّغة العربيَّة خاصة مدرِّسيها الذين ربَّما يتساءلون: هل تفلح مدارسنا وجامعاتنا بشكل عام في إنشاء علاقة الودِّ بين المتعلِّمين وهذه اللُّغة؟ هل تنجح في غرس حبِّ القراءة عندهم وهل منهاج اللُّغة هو غاية أم وسيلة لتعديل سلوك التِّلْمِذ اللُّغوي؟

المنهج:

إنَّ المنهج المتَّبَع في هذا البحث هو

المنهج الوصفي الاستنتاجي من خلال وصف التَّراكيب اللُّغويَّة وظواهرها وتفصيلها وأنواعها والتَّنقيب عنها في المراجع اللُّغويَّة والنَّحويَّة، واستخراج ما يثبت ويدعم كلِّ نقطة بحثيَّة في ثناياها للوصول إلى النتائج العلميَّة المحقَّقة والتي يُبنى عليها النَّظر إلى تراكيب اللُّغة العربيَّة متبوعاً بالمقترحات والتَّوصيات في هذا الإطار لأنَّ «علم الأسلوب الوصفي هو الذي يدرس وقائع اللُّغة التَّعبيريَّة من منظور مضمونها العاطفي أي التَّعبير عن وقائع الحسائيَّة بواسطة اللُّغة وتأثير وقائع اللُّغة على الحسائيَّة»^(١).

مفهوم اللُّغة عند القدامى:

«اللُّغة تتكوَّن من أصوات المنظومة وهي الوحدة البنائيَّة الأولى في تكوين اللُّغة، غير أنَّ هذه الأصوات انتظمت لتكون كلمات ثمَّ انتظمت ذات تنسيق سليم مناسب يستطيع من خلاله المتكلِّم أنَّ يعبِّر عن رغبتة وحاجته، إذ إنَّ اللُّغة هي أداة حياتيَّة، يعبِّر بها الفرد عن حاجته وما يجول في نفسه وذهنه»^(٢). «وهذه اللُّغة تجعل الجماد حيًّا ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفيَّة باديَّة جليَّة، إنَّ شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من

(١) د. نسيم عون. الألسنية، محاضرات في علم الدلالة. دار الفارابي، بيروت، لبنان، ١، ٢٠٠٥، ص ٢٠١.

(٢) د. عبده الراجحي. فقه اللُّغة. دار النهضة للطباعة والنشر، لاط، ص ٦٥-٦٦.

خبايا العقل، كأنّها قد جُسمت حتّى رأتها العيون، وإن شئت لطفّت الأوصاف الجسمانيّة حتّى تعود روحانيّة لا تنالها إلاّ الظنون»^(١).

مفهوم اللّغة عند المحدثين:

«اللّغة نظام اعتباطي لرموز صوتيّة تستخدم لتبادل الأفكار والمشاعر بين أعضاء جماعة لغويّة متجانسة»^(٢). إذا «اللّغة هي الأداة التي تتيح للفرد التّواصل مع الآخرين، والتأثير فيهم والتأثر بهم، هي مفتاح الشّخصيّة وتوصيف العلاقات الاجتماعيّة وكاشف للخيارات الفلسفيّة والإيديولوجيّة»^(٣). أمّا التّركيب اللّغويّ هو ما ركّب من كلمتين أو أكثر في النّحو. في اللّغة: «ركّب الشّيء هو وضع شيء على شيء آخر»^(٤).

في الاصطلاح: «ضمّ أو رصف اسم إلى جانب اسم أو فعل إلى جانب اسم، ليكونا كلاماً مفيداً يؤدّي وظيفته الاتصاليّة ويقبله المتلقّي»^(٥).

والتّركيب اللّغويّ هو تركيب الجملة اللّغويّة حسب ما تقتضيه لغة معيّنة في اللّغة العربيّة مثلاً: الجملة الفعلية تبدأ بفعل

يليهما فاعل قام بهذا الفعل ويليه مفعول به وقع عليه فعل الفاعل، والفعل نوعان: لازم ومنتعد. والأصل في اللّغة العربيّة أن يتقدّم الفعل على الفاعل، بحيث إذا تقدّم الاسم الفاعل على الفعل صارت الجملة مؤلّفة من مبتدأ وخبر، بينما في اللّغات الأخرى يختلف الأمر كاللّغة الفرنسيّة مثلاً على سبيل المثال لا الحصر يجب ألاّ يسبق الفعل الفاعل (Amir va à l'école).

والتّركيب نوعان:

- تركيب إسنادي ما ركّب من مسند ومسند إليه: الشّمس ساطعة، يطالع التّلميذ قصّة.

- تركيب مزجي ما ركّب من كلمتين امتزجتا ببعضهما البعض: بعلبك، بيت لحم.

لذلك نجد أنّ للتراكيب اللّغويّة خصائص ومميّزات تتجلّى في مستويات اللّغة التي تتكوّن من مستويات أربعة وهي: المستوى التّركيبي، المستوى الصّوتي، المستوى الصّرفي، المستوى الدّلالي.

أ - المستوى التّركيبي: هو الذي يقوم على تركيب الجمل تركيباً لغويّاً حيث

(١) الجرجانلي، عبد القاهر. البلاغة. تعليق محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، لبنان، لاط، ١٩٧٨، ص ٤١.

(٢) د. عبده الراجحي. فقه اللّغة. دار النهضة للطباعة والنشر، لاط، ص ٦١.

(٣) د. عبده الراجحي. فقه اللّغة. دار النهضة للطباعة والنشر، لاط، ص ٢٩.

(٤) ابن منظور. لسان العرب. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٩٩٩، ص ٢٩٦.

(٥) wb.arabsgote.com

- تتوالى الألفاظ والكلمات في تنسيق وتنظيم
كلاميّ ممنهج، يكوّن الجمل بضوابط نحويّة
ودلاليّة معيّنة. مثال: علم النَّاس الخبر،
النَّاس علموا الخبر.
- هذا التّركيب يتطلّب ضبط القواعد
النّحويّة التي تضمن تركيب الكلمات في
الجملة تركيباً يضمن التّوالي المناسب
لمفردات أو ألفاظ الجملة، ويضمن الحركات
التي أواخر الكلمات والتي تُعرف بالعلامات
الإعرابيّة التي تحفظ المستوى النّحوي في
التّركيب.
- أنواع المراكبات: مركّب اسنادي اسمي،
مركّب اسنادي فعلي، مركّب اسنادي
حرفي، مركّب شبه اسنادي.
- ١ - مركّب اسنادي اسمي ويتكوّن من
عنصرين اثنين أو لهما الاسم والثاني عنصر
يخصّه.
- مثال: المبتدأ والخبر: العلم نورٌ (مسند
إليه مفرد: العلم، مسند مفرد: نور).
- مركّب إضافي: مضاف ومضاف إليه:
تأخر تلميذ الصّف.
- مركّب نعتي: نعت ومنعوت: تأخر
التّلميذ النّشيط.
- مركّب بدلي: تأخر محمّد أخوك.
- مركّب بالحال المفرد: صاحب الحال
والحال: حضر الطّالبُ مُسرّعاً.
- مركّب العطف: العطف والمعطوف عليه:
تأخر محمّد وكريم.
- مركّب بالاستثناء: مستثنى ومستثنى
منه: حضر المدعوون إلاّ زيداً.
- مركّب موصولي: أكرمنا الذي نحبه.
- مركّب بالتمييز: ملأت العصافيرُ
الحديقة بهجّة.
- مركّب توكيدي: سرتُ والجبل والتّقدير
سرت أنا والجبل (توكيد معنوي).
- ٢ - مركّب إسنادي فعلي: يتألّف من
فعل مسند مفرد، وفاعل مسند إليه مفرد أمّا
إذا قلنا تأخر التّلميذ النّشيط، تأخر فعل
مسند، والتّلميذ النّشيط مسند إليه مركّب
من نعت ومنعوت.
- إذا المركّب الإسنادي الفعلي يتكوّن من
نواة إسناديّة مع ما يمكن أن يتصل بها من
تمّمات أو يحيل محلاً من المحلّات
الوظيفيّة لأنّ ترتيب الكلمات في الجملة
يوحي بمعانٍ معيّنة.
- ٣ - المركّب الحرفي: هو مركّب من
حرفٍ ومكوّن آخر يتعلّق به. والمركّبات
الحرفيّة هي:
- المركّب بالجرّ: حرف جرّ وجرّ
ومجرور.
- المركّب بواو المعية: واو المعية متعلّق
بها: سرت والجبل.
- المركّب بالحصر والاستثناء: الحصر:
ما نام إلاّ عليّ، الاستثناء: نام أهلُ الحيّ
الأبناؤهم.
- المركّب بواو الحال: واو الحال متعلّق
به: جاء الطّالبُ والكتّابُ بيده.

— ب — ت — ج ... وهي تُعدّ المستوى الأساس في اللّغة ومنها نرسم الكلمات المختلفة والمتنوّعة بين الاسم، والفعل، والحرف، والاشتقاق، على سبيل المثال: عِلْمٌ، عَلِمَ، علوم، تعاليم... فمن هذه الأصوات تتكوّن المقاطع الصّوتيّة وهي جزء من الكلمات.

مثال:

- العلم تتكوّن من ال التعريف + علم.
- المعلمون تتكوّن من ال التعريف + علم + ون.

ج - المستوى الصّرفي: إنّ البنى الصّرفيّة هي مكونات التّراكيب أو الجمل في اللّغة العربيّة، والتّكوين الصّرفي بوساطة الأحرف للكلمات لا شكّ أنّه يتمّ تركيبه عند إنتاج الألفاظ وتكوينها حسب حاجة المتكلّم، وحسب ما يقتضيه الحال مع السّامع أو القارئ لأنّ التّركيب الصّوتي للكلمة مثلاً له دلالته التي تتغيّر من حين إلى آخر حسب الحاجة إليه في التّعبير المكتوب في النّفس، فلفظة (علم) فمجرّد تغييب حرف أو تبديله أو تضعيفه أو تأخيرها أو تغيير حركاته وتبديلها تتغيّر دلالته، وهذا يعني أنّ أيّ تغيير صوتي في اللفظ يضيف على التّركيب معنى جديداً حسب الحاجة إليه وإلى استعماله. ونكون بذلك قد خرجنا بدلالات جديدة التّراكيب وهذا ممّا يساعد على توسيع وامتداد اللّغة

- المركّب بفاء السّببيّة: فاء السّببيّة متعلّق به: ادرس فتنجح، تنجح مفعول به منصوب بأنّ مضمرة بعد فاء السّببيّة.

٤ - المركّب شبه الإسنادي: هو مركّب اسمي يبدأ بمشتق عمل الفعل، ومتعلّق به أو أكثر، ونستطيع إبداله بفعل دون تغيّر المعنى.

أنواعه:

- مركّب إسنادي قائم على اسم الفاعل: جاء الولد ركباً درّاجته.
- مركّب إسنادي قائم على اسم المفعول: دخلت بيتاً مرتباً ترتيباً جيّداً.
- المستثنى من مصدر: مراجعة التّلميذ درسه واجبّ عليه.
- مركّب إسنادي قائم على الصّفة المشبّهة: الضّعيف عقلاً يصدّق كلّ ما يُسمع.
- مركّب إسنادي قائم على اسم التّفصيل: إنّ أقرب الناس إلى القلب من حسّنت أخلاق، والتّقدير يقرب من القلب من حسّنت أخلاقه.

ب - المستوى الصّوتي: ندرس فيه أصوات اللّغة من حيث تكوّنها ومخارجها وصفاتها ومناسبتها لألقابها، ومناسبة تجاورها، والمألوف منها وغير المألوف، وغير ذلك ممّا يتعلّق بها، وهذه الأصوات تعرف عند اللّغويين بالحروف الأبجديّة: أ

وتوليد تراكيب ودلالات جديدة لامتناهية.

إذًا المستوى الصّرفي هو مجموع هذه الأصوات التي تتجمّع فتكوّن وحدات صرفيّة لكلّ منها معنًى خاصًا بها، يختلف عن المعاني الأخرى.

مثال: عِلِمٌ، لَمَعٌ، عَمِلَ، مَلَعٌ، أو تختلف هذه الوحدات الصّرفيّة عبر الإضافة أو الحذف أو القلب كما وتختلف إذا أدخلنا عليها "أل" التّعريف أو زدنا آخرها ضميرًا فنقول: العلم، علمه...

د - المستوى الدلالي: «هو مطيئة

القراءة الأسلوبية المنتجة والمثمرة، وهي قراءة نابعة من رحم النص، وجوهره، وينبغي ألا يغرب عن بال الناقد أنّ الانفتاح مهما امتدّ في فضاء النص، لا بدّ أن ينتهي إلى قرار أو مركز ثابت هو محور العملية التأويلية»^(١).

وكذلك إنّ «مستوى القراءة السطحية الجاهزة يمنع من انفتاح الدلالة، بل يجمد النص في دلالة محكمة مغلقة، لا تسمح بالاختراق أو الاستنطاق بل إنّ الولوج في مضايق النص، واختراق نسيجه اللغوي المركب، قصد تمثّل فضائه اللامحدود، هو منبع تعدّد القراءة، بل هو التّضامن لاستمرار النصّ في الافراز الدلالي والسّيولة الأسلوبية»^(٢).

إذًا المستوى الدلالي هو الغاية من تركيب الألفاظ في جمل منتظمة، فإذا لم تكن للتراكيب والجمل دلالات فإنّها لا تعني شيئًا في اللّغة. فالمستوى الدلالي يدرس تفاصيل الدلالة أو المعنى للفظ أو الجملة أو النصّ، وهو ما يطلق عليه علماء اللّغة علم المعاني أو علم الدلالة، حيث تظهر هذه المعاني ما يحول من النفس فيعبر عنها المتكلم أو الكاتب بالألفاظ و التراكيب التي تعطي الصورة الذهنية المناسبة لتلك المعاني.

مثال نقول:

نشر الخشب: شذبه وهذبه.

نشر الخبر: أعلم النّاس به.

نشر الأوراق: ورّعها.

لذلك نجد أنّ دراسة اللّغة في المستوى الدلالي تعني دراسة الألفاظ ومشتقاتها المتنوعة والمتمثلة في المعاجم اللغوية والتي تبين معنى كلّ نقطة حتّى بلغت عشرات المعاني حيث يظهر المعنى بأكثر من طريقة، والطريقة نقصد بها طريقة التركيب للجملة أو النصّ عمومًا وفق أصول وقواعد بلاغية تحدّد ذلك وندرس في المستوى الدلالي ما يلي:

الحقول الدلالية: أي دلالة الألفاظ فكلّ

(٢) كريستينا جوليا. علم النص. ص ٨٢.

(١) كريستينا جوليا. علم النص. ص ٧٨.

مجموعة من الألفاظ تدلُّ على أشياء ومعانٍ متشابهة تشكل حقلاً دلاليًا.
مثال:

ولهذا فإنَّ للجملة معنيين: المعنى القواعديّ والمعنى المفرداتي والاثنان يتكوّنان من أربعة عناصر:

- حقل دلالي للمطبوعات: قرطاس، كتاب، مجلة، صحيفة.
- حقل دلالي للجاريات البحرية: سفينة، قارب، باخرة، زورق.

١ - نظم الكلمات: إنَّ ترتيب الكلمات في الجملة يوحي بمعانٍ معيَّنة فلو تتابع اسم وفعل وفعل واسم فإنَّ التصاق فعل باسم يوحي بوجود علاقة خاصّة بينهما. وإنَّ اختفت الحركات الإعرابيَّة فإنَّ مواقع الكلمات تكون ذات دلالة. مثال: سبق يحيى موسى تعني السَّابق هو يحيى والمسبوق هو موسى، والعكس لو قلنا سبق موسى يحيى لأصبح المسبوق هو يحيى، وهكذا فإنَّ ترتيب الكلمات يساعد على تكوين المعنى.

هكذا ندرس في المستوى الدلالي ربط اللُّغة بالفكر الَّذي هو مصدر الدِّلالة أو المعنى فنبحث في ترادف الكلمات وعلاقتها ببعضها البعض، ندرس التَّضادَّ في الألفاظ ودلالاتها، والإشتمال الَّذي يعني أنَّ كلمة تشمل معنى كلمة أخرى، أو كلمات أُخرى، ندرس المعنى الأساسي للألفاظ والمعنى المجازي، وندرس الاشتراك اللَّفظي، والكتابي، ومعاني هذه الألفاظ المجرَّدة والتَّحليليَّة وهو مستوى واسع غزير المعاني لاشتماله على موضوعات كثيرة مرتبطة بدلالة اللُّغة العربيَّة.

٢ - الكلمات الوظيفيَّة: الكلمات نوعان في اللغة العربيَّة: كلمات محتوى وكلمات وظيفيَّة. الأسماء، الصِّفات، الأفعال، الضَّمائر، الطُّروف هي كلمات محتوى الكلمات أمَّا حروف الجرِّ والعطف والشرط والإستفهام وسواها فهي كلمات وظيفيَّة فحرف الجرِّ له معنى بحدِّ ذاته وله وظيفيَّة تدلُّ على أنَّ ما بعده متعلق به، وحرف النَّصب «أن» يدلُّ على أنَّ ما بعده فعل بالإضافة إلى نصبه لهذا الفعل... وهكذا فالحروف كلمات وظيفيَّة بعضها له معنى وبعضها ليس له معنى. والكلمات الوظيفيَّة هذه تدلُّ على علاقة ما بعدها بما قبلها، وتدلُّ على نوعيَّة ما بعدها أو تؤثر فيما بعدها أو تفعل كلُّ ذلك في آنٍ واحد. وهنا

وظيفة التَّراكيب اللُّغويَّة: إنَّ وظيفة التَّراكيب اللُّغويَّة نوعان:

- الإعرابيَّة: التَّركيب والفكرة من جهة.
- النَّحويَّة: الأداء النَّحوي والمعاني النَّحويَّة من جهة ثانية.

إنَّ اعتبار اللُّغة لا تنفصل عن الفكرة، ولهذا فالتَّركيب اللُّغوي وترابط مكوناته مرهون بالتَّماسك النَّحوي. تستمدُّ الجملة معناها من تركيبها القواعدي ومن مفرداتها،

يكن النحو اللغوي إذ لا يدرس أصوات الكلمات ولا بنيتها ولا دلالتها، وإنما يدرسها من حيث هي جزء من كلام تؤدي فيه عملاً معيناً.

٣ - التنغيم: أحد عناصر المعنى القواعدي للجملة، فمن الممكن أن تنطق الجملة الواحدة بعدة أشكال تنغيمية فيرى كل شكل معنى مختلفاً فمن الممكن أن تكون الجملة اخبارية أو استفهامية أو تعجبية دون تغيير مفرداتها، وذلك عن طريق التنغيم.

مثال: أكل تفاحاً اليوم إخبارية.

هل أكل تفاحاً اليوم؟ استفهامية.

ما أذ التفاح! تعجبية.

٤ - الصيغة الصرفية: نجد أن الصيغة الصرفية أيضاً تساهم في تشكيل المعنى (فاعل) مثلاً تدلُّ على أنَّ الكلمة، وصيغة تنتهي (ات) تدلُّ على جمع مؤنث سالم، وصيغة تنتهي (ون) تدلُّ على جمع مذكّر سالم، وصيغة تنتهي (ان) تدلُّ على مثنى... وهكذا فإنَّ الصيغ الصرفية ذات دلالة تساهم مع سواها في تشكيل المعنى للجملة.

إذا المعنى اللغوي للجملة فهم كالمعنى المفرداتي قد يفهم القارئ أو السامع معاني المفردات في جملة ما. ولكنه لا يفهم المعنى الكلي للجملة لأنه لم يفهم المعنى النحوي (القواعدي) للجملة... ممّا يدلُّ على أنَّ

القارئ إذا لم يفهم طبيعة العلاقات بين كلمات الجملة فإنَّ هذا يعيق فهم المعنى. لذا على المعلم أن يبرز كيف تؤثر مواقع الكلمات في الجملة الواحدة. فلكل مبتدئ خبر، ولكل فعل فاعل، ولكل مفعول به فعل وفاعل، ولكل أداة شرط فعل شرط وجواب شرط، ولكل صفة موصوف، ولكل جازم مجزوم... ويفهم طلابه أنَّ التنغيم يؤثر في المعنى للجملة فتتنغم الجملة الإستفهامية يختلف عن الإخبارية والتعجبية... لأنَّ تغيير تنغيم الجملة يؤدي إلى تغيير المعنى.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل ثمة فرق بين التراكيب اللغوية والنحو؟

النحو علم يختص بدراسة الأصول التي تُعرف بها أحوال الكلمات العربية من جهة الإعراب والبناء بعد انتظامها في الجملة، فعن طريق هذا العلم نستطيع أن نعرف ما يجب أن تكون عليه الكلمة من رفع ونصب وجرٍ وجزم... وهذا العلم (النحو) لا يمكن أن ينفصل عن علم الصرف، فهذان العلمان متلازمان، فعلم الصرف هو العلم الذي يبحث في صيغ الكلمات العربية التي ليست بإعراب أو بناء ويسمى البعض، علم النحو بعلم الإعراب، فالنحو له معنى خاص لدراسة الأصول من جهة الإعراب والبناء بعد انتظامها في الجملة، والمعنى العام يبحث في صيغ الكلمات ويضاف إليه علم الصرف. أمّا التراكيب اللغوية وهي تركيب

الكلمات بنظام معيّن ويجعل ترتيب الكلمات معناها واضحًا، مثلًا عندما نقول: صافح علي محمدًا فإننا نبني على أنّ عليًا هو الفاعل للحدث، ومحمدًا هو الذي وقع عليه الفعل، ونقوم بتبيان ذلك بوضع كلمة محمد

بعد صافح علي.. وتستخدم لغات أخرى أنظمة مختلفة كليًا لترتيب الكلمات في الجملة ومع ذلك فما دام المعنى يعتمد على نظم الكلمات في الجملة فيمكننا القول: إنّ جميع اللغات تستخدم التراكيب.

لذلك نجد أنّ ثمة فرق بين علم التراكيب والنحو من حيث العموم والخصوص إذ نقول علم التراكيب يقصد به دراسة القوانين المنظمة لترتيب العبارات والجمل، ونحوياً إنّ علم دراسة الكلمة عبر تأثرها ببعضها البعض.

مثال:

حضرَ حاملُ الرّايةِ.

رأيتُ حاملَ الرّايةِ.

مررتُ بحاملِ الرّايةِ.

إذاً النحو يشمل علمي التراكيب والصرف، ونقصد بالصرف المشتقات، دراسة الكلمات منفردة وثابتة، فعلم النحو ينضوي تحت علم التراكيب. ونتوصّل إلى أنّ النحو له علاقة وتأثير على تعلم التراكيب اللغوية.

ولو سألنا ما الفرق بين الأساليب والتراكيب هل هما بمعنى واحد؟

- الاستفهام: ما اسمك؟ يراد به جواب.
- أتحضر في الصّف وتنسى واجبك؟ يراد به الإنكار والرّفص.
- التّعجب: ما أجمل المشهد!
- المدح: نعم الفتى أحمد.
- الذّم: بنس العميل الخائن.
- الطّلب: اعمل يا رجلاً.

ليس في الأساليب عناصر متداخلة مثل في التراكيب، فالأسلوب هو الطّريقة التي تميّز مؤلّفًا أو نوعًا أدبيًا أي أداة الكتابة، وقد سمّيت أنواع الأساليب باسم مؤلّفين: أسلوب الجاحظ، أسلوب جبران، أسلوب المتنبي، كما وسمّيت بأسماء العصور: أسلوب جاهلي، أسلوب عباسي... وغير ذلك من الأساليب كأن نقول أسلوب أدبي، أسلوب علمي... أمّا التركيب فذات صبغة صناعية، فهو عبارة مؤلّفة من كلمات ذات علاقة دلالية مترابطة أي تكوين أو تأليف أو تركيب جملة مقيّدة: الأمّ قلبها حنون.

نستنتج أنّ الاثنين (التركيب والأسلوب)، مرتبطان ببعضهما البعض بشكل مترادف، فالأسلوب عادة ما يأتي أولاً ثمّ نردفه بالتركيب لا تكائننا عليه، وأكثر

ما نرى الأسلوب في حقل الخطابة،
والتركيب في حقل الكتابة، فيعتمد على بنية
الكلام وإظهار حقيقة ما.

هل تفلح مدارسنا وجامعاتنا بشكل عام
في انشاء علاقة الودّ بين المتعلّمين وهذه
اللّغة؟ وهل تنجح في غرس حبّ القراءة في
أنفسهم؟ وهل منهاج اللّغة هو غاية أم
وسيلة لتعديل سلوك التلميذ اللغويّ؟

الحقيقة لم تفلح مدارسنا وجامعاتنا
بشكل عام في إنشاء علاقة الودّ بين
المتعلّمين وهذه اللّغة، ولم تنجح في غرس
حبّ القراءة عند المتعلّمين، ولعلّ السبب في
ذلك يرجع إلى اعتقاد الكثيرين بأنّ في
تعليم قواعد اللّغة تعليمًا للّغة. وتفكيرنا على
هذا النحو كتفكير من يعلمّ العروض لكي
ينشئ شاعرًا أو من يحفظ صفحتين في
قواعد اللّغة، ثمّ يظنّ أنّه بهذا الحفظ وحده
قد أصبح ماهرًا، إنّ اهتمامنا بتعليم القواعد
النحويّة في مرحلة مبكّرة من التّعليم جعلنا
نظنّ أنّ مقياس إجادة اللّغة هو البراعة في
حفظ المصطلحات النّحويّة، وقد يختلط
الأمر على الكثيرين حول وظيفة النّحو
وماهيته في اللّغة العربيّة وذلك لأنّه علم
يمتاز بالتّفرد والخصوصيّة دون سائر
فروع اللّغة. وإن كانت اللّغة كلًّا لا يتجزّأ.

إنّ النحو ليس الإعراب كما أراد له بعض
الدّارسين في القديم والحديث، وإنّما يؤخذ
في الحسابان أشياء أخرى مهمّة كالموقعيّة

والإرتباط الدّخلي بين الوحدات المكوّنة
للجملة أو العبارة وما إلى ذلك من مسائل
لها علاقة بنظم الكلام وتأليفه.

إنّ الغرض من تدريس النّحو هو تكوين
الملكة اللّسانيّة الصّحيحة لا بحفظ القواعد
المجرّدة، ذلك لأنّ النحو والصّرف والرّسم
والإملاء والبلاغة مجرد وسائل ليست
غايات. والواقع أنّ النحو بالطّريقة التي
يدرّس فيها أصبح الآن عقيمًا ينشغل
الطّالب بدراسته، ثمّ لا يخرج منه إلى شيء
من اقامة اللّسان والفهم، والمشكلة ليست
في النّحو كعلم ولكنّها تكمن في طريقة
تقديمه في الكتب المدرسيّة للّغة العربيّة،
فالناظر إلى النّحو بمحتواه وطرائق تدريسه
الآن يجده لا يزيد عن كونه علمًا وتعليمًا
وصنعة لقوالب جوفاء، ممّا أدّى إلى نفور
من دراسته والى ضعف النّاشئة في اللّغة
بصفة عامّة. ذلك أنّ تعليم النّحو ليس غاية
في ذاته، إنّما وسيلة من وسائل تقويم
اللّسان والقلم. وقد يكون من المفيد أن نغيّر
النّظرة إلى النّحو العربي وطريقة تقديمه في
الكتب المدرسيّة للّغة العربيّة كعامل مشترك
مع فنون اللّغة الأربعة يجعله أكثر وظيفة
وأكثر تعلّمًا.

إنّ الطّالب قد يخطئ في التّفريق بين
ضمير المخاطب والمتكلّم أو أسلوب النّفي
والنّهْي مثلاً، بسبب تعلّمه لذلك مجردًا، ومن
حيث لا يدري وهذا بخلاف لو تعلّمه

بالاستماع ممّن يعيشون حوله. فهذه المهارات النّحوية يسهم في تنميتها كتاب دروس اللّغة العربيّة بحيث يصبح الطّالب قادرًا على أن:

- يعبر عن أفكاره باستخدام الصيغ النحويّة والصرفيّة المناسبة في ضوء ما تعلّمه من مفردات وتراكيب.
- يتعرّف إلى القواعد النّحوية لبعض التّراكيب التي تعلّمها.
- يحدّد معاني الكلمات الجديدة في ضوء تحليلها جزئيًا (اسم، فعل، فاعل).
- يميّز التّغيرات التي تحدث في المعاني كنتيجة لما حدث من تغيير في بيئة الكلمة، اضافة أو حذفًا، أو إعادة لترتيب حروفها.

وبعد فالمعلّم والمتعلّم من أهمّ عناصر المنهج التي تتفاعل مع الكتاب المدرسي في مرحلة مبكرة طبعًا لأنّ اللّغة العربيّة إحدى الوسائل المهمّة في تحقيق الذات الشخصية، فهي أهمّ وسائل الاتّصال والتّفاهم بين التّلميذ والبيئة المحيطة به. واللّغة في هذه المرحلة ليست مادّة دراسيّة فحسب ولكنّها وسيلة لدراسة الموادّ الدّراسيّة الأخرى، ومن هذا المنطلق إنّ منهج اللّغة العربيّة ليس غاية في حدّ ذاته وإنما هو وسيلة لتحقيق غاية وهي تعديل سلوك التّلاميذ اللّغويّ من خلال تفاعلهم مع الخبرات والأنشطة اللّغويّة التي يحتويها المنهج، وتعتبر الأساس في بناء التّلميذ

فكريًا ونفسيًا واجتماعيًا. فالأفكار التي تدور في أذهانهم لها مقابل من الجمل والكلمات، تعبر عن الحاجات.

خلاصة البحث:

إنّ اللّغة هي الإفهام والتّواصل والتّعبير عن الحاجة الكامنة في دواخل النّفس البشريّة، والمصوّر في الدّهن، وهذه السّمات مرتبطة بالمفهوم السّليم للّغة، في ضوء ادراك الموقع الحقيقي للمستوى التّركيبي الذي يتكوّن من التّركيب اللّغويّ في لغتنا العربيّة، وفقًا للقواعد النّحوية المتّبعة عند علماء اللّغة، إلا أنّ العيب في اللّغة يكمن اذا كانت خصائص هذه التّراكيب غير مكتملة أو غير صحيحة، ممّا يدفع إلى طرد التّركيب غير السّليم واستبداله بتراكيب آخر مناسب للسّياق، وكذلك في تكوينه الداخلي من الألفاظ.

ونتوصّل إلى أنّ اللّغة تتعلّق بمستوياتها فتبدأ بالمستوى الصّوتي حتّى المستوى الدّلالي، حيث تتناغم هذه المستويات الأربعة من حيث ترابطها التّكويني، فكلّ مستوى لغويّ مرتبط بالذي قبله والذي بعده في وحدة متكاملة منسجمة يكمل الواحد منه الآخر، ممّا يجعل اللّغة ذات سعة تحويليّة وتوليدية فتتميّز عن غيرها من اللّغات، فتصبح أكثر فاعليّة وتعبيريّة وتفتح الأفاق نحو الإبداع شرط أن تدور هذه التّراكيب وفق صورتها السّليمة.

قصيدة الدردارة وبنائها الأسلوبية

حسن عبد الله أنموذجاً

د. ليلي محمد سعد (*)

- ما الحقول الدلالية التي تشكل منها المعجم الشعري؟

- كيف تلاحمت بنى الخصائص الأسلوبية مع البنية الدلالية للديوان الشعري؟

وفي ظل المناهج اللسانية الحديثة وعلى ضوء المنهج الأسلوبي ستسعى هذه الدراسة إلى دراسة الخصائص الأسلوبية في الخطاب الشعري عند الشاعر حسن عبد الله، والوقوف على أبرز سماتها الفنية، ومزاياها التعبيرية (الايقاعية - المعجمية - التركيبية) ودلالاتها الجمالية.

ألفت البحث من تمهيد ومبحثين، درست في المبحث الأول البنية البديعية في الخطاب، فتناولت بنية التوازي والجناس

يتناول هذا البحث دراسة ديوان (الدردارة) (***) للشاعر الحدائي حسن عبد الله، في محاولة منهجية للكشف عن الخصائص الفنية التي اعتمدها الشاعر في خطابه، وقد اعتمدت أدوات المنهج الأسلوبي أداة للتحليل وللوقوف على تشكيلات البنى الاسلوبية للخطاب الشعري، وكانت الاشكالية:

- ما بنية الخصائص الاسلوبية والفنية في الخطاب الشعري؟ ودلالاتها الايقاعية والجمالية؟

- ما تشكيلات البنية البديعية التي وظفها الشاعر في قصيدة (الدردارة)؟

- ما تشكيلات بنى الأساليب الكلامية في الديوان الشعري؟

(*) دكتورة في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب - الفرع الخامس.

(**) الديوان عبارة عن قصيدة مطولة من الشعر الحديث تتألف من ٧٥٤ سطرًا شعريًا، ويبلغ عدد مقاطعها ٢٧ مقطعًا. مع الإشارة إلى دراسة قمتُ بها تحت عنوان (البنية الايقاعية في ديوان - الدردارة - للشاعر حسن عبد الله) - مجلة المنافذ الثقافية - العدد ٢١ - شتاء ٢٠١٨ - ص ٦٩.

والطباق، وفي المبحث الثاني تطرقت إلى الأساليب الكلامية في الخطاب، فدرست بنية الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي وصيغته بنية الأمر وبنية النداء وبنية الاستفهام بالإضافة إلى المعجم الشعري، وقد ختمته بالنتائج التي توصلت إليها.

تحديد مفهوم الأسلوب

جاء في لسان العرب ضمن جذر (سلب) إلى لفظة أسلوب التي يذكر فيها ما يلي «ويقال للسطر من النخيل: أسلوب. وكل طريق ممتد فهو أسلوب. قال: والأسلوب الطريق والوجه والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويُجمع أساليب»^(١). كما يربط ابن منظور مفهوم الأسلوب بالفن، فيقول: «الأسلوب بالضم: الفن. يقال فلان أخذ في أساليب من القول أي أفانين منه»^(٢).

أما في الاصطلاح، فقد تنوعت مفاهيمه، ويورد ابن رشيق كلامًا للجاحظ فيقول: «قال أبو عثمان الجاحظ: أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ أفراغًا واحدًا، وسبك سبكًا

واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان. وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سماعه وخفّ محمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وتحلى في قلب سامعه، فإذا كان متباينًا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجته المسامع، فلم يستقر فيها منه شيء»^(٣). ويعرف ابن خلدون الأسلوب في المقدمة بقوله «عبارة عن المنوال الذي تُنسجُ فيه التراكيب، أو القالب الذي الذي يُفرغُ فيه»^(٤).

بينما يركز الجاحظ على الاهتمام بالألفاظ، فيقول: «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، إنما الشأن في إقامة الوزن، وتمييز اللفظ، وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير»^(٥).

لقد شغل مصطلح الأسلوب اهتمام الدارسين - لا سيما - في الدراسات الغربيّة، ويُعدُّ شارل بالي المؤسس لعلم

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة سلب، ج ٦، دار إحياء التراث العربيّ، ط ٣، لا ت.، ص ٣١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١٩.

(٣) ابن رشيق القبرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج ١، تحقق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة سنة ٢٠٠١، ص ٢٥٩.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، سنة ٢٠٠٩، ص ٤٨٩.

(٥) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، تحقق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، ط ٧، سنة ١٩٩٨، ص ٢٥٣.

(كذا) ما في نفس الأديب من تلك العناصر المعنوية.. ومن هنا نستطيع أن نعرف الأدب بأنه الكلام الذي يعبر عن العقل والعاطفة»^(٤).

نستنتج من التعريفات أن الأسلوب هو الطريقة التي يستعملها الأديب للتعبير عن موقفه ورؤيته وتجاربه، فيختار لأدبه المفردات ويصوغها ويسبكها في التراكيب تتألف مع الايقاعات والهندسات الصوتية فضلاً عن الصور الفنية والانزياحات، لذلك يُحسبُ العمود الفقري لكل عمل أدبي.

يُعدُّ الأسلوب الجزء الأساسي من مكونات البنية الكلية للعمل الأدبي، فكل لغة شعرية «لها بنيتها الدلالية الخاصة تماماً كما لها بنيتها الصوتية أو النحوية»^(٥) ومن وجهة نظر بوستال (Postal) «إنَّ البنية الدلالية التي تتداخل فيها العناصر المعجمية هي بنية علم التركيب»^(٦).

يدرس علم الأسلوب «الظواهر اللغوية جميعها، من أدنى مستوياتها - الصوت المجرد - إلى أعلاها وهو المعنى. ثم هو

الأسلوب، فيربط بين اللغة ومكوناتها وأبنيتها وقيمها، فيقول: «إنَّ مهمة علم الأسلوب الرئيسية في تقديري تتمثل في البحث عن الأنماط التعبيرية التي تترجم في فترة معينة حركات وشعور المتحدثين باللغة، ودراسة التأثيرات العفوية الناجمة عن هذه الأنماط لدى السامعين والقراء»^(١).

فيما أشار هيالمسلف إلى أن الأسلوب هو «الرسالة التي تحملها العلاقات الموجودة بين العناصر اللغوية لا في مستوى الجملة وإنما في مستوى إطار أوسع منها كالنص أو الكلام»^(٢). واتسع مفهوم الأسلوب، وتميز بخصائص منها التفرد والانزياح والاحصاء، فالأسلوب عند (جون ديبيوا) هو «سمة الأصالة الفردية للذات الفاعلة في الخطاب»^(٣).

وتحدث عدد من النقاد العرب المحدثين عن مفهوم الأسلوب، ومنهم أحمد الشايب الذي فكَّ الظاهرة الأدبية وأضاف «وأخيراً نجد العبارة اللفظية التي قد تسمى الأسلوب (style) وهي الوسيلة اللازمة لنقل أو إظهار

(١) صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، مصر، طبعة سنة ١٩٩٨، ص ٢١.

(٢) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط ٥، كانون الثاني، يناير، ٢٠٠٦، ص ٤٦.

(٣) يوسف وغيلسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط ١، سنة ٢٠٠٨، ص ١٨٢.

(٤) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص ٨٨.

(٥) Lyons John, Eléments de sémantique, traduit par Jacques Durand, librairie Larousse, 1978, p: 194.

(٦) Galmiche Michel, La sémantique générative, Librairie Larousse, Paris, 1975, p: 81.

السمو بالأرواح والتعبير عما يعجز التعبير عنه»^(٢).

– التوازي

لقد اهتمت الدراسات الحديثة بمصطلح التوازي (Parallélisme) وقد نُقل من المجال الهندسي إلى مجال التحليل الخطابي، وتجمع معظم الدراسات على ربط التوازي بالتكرار في أشكاله المختلفة فتجعله «تكرارًا بنيويًا وعنصر تأسيس وتنظيم»^(٣). ويُعد التوازي خاصية جوهرية في الشعر، وله وظيفة جمالية ايقاعية من حيث التجانسات الشكلية ومن حيث التجانسات الصوتية.

يظهر التوازي في قول الشاعر تكرر التركيبه نفسها المعجمية والنحوية والتركيبية والدلالية وهو ما يسمى بالتوازي الكامل، فيقول:

«ألا إنَّ الظلام... مئاتِ الآفِ الظلامِ

تدور من بيتٍ إلى بيتٍ

ومن موتٍ إلى موتٍ

ألا إنَّ الركّام... مئاتِ الآفِ الركّام»^(٤).

يدرسها في حالة البساطة وفي حالة التركيب. فمن الناحية الصوتية يدرس الجملة والفقرة كما يدرس الكلمة المفردة، ومن الناحية المعنوية يدرس المعنى الكلي أو الغرض الذي تدل عليه القطعة أو تشير إليه، كما يدرس دلالات الكلمات والجمل»^(١).

وإن التميز في اللغة والأسلوب هو ما تبحث عنه الأسلوبية عن طريق خرق قواعد النظام اللغوي العادي في المستويات الصوتية والتركيبية والدلالية، وسنستخدم في دراستنا وسيلة من وسائل التحليل الاسلوبي وهي الاحصاء الذي أكدَّ عليه جان كوهين، ويُعدُّ أكثر موضوعية وعلمية لتحديد السمات الأسلوبية الأجدر أن تحصى (المتر الأسلوبي).

البنية البديعة في الخطاب

تبرز في الخطاب ظواهر أسلوبية تتضافر مع الوزن والقافية والروي والتكرار، ومن أبرز هذه الظواهر الأسلوبية: التوازي، الجناس، والطباق، والشاعر «في استعانتة بالموسيقى الكلامية إنما يستعين بأقوى الطرق الايحائية لأن الموسيقى طرق

(١) شكري عياش، علم الأسلوب مدخل ومبادئ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ١، سنة ٢٠١٣، ص ٤٣.

(٢) هلال محمد غنيمي، التقدير الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، لبنان، ط سنة ١٩٩٧، ص ٣٨٠.

(٣) مفتاح محمد، المشروع النقدي المفتوح- السيماتيات- التداوليات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ١، سنة ٢٠٠٩، ص ٦٩.

(٤) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص ٢١.

ويأتي التوازن النقيضي عندما تتضح
الفكرة بوساطة جملة متناقضة مع سابقتها،
فيقول:

«ثور أسودٌ نطح الكرى

فاستيقظَ التلميذ

ثورٌ أبيضٌ نطحَ الثرى»^(١).

يستخدم التشكيلات اللونية المعاكسة
(أسود) الدال على دلالة الاحتلال وسيطرته
على القرى، ويستبدلها بـ (أبيض) لتعزيز
زمنية الريف، وماضيها القروي، وحياة
الفلاح الذي استفاق على سلب مكانه
وروحه.

– الجنس

يُحسبُ الجنسُ من الظواهر الأسلوبية
الفاعلة في الخطاب الشعري، ويسمى
التجنيس والتجانس والمجانسة. ومعناه أن
يحدث تجانس أي تشابه بين كلمتين في
النطق ويكون معناه مختلفاً^(٢). وهو
نوعان: جناس تام وجناس غير تام، ويغلب
في الخطاب الشعري الجنس غير التام.

ويظهر الجنس غير التام من خلال
ضرب الجنس المضارع وهو «الذي يكون

فيه الحرفان المختلفان متقاربين في
المخرج، ويكونان إما في أول اللفظ، وإما
يكونان في وسط اللفظ، وإما في آخر
اللفظ»^(٣). فيقول:

«ساد الرماد

وأقفلَ الشرقُ الشروقَ

وأقفلَ الغربُ الغروبَ

وأقفرَ الوادي»^(٤).

يظهر الجنس المضارع من خلال
الاختلاف في آخر اللفظ بين بنية الفعل
(أقفل) مكرورة مرتين وبنية الفعل «أقفر»
المعزز لبنية القفر والجذب، ويظهر الوسم
الشكلي من خلال البنية التناقضية بين
(الشرق/الشروق # الغرب/الغروب)
لتعزيز محور الجهات التي تحيط بالمكان.

ويتجلى الجنس الناقص من خلال
زيادة عدد من الأحرف في أول أحد
اللفظين، فيقول:

«وهذا الماء ضيفٌ حلٌّ وارتحلا»^(٥).

تشير بنية الجنس إلى بنية تتناقض
بين (حلٌّ) الدال على الإقامة و(ارتحلا)
الدال على الارتحال، لتسليط الضوء على
محوري الأعمار والهدم.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٢) محمود أحمد حسن المراغي، علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ٢، سنة ١٩٩٢م، ص ١٠٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٤.

(٤) حسن عبد الله، الديوان، الدردارة، ص ٨٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٦.

المتتابعة بشكل أفقي وعمودي، وتتألف من الجذر المعجمي للفعل الماضي (مضى - مضيتُ) والفعل المضارع (يمضي) والاسم (ماضٍ) وذلك في هندسة ايقاعية لافتة.

– الطباق

يسمى المطابقة أو التضاد، ويكون الطباق إمّا بلفظين من نوع واحد، أي أن يكون اللفظان اسمين أو فعلين أو حرفين. وهو أنواع: طباق الايجاب، وطباق السلب، وايهام التضاد^(٥).

يتأسس الطباق في الخطاب الشعري على أساس صيغة الأفعال، ويظهر طباق الايجاب من خلال النماذج:

«وكان الماء يبدأ في الغدير وينتهي في كأس جنديّ ضريّر»^(٦).

يظهر الطباق بين الفعلين (يبدأ # ينتهي) ويعزز بنية ضدية بين البدء والانتهاء.

ويتعالق الطباق برمزية الماء، فيقول:

«ويراقبون الماء يكثر أو يقل»^(٧).

كما يتأسس الطباق على أساس بنية

كما يظهر التجانس الصوتي من خلال طغيان اللون الأصفر في ثلاثة أسطر متتالية:

«عاش الأصفر العصفور بين الثور والمجرى

وصفراء النساء

وصفرة الديفور»^(١).

يتوضح الجناس غير التام من خلال الوسم الشكلي لمفردة (العصفور) وتجانساتها الصوتية مع مفردة (الأصفر) الدال على الاضفرار والذببول ومرحلة الجذب في الحيز المكاني.

ويظهر جناس الاشتقاق^(٢) وهذا النوع يُطرب الأذن ويعزز البنية الموسيقية في الشعر، فيقول:

«ومضيتُ من ماضٍ

مضى

يمضي

يعود»^(٣).

«ماضٍ مضى يمضي يعود»^(٤).

يتشكل الجناس في سلسلة من الكلمات

(١) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٢) القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، مرا: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط سنة ٢٠٠٩، ص ٣٨٠.

(٣) حسن عبد الله، الديوان، الدردارة، ص ٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٦) محمود أحمد حسن المراغي، علم البديع، ص ٦٨.

ويتجلى الطباق بين صيغة الفعل (تأتي
أرحل) لتعزيز بنية الاتيان والرحيل،
فيقول:

«تأتي الطائرات... وأرحلُ
الطائراتُ

وبيننا مستقبلٌ يمضي وماضٍ
يُقبل»^(٥).

تتكثف البنية التناقضية من خلال السمة
الأسلوبية، وهي سمة الالتفات، إذ ينتقل
الشاعر من ضمير الغائبة (هي) / الطائرات
وفعل مجيئها إلى ضمير المتكلم (أنا) /
أرحل، وتطغى بنية الرحيل، وتعزز البؤر
التقابلية بين البعدين الزمني (مستقبل #
ماضٍ) وصيغة الفعلين (يمضي # يُقبل).
ويجمع في الخطاب الشعري التطابق
بين الأسماء والأفعال، فيقول:

«ضوُّ لأحصي ما خسرتُ وما ربحتُ
خسرتُ أشياء الحياة جميعها وربحتُ
شيء
الموت...»^(٦).

يتكرر الطباق (مرتين) بين صيغة
الفعلين (خسرت # ربحت) لتعزيز محور
الخسارة والربح، ويربطهما بثنائية ضدية
بين (الحياة # الموت).

ضدية تتألف من صيغة الفعلين (يكثر #
يقل) من أجل التأكيد على حرص أهل
القرية على ضيعتهم، ومراقبتهم لأوضاعها.
ويبدو الطباق بين صيغة الفعلين (نسيت
أذكر) لتعزيز بنية النسيان والتذكر.

«كنا ننامُ على بساط الماء في تلك
الظهيرة من...»

نسيْتُ

وأذكر الدردارة الصفراء ترفعني»^(١).
وتظهر بنية التناقض من خلال صيغة
الفعل المضارع (ينخفض # يصعد) لتعزيز
محور الهبوط والصعود.

«ينخفض التلال

ويصعدُ السهلُ الفسيحُ»^(٢).

ويظهر الطباق بين (ماشيًا # قاعدًا) /
المشي والقعود.

«كان أبو علي تحت الكناية ماشيًا
أو قاعدًا»^(٣).

يتجلى الطباق بين تحديد جهات السهل
الفسيح (شرقًا # غربًا)، فيقول:

«هو السهلُ الفسيحُ

تحدهُ شرقًا وغربًا طلقةُ الصياد
خابتُ»^(٤).

(١) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، صص ٦٦ - ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٦) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص ٩٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

ويظهر طباق السلب من خلال صيغة
الفعل (أدري # لا أدري)، فيقول:

«أمام هذا الشيء: لا أدري!»

وأدري أنه حَطَّ الإله

وعبده عبد النبي الناطور»^(١).

يتأسس طباق السلب على أساس صيغة
الفعل الدال على الرؤية (نراك # لا نراه) /
(نرى # لا نرى)، فيقول:

«نراك»

لكن لا نراه

نرى يديك

ولا نرى قدميه أو عينيه

في صُورِ الحقول»^(٢).

تنصهر البنية البديعية في الخطاب،
وتتعانق المحسنات اللفظية (التوازي -
الجناس) مع المحسنات المعنوية (الطباق)
لتعزيز بنية المحاور الدلالية للهبوط
والصعود، الموت والحياة، الخسارة والريح،
الخصب والجذب، التذكر والنسيان.

الأساليب الكلامية في الخطاب

- الأسلوب الخبري

يستهل الشاعر قصيدته بأسلوب خبري،

يغلب عليها الطابع القصصي ويبدأه
بأسلوب انزياحي يصور الماء كأنه انسان
يأتي ويركب ويقوم فيعود، فيؤنسن المتنزه
الطبيعي / المكان «لأنَّ الذات الانسانية
المبدعة تقوم أثناء الأسننة بعملية اسقاط
نفسية لمشاعرها وعواطفها وخصائصها
على الموضوع الذي تؤنسنه، مما يجعله
يتوازى، ويتمهى مع الذات العاقلة، لتصبح
الذات غير العاقلة عاقلة، وتخرج عن
وظيفتها البيولوجية إذا كانت إحدى ظواهر
الطبيعية، لتقوم بدور انساني جديد، يتمهى
مع ذاتها الجديدة، فيبدو عملها في العمل
الأدبي متسمًا بالجمال والروعة»^(٣). فيقول:

«الماء يأتي راكبًا تينًا وصفصافًا

يقيمُ دقيقتين على سفوح العَيْن

ثمَّ يعودُ في سرفيس بيروت -
الخيام»^(٤).

يضيف على العنصر الطبيعي (الماء)
أعمال إنسانية في بنية دلالية تعزز محور
الإتيان والعودة، المكان والزمان، وتطرح
إشكالية الريف والمدينة (بيروت / الخيام)
لرسم مشهد استرجاعي من مشاهد القرية
الجميلة، ويستخدم الأسلوب الخبري المؤكد
بأداة (أَنَّ)، فيقول:

(٢) المصدر نفسه، صص ٨٦ - ٨٧.

(٣) مرشد أحمد، أسننة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا،
ط سنة ٢٠٠٩، ص ١٠.

(٤) حسن عبد الله، الديوان، الدردارة، ص ١٠.

«وأُنني في الصيف... من عشرين عامً

أفعى على برّ الخيام

وضفدع في الماء

والدرداره

عينٌ رأث حُلماً وفَسَّرَهُ المزارعُ
لوبياء»^(١).

يؤكد الشاعر البعد الزمني، حيث تعود به الذاكرة إلى عشرين عامًا، إلى صيف الخيام بخيراته، لكنّ مواسم الصيف وخيراته تتبدل من خلال رموز الحرب (طائرة - الطائرات - الجندي)، ويتحول المرج الممدود أمام البيت إلى مرتكزات عسكرية للعدو، مسيجة بالإسفلت، فيقول:

«والمرجُ ممدودٌ أمام البيت

كحديقةٍ في قبرٍ

ويشقُّه حَطٌّ من الإسمنت

ودخانُ جيشٍ مرٍّ»^(٢).

ويوظف من الأعداد (الأربعون) في إشارة إلى الضحايا الشيوخ والعجّز في مجزرة آذار ١٩٧٨ أثناء احتلال الخيام من قبل اسرائيل والميليشيات الحدودية، فيقول:

«الأربعون تساقطوا مثلَ الثياب الفارغه

الأربعون تساقطوا مثلَ الظلال

ولم يسيل دمهم وسال

داءً المفاصل

والسُّعال»^(٣).

ويسرد سيرته الذاتية بأسلوب سردي لأحداث ماضية، وبتراكيب وصفية، فيقول:

«في خيمةٍ قامت على كَتِفِ الغدير ولدتُ

عشتُ طفولةً مملوءةً سمكًا وريشًا

كنتُ أصغرَ من أخي الأكبر

ومن الكناية»^(٤).

لقد وُلِد وأقام في خيمة على كتف الغدير، وعاش طفولة سعيدة في قريته حيث الطبيعة الريفية بخيراتها، ويتغنى بأشجارها الكينا في إشارة إلى التعلق بقريته، وهذه الشجرة من أضخم معالم الدردارة تنهض وسط مقهى «أبو علي»، فيقول:

«كان أبو علي تحت الكناية ماشيًا

أو قاعدًا

يتأمل الأيام والتين القريب»^(٥).

يتذكر الشاعر «أبو علي» وهو صاحب مقهى الدردارة، يجلس تحت شجرة الكينا يتأمل الأيام والرزق القريب، حيث كان أهل القرية يعيشون بين البوط وهو نبات مائي أخضر ذو شكل سفي، فيقول:

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

(١) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص ١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٤) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، صص ٣٢ - ٣٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٣.

«وكنا آنذاك نعيش بين البُوط

نسبحُ

أو نجفُّ على ذراع الشمس»^(١).

ويعود بذاكرته إلى أيام العيش في القرية، وذلك بأسلوب خبري، فيقول:

«أذكرُ من حديد الصيف

فحَّ حسنُ خليل

وبأسه المائيّ

يركضُ أو يعومُ»^(٢).

يتذكر من الصيف فح حسن خليل في إشارة إلى اسمه البلدي، لكن الأيام تغيرت، وتبدل الزمان من خلال سيطرة بنية الاحتلال، فيقول:

«فاستطاع التينُ أن يصفرَّ قبل أوانه بدقيقتين»^(٣).

فتطغى علامات الاصفرار والذبول، وتنتهي قصة التين وكأنها قصة إنسان رحل، فيصفر قبل أوانه، وتنكشف ثنائية بحركة زمنية تتراوح بين البطيء والتسريع. «متخفياً بالليل، يُنهي التينُ قصَّته ويرحل»^(٤).

لقد أكثر الشاعر من استخدام الأسلوب الخبري الابتدائي، بالاضافة إلى الأسلوب

الخبري المؤكد، وقد اختزن بنية استرجاع الماضي والذكرى إلى حاضر الشاعر.

– الأسلوب الإنشائي

يستخدم الشاعر الأسلوب الإنشائي بصيغ الأمر والنداء والاستفهام، وقد ركز على صيغة الأمر بالدرجة الأولى يليها صيغة النداء وبعدها الاستفهام، وقد عكست بنية الأساليب الإنشائية تنوع المواقف المختلفة في الخطاب.

– بنية الأمر

وردت بنية الأمر ٣٧ مرة، وتشكلت من صغتين: صيغة فعل الأمر بمعدل ١٧ مرّة، وصيغة المضارع المقرون بلام الأمر ١٠ مرات، ونبدأ من تواتر البنى الأمرية في بداية الخطاب، فيقول:

«سَلِّمْ على... سَلِّمْ على...

واسقِ القبر

واطلُعْ وردةً بيضاءَ فوق القبر

واجعل أيها الماء النهارَ مساحةً مزروعةً جزراً»^(٥).

تختزن صيغة بنى الأمر (سَلِّمْ - اسقِ - اجعل - اطلع) بنية الأمل ونشدان فعل السقاية، وتتضافر مع فكرة تحويل

(٢) المصدر نفسه، صص ٧٨ - ٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ٧٧.

(١) المصدر نفسه، صص ٧٥.

(٣) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص٧٦.

(٥) المصدر نفسه، صص ١٠ - ١١.

مساحات الأرض القاحلة إلى مساحات
مزروعة بالجزر ما يعزز بنية التجدد
والاخصاب.

وترد البنى الأمرية في القصيدة بصيغة
المضارع المقرون بلام الأمر، فيقول:

«ليكن خريفًا

أين بأس الرِّيح

ولتتأهب الحشرات

وليجلس على عرش الجبل

هذا الغراب!»^(١).

تتوالى صيغ الأمر من خلال حشد
الأفعال (ليكن - لتتأهب - ليجلس)، ويتابع
فيقول:

«ليكن خريفًا صادقًا

وليأت فلاحٌ شديد البأس

ولينهض صباحًا مع صياح الشمس

ولينفض يديه من التعاسة والكسل»^(٢).

يكرر صيغة الفعل (ليكن) وتنصهر مع
بنية صيغ (ليأت - لينهض - لينفض)
لتعزيز دلالة الهزيمة لكنها تفتح باب الأمل
والتغيير واندحار اليأس واشراق شمس
الحياة والنشاط والتحرر وعودة الحياة في
الريف، وتنسجم بنية الأمر مع رؤية الشاعر

في إعادة الحياة الزمنية الماضية القائمة
على الخير والعطاء.

– بنية النداء

النداء – لغة – التصويت والنداء،
واصطلاحًا: طلب اقبال المدعو (المخاطب)
على الداعي (المتكلم) لأمر ما بحرف يقوم
مقام فعل النداء (أدعو) ويتضمن معناه.
وأدواته ثمان: (أ – أي – آ – يا – هيا – أيا
– وا)^(٣). يوظف الشاعر أسلوب النداء في
حدود ٢٢ مرة، وتتشكل من نمطين ضمن
المقطع الأوّل: النمط الأوّل (حرف النداء
(يا) وهي للمنادى البعيد + المنادى «أي») +
الهاء + البديل + النعت) في السطر الأوّل،
وفي السطر الثاني يحذف حرف النداء
ويبقى على البنية النحوية نفسها (المنادى
«أي») + الهاء + البديل + النعت، فيقول:

«يا أيها الماء التحية

أيها الماء الهدية

أيها الماء السلام»^(٤).

«يا أيها الماء الذي وثب الزمان
وبللاً»^(٥).

يستخدم الشاعر بنية النداء، وينكشف
محور الماء بين دلالة الماضي والحاضر،
الاخصاب والسلب، وتستمر المناجاة من

(١) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص ١١٢.

(٢) حسين جمعة، جمالية الخبر والانشاء، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة ٢٠٠٥، ص ١٧٩.

(٣) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص ٦٤.

(٤) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص ٦٤.

أول القصيدة حتى آخرها، فينادي الماء الذي هو رمز الاخصاب لكن هذا الاخصاب تحول إلى دلالة سلب الحياة، وتضييق دلالة اخصاب الحياة ويحلّ محلها دلالة الجذب.

«أيها الماء الذي وثب الزمان

وجاء محروراً إليّ»^(١).

نجد التحول البنيوي من خلال بنية النداء ما يضع الماء في محور الصفاء والتلوث، فيتحول من الماء الصافي إلى الماء المحرور في اشارة إلى التلوث.

تتكرر النداءات في الخطاب لتعمق دلالات التوحد بين الذات الشاعرة ونداءات الماء، لأنها وجدت نفسها أسيرة التمزق والضياح والعجز وعدم ادراك الواقع، ويستحضر من الذاكرة الشعبية، وبتناص أسلوبى التركيب الإنشائي بصيغة النداء، فيقول:

«يا ضوءَ عَيْني...»

يا بُنيّ...»^(٢).

تومئ البنية الندائية إلى دلالات النواح والبكاء، فكما تبكي الأمهات وتنوح على فقدانها لمحبيها، ينوح الشاعر حسرة على فقدان المكان.

يبدو الشاعر مفتوناً بالخيام خاصة

الدردارة التي كانت في الماضي وفي أيام الصيف، كانت الخيام تندلق غرباً نحو الدردارة، فتنبتُ بين أشجار التين الخيم التي تقيم فيها العائلات العاملة في الكروم والحقول لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر... لذلك فإنّ الدردارة للذين يعرفونها قديماً، اسم تفوح منه رائحة الصيف.. لكنّ شكل الحياة الريفية تقهقرت بسبب تقدم الدبابات غرباً، وتبرز البنية الندائية التي تتألف من (حرف نداء + منادى + فعل ماضٍ + الفاعل)، فيقول:

«يا مرجُ انطفأ الصيفُ

وشَعَشَعَ - حيث كان التين - في أحداقنا الخوفُ»^(٣).

ينادي الحيز المكاني (مرج) وتبرز ثنائية الانطفاء والنور من خلال البنية الفعلية (انطفأ # شعشع) لدلالة سيطرة الخوف على الذات الشاعرة وتركها تصارع ضبع الأرق.

وتحضر بنية نداء الاسم من خلال تشكيل بنية ندائية تتألف من (حرف النداء + المنادى / الاسم)، فيقول:

«يا مهدي السَّماءِ على البحيرة»^(٤).

وذلك للتخصيص ومشاركته الشخصيات همومه ووجعه.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٢) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص ٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

أداة الاستفهام	عدد تواترها	نسبتها
أين	٨	٪٤٤,٥
كيف	٤	٪٢٢,٤
الهمزة (المحذوفة)	٣	٪١٦,٦
من	١	٪٥,٥
هل	١	٪٥,٥
ماذا	١	٪٥,٥

بالاستناد إلى الجدول أعلاه، نلاحظ أن اسم الاستفهام (أين) قد احتل المرتبة الأولى وجاء بمعدل (٥,٤٤٪) يليه اسم الاستفهام (كيف) بنسبة (٤,٢٢٪) وحرف الهمزة المحذوفة.

تتألف بنية الاستفهام في الخطاب من أنماط تتألف من اسم الاستفهام + الفعل المضارع + حرف النصب + الفعل المضارع المنصوب، فيقول:

«كيف يمكن أن نعلبَ

ذلكَ

المشهد؟»^(٣).

تنساب بنية الاستفهام في انزياح أسلوبية، استعار فكرة التعليب وتخزين الأشياء وأعطائها لفكرة (المشهد) والصورة الموجودة في الذاكرة يوم رحلت قصة التين والعصافير غادرت مكانها، واحتلَّ العدو أرض الخيام ودمرها وذلك للمقاربة

وتنصهر البنية الندائية مع تكرير حرف النداء وتغيير في المنادى (منازل - جداول - جنائن - قفار)، فيقول:

«أنتِ يا منازلُ

يا جداولُ

يا جنائنُ

يا قفارُ»^(١).

تمثل البنية الاستبدالية التكرارية الأخيرة سمة أسلوبية لافتة، فاستبدل (منازل + جداول + جنائن) / الحيز المكاني بالقفار ما يعمم بنية القفر والجذب.

- بنية الاستفهام

الاستفهام وهو «طلب فهم شيء لم يتقدم لك علم به بأداة من إحدى أدواته وهي: الهمزة وهل ومن ومتى وأين وأنى وكيف وكم وأي»^(٢). وتواتر أسلوب الاستفهام في الديوان بمعدل ١٨ مرة موزعة حسب الجدول الاحصائي التالي الذي يكشف عن عدد التكريرات حرف الاستفهام أو الاسم، ويبين نسبة تواتره:

(١) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢) أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط ٢٠٠٩، ص ٥٥.

(٣) حسن عبدالله، الديوان، الدردارة، ص ٧٧.

بين العالم الشعري والعالم الواقعي المتحول.

وترتبط بنية الاستفهام بتصوير مشهد الرحيل، فيقول:

«كيف يمكنُ أن أصوّر ذلك السهل العسير؟»^(١).

تنصهر البنية الاستفهامية مع التركيب الوصفي (السهل العسير) لتكشف عن تطابق بين السهل ومشكلته الحاضرة وقد أصبحت عسيرة كما تدل على صعوبة ادراك الواقع المتحول، والصراع الزمني والمكاني، فيتساءل بحسرة:

«أين صياحكُم في القمح؟»^(٢).

«أين السماء على البحيرة

أين بابُ البيت

هل من فيلسوفٍ؟

أين مهدي

أين يا مهدي السماء على البحيرة

أين بابُ البيت؟!»^(٣).

تتواتر بنية الاستفهام، وتتكدف لتأكيد دلالة غياب معالم البيت، وتغييب المزارع من حقله واقتلعه من أرضه.

- المعجم الشعري في الخطاب

لكلِّ شاعر معجمه الخاص الذي يتفرد

به عن بقية الشعراء، يعكس الخواص الأسلوبية في الخطاب، وتحسب الألفاظ هي أساس تكوينه فالمعجم هو الثروة اللفظية والثراء المعجمي المستخدم في التجربة الشعرية، وما يمنحه الذاتية والاستقلالية هي قدرة المبدع على تفجير الطاقات الكامنة من خلال اشباعها بالدلالات، ويشحنها بطاقات، كما تتشكل في بني انزياحية تفتح باب التأويلات وتعبر عن ثقافته ورؤيته وتعكس عوالمه الفكرية والايديولوجية.

وقد أحصينا المعجم الشعري في الديوان عند حسن عبد الله، ووزعناها في حقول دلالية، وتشمل:

حقل الطبيعة: لقد احتلَّ هذا الحقل المرتبة الأولى في الخطاب بتواتره، ويتفرع إلى حقول فرعية هي:

حقل الأشجار والمزروعات والبنات:
التين - الصفصاف - جزر - لوبياء -
وردة - الزيتون - البصل - حور - البطاطا
- اللوز - الذرة - البطيخ - القمح - الرمان
- بندورة - الكناية (شجرة الكينا) -
بازنجانة - سرو - البُوط - الأشجار.

حقل الحيوان: ضفدع - أفعى - الكلاب
- البقر - ثور - الفئران - سمكة - هرر -

(٢) حسن عبد الله، الديوان، الدردارة، ص ٩١.

(١) المصدر نفسه، صص ٨٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

- الحمار - الغزالة - السلطعون - الضُّباع.
- حقل الطيور:** العصفور - فراشة - البجعيات - أبو الحنّ - الدجاجة - ديك - اليمام - نحلة - الغراب - الشوكة(*).
- حقل الماء:** العين - الماء - الغدير - غيمة - الجرار - النبع - بحيرة.
- حقل الهواء:** هواء - ريح.
- حقل الفلك:** الشمس.
- حقل الأرض:** الأرض - قفار - جنائن - الثرى - الحشيش - التل - القمم - الوادي - الجبل - المرج - الصخور - الرمل - الحصى - السهل.
- حقل الزراعة:** الفلاح - المزارع - الراعي.
- حقل النار:** نار - الدخان - مدافع.
- من الملاحظ، الثراء اللفظي في استخدام الحقل المعجمي للطبيعة للدلالة على طبيعة الريف وجمالاتها التي اندحرت معالمها بفعل طغيان الدمار، فتعززت دلالات الحزن والألم والحنين لأيام القرية الجميلة بمعالم الطبيعية.
- حقل المكان**
- من مفرداته: الفضاء - بيروت - الخيام - مرجعيون - الدردارة - دبين - البيت.
- يرتبط تنوع المكان بالبعد الزمني لاسترجاع الماضي في الريف المتفقد في الحاضر خاصة في المدينة (بيروت) الذي يشكل نافذة يرجع منها إلى الدردارة.
- حقل الحرب:** ومن مفرداته: الطائرة - جنديان - جيش - الأسفلت - الطائرات - دبابة - دم - الحرب - رصاصة - البارود - تحتل - الجنود - تقصف - الدماء.
- يرتبط هذا الحقل بزمنية الحرب وشيوع دلالات القصف والقتل والابادة والفتك بقرية بكاملها.
- حقل الموت:** من مفرداته: الموت - القبر - الظلام.
- حقل الأعداد** ويشمل المفردات: مئات الآف (مرتين) - عشرون ألفاً (مرتين) - الأربعين - الآف (٤ مرات) - الثلاثة (مرتين) - اثنان (مرتين) - المئة - عشرين.
- حقل الجهات:** شرق - غرب - الجهات.
- حقل الزمان** ويضم المفردات: الأيام - صباح - مساء - صيف - شتاء - شروق - غروب - النهار - الليل - الخريف - سنين - دقيقتين - تموز - عشرين عام.
- يرتبط حقل الزمان بالطبيعة، وتتجاوز دلالاته الزمنية إلى دلالات ترتبط بالمعاناة

(*) طائر الأغنية، ينقض فيختطف الدجاج والخراف وأحياناً.. الأولاد.

النفسية، ويرسم مشهداً بطيئاً لسنوات القرية ومواسمها وعادات أهلها بمقابل المشهد السريع للتحوّل الزمني من العيش في القرية إلى اصفرار الحياة وطغيان لشعاع الموت، وقد حضرت دلالات الصيف وغابت دلالات الربيع كلياً من الخطاب.

لقد نوّع الشاعر في توظيف المعجم الشعري، وامتاز بالثراء ومن خلال العلاقات التجاورية عكس عالم الشاعر الشعري وأخصبت اللغة الشعرية بدلالات جديدة عبرت عن هموم الشاعر ومعاناته وكان لدمار قريته وتهديمها الأثر البالغ على فكره ووجدانه، وانصهرت مع دلالات الحقل المعجمية في الخطاب لتعزز بنية صدام الانسان مع الزمان وعدم قبوله للواقع الجديد.

خلاصة

تختصر القصيدة في الخطاب الشعري قصة انسان أَلَفَ حياة القرية وتعلّق بها إلى درجة الانصهار والتوحد بها، لكنّ زمنية الاحتلال اضطرتّه إلى ترك بلدته الخيام يوم دمرها العدو، واحتلّها، فغادرها على أمل أن تعود الحياة إليها، وحبكها بأسلوب سردي تناغم مع شخصيات مع القرية (مهدي - أبو علي - الناطور - الشاعر نفسه / حسن خليل)، وتشارك فيها الأسلوب الوصفي وذلك لتوصيف الواقع، فأكثر من استخدام

التركيبية الوصفية القائمة على البصر والحس، وقد تفنن في إيصال فكرته إلى القارئ، فاستغلّ الأساليب الفنية التي تشابكت وتلاحمت بشكل أفقي وعمودي، والتحمت العناصر الأسلوبية بعضها ببعض بعلاقة عضوية رسمت التضاريس الوجدانية الداخلية للذات الشاعرة من خلال تداخل إيقاعات الماضي في إيقاعات الحاضر بحركة زمنية شبيهة بالمد والجزر كما رسمت تموجات خارجية لمشاهد تساوقت بين البطء والتسريع، الحركة والسكون، النور والظلام، الحياة والموت.

لقد شكل الحدث صراعاً في نفسية الشاعر وظهر ذلك من خلال حركية الحوار الداخلي في القصيدة المنظم، وانصهر في بنية ضامة، وانسجمت البنى الأسلوبية وانصهرت الطباقات والتجانسات الصوتية والتوازيات والتقابلات الدلالية والأساليب الانشائية المتنوعة والمعجم الشعري وذلك لرسم الذات الشاعرة في إطار من معاناة الانسلاخ من المكان لدرجة الإفلاس الشعوري، وتبارت المحاور الدلالية بين: الماضي والحاضر، الاتيان والعودة، الإقامة والرحيل، الإعمار والهدم، الحياة والموت، والإخصاب والجذب، وسارت في أفق بنيوي عكس تطلعات الشاعر إلى المستقبل والأمل بالتححرر والابنعات وعودة الحياة إلى القرية، وتطهيرها من أيدي المحتلين.

مصادر ومراجع البحث

- القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، مراجعة: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، طبعة سنة ٢٠٠٩.
- مفتاح محمد، المشروع النقدي المفتوح - السيماتيات - التداوليات، الدار العربية للعلوم ناشرون، طبعة أولى، سنة ٢٠٠٩.
- محمود أحمد حسن المراغي، علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، طبعة ثانية، سنة ١٩٩٢م.
- مرشد أحمد، أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، طبعة سنة ٢٠٠٩.
- هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، لبنان، طبعة سنة ١٩٩٧.
- يوسف وغليسي، إشكاليّة المصطلح في الخطاب النقدي العربيّ الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، طبعة أولى، سنة ٢٠٠٨.
- (17) Lyons John, Eléments de sémantique, traduit par Jacques Durand, librairie Larousse, 1978.
- (18) Galmiche Michel, La sémantique générative, Librairie Larousse, Paris, 1975.
- عبدالله حسن، الديوان، الدردارة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨١.
- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربيّ، طبعة ثالثة، لا ت.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة سنة ٢٠٠١.
- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة أولى، سنة ٢٠٠٩.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، طبعة سابعة، سنة ١٩٩٨.
- أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، طبعة ٢٠٠٩.
- حسين جمعة، جمالية الخبر والانشاء، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة ٢٠٠٥.
- شكري عياش، علم الأسلوب مدخل ومبادئ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة أولى، سنة ٢٠١٣.
- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، طبعة خامسة، كانون الثاني، يناير، ٢٠٠٦.
- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، مصر، طبعة سنة ١٩٩٨.

صورة المرأة في شعر ذي الرمة بين النمطية العربية والرموز الميثولوجية

د. عزيز طوني الأشقر^(١)

وإذا كان الشعر الأمويّ يَصوّر الصّراعات والتناقضات الاجتماعية، أو القيم الموروثة التي كادت تذوب في حركة التجديد التي شهدتها العصر، فإنّه قد شكّل أيضاً وسيلة للتنفيس عن كلّ مظاهر التوتر والظلم وسفك الدماء الناتجة من الصراعات الحزبية والإيديولوجية، فكان الشّعر حرّية مؤلمة للروح تصوّر دقائق العصر وتفصيله، معتمداً التصريح تارةً والتلميح طوراً، عاكساً أمةً في لحظة اكتشاف ذاتها وتأكيد هويّتها، فجاء الشعر مليئاً بالصور الخيالية والتمثّلات الرمزية.

وانطلاقاً من واقع هذا المجتمع القائم على التناقضات والصّراع بين الموروثات من جهة والنظرة الجديدة للذات والعصر من جهة أخرى، فإنّ هذه الدراسة تسعى

لقد شكّلت صورة المرأة على مرّ العصور الانعكاس الأبرز لحركة الحياة، لا بل للحياة نفسها، سواء أكانت هذه الصورة شعريّة أم أسطوريّة، كما أنها قد عكست بأبعادها النفسية رغبة الرجل في الشّعور بالأمان.

أمّا صورة المرأة في العصر الأمويّ تحديداً، فقد كانت مدار تنازع ما بين التقليد والتجديد، لا سيّما أنّ الشعراء الأمويين قد عمدوا إلى توسيع الرؤية في الشعر التقليدي، لجهة النظرة إلى الحياة عموماً، ومن ثم تجاوزها المبادئ الجاهلية العميقة إلى رؤية عالميّة للعالم^(٢)، ذلك أنّ هذا العصر كان تمثيلاً حقيقياً للوعي الداخلي للعرب خلال القرن الأول للإسلام، بحيث شكّل إطار حياة جديدة أكثر من كونه تجربة روحية لها^(٣).

(١) دكتوراه دولة في اللغة العربية وآدابها - مدير ثانوية الزلعا الرسمية.

(٢) سلمى جيوس الخضرا: الشّعر الأموي، مجلّة جامعة كامبردج، ١٩٨٣، ص ٣٨٧-٤٣٢.

(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

شعره فقد استندت إلى بنية القصيدة، خلافاً لما ذهب إليه ابن قتيبة في التفسير الوظيفي للقصيدة^(٥) الذي يقوم على أساس الفصل بين اللفظ والمعنى، فهذا الأخير يحسُن إذا تضمَّن حكمة أو مثلاً أو فكرة أخلاقية أو ما يمتُّ إلى هذه الأمور بصلة^(٦)، أمَّا الرُّكُون إلى بنية القصيدة فهدف إلى إظهار تماسك بنية قصائده، معتمدين في ذلك على العلاقة القائمة بين الرموز الشعرية، وأبعادها النفسية، على قاعدة الرموز التي أرساها فرويد^(٧)، والنماذج التي أوجدها يونغ^(٨)، لجهة وجود معانٍ رمزيةً كامنة خلف المعنى التعييني، بحيث تتمظهر بتمثلات خيالية مختلفة ترتبط بآثار الخيال الشعري السابق للعصر الأموي وتمثلاته ونمطيته.

وعليه، فإنَّ المفتاح الرئيس لاستيعاب اللُّغة الشعرية عند ذي الرمة يقوم على فهم

إلى تفسير صورة المرأة في شعر ذي الرمة^(١)، الشاعر الأموي الذي تأثر بعصره وجديده وصراعاته من جهة، حاملاً آثار الأسبقين في شعره وأسلوبهم ونظرتهم من جهة ثانية، فتشكَّلت في شعره صورة خاصة للمرأة، لا هي أمويةٌ صرف ولا هي جاهليةٌ صرف، إنما تُشبهه خيال ذي الرمة وصورته لذاته ولمجمعه، حتَّى قال فيه أبو عمر بن العلاء «فُتِحَ الشعر بامرئ القيس وخُتِمَ مع ذي الرمة^(٢)»، والذي أجابه الفرزدق يوم سأله «ما لي لا أذكر مع الفحول» أنّ «ما قصر بك عن غايتهم بكاؤك في الدمن وصفتك للأبعار والعطن^(٣)»، مع الإشارة إلى أنّ شاعرنا لم يكن قريباً من الظروف السياسية التي عاشها غيره من الشعراء بسبب بداوته وبُعدّه عن الحواضر التي شهدت اضطرابات العصر^(٤).

أمَّا عملية تفسير صورة المرأة في

(١) هو غيلان بن عقبة بن بني عدي بن عبد مناة، وقيل لُقّب بذي الرمة لأنَّ مية التي شغفت قلبه لِقَبته بذلك حين أمّ مخبأها وطلب منها أن تسقيه ماء، وكان على كتفه رمةً (وهي القطعة البالية من الحبل)، فلَمَّا أثنه بالماء وكانت لا تعرفه، قالت: «إشرب يا ذا الرمة».

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٤، ص١٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٧.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، دار ومكتبة هلال، بيروت، ١٩٨٨، ص٤٨٣.

(٥) ابن قتيبة: السُّنن والشُّعراء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص٧٤-٧٥.

(٦) زكي عثمانوي: في قضايا النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩، ص٢٧٩-٢٨٠.

(٧) سيجموند فرويد: الحلم وتأويله، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٥، ١٩٩٣، ص٤١-٤٥.

(٨) كارل يونغ: الإنسان ورموزه، سيكولوجيا العقل الباطن، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٢، ص٩١-١٠٢.

العقلية العربية الأصلية، ومن مظاهر الحياة الجاهلية الخالصة»^(١).

ومما تقدّم، تنور الإشكالية التالية: ماهي الدوافع التي حرّكت ذا الرمة ليصوّر الجمال الأنثوي؟ واستطرادًا هل عبّر عن هذا الجمال معتمدًا الصّورة التي رسمها العصر الأمويّ له، أم أنه عبّر عنه مقلدًا الشعراء السابقين؟ وأخيرًا هل تعكس صورة الحبيبة مقاييس الجمال الذي ينشده الذوق العربيّ في تجلياته الواقعية أم إنها تعبّر عن مثال أعلى للجمال طافح مترسّب عن معتقد ديني أو أسطوري سابق؟

إنطلاقًا من هذه الإشكاليّات، فإنّ لهذه الدراسة بُعدين: البعد الأول يرتبط بالصّورة الشعريّة وتمثّلاتها في الرموز التي طاولت المرأة الأموية، باعتبار التعبير عن الغزل والحبّ يشكّل الجانب الأبرز من ثقافة الشعوب، ويعكس خيالها، أمّا البعد الثاني فيتعلّق بالبنية التقليديّة للقصيدة الأموية لجهة تمثّلها بالقصيدة التقليديّة.

وفي سبيل ذلك، كان لا بدّ من اللّجوء إلى المنهج النفسي الذي يستمدّ آلياته النقديّة من نظريّة التّحليل النّفسي، حيث نلاحظ أنّ النّص الأدبيّ مرتبط بلاوعي صاحبه^(٢)، وكذلك المنهج التّاريخيّ الذي

تمثّلاتها المجازيّة، المرتكز بدوره على فهم الانزياحات الأسطوريّة التي أحاطت بالقصيدة، الأمر الذي يفسّر بدوره هيكلية القصيدة وبنيتها، لجهة الحروف ودلالاتها، والرموز التي تتضمّننها القصيدة، والطريقة التي صيغت فيها الصّور المجازيّة والقالب الذي احتواها.

ولا بدّ من الإشارة في هذا السّياق إلى أنه عند التكلّم على رمزيّة موضوعات القصيدة، فإنه لا يقصد بالرمزيّة الغموض والتعقيد، ولا الألباس والطلاسم التي يصعب شرحها وفكّ رموزها ومعرفة دلالاتها، إنّما المقصود هو تلك القدرة التي تمتلكها القصيدة على إثارة تصوّرات ذهنيّة دلاليّة، فضلًا عن قابليّتها على إثارة المعاني المتعدّدة في نفس المتلقّي، وبذلك يمكن القول إنّها تجسّد النّوازع النّفسيّة وتعرضها كما تتولّد في ذات الشاعر، وبصورة طبيعيّة من عمل العقل والمنطق من دون أيّ تعقيد.

وإذا كانت هذه الدراسة تتعلّق بالشاعر الأمويّ ذي الرمة والرموز الشعريّة التي أحاطت بصورة المرأة في شعره، فإنّ البعض يذهب إلى اعتبار أنّ الرمزيّة بمفهومها العربيّ «قد نبعت من الأدب الجاهليّ، واستعارت ألوانها من طبيعة

(١) حسين عطوان: مقدّمة القصيدة الجاهليّة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠، ص ٧٥-٧٦.

(٢) يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ١، ٢٠٠٧، ص ٢٢.

يعوّل على دور البيئة والتّاريخ في الأدب والشّعر^(١)، بالإضافة إلى المنهج الوصفيّ التحليليّ الذي يصف الظواهر في تطوّرها ويحلّلها^(٢).

وعليه، فقد تمّ تقسيم هذا البحث إلى أقسام ثلاثة، يتناول الأول المفهوم الأنثويّ العام في الدّوق العربي، أمّا الثاني فتطرّق إلى المفهوم الأنثويّ في لاوعي الشاعر، لنعالج في القسم الأخير عمليّة اتّحاد المرأة بالطبيعة وتمثّلها بالآلهة، وصولاً إلى صورة المرأة - المثال التي صورتها مختلف الأساطير.

١ - الصورة الأنثويّة التقليديّة في شعر ذي الرّمة

إذا كانت بنية القصيدة التقليديّة عموماً تتألّف من أقسام ثلاثة تبدأ بالطلل والوقوف على الأطلال حيث يبدأ الشاعر «بذكر الدّمّن والآثار: فبكى واشتكى وخاطب الرّبّع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الضاعنين... ثم وصل ذلك بالنسيب، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه»^(٣)، ومن ثم ينتقل إلى وصف

الرحلة وعناء السّفر ومعالم الطريق ووحوش الصّحراء، ووصف الناقة أو الحصان، ليصل أخيراً إلى الغرض الأساس في القصيدة الذي قد يكون مدحاً أو هجاء أو فخراً...^(٤)، وإذا كان الانتقال من قسم إلى آخر يتمّ بشكل مفاجئ، كأنّ لا رابط بين القسم والآخر، فإنّ بناء القصيدة في العصر الأمويّ قد اختلف لجهة التخلّي عن المقدّمة الطليّة التي يرافقها الرعب من تحولات الزمن والخوف من القدر المتمثّل بالموت المحيط بالشاعر من كلّ صوب، فأضحت بنية القصيدة أكثر تماسكاً، وقد يعود ذلك إلى الروح العربيّة الجديدة التي أوجدها التفاعل الثقافي بين العرب وسواهم من الشعوب، خصوصاً بعد انتشار المفاهيم الإسلاميّة، لا سيّما تلك المتعلّقة بمفهوم الزمن وإعادة توجيهه بما يتلاءم وهذه المفاهيم والقيم^(٥).

وإذا كان ذو الرّمة من شعراء العصر الأمويّ، إلّا أنّ حياته البدويّة وتعقّفه في الحبّ وإخلاصه لحبيّته ميّة، باستثناء ما ذكّر عن حبيبة أخرى تدعى «خرقاء»، فإنه

(١) عبد الرّحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٧، ص١٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٨.

(٣) ابن قتيبة: الشّعْر والشّعراء، ص١-٢٠.

(٤) عبد الملك مرتاض: السّبع معلّقات، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨، ص٥٢.

(٥) وهب روميّة: بنية القصيدة العربيّة حتّى نهاية العصر الأمويّ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧، ص٢٩٦.

الثقافيّ الفحوليّ الذي تمّت العودة إليه وتمثّله مع مطلع العصر الأمويّ^(٣).

إنّ تشابك التمثّلات الشعريّة عموماً يقودنا إلى المغزى الأعمق للمفهوم الأنثويّ الذي يتجلّى بأشكال مختلفة في شعر ذي الرمة، المتأثّر بصور من سبّقه، فالحبّية تمثّل تلك المرأة الراقية التي يعشقها الشاعر البطل، الذي يستهلّ قصيدته بالنسيب، واصفاً شعوره المتألم، وتوقه إلى ديار الحبّية المهجورة، وإلى ذكريات الماضي السعيد بالقرب منها. لقد أصبح كلّ ما يعيده إلى ذكرى الحبّية يثير شغفه ويحرك مشاعره، كما لو أمسى العالم كلّ مرتبطاً بها، فكلّ ما لمستّه، أو كلّ مكان مرّت به، أضحى يرتبط بها، بل لا يوجد إلاّ من خلالها: أسماء المواضع والأراضي والكتبان الرملية والمفاوز، التلال، النسيم، المواقد، وأكوام الرّماد...

إنّ الشاعر هنا، يتّصل بنا من خلال تجربته المبدعة في الحبّ والتي حطّمتها الصدّ والهجر، فأضحى قلبه جريحاً، يطارده اضطهاد الحبيب، في حين أنه لا يرغب إلاّ بالوقوف على ديارها المهجورة، راجياً رفيقه الوقوف إلى جانبه ومشاركته

يمكن تصنيفه في نظرتة العذريّة إلى المرأة إلى جانب كثيرٍ وجميلٍ وقيس، كما أنه لم يخرج من النظرة التقليديّة إلى المرأة، بحيث لم تحدّ صورة حبيبته عن الصّورة التي كانت تسكن مخيلة امرئ القيس «فاطمة»، أو «خولة» طرفة بن العبد وسواهما، بحيث بقيت الصور الحسيّة نفسها، تسير على النسق ذاته، وإنّ عمد شاعرنا إلى إضافة بعض اللّمسات الناتجة من تأثيرات عصره فبدت صورة الحبّية أكثر وهجاً، على الرغم من اعتماده صور الأقدمين، كتشبيهها بالظبي، يقول^(١):

بِرَاقَةٍ الْجَبِيدِ وَاللَّبَاتِ وَاضِحَةً

كأنّها ظبيّة أفضى بها لبب

وقد فسّر البعض هذه العودة إلى الصّورة الجاهليّة والاستلهام منها إلى «الاختلاط بالأعاجم الذي أثر على اللّغة العربيّة من حيث العجمة واللّحن، فنقل الشّاعر الأمويّ صورته الغزليّة من الماضي تارةً بإضافة مساحيق لإخفاء معالمها، وتارةً بالإبداع على منوالها»^(٢)، في حين ذهب البعض الآخر في تفسيره إلى «كون العصر الجاهليّ قد شهد ميلاد النسق

(١) ذو الرمة: ديوانه، شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي، مؤسسة الإيمان، جدة، ط ١، ١٩٨٢، ص ٢٦-٢٩.

(٢) رفيق عطوي: صورة المرأة في شعر الغزل الأمويّ، دار العلم للملايين، ١٩٨٦، ص ٢٩.

(٣) عبدالله الغدّامي: التّعدّ الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافيّة العربيّة، المركز الثقافيّ العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٢٢٣.

البكاء والأسى، والتخفيف من لوعته، وذلك على غرار ما ذهب إليه الشعراء الجاهليون في الاستنجاد بالصَّحْب لمواساتهم ومحاولة التخفيف عنهم، ورفع روحهم المعنوية، يقول^(١):

لَكَ الْخَيْرُ هَلَّا عَجَّتْ إِذْ أَنَا وَاقِفٌ

أَغْيِضُ الْبُكَاءَ فِي دَارِ مِيٍّ وَأَرْفُؤُ

وبذلك تتبدى حالة الشوق التي تسيطر على الشاعر المتألم من فقدان الحبيبة، ذلك أنه منذ لحظة فراقها، وتلاشيها وراء الكُثبان الرملية، يشعر بحالة إرباك عميق تسيطر على عقله وفؤاده، ما يبعد عن خاطره كل فكرة أخرى؛ فهو أسير حبها، غير قادر على احتمال البين، فأضحت الصَّحراء العدو الذي يحول بينه وبينها، يقول^(٢):

لَقَدْ كُنْتُ أَهْوَى الْأَرْضَ مَا يَسْتَفْرُنِي

لَهَا الْوَدُّ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ دِيَارِكِ

وكذلك نراه يبكي البعد في موضع آخر، فهي ليست قربه حيث يتمنى أن تكون، ولا هو قادر على الوصول إليها أو نسيانها، يقول^(٣):

فَكَيْفَ بِمِيٍّ لَا تُؤَاتِيكَ دَائُهَا

وَلَا أَنْتَ طَاوِي الْكَشْحَ مِنْهَا فَيَأْسُ

إنَّ الحبيبة تسكن قلب الشاعر، الذي أينما اتَّجَّه، شمالاً أو جنوباً، شرقاً أو غرباً، تبقى ديارها هي داره وقدره الذي لا مفر منه، يقول^(٤):

عَلَى أَنَّنِي فِي كُلِّ سَيْرٍ أَسِيرُهُ

وَفِي نَظْرِي مِنْ نَحْوِ دَارِكِ أَصُورُ

غير أن الحبيبة تبقى محور وجوده، فهي لم تمس شيئاً إلاَّ وخلدت ذكراه في نفسه، فالمكان والزمان يمتلئان ببهجة حضورها، وأضحت كل جوانب الطبيعة تحمل آثارها، فتحوّلت خسارة الشاعر إلى ذكريات جميلة يمكن له أن يستعيدها متى يشاء، يقول^(٥):

مَنَازِلُ الْحَيِّ إِذْ لَا الدَّارُ نَازِحَةٌ

بِالْأَصْفِيَاءِ وَإِذْ لَا الْعَيْشُ مَذْمُومٌ

ويذهب في قصيدة أخرى إلى تذكُّر رقة العيش ونضرتة، وإقباله وحبيبته على الدنيا غير عابئين بشيء، لأنَّ عيشهما رقيق يحمل سعادة لا تعلوها سعادة والغد موات لهما، يقول^(٦):

فَدَعُ ذَكَرَ عَيْشٍ قَدْ مَضَى لَيْسَ رَاجِعًا

وَدُنْيَا كَظَلِّ الْكَرْمِ كُنَّا نَخُوضُهَا

ويتبين من الدلالة الرمزية للبيتين

(٤) المصدر نفسه، ص ٦١٧.

(٥) ذو الرمة: ديوانه، ص ٣٧٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧٠٦.

(١) ذو الرمة: ديوانه، ص ٦١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١١٨.

الأخيريْن أن الوقت الجميل الصّافي (لا العيش مذموم)، والأناس الأنقياء (الأصفياء)، وكذلك رمزيّة الكرم كظلّ الجنّة (ظلّ الكرم)، تشير إلى الجنّة المفقودة وإلى شبابه البريء بحيث لم يتسنّ له أن يهنأ بحبه ويرغد بعيشه.

وإذا ما تذكر حبيبته، فهي أخاذة، يفتن كلامها الوعول، وقوّة سحرها تؤثر في النعاج المنحدرة من الجبال، أمّا بسمتها فتغري «لقمان الحكيم»^(١)، يقول^(٢):

وَلَوْ أَنَّ لِقْمَانَ الْحَكِيمَ تَعَرَّضْتُ

لِعَيْنَيْهِ مِي سَافِرًا كَادَ يَبْرُقُ

إنّ حبيبته تسيطر على فكر كلّ من يراها، شبّانًا وشيوخًا، فتسرق قلوبهم، لكأنّها تعيد إحياء أسطورة الملاكين هاروت وماروت^(٣) بامتلاكها سرّ الحبّ، يقول^(٤):

وَعَيْنٍ كَأَنَّ الْبَابِلِيِّينَ لَبَسَا

بِقَلْبِكَ مِنْهَا يَوْمَ مَعْقَلَةِ سِحْرَا

وكذلك يصف شاعرنا في موضع آخر عظيم تأثيرها في كلّ من يراها أو يسمعها، فحتّى الوعل في الجبل تراه يصبو إلى كلامها، يقول^(٥):

وَلَوْ كَلَّمْتُ مُسْتَوْعِلًا فِي عَمَايَةٍ
تَصَبَّاهُ مِنْ أَعْلَى عَمَايَةٍ قِيلُهَا
ومن ثمّ نرى أنّ حبيبته تسحر كلّ من يراها، فلا يشفى من حبّها بعدنّ، ولا يلقي رقية تُعيد إليه رشده^(٦):

هِيَ السَّحْرُ إِلَّا أَنَّ للسَّحْرِ رُفِيَّةٌ

وَإِنِّي لَا أَلْقَى لِمَا بِي رَاقِيَا

فالشاعر البطل هنا، ينتقل إلى رسم صورة رومنسيّة عن حبه، ويجعلنا نلتقط ذكريات الماضي، كما نراه يفتح أبواب المستقبل انطلاقًا من دورة الحياة الطبيعيّة، فيفرض بذلك الحنين والشوق مرّتين: في الحاضر وفي الماضي البعيد المنصرم. إنّ دورة الحياة الطبيعيّة هذه، لا تُقرأ إلاّ من خلال أبعديّة حركة دوران الزّمن التي تخلّصه من خوفه من الموت، فبعد الموت حياة، فبعث، فنشور وعندنّ يبدأ الشّاعر بمحاولة «تطهير» ديارها المهجورة، قارئًا صلواته، ذارفًا دموعه، مؤدّيًا شعائر «إعادة بعث الأطلال» التي رقت على حاله وكادت تناجيه تأسيًا وتجملاً، يقول^(٧):

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لَمِيَّةٍ نَاقَتِي

فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهُ

(١) هو رجل حكيم، وصاياه من أروع الحكم والمواعظ القصصيّة المذكورة في القرآن الكريم.

(٢) ذو الرمة: ديوانه، ص ٤٦١.

(٣) هما ملكان من السّماء نزلا في أرض بابل، وأنزل عليهما السّحر، إمتحانًا للنّاس وابتلاءً لهم.

(٤) ذو الرمة: ديوانه، ص ١٤١٦.

(٥) ذو الرمة: ديوانه، ص ٩١٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣١٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ٨٢١.

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبَتْهُ
تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

لقد أحبَّ البدوي طلله كونه مرتع
ذكرياته، لكن إذا أنعمنا النظر في حقيقة تلك
الدموع التي ذرفها ذو الرمة، وما يلفها من
حيرة، قد نجد أنها ليست مجرد دموع
تحمل شوقاً في طياتها، بل لعلها دموع
تحمل في ثناياها حزناً عميقاً لأيام وساعات
لا تقوى على مجابهة فاعلية الزمن وحركته
المستمرة، إنه صراع بين إرادة الحياة
وإرادة الفناء، يجد الشاعر في الطلل ما
يمثله خير تمثيل^(١).

إنَّ الشَّاعِرَ الَّذِي يَبْتَ شِكْوَاهُ وَمَا يَكَابِدُ
مِنَ الشُّوقِ إِلَى الظَّاعِنِينَ، يَذْهَبُ فِي شَعْرِ
آخِرِ إِلَى تَذْكَرِ دِيَارِ مِيَّةٍ، وَيَتَسَاءَلُ مَا إِذَا
كَانَتْ تِلْكَ الْأَزْمَنَةُ الَّتِي عَهْدَهَا بِهَا رَاجِعَةٌ،
يَقُولُ^(٢):

أَمْنَزَلْتِي مِيَّ سَلَامٍ عَلِيكُمَا
هَلِ الْأَزْمَنُ اللَّاتِي مَضَيْنَ رَوَاجِعُ

ومن ثمَّ يتذكَّرُ بكاء حبيبته على فراقه،
فلكأنَّ عَيْنَيْهَا تَقْضِيَانِ نَذْرًا كَانَ عَلَيْهِمَا،
فَأَحْلَلْنَهُ بِالْبَكَاءِ^(٣)، مَوْحِيًا بِمَشَاعِرِ مِتْبَادِلَةٍ
بَيْنَ الْحَبِيبَيْنِ، وَالْمِ عَمِيقٍ يَعْتَصِرُ قَلْبَيْهِمَا:

أَرَشَّتْ بِهَا عَيْنَاكَ حَتَّى كَأَنَّهَا
تُجَلِّانُ مِنْ سَفْحِ الدَّمُوعِ بِهَا نَذْرًا

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى تذكُّرِ صدى
صورة الحبيبة وهي تبعد عنه رويداً رويداً،
معتمداً المذهب التقليدي الذي انتهجه فحول
الشعر العربي الجاهلي، إذ رأى موكبها
كأغصان مزهرة، يقول^(٤):

أَلَا هَلْ تَرَى أَظْعَانَ مِيَّ كَأَنَّهَا
ذُرَى أَثَابٍ رَاشٍ الْغُصُونِ شَكِيرُهَا

وقد سبقه إلى تلك الصورة العديد من
الشعراء كامرئ القيس الذي رأى في هودج
حبيبته سراياً ينطلق بها إلى أشجار النخيل
وأكام الشوك لتبدو كأنها سفينة تبعد
حبيبته عنه^(٥)، وكذلك نحا طرفه بن العبد
في تشبيه الهودج بسفينة عظيمة تبحر في
الصباح الباكر مع شروق الشمس^(٦)، أمَّا
لبيد بن ربيعة فقد وصف موكب الحبيبة
الذي يتلاشى سريعاً في المفاوز لتبدو
خيالاً بعيداً شَبَّهَهُ بِالأَشْجَارِ^(٧).

ومن خلال هذه الصورة، تتبدى لنا كلُّ
أشكال الحمائية أو الوصاية المكرسة لهذا

- (١) هفل اليونس: القلق في شعر تميم بن أبي بن مقبل، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، مج: ٨٥، ج١، ٢٠٠٩، ص١٦٦.
- (٢) ذو الرمة: ديوانه، ص١٢٧٣.
- (٣) المصدر نفسه، ص١٤١٢.
- (٤) المصدر نفسه، ص٢٤٤.
- (٥) مصطفى السقا: مختار الشعر الجاهلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ج١، ص٢٢.
- (٦) المرجع نفسه، ص٢٤٦.
- (٧) أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص١٦٠.

الهودج الذي يحمل الحبيبة إلى موضع آخر يحرم الحبيب من الوصول إليه، الأمر الذي أضفى لمسة عاطفية لانسلاخ الحبيبتين، وصوّر طقساً من طقوس الوداع الذي يُعمل خيال الشاعر، ويحمله إلى تمثّلات رمزيّة تعكس أساه.

ولم يخالف ذو الرمة هذا الاتجاه، فهو ابن الصّحراء وشاعرها الأول الذي تكاد حواسه الراصدة ووجدانه اليقظ لا تفلت مظهرًا من مظاهر تلك الحياة البدويّة من غير أن تحيله إلى صورة شعريّة أو جانب من صورته^(١)، فنراه إذًا، ينحو نحو الأقدمين، مصوّرًا البعير الذي يحمل ثمر الحسك في أثناء رحيله، يقول^(٢):

٢ - المفهوم الأنثوي في لاوعي الشاعر

إذا كانت الهيمنة الذكوريّة بارزة بشكل واضح في النّسق الثقافي العربي عمومًا، وفي جماليّات الصورة الشعريّة وما تخفيه أحيانًا من رؤية دونيّة للمرأة، فإنّ شاعرنا لم يماش المعهود من تلك الصورة النمطيّة، ذلك أنّ الحبّ قد أسره، وأفقده رشده وتوازنه العقلي والنفسي، فأضحى ضعيفًا أمام المحبوبة، يرسم صورًا رومنسيّةً لحبه بعيدة كلّ البعد عن السلطويّة الذكوريّة التي لطالما تباهى بها العرب.

وانطلاقًا من ذلك فإننا نرى أنّ رومنسيّة الشاعر، وحنينه إلى حبيبته يصطدمان بأصوات أخرى تعلو داخله، تعكس الصّراع الداخلي الذي يعيشه،

ولم يخالف ذو الرمة هذا الاتجاه، فهو ابن الصّحراء وشاعرها الأول الذي تكاد حواسه الراصدة ووجدانه اليقظ لا تفلت مظهرًا من مظاهر تلك الحياة البدويّة من غير أن تحيله إلى صورة شعريّة أو جانب من صورته^(١)، فنراه إذًا، ينحو نحو الأقدمين، مصوّرًا البعير الذي يحمل ثمر الحسك في أثناء رحيله، يقول^(٢):

يُمسّحُ عن أعطافِهِ حَسَكَ اللّوى

كَمَا تَمَسَحُ الرُّكُنَ الأَكْفُ العَوَابِدُ

وبذلك تتكشف لنا الصورة التقليديّة التي اتّبعها ذو الرمة، لجهة إبقائه على بداوة اللفظ والتركيب، وهي بداوة فرضتها طبيعة حياته، وإبقائه على رمزيّة الصورة نفسها لتأثره بالسلف، فكان «جاهليًا فيها أكثر من الجاهليين، إلّا أنه أضاف إضافات عديدة تجلّت فيها قدرته اللّغويّة، وعمق التأثير

(١) أسامة سلمان: البعد المكاني في صور ذي الرمة، مجلّة التراث العربي، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، عدد ٥٢، ١٩٩٣، ص ٤.

(٢) ذو الرمة: ديوانه، ص ١١٠٢.

(٣) خالد ناجي السامرائي: ذو الرمة، شموليّة الرؤية وبراعة التصوير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ١٥، ٢٠٠٠، ص ١٥٥.

والمتمثّل بالواقع الاجتماعي الذي يلومه، وبالفوارق الطبقيّة بينهما، فنراه يعبر عن هذه الأصوات المتعارضة من خلال استخدامه أسلوب الاستفهام، كقوله «ما بال عينك» في قصيدته^(١):

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلى مفريّة سرب

ونرى الشاعر في هذا البيت يتساءل، مخاطباً ذاته، عن عينه الدائمة التسكاب، في صورة نستشف من خلالها عمق المأساة واستمراريّة الحزن إلى جانب حيرة وجوديّة تظهر من تساؤلاته في «كيف بحي» الواردة في بيت أوردناه سابقاً، وهو يعكس حالة الانفصال التي تسيطر على الشاعر، والتي تغلب عمل المشاعر والأحاسيس على المنطق والعقل، وكذلك نراه في مكان آخر يقول^(٢):

فكيف بمي لا ثواتيك داؤها
ولا أنت طاوي الكشح منها فيائس

ومن ثمّ يطالعنا في مواضع مختلفة من شعره أصواتاً أخرى تعلو، متعاطفة مع الشاعر المكلوم، قد تمثل أصوات رفيق محبّ داعم له، أو لربما صوت أنثى يمثل المرأة-المثال التي تحظى باحترام الشاعر

وثقته، كأّمه على سبيل المثال، الساعية إلى حمايته، والتي كان لها عظيم الأثر في حياته ونفسه، إذ قامت بتربيته ورعايته بعد وفاة والده، وكانت أول الداعمين لشعريته المتفتّحة منذ صباه.

هذا الصوت، يحذّره من الشغف الجامح ومن الانجراف، يوبّخه على إصراره، يحذّره من عاقبة الحبّ الخاطيء، وسوء الخيار، بنبرة تأكيدية جازمة، ويحمّله المسؤولية الناجمة عن هذا الشغف غير المنطقي، غير العقلاني، المدمر والعاث، كما يسعى هذا الصّوت الأنثويّ الرادع إلى إيقاظه من صبوته التي ستؤدّي حتماً إلى هلاكه، يقول^(٣):

وقائلة تخشى عليّ: أظنّه
سيؤدي به ترحاله ومذاهبه

لقد كان لصدى هذا الصّوت الداخلي أثرٌ عظيم فيه، فهو يعاتبه لانجرافه وراء مشاعره وانقياده وراء أهوائه، خلافاً لما هو منتظر منه، ذلك أنّ قومه يتوقّعون منه تصرفاً رجولياً، قاسياً، قائماً على العقل لا القلب، أن يحكم بعقلانية ونضج، وألاً يبتعد عن المنطق أو يختلّ توازنه العقليّ والنفسيّ على السواء، أو أن يفقد السيطرة على ذاته، فتمسي تصرفاته بعيدة عن المنطق

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠١٢.

(١) ذو الرمة: ديوانه، ص ٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١١٨.

العقلاني الذي يسود البشر، ويحكم رجال
ذاك العصر، غير أنّ الشاعر يردّ بأنه لا
ينبغي لوم من يحبّ، وأنه يشقّ على العاشق
ألاّ يتمسك بهواه، يقول^(١):

عشيّة مسعودٍ يقولُ وقد جرى
على لحيّتي من عبّرة العين قاطرُ
أفي الدار تبكي أن تفرّق أهلها
وأنت امرؤ قد حلّمتك العشائرُ

من جهة أخرى، يرتفع صوت آخر، وهو
صوت القيم الأخلاقيّة والنّظم الاجتماعيّة
الذي تمثّله قبيلة الشاعر، فيعكس صورة
أبويّة أو سلطويّة في مواجهته العاشق
الملوم على حدّ تعبير فرويد^(٢)، وهي علاقة
عموديّة تربط الأب (السلطة) بالولد.

ويرى فرويد أنّ الولد الخاضع للتوبيخ
والمراقبة بشكل صارم ودائم، غالباً ما
سينعكس سلوكه أنانيّة مفرطة وعدم مبالاة
بالنتائج المترتّبة عن هذا السلوك، في حين
يذهب الأهل إلى المزيد من التشدّد خوفاً
من تصرفات الولد التي قد توقظ التضامن
الاجتماعي، وتحرك فيه معايير «الصّحّ
والخطأ».

انطلاقاً من ذلك، فإنه ينبغي إيقاظ هذا
العاشق من تصرفاته «الطفوليّة أو

الصبيانيّة»، التي قد ترتدّ عليه سلبيّاً، ومن
ثمّ تقديم المشورة له وحثّه على تحرير
عقله من هذا الحبّ، وتجنّب الانقياد وراء
المشاعر والأهواء، وعلى هذه المشورة أن
تتّصف بالطابع العقلاني الرشيد وألاّ ترتكز
على العنصر الأخلاقي فحسب، لأنه سيلقى
رفضاً من العاشق، وسيؤدّي إلى تحديّ
الواقع ورفض النظم الاجتماعيّة التي
تقيده^(٣).

إنّ هذا الحبّ المحرّم، والمشاعر
المكبوتة يشكّلان جزءاً أساسياً من بنية
القصيدة التقليديّة، التي تسعى إلى تصوير
اللوم الواقع على الحبيب المتمسك بحبّه،
على الرغم من مكابرة الحبيبة وصدّها
وهجرها أحياناً، كما تكشف عدم سعيه إلى
استعادة توازنه والتحرّر من اضطراباته
النفسيّة المنعكسة على ذاته، وكلّ من حوله،
في حين أنه بالمقابل، يُظهر أنه بتفانيه في
حبّه وإخلاصه للحبيبة يكشف عن روجه
السّاعية إلى استمداد الطاقة التي من شأنها
أن تنشّطها وتعيد إليها شبابها وحيويّتها.

وبذلك، فإنه يمكن القول إنّ نظرتّه إلى
واقعه تعكس صراعاً لاستعادة ثقته بنفسه
التي قد فقدها، واسترداد حماسه وهذوء

(١) ذو الرمة: ديوانه، ص ٨٥٨.

(٢) سيجموند فرويد: السلوك، ترجمة مصطفى غالب، دار ومكتبة الهلال، ط ١، ١٩٩٨، ص ٧٦ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٣.

باله، فذكرى الحبيبة تُحييه وتُميته في آن،
وحبها الساكن فؤاده يحرك فيه مشاعر
الحياة، ليثير بعدها مشاعر الموت، فأينما
حلّت الحبيبة تحلّ الحياة، وفي رحيلها
تجتذب الموت، يقول^(١):

عَلَى الْأَرْضِ - وَالرَّحْمَنِ - يَا مَيِّ غَبْرَةً
لِبَيْنِكُمْ وَاسْتَجَدَبْتُ لِاحْتِمَالِكِ
وَكَانَ جَنَابُ الْأَرْضِ إِذْ تَسْكُنُونَهُ
يَطِيبُ وَيَنْدِي تَرْبُهُ لِاحْتِمَالِكِ

إنّ حزن الشاعر على فقدان الحبيبة،
يشكّل في الواقع سبباً للغوص في
مكوناته، واكتشاف مشاعره الدفينة الكامنة
في لاوعيه. فالحبيبة تعطي الحياة معنى
إضافياً حقيقياً، كما أنها تعطي قوة غريبة،
تشكّل بديلاً من نوع خاصّ عن القوة
بمفهومها الذكوري التقليدي التي يتباهى
بها الرجال عموماً، ولكأنّ حزنه يمثّل في
الواقع ذاته الشعريّة الواعية التي تحاول
المرور من العالم المحسوس إلى العالم
الداخلي، عالم الروح لتصل إلى تحقيق
الوجود^(٢).

كذلك، فإنّ صورتها تمثّل العفة
والطهارة وعذريّة الحبّ البعيد من المادّة،

حيث تكمن البراءة المطلقة، وحيث تكتمل
السعادة وتذوي الخيبة، فهي ترمز إلى حلم
عميق، مداره السعادة والحبّ اللذان يشكّلان
بديلاً من حسّيّة الجنس التي يصبو إليها
الشعراء عادة، وهي صورة قد تولّدت من
شعور الشاعر باليأس المطلق، بالإضافة
إلى اقتناعه بصعوبة اجتماعه وحبيبته
لأسباب اجتماعيّة تحول دون ذلك، فأمست
نظرته إلى حبّه نظرة مثاليّة كاملة لأنّه في
الواقع حبّ متعذّر، مستحيل، غير قابل
للتحقّق.

وبذلك نرى الشاعر عمداً، يُبقي على
مثاليّة صورة الحبيبة في خياله، ولكنّه
يربط هذه الصّورة المثاليّة باستحالة
الالتقاء، وصدق مشاعره، فالحبيبة هي التي
صدّت وهجرت، وهي التي لم تبادله
الشعور، ولم تَفِ بوعودها، وعلى الرغم من
ذلك، فقد بقي وفياً لها، مخلصاً في حبّه،
يقول^(٣):

وَظَنِّي بِمَيِّ أَنْ مَيًّا بِخَيْلَةٍ
مَطُولٌ وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرًا عُرُوضُهَا

وإذا كان الوصال مع الحبيبة متاحاً في
عالم الذكريات، فهو كذلك متاح في عالم

(١) ذو الرمة: ديوانه، ص ١٧٤٤.

(٢) تحسين محمود الجلي: الرؤية الشعريّة في شعر ذي الرمة، أطروحة دكتوراه، كليّة الآداب، جامعة الموصل،
٢٠٠٣، ص ٧٠-٧١.

(٣) ذو الرمة: ديوانه، ص ٧٠٧.

وبذلك نرى التّشابه بين صورة الحبيبة في وعي الشّاعر وصورتها في لاوعيه، الأمر الذي يؤكّد على صدق حبّ الشّاعر، الذي حتّى في أعماق ذاته، تتجلّى الصورة نفسها التي يظهرها في الواقع، فموقف الشّاعر واحد سواء تحت الضغط الاجتماعيّ، والرقابة الموجهة أو في أوج لحظاته تحرّراً حيث يقوده اللاوعي إلى تحقيق رغباته ونزواته، فتبقى حبيبته هي الشاغل الأوحد، ويبقى حبّها هاجسه، ويبقى فقدانها موتاً له في وعيه وفي لاوعيه على حدّ سواء.

٣ - اتّحاد المرأة والطبيعة

إذا كانت المرأة الشغل الشاغل الذي أرّق بال الشعراء وارتبط بها ارتباط الإنسان بالأرض، فالطبيعة شكّلت مصدر الإلهام الأول، ذلك أنّ الشّاعر هو ابن بيئته، ويستمدّ خياله وصوره الشعريّة من المحسوس الذي يحتكّ به في الدرجة الأولى، فشكّلت الطبيعة بالفعل مصدر وحي الشعراء الجاهليين، الذين مضوا يصوِّرون الصّحراء برمّالها وكتبانها وحيوانها وزواحفها...

كذلك فعل ذو الرّمّة الذي اعتمد على الطبيعة اعتماداً كبيراً لتصوير المرأة-المثال التي يعشقها، لتتحدّ بهذه الطبيعة، ولتمسي

الأحلام، حيث يستطيع أن يتخيّل ما يشاء، وأن يعيش مغامراته الغراميّة كما يشتهي، من غير وازع يردعه، أو يؤرّق هناء عيشه، فنراه يتخلّص من عذاب الحاضر، ومن ألم الفراق، ومن رمزيّتي المكان والزمان اللذين لا يربطانه إلّا بالواقع، المتمثّل بخيبات الحبّ واعتراض الأهل، فينتقل في خياله إلى عالم آخر، هو سيّده، يخلو من الرقابة الموجهة ومن قيود الواقع.

ومن ثمّ، تبرز من خلال هذه الأحلام صورة جديدة للحبيبة، تتجلّى في لاوعيه، مغايرة لواقعها، تختلف عن الصّورة الأنثويّة السائدة في المجتمع، بحيث أنها تزوره في وحدته كما يزور الوهم الإنسان، وتدرك حاجات حبيبها، وتلمّ بمكنونات صدره، وهي وإنّ تكن زائرتة في الليل، مع ما يرمز إليه من شرّ وخوف وظلمة، إلّا أنها تبقى مصدر النّور والضياء، يقول^(١):

أَلَا طَرَقْتِ مَيِّ هَيَوْمًا بِذِكْرِهَا
وَأَيْدِي الثَّرِيَّا جُنْحَ فِي الْمَغَارِبِ
أَخَا شَقَّةٍ زَوْلًا كَأَنَّ قَمِيصَهُ
عَلَى نَضْلِ هِنْدِيٍّ جُرَازِ الْمَضَارِبِ
أَنَاخَ فَأَغْفَى وَقَعَةً عِنْدَ ضَاجِرٍ
مَطِيَّةٍ رَحَالٍ كَثِيرِ الْمَذَاهِبِ
بَرِيحِ الْخُزَامِيِّ هَيَّجَتْهَا وَخَبَطَتْ
مَنْ الطَّلِ أَنْفَاسُ الرِّيَاحِ اللُّوَاغِبِ

(١) ذو الرّمّة: ديوانه، ص ١٩١-١٩٣.

حياته قائمة على محورين: محور أول يتمثل بالعشق، والذي لا يمكن لامرئ إلا أن يسعى وراءه، ومحور ثانٍ يتمثل بالطبيعة التي تحيط به، وتحكم حياته وظروفها، وقد تأتته بالجذب أو الخير، أفليست معظم الأساطير القديمة تقوم على تأليه الطبيعة؟ أوليست عبادة إلهة الخصب أو إله الشمس أو المطر مظهرًا من مظاهر تأليه الطبيعة؟ فكيف إذا تشبّعت الحبيبة بالطبيعة واتّحدت بها، ألا تصبح في مصاف الآلهة؟ يقول ذو الرمة^(١):

عَلَى الْأَرْضِ - وَالرَّحْمَنِ - يَا مِيَّ غَبْرَةَ
لَبِينِكُمْ وَاسْتَجَدَّ بَتْ لِحْتِمَالِكِ
وَكَانَ جَنَابُ الْأَرْضِ إِذْ تَسْكُنُونَهُ
يَطِيبُ وَيَنْدِي تَرْبُهُ لِاحْتِلَالِكِ

نرى من خلال البيتين السابقين، أنّ حضور الحبيبة يمثّل الخير والخصوبة (يطيب - بندى)، وأنّ غيابها يرمز إلى العقم والموت (غبرة - استجدبت)، فصورة الحبيبة تمثّل سرّ الحياة الذي لا يقوم إلاّ على الخصوبة والخير والعطاء.

ومن خلال هذه الصورة، يذوب الحبّ في تمثّلات البادية ورموزها، ونرى اتّحادًا بين الحبّ والصحراء يقوم على مبدأ معياريّ واحد يجمع بينهما، فالصحراء عادة ترمز إلى الجذب والموت، أمّا الصحراء

الندية التي صوّرها الشاعر فترمز إلى الخصوبة، وتنطوي على تشبيه بالعنصر الأنثوي الذي يورّع الخير أينما حلّ ويزرع الحياة أينما وُجد، فتنبت البراعم في الصّحارىّ المجدبة، ونرى الأغصان أشجارها مزهرة مورقة، يقول^(٢):

أَلَا هَلْ تَرَى أَظْعَانَ مِيَّ كَأَنَّهَا
دُرَى أَثَابٍ رَاشُ الْعُصُونِ شَكِيرُهَا

ومن جهة أخرى نرى الطبيعة تشترك بمختلف عناصرها في عمليّة الحداد عند رحيل الحبيبة، مردّدةً صدى حزن الشاعر، مشاركةً إيّاه في معاناته، ما يقودنا إلى مشهد رثائيّ مؤثّر يكاد يشابه خسارة الزوج أو الولد، يقول^(٣):

إِذَا هَيَّجَ الْهَيْفَ الرَّبِيعَ تَنَاوَحَتْ
بِهَا الْهُوْجُ تَحْنَانَ الْمُؤَلَّهَةِ الْعُجْلِ

فلريح حنين في هذه الدار، كحنين النّاقة التي مات ولدها، لا بل يذهب شاعرنا إلى تشبيه النّاقة الهزيلة بالنّساء النّائحات^(٤):

مَحَانِيقَ تُضْحِي وَهِيَ عُوجٌ كَأَنَّهَا
بَجَوَزِ الْفَلَا مُسْتَأْجِرَاتٌ نَوَائِحُ

ونلاحظ من خلال البيتين الأخيرين بشكل خاص، أنّ ذا الرمة قد سار على نهج شعراء المعلّقات بتصوير الحيوانات الرامزة

(١) ذو الرمة: ديوانه، ص ١٧٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٣) ذو الرمة: ديوانه، ص ١٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٨٧.

إلى المرأة - المثال من حيث الجوانب الإخصابية، ممثلة بالعديد من الحيوانات الرّامزة كالبقرة والحمامة والظبية والفرس والنّاقة كما في المثال الذي قدّمنا.

ومن جهة أخرى فإنّ شاعرنا يصوّر جانباً آخر من المرأة - المثال التي يهواها في خياله، ذات الجمال الكامل، فلا شبّيه لها بين البشر، ولا يرى مثلها عجم ولا عرب، فهي بستان نخيل يتزامن ظهوره مع رحيل الحبيبة واختفاء موكبها، وفي هذا التشبيه رمز إلى العطاء والخصوبة، وإشارة إلى إلهة الخصوبة التي تمدّ يدها إلى التّمر لتقدّمه لعبادها، يقول^(١):

أَجَدَّتْ بِأَغْبَاشٍ فَأَضَحَّتْ كَأَنَّهَا
مَوَاقِيرُ نَخْلٍ أَوْ طُلُوحٌ نَوَاضِرُ

إنطلاقاً من ذلك، فإنّ القيمة الفعلية للمرأة تجلّت من خلال صفاتها التي أظهرها الشاعر، والتي تجعل المفهوم الأنثوي العام يتجلّى بأشكال مختلفة ومظاهر مغايرة عمّا هو متعارف عليه في الوعي العربي وذوقه العام، ذلك أنّ صورة المرأة تبدو مثالية استثنائية، لا تُمسّ ولا تُنتهك، تجسّد الصّبا والعدريّة، وهي التّجسيد الفعلي للجمال، لا

بل إنها توقظ إحساس الإنسان بالجمال الذي يحيط به في كلّ عنصر من عناصر الطبيعة، وفي ذلك تأثّر واضح بالمعتقدات السّومريّة والكنعانيّة التي تجلّت في الشّعْر العربي القديم الذي رفع المحبوبة إلى مصاف الآلهة، لتُشبّه بإلهة الخصب^(٢)، وبذلك نرى أنّ الشاعر من خلال الرموز الحيوانيّة والنباتيّة التي ذكرنا سابقاً، ومن خلال التجلّيات التكوينيّة والإلهيّة، إنما يكرّس ولاءه للمرأة المثاليّة بمختلف رمزيّاتها الوجوديّة وتجلّياتها في الميثولوجيا العالميّة، يقول ذو الرمة^(٣):

وَتَجْلُو بِفَرْعٍ مِنْ أَرَاكِ كَأَنَّهُ
مِنَ الْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ وَالْمِسْكِ يُضْبِحُ
ذُرَى أَقْحَوَانٍ وَاجَهَ اللَّيْلَ وَارْتَقَى
إِلَيْهِ النَّدى مِنْ رَامَةِ الْمُتَرَوِّحِ

إنّ تشبيه الحبيبة بالأراك والعنبر الهندي والمسك والأقحوان والندى، يحمل بُعداً إحيائيّاً، لكأنّ كلّ ما هو ناتج منها مقدّس، وبالتالي فقد وحّد بين المرأة والطبيعة، وأضفى على الاثنين هالة من القدسيّة.

ونلاحظ من جانب آخر، إنّ الحبيبة ترمز إلى الخصوبة التي تتلاشى في الجنّة،

(١) المصدر نفسه، ص ١٠١٩.

(٢) جيمس فرايزر: تموز أو أدونيس، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط ٢، ١٩٧٩، ص ١٥-٢٤.

(٣) ذو الرمة: ديوانه، ص ١٢٠٣-١٢٠٤.

ويذهب الشاعر إلى تشبيه حبيبته
بالشمس، فهي أحسن ما تكون وقد دنا
العصر، وضحكتها المشعة كالندى تشرق
كخيوط الشمس عندما تحجبها الغيوم^(٥):

لها سُنَّةٌ كالشمسِ في يومٍ طَلَقَةٍ
بَدَتْ مِنْ سَحَابٍ وَهِيَ جَانِحَةُ الْعَصْرِ

وتشترك هذه الصورة للحبيبة مع
صورة المرأة الكونية التي تجسد النواة
المثالية التي ينبثق الخلق منها، ومن خلالها
تتحقق الوعود. لذا، فهو لا يصورها وسط
الأزهار والحقول، إنما من خلال ترميزات
تتحد من خلالها مع الطبيعة، فهي الزهرة
نفسها: الأحيوانة والسوسنة والخزامى^(٦)،
فيجتمع بذلك الجمال والطبيعة في رمزية
واضحة إلى صورة الكمال التي يرى حبيبته
من خلالها.

وقد يتبدى لنا من خلال هذه الصورة
تأثر ذي الرمة بالشعراء الجاهليين
ومعتقداتهم الأسطورية، ذلك أنّ المرأة قد
تبوأت مكانة عالية في الفكر السامي القديم،
فتمثل الشاعر الجاهلي تلك القيم الأسطورية
العقائدية، لا سيما تلك المتعلقة بالأم

على غرار ما جاء في نشيد الأناشيد^(١)،
حيث تتخلى الحبيبة عن حرّيتها لتتحد
بحبيبها، وحيث تُشبه بالكرم المعلق لشدة
جمالها، هي السوداء، جعداء الشعر، كاملة
التكوين، مع ما يرمز الكرم إلى الخصوبة
والخير، خصوبة تتلاشى في الجنة عندما
تتلامس واللذة الجسدية، فلا بقاء إلا للمرأة
الطاهرة، ذات الذوق المرهف والكلام الراقى
والابتسامه الخلابة، لتماثل الخمر الممزوج
بماء سحاب أبيض نقي. فالابتسامه هي
رمز الوصول إلى النشوة النهائية التي
تروي ظمأ الحبيب، يقول ذو الرمة واصفًا
حبيبته^(٢):

وَأَسْخَمَ كَالْأَسَاوِدِ مُسْبِكِرًا
عَلَى الْمُنْتَنِينِ مُنْسِدِرًا جُفَالًا

فشعر حبيبته أسود كلون الحيات، لين
منسدل على الجانبين، يذكرنا بأوصاف
الحبيبة الفاتنة في نشيد الأناشيد^(٣)، ومن
ثم نراه يصف بسمة حبيبته التي تنسيه
الحديث^(٤):

يُقَطِّعُ مَوْضِعَ الْحَدِيثِ ابْتِسَامُهَا
تَقَطُّعَ مَاءِ الْمُزْنِ فِي نُزْفِ الْخَمْرِ

(١) العهد القديم، سفر نشيد الأناشيد، الإصحاحان ١-٢.

(٢) ذو الرمة: ديوانه، ص ١٥٢٠.

(٣) نشيد الأناشيد: الإصحاح ٤.

(٤) ذو الرمة: ديوانه، ص ٩٥٢.

(٥) ذو الرمة: ديوانه، ص ٩٥٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٠-٢٩-٣٩.

الكونية، إذ استوحى من الحبيبة صورة الأم ووظفها في تراتيله الشعرية، وكرس لها قدسية خاصة وأحاطها بصفات جسدية ونفسية لا تكون لسواها.

وانطلاقاً من ذلك، تكشف نظرة ذي الرمة إلى الحبيبة أبعاداً مجازية ذات بُعد ميثولوجي يصور عالماً طاهراً نقيّاً، لا وجود له في الواقع، كما لا يمكن افتراض غيابه بالمطلق، فيه إحياء للنقاء الكلي في الطبيعة، حيث تصبح الحبيبة تمثل الذات البشرية، أو الذات الإحيائية الإخصابية، فإذا قبلها الشاعر ردت له روحه، لا بل تبث الحياة عبر أزهارها التي تنمو في الصحراء المجدبة، يقول (١):

كَأَنَّ عَلِيَّ فِيهَا إِذَا رَدَّ رُوحَهَا
إِلَى الرَّأْسِ رُوحَ الْعَاشِقِ الْمُتَهَالِكِ
خُزَامِي اللّوَى هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ بَعْدَمَا
عَلَا نُورَهَا مَجَّ الثَّرَى الْمُتَدَارِكِ

وبناءً على ما تقدّم، نرى أنّ ذا الرمة يؤكد أنّ الحبيبة تثير مسرّات دائمة ومباهج لامتناهية، فإذا كانت حبيبته ملكة الحب والنقاوة، فهي أيضاً تمثل ذلك الجمال الذي يمحو جميع آثام الشاعر ويحرّره من كلّ

خوف أو قيد. فالحبيبة هنا، تمثل ذلك المحور المركزي الساطع نوراً، الذي من شأنه أن ينير درب الشاعر كما قلبه، إنّ صورتها هذه، تنبثق من البعد، من المسافات، بنقاء ووحدة وعزلة، كأنّها

حديقة أسطورية تحميها الطبيعة، أو قل من زمن أسطوري لا ينتمي إليه النهار أو الليل، فالحبيبة هي روح الطبيعة أو روح الزّمن، يقول (٢):

بِرَاقَةِ الْجِدِّ وَاللَّبَاتِ وَاضِحَةً
كَأَنَّهَا ظَبِيَّةٌ أَفْضَى بِهَا لَبَبُ
بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ مِنْ عَقْدٍ
عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَسْبَابِ وَالْهَدَبِ
رَئِيْنُ الثِّيَابِ وَإِنْ أَثَوَّبَهَا اسْتَلْبِتْ
فَوْقَ الْحَشِيَّةِ يَوْمًا زَانَهَا السَّلْبُ

إنّ الشاعر في هذه الأبيات يصور حبيبته الحسنة التي لا يضاهيها أحد جمالاً، مشبّهاً إيّاها بالظبية ذات اللّون الرمليّ التي ترعى السّبط والهدب في الصحراء، لا بل قل إنّ هذه الظبية-مئة قد تجاوزت جميع البشر، وكأنّها ليست من جنس هؤلاء البشر، وكأنّها تنتمي إلى جنس آخر «أرقى» وهو الظبية (٣).

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٢٦.

(٢) ذو الرمة: ديوانه، ص ٢٦-٢٩.

(٣) حسنة عبد السّميع محمود: شعر ذي الرمة، تفسير فنيّ أسطوري، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، مصر، ١٩٩٢، ص ١٢١.

المهيمنة على عالم القصيدة بأكمله، ونظرتة الخاصة إلى الحبيبة - المثال المتحددة بالطبيعة، والتي تقارب الآلهة جمالاً وقدرة، هي التي تحدّد صورة المرأة في شعره، وهي التي تعطيها أبعادها الرمزيّة المستوحاة من المفاهيم الأسطوريّة التي انعكست في الوجدان العربي وتجلّت في أشعاره.

لائحة المصادر والمراجع

- ١ - ابن خلكان، أحمد بن محمّد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج ٤.
- ٢ - ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري: الشعر والشعراء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.
- ٣ - بدوي، عبد الرّحمن: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ١، ١٩٧٧.
- ٤ - البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان، دار ومكتبة هلال، بيروت، ١٩٨٨.
- ٥ - الجلي، تحسين محمود: الرؤية الشعرية في شعر ذي الرمة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٣.
- ٦ - الخضراء، سلمى جيبوس: الشعر الأموي، مجلة جامعة كامبردج، ١٩٨٣.
- ٧ - ذو الرمة: ديوانه، شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي، مؤسّسة الإيمان، جدّة، ط ١، ١٩٨٢.
- ٨ - روميّة، وهب: بنية القصيدة العربية حتّى نهاية العصر الأمويّ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٧.
- ٩ - الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد: شرح المعلّقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤.
- ١٠ - السامرائي، خالد ناجي: ذو الرمة، شموليّة الرؤية

ونعود أخيراً إلى التأكيد على قيام الشّاعر بتشبيه الحبيبة - الأم الكونيّة - بالحيوانات الرامزة التي قدّسها الجاهليّ كالظبية، أما وجه الشبه فيتمثّل في صفات الحسن الأنثويّ المثاليّ كالبياض والنعومة والجمال، وكذلك نلاحظ التّصوير البلاغيّ ذا الطابع الدينيّ - الأسطوري، ممثلاً العلاقة بين المرأة الأرضيّة، التي تمثّل بدورها الأم الكونيّة، وبين سائر مظاهر النّبات المنتشرة في المرباع الجاهليّة، كالخزامى والرّزهر والأقحوان باعتبارها مرادفات رمزيّة ومعادلات موضوعيّة لنعم أموميّة اشتماليّة.

خلاصة القول، إنّ صورة المرأة العربيّة في شعر ذي الرمة لم تختلف شديد الاختلاف عن تلك الصورة النمطيّة التي سيطرت على خيال الشّاعر الجاهليّ وذهنه، والمستقاة من مصادر مختلفة ميثولوجيّة أو نفسيّة أو اجتماعيّة، لتشكل الإطار العام الذي ظهرت فيه امرأة ذلك العصر، والذي استمرّ زمنًا طويلاً متمثلاً في مخيلة العربي برغم جميع التحوّلات التي طاولت المجتمع العربي على الصعد كافّة.

وأخيراً، لا بدّ من القول إنّ ذا الرمة قدّم في ديوانه لوحات متعدّدة ضمّت الطلل والغزل إلى جانب الرحلة ووصف الصّحراء، غير أنّ ما يلفت هو هيمنة عنصر الذاتيّة المفرطة في معظم أشعاره، لا سيّما تلك المتعلّقة بحبيبتة ميّة، فذاتيّة الشاعر هي

- وبراعة التصوير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ط١، ٢٠٠٠.
- ١١ - السقا، مصطفى: مختار الشعر الجاهلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ج١.
- ١٢ - سلمان، أسامة: البعد المكاني في صور ذي الرمة، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد ٥٢، ١٩٩٣.
- ١٣ - عطوان، حسين: مقدّمة القصيدة الجاهليّة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠.
- ١٤ - عطوي، رفيق: صورة المرأة في شعر الغزل الأمويّ، دار العلم للملايين، ١٩٨٦.
- ١٥ - الغدّامي، عبد الله: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافيّة العربيّة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠.
- ١٦ - فرايزر، جيمس: تموز أو أدونيس، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٧٩.
- ١٧ - فرويد، سيجموند: - الحلم وتأويله، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٥، ١٩٩٣.
- السلوك، ترجمة مصطفى غالب، دار ومكتبة الهلال، ط١، ١٩٩٨.
- ١٨ - محمود، حسنة عبد السميع: شعر ذي الرمة، تفسير فنيّ أسطوري، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، مصر، ١٩٩٢.
- ١٩ - مرتاض، عبد الملك: السبع معلقات، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨.
- ٢٠ - وغيلسي، يوسف: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧.
- ٢١ - يونغ، كارل: الإنسان ورموزه، سيكولوجيا العقل الباطن، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٢.
- ٢٢ - اليونس، هفل: القلق في شعر تميم بن أبي بن مقبل، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، مج: ٨٥، ج١، ٢٠٠٩.

مؤتمر الطرق التدريسية وإشكالية
التكوين العلمي في ميادين التربية على...
تونس - مدينة الحمامات ١٤-١٥-١٦

المدخل: «التربية على المحيط والتنمية المستدامة أيار ٢٠١٥»

د. رضوان علي حسين العجل^(١)

ورفع شأنها لتتناغم وتتكامل مع التنمية الوطنية من جهة، ولتعمل على تفعيل دور الناس للمشاركة في عملية التنمية من جهة ثانية، من خلال تمكين المرأة، على الخصوص، ودفعها لتكون عاملاً مساعداً ومكماً في هذه العملية، محلياً ووطنياً.

أولاً: التربية في العصور الحديثة:

- مفهوم التربية وتطوره

كانت التربية ولا تزال الهاجس الأول في حياتنا البشرية وفي معظم الأديان السماوية وخاصة في الدين الإسلامي، وكانت غايتها تحقيق إنسانية الإنسان وتربيته تربية مستمرة دائمة حتى يلقي الله وهو راضٍ عنه، أجل إن التربية على المحيط

نعم اللقاء الذي جمعنا اليوم بكم في هذا المؤتمر الموقر، ونتقدم إليكم بالشكر الجزيل على اهتمامكم الكبير بالإعداد لهذا المؤتمر العلمي وتأمين عملية الاتصال والتواصل ما أفسح لنا المجال للتعرف بنخبة من الباحثين والباحثات الكرام متمنين أن تكون مشاركتنا متممة لهذا اللقاء التربوي. وكما لا يسعنا إلا أن نشكركم على حسن الضيافة والاستقبال وبشاشة الوجه. التربية على المحيط والتنمية المستدامة:

تتناول هذه الدراسة التربية على المحيط وعلاقتها بالتنمية في جوانبها المختلفة، وخاصة التنمية البشرية المستدامة، وتأثير ذلك على المجتمع المحلي، وما يمكن أن يحدثه التفاعل بينهما في التنمية المحلية

(١) أستاذ مساعد في علم اجتماع التنمية في الجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الثالث.

لها جذورها في تراثنا الأصيل وفي منظومة قيمنا الفكرية والاجتماعية والدينية، وفي القرن التاسع عشر لم تعد التربية موضوعاً لتأملات الفلاسفة؛ ولا من تخصص رجال الدين بل أصبحت علماً أسس عقلية عملية وبدأت تظهر في العالم الأبحاث والدراسات التربوية المختلفة والمتنوعة.

وكان للفلاسفة الإنكليز في هذا العصر دور كبير في تطور الفكر التربوي حيث كانوا يميلون إلى النزعة التجريبية وطابعها العلمي الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة الدقيقة واعتنوا بالطرق الاستقرائية. أما الفلاسفة الألمان فحاولوا أن يربطوا نظرياتهم بأفكارهم المتصلة بالطبيعة الإنسانية واهتموا بالتربية.

١ - القومية وأبعدوا التربية الدينية عن المدارس.

وعاد الاهتمام بالتربية والعملية التربوية وازداد في العصر الحاضر، ونتيجة لذلك تميزت التربية من غيرها بأنها متقدمة على التعليم، وقد أصبح الطفل والإنسان الفرد هو محور التربية؛ واهتمت التربية بالفرد كإنسان لكي يحقق نموه الإنساني، ولكنها لم تهمل الجانب الاجتماعي والتكليف مع الجماعة التي يعيش بينها كما تعاونت التربية مع علم النفس لتقديم ما يناسب كل فرد على حدا؛ وتعاونت مع علم الاجتماع

لكي تطبع الإنسان بطبائع المجتمع الذي يعيش فيه، كما تم الاهتمام بعالمية التربية وذلك بالتوسع في الهدف التربوي من التكيف مع المجتمع المحلي إلى التكيف مع المجتمعات عامة؛ أو التكيف مع الثقافة الإنسانية وأصبح الهدف التربوي هو إعداد الإنسان الصالح لكل مكان وليس المواطن الصالح وطنه فقط، وذلك باستعمال الأدوات والأجهزة، والمخترعات الحديثة في العملية التربوية، وتسخير تلك الأدوات للتقدم والتطور الإنساني.

٢ - مفهوم التربية على المحيط

«التربية عملية تكوين إعداد أفراد إنسانيين في مجتمع معين له خصائصه الاجتماعية والثقافية في زمان ومكان محددين ما يجعلها أداة تنموية تساهم في اكتساب المهارات، والقيم والاتجاهات وأنماط السلوك المختلفة، والتي تيسر لهم عملية التعامل مع البيئة الاجتماعية والمادية التي يعيشون فيها.

ومن معاني التربية التنموية أيضاً أنها تسعى إلى تكوين المواطن الصالح، المنتج المزود بالكفاية الاجتماعية عن طريق تنمية قواه، واستعداداته ومعاونتها حتى تصل إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه من نمو، وعن طريق توفير البيئة الصالحة في الأسرة والمدرسة، ولا تتم التربية الحقة الا بتعديل السلوك عند الفرد، واكتسابه الخبرات في

الوجهة الصالحة التي ترضاهها الجماعة وتوافق عليها. ذلك أنّ التربية تعني: العملية الواعية المقصودة وغير المقصودة لأحداث نمو وتغيير، وتكيف مستمرين للفرد من جوانبه الجسميّة والعقلية والوجدانية جميعها وتحقيق إنسانية الإنسان.

إنّ المواطن الصالح الذي تهدف التربية إلى تكوينه هو الذي يحمل ثقافة مجتمعه، والتربية عملية اجتماعية تقوم بها الجماعة لأفرادها عن قصد وتنظيم، وتخطيط وإعدادهم للمستقبل كأفراد وأعضاء في المجتمع الذي ينتمون إليه بكل مكوناته الاجتماعية، والثقافية والاقتصادية والعقائدية، وأهدافه وفلسفته في الحياة. وهذا بالضبط ما يدعو إلى الحديث عن تربية مستقبلية تكفل لتلاميذ اليوم تحقيق تكيف أفضل مع متطلبات العصر^(١). بعد غربلتها ومناسبتها لقيمتنا الروحية والفكرية والسلوكية.

إنّ التربية كما رأينا تعمل على تنمية أفراد المجتمع على التكيف مع محيطهم، والتنمية مسألة معقدة شاملة حيث لا تقتصر على جانب واحد من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والبيئية وغيرها.

فما هو مفهوم التنمية، التنمية البشرية، التنمية المستدامة والتنمية المحلية وكيف تطورت هذه المفاهيم؟

ثانياً: مفهوم التنمية:

يعني مفهوم التنمية Développement التغيير الجذري للنظام القائم واستبداله بنظام آخر أكثر كفاءة وقدرة على تحقيق الأهداف. ولقد ذاع مفهوم التنمية منذ نحو قرن وذلك في الدول الغربية، واقتصر مفهومه في هذه الدول على الجانب الاقتصادي، ثم تطور هذا المفهوم وأصبح من أهم المفاهيم العالمية في القرن العشرين، حيث أطلق على عملية تأسيس نظم اقتصادية وسياسية متماسكة في ما يسمى بعملية التنمية^(٢). وإن كان يقتصر في الغالب على الجانب الاقتصادي، ويرتبط إلى حد بعيد بالعمل على زيادة الإنتاج الذي يؤدي بدوره، إلى زيادة الاستهلاك، لكن هذا المفهوم للتنمية الذي يجعل من الإنتاج مقياساً لها فإذا توفر نمو وزيادة في الإنتاج كانت هناك تنمية، وإذا انتفى انتفت، وقد ضيق من مجالات التنمية في المجتمعات الانسانية، ثم حصر طاقات

(١) حسن حسين البيلاوي وآخرون، دراسات في أصول التربية، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدوحة قطر، ١٩٨٩م، ص١٦.

(٢) عبد السلام نوير، وسياسات التنمية البشرية في افريقيا، سلسلة دراسات مصرية افريقية يصدرها برنامج الدراسات المصرية الافريقية، كلية الاقتصاد، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤م، ص(٢٤).

الانسان المتنوعة التي يمكن تنميتها في طاقة واحدة هي الطاقة المادية المتمثلة في الإنتاج والاستهلاك. كما أن جعل الإنتاج مقياساً للتنمية. حيث تكون التنمية الاقتصادية متوقفة على الإنتاج ليس بمقياس سليم في حد ذاته، بل إن الواقع يشهد بخلاف ذلك، فهذا المقياس الذي حقق نجاحاً باهراً في البيئة الغربية لأن هذا التوجه في العملية التنموية كان منسجماً مع النظرة الغربية للكون والإنسان والحياة.

أما الكثير من الدول التي اصطلح على تسميتها بالنامية، والتي لا تتبنى النظرة نفسها فقد انقضت بضعة عقود من دون أن تحقق تقدماً ملحوظاً في معظم المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. بل إنها تراجعت في كثير من هذه النواحي إلى مستويات من الممارسة والأداء والفعالية أدنى مما كانت عليه^(١).

ونظراً لهذا الاجتزاء الذي اتسم به مفهوم التنمية في المراحل الأولى، فقد بدأ بعض الباحثين يرفض تلك المفاهيم للتنمية التي لا تخرج عن نطاق المال وزيادته،

وتهمل العنصر البشري الذي هو المصدر الحقيقي للتنمية. فالتغير المادي مهما يكن حجمه؛ لا جدوى منه ما لم يصاحبه أو يسبقه تغيير جوهري في الإنسان من النواحي الجسمية والعقلية والنفسية، ومن ثم أكد العديد من الباحثين أن جوهر التنمية يكمن في تحسين نوعية حياة الانسان^(٢).

ومن ثم، وُجِدَت تعريفات مختلفة حيال ذلك المفهوم، يسعى كل منها لاستجلاء بعض جوانب غموضه ويركز بعضها على أحد أبعاده من دون البعد الآخر^(٣). لقد ذهب البعض إلى أن التنمية هي كل عمل إنساني بناء في مختلف المجالات^(٤). حيث أنها عملية معقدة تشمل جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية والثقافية كافة^(٥).

وهكذا، لا يقتصر دور أبناء المجتمع الذي يشهد عمليات التنمية على مجرد تنفيذ الأوامر بل يتعداها إلى المشاركة الإيجابية الفعالة بشأن تحديد أهداف التنمية والمشاركة في تحقيقها^(٦).

(١) المرجع نفسه : ص ٧٥-٧٦ كذلك <http://www.unesco.org/most/sd-arab/fiche2b.htm>

(٢) Richard L. saklar. Developmental democracy. Comparative studies in society and history. Vol 29, No 4 (oct 1987) p688.

(٣) عبد الباسط محمد حسن، التنمية الاجتماعية، المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٧٠م، ص(٩١).

(٤) محمد جمال يرعي، التخطيط للتدريب في مجالات التنمية، مكتبة القاهرة الحديثة، ط١، ١٩٩٨، ص(١١).

(٥) السيد محمد الحسيني، وآخرون، دراسات في التنمية الاجتماعية، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٧٣م، ص٥-٦.

(٦) محمد الجوهري، مقدمة في علم اجتماع التنمية، دار الكتاب للتوزيع، القاهرة، ١٩٧٩م، ط٢، ص١٦٥.

حد ذاتها وإنَّما هي وسيلة لتحقيق أغراض
يبتغيها المجتمع^(٢).

وبهذا يُعد مفهوم التنمية من المفاهيم
الإشكالية، والمفهوم يشمل الحياة نفسها
ليصف نمط الحياة أنه متقدم أو أنه في نمو
أو سائر في سبيل التنمية فتشمل الجوانب
[كافة] إلى الدرجة التي يمكن دراسة كل
شيء باعتباره تنمية^(٣).

يؤكد ما سبق أنه لا يوجد تعريف جامع
مانع للتنمية؛ حيث يعطينا مفهوماً مجدداً
حاسماً للمصطلح المذكور development
ولكننا نجد أن أغلب التعريفات للتنمية سواء
المثالية أو الراديكالية وغيرها تدور جميعها
حول العملية التي تشمل جوانب الحياة في
المجتمع كافة. وهي عملية تستند أساساً
إلى قدرات أفراد هذا المجتمع وإرادتهم،
لتحقيق ما فيه مصلحتهم وتقدمهم. لهذا
تُعد التنمية ثورة على القديم، ولتحقيق هذه
الثورة يجب تغيير الأطر الفكرية للإنسان.
فظهر لذلك، مفهوم التنمية البشرية.

مفهوم التنمية البشرية:

مع دخول العقد الأخير من القرن
العشرين جاءت الإحصاءات المتعلقة

لقد شغل موضوع التنمية مختلف
المشارب العلمية، سواء الاقتصادية
السياسية والاجتماعية، نظراً للأهمية
القوى التي يكتسبها هذا الموضوع
لتسليطه الضوء على الإنسان الذي هو أولاً
وقبل كل شيء محور التنمية. لذا تمت
صياغة مفاهيم عدة ومختلفة بمختلف
المحطات التاريخية والانتماءات الجغرافية،
والاقتصادية وكذا الوضعية الاجتماعية،
والسياسية للمفكرين الذين حاولوا صياغة
هذه المفاهيم من هنا ارتأينا ضرورة
التطرق إلى بعض تلك المفاهيم منها:

عرّف عبد الحليم عبد المطلب «التنمية»
بكونها عملية مجتمعية متعددة الأبعاد
والجوانب تنطوي على تغيرات جذرية على
مستوى الهياكل الاقتصادية والاجتماعية
والثقافية والإدارية شريطة أن يسير ذلك
كله بشكل متوازن تماماً مع زيادة النمو
الاقتصادي وتحقيق العدالة في توزيع ثمار
تلك التنمية أي العدالة في توزيع الدخل
الوطني»^(١).

يتضح لنا من كل ما سبق أن التنمية تعد
أسلوباً من أساليب النهوض بالمجتمع
الإنساني وعلى هذا فهي لا تعدُّ غرضاً في

(١) انظر عبد الحليم عبد المطلب: التمويل المحلي والتنمية المحلية (الدار الجامعية مصر ٢٠١١ ص ١٢).

(٢) محمد عبد المنعم نور، الحضارة والتحضير: دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري، مكتبة القاهرة الحديثة، ط ١،
١٩٧٠م/ص ٢٢١.

(٣) مراسويرو، فلسفة لتنمية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، اليونسكو، ١٩٨٣م، ص ١١-١٢.

حول التّمنية العالميّة. وقد جرى إدخالها كجزء من الاستراتيجيات الإنمائية لمختلف بلدان العالم.

وهي الآن لب الاستراتيجية الإنمائية الدولية للأمم المتحدة^(١). ذلك أنّ الهدف الأساسي للتّمنية هو:

«خلق البيئة الملائمة ليتمتعوا (أي الناس) بحياة طويلة خالية من العلل و«خلاقة»^(٢). لقد شاع أنّ الدّخل هو بديل للخيارات الإنسانية الأخرى لأنّ توافره يسمح بممارسة جميع الخيارات الأخرى، بيد أنّ خبرات بلاد كثيرة قد دلت على إمكانية تحقيق مستويات عالية من التنمية البشرية على الرغم من تواضع مستويات الدخل فيها.

من ناحية أخرى فإنّ مستوى الدخل الحالي لأي بلد قد لا يعطي فكرة كافية عن احتمالات النمو في المستقبل، إلّا أنّ استثمار بلد ما ثروته في تنمية ثروته البشرية، ينبئ بالضرورة أنّ دخله سيكون أعلى بكثير مما يشير إليه مستوى الدخل الحالي.

والتّمنية البشريّة هي عملية تهدف إلى زيادة الخيارات المتاحة أمام النّاس ومن حيث المبدأ، فإنّ هذه الخيارات بلا حدود

بالتّمنية في العالم صادمة: فلا يزال ثلاثة أرباع سكان العالم ممن يعيشون في الدّول النامية لا يحصلون إلا على ١٦٪ من الدّخل العالمي. ويعيش واحد من كل ثلاثة أشخاص في هذا العالم في فقر مدقع؛ هذا بالإضافة إلى مشكلة البطالة والعجز المتزايد في فرص العمل وعلى الرغم من تحسن فرص الحياة، وانخفاض معدلات الوفيات نتيجة للتطور العلمي والطبي. فإنّ السّياسات المادية للتّمنية أسفرت عن عواقب خطيرة على صحة الإنسان نتيجة إهمال البيئة وإفسادها للذين صاروا يشكّلان مصدرًا أساسيًا لتهديد أمن الإنسان. إذ لا يزال أكثر من مليار نسمة محرومين من الخدمات الاجتماعيّة الأساسيّة كالرعاية الصحيّة الأوليّة؛ والتّعليم الأساسي ومياه الشّرب المأمونة والتّغذية الكافية، لقد كانت تلك الصورة الإنسانيّة المحزنة - على الرغم من كلّ ما حققته الإنسانيّة من مكاسب - دافعًا للأمم المتحدة. وكانت تلك هي البيئة المؤاتية لظهور منظور جديد يحمل هدف التنمية وشعارها من أجل البشر: وهو التّمنية البشريّة Human development التي أصبحت موضوعًا يحتل مكان الصدارة في ما يدور من نقاش

(١) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية ١٩٩١، ص ١٢.

(٢) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية ١٩٩٠، ص ٢٠.

وتتغير بمرور الوقت، أما من حيث التطبيق فقد تبين أنه على جميع مستويات التنمية تتركز الخيارات الأساسية في ثلاثة هي:

- أن يحيا الناس حياة طويلة خالية من العلل.
- وأن يكتسبوا المعرفة.
- وأن يحصلوا على الموارد اللازمة لتحقيق مستوى حياة كريمة. وما لم تكن هذه الخيارات الأساسية مكفولة، فإن الكثير من الفرص الأخرى سيظل بعيد المنال^(١).

وإذا كان منظرو التنمية البشرية يكادون يتفقون على أن المفهوم أوسع نطاقاً وأعمق مضموناً من الأساليب المتاحة لقياسه، ومع ذلك، يبدو أنه لا مناص من الاعتماد على المؤشرات والمقاييس المطروحة مع التسليم بما قد يعتورها من قصور. ويمكن أن نوجز هذه الأبعاد بما يلي:

- التنمية الاقتصادية، وهي في الدراسة الزاهنة تعني النظرة العامة للاقتصاد والعمل والإنتاج، وضوابط المعاملات الاقتصادية والتجارية والفقير.
- التنمية الاجتماعية تشير إلى العدالة الاجتماعية (العدالة في الخدمات

الصحية، العدالة في فرص التعليم، والعدالة في توزيع الدخل والثروة) الأحوال الشخصية والقرابة.

- التنمية الثقافية تشير إلى (مكانة العلم والعلماء، الموقف من الثقافات الأخرى ما بين التشكيك والتأييد والمعارضة الخ، القيم).
- التنمية السياسية، قصدنا بها مسؤوليات الدولة، وشروط الحاكم، والديمقراطية، احترام حقوق الإنسان، الانتماء، تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع.

لقد تجاوز مفهوم التنمية البشرية المعاصر الكثير من الثنائيات التي لا تخلو من التبسيط وأولها ثنائية الاقتصاد الاجتماعي التي يتقابل فيها القطبان كأن أحدهما لا يتقدم إلا على حساب الآخر، وكأن العلاقة بينهما يجب أن تكون علاقة إخضاع أحدهما لأهداف الآخر، ويرتبط بها ثنائية السوق والدولة وهي أيضاً علاقة إقصاء في الفهم التقليدي. في حين يفترض أن تكون علاقة تضافر وتكامل، لأن السوق والدولة هما أدوات ووسائل يجب أن تعمل معاً تحت إدارة المجتمع ورقابته وفي خدمة أهدافه^(٢).

(١) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية ١٩٩٠ ص ٢١.

(٢) محبوب الحق، أفكار في التنمية البشرية، ١٩٩٥، جامعة أوكسفورد..

السيرورة تقوم على أساس مساهمة جميع الأفراد بشكل نشيط وحرّ في التّمنية، وعلى أساس التّوزيع العادل لعائداتها... كما أنّ الإنسان هو الموضوع المحوري لسيرورة التّمنية، وأنّ السّياسات التّنموية يجب أن تجعل من الكائن الإنساني المشارك الأساسي في عمليّة التّمنية والمستفيد الأول منها».

وقد تبني برنامج الأمم المتحدة الإنمائي تعريفًا مختصرًا للتّمنية عام ١٩٩٠م اقتباسًا عن الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد أرثلونيس: «التّمنية هي توسيع خيارات الناس».

أمّا التّعريف المُفصّل الذي ورد في تقرير «مبادرة من أجل التّغيير جون غوستاف سبيث» عام ١٩٩٦م فهو: «التّمنية البشريّة المستدامة هي تنمية لا تكتفي بتوليد النّمو وحسب، بل توزيع عائداته بشكل عادل أيضًا، وهي تجدد البيئة بدلَ تدميرها. وتُمكن النّاس بدلَ تهميشهم وتوسع خياراتهم وفرصهم وتؤهلهم للمشاركة في القرارات التي تؤثر في حياتهم».

إنّ التّمنية البشريّة المستدامة هي تنمية في صالح الفقراء، والطّبيعة، وتوفير فرص عمل، وفي صالح المرأة، إنّها تشدد على النّمو الذي يولد فرص عمل جديدة، ويحافظ

من ناحية أخرى، فإنّ مفهوم التّمنية البشريّة تعرض بدوره للتآكل خلال العقود الأخيرة، حيث تم إهمال بعض مكوناته (لا سيما المكونات الثقافيّة والسّياسيّة والبيئيّة)، في حين حظي المكوّن الاقتصادي بالاهتمام الأكبر، يليه المكوّن الاجتماعي، ولم يخلُ فهم المكونات نفسها من بعض المشكلات أيضًا، حيث تم اختزال هذه المكونات في بعض جوانبها التّقنيّة أو الجزئيّة، كاختزال البعد السّياسي بالحكومة *gouvernance* التي تُنظر إليها من منظور إداري وفني، واختزال البعد الاجتماعي أيضًا في المشكلات الاجتماعيّة؛ والتعامل مع الآثار والنتائج، أكثر من النّظر إليه من منظور «التّمنية الاجتماعيّة كعملية تحويليّة للمجتمع». أمّا البعد الثقافي فقد بقي الأكثر إهمالًا إلا من بعض الأفكار العامّة. لذلك كله تطور مفهوم التّمنية البشريّة ليصل إلى التّمنية البشريّة المستدامة؟

ثالثًا - مفهوم التّمنية البشريّة المستدامة:

تعريفه: عرّف الإعلان العالمي للحق في التّمنية، مفهوم التّمنية العام ١٩٨٦م على الشكل الآتي: «التّمنية هي سيرورة شاملة، اقتصاديّة واجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة، تهدف إلى تحقيق تقدم مستمر في حياة جميع السكان ورفاهيتهم، وهذه

على البيئة تنمية تزيد من تمكين الناس وتحقق العدالة في ما بينهم»^(١).

وحسب تعريف لجنة برونتلاند الذي أصبح علامة فارقة في السياسات البيئية، والتَّناميَّة منذ التَّسعينات من القرن الماضي فإنَّ التَّنامية هي التي تأخذ بالحسبان حاجات المجتمع الراهنة من دون المساس بحقوق الأجيال القادمة في الوفاء باحتياجاتهم».

إن قمة الأرض التَّانية التي عقدت في أيلول ٢٠٠٢م في جوهانسبرج عُقدت تحت شعار «القمة العالمية للتنمية المستدامة».

وبالتالي فإنَّ الاستدامة حسب تعريف لجنة برونتلاند ومنهجيتها تدعو إلى عدم استمرارية الأنماط الاستهلاكية الحالية سواء في الشمال أو في الجنوب والاستعاضة عنها بأنماط استهلاكية وإنتاجية مستدامة، ومن دون تحقيق مثل هذه التطورات فلا مجال لتطبيق حقيقي لمفاهيم التَّنامية المستدامة الشَّاملة. ويؤكد تقرير برونتلاند أيضًا على الارتباط المتبادل الوثيق ما بين التَّنامية البيئيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة وأنَّه لا يمكن إعداد أو تطبيق أية استراتيجية أو سياسة مستدامة من دون دمج هذه المكونات معًا. ويحتاج تحقيق التَّنامية المستدامة إلى

تغييرات جوهرية في الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية على الأخص، ولكن مثل هذا التَّغيير لا يمكن أن يتم من خلال «أمر من الأعلى» أي من السَّلمة الحاكمة بل من خلال التَّنظيم الشَّعبي والاجتماعي الذاتي، والتعاون ما بين القطاعات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، وممارسة الديمقراطيَّة الاقتصادية من خلال عملية تشاوريَّة تشاركيَّة تتضمن قطاعات المجتمع كلها.

إنَّ أهم الخصائص التي جاء بها مفهوم التنمية المستدامة، هو الرِّبط العضوي التام ما بين الاقتصاد والبيئة والمجتمع، حيث لا يمكن النظر إلى أي من هذه المكونات الثلاثة بشكل منفصل، فلا بد من أن تكون النُّظرة التَّحليلية إليهم متكاملة معًا، باعتبارها أبعاد التَّنامية البشريَّة المستدامة.

إنَّ هذه الأبعاد المتشابكة، تعني أنَّ النُّظر إلى التَّنامية المستدامة يختلف حسب زاوية المقاربة أو منهجيَّة وخلفية التَّحليل، فالاقتصاديون سوف يركزون على الأهداف الاقتصادية أكثر من غيرها كما يؤكد البيئيون على أهمية حماية الطَّبيعة، ويشدّد الاجتماعيون على مبادئ العدالة الاجتماعية وتحسين نوعية الحياة. ولهذا تختلف تعريفات الاستدامة باختلاف المنظور.

(١) العجل رضوان، دور مؤسسات الرعاية الاجتماعية في التنمية، دار نلسن-بيروت لبنان، ط١، ٢٠١٥.

إغفال أي بعد من هذه الأبعاد المذكورة، خصوصاً في مرحلة التحليل والتشخيص. ويتضمن مفهوم التنمية البشرية المستدامة أربعة مبادئ رئيسية يجب أن تُلاحظ في كل المجالات الاستراتيجية المذكورة هي: العدالة، الإنتاجية، الاستدامة، والتمكين.

هذه المبادئ هي بمثابة معايير لتقييم السياسات والبرامج لجهة مدى استجابتها لمتطلبات تحقيق التنمية. كما أنها تشير إلى أهداف يجب تحقيقها من ناحية ثانية. وتكمن المسألة في أن نعطي لكل منها المضمون الملموس على الصعيد الكوني، بالإضافة إلى إعطائها مضمونها الخاص المعبر عن ظروف كل بلد ومجتمع وعلى المستوى المحلي.

مفهوم التنمية المحلية:

لا بد من التأكيد على أهمية تضافر الجهود المحلية الذاتية والجهود الحكومية لتحسين نوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والحضارية للمجتمعات المحلية، وإدماجها في منظومة التنمية الوطنية الشاملة؛ لكي تشارك مشاركة فعالة في التقدم على المستوى الوطني. انطلاقاً من هذا المفهوم حول مفهوم التنمية المحلية في المجتمع المحلي

تعطي هذه التعريفات فكرة كافية عن المفهوم وعن مضمون التنمية البشرية والوجهة التي تحملها، وعن الالتزامات الوطنية المطلوبة لبناء استراتيجية تنمية، وتمهد للتعمق بالمفهوم نفسه، للوصول إلى مفهوم التنمية الشمولي.

مفهوم التنمية الشمولي:

التنمية الشاملة كمفهوم يمكن الإشارة إليه من خلال أربعة مستويات متضمنة فيه، الرؤية، والمنهجية، الاستراتيجية، وأسلوب العمل.

وعلى هذا الأساس يصح القول: رؤية تنموية، ومنهجية تنموية، واستراتيجية تنموية، وأسلوب عمل تنموي.

وانطلاقاً من التعريف الذي تحدثنا عنه عن الأعلان العالمي الحق في التنمية وغيره، يمكن الإشارة إلى خمس مجالات أو أبعاد رئيسية يجب أن تشملها أية استراتيجية تنموية هي:

المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والبيئية، عند التخطيط التنموي، سواء كان ذلك على المستوى الوطني أو المحلي، إذ يجب استعراض هذه المجالات مجتمعة، وتصميم التدخل التنموي بشكل واقعي وعلمي، متضمناً مجالات التركيز والأولويات، ولكن من دون

فما هو المجتمع المحلي وكيف يمكن تنميته؟^(١).

رابعاً: المجتمع المحلي:

مفهوم المجتمع المحلي

يمكن التعبير عن مفهوم المجتمع المحلي أنه ارتباط بشري قائم على الإرادة الطبيعية، تقوم العلاقات الشخصية فيه على القرابة والصداقة والجوار، كما تؤدي هذه العلاقات وظيفتها من خلال التضامن والعادات الشعبية والسنن والدين. فمفهوم المجتمع المحلي، على هذا الأساس من التضامن التقليدي والترابط القائم على الإرادة الطبيعية بين أفراد، هو ما يميزه من مفهوم المجتمع بما يمثله من إرادة تعاقدية تسود علاقات أفراد.

مفهوم تنمية المجتمع المحلي:

تصنف المراجع عملية تنمية المجتمع المحلي أنها عملية مستمرة يتعامل بها أكبر عدد من أفراد المجتمع المحلي بهدف إحداث تغيير جذري لأوضاعه ليتحول إلى مجتمع اقتصادي واجتماعي وثقافي جديد يتمتع أفراد بنوعية من الحياة أفضل مما كانت عليه سابقاً.

وتستوجب عملية تنمية المجتمع المحلي

تهيئة عوامل تقدمه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي من خلال مساهمة أفراد وجماعاته، وعن طريق تنمية طاقاته وإمكانياته المادية والبشرية، ونتيجة لذلك يكتسب قدرة أكبر على مواجهة مشكلاته.

واستناداً إلى هذه المفاهيم مجتمعة، وبرنامج الشبكة العربية للمنظمات الأهلية على مستوى العالم العربي من جهة بالتعاون والتنسيق مع المجتمع المحلي، واستناداً إلى برنامج الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية في لبنان من جهة، والعديد من الجمعيات الأهلية والمحلية في المناطق اللبنانية كافة؛ حيث تم القيام بتجارب تنموية متعددة في المناطق والمحافظات اللبنانية كلها، يمكن التعبير عن مفهوم تنمية المجتمع المحلي أنه عملية تغيير، ارتقائي، مخطط، للنهوض الشامل، المتكامل، لنواحي الحياة جميعها، يقوم بها أبنائه بنهج ديمقراطي، وبتكاتف المساعدات من خارجه.

واقع المجتمع المحلي:

تعاني المجتمعات المحلية، بصورة عامة، من تدني قدراتها الاقتصادية والاجتماعية على تلبية احتياجاتها

(١) راجع: عبد الحليم عبد المطلب: التمويل المحلي والتنمية المحلية الدار الجامعية مصر ٢٠١١ ص ١٢.

الأساسية، والتّعامل مع مشاكل الفقر والبطالة والتهميش.

إنّ حدة المشاكل وتفاقم العقبات التي تطال المرتكزات الأساسية للتنمية في المجتمعات المحلية تشير إلى اتساع الهوة بين هذه المجتمعات وغيرها من المجتمعات ضمن البلد الواحد.

نظريات المجتمع المحلي:

نظريات المجتمع المحلي متعددة، منها ما يركز على تحقيق التنمية الاقتصادية ومنها ما يركز على تحقيق التنمية الاجتماعية، ومنها ما يتناول جميع المرافق والقطاعات الحيائية من بشرية واقتصادية وهي التي تعرف بالتنمية المتكاملة.

بينما يجمع مفهوم التنمية المتكاملة بين المفهومين السابقين، ويركز على المشاركة الفعلية لأفراد المجتمع المحلي في تحديد مشكلاتهم وحلها.

خامساً: في الميدان:

إن التنمية التكاملية هي من مهام ونشاطات الدول والمنظمات على أنواعها، حيث أن أحدهم لا يستطيع أن يحقق التنمية بالمعنى الواسع للكلمة من دون التعاون والتنسيق والتكامل مع الآخر أي الحكومات والمنظمات العالمية، والإقليمية والوطنية والمحلية لكي تساهم في تحقيق مفهوم التنمية بشكل عام.

وبما أنّ هذه الدول والمنظمات الدولية، والإقليمية والمحلية تمرّ الواحدة منها أحياناً بأزمات أو حروب وكوارث طبيعية، وأزمات اقتصادية واجتماعية وثقافية وبيئية. كان لا بد من التعاون والتنسيق بعضها مع بعض للمساهمة في معالجة المشاكل التنموية، والإنمائية في المناطق المحرومة والفقيرة في العالم. وخاصة بين الدول المتجاورة لأنّها معرضة بشكل دائم للتأثر والتأثير.

لقد ظهر جلياً التأثير الإيجابي للتعاون والتنسيق بين الشبكة العربية والمنظمات الأهلية والوطنية والمحلية، من خلال العمل على الأرض في لبنان. وكان من ضمن الأهداف الأساسية، تدريب العاملين والمتطوعين في العمل التنموي، وتمكينهم من مساعدة أنفسهم.

وبما أنّ لبنان مصنف ضمن البلدان النامية بحسب تقارير الأمم المتحدة undp عام ١٩٩٨م التي صدرت بالتعاون والتنسيق مع وزارة الشؤون الاجتماعية؛ والذي صنفت فيه المناطق الريفية الأكثر حرماناً والتي تعاني الكثير من النقص في الخدمات الإنمائية والتنموية.

وبما أنّ الحرمان يصيب المرأة اللبنانية الريفية أكثر من الرجل؛ وذلك لعدم توفر الفرص التعليمية والتنموية لهن كما هي الحال في المدينة، فكان للشراكة الإقليمية بين الشبكة العربية للمنظمات الأهلية

الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا عام ٢٠١١م للبلدان العربية.

وينطلق هذا التقرير من قناعة أنّ التّعاون الإقليمي هو أحد الأولويات الضرورية لتحقيق الأهداف الإنمائية للألفية، ويستخدم الهدف الإنمائي الثامن المحدد على المستوى العالمي كإطار ممد لمسار تكامل إقليمي من أجل خلق بيئة إقليمية مساعدة شاملة لتحقيق الأهداف الإنمائية الأخرى، وتحمل أقل البلدان العربية نموًا مسؤولاً الأولى في العمل على تحقيق الأهداف الإنمائية السبعة على أراضيها، بالمقابل تقع على عاتق البلدان العربية الأكثر ثراءً المسؤولية نفسها بالإضافة إلى دورها الأساسي في دعم جيرانها الأكثر فقرًا من خلال تقديم مساعدة أكثر فعالية، والمساعدة في التخفيف من عبء الديون، وتأمين عدالة أكبر في الأسواق عبر التجارة والاستثمار وغيرها من المجالات. وكما يناهز الهدف الثامن المحدد على المستوى العالمي بالعدالة في الطبابة والتكنولوجيا، يمكن للهدف الثامن الخاص بالمنطقة العربية ان يدعو إلى تنسيق السياسات الاجتماعية والنفاذ إلى الاتصالات، كان ذلك من خلال التكنولوجيا أو البنية التحتية^(١).

والمنظمات الإنسانية والوطنية؛ والجمعيات المحلية الجذورية دور مهم في مجال التّربية على المحيط وتنمية المجتمعات من خلال المساهمة في عمليات التّدريب، وتمكين المرأة اللبنانية الرّيفية في المجتمعات المحلية، حيث ظهرت أطر تنظيمية تنسيقية عبر تبادل الخبرات والمعلومات وترشيد العمل الأهلي بسبل مختلفة.

لقد ساد الاقتناع أنّ تحقيق التنمية المجتمعية الشاملة قائم على تدريب المجتمع المحلي وتمكينه، ليكون مشاركًا باتخاذ القرارات المناسبة لبيئته وحاجاتها من خلال فعاليات المجتمع المحلي، ليكون أبنائه أكثر معرفة ودراية بحاجاتهم الأساسية لتنمية مجتمعاتهم. وهذا ما يدفعهم إلى العمل على تنمية القدرات البشرية المحيطة بهم من خلال إرشادهم وتربيتهم على المشاركة الفعالة والمنظمة، بالتعاون والتنسيق مع مؤسسات إقليمية ووطنية داعمة للجمعيات المحلية في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية وغيرها.

هذا يتطابق مع الهدف الثامن من الأهداف الإنمائية للألفية الذي وضعته الأمم المتحدة ومنظمة الأسكوا واللجنة

(١) تقرير عن الأهداف الإنمائية للألفية في البلدان العربية - الاسكوا - اندية الروتاري الأمم المتحدة: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، ٢٠١١ ص ١٠٥.

جدول رقم (١) توزيع المتدربات والمتدربين لعدة جمعيات:

المجموع	الخيطة	التزيين النسائي	محو الامية	محاضرات	نوع الدورات الجمعيات المشاركة
٥٦	٢٥	٣١	-	-	جمعية جديدة القيطع
٧٠	٥٠	-	٢٠	-	جمعية عبدو حسين حمد للتنمية (أهدى)
٧٠	-	-	-	٧٠	جمعية العبد الخيرية
٥٠	-	-	-	٥٠	جمعية الرؤوية الصالحة
٢٤٦	٧٥	٣١	٢٠	١٢٠	المجموع

وبما أن المجال لا يتسع لعرضها جميعاً أو شرح مخرجاتها التنموية، فإننا سنقوم بعرض نماذج تطبيقية عن العمل المشترك الأول للجمعيتين المذكورتين أعلاه؛ كنموذجين تطبيقيين قداماً للمجتمع المحلي ودورات تمكين، وتنمية مهارات المرأة الريفية اللبنانية وقدراتها، وقد أنتجت هذه الشراكة تنمية قدرات عشرات من المتدربات في البلدات والقرى المحيطة بهذه الجمعيات الجذورية المحلية في محافظتي الشمال (جديدة القيطع - عكار) والجنوب (شعبا - حاصبيا). علماً أنّ هذه الشراكة قد شملت العديد من الجمعيات المحلية والجذورية في المحافظات اللبنانية كافة، وكذلك في عدد من البلدان العربية أنتجت مئات من المتدربين والمتدربات على تنمية قدراتهم.

ويبين الجدول أدناه الجدوى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي أنتجتها مثل هذه الشراكة في المناطق المحيطة بالجمعيتين النموذجيتين المذكورتين أعلاه.

عملاً بهذه المبادئ والمفاهيم التي تبنتها معظم المنظمات الدولية والإقليمية، والمفكرين التنمويين أو العاملين في الحقل التنموي، وبما أنني شاركت شخصياً وعملياً في عمل المنظمات الأهلية بالتعاون والتنسيق مع الشبكة العربية للمنظمات الأهلية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية في لبنان، ومؤسسات محلية في مناطق لبنانية متعدّدة موزعة من أقصى الشمال (جمعية جديدة القيطع الخيرية والتي أتشرف برئاستها حالياً) إلى أقصى الجنوب (منظمة جمعية عبدو حسين حمد للتنمية الاجتماعية (أهدى) (Ahda)) وغيرها من الجمعيات في بيروت والبقاع والشمال.

جدول رقم (٢) توزيع المتدربات على أنواع الدورات في الجعيتين

المجموع	الخباطة	التزيين النسائي	دورة محو امية	الدورات الجمعيات
٥٦	٢٥	٣١	-	جمعية جديدة القيطع الخيرية
٧٠	٥٠	-	٢٠	جمعية عبدو حسين حمد (أهدى)
١٢٦	٧٥	٣١	٢٠	المجموع

مجموعة من المنظمات؛ يمكنها أن تتعاون معاً. وتعمل بروح الفريق، في مختلف المناطق التي تتواجد فيها المجموعات التّنموية. فالتّشبيك من جانب والعمل الجماعي لتحقيق أهداف محددة من جانب آخر، يكوّنان جزءاً مهماً في منطلقات المشروع.

توافر روح المبادرة والاستقلالية في اختيار مشروعات ضمن المجموعات التّنموية، فالمنظمة السائدة في البلد الواحد (لبنان) ضمن المجموعة تقوم بدور التيسير ولا تعترض رؤيتها أو اقتراحاتها على المجموعة، إنّما تُيسّر الحوار والنقاش بينهم للتوجه نحو اقتراح المشروع التّنموي.

بناء شركات حقيقية بين كل مجموعة، والأجهزة المحلية والحكومية في المنطقة محل الاهتمام لدعمها وتيسير جهودها، وفي الوقت نفسه إمكانات تفاعل كل مجموعة تنموية مع القطاع الخاص (لتسويق الإنتاج، والمساهمة في التدريب وتوفير فرص عمل...).

أما في ما يتعلق بأبعاد مبادرة المجموعات التّنموية فقد جاءت على الشكل الآتي:

البعد الأول: لمبادرة «المجموعات التّنموية» هو: استهدف تفعيل وتنشيط الدور التّنموي للمنظمات الاهلية من خلال تدمير عناصر القوة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (من خلال الثقافة والتوعية) الفئات المهمشة والفقيرة، لكي تتمكن من الاعتماد على ذاتها.

البعد الآخر: هو تحقيق أفضل اقتراب من الفئات المستهدفة من خلال جمعيات هي منظمات جذورية قاعدية (كما يطلق عليها أحياناً) تتواجد في المناطق المحلية «وبين الناس» على أن تقوم منظمة تنموية لها خبرة وقدرات على التواصل، بتأدية دور المنسق أو ضابط الاتصال بين الجمعيات الصغيرة الجادة التي تم استقطابها.

تقوم إحدى الجمعيات بمهمة تشكيل المجموعة التّنموية في تحقيق شبكة صغيرة (ثم شبكات اخرى متتالية) بين

تفاعل مقترحات المجموعات التنموية ومشروعاتها في كل منطقة تم فيها تطبيق المبادرة، مع الاحتياجات المجتمعية والثقافية السائدة.

وقد التزمت المتدربات في كلتا الجمعيتين بالدوام والحضور، والمشاركة الفعالة كما شاركن في نشاطات ورحلات رياضية مثل اليوم الرياضي مع الجيش اللبناني، بغية تعزيز مبدأ الاستقرار الاجتماعي والوطني في العلاقة ما بين الجيش اللبناني وشعبه. وقد أعطى هذا النشاط وغيره من النشاطات نتائج ملموسة على العديد من المستويات، وعزز روح الإلفة والمحبة بين المتدربات، وبث فيهن روح التعاون والعيش المشترك.

كما أقامت المتدربات حلقات الدبكة على موسيقى الجيش اللبناني التي نفذتها الفرقة الموسيقية للجيش اللبناني ما أدى إلى تنمية البعد الثقافي والإنساني لديهن.

كما استفدن من المحاضرات وخاصة المحاضرة الصحيّة عن الصّحة الإنجابية التي ألقيت من قبل جمعية تنظيم الأسرة، حيث جرى حوار علمي مسؤول بين المتدربات والأساتذة المحاضرات.

هذا؛ وقد اكتسبت الجمعيتان خبرات فنية وإدارية عدة، على سبيل المثال:

زادت من قدراتها التّنظيمية والإدارية

من خلال الالتصاق بقضايا المحيط، ومشاكلها التّنموية خاصة في قطاعي المرأة والشباب.

تطور مفهوم العمل التطوعي لفريق عمل الجمعيتين من خلال استقطابهن فريق عملهن من الطالبات الجامعيات خاصة ومن المتطوعات الراغبات في العمل من الفئات الاجتماعية كلها.

وبالنسبة إلى المتدربات فقد:

- استفادت ١٢٦ متدربة من دورتي الخياطة والتّزيين النسائي ومحو الأمية ما زاد من قدراتهن العمليّة والدّهنية، كما أثرت على سلوكهن النّفسي والاجتماعي ما انعكس إيجاباً على أهاليهنّ وأقربائهنّ في المنازل وفي الأحياء ضمن القرية. (الملحق رقم ٢)

- خلقت الدورات جواً من التفاعل في ما بينهنّ وبين المدربات من حيث العلاقات الاجتماعية.

- فتحت فرص العمل لدى عدد كبير منهن، وأصبحن يعملن بمهنتهن اللواتي تدربن عليها، والبعض منهن فتحن مؤسسات خاصة بهن.

- تحسنت أحوالهن الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

- أصبح لديهن دافع من الثقة بالنفس والاعتزاز بما فعلن؛ وبأهميتهن كعناصر فاعلة في مجتمعاتهن ومحيطهن.

المراجع

المراجع باللغة العربية:

- ١ - عبد السلام نوير، العولمة وسياسات التنمية البشرية في افريقيا، سلسلة دراسات مصرية افريقية يصدرها برنامج الدراسات المصرية الافريقية، كلية الاقتصاد، جامعة القاهرة ٢٠٠٤م.
- ٢ - حسن بن ابراهيم الهنداوي، التعليم واشكالية التنمية، كتاب الأمة، السنة الثالثة والعشرون، عدد ٩٨ - (ذو القعدة ١٤٢٤هـ).
- ٣ - انظر مثلاً لهذه التعريفات في:
- اسماعيل صبري عبد الله، ندوة الأهرام عن حرب أكتوبر وحاجتنا إلى عقد اجتماعي، الأهرام، القاهرة في ٦/١٠/١٩٨٨م.
- عبد الباسط محمد حسن، التنمية الاجتماعية، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ٤ - سمير نعيم، الدراسة العلمية للسلوك الاجرامي، ومقالات في المشكلات الاجتماعية والانحراف الاجتماعي مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، محمد شفيق، المساكن والتنمية القضايا والمشكلات، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية ١٩٨٨م.
- ٥ - ناهد عز الدين عبد الفتاح، العلاقة بين التنمية الاقتصادية وحقوق الإنسان: دراسة مقارنة بين مصر وكوريا، رسالة ماجستير، كلية الاقتصاد - جامعة القاهرة، ١٩٧٧.
- ٦ - محمد جمال برعي، التخطيط للتدريب في مجالات التنمية، مكتبة القاهرة الحديثة، ط ١.
- ٧ - السيد محمد جمال برعين التخطيط والتدريب في مجالات التنمية، مكتبة القاهرة الحديثة، ط ١، ١٩٨٨.
- ٨ - السيد محمد الحسيني وآخرون، دراسات في التنمية الاجتماعية، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.
- ناهد عز الدين عبد الفتاح، العلاقة بين التنمية الاقتصادية وحقوق الإنسان: دراسة مقارنة بين مصر وكوريا، رسالة ماجستير، كلية الاقتصاد - جامعة القاهرة، ١٩٧٧.

- أصبح لديهن الرغبة في المشاركة في الأعمال الاجتماعية من خلال رغبتهن بالانتساب إلى الجمعية؛ وتقديم أنفسهن للعمل التطوعي والخيري والتنموي.

- أبدين استعداداً تاماً لاستمرار التواصل من خلال تبادل الزيارات؛ والمشاركة في يوم الجيران الذي أقامه مجمع عكار للتنمية للجمعيات المجاورة أو المحيطة به. المطالبة بالمزيد من الدورات والتدريبات على اللغات والأشغال الفنية والتكنولوجية.

الاستنتاج:

لقد ثبت لنا أن التعاون والتنسيق بين المنظمات الإقليمية، والوطنية والمحلية كانت له نتائج إيجابية ومفيدة على صعيد التربية على المحيط والتنمية المستدامة. وتبين لنا أن الشراكة عمل مفيد، ومنتج يؤدي إلى تنمية القدرات وتبادل الخبرات؛ ويساهم في تحريك المجتمع وإبراز قدراته وإمكانياته. ما ساهم في جزء بسيط من العملية التنموية كونها تتطلب تكاتف مؤسسات المجتمع المدني ومؤسسات الدولة جميعها لكي تتحقق التنمية بالمعنى الشامل للكلمة.

جديدة للفكر الاجتماعي العربي الغربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.
- ج. تيمونز رويبر تس& ايمي هايت، من الحداثة إلى العولمة: رؤى ووجهات نظر في قضية التطور الاجتماعي، ترجمة: سكر التشكيلي، الكويت: عالم المعرفة (سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب)، نوفمبر ٢٠٠٤.

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Richard L. saklar. Developmental democracy. Comparative studies in society and history. Vol 29, No 4 (Oct 1987).
- 2- Guy Feuer et Herve Cassan; droit international du développement, paris Dalloz, 1985.
- 3- Guy Feuer et Herve Cassan; droit international du développement, Paris, Dalloz, 1985

المواقع الإلكترونية:

- <http://www.unesco.org/most/sd-arab/fiche2b.htm>
Jeremy/townsley: marx, weber and Durkheim on Religion, in:
<http://www.jeramy.org/papers/sociology-of-religion.html>
Sociology at Hewette: the sociology of religion...
Durkheim in:
<http://www.hewett.norfolksch.uk/curric/soc/durkheim/durkw3.htm>

٩- متولى مصطفى السلماوي، التنمية وقضية الديمقراطية في مصر ١٩٥٢-١٩٧٢م رسالة مقدمة للحصول على الدبلوم الخاصة، جامعة الاسكندرية، كلية الآداب، معهد العلوم الاجتماعية، شعبة التنمية الاجتماعية، ١٩٩٠.

١٠- محمد الجوهرى، مقدمة في علم اجتماع التنمية، دار الكتاب للتوزيع، القاهرة، ١٩٧٩، ط٢.

١١- محمد عبد المنعم نور، الحضارة والتحضير: دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري، مكتبة القاهرة الحديثة، ط١، ١٩٧٠م.

١٢- فراسويرو، فلسفة لتنمية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، اليونسكو، ١٩٨٣.

١٣- برنامج الأمم المتحدة الانمائي، تقرير التنمية البشرية ١٩٩١.

١٤- برنامج الأمم المتحدة الانمائي، تقرير التنمية البشرية ١٩٩٠.

١٥- برنامج الأمم المتحدة الانمائي، المرجع السابق.

١٦- برنامج الأمم المتحدة الانمائي، تقرير التنمية البشرية ١٩٩٠.

١٧- انظر بالتفصيل: جلال عبد الله معوض، الديمقراطية والتنمية السياسية - كلية الآداب - جامعة عن شمس، د.ت. وكذلك:

- Francis Fukuyama & Sanjay marwah: comparing East asia and latin America: Dimensions of development Journal of democracy. Vol 11. No 4 (2000)

١٨- انظر في هذا الصدد:

- محمد عبد السلام أبو زيد، التحليل السوسيولوجي لمفهوم الحلال والحرام، عند بعض الشرائع الاجتماعية في المجتمع المصري، ماجستير غير منشورة، قسم الاجتماع، الآداب القاهرة ١٩٧٧م.

- عاطف العقلة عضيبات، الدين والتغير الاجتماعي في المجتمع العربي دراسة سوسيولوجية، مرجع سابق.

- مصطفى شاهين، علم الاجتماع الديني، دار إحياء التراث، القاهرة، ١٩٩١م.

- محمد علي محمد، رواد علم الاجتماع: قراءة

النفط في لبنان: نعمة ونقمة في آن واحد

منى محمد يونس⁽¹⁾

البتروول في أرضها، إذ ساهمت هذه المادة بعد استخراجها وتنقيتها وتصفيها وتصديرها بعائدات مالية كبيرة سواء للدول المنتجة لها، أم للدول الصناعية المستوردة لها.

اكتشف لبنان منذ فترة وجيزة وجود النفط في مياهه البحرية مقابل شواطئه، وتفتحت آمال أبنائه وظهر لديهم بصيص نور يساعدهم في حل مشكلاتهم الاقتصادية وتسديد جزء من الديون المتراكمة على لبنان من خلال معرفة استثمار هذا المورد.

لكن للأسف بقي ملف النفط مبهمًا لدى اللبنانيين إذ لم يعرفوا حجم الثروة المكتشفة لديهم، والخطوات التي اتخذتها الدولة اللبنانية للاستفادة منها، على الرغم من تصريح المسؤولين السياسيين أن لبنان دخل نادي الدول النفطية.

المقدمة

يُعدّ النفط في عصرنا الحالي مادة استراتيجية، وتُفتعل الحروب بهدف امتلاكها والسيطرة على آبارها، لا سيما في منطقة الشرق الأوسط التي تمتلك كميات كبيرة من الذهب الأسود المتميز بخلوه من الشوائب وجودته العالية.

عُدّ النفط مصدرًا أساسيًا للطاقة يشغل المصانع والآلات، ويساهم بشكل أو بآخر في التطور التكنولوجي الذي بدأ في أواخر القرن العشرين ولا يزال مستمرًا حتى يومنا هذا، تدافعت الدول الصناعية للسيطرة على آبار النفط المنتشرة في العالم، وامتلك العالم العربي حصة كبيرة من هذا المورد الذي يحتاج مئات سنين لتكوّنه. ويجب الإشارة إلى أن العديد من دول العالم سواء الدول العربية أو غير العربية لم تكن ذات أهمية لولا وجود

(1) مرشد تربوي لمادة الجغرافيا في قضاء صور، واستاذ مدرّب في كلية التربية في الجامعة اللبنانية - قسم تعليم الاجتماعيات.

انطلاقاً من أهمية هذا المورد وبعد المؤتمرات العديدة التي تم عقدها حديثاً في العاصمة بيروت والتي تمحورت حول النفط اللبناني كان لا بد من طرح تساؤلات عدة:

هل نُفّذت مسوحات دقيقة لتحديد أماكن تواجده؟ كم تبلغ كميات النّفط المكتشفة في لبنان؟ هل سيتم استثمارها على المدى الطويل أو القصير؟ متى سيتم البدء بالحفر وكم يحتاج من الوقت لاستخراج النفط اللبناني؟ هل يوجد غاز أيضاً...؟

للإجابة على هذه التساؤلات ستتم دراسة أهمية الثروة النّفطية اللبنانية والمشاكل التي تهدد استثماره الصحيح والحلول المقترحة لحسن الاستفادة منه.

I - النفط في لبنان:

بدأ البحث عن النّفط والغاز في لبنان منذ القدم، لكن تواتر الأحداث التي عصفت به منذ الاحتلال الإسرائيلي للجنوب، والحرب الأهلية وصولاً إلى اتفاق الطائف، دفعت بالقيمين على ملف النفط إلى نسيانه. لكن منذ مطلع القرن الحالي عملت وزارة الطاقة على إعادة المسح بحثاً عن الثروة النفطية، إذ إنه في عام ٢٠٠٨م تعاقدت الحكومة مع شركة سبكتروم الإنكليزية

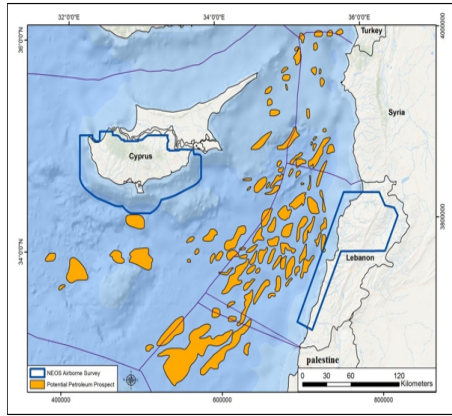
التي قامت بإجراء مسح ثنائي الأبعاد غطّى كامل الساحل اللبناني، وأشار تقرير الشركة إلى احتمال فعلي لوجود النفط والغاز، ولاحقاً تابعت شركة جي.أي.أس النروجية أعمال البحث من خلال قيامها بمسح ثلاثي الأبعاد على المنطقة عينها فتبين وجود كميات كبيرة من النفط موجودة على طول الساحل خاصة في شمال لبنان^(١).

كذلك كان مهندس البترول الراحل غسان قانصو قد أشار إلى وجود كميات كبيرة من النفط والغاز في المياه الإقليمية اللبنانية وذلك بعد الأبحاث والدراسات التي نفذها في لبنان كما أشار إلى وجود كميات من النفط في بعض المناطق الداخلية مثل سحمر ويحمر في البقاع الغربي، كما أكد زياد بيضون في الأبحاث الجيولوجية الكثيرة التي نفذها في لبنان على وجود كميات من النفط في منطقة (الجرف القاري) المغمور بمياه البحر الضحلة على السواحل اللبنانية وليس في المناطق الداخلية، مع عدم استبعاده وجود آبار لا سيما في منطقتي سحمر ويحمر البقاعيتين. ذلك أن «منظومة الصدوع العادية الموازية لصدع الشام (الصدع اللبناني السوري) القديم العهد في شرق البحر الأبيض

(١) مجلة الدفاع الوطني - العدد ٣٣٣ - الصادرة عن الجيش اللبناني - مقال بعنوان: النفط في لبنان: الإحتمالات، الإنعكاسات.

الشركة عن وجود حقل هائل للغاز يحوي ما لا يقل عن ١٦ تريليون قدم مكعب^(٢) في البحر المتوسط في منطقة تقع قبالة الشواطئ اللبنانية في منطقة بحرية دولية بين حدود فلسطين البحرية وقبرص. كما تظهر الخريطة رقم ١.

خريطة رقم (١): توزع النفط والغاز على طول الساحل اللبناني.



المصدر: www.onlylebanon.net 2015

المتوسط ربما كانت استُخدمت في تكوين منطقة الجرف القاري ذات السمات المميزة للتحرفات التي تنتمي إلى النمط الساحلي الأطلسي، وأن الحركية العالية لمنظومة الصدوع الشامية كان من شأنها أن تفضي في فترة النيوجين، وربما قبل النيوجين، إلى تشكيل أحواض ساحلية قابلة لأن تتراكم فيها احتياطات هامة من النفط والغاز الطبيعي^(١).

وتواصلت أعمال البحث الجيولوجي عن النفط مع شركة P.G.S في العامين ٢٠٠٦م - ٢٠٠٧م وكانت أيضاً ثلاثية الأبعاد فتبين وجود نفط وغاز ضمن المياه اللبنانية وضمن المياه اللبنانية القبرصية. إلا أن الملف لم يتحرك بشكل فعلي إلا بعد إعلان شركة نوبل للطاقة الأميركية في ٢٢ حزيران ٢٠١٠م بعد فحوص زلزالية ثلاثية الأبعاد صحة نتائج شركة P.G.S تحدثت

(١) يمين، ميشال، متخصص في جيولوجيا النفط أشار في أطروحة الدكتوراه (١٩٨١) تحت إشراف البروفسور الروسي أجغيري إلى احتمال كبير لوجود نفط وغاز في الجرف القاري اللبناني شرقي البحر المتوسط.

(٢) تقرير للجزيرة الاقتصادية بعنوان: لبنان على عتبة ثروة نفطية واعدة (٢٠١٢/١١/١٨).

وبناء على تقديرات جهات دولية متخصصة، قدرت قيمة إحتياطات الغاز في لبنان في حدود ١٦٤ مليار دولار، وقيمة إحتياطات النفط هي في حدود ٩٠ مليار دولار للفترة الممتدة بين عامي ٢٠٢٠ و ٢٠٣٩ وهذا يعني أن القيمة الوسطية لإنتاج الغاز سنوياً هي في حدود ٨,٢ مليارات دولار، والقيمة ذاتها بالنسبة للنفط ٤,٥ مليارات دولار لفترة ٢٠ سنة. كما قام لبنان في سنتي ٢٠١٥-٢٠١٦ بإنجاز قانون الموارد النفطية، ونجح في وضع قانون عصري وحديث، كذلك وُضعت قواعد العمل للأنشطة البترولية، وتمّ تعيين هيئة إدارة قطاع النفط.

اضافةً إلى ذلك رسم لبنان حدوده البحرية النفطية ضمن المياه الإقليمية وحدد البلوكات العشرة الظاهرة في الخريطة رقم (٢) والتي سيتمّ التنقيب فيها، كذلك تمّ إعداد العقود النموذجية للتنقيب والاستكشاف والانتاج ودفاتر الشروط وانهايتها. وأعلن عن أن ٤٣ شركة استكملت اجراءات الاستحصال على دفاتر الشروط والعقود النموذجية، وتمّ فتح دورة مشاورات مع هذه الشركات حول استثماراتها في النفط اللبناني.

أ - خريطة لبنان النفطية بين الاستراتيجية والتطبيق

أشار د. ناصر حطيط في مؤتمر النفط بين التعليم والعمل الذي عقد في ٢١/٩/٢٠١٧م إلى أنّ لبنان أنجز خريطته النفطية، كما أجرى فرنسبنك دراسة حول النفط والغاز في لبنان أوضح فيها أنه بعد المسح الذي شمل أكثر من ٧٠ في المئة من مياه لبنان، وتحليل نحو ١٠ في المئة منها، تبين من التقديرات الأولية أن لدينا ٣٠ تريليون قدم مكعب من الغاز و٦٦٠ مليون برميل من النفط السائل.

خريطة رقم (٢): ترسيم الحدود البحرية النفطية اللبنانية

كذلك صدر القانون رقم ١٣٢ تاريخ ٢٢/٨/٢٠١٠م (الذي يهتم بالموارد البترولية في المياه البحرية) وينطبق على الأنشطة البترولية^(١)، ضمن المياه الإقليمية ومياه المنطقة الاقتصادية الحصرية، التي لها علاقة بالمواد الهيدروكربونية الخاضعة للسلطة القضائية للجمهورية اللبنانية. ينظم هذا القانون عملية المسح الأولي Reconnaissance، والحقوق البترولية الحصرية، واتفاقية الاستكشاف والإنتاج بين الدولة اللبنانية وأصحاب الحقوق، وحسب هذا القانون تحتفظ الدولة اللبنانية بحق القيام في أو المشاركة في الأنشطة البترولية. توضع العائدات الناتجة عن الأنشطة البترولية في صندوق سيادي.

ب - الأهمية الاقتصادية للثروة النفطية اللبنانية

بعد التقديرات الأولية لحجم الثروة البترولية في المياه اللبنانية، سيتمكن لبنان من إحداث تحوّل جذري في الواقع الاقتصادي

اللبناني، إذ ستشكل هذه الثروة سبيلاً



المصدر: www.onlylebanon.net 2015

(١) منشورات هيئة ادارة قطاع البترول اللبناني في سنة ٢٠١٥.

لخلاص الدولة من مشاكلها الاقتصادية لا سيما مشكلة الديون المتراكمة عليها، وذلك يعود إلى أسباب عدة منها:

١ - مصدر للدخل القومي:

يتميز البترول بكونه مصدر فائدة ليس فقط بالنسبة إلى الدول المصنّعة إنّما أيضًا بالنسبة إلى الدول المنتجة له، لهذه الأهمية سمي بالذهب الأسود، ويمثل البترول بالنسبة إلى لبنان ثروة طائلة وهائلة إذا عرفت الدولة اللبنانية كيفية استثمارها، إذ إنّ كل دولة تتواجد آبار البترول في نطاق الحدود السياسية لها، هي دولة ثرية تتمتع باقتصاد قوي، وذلك بفضل العائدات النفطية التي تؤثر في ارتفاع معدلات الدخل الفردي والقومي في الدولة، وتعمل على تمويل ميزانيته وسد العجز في ميزانه التجاري وميزان المدفوعات فيه.

٢ - تحقيق التنمية والتطور:

الفائدة الثانية التي تعود من النفط على لبنان كدولة منتجة له، هي مساهمة العائدات النفطية في مختلف أوجه التنمية والتطور في مناطقه كافة، لا سيما في الأراضي والمناطق التي يتوفر فيها، فالطفرة الحضارية الهائلة التي أحدثتها إمارة دبي وصارت مثلاً يحتذى به، جاءت في الأساس معتمدة على عائدات تجارة البترول، والأمر نفسه يمكن قوله عن دول الخليج العربي كافة. فقد استغلت هذه الدول

جميعها الفائض بالدخل القومي، والمحقق عن طريق متاجرتها بالسلعة الاستراتيجية الأهم إلا وهي البترول، في أعمال العمران وإقامة المدن وتطويرها، وهذا الأمر يمكن أن ينطبق على لبنان إذا أحسنت الدولة في أساليب إدارة هذا المورد.

إذ إنّ الثروة النفطية ستساهم في إقامة مشاريع زراعية وإنشاء سدود وتأمين العديد من مستلزمات الإنتاج الزراعي كتطوير مصانع الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية لا سيما في المناطق الساحلية التي يتوفر النفط قريباً.

كذلك سيساهم النفط في إقامة العديد من المراكز والمجمعات الصناعية وسيعيد تفعيل محطتي التكرير في الدعتور والزهراني ويطورهما ليتناسبا مع الكميات التي سينتجها لبنان.

كما أنّ التنمية والتطوير سيضملمان البنى التحتية من حيث تأمين الطرقات المعبدة، الجسور، محطات تحلية المياه، توليد الطاقة الكهربائية التي يعاني لبنان من ارتفاع تكلفتها منذ زمن طويل وتوسيعات بعدد من الموانئ لا سيما مرافئ طرابلس وصور لتتسع أحواضها لناقلات النفط العملاقة.

٣ - مصدر طاقة ومادة أولية تطور القطاع الصناعي اللبناني:

ما يعطي للنفط اللبناني أهمية كبيرة هو

شروطها على المستثمرين من الشركات العالمية النفطية، لتشغيل نسبة عالية من الأيدي العاملة الشابة اللبنانية، لا سيما أن لبنان يمتلك يد عاملة ماهرة منها الأكاديمية كالمهندسين والمديرين... ومنها التقنية كالميكانيكيين وعمال الصيانة وعمال الكهرباء... وغيرهم ما يمكن أن يغطي نسبة كبيرة من حاجات هذه الشركات لليد العاملة.

كذلك تتجلى أهمية النفط اللبناني في تشغيل ليس فقط أصحاب الاختصاصات البترولية إنما أيضاً تلك التي تؤدي الخدمات لهؤلاء الاختصاصيين وللشركات العالمية النفطية، مثل خدمات التأمين والمصارف والمستشفيات والمطاعم... وغيرها.

باختصار يمكن القول إن هذه الثروة إذا أحسن استثمارها تُنعش الحياة الاقتصادية اللبنانية وتخرج الاقتصاد اللبناني من النفق المظلم الذي يتخبط فيه منذ فترة ما بعد الحرب الأهلية.

II - المشاكل التي تواجه استثمار هذه الثروة في لبنان

يواجه استثمار الذهب الأسود في لبنان عوائق كثيرة أهمها:

◆ الأطماع الإسرائيلية بهذه الثروة اللبنانية:

إن وجود كميات هائلة من البترول في

كونه ليس فقط مصدر للطاقة إنما أيضاً مادة أولية للعديد من الصناعات الكيماوية والبتروكيماوية والتي يمكن تعزيزها وتطويرها بسهولة في لبنان، إذ إن العلاقة الرابطة بين البترول والمجال الصناعي متعددة الأشكال، فهي لا تقتصر على كونه أحد أهم مصادر الطاقة فحسب، بل إن البترول في بعض الأحيان يمثل المادة الخام لعدد من الصناعات، فخلال القرن المنصرم لم يتوقف العلماء عن تحليل البترول واستكشاف خواصه، وأوصلتهم دراساتهم إلى إقامة المصافي ومحطات التكرير، ومن ثم بدأت عملية استخراج مشتقات البترول من النفط الخام، ما يعني إن بئر البترول لا ينضح بمادة طافية فحسب، بل إنه يمدنا بالعديد من المواد التي تستغل فيما بعض في العديد من الصناعات، منها صناعة البلاستيك ومنتجات الكوزمك والعطور وغيرها، فمشتقات البترول ينتج عن تدويرها عدد هائل من المنتجات الاستهلاكية، بعضها بالغ الأهمية ويعد من المنتجات الأساسية، وبعضها ثانوي مثل تصنيع مواد التعبئة والتغليف.

٤ - تأمين فرص عمل لليد العاملة اللبنانية:

عُدّ البترول نعمة بالنسبة إلى الشباب اللبناني لأنه وجد فيه ملاذاً سيحمله من الهجرة، إذا استطاعت الدولة اللبنانية فرض

وستذهب عائداته إلى جيوب عدد من المفسدين ولا يعود إلى ميزانية الدولة وصناديقها سوى الفتات، ما يشكل خطراً كبيراً يهدد استثمار هذا المورد.

◆ ازدهار القطاع النفطي على حساب باقي القطاعات الاقتصادية:

تميز لبنان باعتماده على القطاع الثالثي «التجارة والخدمات» ما أدى إلى إضعاف القطاعات الاقتصادية الإنتاجية أي الزراعة والصناعة، والخوف اليوم من تجدد هذه المشكلة إذ اهتمت الدولة والمستثمرين بالقطاع النفطي فقط، ولم تستغل عائداته لتنمية وتطوير باقي القطاعات، لا سيما القطاع الصناعي ما ينعكس سلباً على الطبقات الاجتماعية وتزداد الفروقات بينها ما يؤدي إلى القضاء على ما تبقى من الطبقة الوسطى في المجتمع اللبناني.

◆ افتقار لبنان إلى بنى تحتية لوجستية مناسبة للثروة المكتشفة:

على الرغم من أن لبنان أصبح على خريطة الدول النفطية لكن حتى الآن لم يبدأ بتجهيز البنى التحتية المناسبة لعمل المنصات النفطية، إذ ليس لدى لبنان بعد أي أنبوب ممدود ولا أية منصة للنفط والغاز، ولا أية قدرة لاستخراج النفط والغاز، إلى ذلك ثمة معوقات لوجستية كثيرة يعاني منها لبنان حتى الآن.

المياه الإقليمية اللبنانية يشكل بحد ذاته خطورة على هذا البلد نظراً لمجاورة لبنان للعدو الصهيوني، ولأطماع هذا الأخير غير المتناهية بموارد لبنان الماء والتراب والآن النفط، وهذا الأمر صرح عنه الكثير من المسؤولين الإسرائيليين، ويمكن الجزم أن إسرائيل ستلجأ إلى سرقة هذه الثروة الباطنية من قعر البحر مقابل الشواطئ اللبنانية مهما كلف الثمن وعلى الدولة اللبنانية ووزارة الطاقة خاصة الإسراع في عمليات التنقيب والاستكشاف قبل فوات الأوان.

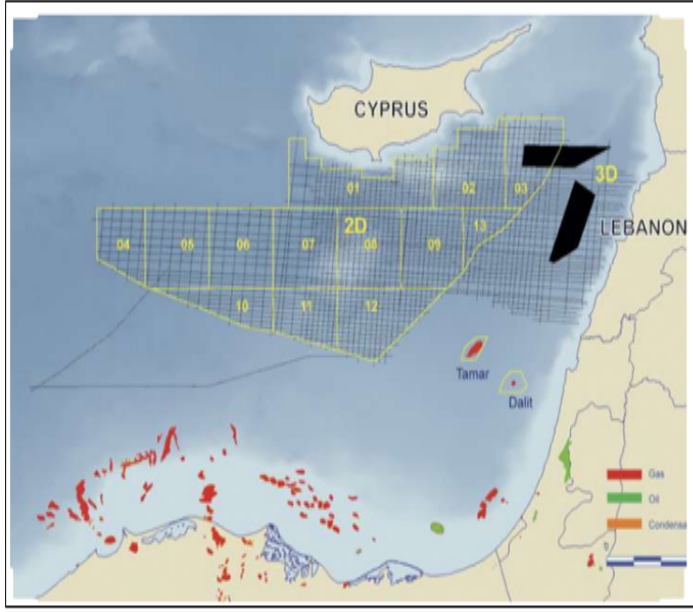
فالنزاع بين لبنان وإسرائيل على المنطقة الاقتصادية لم يحلّ بعد، فهناك ٨٥٠ كيلومتراً متنازلاً عليها. وعلى الرغم من دخول وسيط أميركي على الخط أكثر من مرة، إلا أنه تارة يعطي لبنان ٣٥٠ كيلومتراً و٥٠٠ لإسرائيل، وطوراً العكس. فيما تقوم إسرائيل بسرقة النفط اللبناني، لأن لديها كل الأنابيب والمعدات التي تمكنها من سرقة نفط لبنان وغازه.

◆ الفساد الإداري:

إن العقبات الأكثر صعوبة التي تواجه تدفق النفط هي التحديات الداخلية، وبشكل أكثر تحديداً هو الخوف على القطاع النفطي من الفساد الإداري والسياسي المستشري في لبنان. إذ إن تعرض القطاع النفطي اللبناني للمحاصصة سيفقده أهميته

خريطة رقم (٣): بلوكات الغاز
والنفط في المياه الإقليمية اللبنانية.

◆ عدم التناسب بين اختصاصات
اليد العاملة الشابة والحاجات النفطية:



المصدر: www.lebarmy.gov.lb/2017

◆ التلوث البيئي:

على الرغم من كل الخطوات التي تلجأ إليها الدول الصناعية الكبرى لحماية البيئة في بلدانها، فإن بناء المنشآت النفطية وتركيب المنصات يؤثر سلبيًا في بيئتها، فكيف الحال بدولة مثل لبنان، لا تزال بيئته تعاني من مشكلة النفايات المتراكمة فيه.

إن قيام المنشآت النفطية والمباني التابعة لها ستشكل من دون أدنى شك ضغطاً على الأراضي الزراعية والسياحية في المنطقة الساحلية لا سيما في شمال لبنان وجنوبه، ما يشكل خطراً على البيئة

يحتاج القطاع النفطي عندما يبدأ العمل به إلى يد عاملة باختصاصات تقنية ومهنية أكثر من الأكاديمية، بينما تميزت السنوات الأخيرة في الجامعة اللبنانية وفق رأي عميدها الدكتور رفيق يونس الذي صرح به لمجلة الدفاع الوطني، أن عددًا كبيرًا من الطلاب اللبنانيين

يتوجهون إلى كلية الهندسة في الجامعة اللبنانية ليدرسوا الهندسة الميكانيكية والبتروكيماوية، ما يؤدي إلى خلق مشكلة تجسدت في عدم التناسب، والتكافؤ بين ما هو متوفر وسيتوفر من أيدي عاملة شابة لبنانية في سوق العمل، وبين ما هو مطلوب من قبل الشركات النفطية العالمية والنظام البترولي.

كذلك يجب العمل على إبقاء الطلب على اليد العاملة مرتفعًا، وذلك يتم من خلال تنشيط القطاع النفطي للقطاعات الاقتصادية الأخرى المعتمدة عليه من قطاع زراعي وخدماتي وصناعي.

الزراعية والمائية في تلك المناطق بفعل الزيوت المتسربة من المنصات والمواد الكيميائية التي ستتسرب إلى باطن الأراضي الزراعية وستقضي على الحياة البحرية جراء التلوث الذي يلحق بالمياه.

الخطة المقترحة لمعالجة هذه المشاكل

◆ إنشاء صندوق سيادي... والدين العام أولوية

يؤكد جميع الخبراء أن هذه الثروة ستكون مهمة للبنان إذا تم استثمار الأموال بشكل جيد، في بلد يعاني من مشاكل اقتصادية واجتماعية وعمرانية كثيرة.

فالهدف من إنشاء الصندوق السيادي هو إدارة العائدات النفطية، لذلك من المهم إصدار قانون خاص يحدد نظام إدارة الصندوق، وجهة استثمار العائدات وتوظيفها واستعمالها على أن يكون مستقلاً عن الميزانية العامة للدولة، بشكل يؤمن المحافظة على العائدات النفطية والغازية لمشاريع استثمارية طويلة الأمد. وكل هذا يكون بالطبع تحت إشراف خبراء وقانونيين واقتصاديين وهيئات المجتمع المدني، وتقع على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن سيادته لجعله مستقلاً عن أية جهة سياسية تحاول التدخل أو تمرير الصفقات والمحاصصات.

كما أنه من الضروري أن يكون على رأس الصندوق السيادي مجلس أمناء على غرار البنك المركزي، على أن يكون رئيسه مديراً إدارياً لا يمتلك السلطة التنفيذية التي تمكنه من اتخاذ القرارات. والأهم أن يكون للمجتمع المدني دوراً فعالاً، لذا يجب الإصرار على تفعيل دور هذا المجتمع لجعله جزءاً من السلطة، حيث يستطيع المحاسبة والرقابة وبالتالي الحؤول دون استئثار أحد بالقرار.

كما أن إنشاء الصندوق السيادي يُعدّ خطوة أساسية وضرورية وجب على الدولة اللبنانية عامةً ووزارة الطاقة خاصةً العمل بأسرع وقت ممكن لتنفيذه على غرار دول نفطية مهمة في العالم كالمانيا وبولندا والنرويج وغيرها لأنه يوفر مستقبلاً لليد العاملة الشابة اللبنانية فرصة للعمل ويعمل على تسديد الديون المتراكمة على لبنان⁽¹⁾.

◆ ترسيم الحدود البحرية مع العدو الاسرائيلي:

شددت الدولة اللبنانية على ترسيم الحدود البحرية مع إسرائيل تحت مظلة الأمم المتحدة، وهذا ما طلبه لبنان من المبعوث الأميركي الخاص ومنسق شؤون الطاقة الدولية أموس هوشتاين أثناء زيارته لبيروت، ما يؤدي إلى معالجة مشكلة

(1) <http://www.saidaonline.com/1-1-2018>.

الحدود البحرية مع العدو الصهيوني تحت إشراف المظلة الدولية.

◆ ضرورة تلاشي الفساد في الإدارات اللبنانية:

أصبح لزاماً على المسؤولين في وطننا؛ وبعد كل ما نتخبط به من مشاكل اتخاذ قرارات مناسبة لوقف الفساد، ومعاينة المفسدين لا سيما في هذا القطاع المستحدث في الاقتصاد اللبناني، وذلك للمحافظة على عائداته واستثمارها بشكل علمي صحيح، ويكفي لبنان ما عاناه من انتشار الفساد الإداري في قطاعاته العامة، كما يجب التأكد من عدم وجود فساد في إدارة القطاع النفطي بشكل خاص من خلال رقابة دائمة وقوانين وحملات توعوية وإرشاد.

◆ المواءمة بين القطاع التعليمي والقطاع النفطي:

بالنسبة إلى القطاع التعليمي، فإن التواصل والاتفاق الدائم مع الجامعات والمعاهد اللبنانية مهم جداً، لمعرفة حاجة السوق النفطي من اليد العاملة، والاختصاصات المطلوبة، والعمل على المواءمة للاختصاصات المطلوبة مع سوق العمل النفطي، وضرورة الاطلاع على القوانين ذات الصلة بالنفط، واطلاع المعنيين في وزارة الطاقة على توصيف المواد التي تدرسها اليد العاملة أكاديمياً أو

يمكن تفادي هذه المخاوف من خلال الدراسات والتقارير عن الأسواق اللبنانية، وذلك من قبل المعنيين والمسؤولين عن القطاع النفطي، والمتابعة اليومية المشددة على عمل الشركات من قبل هيئة النفط والحكومة اللبنانية. مثل وضع قوانين على الشركات التي ستكلف باستخراج وتصنيع النفط، تُلزمها بنسبة مئوية محددة لليد العاملة اللبنانية، واحترام المعايير اللبنانية والمساواة بين الجامعات وبين الفئات والطوائف. واتباعها الشفافية التامة وأن تنشر مثلاً كل شركة تكلفة عمليات الحفر، والإنتاج لكي يكون سعر الكلفة واضحاً

◆ ضرورة تنظيم الاستثمارات بين القطاعات الاقتصادية:

يجب تنظيم الاستفادة من عائدات النفط في كل القطاعات الاقتصادية اللبنانية: بدءاً بالزراعة، التجارة، السياحة كما قطاع الخدمات. كذلك لا يمكن نسيان القطاع الصناعي والفائدة التي يستطيع تحقيقها من مصادر الطاقة واستخراج النفط اللبناني⁽¹⁾، وبذلك تتكامل المنظومة الاقتصادية اللبنانية وتتجاوز كل المشاكل الاقتصادية.

(1) خطة العمل للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، ٢٠١٢-٢٠١٥، رئاسة مجلس الوزراء.

مهنيًا لمعرفة مدى تناسبها مع حاجات لبنان للوظائف في المستقبل.

◆ وضع تشريعات بيئية مناسبة:

حماية البيئة موضوع أساسي، إذ يجب العمل على بناء منشآت نفطية بشكل يحترم المعايير العالمية للحفاظ على سلامة الهواء والتربة والمياه ونظافتها من التلوث النفطي، لا سيما أن معظم هذه المنشآت ستكون على الساحل اللبناني ما يشكل خطورة على البيئة البحرية ويهدد المنتجعات السياحية المنتشرة بكثرة في المنطقة الساحلية⁽¹⁾، انطلاقًا من ذلك وجب على وزارة البيئة بالتعاون مع هيئة إدارة قطاع النفط إيجاد تشريعات مناسبة تُلزم بها الشركات النفطية بمراعاة الأصول العلمية وحماية البيئة قدر المستطاع.

◆ إنشاء شركة نفطية وطنية

لبنانية:

إن إنشاء شركة نفط وطنية تنحصر مسؤولياتها بمراحل التسويق والتوزيع والبيع يعتبر أمرًا سهلاً وقامت به العديد من الدول النفطية مثل غانا وكينيا، بإمكان هذا النوع من الشركات دعم إنشاء أسواق محلية وبنى تحتية لنقل الغاز من الماء إلى اليابسة. يمكن أن يكون هذا الدور مفيدًا للبنان الذي يعتمد بشدة على واردات الطاقة

لتلبية الطلب المحلي، لكنه يطرح مخاطر كبيرة إذا لم تتم إدارة شركة النفط الوطنية بموجب استراتيجية واضحة للتنمية الاقتصادية والتصنيع، وإذا لم تستند أسعار تحويل العملات إلى معايير السوق، كما على الدولة أن تأخذ بالحسبان أن القطاع الخاص له دور ديناميكي في لبنان، وأنه بإمكان الشركات الخاصة المحلية القيام بالاستثمارات اللازمة في البنى التحتية لجمع الغاز من الحقول المائية ومعالجته في حال حظيت بالدعم من بيئة مواتية للاستثمار.

الخاتمة:

إن لبنان حتى الآن ليس لديه رؤية واضحة تتعلق بالنمو الاقتصادي المستقر، أو دور النفط في الاستخدام المحلي أو في مجال التصدير.

على أمل أن يتم التخطيط بشكل دقيق لاستخدام الموارد النفطية لتخليص لبنان من العجز الاقتصادي وعدم الاستهتار بهذا المورد، وعدم التهاون في الشروط مع الشركات النفطية العالمية التي يمكن أن تفرض التبعية بشكل أو بآخر على لبنان بفضل استثماراتها النفطية فيه.

أخيرًا، وفي ظل اكتشاف النفط والغاز

(1) Etat de l'environnement et ses tendances au Liban (2010), UNDP. p306.

في لبنان، يجب على اللبنانيين اتخاذ القرار إما بتحريك العجلة النفطية إلى الأمام من خلال تبني رؤية جادة نحو مستقبلهم النفطي، أو التخلي عن الحلم تماماً والاستغراق في الاستثمار في المؤسسات السياحية، وربما كان تردد لبنان في اتخاذ القرار بالدخول إلى المعترك النفطي، نعمة على البلاد من خلال تجنبها الخسارة التي نجمت عن انخفاض أسعار النفط في الفترة الأخيرة؛ لكنه يصبح نقمة إذا بقي غير مستثمر وعملت إسرائيل على شفته من جوف البحر.

لطالما بنى اللبنانيون آمالاً على مستقبل اقتصادي واجتماعي أفضل، وهم يرون في الذهب الأسود النائم تحت أقدامهم، بصيص أمل إذا أحسن إدارته واستعماله، قادر أن ينقلهم من الركود إلى التقدم الاقتصادي والمالي وإلى تحسين مستوى المعيشة وتطوير التكنولوجيا والبنى التحتية.

فهرس الخرائط

- خريطة رقم ١: توزع النفط والغاز على طول الساحل اللبناني.
خريطة رقم ٢: ترسيم الحدود البحرية النفطية اللبنانية.
خريطة رقم ٣: بلوكات الغاز والنفط في المياه الإقليمية اللبنانية.

فهرس المصادر والمراجع

- * المراجع المكتوبة باللغة العربية من كتب منشورة ومقالات ومنشورات:
١ - الجمهورية اللبنانية، هيئة إدارة قطاع البترول في لبنان (٢٠١٧) وزارة الطاقة.
٢ - خطة العمل للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، ٢٠١٢-٢٠١٥، رئاسة مجلس الوزراء.
٣ - تقرير للجزيرة الاقتصادية بعنوان: لبنان على عتبة ثروة نفطية واعدة (٢٠١٢/١١/١٨).
٤ - مجلة الدفاع الوطني - العدد ٣٣٣ - الصادرة عن الجيش اللبناني.
٥ - يمين، ميشال، جيولوجيا النفط في لبنان (١٩٨١)، اطروحة دكتوراه غير منشورة.
٦ - منشورات مؤتمر النفط بين التعليم والعمل الذي عقد في اوتيل Riviera في ٢١/٩/٢٠١٧.

* المصادر والمراجع باللغة

الاجنبية:

1. Etat de l'environnement et ses tendances au Liban (2010), UNDP.

* المواقع الالكترونية:

1. www.lebarmy.gov.lb/2017
2. www.saidaonline.com/1-1-2018
3. www.lpa.gov.lb/2015
4. www.almodon.com/9-10-2015
5. www.onlylebanon.net/2015

ظروف ولادة مجلس التعاون الخليجي ١٩٨١

إعداد نعيم عبد الفتاح الطحان

المقدمة

الميادين والمجالات كافة وصولاً إلى وحدتها، وتعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون القائم بين شعوبها في شتى المجالات.

شهدت منطقة الخليج العربي^(١) في أواخر الستينيات من القرن العشرين أحداثاً مهمة كان أبرزها القرار البريطاني بالانسحاب من الخليج العربي «حيث كانت بريطانيا مخولة بحفظ الأمان في المنطقة»^(٢)، الأمر الذي أدى إلى استغلال الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ذلك القرار، وأعلنت مخططاتها الرامية لتحقيق مصالحها في المنطقة من خلال مصطلح فراغ القوة والمقصود به أن الانسحاب البريطاني كقوة

يعد مجلس التعاون الخليجي أحد الأطر الإقليمية البارزة والمهمة على الساحة العربية والإسلامية، إذ يتكون من ستة أعضاء ممثلين لست دول عربية تطل على الخليج العربي هي (المملكة العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة، مملكة البحرين، سلطنة عمان، دولة قطر ودولة الكويت) وقد أسس المجلس بتاريخ ١٩٨١/٥/٢٥ عقب اجتماع أمراء وملوك الدول الأعضاء في مدينة أبو ظبي وتوقيعهم على النظام الأساسي للمجلس، ويتخذ المجلس من مدينة الرياض مقراً دائماً له، ويهدف إلى تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الأعضاء في

(١) الخليج العربي: يمثل حدود الوطن العربي من الناحية الشرقية ويقع بين أراضي شبه الجزيرة العربية وهضبة إيران، ويعد امتداداً مائياً للمحيط الهندي، تقدر مساحته بـ ٢٢٦ ألف كم^٢، لمزيد من المعلومات انظر عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة ج٢، دار الهدى للدراسات، بيروت لبنان ١٩٩٤، ص ٦٢٤.

(٢) المسكري السيد، دور مجلس التعاون الخليجي في تأمين وتحقيق استقرار أمن منطقة الخليج ضمن أعمال المؤتمر الدولي الأول الذي نظمه مركز الدراسات العربي الأوروبي في باريس شهر يناير ١٩٩٣، بيروت، مركز الدراسات العربي الأوروبي، ط٢، ١٩٩٧، ص ٤١٠.

عظمى تحافظ على مصالح الدول الغربية في الخليج العربي وهذا سيؤدي إلى ظهور قوى أخرى تسد ذلك الفراغ على حساب النفوذ الغربي الذي سيتلاشى تدريجياً فكان من الضروري سد الفراغ «أمام الطامعين المستغلين لتلك الظروف خاصة الاتحاد السوفيتي»^(١).

تساعد الاهتمام الغربي بمنطقة الخليج العربي بعد أن أعدت الولايات المتحدة الأمريكية الترتيبات العسكرية والسياسية اللازمة «لسد الفراغ الذي خلفته بريطانيا»^(٢) وذلك منعاً لمحاولات الاتحاد السوفيتي استغلال نفوذه في المنطقة الأمر الذي سيشكل «ضربة كبيرة للدول الغربية يتمثل في قطع شريان الحياة الرئيسي عنها»^(٣).

عارضت دول الخليج المفهوم الغربي لأمن الخليج من خلال إعلانها أن أمن بلادها من صميم مسؤولية أبنائها، وطالبت بتحديد المنطقة عن الصراعات الدولية،

والتدخلات الأجنبية التي عدتها خطراً على أمن الخليج العربي واستقراره، وكان من أبرز الدول المعارضة لذلك المصطلح «المملكة العربية السعودية ودولة الكويت»^(٤) حيث اعتمدت دول الخليج في نظرتها الأمنية على فكرة الترابط العربي وعدت أمن الخليج واستقرار شعوبه مسؤولية عربية جماعية، لكن الأحداث والمتغيرات الإقليمية التي شهدتها البلاد العربية والدول الإقليمية المجاورة في سبعينيات القرن العشرين جعلت الفكرة تتلاشى شيئاً فشيئاً، لا سيما وأن المنطقة العربية ككل بدأت تدخل في حروب ما بين دولها، ومع وجود تلك الأحداث، وسوء الأوضاع الأمنية في منطقة الخليج العربي، «والمناطق المحيطة بها وسهولة تعرضها للمخاطر»^(٥) أصبح من المهم لدول الخليج العربي إعادة النظر في أمن البلاد واستقرارها وتأكيد استقلالها.

فنشأت أفكار لدى قادة الدول الخليجية تمحورت حول ضرورة التنسيق والتعاون

(١) ابراهيم الصبحي، مجلس التعاون الخليجي في المنظور الإقليمي، مجلة التعاون، ع ٢، ١٩٨٦، ص ١٨٥.

(٢) فليح علي، قضايا الخليج العربي العامة وتطوراتها في أروقة حركة عدم الانحياز، مجلة مركز دراسات الكوفة، ع ١، ٢٠٠٤، ص ١٧٢.

(٣) محمد العبدروس، مجلس التعاون الخليجي بين الأمن الإقليمي والتحديات الخارجية، مجلة دراسات دولية، ع ٤٧، ١٩٩٣، ص ٢٧.

(٤) صدقة فاضل، الأهمية العالمية المعاصرة للخليج ودول مجلس التعاون، مجلة التعاون ع ٥، ١٩٨٧.

(٥) فؤاد بسيسو، التعاون الإنمائي بين أقطار مجلس التعاون الخليجي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢، ١٩٨٧، ص ١٨٣.

في ما بينها لإيجاد إطار محدد ومنظم يجمع الدول العربية وبعد اجتماعات عدة ومداولات بين قادة دول الخليج العربي الست تم الاتفاق «على تشكيل إطار موحد شمل تلك الدول أطلق عليه مجلس التعاون الخليجي»^(١).

كانت النظرة الأمنية التي نظر إليها قادة الدول الخليجية في بداية الأمر جزءاً لا يتجزأ من مسؤوليات العرب تجاه الأقطار العربية ككل، لأن أمن البلاد العربية واستقرار شعوبها مسؤولية عربية تقع على عاتق الجميع، والحفاظ على منطقة الخليج العربي وبما يشكله من أهمية استراتيجية يمثل أمن جميع الدول العربية واستقرارها، لكن مع دخول الوطن العربي في العديد من الأحداث والمتغيرات السياسية والأمنية شجع قادة الخليج العربي على إنشاء إطار يجمع دولهم ويعمل على تحقيق أهدافهم المتعلقة بالحفاظ على أمن الخليج من أطماع الدول الغربية التي تسارعت جميعها لسد الفراغ الذي خلفته بريطانيا.

تأسيس مجلس التعاون الخليجي

شهدت دول الخليج العربي عدة مساعي وأفكار دعت إلى تحقيق الوحدة الخليجية، كان من أبرزها:

أدت دولة الكويت دوراً بارزاً عام ١٩٨٦ حيث قاد جابر الأحمد الصباح^(٢) الوفد الكويتي الذي ضم خبراء قانونيين وسياسيين للدفع نحو فكرة «مشروع الاتحاد التساعي»^(٣) إلا أن المشروع لم يتحقق، بسبب الخلافات البينية بين دول المشروع، كما وظهرت المشاكل الداخلية بين زعامات الإمارات التسع والاختلاف على موقع العاصمة والبعد المكاني بالنسبة «لبعض إمارات الاتحاد»^(٤) ثم ظهرت فكرة الاتحاد السباعي الذي ضم إمارات ساحل الخليج العربي السبع في دولة واحدة، ونجحت الفكرة وظهرت الإمارات العربية المتحدة مستقلة بتاريخ «١٢/٢٥/ ١٩٧١ مكونة من ست إمارات ثم انضمت

(١) ابراهيم الصبحي، مجلس التعاون في المنظور الإقليمي، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(٢) جابر الأحمد الصباح: ولد بتاريخ ١٩٢٦\٥\٢٩، وهو الابن الثالث للشيخ أحمد الجابر الصباح الذي حكم الكويت ما بين عامي ١٩٢١-١٩٥٠، استلم عدة مناصب في دولة الكويت منها وزيراً للمالية والصناعة وعين أيضاً رئيساً للوزراء ثم وصل إلى سدة الحكم في ديسمبر ١٩٧٧، انظر مركز البحوث والدراسات الكويتية، صاحب السمو الشيخ جابر الصباح، لمحات من حياته، د ط، الكويت ٢٠٠٦.

(٣) غانم عباس، تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة، مجلة أوروك للعلوم، ع ١، ٢٠٠٨، ص ١٠٨.

(٤) فهد آل ثاني، دراسة في الجغرافية السياسية، تطبيقات على دول مجلس التعاون الخليجي، عمان دار صفاء للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٢٩٦.

الإيجابية نحو تحقيق تنظيم مشترك لتكوين وحدة دول الخليج وصدر بيان مشترك في أعقاب «كل زيارة لأية دولة دعا إلى تحقيق الوحدة الخليجية»^(٣).

عادت فكرة الوحدة بين دول الخليج أثناء انعقاد القمة العربية الحادية عشرة في عمان في نوفمبر ١٩٨٠م «حيث اجتمع أمير الكويت بزعماء دول الخليج، وأوضح لهم تصور بلاده للوحدة الخليجية»^(٤) وفي شهر يناير ١٩٨١، صدر بيان الرياض في أعقاب اجتماع وزراء خارجية الدول الست تناول عزم الدول الخليجية «على إقامة جسور التعاون والتكامل في ما بينها في المجالات كافة»^(٥).

بدأت الخطوات التنفيذية لفكرة إنشاء مجلس التعاون الخليجي بعد «اجتماع ضم قادة دول الخليج العربي على هامش قمة منظمة المؤتمر الإسلامي»^(٦) الذي عقد

إليها إمارة رأس الخيمة»^(١) وفي عام ١٩٧٥ زار جابر الصباح الإمارات العربية المتحدة وجدد الحديث في موضوع وحدة دول الخليج مع المسؤولين الإماراتيين وصدر بيان مشترك في أعقاب الزيارة دعا إلى تشكيل لجنة وزارية برئاسة وزيره خارجي الدولتين، حيث يجتمعان مرتين في العام على الأقل بهدف دراسة الوحدة الخليجية، وعلى إثر ذلك نشطت جهود قادة دول الخليج العربي ومسؤوليه في الدعوة إلى إنشاء إطار خليجي موحد، يهدف إلى تحقيق التعاون في المجالات «السياسية والاقتصادية والتربوية والإعلامية»^(٢) وفي شهر سبتمبر عام ١٩٧٨ زار ولي عهد الكويت آنذاك الشيخ سعد العبد الله الصباح كلاً من المملكة العربية السعودية والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان، دعا فيها لاتخاذ الخطوات

(١) فهد السبعوي، الانسحاب البريطاني من الخليج العربي ١٩٦٨-١٩٦١، مجلة جامعة كركوك، ع ١، ٢٠١٠، ص ١٠.

(٢) فاضل السباري، مجلس التعاون كمنظمة إقليمية وصلته بكل من الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، مجلة التعاون، ع ٣، ١٩٨٦، ص ١٢٣.

(٣) فاضل السباري، مجلس التعاون، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٤) فؤاد بسيسو، مجلس التعاون الخليجي وآفاق التوجه الإستراتيجي، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٥) عبد الله الأشعل، السلوك الدولي المقارن لأعضاء مجلس التعاون في الأمم المتحدة، مجلة التعاون، ع ٣، ١٩٨٦، ص ٨٨.

(٦) منظمة المؤتمر الإسلامي، أنشئت عام ١٩٦٩ لعدة أسباب أهمها هزيمة الدول العربية عام ١٩٦٧ وتزايد الاعتداءات الإسرائيلية ضد العرب بعد عام ١٩٦٧ وتراجع التيار القومي الذي تزعمه الرئيس جمال عبد الناصر، انظر محمد العسكري، ايران ومنظمة التعاون الإسلامي، دراسات إقليمية، ع ٩، ١٩٧٩.

على السيد عبد الله بشارة أمينًا عامًا للأمانة العامة، والتوقيع بالأحرف الأولى «على النظام الأساسي للمجلس»^(٤) ثم عقد اجتماع آخر لوزراء خارجية الدول الأعضاء «في مسقط بتاريخ ٢٣/٥/١٩٨١ لوضع اللمسات الأخيرة للمجلس»^(٥) عقدت الدورة الأولى للمجلس الأعلى لمجلس التعاون الخليجي في مدينة أبو ظبي بتاريخ ٢٥/٥/١٩٨١ وشارك فيها ملوك وأمراء الدول الأعضاء ووقعوا خلالها على النظام الأساسي للمجلس «وهو عبارة عن وثيقة إنشاء وتشكيل المجلس»^(٦) وتم اختيار مدينة الرياض «مقرًا دائمًا للمجلس»^(٧) وحضر الأمين العام لجامعة الدول العربية والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي تلك القمة ويعد ذلك التاريخ البداية القانونية للمجلس كمنظمة اعتبارية مستقلة قررت من خلاله الدول الأعضاء مواجهة «مشكلاتها

في الطائف عام ١٩٨١ م، حيث تم الاتفاق على تشكيل مجلس «التعاون الخليجي على أساس مشاركة الدول الخليجية الست»^(١) ثم عقد اجتماع آخر ضم وزراء خارجية الدول الخليجية في مدينة الرياض بتاريخ «٤/٢/١٩٨١، وقّع فيه المشاركون على وثيقة إعلان إنشاء مجلس التعاون»^(٢) وفضلت الدول الأعضاء أن يكون المجلس المنوي تأسيسه على هيئة «تعاون بين الأعضاء وليس على شكل اتحاد»^(٣) ثم عقد اجتماع آخر ضم وزراء خارجية الدول الخليجية في مدينة مسقط بتاريخ ٩/٣/١٩٨١ تم خلاله مناقشة تشكيل هيئة تصفية النزاعات بين دول المجلس وتحديد صلاحيات المجلس الأعلى والمجلس الوزاري، إضافة إلى تحديد موعد اجتماع المجلس الأعلى لمجلس التعاون الخليجي، وتمت الموافقة

(١) عبد المحسن الشمري، مجلس التعاون لدول الخليج العربي، رسالة ماجستير منشورة، جامعة الشرق الأوسط، الأردن ٢٠١٢.

(٢) مازن العقيلي، مجلس التعاون الخليجي، تجربة للتكامل الأمني شبه الإقليمي، مجلة دراسات مستقبلية، ع ١٠، ٢٠٠٤، ص ١٤٢.

(٣) فاطمة الصايغ، الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٢٩٩.

(٤) فؤاد بسيسو، التعاون الخليجي، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٥) عبد الهادي الشريدة، مجلس التعاون لدول الخليج العربي وآلياته، أهدافه المعلنة علاقته بالمنظمات الدولية، القاهرة مكتبة مديولي، ١٩٩٥، ص ٢٨.

(٦) مفيد الزبيدي، تاريخ قطر المعاصر ١٩٧٣-٢٠٠٨، الأردن، دار المناهج للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٨٢.

(٧) البيان الختامي الصادرة عن الدورة الأولى للمجلس الأعلى، أبو ظبي، ٢٦/٥/١٩٨١.

الداخلية والخارجية والسياسية والأمنية والإجتماعية بصورة جماعية»^(١).

«الإقليمية والدولية من حولها سواء أكانت سياسية أم أمنية أم اقتصادية»^(٢).

نجح قادة الدول الخليجية بعد أفكار عدة ومبادرات ومجهودات كبيرة من تشكيل إطار عام يجمع الدول الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي، ويتناول سبل التعاون في المجالات كافة ويسمح له بالحفاظ على أمنه واستقراره خاصة في ظل تزايد محاولات الغرب الهيمنة على منطقة الخليج العربي، وسوء الأوضاع السياسية والأمنية في الدول العربية.

توافر العوامل المهيئة لتحقيق التكامل والتعاون بين دول المجلس ومن أبرز تلك العوامل أن الدول الأعضاء تضم شعوباً متجانسة تجمعها وحدة الأصل والتاريخ والآمال المشتركة واتباعها أسلوب حياة متشابه فرضته «الظروف التاريخية والاجتماعية والمناخية ويتوفر لتلك الدول مقدمات الارتباط المكاني والتلاصق الجغرافي»^(٣) حيث تقع الدول الأعضاء في منطقة جغرافية واحدة تجمعها الحدود المشتركة وتتشابه في النظم «السياسية والروابط التاريخية والأمنية والتأثر القومي بالوحدة العربية»^(٤).

العوامل الداخلية التي ساهمت في إنشاء مجلس التعاون الخليجي

تعددت العوامل الداخلية التي ساهمت في إنشاء مجلس التعاون الخليجي ومن أبرزها: تلاقي وجهات النظر بين الدول الأعضاء في المجلس حول ضرورة العمل المشترك بمزيد من التنسيق والتعاون لخدمة أهدافها، وتطوير علاقاتها بما يتلاءم مع شعوبها وحكوماتها، وتعامل الدول الأعضاء بشكل جماعي مع التطورات

مرت الدول الأعضاء في تلك الفترة بمرحلة متشابهة من مراحل النمو الاقتصادي وتشابهت في تركيب اقتصادها لوجود النفط، ودأبت دول المجلس التعاون الخليجي على إيجاد مصادر بديلة عن الثروة النفطية التي تعد المصدر الرئيس

(١) فاطمة الصايغ، الإمارات العربية المتحدة، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

(٢) محمد العبدوسي، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الإمارات العربية المتحدة، عن الدراسات والبحوث الإنشائية، ط ٢، ١٩٩٩، ص ٣١٢.

(٣) عبد الحميد المواني، مجلس التعاون لدول الخليج العربية العربية وإطار التكامل الخليجي، مجلة التعاون، ع ٢٢، ١٩٩١، ص ٦٠.

(٤) نايف عبيد، مجلس التعاون لدول الخليج العربي من التعاون إلى التكامل. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص ١٠٠.

لتلك الدول من خلال وضع خطط التنمية الصناعية، والزراعية لاستثمار دخلها من النفط بشكل يمكنها من زيادة مواردها الإقتصادية وتنويعها كما وتشابهت تلك الدول في الهياكل الاقتصادية «والمصادر الطبيعية والبشرية والتطلع إلى إرساء قواء الأمن والاستقرار في المنطقة»^(١).

امتلاك دول مجلس التعاون الخليجي أكبر احتياطي بترولي في العالم والذي يقدر «بنحو ٦٠٪ من إجمالي احتياطي البترول العالمي»^(٢) وإنتاجها أكبر كمية من البترول الخام تجارياً وتعد من أكبر الدول المصدرة له لذا فإن الدول الأعضاء تنتج أهم سلعة يحتاجها العالم في العقود القادمة لهذا فهي تستقطب الاهتمام المتزايد من دول العالم التي تحتاج النفط خاصة الدول الصناعية والدول الكبرى وأكدت الدراسات أن السيطرة على بترول الخليج العربي، واحتياطاته تعني السيطرة «على أوروبا الغربية واليابان والصين والدول التي تعتمد بشكل كلي على دول الخليج في تزويدها بالبترول»^(٣).

تصميم الدول الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي على المواجهة الجماعية للمشاكل التي تواجهها، والعمل تحت إطار موحد على الصعيدين الدولي والإقليمي وفي المحافل المختلفة، وهو تأكيد على الخروج من إطار القطر الضيق لكل دولة إلى إطار الإقليم الكبير الذي «يجمع الدول الأعضاء والبحث عن الأمن والاستقرار في حزام أمني إقليمي بدلاً من اجتهادات القطر الفردية»^(٤) واستجابة من الدول الأعضاء للتحديات المحتملة على أمنها ووحدة أراضيها وثرواتها الباطنية «ورداً على دعاوى مصطلح فراغ القوة الذي أطلقته الأوساط الغربية»^(٥) ورغبة دول المجلس في تحقيق الأمن الجماعي المشترك بينها.

تشابه الدول الأعضاء من الناحية الحضارية المتمثلة في وحدة الدين واللغة، فالديانة الإسلامية هي الديانة الرئيسة التي تنتمي إليها الدول الأعضاء واللغة العربية هي اللغة الرسمية السائدة في تلك المنطقة وتجانس التراث الفكري والثقافي «وتطابق

(١) مصطفى مرسي، موقف ميثاق جامعة الدول العربية من التجمعات الإقليمية الفرعية وحالة مجلس التعاون الخليجي، مجلة التعاون، ع ١٢، ١٩٨٨، ص ٤.

(٢) توفيق صادق، التنمية في دول مجلس التعاون، دروس السبعينيات وآفاق المستقبل.

(٣) Fukuyama, Francis: The End of History and The last man, New York, The Free press, 1992, P.277.

(٤) عبد الله بشارة، مجلس التعاون وشرعية التعاون الإقليمي، مجلة التعاون، ع ١١، ١٩٨٨، ص ١١.

(٥) جميل الحجيلان، ستة عشر عاماً من عمر مجلس التعاون الخليجي مقومات البقاء والبقاء، مجلة العربي، ع ٤٦٩، ١٩٩٧، ص ٣٠.

٣ - الشؤون التشريعية.

- دفع عملية التقدم العلمي والتقني في مجالات الصناعة والتعدين والزراعة والثروات المائية والحيوانية «وإنشاء مراكز بحوث علمية وإقامة مشاريع مشتركة وتشجيع القطاع الخاص بما يعود بالخير على شعوبها»^(٢) كما أن أهداف مجلس التعاون الخليجي تنسجم مع المبادئ الإقليمية والدولية، فهي تتفق مع ميثاق جامعة الدول العربية الذي لا يعارض إنشاء تنظيمات أصغر داخل هيكله إذ كان الغرض منها تقوية الروابط بين الدول الأعضاء ومنسجمة «مع أهداف وميثاق الأمم المتحدة الذي يؤيد إنشاء منظمات، أو وكالات إقليمية تعالج الأمور المتعلقة بحفظ الأمن والسلم الدولي»^(٣).

من الملاحظ أن مجلس التعاون الخليجي اعتمد في أهدافه على زيادة التعاون، والترابط بين الدول الأعضاء في المجالات كافة ما يخدم دول الخليج العربي وشعوبه، ويعود بالمكاسب والمنفعة الاقتصادية والسياسية لها وتتفق أهدافه مع المواثيق العربية، والدولية التي لا تمنع الدول

العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية»^(١)

وبذلك يتضح أن الظروف كانت مهياة لإنشاء مجلس التعاون الخليجي من النواحي السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأسهمت بشكل كبير في تشكيل إطار موحد جمع دول تلك المنطقة، ويكون بمثابة الحاضنة السياسية والاقتصادية لها بحيث تنسجم أهداف ذلك الإطار مع كل قطر داخل منطقة الخليج العربي، كما سيمثل الإطار دول الخليج العربي في المحافل الإقليمية والدولية ويكون المرجع الرئيس للدول الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي.

أهداف مجلس التعاون الخليجي

حدد النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي الأهداف الأساسية له وهي:

- تعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون القائمة بين شعوبها في مختلف المجالات.

- وضع أنظمة متماثلة في جميع الميادين بما في ذلك:

١ - الشؤون الاقتصادية والمالية.

٢ - الشؤون التعليمية والثقافية.

(١) مصطفى مرسي، الأهمية النسبية لخصوصية مجلس التعاون الخليجي ومتطلبات التكامل، الإمارات العربية المتحدة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ع ٩٦، ٢٠٠٤، ص ١١.

(٢) الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، النظام الأساسي، ص ٥.

(٣) ابراهيم الرميحي، مجلس التعاون تقييم تجربة عربية، مجلة التعاون، ع ٩، ١٩٨٨، ص ١١١.

الأعضاء من تشكيل أطر تهدف إلى إحلال السلام وتزيد من عمليات الترابط بين الدول الخليجية.

الهيكلية العامة لمجلس التعاون الخليجي

تتكون هيكلية مجلس التعاون الخليجي من:

١ - المجلس الأعلى: وهو السلطة العليا في مجلس التعاون الخليجي ويتكون من رؤساء الدول الأعضاء، ورئاسته دورية حسب الترتيب الهجائي لأسماء الدول الأعضاء ويجتمع دورة عادية في كل عام، ويجوز له عقد دورات استثنائية بناءً على دعوة أية دولة عضو، وتأييد عضو آخر ويعد انعقاد المجلس صحيحاً إذا حضر ثلثا الأعضاء الذي يتمتع كل منهم بصوت واحد وتصدر «قراراته بإجماع الدول الأعضاء المشاركة في التصويت بالمسائل كافة»^(١).

لاجتماعات المجلس الأعلى أهمية كبيرة في بلورة الموقف الجماعي لمجلس التعاون الخليجي إزاء مختلف القضايا، والتعامل مع المشكلات كافة برؤية واسعة حيث تشمل جميع جهات النظر التي تطرحها الدول الأعضاء في تعاملها معها، ويعتمد في اتخاذ قراراته على أسلوب التوافق «أي موافقة

جميع الدول الأعضاء المشاركة في جلسة التصويت»^(٢).

حدد النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي تخصصات المجلس الأعلى وهي:

- النظر في القضايا التي تهم الدول الأعضاء.

- وضع السياسة العليا لمجلس التعاون الخليجي، والخطوات الأساسية التي يسير عليها.

- النظر في التقارير والتوصيات، والدراسات، والمشاريع المشتركة التي تعرض عليه من المجلس الوزاري تمهيداً لاعتمادها.

- النظر في التقارير والدراسات التي يكلف الأمين العام بإعدادها.

- اعتماد أسس التعامل مع الدول الأخرى والمنظمات الأهلية.

- إقرار نظام هيئة تسوية المنازعات وتسمية أعضائها.

- تعيين الأمين العام للأمانة العامة.

- تعديل النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي.

- إقرار النظام الداخلي لمجلس التعاون الخليجي.

(١) محمد العبدروس، دراسات في الخليج العربي، مجلة الدراسات الدولية، ع ٤٧، ١٩٩٣، ص ١٢.

(٢) عبد الحميد الموفاني، مجلس التعاون لدول الخليج العربي، مرجع سابق، ص ٦٣.

«التصديق على ميزانية الأمانة العامة»^(١).

يلاحظ أن المجلس الأعلى هو الأداة الرئيسية لمجلس التعاون الخليجي من خلال قراراته الهادفة لتحقيق التعاون بين الدول الأعضاء، وسبل تحقيق علاقاته مع المنظمات الأهلية والدولية والإقليمية بما ينسجم مع مصالح الدول الأعضاء في المجلس.

للمجلس الأعلى عدة أجهزة تابعة له تساعده في عمله هي:

أ - هيئة تسوية المنازعات: وهي هيئة مؤقتة بناءً على قرارات المجلس الأعلى في كل مسألة على حدا بحسب طبيعة النزاع ولها صلاحية الاستعانة بالخبراء المناسبين ولا بد «من مشاركة الأعضاء كافة في اجتماعاتها»^(٢) وحدد النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي تخصصها في:

١ - العمل على حل المنازعات بين الدول الأعضاء.

٢ - «النظر في الخلافات حول تفسير أو تطبيق النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي»^(٣).

ب - الهيئة الاستشارية للمجلس الأعلى: أسست بقرار من المجلس الأعلى في دورته الثامنة عشرة التي عقدت في الكويت في شهر ديسمبر ١٩٩٧، بهدف توسيع قاعدة التشاور وتكثيف الاتصالات بين الدول الأعضاء، وأنشئت الهيئة بناء على طلب أمير الكويت جابر الصباح، وتتكون من ثلاثين عضواً بمعدل خمسة أعضاء لكل دولة، وتختار الهيئة رئيساً سنوياً لها من بين أعضاء الدولة التي ترأس المجلس الأعلى ويعاون الهيئة جهاز إداري وهو مكتب «شؤون الهيئة الاستشارية بمسقط»^(٤) وتتكون الهيئة من رئاسة الهيئة والجهاز التنفيذي «واللجان التابعة لها»^(٥) وتتركز مسؤولياتها بإبداء الرأي في القرارات، والمشاريع المحالة إليها من المجلس الأعلى في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والقانونية والشبابية.

ت - المجلس الوزاري: يتألف من

(١) الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، النظام الأساسي، ص ٥.

(٢) عطية، عطية، مجلس التعاون وظاهرة التكامل الدولي، مجلة التعاون وظاهرة التكامل الدولي، مجلة التعاون، ع ٨٣، ص ٢٥، ١٩٨٩.

(٣) الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، النظام الأساسي، ص ٢٣.

(٤) الأمانة العامة لمجلس التعاون، مرجع سابق، ص ٥.

(٥) جمال السويدي، مجلس التعاون لدول الخليج العربي على مشارف القرن العشرين، الإمارات العربية المتحدة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ط ٢، ١٩٩٢، ص ١٣٣.

الخليجي وهي دوائر فاعلة ضمن الهيكل العام للمجلس.

الاستنتاج

شكل تأسيس مجلس التعاون الخليجي خطوة وحدوية مهمة في العالم العربي، وذلك بعد فشل عدة خطوات مماثلة في المنطقة العربية لاسيما وأن هذا المجلس جاء ليحقق آمال، وتطلعات شعوب شبه الجزيرة العربية نحو الوحدة فيما بينها.

أكدت المنطلقات التي قام عليها مجلس التعاون الخليجي بوجود المحافظة على أمن ووحدة، واستقلالية دول مجلس التعاون الخليجي، وتحصينها ضد الأخطار المحيطة بها وهو بحد ذاته خطوة قوية ومهمة باتجاه تحقيق خطوات مماثلة بين الدول العربية الأخرى في كامل ربوع الوطن العربي من المحيط الأطلسي غرباً حتى الخليج العربي شرقاً.

لا شك بأن قيام مجلس التعاون الخليجي جعل من القرار الخليجي السياسي قراراً واحداً وخصوصاً في ما يتعلق بالقضايا الدولية لا سيما القضية الفلسطينية، وغيرها من المشاكل التي تحيط بالأمة العربية، وذلك على الرغم من وجود بعض التباينات في مواقف أعضاء دول المجلس تجاه بعض القضايا الإقليمية

وزراء خارجية الدول الأعضاء أو من ينوب عنهم من الوزراء، ويضم النظام الأساسي للأمانة العامة، ويحضر لاجتماعات المجلس الأعلى ويحدد جداول الأعمال الخاصة به «ويعد الدراسات والموضوعات والتوصيات واللوائح التي تعرض على المجلس الأعلى»^(١) ينظر المجلس الوزاري في مقترحات، ومشروعات وسياسات اللجان الوزارية المنبثقة عن مجلس التعاون الخليجي، ليوافق على ما يراه مناسباً أو يكلف لجاناً فيها، ويرفع ما توصل إليه المجلس الأعلى الذي له السلطة في تحويل تلك «المشروعات والمقترحات إلى قرارات لها الصفة القانونية بصيغتها التي رفعت أو بعد إجراء التعديلات عليها»^(٢).

حدد النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي تخصصات المجلس الوزاري وهي: اقتراح السياسات ووضع التوصيات، والدراسات والمشاريع التي تهدف إلى تطوير التعاون، والتنسيق بين الدول الأعضاء في المجالات كافة واتخاذ ما يلزم بشأنها من قرارات.

بالإضافة إلى المجلس الأعلى والمجلس الوزاري يتكون مجلس التعاون الخليجي من الأمانة العامة، ولجان مجلس التعاون

(١) إبراهيم الرميحي، مجلس التعاون تقييم تجربة عربية، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٢) عبد الحميد الموافي، مجلس التعاون لدول الخليج العربي، مرجع سابق، ص ٦٣.

إلا أن السمة الأبرز كانت التوافق على مجمل القرارات السيادية السياسية والاقتصادية لدول المجلس.

ساعد قيام مجلس التعاون الخليجي في تحقيق رفاهية اقتصادية لدوله، وذلك من خلال رفع الحواجز الجمركية بينها، وتعزيز العلاقات التجارية والتبادلية وهذا ساهم في زيادة المردود الإقتصادي لدول المجلس نتيجة ازدهار التجارة البينية بين دوله.

قائمة المصادر والمراجع

١ - المراجع باللغة العربية

- السيد، المسكري: دور مجلس التعاون الخليجي في تأمين وتحقيق استقرار أمن منطقة الخليج ضمن أعمال المؤتمر الدوري الأول الذي نظمه مركز الدراسات العربي الأوروبي في باريس في شهر يناير ١٩٩٣، بيروت، مركز الدراسات العربي الأوروبي، ط٢، ١٩٩٧.
- الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ج٢، دار الهدى للدراسات، بيروت لبنان، ١٩٩٤.
- مركز البحوث والدراسات الكويتية: صاحب السمو الشيخ جابر الصباح، لمحات من حياته، د ط، الكويت، ٢٠٠٦.
- آل ثاني: دراسات في الجغرافية السياسية، تطبيقات على مجلس التعاون الخليجي، عمان، دار صفاء للنشر، ط١، ٢٠٠٠.
- سيسو، فؤاد: التعاون الإنمائي بين أقطار مجلس التعاون الخليجي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٧.
- الصايغ، فاطمة: الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي، ط١، ٢٠٠٠.
- الزبيدي، مفيد: تاريخ قطر المعاصر ١٩١٣-

٢٠٠٨، الأردن، دار المناهج للنشر والتوزيع، ٢٠٠١.

- الشريدة، عبد الهادي: مجلس التعاون لدول الخليج العربية وآلياته، أهدافه المعلنة وعلاقاته بالمنظمات الدولية، القاهرة مكتبة مدبولي، ١٩٩٥.
- العيدروسي، محمد: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الإمارات العربية المتحدة، عين للدراسات والبحوث، ط٢، ١٩٩٩.
- عبيد، نايف: دول مجلس التعاون الخليجي من التعاون إلى التكامل، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦.
- السويدي، جمال: مجلس التعاون لدول الخليج العربية على مشارف القرن العشرين، الإمارات العربية المتحدة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ط٢، ١٩٩٩.

٢ - المراجع باللغة الأجنبية:

- Fukuyama, Francis: The End of History and The last man, New York, The Free press, 1992, P.277

٣ - المجلات:

- مجلة التعاون ع ٢، ١٩٨٦.
- مجلة مركز دراسات الكوفة، ع ١، ٢٠٠٤.
- مجلة دراسات دولية، ع ٤٧، ١٩٩٣.
- مجلة التعاون، ع ٥، ١٩٨٧.
- مجلة أوروك للعلوم، ع ١، ٢٠٠٨.
- مجلة جامعة كركوك، ع ١، ٢٠١٠.
- مجلة التعاون، ع ٣، ١٩٨٦.
- مجلة دراسات اقليمية، ع ٨٩، ١٩٧٩.
- مجلة دراسات مستقبلية، ع ١٠، ٢٠٠٤.
- مجلة التعاون، ع ٢٢، ١٩٩١.
- مجلة التعاون، ع ١٢، ١٩٨٨.
- مجلة التعاون، ع ١١، ١٩٨٨.
- مجلة العربي، ع ٤٦٩، ١٩٩٧.
- مجلة التعاون، ع ٩، ١٩٨٨.
- مجلة الدراسات الدولية، ع ٤٧، ١٩٩٣.
- مجلة التعاون، ع ١٣، ١٩٨٩.

معلم القطاع الرسمي بين معاناته التربوية وهمومه المعيشية وانعكاسهما على أدائه التدريسي

دة ليال عبد السلام الرفاعي^(١) - دة مهى راشد صوراني^(٢)

Abstract

Several problems facing primary teachers in public/private schools are important causes behind the failure of the educational system in Lebanon, especially in the public sector of Akkar. Studying and identifying the causes of problems is the first breakthrough in reform and an effective contribution in raising the level of the educational system while increasing its productivity. This study aimed to explore the sources of educational problems and their impact on the levels of teachers' job satisfaction and teaching performance. It, also, drew a comparison on the level of the problems according to teachers' gender. The sample of this study was Akkar's public elementary school teachers who represented the statistical population of 20%, embodying 1063 teachers (372 males 35%, and 691 females, 64%)

Based on the necessity of estimating teachers performance by a dozen of their students, a subsample of 200 teachers was randomly selected; 200 teachers (41 males and 76 females). The study used the descriptive correlative approach. Appropriate statistical measures were applied to ensure the validity of the hypotheses. Statistical results revealed significant problems on different levels: physical conditions, career ambiguity, school administration, lack of educational means, and pedagogical inspection. This study presented recommendations for future research.

(١) أستاذة مساعدة، علم النفس التربوي، الجامعة اللبنانية.

(٢) أستاذة مساعدة، ألسنية اللغة الانكليزية وتكنولوجيا التربية، الجامعة اللبنانية.

ملخص

والنفتيش التربوي. وقدمت هذه الدراسة توصيات للبحوث في المستقبل.

مقدمة

إنّ العاملين في قطاع التعليم هم الأكثر مُعاناةً من حيث الضغوط النفسية نظرًا لكثرة التحديات التي تواجههم. وتُعتبر مهنة التعليم كثيرة المطالب، ومتعددة المتغيرات إذ لا يقتصر دور المعلم على التخطيط وإعداد التدريس وتنفيذه فحسب، بل يتعدى ذلك ليطل الكثير من المطالب والمتغيرات. هذا ما أثبتته نتائج العديد من الدراسات العربية والغربية. نذكر على سبيل المثال لا الحصر، نتائج دراسة المشعان (٢٠١٠م) (٨) التي توصلت إلى أنّ أغلب مشكلات المعلم تتمثل في: غموض الدور، العبء المهني، نقص المكانة الاجتماعية وازدحام الصفوف بالطلاب.

لا يختلف وضع المعلم في لبنان بشكل عام وفي محافظة الشمال بشكل خاص عن ذلك؛ فقد أشار التقرير السنوي للمنطقة التربوية - محافظة الشمال (قرار رقم ٤/٦٦٨ تاريخ ١٩/١/٢٠١٢م) إلى وجود معوقات كثيرة تواجه التعليم الابتدائي. يبقى أهمها: سوء أحوال المباني المدرسية وضيق مساحة الغرف الصفية، عدم وجود مختبرات مُجهزة وقاعات لممارسة الأنشطة التربوية والرياضية، نقص كبير في

مما لا شك فيه أنّ مشكلات المعلم في مرحلة التعليم الأساسي الأكاديمي الرسمي والخاص تعكس فشل النظام التربوي في شمال لبنان عامة وفي قضاء عكار خاصة. إنّ معاينة العملية التربوية على أرض الواقع تتيح لنا تحديد نقاط الضعف، وبالتالي العمل على تحسين العملية التربوية لنصل إلى مستوى تعليمي جيّد ونظام تربوي فعال. هدفت الدراسة الحالية إلى البحث عن مصادر المشكلات التربوية، ودراسة تأثيرها على رضا المعلم الوظيفي وأدائه التدريسي مع إجراء مقارنة على مستوى هذه المشكلات تبعًا لمتغير الجنس. تمّ اختيار عينة تمثيلية للدراسة من مدارس عكار الابتدائية الرسمية بالطريقة الطبقية العشوائية، وهي مكونة من عينة ممثلة للمجتمع الإحصائي بنسبة ٢٠٪ قوامها ١٠٦٣ معلم (٣٧٢ ذكور، ٣٥٪ و٦٩١ إناث، ٦٤٪). وانطلاقًا من وجوب تقدير أداء كل معلم من قبل عشرة من طلابه، وكبير حجم العينة التمثيلية تمّ اختيار عينة فرعية مكونة من ٢٠٠ معلم (٤١ ذكور و٧٦ إناث). استخدمت الدراسة المنهج الارتباطي الوصفي. وكشفت النتائج الإحصائية مشاكل كبيرة على مختلف المستويات: الأوضاع المادية والغموض الوظيفي، وإدارة المدرسة، ونقص الوسائل التعليمية،

الوسائل التّعليمية والتكنولوجية، ضعف المناهج الدراسية، حاجة المعلم الدائمة للبحث عن مراجع تدعم الدرس المقرّر. هذا بالإضافة إلى تدخّل الوساطة السياسية في أيّ وقت من السنة لنقل المُعلمين من مدرسة إلى أخرى، ممّا يستلزم تغيير الحصص الدراسية والبرامج التّعليمية للمعلمين في نصف وحتى في أواخر العام الدراسي. أضف إلى ذلك، إهمال التّلميذ لواجبه المدرسي والتّعليمي، وسلوكياته السيئة وغياب التعاون بين أولياء أمور الطلبة والمعلمين.

ويشير شحيمي (١٩٩٥م) (٢٠) إلى تدنّي مستوى التّعليم الرّسمي في لبنان بشكل عام، بالإضافة إلى معاناة المعلم كثيراً من تنوع المشكلات التّعليمية والتربوية. ولا عجب إن نشأ الصراع بين المعلمين والسلطات السياسية حيث تتّهم هذه الأخيرة المعلمين بالإهمال والتّعاس والاكْتفاء بقبض رواتبهم للانصراف إلى أعمال أخرى تدرّ عليهم دخلاً إضافياً؛ وهم، في زعمها، لا يبذلون الجهد الكافي لرفع مستوى تلامذتهم. ويردّ المعلمون على ذلك أنّ الدولة مُقصّرة تجاههم، لا تُقدّم الضمانات والخدمات الكافية لتحقيق الحد الأدنى من الاستقرار المادي والنّفسي فيتمكّنون من الانصراف كلياً للإبداع

التربوي وبذل المزيد من الجهد لتطوير وسائل العملية التربوية (٢٩، ص٧).

أما التساؤلات التي تطرح نفسها في مسار هذا الخط البحثي هي: هل يعاني معلمو قضاء عكار من مثل هذه المشكلات؟ هل تتوفر المعدّات والتجهيزات التربوية والتّعليمية في مدارسهم؟ وهل يحصلون على مُتطلّباتهم الشخصية والوظيفية؟

لذا، تسعى هذه الدراسة إلى تحديد مصدر هذه المشكلات، وتصنيفها بشكل دقيق وواضح في ما يتعلّق بالمجالات والعناصر التي يتعامل معها هذا المعلم ضمن إطار العملية التّعليمية: فهل تتعلّق هذه المشكلات بالإدارة التربوية، بالتفتيش، بالوسائل التّعليمية، بالطلبة أم بالأبنية المدرسية؟

تكمن دوافع اختيار هذا الموضوع في وجود بعض المدرّسين الذين يحتوّن طلابهم على تجاهل اختيار مهنة التعليم كمهنة مستقبلية كي لا يُصابوا، حسب رأيهم، بمرض نفسي أو جسدي في نهاية العمر (المشعان، ٢٠١٠م) (٨) وليتجنّبوا العيش في ظلّ عجز اقتصادي يدوم طوال الحياة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى رأينا أنّ من الواجب التركيز على ما يعاني منه زملاؤنا من مصاعب ومشكلات أدّت وتؤدي إلى تقليل نسبة رضاهم عن مهنتهم السامية. بالإضافة إلى تراجع مستوى أدائهم التدريسي.

من أهم الدوافع لاختيار هذا الموضوع هو الحرمان الذي يعاني منه المعلم والرغبة في التعرف بحقيقة هذا الحرمان.

هذا وقد شهدت المدارس في قضاء عكار ظاهرة لافتة للانتباه تتمثل بازدياد عدد المدرّسين الذين يتركون مهنة التعليم (٤)؛ الأمر الذي يستدعي، أكثر فأكثر، وجوب التعرف بالعوامل المسؤولة.

بعد البحث العميق والدقيق في الكتب، ووسائل الانترنت لم يُسجّل أيّ بحث يتناول المشكلات التدريسية، وعلاقتها بالرضا الوظيفي والأداء التدريسي في قضاء عكار، وحتى في لبنان، على الرغم من توافر عدد لا بأس به من الدراسات، على هذا المستوى، في بعض الدول العربية والغربية (يونس (٢٠١٠م) (١٣)، Chan (2010) (Earn (2005); (27) (٣٤). والأهم كتجديد في الدراسة الحالية إنما يكمن في ما تُقدّمه من معطيات علمية من شأنها الإسهام بتوجيه العملية التربوية ككل نحو التطوّر الايجابي، ووضع المعلم بشكل خاص نحو الرضا والارتياح النفسيين.

أما الدافع الثانوي للدراسة الحالية يكمن في تحديد الأولويات من حيث المشكلات الأكثر ظهوراً وحدة لدى المعلمين إلى الأقل تأثيراً فيتمكّن المسؤولون عن المدارس من إيلائها، بالدرجة الأولى، الاهتمام المناسب والعناية اللازمة. كما تهدف الدراسة إلى

تحديد درجة تأثير هذه المشكلات على الأداء التدريسي والرضا الوظيفي لدى المعلمين ونوع العلاقة الارتباطية القائمة بينها كمتغيّرات. ومن بين الأهداف الأخرى البحث الحالي نذكر أهمية التعرف بدور كل من الجنس في حدوث المشكلات لدى المعلمين والمعلمات في قضاء عكار على مستوى مهنة التدريس.

استناداً إلى ما سبق، تم وضع الفرضيات على الشكل الآتي:

الفرضية الأولى: توجد علاقة ارتباطية عكسية بين مشكلات المعلم التربوية ورضاه الوظيفي.

الفرضية الثانية: توجد علاقة ارتباطية طردية بين رضا المعلم الوظيفي وأدائه التدريسي.

الفرضية الثالثة: توجد فروق بين المعلمين والمعلمات على مستوى المشكلات التربوية.

أولاً - تحديد المشكلات التربوية لدى المعلم: تنوّعت هذه التحديدات واختلفت حيث صُنّفت من قِبَل بعض الباحثين في مجموعتين: مشكلات متعلقة بالمعلم وأخرى بالمؤسسة التعليمية، بينما حصرها البعض الآخر في المعلم والبيئة المدرسية والإدارة، وقد اتّجه فريق ثالث إلى أنّه لا يُمكن حصرها وتحديدها نظراً لتعدّدها، لذا،

لا بُدَّ من دراستها بهدف التوصل إلى تحديد دقيق لمجموعة المشكلات التي سيتمّ تقصيها في الدراسة الراهنة.

أ - النموذج الأول: يُحدّد مصادر المشكلات التربوية في مجموعتين رئيسيتين.

يذهب الكثير من الكُتّاب إلى الأخذ بهذا المنهج، نذكر منهم: ديلي Daily (2000) (33)، وكاهن وكوبر Kahn & (2009) Cooper (35). صنّف ديلي (Daily) (2000) (28) المشكلات في مجموعتين رئيسيتين هما: المصادر المتعلقة بالفرد، والمصادر المتعلقة بالمؤسسة التعليمية؛ وُذكر تحت كل فئة من هاتين الفئتين مجموعة من العوامل يُعتقد أنها على صلة بالمشكلات التربوية. فبالنسبة إلى المصادر والأسباب المتعلقة بالفرد، أشار ديلي إلى عدد من العوامل، من بينها: غموض الدور، عبء العمل والمشاركة في المسؤولية تجاه الآخرين؛ كما ذُكر، تحت باب الأسباب المتعلقة بالمؤسسة التعليمية من بينها درجة الحرارة، الإزعاج، التلوث البيئي والإضاءة.

أمّا كاهن وكوبر Kahn & (2009) Cooper (35) فقد تناولوا مُسبّبات المشكلات التي صنّفها ضمن بابين هما: الأسباب المتعلقة بالعمل (متعلقة بالوظيفة، دور المعلم، التطوّر الوظيفي، العلاقات مع زملاء والإدارة، البناء والمناخ الإداري

والتربوي) والأسباب المتعلقة بشخصية الفرد (تتضمّن نوع شخصية المعلم، درجة قلقه واستقراره، قُدْرته على التحكم Focus Control، الصلابة Hardiness، الجنس، العمر، الخبرة.. الخ)

ب - النموذج الثاني: يُحدّد مصادر المشكلات التربوية في ثلاث مجموعات رئيسية.

يعتقد القائلون بهذا النموذج أنّه من المُمكن حصر مصادر المشكلات التربوية في ثلاث فئات رئيسية؛ ويميلون لتقسيمها إلى: عوامل خاصة بالفرد، عوامل خاصة بالإدارة وعوامل خاصة بالبيئة المدرسية؛ ولعلّ أبرز ممثلي هذا النموذج هما: أبلسون Abelson (1986) (25) وسيزلاقي ووالاس (2006) (19). سار هذان الآخران على النهج نفسه، إذ صنّفوا العوامل المُسبّبة للمشكلات التربوية ضمن إطار ثلاثة مصادر: بيئية، تنظيمية وفردية.

ج - النموذج الثالث: تصنيف مصادر المشكلات التربوية في أربع مجموعات رئيسية أو أكثر.

يميل أصحاب هذا المنهج أمثال كويك وكويك Quick & (34) Quick (2000) ولوثنان Luthan (2005) (32) إلى الاعتقاد أنّ العوامل المسؤولة عن حدوث المشكلات التربوية هي متعدّدة ومتنوّعة بحيث يصعب حصرها.

لتبني التصنيف القائل بوجود فئتين رئيسيتين تتمثلان بالمعلم والمؤسسة التعليمية لأنهما المحورين الأساسيين في موضوع المشكلات التربوية لدى المعلم بصفة خاصة وفي موضوع مشكلات العمل بصفة عامة. من هنا وجوب تحديد الباحثين للإطار الذي تسيرا عليه والحرص، قدر المستطاع، على إيراد ما هو متناسق ومنطقي على مستوى العوامل المتداخلة.

ثانياً - النظريات المُفسّرة للرضا الوظيفي والأداء التدريسي

لكل مدرسة نظرياتها التي أثرت في الفكر الإداري والتربوي، وما يهمننا في دراستنا هو بيان الاتجاهات والمداخل الرئيسية لكل مدرسة، وتوضيح النظرة الخاصة وتحليلها لكل منها اتجاه المعلم، (كيف تعاملت معه، باحترام وإنسانية أم بقسوة وإجحاف؟ وكيف تُفسّر سلوكه وتُدرِك أهميته في العملية الإنتاجية؟ وما هي الفلسفة التي تنتهجها في تحفيز المعلمين، ودفعهم للعمل لتحقيق مستوى عالٍ من الأداء، ومستوى مُماثل من الكفاءة الإنتاجية للمؤسسة التعليمية التي ينتمي إليها المعلم؟).

قسمت النظريات المُفسّرة للرضا الوظيفي والأداء التدريسي (٩) إلى خمس مدارس إدارية وتربوية: المدرسة

صنّف كويك وكويك Quick & Quick (٢٠٠٠م) مصادر المشكلات التربوية ضمن إطار أربع مجموعات رئيسية: مطالب المهنة، مطالب الدور، مطالب الإدارة والمطالب المتعلقة بالعلاقات مع الزملاء، مع الطلبة ومع أولياء الأمور في المؤسسة التعليمية. يُعتبر هذا التصنيف من أكثر التصنيفات التي يعتمد عليها الباحثون المهتمون بدراسة مشكلات العمل نظراً لجمعها بين الناحية الإدارية والنفسية والاجتماعية.

لقد اتّبع لوثنان Luthan (32) النهج نفسه إذ قام بتصنيف المصادر إلى أربع مجموعات رئيسية وإن كانت تختلف في تسمياتها عن التصنيفات السابقة، شملت هذه المجموعات: مصادر خارج المؤسسة التعليمية (كالعوامل المتعلقة بالأسرة أو الجماعة التي تنتمي إليها أو الظروف الاقتصادية التي يعيشها)، مصادر تنظيمية (كالسياسات والإجراءات المعمول بها في المؤسسة التعليمية)، مصادر مُتعلّقة بالجماعة (كغياب تلاحم الزملاء، غياب المساندة الجماعية والصراع بين الزملاء) ومصادر مُتعلّقة بالمعلم (كنوعية شخصية الفرد وخصائص الدور الذي يقوم به وتغيير ظروف الحياة أو المهنة).

اختلفت آراء الباحثين من حيث تصنيف مصادر المشكلات التربوية، فإننا نميل

البيروقراطية، مدرسة الإدارة العلمية، مدرسة العلاقات الإنسانية ومدرسة العلوم السلوكية.

شكلت المدارس حلقات متسلسلة ومتراصة حيث شكّلت البيروقراطية (١٨٦٤م) الحلقة الأولى عبر تركيزها على الأداء في العمل. تَبِعَتْهَا الإدارة العلمية (١٩١١م) التي أعطت أهمية كبيرة للحاجات المادية لتليها، حلقة مدرسة العلاقات الإنسانية (١٩٣٥م) التي أضافت الجوانب الإنسانية والاجتماعية في العمل، تلتها مدرسة العلوم السلوكية (١٩٤٣م) التي اهتمت باحتياجات الموظفين جميعهم بهدف تحقيق التوازن والتكيف النفسي الاجتماعي.

١ - المدرسة البيروقراطية:

هذه المدرسة لا تُلبّي إلا حاجة العمل عند الإنسان وتُهمل طبيعته النفسية والإنسانية، كما تقتل مبادراته الفردية عبر تحديدها مهام عملية مُحدّدة جامدة وقاتلة لديمقراطية العمل التعاوني. ذلك بسبب الاستغراق في تنفيذ أوامر الرؤساء الممارسين للسلطة بيد من حديد، وإغفال أهمية توفير المناخ المناسب لتحقيق رضا المعلمين وتأمين رفع مستوى أدائهم بدلاً من خفضه (١٢، ص ٧٠).

٢ - مدرسة الإدارة العلمية:

انصرف اهتمام تايلور Taylor (١٩١١)

م) رائد هذه المدرسة، إلى محاولة تحقيق الرضا والأداء المطلوبين من المعلم بتوفير الحوافز والإمكانات المادية وبتوفير عدد من العوامل المُساعدة على ازدهار الحركة العملية، والأدائية وعلى تحقيق الرضا الوظيفي لدى المعلم كحل المشكلات الإدارية، التركيز على مبدأ التخصص الدقيق (١٢، ص ٧١) وتأمين الوسائل والأدوات التعليمية المُساعدة التي تدخل في تطوير العملية التعليمية مع ضرورة ترشيد العلاقة بين المعلم والوسائل لتحقيق أكبر قدر من الأداء (١٥، ص ١٤٩).

لكن لن تستطيع هذه النظرية من خلال منهجيتها الآلية، أن تُحقّق الرضا الوظيفي الكامل للمعلمين نتيجة إهمالها للعلاقات الإنسانية والاجتماعية داخل المنظمة وخارجها، والاكتفاء بالتركيز على الصفة الآلية للمعلم ممّا يُعطل قدراته ويُحجّم طموحاته نظراً لإغفالها حاجات المعلم النفسية والاجتماعية، وتركيزها على الحاجات المادية فحسب. كلّ هذا يُصيب المعلم بالإحباط واليأس فيفقد الثقة في الإدارة والتنظيم، والمؤسسة التي يعمل بها وينخفض رضاه الوظيفي وينعكس ذلك على أدائه.

٣ - مدرسة العلاقات الإنسانية:

أدّت تجارب هاوثورن Hawthorne (ما بين ١٩٢٧ - ١٩٣٢م) التي تُمثّل نقطة

لا تعتبر مدرسة العلاقات الإنسانية التخصّص الدقيق أساساً صالحاً للإنتاج الكفاء المتزايد كما تفترض مدرستي البيروقراطية والإدارة العلمية، بل اعتبرته عاملاً سلبياً يؤثر في الأداء لأنه لا يتيح للمعلم فرصة استغلال طاقاته وقدراته (٢٢، ص ٩٩).

٤ - مدرسة العلوم السلوكية:

اهتمت مدرسة العلوم السلوكية بدراسة سلوك الفرد على ثلاثة مستويات: المستوى الأول مرتبط بسلوك المعلم وأدائه داخل المؤسسة التعليمية، وتحليل العوامل الشخصية التي تحكم وتوجه هذا السلوك مثل الدوافع، الإدراك، الاتجاهات وأنماط القيادة. أما المستوى الثاني فيرتبط بدراسة جماعات العمل داخل المؤسسة التعليمية، وتحليل العوامل الشخصية التي تحكم هذا السلوك وتوجهه، في حين أنّ المستوى الثالث يتعامل مع السلوك الكلي كظاهرة متكاملة داخل المؤسسة التعليمية، ويتجه اهتمامه إلى دراسة التنظيم الرسمي وأثره على السلوك الأدائي للمعلم (٩، ص ٨٠).

وقد هدفت للتوصل إلى وضع حلول لمشكلات المعلم داخل المؤسسة التعليمية. ومن أهدافها أيضاً، دراسة السلوك الإنساني والعوامل المؤثرة فيه سواء كانت شخصية، اجتماعية، تنظيمية أو بيئية.

البداية في حركة مدرسة العلاقات الإنسانية إلى فتح آفاق جديدة من الدراسة والبحث، تختلف عن الأسس التي كانت تسير عليها المدرستان السابقتان؛ لقد تبين أنّ العناصر البشرية لا تتأثر في سلوكها وأدائها، بالظروف المادية من إضاءة وتهوية وحرارة ومكافآت مالية وحسب كما افترضت مدرسة الإدارة العلمية، إنّما تتأثر أحياناً بدرجة أكبر بالظروف الاجتماعية والدوافع النفسية المحيطة (٢٢، ص ٦٥). لذا، رأت أنّه من الواجب: الاهتمام بتحسين ميول المعلمين وتوفير مطالبهم النفسية والاجتماعية، لتحقيق الرضا الوظيفي لديهم و لرفع مستوى أدائهم وإنتاجيتهم، النظر إلى المؤسسة التعليمية كنظام اجتماعي يتأثر بالبيئة المحيطة به وإشباع حاجة المعلمين إلى المشاركة وإثبات الذات والشعور بالانتماء (١٥، ص ٢٩٢).

ساعدت تجارب هاوثورن في إلقاء الضوء على المتطلبات الأساسية الواجب توافرها لخلق التعاون الفعال بين الإدارة والمعلمين لتحقيق أهداف الإدارة والمؤسسة؛ إذ شددت على وجوب النظر إلى الأفراد العاملين كجماعة واحدة يتعاونون معاً لتحقيق أهداف المؤسسة؛ الأمر الذي يُلقي على عاتق الإدارة مسؤولية بناء مجموعات عمل تكون أكثر تجاوباً وفهماً في ما بينها (٢٠، ص ٢٩٨).

* نظريات مدرسة العلوم السلوكية:

تقوم فلسفة نظرية ماسلو Maslow (33) (١٩٤٣م) على أنّ حاجات الإنسان هي التي تُوجّه سلوكه؛ فهو يُوجّه سلوكه دائماً لإشباع الحاجة الأكثر إلحاحاً عنده، وما أن تُلبّى حتى تظهر حاجة جديدة تدفعه للعمل ويسعى لإشباعها. لذا، يرى ماسلو Maslow أنّ حاجات الإنسان مُرتّبة ترتيباً هرمياً تصاعدياً من قاعدة الهرم إلى قمّته ابتداءً بالحاجات الفيزيولوجية التي تُعتبر أدنى الحاجات، تليها الحاجة إلى الأمن، ثمّ الحاجات الاجتماعية وحاجات الاحترام والتقدير وانتهاءً بحاجات تحقيق الذات التي تُعتبر أسمى الحاجات الإنسانية (٩).

- نظرية العاملين لفريدريك هرزبرغ (١٩٥٩ م) (٩):

سعى هيرزبرغ Herzberg إلى معرفة العوامل التي تؤثر على شعور الأفراد تجاه أعمالهم وقد توصل إلى مجموعتين من العوامل أطلق عليهما: العوامل الوقائية والعوامل الدافعة. سنتعرض لهما بالشرح وفقاً لما يلي:

أ - العوامل الوقائية أو الصحية Hygiene Factors:

توصل هيرزبرغ Herzberg إلى مجموعة من العوامل المرتبطة بمحيط العمل، وبيئته job environment وتؤثر

بنسبة الرضا على العمل فتؤدّي إلى عدم الإقبال عليه من أهمّها: سياسة الإدارة وإجراءاتها، نمط الإشراف، العلاقات الشخصية مع الرؤساء (المدير، الناظر والزملاء)، ظروف العمل والضمانات المقدّمة للفرد والأمان الوظيفي.

يبدو أنّ هذه العوامل تخدم فقط المحيط المادي والاجتماعي والإداري للوظيفة؛ يرى هيرزبرغ Herzberg أنّ أثر هذه العوامل يقتصر على منع مشاعر الاستياء وعدم الرضا لدى الموظفين، لكنها غير قادرة على تحقيق مشاعر الرضا هذه وزيادة حماسهم لأداء العمل.

ب - العوامل الدافعة Motivating Factors:

تعمل على تحفيز الفرد لبذل مزيد من الجهد، وهي تتعلّق بمحتوى العمل نفسه؛ أسماها هيرزبرغ العوامل الدافعة لأنها تُعزّز الرغبة في العمل والشعور بالرضا عنه. ويرى هيرزبرغ Herzberg ضرورة الاهتمام بالعوامل الوقائية والعوامل الدافعة على حدّ سواء، لأن الاهتمام بالعوامل الوقائية لا تكفي لتحقيق الرضا الوظيفي الذي لن يتحقق إلاّ من خلال إشباع عدّة حاجات: الاعتبار، الإنجاز، التقدم، المسؤولية، محتوى العمل وأهميته المتمثّلة في العوامل الدافعة أو المُحفّزة. لكنّ الشرط الأساسي لظهور أثر العوامل الدافعة على

الرضا هو الاهتمام بالعوامل الوقائية؛ لأنَّ وجود هذه العوامل الوقائية بشكل سيئ أو عدم توفرها يؤدي إلى ظهور مشاعر الاستياء التي تُعطل إمكانية ظهور أثر العوامل الدافعة (١٠، ص ٣٩١).

على مستوى القطاع التربوي وتحديداً القطاع المدرسي، فإنَّ العوامل الوقائية كالضغط في العمل، الراتب المتدني وعلاقة المعلمين بالمجتمع الأهلي ليست كافية لظهور الرضا لدى المعلمين أو لتحفيزهم، لكنَّ غيابها يؤدي بهم إلى الإحباط. باختصار، هذه العوامل هي مُحفِّزة لفترة وجيزة. أما العوامل الدافعة كالاستقلالية المهنية، فرص الترقية والعلاقات الجيدة مع الزملاء هي الأساس في التحفيز لدى المعلمين على المدى الطويل. شكَّلت كلُّ هذه العوامل أهدافاً لدراسات تربوية متعدِّدة ساهمت في توضيح دورها وتأثيرها في العملية التَّعليمية، وسيتمُّ تناول البعض منها في دراستنا هذه.

الدراسات السابقة:

كشفت مراجعة الدراسات السابقة عن وجود عدد كبير من الدراسات التي تناولت ما يواجهه المعلم من مشكلات وصعوبات منذ الستينيات والسبعينيات حتى زمننا الحاضر؛ لكن، سيتمُّ تناول البعض منها نظراً لصعوبة عرضها كلّها وترتيبها حسب تشابه واختلاف أهدافها ونتائجها.

سنسعى إلى تفصيل هذه المشكلات كلُّ على حدة وفق الآتي:

مشكلات تتعلّق بإدارة المدرسة: على مستوى البيئة اللبنانية، رأت درويش (٢٠٠٥م) أنَّ المعلمين يواجهون بعض المشاكل والصعوبات الإدارية مثل عدم تعاون الإدارة في تنفيذ التطبيق العملي لبعض الأنشطة التربوية وغياب التنسيق بين المعلمين والإدارة من حيث تبادل وجهات النظر والتوصُّل إلى القرارات الأفضل؛ الأمر الذي يؤدي إلى إحساس المعلم بعدم الارتياح في عمله وعدم الثقة في نفسه وانعكاس كل ذلك على حالته النفسية والمعنوية (١٤، ص ٩٨).

على مدير المدرسة الفعَّال إيجاد جسر من العلاقات بينه وبين المعلمين، الاهتمام بتقدّمهم الوظيفي والمادي، وفتح أبواب الحوار والمناقشات معهم بخصوص القرارات التربوية والتَّعليمية إذ من شأن ذلك تعزيز ولائهم له وارتقاء أدائهم وفعاليتهم.

مشكلات الوسائل التَّعليمية والتجهيزات التربوية: أوضحت جلول (٢٠١٠م) (١٠) في دراستها أنَّ مباني المدارس الرسمية لا تحتوي، بنسبة كبيرة منها، على غرف وقاعات خاصة للوسائل التَّعليمية، إضافةً إلى ازدحام الصفوف بالتلاميذ. وكلُّ ذلك يُعرقل عملية استخدام أي جهاز سمعي أو

أحوال الأبنية المدرسية على أرض الواقع بما فيها من غرف صفية وتجهيزات تربوية وفنية.

وضعت وزارة التربية خطة النهوض التربوية المتعلقة بالأبنية المدرسية (١٩٩٤م)، بالإضافة إلى المرسوم ٩٠٩١ الصادر بتاريخ ١٥/١١/٢٠٠٢م من أجل إنشاء أبنية جديدة وترميم الأبنية القديمة، المتضررة وغير الملتزمة بالشروط الهندسية والصحية والتربوية المفروض توافرها في الأبنية المدرسية وتجهيزاتها. تظهر هذه الدراسة نسبة تطبيق هذه الخطة على أرض الواقع.

مشكلات الطلبة: يُواجه التعليم في لبنان مشكلة تزايد أعداد الطلاب مقابل بقاء الإمكانات البشرية اللازمة على حالها. حاولت وزارة التربية والتعليم العالي حلّ هذه المشكلة عن طريق إصدار نظام قسمة الصف الواحد إلى شعبتين إذا زاد عدد التلاميذ عن الثلاثين مع تأمين العدد الكافي من المعلمين ومن غرف التدريس. لتأمين هذه المادة صدر مرسوم يحمل رقم ٩٠٩١ بتاريخ ١٥/١١/٢٠٠٢م نصّ على تحديد معايير ومقاييس أبنية المدارس في التعليم العام ما قبل الجامعي (١٤، ص ٤٠٦). لكن هذه المشاكل لم تُحل، ولم تتمّ زيادة الإمكانات المادية المطلوبة لاستيعاب أعداد الطلاب المتزايدة بشكل خاص. أدى ذلك

بصري. يُضاف إلى ذلك، عدم وجود ملاعب كافية للقيام بأنشطة فنية ورياضية وتربوية (١٣، ص ٦٨). أكدت درويش (٢٠٠٥م) (١١) أنّ استعمال وسائل وتقنيات التعليم في التدريس لا يرقى إلى المستوى المطلوب، وأنّ المعلمين بحاجة إلى برامج تدريبية تُمكنهم من استخدام هذه التقنيات في العملية التعليمية.

أكدت دراسة ناصر الدين (٢٠٠٩م) (٢٣)، صابونة (٢٠٠٨م) (١٨) ومخايل (٢٠٠٨) (١٤) غياب التجهيزات المخبرية والأدوات السمعية والبصرية، بما تشتمل عليه من تسجيلات صوتية ومرئية (تلفزيونية) ومُلصقات وغيرها من الأدوات الداعمة للمنهاج والكتاب المدرسي في المدارس الرسمية بقضاء عكار.

مشكلات الأبنية المدرسية: معظم المدارس الرسمية في قضاء عكار تفتقر إلى البنية الصالحة لاحتضان تلامذة وكادر تعليمي. فهي، بمعظمها، لا ترى الشّمس ولا تتعرّض للهواء النظيف. يُضاف إلى ذلك مشاكل عديدة تُساهم بتدني مستوى التعليم والتعلم (٢٨، ص ٨٠).

سيتمّ عرض واقع الأبنية المدرسية الحالية في قضاء عكار عبر الإحصائيات التربوية الواردة في مكتب المستلزمات، والأبنية المدرسية بالمنطقة التربوية - دائرة الشمال (٧، ص ٣٢) للإطلاع على

لبروز مشكلة ازدحام الصفوف في العديد من المدارس التي لا تتوافر في معظمها معايير البناء المدرسي التربوي، كما سبقت الإشارة لذلك.

لقد بدت نتائج الدراسات السابقة المُحقَّقة في لبنان عامَّةً وفي قضاء عكار خاصَّةً، متَّفقة إلى حدِّ ما مع ما ورد في إحصائيات المركز التربوي للبحوث والإنماء والمنطقة التربوية في لبنان الشمالي.

الإجراءات الميدانية للدراسة:

منهج الدراسة: منهج الدراسة هو ارتباطي بفضل اهتمامها بفحص العلاقة بين متغير مستقل (المشكلات التربوية المراد وصفها ومعرفة تأثيرها) ومتغيرات تابعة (الرضا الوظيفي والأداء التَّدريسي يُراد قياس درجة تأثرهما بالمتغير المستقل)، وبمعرفة إن كان هناك ما هو مشترك بين هذه المتغيرات.

يتمثَّل المنهج الارتباطي في دراسات تتمَّ فيها معرفة نوع، وكميَّة العلاقة بين الاختبارات التي تقيس متغيَّرين أو أكثر، بمعنى أنَّه إذا تغيَّر أحد المتغيَّرين في اتِّجاه معيَّن (زيادة أو نقصانًا) يميل الآخر إلى التغيُّر في اتِّجاه معيَّن كذلك. فالارتباط يعني اقتران التغيُّر في ظاهرة ما بالتغيُّر في ظاهرة أخرى. وقد يكون التغيُّر في الاتجاه نفسه أو في الاتجاه المعاكس،

بالتالي تكون العلاقة إمَّا موجبة أو سالبة. اعتمدت الدراسة المنهج الارتباطي غير التجريبي، لتحقيق أهدافها نظرًا لعدم شرعية القدرة على إجراء تجارب قد تضرُّ بالمعلم أو تلحق الأذى به، صعوبة التحكُّم ببعض المتغيرات على المستوى التطبيقي وارتفاع التكلفة المادية. إنَّه يسمح بمعرفة نوع العلاقة القائمة بين المتغيرات المُلاحَظة من دون إجراء تعديلات أو تغييرات عليها ومن دون إخضاع أفراد العينة لشروط تجريبية (١٢، ص. ص ٢٢٥ - ٢٢٦).

يُمكن التمييز بين نوعين من الدراسات الارتباطية: التأكيدية والوصفية.

تعتمد الدراسة الحالية المنهج الارتباطي الوصفي نظرًا لاستخدامها طريقة التحليل الوصفي (مقاييس التوزيع، التشتُّت والنزعة المركزية) في معالجة البيانات الإحصائية بهدف وصف مشكلات المعلم التربوية، تحديد أهم مسبباتها، درجة وجودها وتمثيلها بجداول بيانية من جهة وفحص العلاقة بين هذه المشكلات ومتغيري الرضا والأداء التَّدريسي من جهة ثانية؛ وبالتالي، تعتمد الدراسة على الوصف لا على التعديل والتغيُّر العمدي (٤١، ص. ص ٢٢٨ - ٢٢٩).

يعتمد هذا النوع من المناهج على طريقة التحقيق الميداني باستعمال العينة، أو لقلَّة المعلومات عن موضوع بحثنا بالنسبة إلى

قضاء عكار وثانياً لمعرفة الظروف التي يعمل فيها المعلم.

ويهدف الإجابة عن أسئلة الفروق على مستوى متغير الجنس (ذكور، إناث)، اعتمدت الدراسة على التصميم البحثي الفارق.

عينة الدراسة: اشتملت عينة الدراسة على فئتين:

أ - فئة تُمَثَّل المجتمع الإحصائي الأصلي: المجتمع الإحصائي للدراسة هو مجموع مدارس قضاء عكار الابتدائية. بلغ عدد المدارس الرسمية ١٤٦ مدرسة تضم ٥٦٧٠ معلماً ومعلمة حسب الإحصائيات الواردة في مكتب اللوائح المدرسية في المنطقة التربوية في لبنان الشمالي للعام ٢٠١١ - ٢٠١٢م.

يشتمل المجتمع الإحصائي الأصلي على ٨٠٠٠ معلم ومعلمة بمعدل ٥٦٧٠ (٢٠١٠ ذكور و٣٦٦٠ إناث) في المدارس الرسمية، تم اختيار عينة تمثيلية تراعي بتركيبها مواصفات العينة الطباقية العشوائية (Stratified Sample) بلغ قوامها ١٠٦٣ معلماً ومعلمة في القطاع الرسمي بواقع ٢٠٪ من أفراد مجتمع الدراسة، ذلك انطلاقاً من تطبيق المعادلة التالية:

$$n = 1 + PQ/N = 1063$$

n = عدد أفراد العينة التمثيلية للدراسة

N = العدد الإجمالي لمعلمي المجتمع الإحصائي الأصلي

Q = المتوسط الحسابي للفرق بين النسب P = الانحراف المعياري لتوزيع المعاينة الإحصائية

ومن ثم تم توزيع عدد أفراد العينة التمثيلية (ن = ١٠٦٣) وفق متغير الجنس انطلاقاً من النسب المئوية لأرقام المجتمع الإحصائي بهدف تطبيق استبانة المشكلات التربوية ومقياس الرضا الوظيفي لدى المعلم بواقع ٣٧٢ ذكور (٣٥٪) و٦٩١ إناث (٦٤٪).

ب - العينة الفرعية: انطلاقاً من وجوب تقدير أداء كل معلم من قِبَل عشرة من طلابه، وبسبب كبر حجم عينة الدراسة التمثيلية الأساسية للدراسة (ن=١٠٦٣ معلم ومعلمة)، تم تحديد عينة فرعية (ن=٢٠٠ بواقع ٤١ معلم و٧٦ معلمة) بالاستناد إلى النسب المئوية لأرقام المجتمع الإحصائي الأصلي للدراسة لاختبار صحة فرضيات الدراسة المرتبطة بقائمة تقدير أداء المعلم.

أدوات الدراسة:

١ - استبانة المشكلات التربوية:

تم إعداد هذه الاستبانة لتشخيص المشكلات لدى معلّمي الصف الخامس والسادس في المرحلة الابتدائية بقضاء

عكار ووصفها، وقد التزمت الباحثتان بالخطوات الآتية لبنائها:

أ - الدراسة الاستطلاعية:

اتبعت طريقة ليكرت Likert لبناء الاستبانة، وهي تتميز بسهولة تنفيذها إذ إنها لا تتطلب استخدام المختبرات النفسية كطريقة تورستون Thurston وجوتمن Guttman. يُضاف إلى ذلك سهولة حساب معامل الثبات والصدق في ضوء استخدام معامل الارتباط الداخلي والتحليل العاملي (٤١، ص. ص ٢٥١ - ٢٥٣).

أجرت الباحثتان هذه الدراسة على عينة عشوائية من معلمين يدرسون في ٤٠ مدرسة رسمية وخاصة في قضاء عكار، تمهيداً لبناء استبانة المشكلات لدى المعلمين حيث طُلب منهم أن يعطوا إجابة حرة عن أنواع المشكلات التربوية (التدريسية والمهنية) التي يواجهونها مع الإدارة، التفتيش، الوسائل التعليمية، الطلاب وظروف العمل المادية. ومن ثمّ تمّ تحليل إجابات أفراد هذه العينة التمهيديّة وصياغتها في فقرات صُنّفت ضمن إطار محاور وأبعاد استناداً إلى ما ورد في التراث الأدبي المتعلّق بضغط مهنة التدريس وفي نتائج الأبحاث والدراسات السابقة التي تناولت موضوع المشكلات والصعوبات التي يواجهها المعلم في عمله. وقد تمّ تحديد سلّم رباعي لقياس مدى

ظهور المشكلة المُعبّر عنها في الفقرة: بدرجة كبيرة جداً، بدرجة متوسطة، بدرجة قليلة ولا وجود للمشكلة؛ تجدر الإشارة إلى صياغة عبارات الاستبانة بصورة سلبية لأنّها تُعبّر عن مشكلات يواجهها المعلم.

ب - وحدات الاستبانة:

تتكوّن الاستبانة من ٣٥ عبارة موزّعة على خمس مشكلات بالشكل الذي يُبيّنهُ الجدول رقم ١.

نوع المشكلة	عدد العبارات	المشكلة	نوع
٩	١ . الإدارة المدرسية	العبارات	عدد
٣ . الوسائل التعليمية	٩	التفتيش التربوي	٢ .
٥ . ظروف العمل المادية	٧	٤ . التعامل مع الطلبة	٥
جدول رقم ١ : المجالات والمشكلات التي تتضمنها الاستبانة الاستبانة ككل : ٣٥ عبارة			٥

استغرق تطبيق هذه الاستبانة حوالي عشرة دقائق لكل معلم. للاستبانة مفتاح تصحيح، فقد حُسبت لكل عبارة أجاب عنها المعلم بـ: «عدم ظهور مشكلة» درجة واحدة، «مشكلة بدرجة قليلة» درجتين، «مشكلة بدرجة متوسطة» ثلاث درجات و«مشكلة بدرجة كبيرة» أربع درجات. يُمثّل مجموع عدد الإجابات التي يجيب

الاستبانة على ١٥٠ معلماً ومعلمة من مدارس التعليم الرسمي في قضاء عكار تمّ اختيارهم بطريقة عشوائية، بهدف حساب معاملات الارتباط بين فقرات الأبعاد الفرعية والدرجة الكلية لكلّ مجال باتّباع أسلوب بيرسون Pearson Correlation حيث تبين أنّ معامل الارتباط شديدة الدلالة إحصائياً على مستوى معظم بنود الاستبانة (احتمال الخطأ أقل من واحد بالألف)؛ وبالتالي، فإنّ الاستبانة تتمتع بصدق جيّد، الأمر الذي يسمح للباحثين بتطبيقها على أفراد عينة الدراسة الأصلية.

كذلك تمّ التّأكد من صدق الاستبانة باستخدام صدق المحتوى Content Validation الصدق الظاهري والصدق المنطقي.

* **ثبات الأداة:** قمنا بحساب الثبات وذلك باستخدام معامل ألفا - كرونباخ Alpha Chrombach حيث تراوحت بين ٥٦٤،٠ و ٧٣٠،٠. وبالتالي، يُمكن اعتبار أنّ الاستبانة وبنودها مستوفية خصائص السيكمترية التي تسمح باستخدامها لأغراض هذه الدراسة.

٢ - مقياس الرضا الوظيفي للمعلمين:

يكمن الهدف من استخدامه في قياس درجة الرضا الوظيفي لدى معلمي الصف الخامس والسادس أساسي من المرحلة

عنها المعلم درجة معاناته من مشكلات تربوية عامة؛ وهناك مستويات للمشكلات تتمثّل في الجدول الثاني.

قُدّمت الاستبانة للمعلمين، كما هي، بفضل تمتّعها بثبات وصدق مرتفعين تأكّداً بفضل معامل الثبات والصدق التي قمنا بحسابهما كما سيتمّ التوضيح لاحقاً.

جدول رقم ٢: مستوى المشكلات التربوية لدى المعلم	
من ١ - ٩ درجة	عدم وجود مشكلة
من ١٠ - ١٨ درجة	مشكلة قليلة
من ١٩ - ٢٧ درجة	مشكلة متوسطة
من ٢٨ - ٣٦ درجة	مشكلة كبيرة

يتمّ استخراج ٦ درجات للاستبانة: درجة كلية للمشكلات التربوية التي يواجهها المعلم بشكل عام، وذلك بجمع العلامات على بنود الاستبانة كافة، وحساب درجة كل مشكلة من المشكلات الخمس المذكورة في الجدول السابق رقم ٢، وذلك بجمع درجات البنود المتضمنة على مستوى كل مشكلة. يكمن الهدف من ذلك في معرفة مستوى المشكلات التي يواجهها المعلم بشكل عام وتحديد أهمّ ما يواجهه من مشكلات في حياته العملية بشكل خاص.

ج - تقدير الكفاءة القياسية للاستبانة:

تحديد المجالات وتحليل الفقرات: للتأكد من تمييز كل مجال، قامت الباحثتان بتطبيق

الابتدائية في قطاع التعليم الرسمي في قضاء عكار.

أعدت لستر Lester (٢٠٠٥م) (٣٦) هذا المقياس تحت عنوان Teacher Job Satisfaction Questionnaire (TJSQ). وقد قام فاروق عبد الفتاح موسى (٢٠٠٨م) باقتباسه وتعريبه. يتضمن المقياس عبارات تحمل صيغة إيجابية (مثل: تهئ لي مهنة التدريس الفرصة للنمو مهنيًا) وعبارات أخرى تحمل صيغة سلبية (مثل: لا تحقق لي مهنة التدريس فرص التقدم إلى الأمام)، وقد تم تمييزها بوضع علامة النجمة (*).

يتكون المقياس من تسع مجالات للرضا الوظيفي هي: سياسة الإدارة والإشراف، الزملاء، ظروف العمل، التقدم - الوظيفي، الأمن، المرتبات، المسؤولية، العمل نفسه والتميز. يندرج تحت هذه المجالات التسعة في الصورة الأصلية ٦٦ بندًا (٣٨ موجب و٢٨ سالب) تتناول الأنشطة المختلفة التي تشملها عملية التدريس في المدارس، العلاقات التي تقوم بين المعلمين، المساعدات التي يحصلون عليها... وغيرها، أي أن الفقرات تتضمن كل الأنشطة التي تدرج تحت عملية التدريس. بالنسبة إلى الدراسة الحالية، قامت الباحثتان بتعديل بعض بنود المقياس ليتناسب مع البيئة العكارية وتم حساب معاملات الصدق

بطريقة الارتباط بين كل بند والمجموع الكلي للمجال.

يستلزم تطبيق المقياس ما بين عشرين إلى ثلاثين دقيقة. وتم الإجابة على بنود مقياس الرضا الوظيفي بناءً على تدرج خماسي: لا أوافق بشدة، لا أوافق، لا أستطيع أن أقرر، أوافق وأوافق بشدة. في حالة البنود الإيجابية تُعطى، الإجابات تبعًا للتدرج السابق: ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ علامات، وفي حالة البنود السلبية يُعكس التدرج السابق، أي تُعطى: ٥ - ٤ - ٣ - ٢ - ١ علامة.

تم استخراج ١٠ درجات للمقياس: درجة كلية (جمع بنود المقياس الستة والستين كلها) ودرجات على مستوى كل من المجالات التسعة المذكورة سابقًا وذلك بجمع العلامات الحاصلة على مستوى البنود المحددة لكل مجال. يهدف كل ذلك لمعرفة مستوى الرضا الوظيفي العام لدى معلمي المرحلة الابتدائية في عكار وتحديد العوامل ذات الدور الهام في ارتفاع أو انخفاض مستوى هذا الرضا.

تتمثل مستويات الرضا الوظيفي في الجدول الثالث.

بهدف التأكد من صدق المقياس أتبع الباحثتان تقنية التحليل العاملي، وحساب معامل الاتساق الداخلي، وذلك على عينة تجريبية مكونة من مئة معلم ومعلمة

لكل من المجالات الأربعة بخصوص تقدير أداء المعلمين على أساس مجموع درجات العبارات في كل مجال، أي أن الدرجة الأعلى هي ٤٠ والأدنى هي ١٠، وذلك بالنسبة إلى كل من المجالات الأربعة حيث تشير الدرجة العليا في هذا المقياس إلى التقديرات الإيجابية لفعالية المعلم وكفاءته على مستوى أدائه لدوره المهني.

جدول رقم ٣: مستوى الرضا الوظيفي العام	الحد الأدنى: ٦٧ درجة الحد الأعلى: ٣٣٥ درجة
رضا منخفض	٨٢ - ١
رضا مقبول	١٦٤ - ٨٣
رضا جيد	٢٤٦ - ١٦٥
رضا ممتاز	٢٤٧ وما فوق

قام بتعريب هذه القائمة كل من طلعت منصور وفيولا الببلاوي (١٩٨٨م) حيث تم تطبيقها على مجموعة من طلاب وطالبات الصف الأول في عدد من المدارس الثانوية بمحافظة القاهرة والجيزة لتقدير أداء ستة معلمين من الجنسين. ولتحقيق أهداف هذه الدراسة قامت الباحثتان باتباع الخطوة نفسها لحساب أداء المعلمين، أي بواقع عشرة طلاب لكل معلم.

تُحسب درجات المعلم على المجالات الأربعة الفرعية وعلى الاختبار الكلي (أي حساب خمس درجات). ويُمثّل الدرجة الكلية درجة أداء المعلم التدريسي؛ وهناك مستويات للأداء تحدت كما يظهره الجدول رقم ٤.

اختيروا بطريقة عشوائية. وبالنسبة إلى ثبات المقياس استُخدمت طريقة التجزئة النصفية حيث قُسمت عبارات المقياس إلى قسمين: فردية ومزدوجة، وأُتبع ذلك بحساب معاملات الارتباط بينهما (تراوحت بين ٦٩،٠ و ٩٠،٠)، يليه حساب معامل الثبات (تراوحت بين ٧٩،٠ و ٨٦،٠).

٣ - قائمة التقدير لأداء المعلمين:

يهدف هذا المقياس لقياس مستوى الأداء الوظيفي عند المعلم كما يُدركه التلامذة.

قام «دون كوسجروف» Don Cuscrov (١٩٥٩م) بإعداد هذه القائمة بهدف تقييم فعالية الأداء التدريسي للمعلمين في المدارس الابتدائية والثانوية والكليات الجامعية. يتألف المقياس من عشر مجموعات من العبارات تتضمن كل مجموعة منها أربع عبارات تختص كل منها بأحد المجالات الأربعة الآتية: المعرفة وتنظيم المادة الدراسية، كفاية العلاقات مع الطلاب في الصف، كفاية الخطط والإجراءات في الصف والحماس في العمل مع الطلاب (منصور والببلاوي، ١٩٨٨ م) (١٥).

يُطبّق هذا المقياس وتُحسب الدرجات وفقاً لتقدير الطلاب لأداء معلمهم، وذلك وفقاً لمقياس متدرج من أربع مستويات: دائماً، كثيراً، أحياناً ونادراً. وتُحسب الدرجات بالتالي: ٤،٣،٢،١. ثم تُحدّد الدرجة

تصدر الإشارة إلى أن تطبيق هذا المقياس يحتاج عمومًا إلى ٢٠ دقيقة.

جدول رقم ٤ : مستوى الأداء التدريسي لدى المعلم	
أداء منخفض	من ١ - ٤٠ درجة
أداء مقبول	من ٤١ - ٨٠ درجة
أداء جيد	من ٨١ - ١٢١ درجة
أداء ممتاز	من ١٢٢ - ١٦٠ درجة

- تقدير الكفاءة القياسية للمقياس:

صدق المقياس: استخدم طلعت منصور وفيولا الببلاوي (١٩٨٨م) طريقتين هما الصدق التمييزي وصدق المحك للتأكد من صدق المقياس؛ وإجراء مقارنة بين نتائج ما توصلت إليه دراستنا ودراسة الباحثين منصور والببلاوي أتبعنا الطريقتين المعتمدتين من قبلهما.

أ - الصدق التمييزي:

للتحقق من مقدرة المقياس الحالي على التمييز بين المعلمين من حيث الكفاءات المتعلقة بأدائهم في المجالات الأربعة موضع القياس في هذه الأداة، طُبِّقَ المقياس على مجموعتين من معلمي مدارس عكار الابتدائية الرسمية (٧ مدارس): مجموعة من المعلمين الأكفاء، وأخرى من المعلمين غير الأكفاء وفقًا لتقديرات المديرين والنظار الذين طُلب إليهم تحديد مستوى كفاءة المعلم وفقًا للمقياس الحالي؛ بلغ مجموع المعلمين الأكفاء ثمانية وتسعين معلمًا ومعلمة من الاختصاصات كافة: لغة عربية،

لغة فرنسية، علوم، رياضيات واجتماعيات، أُجري تقديرهم من قبل ٩٨٠ طالبًا وطالبة من طلابهم. أما مجموع المعلمين غير الأكفاء بلغ اثنين وخمسين معلمًا ومعلمة من الاختصاصات كافة تمّ تقييم أدائهم من قِبَل ٥٢٠ طالبًا وطالبة من طلابهم في صفوف الخامس والسادس أساسي؛ بيّنت النتائج وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,١٠ بين متوسط درجات تقديرات الطلاب لأداء معلميهما في المجموعتين الأكفاء وغير الأكفاء على المقياس الحالي لصالح المعلمين الأكفاء في كلٍّ من المجالات الأربعة. تشابهت هذه النتيجة مع ما توصلت إليه نتائج دراسة الببلاوي ومنصور (١٩٨٨م) على معلمي الصف الأول ثانوي حيث بدت الدلالة إحصائية عند مجموعتي المعلمين الأكفاء (٥٦ معلم) وغير الأكفاء (٥٣ معلم) دالة أيضًا، عند مستوى ٠,١٠.

يبدو إدراك الطلاب واضحًا، ودالًا بخصوص كفاءة معلميهما في ضوء دراستنا كما في دراسة منصور والببلاوي؛ وبالتالي، يُمكن اعتبار المقياس الحالي قادرًا على التمييز بين المجموعات.

ب - ثبات المقياس:

اعتمدت الباحثتان طريقة إعادة الاختبار Test-Retest للتأكد من ثبات المقياس، ذلك على عينة بلغت مائتين وخمسين طالبًا وطالبة في الصفين الخامس والسادس

أساسي لتقدير أداء خمسة وعشرين معلماً ومعلمة مع فاصل زمني قدره أسبوعان بين الإجراءين الأول والثاني، وقد بدت معامل الارتباط دالة إحصائياً.

– زمن التطبيق الفعلي للمقاييس

الثلاثة:

تمّ تطبيق العمل الميداني الأساسي ابتداءً من النصف الثاني (الفصل الدراسي الثاني) للعام الدراسي ٢٠١١ – ٢٠١٢ م.

– الاختبارات الإحصائية:

لتحليل البيانات، اعتمدت الباحثتان، بهدف التأكد من صحة فرضيات الدراسة، الأساليب الإحصائية الآتية: المتوسطات الحسابية، الانحرافات المعيارية والنسب المئوية للتحليل الوصفي (مقاييس النزعة المركزية والتشتت) للإجابة عن أسئلة الدراسة الثلاث. معاملات الارتباط البسيط لبيرسون Pearson للتأكد من صحة الفرضيات الارتباطية واختبار (ت) T-TEST لإيجاد الفروق بين متوسطات مجموعتي المعلمين الذكور والمعلمات الإناث.

نتائج الدراسة:

أولاً – نتائج الفرضية الأولى:

يرتبط رضا المعلم الوظيفي بما يواجهه من مشكلات في عمله. لذا، لا بدّ بدايةً من عرض هذه المشكلات التي تبين أنّ معلم

قضاء عكار يُعاني منها كما أثبتته نتائج التحليل الإحصائي، ثمّ تحديد مستوى الرضا لديه للتوصّل بعد ذلك إلى معرفة نوع العلاقة الارتباطية بين هذين المتغيرين.

أ – وصف المشكلات كظاهرة بشكل

عام:

اعتمدت الباحثتان لتفسير هذه الظاهرة المُميّزة لمعاناة المعلم في قضاء عكار ووصفها بشكل واضح إجراء تحليل وصفي شامل وعام لعينة الدراسة (ن=١٠٦٣) يعتمد بدوره على نتائج مقاييس التوزيع Distribution، التشتت Depression والنزعة المركزية Central Tendency.

ثمّ، تمّ حساب المتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية لاستجابات معلمي أفراد العينة التمثيلية (ن=١٠٦٣) على مستوى كل بند كل مجال، والدرجة الكلية لاستبانة المشكلات التربوية للوقوف على أهمّ ما يُعانيه معلم المرحلة الابتدائية في قضاء عكار من مشكلات وصعوبات يومية في وظيفته (انظر الجدول رقم ٢ ورقم ٣). لا بدّ من التذكير بتصنيفات المتوسطات الحسابية المُعمّدة للتعرفّ على حجم المشكلة لدى المعلمين وهي كالآتي:

* متوسط حسابي (١) وما دون: عدم وجود مشكلة.

التربوية Mean م=٤٠،١٧٧ وقد بلغ مستوى الانحراف عن المتوسط الحسابي ج ١ St deviation =٥٣٤،٣٧، بمعنى آخر، تتجمع أكثرية درجات المعلمين الكلية ضمن مستوى ٤٠،١٧٧ وهي مُصنّفة ضمن فئة المشكلات القليلة المُعتمدة في هذه الدراسة؛ وغالبية المعلمين يرون بشكل عام أنهم يواجهون مشكلات تربوية قليلة وخفيفة بشكل عام أثناء تأدية مهامهم.

* متوسط حسابي (١ - ٩٩،١): مشكلة قليلة.

* متوسط حسابي (٢ - ٩٩،٢): مشكلة متوسطة.

* متوسط حسابي (٣ - ٤): مشكلة كبيرة.

بلغ المعدل العام للدرجات الخام لعينة الدراسة على مستوى استبانة المشكلات

جدول رقم ٥ : المتوسطات الحسابية ، الانحرافات المعيارية ودرجة وجود المشكلة استبانة المشكلات لدى المعلم			
المجال	البند	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
١ - الإدارة المدرسية	١ - لا يشرك مدير المدرسة المعلمين في الشؤون الإدارية والتنظيمية	٢,٨٣	٠,٩٧
	٢ - لا تهتم الإدارة المدرسية بمعالجة مشكلات الطلبة أثناء تنفيذ البرنامج الدراسي	٢,٠٨	١,٠٤
	٣ - لا تساعد الإدارة المدرسية المعلمين في معالجة المشكلات التنظيمية والإدارية	١,٦٤	٠,٩١
	٤ - لا يشجع المدير المعلمين على تطوير أدائهم	١,٦١	٠,٩٠
	٥ - لا يوجد تواصل بين المعلمين والإدارة	٢,٥٣	٠,٨٧٣
	٦ - لا تهتم الإدارة بالأداء الفعال بل بالشكليات	١,٦١	٠,٨٧٤
	٧ - لا يُقيّم المعلم بطريقة موضوعية	١,٧٩	٠,٩٣٨
	٨ - لا تستجيب الإدارة لما يقترحه المعلم لتحسين الأداء	٢,٦٦	٠,٩٠٣
	٩ - لا يوزّع العمل على المعلمين وفقاً لأدائهم	١,٧٥	٠,٩٧٣
	الدرجة الكلية	٢٤,٢١	٩,٤٨٤
٢ - التفتيش التربوي	١ - يبالغ التفتيش في التركيز على النواحي الشكلية	٢,٠٣	١,٠٢٦
	٢ - لا يبذل المفتش جهوداً كافية لتوضيح أهداف المنهاج	١,٩٥	١
	٣ - أعاني من كثرة المطالب المكتنية الروتينية للتفتيش	١,٩٦	٠,٨٨
	٤ - لا يتيح لي التفتيش حرية المناقشة	١,٨٩	١,٠٢
	٥ - لا يتيح التفتيش فرص النمو المهني عبر الدورات التدريبية	١,٦٩	٠,٩٩
	٦ - لا يساعد التفتيش على توفير الوسائل التعليمية	١,٨٢	٠,٩٧٤
	٧ - لا يساعد التفتيش على تجديد أساليب التقويم	٨٦,٠١	٩٨٧,٠٠
	٨ - لا يساعدني المفتش في التغلب على المشكلات التدريسية التي تواجهني أثناء عملي	١,٨٤	٠,٩٦
	٩ - زيارات المفتش التربوي إلى المدرسة هي قليلة	٠,٣٠٢	١,٠٦
	الدرجة الكلية	٣٨,٢٤	٧,٤٥٩

متوسطة	٠٦٨،١	١١،٢	١ - لا تتوافر الوسائل التعليمية في المدرسة	٣ -
متوسطة	٠٣٩،١	١١،٢	٢ - لا يسهل الحصول على وسائل تعليمية مناسبة للدرس	الوسائل التربوية
متوسطة	٢٣٥،١	١٨،٢	٣ - لا يوجد مشرف للوسائل التربوية	
قليلة	٧٨٩،٠	٦٠،١	٤ - أقوم بشراء الوسائل التعليمية على حسابي الخاص	
متوسطة	١١٩،١	٠٣،٢	٥ - لا تُوفّر المدرسة الوسائل التعليمية الحديثة	
متوسطة	٨٤،٠	٤٥،٢	٦ - لا تتوفر في المدرسة غرف مخصصة لاستخدام الوسائل التعليمية	
متوسطة	٦٠٨،٤	٤٩،١٣	الدرجة الكلية	
قليلة	٩١٦،٠	٧٨،١	١ - توجد مشاكل في التعامل مع الطلبة داخل الصف	٤ -
كبيرة	١٩،٠	٣	٢ - توجد مشاكل في التعامل مع الطلبة بسبب عدم التزامهم بتنفيذ الواجبات المدرسية	التعامل مع الطلبة
قليلة	٧٧،٠	٢٠،١	٣ - يصعب عليّ السيطرة على الصف بسبب بعض التلاميذ ذوي الأعمار الكبيرة	
كبيرة	٧٤،٠	٥٠،٣	٤ - يصعب عليّ السيطرة على الصف بسبب وجود عدد كبير من التلامذة	
قليلة	٧٣،٠	٤٣،١	٥ - توجد مشاكل مع الطلبة بسبب ضعف تحصيلهم الدراسي	
قليلة	٧٩،٠	٥٢،١	٦ - توجد مشاكل مع الطلبة بسبب إحجامهم في المشاركة أثناء شرح الدرس	
قليلة	٠،٨٣	٧٧،١	٧ - يلجأ المعلم للضرب بسبب عدم التزام الطلبة بقواعد الانضباط الصفّي	
قليلة	٨١٩،٣	٢،١٤	الدرجة الكلية	
متوسطة	٨٩،٠	٢١،٢	١ - بناء المدرسة قديم ولا تتوافر فيه الشروط الصحية	٥ - ظروف العمل المادية
كبيرة	٩٢،٠	٢٤،٣	٢ - يحيط بالمدرسة الكثير من الضوضاء	
كبيرة	٩١،٠	٢٥،٣	٣ - غالبًا ما تكون الإضاءة داخل الصف غير جيّدة	
متوسطة	٩١،٠	٣٠،٢	٤ - الشروط الصحية السليمة غير متوفرة داخل الصف: إنارة جيّدة، هواء نظيف...	
كبيرة	٢٠،١	٤٦،٣	٥ - غرفة الصف ضيقة وغير ملائمة لعملية التدريس	
كبيرة	٧٧٢،٣	٤٥،١٦	الدرجة الكلية	

لا بدّ بدايةً من التذكير بالفئات التصنيفية المُعتمدة على مستوى مقياس الرضا الوظيفي في الجدول رقم ٣. أوضحت نتائج القياس الإحصائي أنّ الرضا الوظيفي لدى معلمي المدارس الابتدائية في قضاء عكار هو مرتفع حيث بلغ المتوسط الحسابي للعينة $M = 63,257$ الذي يقع ضمن الفئات التصنيفية للرضا الوظيفي المرتفع. قد يرجع ذلك إلى العلاقات السائدة بين المعلمين، وزملائهم في المدرسة أو إلى عوامل أخرى سيتمّ عرضها بالتفصيل لاحقاً.

يكفي إلقاء نظرة سريعة على الجدول رقم ٥ بمعطياته كافة لإدراك واقع كون المشكلات المتعلقة بالمدرسة تتراوح، عموماً، ما بين المستوى المتوسط بالدرجة الأولى ثمّ القليل كما في المجالات: الإدارة المدرسية، الوسائل التعليمية، التفتيش التربوي وأخيراً التعامل مع الطلبة وذلك باستثناء ظروف العمل الماديّة حيث يتراوح بين المستوى الكبير والمستوى المتوسط.

ب - تحديد مستوى الرضا الوظيفي لدى معلمي المرحلة الابتدائية في قضاء عكار وفق نتائج القياس:

ج - العلاقة الارتباطية بين المشكلات التربوية والرضا الوظيفي:

تشير نتائج الجدول ٦ إلى وجود ارتباط عكسي قوي ودال إحصائياً بين الدرجة الكلية لكل من مقياس الرضا الوظيفي، والمشكلات التربوية حيث بدت قيمة (ر) دالة عند مستوى ٠,٠١ في ارتباطها بين الدرجة الكلية للمشكلات التربوية وكل مجالات الرضا الوظيفي. استناداً إلى ما سبق، نقول إنَّ الفرضية العاشرة قد تحققت بصورة كاملة.

ثانياً - نتائج الفرضية الثانية:

نصَّ الفرضية: توجد علاقة ارتباطية طردية بين رضا المعلم الوظيفي وأدائه التدريسي.

من الضروري تحديد مستوى الأداء التدريسي للمعلمين وفق نتائج القياس الإحصائي للتمكن من فهم وتحديد نوع

العلاقة الارتباطية مع الرضا الوظيفي.

أ - تحديد مستوى الأداء التدريسي لدى معلمي المرحلة الابتدائية:

لا بدّ بدايةً من التذكير بالفئات التصنيفية المعتمدة على مستوى متغير الأداء التدريسي استناداً إلى بنود القائمة وسلم الاستجابة الرباعي عليها (انظر الجدول رقم ٤)

بيّنت نتائج التحليل الوصفي لبيانات العينة الفرعية الخام (ن=٢٠٠ معلم مُقيّمين من قبل ٢٠٠٠ طالب) إنّ أداء معلم المرحلة الابتدائية في قضاء عكار بشكل عام هو جيد حيث بلغت قيمة الوسط الحسابي $Mean = 70,119$ وتقع ضمن الفئات التصنيفية للأداء الجيد.

ب - نوع العلاقة الارتباطية بين الرضا الوظيفي والأداء التدريسي:

* دالة عند مستوى ٠,٠٥ ** دالة عند مستوى ٠,٠١

الدرجة الكلية	٤ الحماس في العمل مع الطلاب	٣ الخطط والإجراءات الصفية	٢ العلاقات مع الطلاب	١ المعرفة وتنظيم المادة	جدول ٧: معاملات الارتباط بين الرضا الوظيفي والأداء التدريسي
٠,٧٤٦٠*	٠,٠٢٣	٠,٠٩٢	٠,٠٧٦	٠,٦٦	١. سياسة الإدارة والإشراف
٠,٦٨٦٠*	٠,٤٧	٠,٠٢٦	٠,٠٩٨	٠,٣١	٢. العلاقة مع الزملاء
٠,٣٤٩٠	٠,٠٠٨	٠,٠٨٠	٠,١٢٢	٠,٠٧٨	٣. الراتب
٠,٦٤٥٠*	٠,٠٠٢	٠,٠٧٩	٠,٠٢٩	٠,٠٧٠	٤. ظروف العمل
٠,٦٦٣٠*	٠,١٦١٠	٠,٢٣٠٠	٠,١٦٥٠	٠,١٧٣٠	٥. الأمان الوظيفي
٠,٧٨١٠*	٠,١٢٥	٠,١٧٠٠	٠,١٨١٠	٠,١٧٧٠	٦. التقدم والنمو في العمل
٠,٥٦٢٠*	٠,٠٥٠	٠,٠٤١	٠,٠٥٣	٠,٠٩٤	٧. المسؤولية في العمل
٠,٧٤٣٠*	٠,١٠٢	٠,٣٢٣٠	٠,٢٣٣٠	٠,١٤٠٠	٨. محتوى العمل
٠,٦٢٤٠*	- ٠,٠٢٣	٠,٠١٣	٠,١٣٤	٠,٠٤٢	٩. التميز في العمل
٠,١٤٨٠	٠,٠٦٤	٠,١٤٣٠	٠,١٦١٠	٠,١٣١	الدرجة الكلية

الوظيفي وأدائه التدريسي. بمعنى آخر، إن العلاقة ليست مُطردة تمامًا، وكل زيادة أو نقصان في درجة رضاه الوظيفي قد يُلازمه زيادة أو نقصان في درجة أدائه التدريسي.

ثالثًا - نتائج الفرضية الثالثة:

نصّ الفرضية: توجد فروق بين المعلمين والمعلمات على مستوى المشكلات التربوية. (جدول ٨)

يكشف الجدول (٧) وجود ارتباط إيجابي دال بين الدرجة الكلية لكلٍ من مقياس الرضا الوظيفي وقائمة الأداء التدريسي حيث بدت قيمة (ر) دالة عند مستوى ٠,٥٠ في ارتباطها بين الدرجة الكلية لمقياس الرضا الوظيفي والدرجة الكلية لقائمة تقدير الأداء ومجالي العلاقة مع الطلاب في الصف والخطط والإجراءات الصفية. بمعنى آخر، يُمكن القول إنَّ هناك أربعة وعشرين (٢٢) معمل ارتباط دال إحصائيًا من أصل خمسين (٥٠).

الدلالة	قيمة ت	عينة الإناث(ن=٩٦١)		عينة الذكور(ن=٥٦٩)		جدول رقم ٨: الفروق بين متوسط درجات المعلمين الذكور والإناث على مستوى المشكلات التربوية
		الانحراف	المتوسط	الانحراف	المتوسط	
٠,٦١٤ غير دالة	- ١,٣٩٤	٧,٧١٥	١٨,٩٧	٦,٦٧١	١٨,١٠	١ - الإدارة المدرسية
٠,٢٧٧ غير دالة	- ١,٠٨٨	٩,٨٠٣	٢٤,٤٥	٨,٥١٦	٢٣,٥٩	٢ - التفتيش التربوي
٠,٤٨٤ غير دالة	٠,٧٠	٤,٥٧٣	١١,٤٢	٤,٦٧٩	١١,٦٩	٣ - الوسائل التربوية
٠,٣٥٩ غير دالة	٠,٨٥٨	٣,٨٩٤	١٠,٧٦	٣,٣٤٩	١١,٠٣	٤ - الطلبة
٠,٣٢٩ غير دالة	- ٠,٩٨٥	٣,٤٩١	١١,٧٨	٣,٤٧١	١١,٢٥	٥ - ظروف العمل المادية
٠,٣٠١ غير دالة	- ١,٠٣٦	٠,٥٠٦	٢,٤٢	٠,٤٩١	٢,٤٠	الدرجة الكلية

تبدو قيمة (ت) في الجدول غير دالة على مستوى الدرجة الكلية للاستبانة وعلى مستوى جميع المشكلات؛ بمعنى آخر نقول، لا وجود لفروق ذات دلالة إحصائية

بناءً على ذلك، تُقبل الفرضية الثانية بمستوى الدلالة ٠,٥٠ ونرفضها بمستوى ٠,١٠. يدل ذلك على وجود ارتباط ضعيف، جزئي وموجب بين رضا المعلم

بين متوسط درجات المعلمين ومتوسط درجات المعلمات على مستوى الدرجة الكلية للمشكلات التربوية.

إذا، تُعدّل هذه الفرضية على الشكل الآتي: لا توجد فروق بين المعلمين والمعلمات على مستوى المشكلات التي تواجههم في العمل.

مناقشة النتائج وتأويلها في ضوء الفرضيات:

اتّفقت النتائج المتعلقة بالمشكلات التربوية مع فرضيات الدراسة حيث تبين وجود معاناة لدى المعلمين من مشكلات متعدّدة يتراوح مستواها ما بين القليل بالدرجة الأولى، والمتوسط بالدرجة الثانية ثمّ الكبير. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أهمّ المشكلات من وجهة نظر المعلمين هي ظروف العمل المادية. وقد يُعزى ذلك إلى أنّ أغلبية الأبنية المدرسية، خاصّة الرسمية منها في قضاء عكار هي قديمة (٨٥ مدرسة من أصل ١٤٧) ولا تراعي المعايير التربوية السليمة للوقوف على أحوال هذه المدارس عمدت الباحثتان إلى إجراء دراسة ميدانية توثيقية على عدد من المدارس الابتدائية الرسمية والخاصة كمحاولة منهما لتقديم صورة واقعية لها؛ يُمكن القول بشكل عام إنّ المدارس الرسمية المنشأة حديثاً هي الوحيدة التي تتمتع بالموصفات التربوية الجيدة للبناء المدرسي، لكن أغلبية

مدارس قضاء عكار الابتدائية لا تتحقّق فيها الشروط الصحيّة كافة، حتى تلك المُحقّقة بصورة جزئية في بعض الأبنية المدرسية، ولقد قامت الباحثتان بالتقاط بعض الصور كمحاولة لتوضيح هذا الواقع التربوي المتردّي. وبالتالي بقيت الخطة التربوية التي وضعتها وزارة التربية بخصوص تحسين مستوى الأبنية المدرسية بقيت حبراً على ورق ولم يتمّ تنفيذها على أرض الواقع.

(أنظر في فقرة الملاحق صور المدارس الرسمية ذات الأرقام ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥).

يتمثّل عدم ملائمة موقع المدارس الجغرافي بقربه من الضوضاء والشارع العام؛ وكما قالت إحدى المعلمات، يتمّ توقيف عملية التدريس في الصفوف لدقائق أثناء مرور شاحنة أو جرّار زراعي... يؤدّي ذلك طبعاً لانخفاض دافعية ونشاط كلّ من المعلم والتلميذ معاً، ويُساهم في خلق جوّ بعيد عن التركيز والشعور بالدفع والقدرة على الإبداع العلمي والثقافي.

يُمكن القول، بعد هذا العرض الجزئي لبعض المدارس، إنّ أكثرية المدارس الرسمية مُعرّضة لضوضاء الطرقات العامّة نظراً لقرب بعضها من الشوارع العامة والأماكن المزدحمة بالسكان، ولقرب البعض الآخر من أماكن القاذورات، الأمر

الصحية السليمة داخل الصف (م=٢،٣٠ من أصل ٤ درجات). هذا، ولا تُعطي التقارير السنوية للمدارس في قضاء عكار المُتواجدة في المنطقة التربوية - دائرة الشمال معلومات كافية عن أحوال الغرف الصفية، فتُصبح مقارنتها بالقوانين التربوية أمرًا متعذرًا، تجدر الإشارة هنا إلى أننا قصدنا تحقيق الملاحظة والتصوير الفوتوغرافي التوثيقي لإيضاح ما نقوله بخصوص معاناة المعلمين داخل الغرف الصفية.

أغلبية المدارس لا تُؤمن المساحة الصفية الضرورية لكل طالب (مساحة ٢٥،١ م^٢) لأنها صُممت في الأصل لأبنية سكنية غير مُعدة للتدريس الأمر الذي ينعكس سلبًا على راحة كل من الطالب، والمعلم داخل عُرف التدريس بحيث لا يستطيع المعلم، والحالة هذه، متابعة سير العملية التدريسية بشكل جيد أو القيام بالنشاطات المنهجية المطلوبة التي تفرضها التربية الحديثة. وضيق المساحة هذا يؤثر على الاثنين من الواجهة الصحية والفيزيولوجية، والإنتاجية إذ يُخفّض طاقات التهوية ويؤدّي لظهور معالم الإعياء والتعب.

كما أن معظم الغرف الدراسية في مدارس قضاء عكار الرسمية ضيقة بحيث يصعب ترتيب الطاولة لتشكيل مجموعات

الذي يُسيء إلى كل من المعلم والتلميذ ويجعلهما عرضةً للتهوية غير الصحية التي تُساعد في انتشار الأمراض المعدية؛ والبعض الآخر هو قريب من محلات ميكانيك السيارات والمحلات التجارية، الأمر الذي يُشكّل عائقًا للعملية التدريسية بفعل الضجيج والحركة الناجمين عنهما، ويساهم في عرقلة عملية تكيف المعلم والتلاميذ ومدارس أخرى هي بجانب مجاري ريّ المياه أو جبانة دفن الموتى، وحتى هناك مدارس هي جزء من دور العبادة.

انطلاقًا من أحوال هذه المدارس نُسلم أنّ معظم المدارس لا تقع في جوّ هادئ وصحي، إذ، كما أشرنا، يقع معظمها وسط مناطق أهلة بالسكان وقريبة من الطرقات العامة التي لا تخلو من الحركة؛ وكل ذلك ينعكس سلبًا على المعلم والتلميذ معًا، كما على الجوّ التربوي بأكمله داخل الصف، فتُصبح المدرسة عديمة الفائدة وينبغي استبدالها.

وبخصوص غرفة الصف، يواجه المعلمون مشكلات متعددة تتعلق بضيق مساحة الغرفة الصفية (بلغت قيمة المتوسط الحسابي لهذه العبارة ٤٦،٣ من أصل ٤ درجات التي تُمثّل الحد الأعلى للإجابة)، الإضاءة غير الجيدة (م=٣،٢٥ من أصل ٤ درجات) وعدم توافر الظروف

متوسطة؛ وهي تتمثل بـ: عدم إشراك المعلم في الشؤون الإدارية والتنظيمية، عدم الاهتمام بحل مشكلاته مع الطلبة، غياب التواصل معه وعدم الأخذ بما يقترحه لتحسين أدائه. ينحصر السبب الأساسي لهذه المشكلات في قلة وعي مدير المدرسة بأهمية العلاقات الإنسانية الإيجابية والحميمة، ودورها والتي يجب أن تسود بينه وبين أفراد الهيئة التعليمية (نظرية العلاقات الإنسانية) إذ من الضروري أن يساهم بخلق جو ودي مع المعلمين، وإشراكهم بكل الأمور والقضايا الإدارية والتربوية ومناقشتها للتوصل إلى حلول تربوية صائبة وفعالة، وأن يُمثل، أي المدير، دور الموجّه، المرشد، المساند والمعالج بالنسبة إليهم لتتلاشى أمامهم الصعوبات والمشكلات على جميع أنواعها والتي قد يواجهونها خلال أدائهم واجبهام التعليمي.

يمكن تفسير سبب عدم اعتماد مديري مدارس عكار الابتدائية نظام الإدارة بالمشاركة لاقتناعهم بضرورة وضع حاجز بين الجهاز الإداري وأفراد الهيئة التعليمية لضرورة سلامة العمل التربوي، هذا ما تمّ توضيحه من قبل أحد المديرين في عكار؛ لا بدّ من وضع حواجز في التعامل مع المعلمين، واستخدام الصلاحيات الإدارية مع البعض منهم خاصة مع الذين يتسمون بمزايا وصفات نفسية واجتماعية معينة.

تتباحث وتناقش، يُضاف إلى ذلك خطورة النوافذ المُحطّمة، ما يضطر المعلم غالباً أن يستأذن من زميل له في الصف المُجاور للتخفيف من ضجيج صفّه حتى يتمكن من استكمال ما يقوم به من الشرح وتوضيحه.

إذًا، هناك فقط سبع مدارس رسمية جديدة تتمتع، الغرف الصفية ضمن إطارها، بالمواصفات المحدّدة. أمّا باقي المدارس الرسمية الابتدائية لا تمتلك الأثاث اللازم، ووسائل الإضاءة، التهوية، التبريد والتدفئة؛ نوافذها مُكسّرة وأبوابها عصيّة على الإغلاق، جدرانها متسخة أو مطلية بدهان مرّ عليه زمن طويل، بالغبار وبكتابات التلاميذ.

ويبدو أنّ هذه المشكلات متأصلة في المدارس الابتدائية إذ كشفت كل من دراسة (الناظر، ١٩٩٩ م) (٩)، (عمار، ٢٠٠٦ م) (١٦)، (الحصني، ٢٠٠٨ م) (٢) و(نجيب، ٢٠٠٩ م) (٢٤) عن وجود المشكلات نفسها. وبالتالي على وزارة التربية والتعليم إعطاء هذا النوع من المشكلات عناية خاصة، إذا أرادت النهوض بالتعليم الرسمي في قضاء عكار المحروم كي يتماشى مع متطلبات التطوير التربوي، وكي تنسجم برامجها مع الخطط المستقبلية للتربية ومع توجيهها التعليمي.

تبيّن مواجهة المعلمين بالدرجة الثانية لمعوقات مع الإدارة المدرسية بدرجة

أفكار جديدة؛ واستخدام أساليب مُنوّعة في التدريس نظرًا لاستنفاد طاقاته بمحاولة حلّ مشكلاته مع الطلبة التي أُلقيت بأكملها على كاهله. هذا ما توصلت إليه نتيجة دراسة المرشدي (٢٠٠٨) (٦) حيث أوضحت غياب التعاون بين إدارات المدارس والمعلم في حل مشكلاته مع الطلبة. لذا، لا بدّ من مدير المدرسة مدّ يد العون للمعلم لحلّ ما يواجهه من صعوبات، وللإصغاء لوجهات نظره بهدف حتّه لإجراء التجديد المناسب في العمل المدرسي ورفع مستوى نموه المهني.

أما المشكلة الثالثة فهي مشكلة الوسائل التربوية حيث تتمثّل، بدرجة متوسطة، في: عدم توافر الوسائل التعلّيمية في المدارس، عدم وجود مشرف على هذه التقنيات وصعوبة الحصول على وسائل مناسبة للدرس. لكن، بدرجة أقل، هناك مشكلات أخرى تُعيق استعمال التقنيات التربوية مثل: شراء الوسائل التعلّيمية على حساب المعلم الخاص؛ بالإضافة إلى عدم توافر غرف مخصّصة ليتمّ استخدامها في المدارس. هذه النتيجة، على مستوى مدارس التعليم الابتدائي في قضاء عكار، تُعزى إلى قلّة الاهتمام من قبل وزارة التربية والتعليم بهذه المدارس، بخاصّة المدارس الرسمية إذ إنّ أغلبيتها تعاني من قلّة توافر الوسائل التعلّيمية على الرغم من أهميتها ودورها في

استنادًا إلى الإطار النظري للدراسة نقول، إنّ عدم اعتماد مديري مدارس عكار أسلوب القيادة بالمشاركة يعود إلى شعورهم أنّ بعض المعلمين يهدّدون أمنهم الوظيفي، وقوتهم الذاتية الأمر الذي يدفعهم إلى استخدام القوّة؛ وممارسة التحكم وعدم السماح لهم بأخذ المبادرة للحفاظ على مكانتهم، ودورهم القيادي أمام الطلاب وباقي المعلمين. تؤكد هذا التوجّه النتائج الإحصائية على مستوى مقياس الرضا الوظيفي حيث بدت درجة رضا المعلمين أفراد العينة على فقرة يعمل مدير المدرسة على الوقيعة بين المعلمين مرتفعة جدًّا.

بدت هذه النتيجة متوافقة مع ما توصلت إليه دراسة درويش (٢٠٠٥) (١٤) من أنّ معلمي التعليم الرسمي، والخاص في شمال لبنان يواجهون صعوبات في أسلوب الإدارة المتّبع في المدارس التي يدرّسون فيها.

أما بخصوص عدم اهتمام إدارات المدارس بمعالجة مشكلات المعلم مع تلامذته، أثبتت من جديد ما توصلت إليه هذه الدراسة على مستوى مواجهة المعلم مشكلة إهمال التلامذة لواجباتهم المدرسية. من المسلّم به، أنّ عدم مساعدة المعلم في حلّ هذا النوع من المشكلات يؤثّر سلبيًا على أدائه التدريسي، ويُقلّل من دافعيته لإحداث التّغيير الإيجابي من ناحية تطبيق

بعدم وجود جهة يعتمد عليها المعلم في توفير متطلّباته التقنية، والتربوية وعلى مستوى المعوقات الإجرائية التي تكمن في إيجاد صعوبات علمية، وعملية عند اختيار التّقنية المناسبة للموقف التعليمي.

لكن بمقارنة هذه النتيجة مع نتائج دراسات كل من (ناصر، ١٩٩٧م) (٢١) و(يونس، ٢٠١٠م) (١٣) يتبيّن أنّ معاناة مدارس عكار من مشكلة عدم امتلاك الوسائل التربوية تبدو شبه معدومة نظرًا لتصدّرها، كمشكلة، في هذه الدراسات (أي أنّها جاءت في المرتبة الأولى ضمن إطار هذه النتائج).

احتلّت المشكلات المتعلقة بالطلبة المركز الرابع بمستوى قليل نظرًا لعملية التفاعل الصفي بين المعلم، وتلاميذه المبنية على علاقات إنسانية متبادلة، ولنجاحه بإيجاد نوع من التكيّف الصفيّ السليم، وبتنظيم جوّ انفعالي واجتماعي فعّال داخل غرفة الصف على الرغم مما يواجهه من صعوبات. عند الإطلاع على متوسط فقرات هذا المجال يُلاحظ وجود معاناة لدى المعلمين من ارتفاع عدد التلامذة في الصف الواحد بسبب عدم ملاءمة الأبنية المدرسية وضيق مساحة غرفها الصفيّة. ولا يُمكن إغفال خطورة هذه المشكلة نظرًا لما تتركه من تأثيرات سلبية على المعلم (محدودية قدرته على خلق روح المشاركة والحوار داخل

تطبيق أهداف المناهج التربوية الجديدة. هذا ما أثبتته نتائج دراسة (درويش، ٢٠٠٥) (١٤) في مدارس طرابلس الرسمية في لبنان (مخايل، ٢٠٠٨) (١٤) و(الياس، ٢٠٠٥) (٤) في مدارس قضاء عكار.

قد تعود هذه المشكلة إلى عدم إعطاء الجهات المختصة في وزارة التربية أهمية لهذه الوسائل؛ نظرًا لعدم تخصيصها ميزانية مالية لشرائها. ولا يُمكن أيضًا إغفال المسؤولية الملقاة على عاتق المعلم بإبداء الحاجة إليها، إذ كلّما ارتفع الطلب إليها زادت نسبة اهتمام وزارة التربية والإداريين لتوفيرها في المدارس.

يُمكن إعادة سبب عدم طلب تجهيز الوسائل والتقنيات التعليمية إلى عدم وعي المعلمين في المدارس الرسمية بأهمية استعمالها في التدريس، ولجهلهم مدى الفائدة التي يحصل عليها الطلبة نتيجة استخدامهم لها نظرًا لتأثيرها على فهم، حفظ وإدراك الطلاب كما وعلى سرعة حصول العملية التعليمية وسرعة تحقيق أهدافها (١٥، ص ٨٠).

يلاحظ توافق هذه النتيجة مع ما توصلت إليه نتائج دراسة الياس (٢٠٠٥م) (٤) ومع ما أوضحه زيتون (٢٠١٢م) (١٢) في كتابه عن المعوقات والتحدّيات التي تقف أمام استعمال الوسائل التربوية على مستوى المعوقات العملية المُتمثّلة

الصف، صعوبة تطبيق الطرائق التّعليمية الحديثة كعمل المجموعات وصعوبة في متابعة جميع التلامذة بشكل مستمر). كل ذلك يؤدّي إلى ضعف التواصل بين المعلم والتلامذة وما يلحق ذلك من إهمال وتراجع في مستوى تحصيلهم العلمي.

لعلّ الأسباب السّابقة الذكر هي التي ساهمت في عدم التزام التلامذة بتنفيذ واجباتهم المدرسية بدرجة كبيرة كما عبّر معلمو أفراد عينة الدراسة. ويُمكن إرجاع سبب ذلك إلى مشكلاتهم الانفعالية نظرًا للأوضاع السياسية والمعيشية المتردية؛ إذ، في الأونة الأخيرة (٧، ص ٧٣)، هدّدت مناطق قضاء عكار أزمات سياسية صعبة تمثّلت في حرب مخيم نهر البارد الذي حصد شهداء للجيش اللبناني أتت حصّة شباب عكار كبيرة جدًا ضمن إطارها. إضافةً إلى تأثر مناطق عكار بما يحصل في سوريا الآن من أحداث عسكرية حيث كانت أغلبية العوائل الفقيرة، تعتمد في تأمين مُتطلّبات الحياة اليومية على عمليات التّهرب من المناطق الحدودية السورية؛ وبعد اندلاع المعارك، أُقفلت جميع المنافذ إلى المناطق السورية، الأمر الذي انعكس سلبيًا على الأوضاع الاقتصادية لهذه العوائل وأدّى إلى خلق جوٍّ من التوتر النّفسي، الانفعالي والاجتماعي لدى كلّ المراحل العمرية لأهالي مناطق عكار.

بيّنت نتائج القياس على مستوى مشكلات المعلم مع التفتيش التربوي، وجود مشكلة المبالغة في تركيز المفتشين على النواحي الشكلية وقلّة زيارتهم إلى المدارس العكارية (بدرجة متوسطة) الأمر الذي يعكس قصور التفتيش في تنفيذ مهامه التي تتمثّل بالمراقبة، والبحث في سير العملية التّعليمية والتربويّة في المدارس الرسمية والخاصة على السواء بقضاء عكار المحروم الذي يحتاج لكل الدعم والمساعدة من قِبَل المسؤولين التربويين، وبالاطلاع على الدفتر الرسمي الخاص بتدوين تقارير زيارات المفتشين التربويين التابع لإحدى مدارس عكار الرسمية يتبيّن جليًا هذا الإهمال. إذ تقتصر زيارة المفتش التربوي على التجوال في الممرات الرئيسة لإلقاء نظرة على المبنى المدرسي بشكل عام والصفوف والتلامذة بشكل خاص، من ثمّ تنفيذ بعض الأعمال الورقية والقانونية كالتدقيق في معاملات صرف الأموال، عدد الساعات، عدد الشّعب، عدد المدرّسين، ملف الموازنة... وفي حال امتلاكه الوقت الكافي يطلب دفاتر تحضير المعلمين للاطلاع عليها، من ثمّ الاجتماع بهم لإعطاء بعض النصائح التربوية العامة... يُستنتج من ذلك، اهتمام التفتيش التربوي بالأمر المتعلقة بالإدارة المدرسية مُهملاً دوره في تقديم المصادر التّعليمية للمعلمين

مستوى (٠١،٠) في الارتباط الملاحظ بين الدرجة الكلية لمقياس الرضا الوظيفي واستبانة المشكلات ومجالاتها الآتية: الإدارة المدرسية، التفتيش التربوي، الوسائل التعليمية، التعامل مع الطلبة وظروف العمل المادية.

تُحقّق هذه النتائج، بصورة شبه كاملة، صحة الفرضية الأولى وتتّفق مع ما توصلت إليه نتائج الدراسات السابقة بالنسبة إلى وجود علاقة ارتباطية سلبية بين المشكلات التي يواجهها المعلم في وظيفته ورضاه الوظيفي؛ من هذه الدراسات: دراسة أبو سييري (1996) Abouserie (26) ودراسة هيرن Hearn (2005) (٥) التي أوضحت تأثير مشكلات واستراتيجيات التّعليم سلبيًا على رضا المعلم الوظيفي، ومشاعره الداخليّة التي تساعد في تحقيق التكيف والتوازن النفسي والعملي في وظيفته.

كما كشفت نتائج الدراسة الراهنة عن وجود ٦٠ معمل ارتباط قوي؛ الأمر الذي يعكس تأثير ضغوط، ومشكلات التعليم على اتجاهات المعلم بخصوص طبيعة وظيفته إذ إنّ عدم توفير الظروف الملائمة للتدريس، غياب التواصل مع الإدارة والزملاء، قلّة فرص الترقية والتّقدم الوظيفي وتجاهل الحاجات التعليمية والشخصية للمعلم، جميعها أمور تساهم

وفي معرفة ما يواجهونه من مشاكل وصعوبات وهموم. يمكن القول، استنادًا إلى مبادئ مدرسة الإدارة العلمية، إنّ أسلوب التفتيش التربوي المتّبع هو غير علمي وغير عملي نظرًا لاهتمامهم بالنّواحي الشكلية، كما عبّر معلمو أفراد العينة؛ وبالإمكان تعزية أسباب هذا القصور إلى:

- * قلّة عدد المفتّشين التربويين.
- * أسباب خاصّة بجهاز التفتيش التربوي في إدارة التربية والتعليم.
- * تعدّد الأدوار والمهام التي يُكلّف بها المفتّش عند زيارته للمدرسة.
- * إتباع الطرق القديمة المتمثّلة بزيارة المدارس بصورة سريعة، وكتابة التقارير التي غالبًا ما تكون شخصية وغير موضوعية.
- * ممارسة كلّ من التفتيش التربوي والإدارة المدرسية أسلوب يكاد يكون منفصلاً عن الآخر (٢٨، ص ٨٤).

تحليل نتائج الفرضية الأولى:

اتفقت النتائج المتعلقة بالمشكلات التربوية والرضا الوظيفي مع فرضيات الدراسة حيث وُجِدَت ارتباطات عكسية دالة إحصائيًا بين ما يواجهه المعلم من مشكلات في وظيفته ودرجة رضاه الداخلي الوظيفي. تشير نتائج القياس الخاصة بهذه الفرضية إلى وجود ارتباط قوي دال عند

في تقليص استمرار المعلم وسعيه لتحقيق أهدافه الذاتية وأهداف العملية التعليمية. بمعنى آخر نقول، إنه من الواجب تأمين متطلبات عملية التدريس ومتطلبات المعلم الذاتية حتى يتكامل فيها مع وظيفته وعمله؛ هذه الظروف تكمن من خلال تأمين بناء مدرسي متوافق مع الشروط التربوية، وسائل تعليمية مساعدة لعملية الشرح والتفسير، مناهج تربوية متوافقة مع قدرات المتعلمين، وإعداد المعلمين وتأهيلهم مهنيًا قبل ممارسة التعليم وأثناءه، واحترام المعلم وتقديره مهنيًا واجتماعيًا من قبل الإدارة والمعلماء. إضافةً إلى تأمين المكافآت العادلة والأجور المناسبة لتحقيق مستوى معيشي جيد ومُرضي.

يدعم تفسيرنا هذا ما تضمّنته دراسة ستريتر (2005) Straiter (35) من أنه كلما قلّت مسببات المشكلات التربوية النابعة من المعلم ذاته والوظيفة كلما ارتفع رضاه الداخلي والعكس.

هذا ما يفسّر سبب ارتفاع مستوى الرضا الوظيفي لدى معلمي المرحلة الابتدائية في عكار حيث جاءت معاناتهم من مشكلات تدريسية وتربوية بشكل عام، خفيفة ولم تتجاوز المستوى المتوسط الأمر الذي ساهم في ارتفاع درجة رضاهم الوظيفي وارتقاء مستوى إنجازهم الأدائي.

تعكس نتائج هذه الدراسة قوّة ولاء

معلمي قضاء عكار لوظيفتهم، والتمسك بها وعدم تركها إن بسبب الحاجة المادية، أو بفضل الفترة الزمنية التي قضوها في التعليم إذ تتكوّن، مع الزمن، روابط بين الإنسان والعمل الذي يقوم به فيعتزّ به ولا يريد تركه. يُمكن القول، في ضوء ما سبق، إنّ معلّمي المرحلة الابتدائية في قضاء عكار هم راضون عن حياتهم بشكل عام وعن وظيفتهم بشكل خاص.

✳ العوامل المساهمة في ارتفاع مستوى الرضا الوظيفي لدى أفراد العيّنة حسب نتائج القياس الإحصائي:

ساهمت كلّ من العوامل الوقائية المذكورة أدناه، بنسبة ٥٨٪ والعوامل الدافعة بنسبة ٤٣٪، في تشكيل مستوى الرضا الوظيفي الكلي لدى المعلمين إنّما بدرجات متفاوتة نظرًا لما أحدثته من آثار سلبية وإيجابية (انظر الجدول رقم ٦).

العوامل الدافعة	العوامل الوقائية
* رضا جيّد عن المسؤولية في العمل	* رضا جيّد عن العلاقة مع الزملاء.
* رضا جيّد عن محتوى العمل	* رضا جيّد عن ظروف العمل
* رضا مقبول عن التميّز في العمل	* رضا جيّد عن الأمان الوظيفي
* رضا مقبول عن النمو والتقدّم الوظيفي	* رضا مقبول عن سياسة الإدارة والإشراف
* رضا مقبول عن الإنجاز والأداء العملي	* رضا مقبول عن المعاش
* جدول رقم ٦: العوامل التي ساهمت في ارتفاع درجة الرضا لدى المعلمين في قضاء عكار	

اتجاه مدرسة العلاقات الإنسانية من أنّ الدعم الاجتماعي له دور مهم في حياة المعلم حيث يساهم في تخفيف إحساسه بالعبء، توفير الدعم التوجيهي والمهني له عبر مشاركة الزملاء في تحليل المشاكل وإيجاد الحلول المناسبة لها، تقليص مشاعر الإحباط والتشجّع وزيادة الطمأنينة والراحة النفسية لديه. إذاً، لا بدّ من العناية بالجانب الإنساني والأدائي على حدّ السواء لدى الفرد في العمل، على عكس ما توجّهت إليه بعض المدارس، والنظريات العلمية كالمدرسة الإدارية التي ركّزت فقط على الجانب الآلي بالسلوك البشري، وأهملت مشاعره وأحاسيسه الفردية والاجتماعية في العمل.

تحليل نتائج الفرضية الثانية:

أثبتت نتائج القياس الإحصائي صحّة هذه الفرضية حيث وُجدت ارتباطات إيجابية دالّة إحصائياً بين الدرجة الكلية لكلّ من قائمة الأداء التدريسي ومقياس الرضا الوظيفي عند مستوى ٠,٥٠. يدلّ ذلك على أنّ الارتباط هو ضعيف وجزئي؛ بمعنى أنّ هذه العلاقة ليست مُطردة تماماً، وأنّ ارتفاع مستوى الرضا قد يُساهم في ارتفاع مستوى الأداء.

لا تنفي هذه النتيجة ما أشارت إليه مدرسة العلاقات الإنسانية من أنّ العلاقة

استناداً إلى ما سبق، يعيش معلّمو قضاء عكار في جوّ من العلاقات الجيدة والفعالة مُتمثّلة بالتعاون، التآلف، المساعدة والثقة بعيداً من العلاقات الحزبية والوهمية؛ بمعنى آخر، يؤدّي غياب العوامل الصحية الوقائية لدى هؤلاء المعلمين إلى عدم الرضا الوظيفي. إذاً، العوامل الوقائية أو الصحية هي التي تسببت بارتفاع درجة الرضا الوظيفي لدى المعلمين بالدرجة الأولى؛ هذه النتيجة جاءت متناقضة لما ورد في نظرية هيرزبرغ Herzburg (١٩٥٩م) القائلة إنّ هذه العوامل ليس لديها إمكانية تحقيق مشاعر الرضا والسعادة لدى الموظفين وأنّها تقتصر فقط على منع مشاعر الاستياء لديهم. بخصوص العوامل الدافعة، ساهمت إلى حدّ ما في تحقيق الرضا الوظيفي لدى المعلمين وفي حثّهم وتشجيعهم على أداء مهامهم التعليمية بأسلوب جيّد كما بيّنت نتائج القياس الإحصائي لقائمة تقدير أداء المعلم في الدراسة الحالية.

لا تنفي هذه النتيجة ما أشار إليه ويلكي (2005) Wilke (36) من أنّ البيئة التعاونية من شأنها أن تزيد فرصة المعلم في تحسين مهاراته التعليمية، تحقيق أهدافه المتمثّلة بواجبه نحو طلابه، وبالتالي اختباره سعادة مهنية وشخصية تساهم في نجاح المؤسسة التي ينتمي إليها. كما تؤكّد

هو الأداء التدريسي الذي يقع عليه تأثير الرضا الوظيفي (المتغير المستقل) بوضوح أكثر، إنَّ ارتفاع مستوى رضا المعلم الوظيفي في قضاء عكار هو الذي ساهم في ارتفاع مستوى أدائه التدريسي.

تعكس النتائج الإحصائية، على مستوى متغيّر الأداء التدريسي، قدرة المعلمين العالية على الإبداع والابتكار ووجود معدّل فوق العادي في إنجاز العمل لديهم حيث تبين أنَّ مستوى أداء المعلمين جيّد على مستوى الدرجة الكلية لقائمة تقدير أداء المعلم ومجالاتها الأربعة: المعرفة وتنظيم المادة الدراسية، الحماس في العمل مع الطلاب، العلاقات مع الطلاب في الصف والخطط والإجراءات الصفية. يمكن اعتبار هذه النتيجة بمثابة ميزة إيجابية تساهم إلى حدّ ما في رفع مستوى التعليم، والتربية ضمن هذه البقعة الجغرافية المحرومة من كل الامتيازات والمساعدات خاصة في المناطق الجردية ذات الطابع الثقافي المتدني. تتعارض هذه النتيجة مع ما بيّنته نتائج دراسة الإسكندراني (٢٠٠٤م) (١) على عينة من معلمي مدارس بيروت الابتدائية من حيث وجود مستوى أداء مهني متوسط لدى المعلمين.

في إطار التفسير النظري، يبدو أنَّ شعور المعلم بالرضا الوظيفي هو أحد العوامل التي دفعته إلى ممارسة سلوكيات

بين الرضا والأداء هي خطية بسيطة بل تقف في وجه تفسيرات المدرسة السلوكية التي أوضحت أنَّ العلاقة بين هذين المتغيرين هي معقّدة وتتحدّد بقيمة العوائد التي يحصل عليها المعلم (١٢، ص ٨٠)؛ تبين، استناداً إلى نتائج التحليل الإحصائي أنَّ أقلّ المجالات تأثيراً على رضا المعلم الوظيفي هي التي تتعلق بالرواتب الأمر الذي يؤكّد أنَّ العوائد المادية ليس لها تأثير كبير على أداء المعلم التدريسي.

في ظلّ وجود علاقة ارتباطية بين الرضا والأداء يطرح التساؤل الآتي نفسه: هل الأداء التدريسي يتبع الرضا الوظيفي؟ أم العكس؟ تكمن الإجابة عن هذا التساؤل من خلال التدقيق بالنتائج الإحصائية على مستوى هذه الفرضية والتي أوضحت أنَّ الأداء التدريسي هو الذي يتبع الرضا الوظيفي؛ تبين وجود معامل ارتباط قوية بمستوى معنوية ٠،١٠ بين الدرجة الكلية لقائمة تقدير الأداء، ومجالات مقياس الرضا الوظيفي (٨ معامل ارتباط دال عند مستوى ٠،١٠ من أصل ١٠ مجالات) ووجود معامل ارتباط ضعيفة بين الدرجة الكلية للرضا الوظيفي، وجميع مجالات قائمة التقدير (٢ معامل ارتباط منعدم و٢ معامل ارتباط ضعيف) الأمر الذي يدلّ على تأثر أداء المعلم بعوامل الرضا الوظيفي بدرجة كبيرة على مستوى دراستنا. المتغير التابع

إيجابية تجاه عملية التعليم، وتجاه الطلاب بالتطوير الذاتي لأنفسهم من جهة وبالتحمس لأداء مهامهم التعليمية من جهة ثانية.

لا يُمكن، أيضًا، إغفال دور العلاقات التعاونية والتكاملية السائدة بين المعلمين في مدارس عكار الابتدائية، فقد ساهمت في زيادة درجة تفانيهم في أداء الواجب التعليمي والتدريسي ورفع مستوى اهتمامهم بتنفيذ الخطط والإجراءات الصفية. يتلاقى ذلك مع ما توصلت إليه نتائج تجارب الهاوثورن (Hawthorne) (مدرسة العلاقات الإنسانية ١٩٣٢م) من أنّ العمل ضمن مجموعات متجانسة متعاونة تدفع بالأفراد إلى التفاني في أداء عملهم تحت كل الظروف. بناءً على ذلك نقول، تقف نتائج الدراسة في صف مناصري المدرسة الإنسانية التي بيّنت وجود ارتباط بين الأداء الوظيفي، وطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في العمل وترفع رايات كُتّاب، وباحثي المدرسة السلوكية التي تنبّهت إلى دور الجو الإيجابي، والتعاوني في مواقع العمل واعتبرته أحد العوامل المساهمة في فتح أبواب الإبداع الأدائي لدى العاملين.

يُلاحظ أنّ نمط السّلطة وأسلوب الإدارة التسلّطي المتّبع في مدارس عكار الابتدائية لم يكن له دور مهم في تحديد مستوى أداء المعلم. يمكن تعزية سبب ذلك إلى وعي

المعلم حيث يحقّق داخل صفه حاجاته العليا الداخلة ضمن عوامل هيرزبرغ الدافعة وهي: تحمّل مسؤولية تنفيذ أهداف المنهاج التعليمي، تولّي قيادة وتوجيه التلامذة، ممارسة النفوذ عليهم واتخاذ القرارات الخاصة بهم. كلّ ذلك أعانهم على تقدير ذاتهم. ساعد هذا الواقع، المعلمين في تخطّي الممارسات التي ينتهجها مديرو المدارس المتمثلة بإغلاق قنوات الاتصال مع الكادر التعليمي، ومحاولة خلق مشكلات بينهم كما عبّر أفراد عينة الدراسة.

كخلاصة، ليس للعوامل الإدارية دور في رفع أداء المعلم التدريسي بل إنّ إشباع حاجاته الإنسانية داخل غرفة الصف (المسؤولية، القيادة، النفوذ واتخاذ القرارات) هي التي تحدّد سلوكه الأدائي وتفتح أمامه مجالات الإبداع العملي. تختلف هذه النتيجة عن توجّهات بعض النظريات والمدارس العلمية كمدرسة العلاقات الإنسانية التي أشارت إلى ضرورة استخدام الأسلوب القيادي التعاوني في المنظمات من أجل رفع مستوى أداء العاملين الوظيفي. كما تختلف هذه النتيجة عن نتائج دراسة الإسكندراني (٢٠٠٤م) (١) على عينة من معلمي مدارس بيروت الأساسية والتي أشارت إلى وجود ارتباط إيجابي بين اتجاهات المعلمين نحو الإدارة وأدائهم التدريسي.

لا يعني انعدام الاختلاف بينهما من حيث إدراك هذه المشكلات إنما يشير إلى تشابهها على مستوى الحجم؛ ولما كانت العوامل الإدارية والتنظيمية والثقافية السائدة في مؤسسة تعليمية ما تؤدي دوراً مهماً في الاستجابة لمواقف العمل المختلفة بما فيها من ضغوط ومشكلات، فإنّ التغيرات الطارئة على المؤسسة تؤدي إلى توحيد المسؤوليات الملقاة على عاتق المعلمين في ما يتعلّق بالعمل، الأمر الذي يترتب عليه - بطبيعة الحال - تعرّضهم جميعاً لمشكلات تكاد تكون على القدر نفسه من حيث النوع والشدة.

كما لا يكمن إغفال دور البيئة التي يعمل ضمنها المعلمون والمعلمات وتمائنها وتشابهها على مستوى متغيرات المرحلة التعليمية، سياسة التعيين، الرواتب، العلاقات، الحوافز وغيرها من المميزات. بمعنى آخر، إنّ غياب الفروق بين مجموعتي الدراسة يعكس تقارباً في العوامل التي تشكّل الواقع المعاش لكليتي المجموعتين.

تطابقت هذه النتيجة مع نتائج دراسة (يونس، ٢٠١٠ م) (١٣) و(عمرمان والنواجعة، ٢٠١١ م) (١٧) الذين توصلوا إلى عدم وجود فروق في استجابات المعلمين طبقاً للجنس.

أمّا على مستوى مجالات المشكلات التربوية الأخرى (الإدارة، التفيتيش، الطلبة)

تُظهر النتائج عدم تأثر أداء المعلم بالجانب الاقتصادي والمردود المالي الذي يحصل عليه؛ أتى مستوى أداء المعلم مرتفعاً على الرغم من تدني درجة رضاه عن الرواتب والحوافز المادية عن المستوى المطلوب. تعكس هذه النتيجة اهتمام المعلمين بتحقيق حاجاتهم العليا (تحقيق الذات، القيادة، المسؤولية، التقدير) بالدرجة الأولى وأنّ الرواتب والحوافز المادية هي حاجات دنيا لا تحتلّ مركزاً مهماً في سلم أولوياتهم. تتفق هذه النتيجة مع ما ورد في هرمية ماسلو Maslow (١٩٤٣) للحاجات الإنسانية من أنّ الراتب هو من الحاجات الفيزيولوجية المادية الدنيا، وأثبتت فعلاً أنّ العوامل الوقائية الصحية (الراتب، سياسة الإدارة، الأمان....) التي حدّدها هيرزبرغ Herzburg (١٩٥٩ م) هي غير قادرة وحدها على نسج مشاعر الرضا لدى المعلم.

تحليل نتائج الفرضية الثالثة:

استناداً إلى النتائج الإحصائية، لم تتحقّق هذه الفرضية حيث لم تظهر فروق ذات دلالة إحصائية بين المعلمين، والمعلمات في الدرجة الكلية لاستبانة المشكلات التربوية ومجالاتها كافة.

وغياب الفروق بين المجموعتين، على مستوى الدرجة الكلية لاستبانة المشكلات،

الصف الواحد؛ وبالتالي إتاحة الفرص أمام المعلم لتطبيق أنواع الأنشطة التربوية والتعليمية كافة.

كما يجب التنبيه إلى ضرورة إجراء دورات تدريبية فعّالة ومؤهلة للمعلمين في كليات التربية ودور المعلمين، والمعلمات وتأمين الوسائل التربوية في المدارس بهدف رفع مستوى تأهيلهم العلمي، والعملية بخصوص المناهج التعليمية وطرق التدريس الحديثة.

ومن الضروري الاهتمام قدر المستطاع بـ: تقليص الأعمال الإدارية والتربوية المطلوب من المعلم تنفيذها خارج نطاق عملية التدريس، توفير المزيد من الاستقلالية والحرية داخل الصف؛ لتقوية ثقته بنفسه أكثر ولتحفيزه لعملية التعليم بدرجة أكبر وحث أولياء أمور الطلاب على ضرورة التعاون مع المدرسة؛ بهدف مناقشة أمور أبنائهم ومحاولة تجاوز مشكلاتهم التربوية التحصيلية.

لا بدّ، كذلك، من إتاحة الفرصة للمعلمين المتعاقدين في قطاعي التعليم الرسمي والخاص بالدخول إلى ملاك وزارة التربية بهدف رفع درجة أمانهم، واستقرارهم الوظيفي وللمساهمة في رفع إنتاجيتهم وأدائهم العملي.

تبيّن أنّ نتيجة الدراسة تختلف عن نتيجة دراسة كلّ من دراسة (الطراونة، ٢٠٠٠م) (٣) من أنّ المعلمات يواجهن مشكلات مع الطلبة أكثر من المعلمين، دراسة (خليفة والزغلول، ٢٠٠٣م) (٢٢) من أنّ المعلمات يعانين من صعوبات على مستوى الإدارة المدرسية، التفتيش التربوي والطلبة أكثر من المعلمين.

التوصيات:

تقترح الباحثان، في ضوء نتائج الدراسة، بعض التوصيات أهمّها عقد المفتشين التربويين اجتماعات فصلية مع المعلمين يتمّ خلالها عرض مشكلاتهم ومناقشتها ومحاولة إيجاد حلول مناسبة لها، إخضاع مديري المدارس الابتدائية، الرسمية بشكل خاص، لدورات خاصّة بمهامهم الإدارية لجعلهم أكثر قدرة على مواجهة مشكلاتهم مع المعلمين والتلامذة على السواء وتعيين مرشدين اجتماعيين ونفسيين في المدارس بهدف تذليل صعوبات المعلمين والتلامذة بشكل عام.

لا يُمكننا إغفال الدعوة إلى ضرورة تأمين أبنية مدرسية جيّدة تتوافر فيها غرف صفيّة مريحة؛ ومجهّزة بالمواد الأولية الضرورية للعملية التعليمية بهدف تحسين مستوى ظروف العمل التربوي وتفادي مشكلة تضخّم عدد التلامذة في

المراجع

- المرحلة المتوسطة. مجلة جامعة دمشق، المجلد ١٦، العدد ١.
- ٩ - الناظر، حسن (١٩٩٩). الأبنية المدرسية في قضاء عكار. رسالة ماجستير في التربية غير منشورة، الجامعة اللبنانية، كلية التربية، الفرع الأول.
- ١٠ - جلول، آمنة (٢٠١٠). المناهج التربوية الجديدة ما لها وما عليها. دراسة تقويمية ميدانية خلال عقد من الزمن. رسالة دبلوم الدراسات العليا غير منشورة في علم اجتماع التربية، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية.
- ١١ - درويش، رنا (٢٠٠٥). التعليم الخصوصي في طرابلس. رسالة ماجستير غير منشورة في علم الاجتماع التربوي، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث.
- ١٢ - زيتون، كمال عبد الحميد (٢٠١٢). تكنولوجيا التعليم في عصر المعلومات والاتصالات. بيروت، عالم الكتب.
- ١٣ - يونس، كمال خليل (٢٠١٠). المشكلات التي تواجه المعلمين في منطقة الخليل التعليمية في القدس أثناء ممارسة التعليم. المجلة الفلسطينية للتربية المفتوحة عن بعد، المجلد ١، العدد ٢، كانون الأول.
- ١٤ - مخايل، وسام (٢٠٠٨). مواصفات العمالة التربوية في المدرسة الرسمية بمراحل الروضة والأساسية (نموذج عكار). مذكرة بحث غير منشورة لنيل شهادة الجدارة في علم اجتماع العمل. الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث، القبة - طرابلس.
- ١٥ - منصور، طلعت والبيلاوي، فيولا (١٩٨٨). قائمة التقدير لأداء المعلمين: كراسة التعليمات. مكتبة الأنجلو المصرية، مصر.
- ١٦ - عمار، زهور (٢٠٠٦). واقع المباني المدرسية في بلدة فنيديق - عكار. دراسة ميدانية لوزارة الشؤون الاجتماعية في عكار.
- ١٧ - عرمان، إبراهيم والنواجة، محمود (٢٠١١). المعوقات التي تواجه معلمي التربية في الموقف التعليمي في محافظة الخليل. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الرابع والعشرون (٢).
- ١ - الإسكندراني، سعاد (٢٠٠٤). اتجاهات معلمي الحلقة الأولى والثالثة من التعليم الأساسي في بيروت نحو مدير المدرسة وعلاقتها بأدائهم الوظيفي. رسالة ماجستير غير منشورة في الإدارة التربوية، الجامعة اللبنانية، كلية التربية، الأونيسكو.
- ٢ - الحصري، يمنى سعيد (٢٠٠٨). ازدحام الصفوف داخل المدارس الرسمية: أسبابه وأثره على التحصيل - التعليمي: دراسة ميدانية في طرابلس. رسالة دبلوم دراسات عليا غير منشورة في علم اجتماع التربية. الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث.
- ٣ - الطراونة، إخليف (٢٠٠٠). المشكلات التي تواجه التعليم المهني في محافظة الكرك كما يدركها المديرون والمعلمون. مجلة جامعة الملك عبد العزيز للعلوم التربوية، المجلد ١٣.
- ٤ - الياس، عفاف (٢٠٠٥). الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للأساتذة المتقاعدين في المرحلة الابتدائية والمتوسطة من مرحلة التعليم الرسمي في قضاء عكار. رسالة دبلوم غير منشورة في علم الاجتماع التربوي، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث.
- ٥ - آل نهيان، شمة محمد بنت محمد بن خالد (٢٠٠٩). المرأة العاملة والرضا الوظيفي في دولة الإمارات العربية المتحدة، لا دار نشر.
- ٦ - المرشدي، طارق بن منير بن سعد (٢٠٠٨). المشكلات التي تواجه معلمي ذوي صعوبات التعلم في مدارس البنين الابتدائية. رسالة ماجستير منشورة في قسم المناهج وطرق التدريس، جامعة أم القرى، كلية التربية، المملكة العربية السعودية.
- ٧ - المركز التربوي للبحوث والإنماء (٢٠٠٩). واقع التعليم في لبنان وبدائل مستقبله. ط ١.
- ٨ - المشعان، عويد (٢٠١٠). مصادر الضغوط في العمل لدى المعلمين الكويتيين وغير الكويتيين في

المراجع الأجنبية:

25. Abelson, M. A. (1986). Strategic management of turnover: A Model for the health service administrator. *Health Care Management*, 11 (2), 61-76.
26. Abouserie, R. (1996). Stress, coping strategies and job satisfaction in university academic staff. *Educational Psychology*, 16 (1), 49-56.
28. Daily, R. C. (2000). *Understanding People in Organizations*. ST. Paul, MN: West publishing company.
30. Kahn, H. & Cooper, C. L. (2009). *Stress in the Dealing Room; Height Performers under Pressure*. London: Routledge.
31. Lester, P.E. (1982). Teacher job satisfaction questionnaire. Long Island University. Brookville; New York. In Victoria M. Hughes (2006). Teacher Evaluation Practices and Teacher Job Satisfaction. Unpublished PhD Dissertation University of Missouri-Columbia.
32. Luthan, F. (2005). *Organizational Behavior*. New York: McGraw-Hill Company.
33. Maslow, A. H. (1987). *A Theory of Human Motivation: Motivation and Work Behavior*. New York: McGraw-Hill Company.
34. Quick, J. C. & Quick, J. D. (2000). *Organizational Stress and Preventive Management*. New York: McGraw-Hill Company.
35. Straiter, k. (2005). The effects of supervisor's trust of subordinates and their organization on job satisfaction and organizational commitment. *International Journal of Leadership Studies*. Available at <https://www.regent.edu/acad/global/publications/ijls/ne/vol1iss1/straiter/trust/pdf>
36. Wilke, R. (2005). *Improving Teaching and Learning*. USA: Scarecrow education.
- ١٨ - صابونة، سحر محمد فاروق (٢٠٠٨). تقنيات التربية والتعليم في الفصل المدرسي، دراسة مقارنة بين المؤسسات الرسمية والخاصة في طرابلس. رسالة ماجستير غير منشورة في علم اجتماع التربية. الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث.
- ١٩ - سيزلاقي، أندرو ووالاس، مارك (٢٠٠٦). السلوك التنظيمي والأداء. ترجمة جعفر أبو القاسم أحمد، الرياض، معهد الإدارة العامة.
- ٢٠ - شحيبي، محمد أيوب (١٩٩٥). دور علم النفس في الحياة المدرسية. دار الفكر اللبناني، بيروت.
- ٢١ - ناصر، إبراهيم عبد الله (١٩٩٧). المشكلات التي تواجه المعلمين أثناء العمل في المنصورة. رسالة ماجستير منشورة في التربية، جامعة المنصورة، كلية التربية، المنصورة.
- ٢٢ - خليفات، عبد الفتاح والزغلول، عماد (٢٠٠٣). مصادر الضغوط النفسية لدى معلمي مديرية محافظة الكرك وعلاقتها ببعض المتغيرات. مجلة العلوم التربوية، كلية التربية، جامعة قطر، العدد ٣.
- ٢٣ - ناصر الدين، محمد علي (٢٠٠٩). المناهج الجديدة للتعليم في لبنان بين الأهداف ومشكلات التطبيق. رسالة دبلوم الدراسات العليا غير منشورة في علم الاجتماع التربوي. الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية.
- ٢٤ - نجيب، إنعام (٢٠٠٩). البناء المدرسي وتأثيره في عمليتي التعلم والتعليم. دراسة ميدانية مقارنة في عينه من مرحلة التعليم الأساسي في منطقة الجومة - عكار. بحث تربوي غير منشور أعد لنيل شهادة الإجازة الفنية في العلوم التربوية، معهد طرابلس الفني الرسمي.

دراسة تطبيقية لنموذج جديد في المناخ الفسيولوجي بين قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح وقرينة ثوم

د. أحمد ياسين

تفاعل الإنسان مع الظروف المناخية وبالتالي تحديد شعوره بالراحة الفسيولوجية، وإنه لمن الصعب تقييم مدى استجابة الإنسان تجاه أحد عناصر المناخ المختلفة كالحرارة أو الرطوبة أو سرعة الرياح، لأن هذه العناصر يكون تأثيرها معاً، وكل منها يعتمد على الآخر في درجة التأثير على أحاسيس الناس بالراحة، وبناءً على ذلك يتطلب حساب هذا التأثير على الخصائص الفسيولوجية والحسية للإنسان ومن ثم ترجمتها إلى لغة القياس من خلال التوصل إلى صيغ للراحة الفسيولوجية.

من أهم المقاييس التي اقترحها العلماء لقياس الراحة الفسيولوجية، قرينة الحرارة - الرطوبة (Thom Index)، والتي تأخذ بالحسبان الإعتبار تأثير عنصرين مناخيين بحسب تغير درجة الحرارة ومعدل الرطوبة وتأثيرهما على الراحة الفسيولوجية للإنسان. ثانياً قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح (Wind Chill Index)، والتي

ملخص البحث:

يعرف المناخ الفسيولوجي على أنه العلم الذي يهتم بدراسة تأثير العناصر المناخية على الإنسان، والتغيرات الفسيولوجية التي تحدث في الجسم نتيجة تلك التأثيرات، فعناصر المناخ الأساسية، كالإشعاع الشمسي والحرارة والضغط الجوي، والرياح والأمطار والرطوبة وبعض الظواهر الجوية الأخرى، تشكل منظومة معقدة ومتشابكة تمثل جزءاً من البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان متأثراً بتقلباتها وسيرها عبر الزمن، وهي التي حددت اتجاهاته وتطوره الذاتي سواء من الناحية الجسمانية أو النفسية أو الاجتماعية حيث يرتبط مع البيئة عن طريق نشاط حواسه ومنظومته العصبية، فتؤثر عليه سلباً أو إيجاباً في مواقع عمله وسكنه وجميع نشاطاته.

لقد اقترح العلماء مقاييس عديدة لمعرفة

تقيس الراحة الفسيولوجية بحسب تغير درجة الحرارة وسرعة الرياح.

إلا أنه وكما نلاحظ، فإن أيًا من القرينتين لا تقيس تأثير أكثر من عنصرين مناخيين، حيث أن القرينة الأولى تقيس عنصرَي الحرارة والرطوبة، والقرينة الثانية تقيس الحرارة وسرعة الرياح، من هنا انطلقت الفكرة في وضع تصنيف يجمع بين هاتين القرينتين، ويقاس العناصر المناخية الثلاثة السابق ذكرها ضمن معادلة رياضية واحدة، حيث يصبح بالإمكان قياس تأثير الحرارة والرطوبة وسرعة الرياح على الراحة الفسيولوجية ضمن قرينة واحدة.

بالطبع لا يمكن القيام بمثل هكذا دراسات ما لم نعتمد على التجربة في القياس، ما يعطي البحث قيمة فعلية وملموسة في النتائج، لذلك قمنا بتطبيق الدراسة بشكل فعلي على العناصر المناخية في منطقة لبنانية للخروج بالقرينة الجديدة.

مقدمة:

أحد الأسباب الرئيسية في وجود أكثر من قرينة أو مخطط لقياس تأثير المناخ على الراحة الفسيولوجية للإنسان، يعود إلى تعدد العناصر المناخية وصعوبة قياس المؤثرات الفسيولوجية والسيكولوجية لهذه العناصر عند الإنسان أيضًا، التي تختلف من شخص لآخر، إضافة إلى أن شعور

الإنسان بالراحة يعتبر مسألة نسبية تختلف من شخص إلى آخر تبعًا لاختلاف العمر والجنس وحالة الشخص الصحية.

لقد أجريت العديد من التجارب من قبل العلماء على الإنسان واختاروا عينات تمثل المجتمع تمثيلًا صادقًا، ووضعهم في ظروف مناخية متباينة وتحليل استجاباتهم لتكون مقياسًا للعلاقة بين المناخ والإنسان، حيث أظهرت تلك التجارب عدة قرائن تتضمن تغير اثنين أو أكثر من العناصر المناخية، لأن استخدام عنصر واحد لا يكفي لوصف إحساس الإنسان بالراحة أو الضيق وصفًا دقيقًا. (Randall jÁ, Ozcsevski, 1995)

تم وضع الأسس التصنيفية للمناخ الفسيولوجي اعتمادًا على عناصر المناخ الأساسية المؤثرة على الراحة الفسيولوجية للإنسان، وضع العديد من القرائن والمخططات المناخية الفسيولوجية والتي يمكن تصنيفها في ثلاث مجموعات هي:

١ - قرائن العنصر المناخي الواحد:

وهي القرائن التي تعتمد على عنصر مناخي واحد له تأثير فعال على راحة الإنسان ونشاطه وصحته وتشمل عدة قرائن هي: قرينة درجة الحرارة الفعالة، قرينة السعادة، قرينة الإحساس الحراري، قرينة درجة الحرارة الظاهرية، قرينة تبريد الريح، قرينة الحرارة المكافئة.

٢ - قرائن المناخ الفسيولوجي المركبة:

قرائن تعتمد هذه على درجة الحرارة والرطوبة النسبية وتشمل: قرينة الحرارة - الرطوبة، قرينة الجهد الحرارية، قرينة راحة الطقس، قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح.

٣ - قرائن المناخ الفسيولوجي الشمولي:

عبارة عن نماذج مناخية فسيولوجية تأخذ بالحسبان عدة عناصر مناخية وتشمل: المخطط البياني الذي وضعه (Maunder)، المخطط البياني الذي وضعه (Turijung)، المخطط البياني الذي وضعه (Sanjer)، والنموذج المناخي الذي وضعه (Taylor)، والنموذج المناخي الذي وضعه (Burt). (علي موسى، ٢٠٠٢).

ينصب اهتمامنا في هذا البحث على القرائن المركبة، تحديداً في تجربة وتحليل قرينتي الحرارة - الرطوبة، وقرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح، كونهما تشتركان في عنصر الحرارة، ما سيمكننا لاحقاً من دمج هاتين القرينتين في قرينة مناخية فسيولوجية شاملة لثلاثة عناصر مناخية مختلفة.

ولكن قبل الدخول مباشرة في حساب القرائن، ينبغي أولاً أن نُعرف الراحة

الفسيولوجية وكيفية الاتزان الحراري عند الإنسان، لكي نقدم صورة مفهومة للقارئ عما نتحدث عنه هنا.

١ - مفهوم الراحة الفسيولوجية:

تعرف الراحة الفسيولوجية على أنها تلك الاجواء التي تثير لدى الإنسان مشاعر الارتياح والدفء النفسي وتلبي تصورات مشاعره كاملة، أي أنها حالة العقل في التعبير عن ارتياحه مع البيئة الحرارية المحيطة. (عمر الصقرات، ١٩٨٩).

فالراحة الفسيولوجية هي إحساس ينتاب الإنسان، ويجعله يشعر بالراحة الجسدية التامة وفق ظروف مناخية وطبيعية محددة يرغب في استمرارها من دون زيادة أو نقصان، أي حالة الجهاز العصبي المركزي تؤدي إلى شعور الإنسان بالرضا عن البيئة المحيطة به.

(Yoram Epstein and Daneil S. Moran, 2006).

تعد بعض عناصر المناخ الأساسية هي مكونات الراحة الفسيولوجية، وتتمثل في درجة حرارة الهواء والرطوبة الجوية والرياح، إضافة إلى درجة توصيل اللباس للحرارة وضغط بخار الماء على الجلد ومعدل درجة الحرارة المتولدة ذاتياً والتي تزود الجسم بالطاقة اللازمة للقيام بالحركة والعمل.

تؤثر درجة الحرارة على إحساس

في الهواء مما تتعطل عنه عملية تبريد الجسم وزيادة الشعور بوطأة الحرارة، أما في حالات الجو البارد فإن قدرة الجسم على إفراز العرق تكون محدودة، بسبب تقلص مسام الجلد وفي مثل هذه الحالات تتعرض بشرة الوجه والأيدي والأجزاء الأخرى إلى التشقق. (عبد العزيز شرف، ١٩٩٥).

أما في حالات ارتفاع الرطوبة، فإن تراكم بخار الماء على سطح الجلد يعمل على سد المسامات الجلدية معيقاً عملية التعرق، ما يشعر الشخص بالضيق والانزعاج أيضاً. (الجنابي عبد الزهرة والبيرماني ضياء، ٢٠٠١).

لسرعة الرياح أيضاً التأثير الكبير على الإحساس البشري بحالة الجو، فخلال الجو البارد تعمل حركة الهواء على إزالة الهواء الدافئ الملامس للجسم وإحلال بدله هواءً أكثر برودة، ما يزيد الفرق الحراري بينهما؛ فيؤدي إلى زيادة فقدان الحرارة من الجسم فيزيد من إحساسه بالبرودة، ويسمى التأثير الناتج عن حركة الهواء بالتبريد الناتج عن هبوب الرياح.

أما في الجو الحار الذي تقل فيه درجة الحرارة عن ٣٣ درجة مئوية (متوسط حرارة الجلد) فإن حركة الهواء تعمل على إزاحة الهواء الرطب الملامس للجلد، وأستبداله بهواء جاف يساعد على زيادة

الإنسان بالراحة أو الانزعاج، حيث يتأثر بها ضمن مدى واسع وهي أكثر عناصر المناخ تأثيراً على الإنسان، لأن تأثيرها يكون واضحاً وبشكل مباشر على كل البشر وفي مختلف البيئات الجغرافية، ومما لاشك فيه أن الحرارة المعتدلة تبعث على الارتياح وتساعد على النشاط وبذل الجهد، أما في حالات انخفاضها أو ارتفاعها وانحرافها عن معدلها العام، فإنه يؤثر تأثيراً سلبياً على الإنسان سواء من الناحية الجسمانية أو النفسانية، وبالتالي الشعور بالضيق والانزعاج وعدم الارتياح.

كما أن رطوبة الهواء تمثل عاملاً هاماً لها تأثيرات مباشرة وغير مباشرة على راحة ونشاط وصحة الإنسان، فهو يحتاج إلى وجود قدر ولو ضئيل من بخار الماء، لكي لا يتعرض جلده للجفاف فانخفاضها عن الحد المطلوب، يؤدي إلى سحب بخار الماء من خلايا الجسم ومن ثم إلى حدوث تشققات ميكروسكوبية في الغشاء المخاطي للأنف، وجفاف للبشرة وشعور الإنسان بالضيق، وفي مثل هذه الحالات تقوم بعض الاعضاء الفسيولوجية في الجسم بإفراز العرق الذي يعمل على مقاومة الحرارة وترطيب الجلد وتعويض النقص في الرطوبة الجوية، ويؤدي تبخره على الجلد إلى خفض درجة حرارة الجسم، ويتناقص إفراز العرق كلما ارتفعت الرطوبة النسبية

الاتزان الحراري بين الجسم، والمحيط الخارجي عن طريق جعل مقدار ما يفقده الجسم من حرارة مساوياً لما ينتجه.

ففي حالة التعرض للبرودة المفاجئة تكون الطبقة الدهنية التي توجد أسفل الجلد غطاء طبيعياً يقوم بحماية الجسم من البرودة، بالإضافة إلى أن الأوعية الدموية الملاصقة للجلد تتقلص وتظل بعيدة عن السطح الخارجي للجسم، فيقل اندفاع الدم فيها ولا يصل إلى السطح حيث تتعرض حرارته للضياع بملامسة الجلد للجو البارد، كما تحدث عملية الارتعاش التي تؤدي إلى تسريع إنتاج الطاقة في الجسم البشري من خلال حركة العضلات السريعة، والمفاجئة حتى يستطيع الجسم تعويض الفاقد الحراري. (الراوي عادل والسامرائي قصي، ١٩٩٠).

أما في حالة تعرض الجسم للحرارة المفاجئة؛ فإن الأوعية الدموية تتسع لتسمح بمرور كمية كبيرة من الدم إلى خلايا الجلد، لتبديد الطاقة الزائدة عن طريق إفراز العرق أي سحب الماء من الدم عبر المسامات المنتشرة على الجلد وذلك لتقليل ضغط الحرارة على الجسم، أي تبريد الجلد من خلال استهلاك قطرات العرق طاقة مأخوذة من الجلد ليتحول من حالته السائلة إلى حالته الغازية. (Yoram Epstein and Daneil S. Morn, 2006)

التبخّر من سطح الجلد ما يؤدي إلى الإحساس بتلطيف الجو، بينما في الجو الحار جداً الذي تزيد فيه درجة الحرارة عن ٣٣ درجة مئوية، فإن حركة الهواء تعمل على إزاحة الهواء الملامس للجلد، وإحلال هواء أكثر حرارة منه تفوق حرارته ما يفقد من الجسم بسبب التبخر، ما يزيد من الشعور بالحرق في الوقت الذي يكون فيه الجسم بأمرس الحاجة إلى التخلص من حرارته الزائدة. (Joseph T. Kohler, 2001).

٢ - الموازنة الحرارية في جسم الإنسان:

يُعدّ التوازن الحراري عاملاً رئيساً لوجود الراحة والحياة المفضلة للإنسان في بيئته الجغرافية ويقوم مضمون هذا التوازن على تبادل الطاقة بين الإنسان، والبيئة بحيث لا يترتب على ذلك فقدان كبير للطاقة أو كسب لها، أي أن تتساوى الحرارة المفقودة مع الحرارة المكتسبة من قبل الجسم البشري. (Osczevski and Bluestein, 2005).

إن معيار التوازن الحراري هو بقاء درجة حرارة الجسم في حدود ٣٧ درجة مئوية ويتوقف ذلك على تأثير المناخ بشكل مباشر على تلك الدرجة، فعندما يعمل المناخ على رفعها أو خفضها، تبدأ العمليات الفسيولوجية في الجسم بعملها لحفظ

٣ - التحديد الكمي للحرارة المحسوسة:

نتيجةً لتطور الدراسات الخاصة بالعلاقة بين درجة الحرارة والرطوبة من جهة، وبين درجة الحرارة وسرعة الرياح من جهةٍ أخرى، توصل العلماء إلى وضع العديد من القرائن أهمها قرينتي الحرارة المكافئة لتبريد الرياح (Wind Chill Index)، وقرينة الحرارة - الرطوبة (Thom) Index، ومن خلال هذا المبحث تبين أن الإحساس بالحرارة أو ما يسمى بالحرارة المحسوسة عند الإنسان يختلف عن درجة الحرارة المقروءة بحسب تأثير عاملي الرطوبة وسرعة الرياح.

درجة الحرارة المحسوسة بالربط بين درجة الحرارة والرطوبة النسبية:

يختلف الإحساس في درجة الحرارة بين نسبة رطوبة وأخرى، حيث يرتفع الإحساس بالحرارة كلما ارتفعت نسبة الرطوبة، فعلى سبيل المثال إذا كانت درجة الحرارة المقروءة ٣٢,٢ درجة مئوية، سيكون الإحساس بها بدرجة ٤١,١ درجة مئوية إذا كانت نسبة الرطوبة ٧٠٪، كما سيكون الإحساس بنفس درجة الحرارة يساوي ٤٥ إذا كانت نسبة الرطوبة ٨٠٪ كما يظهر الجدول رقم ١.

من هنا نستطيع القول إن الجسم البشري قادر على التأقلم مع الظروف المناخية المحيطة وخصوصاً الحرارية منها من خلال العمليات الفسيولوجية التي يقوم بها الجسم البشري، ولكن عملية التأقلم بحد ذاتها يمكن أن تكون مزعجة للإنسان أو متوافقة مع راحته النفسية والجسدية، فعادة ما تكون بعضاً من حالات الطقس مؤاتية للنشاطات الإنسانية ومنها ما يكون معيقاً ومثبطاً لها، فيسعى الناس لتوقع حالات الطقس، ليستفاد من الملائم منها وتجنب أضرار السلبي منها.

لا شك في أن حياة الإنسان ونشاطاته المختلفة الاجتماعية والاقتصادية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بشكل مباشر أو غير مباشر بحالات المناخ، ويبدو هذا واضحاً في أنماط حياته ومسكنه ولباسه التي تعبر عن توازنه الحراري، وتأقلمه الجسدي مع بيئته المناخية المحيطة به.

من هنا تبرز أهمية فهم كيفية تأثير العناصر المناخية على التأقلم الجسدي الإنساني معها، من خلال وضع الدالات والنماذج التي تقوم باحتساب تأثير تلك العناصر على الإحساس عند البشر وتفاعلهم معها، ولكن قبل الدخول في الحديث عن الدالات الحسابية للقرائن المناخية، سنوضح كيفية تأثير العناصر المناخية الأساسية على الإحساس البشري.

كذلك الأمر بالنسبة إلى اختلاف الإحساس في درجة الحرارة بحسب متغير سرعة الرياح، إذ نلاحظ بحسب الجدول رقم ٢ أن الإحساس في درجة الحرارة يتغير بتغير سرعة الرياح، فكلما ارتفعت سرعة الرياح انخفضت درجة الحرارة المحسوسة، فعلى سبيل المثال إذا كانت درجة الحرارة المقروءة ٢٠ درجة مئوية، فإن الإحساس بها سيكون ١٣ درجة مئوية عند سرعة الرياح ٥ متر/ثانية، أيضاً سيكون الإحساس بها ٤ درجات مئوية عندما ترتفع سرعة الرياح إلى ٢٠ متر/ثانية.

جدول رقم (١): الاختلاف بين درجة الحرارة المقروءة والمحسوسة بالربط مع الرطوبة النسبية.

درجة الحرارة المقروءة											
٤٨,٨	٤٦,١	٤٣,٣	٤٠,٥	٣٧,٧	٣٥	٣٣,٢	٢٩,٤	٢٦,٦	٢٣,٨	٢١,١	الرطوبة النسبية
درجة الحرارة المحسوسة											
٤١,٦	٣٩,٤	٣٧,٢	٣٥	٣٢,٧	٣٠,٥	٢٨,٣	٢٥,٥	٢٢,٧	٢٠,٥	١٧,٧	صفر
٤٦,٦	٤٣,٨	٤٠,٥	٣٧,٧	٣٥	٣٢,٢	٢٩,٤	٢٦,٦	٢٣,٨	٢١,١	١٨,٣	١٠
٥٤,٤	٤٨,٨	٤٤,٤	٤٠,٥	٣٧,٢	٣٣,٨	٣٠,٥	٢٧,٧	٢٥	٢٢,٢	١٨,٨	٢٠
٦٤,٤	٥٧,٢	٥٠,٥	٤٥	٤٠	٣٥,٥	٣٢,٢	٢٨,٨	٢٥,٥	٢٢,٧	١٩,٤	٣٠
	٦٦,١	٥٨,٣	٥٠,٥	٤٣,٣	٣٨,٣	٣٣,٨	٣٠	٢٦,١	٢٣,٣	٢٠	٤٠
		٦٥,٥	٥٧,٢	٤٨,٨	٤١,٦	٣٥,٥	٣١,١	٢٧,١	٢٣,٨	٢٠,٥	٥٠
			٦٥	٥٥,٥	٤٥,٥	٣٧,٧	٣٢,٢	٢٧,٤	٢٤,٤	٢١,١	٦٠
				٦٢,٢	٥١,١	٤١,١	٣٣,٨	٢٩,٤	٢٥	٢١,٢	٧٠
					٥٧,٧	٤٥	٣٦,١	٣٠	٢٥,٥	٢١,٦	٨٠
						٥٠	٣٨,٨	٣١,١	٢٦,١	٢١,٧	٩٠
							٤٢,٢	٣٢,٧	٢٦,٦	٢٢,٢	١٠٠

المصدر: (Yoram Epstein and Daneil S. Moran, 2006).

جدول رقم (٢): الاختلاف بين درجة الحرارة المقروءة والمحسوسة بالربط مع سرعة الرياح. ضمن السنة الواحدة، حيث ترتفع الحرارة مع سيطرة الجفاف في فصل الصيف، وعلى العكس منه حيث تنخفض درجات

درجة الحرارة المقروءة (درجة مئوية)											سرعة الرياح متر/ ثانية
٤٠	٣٥	٣٠	٢٥	٢٠	١٥	١٠	٥	٠	٥-	١٠-	
درجة الحرارة المحسوسة (درجة مئوية)											٥
٣٦	٣١	٢٥	١٩	١٣	٧	١	٥-	١١-	١٦-	٢٢-	١٠
٣٤	٢٧	٢١	١٥	٩	٣	٤-	١٠-	١٦-	٢٢-	٢٨-	١٥
٣٢	٢٥	١٩	١٣	٦	٠	٧-	١٣-	١٩-	٢٦-	٣٢-	٢٠
٣٠	٢٤	١٧	١١	٤	٢-	٩-	١٥-	٢٢-	٢٩-	٣٥-	٢٥
٢٩	٢٣	١٦	٩	٣	٤-	١١-	١٧-	٢٤-	٣١-	٣٧-	٣٠
٢٨	٢٢	١٥	٨	١	٥-	١٢-	١٩-	٢٦-	٣٣-	٣٩-	٣٥
٢٨	٢١	١٤	٧	٠	٧-	١٤-	٢١-	٢٧-	٣٤-	٤١-	٤٠
٢٧	٢٠	١٣	٦	١-	٨-	١٥-	٢٢-	٢٩-	٣٦-	٤٣-	٤٥
٢٦	١٩	١٢	٥	٢-	٩-	١٦-	٢٣-	٣٠-	٣٧-	٤٤-	٥٠
٢٦	١٩	١٢	٤	٣-	١٠-	١٧-	٢٤-	٣١-	٣٨-	٤٥-	٥٥
٢٥	١٨	١١	٤	٣-	١١-	١٨-	٢٥-	٣٢-	٣٩-	٤٦-	٦٠
٢٥	١٧	١٠	٣	٤-	١١-	١٩-	٢٦-	٣٣-	٤٠-	٤٨-	

المصدر: (Randall j. Ozcsevski, 1995)

الحرارة مع ارتفاع نسبة الرطوبة في فصل الشتاء، وهذا ما يجعل هذه المنطقة مناسبة لتطبيق القرينتين السابقتين.

٤ - الصفة المناخية لمنطقة الدراسة:

قبل البدء في حساب النموذج الجديد، ينبغي علينا أن نوضح قابلية تطبيقه في المنطقة الداخلية اللبنانية، حيث يضم هذا النموذج جمعاً لقرينة الحرارة - الرطوبة، التي يمكن تطبيقها ضمن الاجواء أو المناخات الحارة، وقرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح والتي يمكن تطبيقها في المناخات الباردة، وبما أن منطقة الدراسة التي سوف تتم التجربة فيها، تتسم بسيطرة المناخ المتوسطي المتأثر بالقاري، وهذا النوع من المناخ يتميز بتعدد الفصول

جدول رقم (٣): اختلاف عناصر المناخ بحسب أشهر السنة للعام ٢٠١٥ في منطقة الدراسة.

الشهر	معدل الرطوبة النسبية الشهري %	معدل الحرارة الشهري بالدرجة المئوية	كمية التساقط الشهري	معدل سرعة الرياح متر/ ثانية
كانون الثاني	٨٠,٣	٦,١٥	٢٠٩,٨	١,٥٧٨٤
شباط	٧٦,٩	٨,١	٧٦,٧	١,٦٣
آذار	٥٩	١٠,٨	١٥,٦	٢,٢٩١٩
نيسان	٦٢	١٢,٨	٥١,٦	١,٦٧٨
أيار	٥٠	١٨,٥	٥,٦	١,٤٥٣٥
حزيران	٤٢	٢١,٥	٠	١,٧٣
تموز	٤٦,٩	٢٣,٣	٠	١,٦٨
آب	٤٣,٨	٢٣,٦	٠	١,٦٣
أيلول	٥٣	٢٠,١	٣,٦	١,٨٩
تشرين الأول	٤٢,٧	١٥	٣,٢	١,٦٦
تشرين الثاني	٦٢,٨	١٢,٨	١٨,٦	١,٧١
كانون الأول	٧٧	٤,٦	١٠٥,٨	١,٩٨

المصدر: عمل الباحث بالاعتماد على وزارة الزراعة، فرع الري والأرصاء الجوية في مصلحة الأبحاث العلمية الزراعية (مرصد تل عمارة).

فإذًا، نتيجةً لوقوع هذه المنطقة الداخلية إلى الشرق من السلسلة الغربية تنخفض كمية التساقط فيها بشكل ملحوظ، إذا ما قورنت مع المناطق الغربية الساحلية من لبنان، كما يستمر هذا التناقص في السقوط طالما اتجهنا نحو الشمال الشرقي وصولاً إلى المنطقة التي يسودها المناخ القاري

الجاف أو المتوسطي المتأثر بالصحراوي في أقصى شمال شرقي البقاع.

نلاحظ من خلال الجدول رقم ٣ أن معدل الرطوبة النسبية ينخفض مع تناقص كمية المتساقطات خصوصاً في أشهر الصيف ليصل إلى أدنى مستوى له ٤٢٪ حين سجلت كمية المتساقطات صفر، وعلى العكس من ذلك فإن هذا المعدل يرتفع بارتفاع كمية المتساقطات، حيث بلغت الرطوبة النسبية أعلى معدل لها في شهر كانون الثاني ٨٠,٣٪ حين سجلت كمية المتساقطات أيضاً أعلى مجموع لها ٢٠٩,٨ ملم، وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً عن أن معدل الرطوبة في هذه المنطقة يرتفع في الشتاء وينخفض في الصيف.

أيضاً نلاحظ أن معدلات درجة الحرارة المثوية ترتفع في أشهر الصيف لتصل إلى أعلى معدل لها في شهر آب ٢٣,٦ درجة مئوية، وعلى العكس من ذلك تنخفض في الشتاء لتصل إلى أدنى معدل لها في شهر كانون الأول ٤,٦ درجة مئوية.

تنخفض سرعة الرياح في فصل الصيف بشكل عام مترافقاً مع الارتفاع بدرجات الحرارة، وعلى العكس من ذلك تتزايد في فصل الشتاء بشكل عام مترافقاً مع درجات الحرارة المنخفضة حيث تشكل السلسلتان الشرقية والغربية حاجزاً أمام الرياح الغربية والشرقية وتحدها المنطقة

RH = Relative humidity %
الرطوبة النسبية.

كما وضع ثوم الجدول التالي لتفسير
أوضاع الإنسان الصحية أو درجة شعوره
بالراحة بناءً على نتائج قرينته:

جدول رقم (٤): جدول مقارنة أوضاع
الراحة المناخية مع نتائج قرينة الراحة
المناخية.

Thoms discomfort conditions according to Discomfort Index DI	
درجة الشعور بالراحة المناخية بناءً على نتائج قرينة ثوم	
Condition الظرف	نتائج قرينة ثوم DI
Discomfort غير مريح	DI < 18
Comfort مريح	21 < DI ≤ 18
Under 50% of population feels discomfort أقل من ٥٠٪ من السكان يشعرون بعدم الراحة	25 < DI ≤ 21
Over 50% of population feels discomfort أكثر من ٥٠٪ من السكان يشعرون بعدم الراحة	28 < DI ≤ 25
Most of population suffer discomfort معظم السكان يعانون من عدم الراحة	30 < DI ≤ 28
Everyone feels stress الجميع يشعرون بالانزعاج	32 < DI ≤ 30
State of medical emergency حالة تستدعي العناية الطبية	DI ≥ 32

المصدر: (Thom, E. C., 1959)

الداخلية، في المقابل تسمح بدخول الرياح الشمالية الباردة والجافة بسبب وقوع هذه الجبال على محور اتجاه شمالي شرقي جنوبي غربي.

٥ - النموذج المناخي الجديد:

بما أن هذا النموذج يجمع بين العناصر المناخية الآتية: الحرارة، الرطوبة، سرعة الرياح، سنقوم بتطبيق قرينة ثوم أولاً، ثم قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح تالياً، من بعدها سنضع القرينة الجديدة بناءً على نتائج القرينتين السابقتين.

٥ - ١ - تطبيق قرينة الحرارة -

الرطوبة:

تدرس هذه القرينة متغيري الحرارة والرطوبة النسبية ومدى ملاءمة هذين المتغيرين راحة الإنسان أو عدم راحته الجسدية (Thoms Thermal Discomfort Index داخل المباني أو في أماكن الظل، هذه القرينة وضعها الأميركي ثوم وتأخذ الدالة الآتية:

(Tawhida, A., Hisham, A. A., 2013)

$$THI = T - \{0.55 \times (1 - RH) \times (T - 14.5)\}$$

حيث أن:

THI = Thermal Discomfort Index قرينة

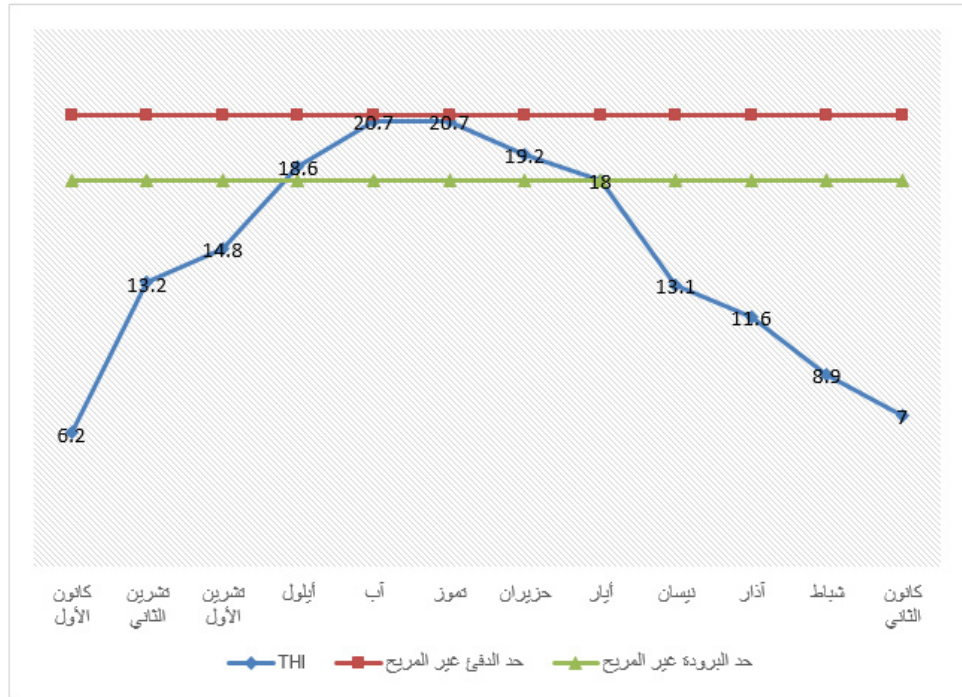
الراحة المناخية.

T = Air temperature C درجة

حرارة الهواء المثوية.

ولتطبيق هذه المعادلة وجب علينا الحصول على معدلات الحرارة والرطوبة النسبية، التي حصلنا عليها من مرصد تل عمارة التابع لوزارة الزراعة الواقع إلى الشمال الشرقي من مدينة زحلة عام ٢٠١٥، وبعد معالجة المعلومات التي حصلنا عليها، طبقنا معادلة ثوم لتظهر النتائج بحسب الشكل رقم ١.

شكل رقم (١): رسم بياني يبين معدلي الحرارة والرطوبة مع قرينة ثوم.



المصدر: عمل الباحث.

نلاحظ من خلال تحليل الشكل رقم ١ أن الفترة الممتدة من أيار حتى أيلول تتوافق مع الراحة المناخية القصوى، حيث

يدل الجدول رقم ٤ على راحة الإنسان المناخية بحسب نتائج قرينة ثوم، فإذا كانت النتيجة أقل من ١٨ فإن الوضع المناخي يُعدّ غير مريح بسبب انخفاض درجات الحرارة، في المقابل إذا كانت النتيجة تساوي ١٨ حتى ٢١ يُعدّ الوضع المناخي مريحاً بالدرجة الأكبر، بين ٢١-٢٤ فإن أقل من نصف السكان يحسون بالانزعاج، بين ٢٥-٢٧ أكثر من نصف السكان يحسون بعدم الراحة، بين ٢٨-٢٩

معظم السكان يعانون من عدم الراحة، بين ٣٠-٣٢ الجميع يحس بالإرهاق أو الضغط الجسدي، أكثر من ٣٢ فإن هذه الحالة تتطلب عناية طبية طارئة.

اندرجت نتائج القرينة بين ١٨ وهو الحد الأدنى للراحة المناخية وبين ٢١ وهو ما يعتبر الحد الأعلى الذي يفصل بين الراحة وعدم الراحة المناخية، أما الأشهر الباقية فتنوعت بين ما يتوافق مع راحة نسب متفاوتة من السكان، ولكن في جميع الحالات لم يصل عدم الراحة المناخية لحدود الانزعاج المناخي.

هذا يمكننا من القول إن خمسة أشهر في السنة تتوافق كلياً أو بشكل كامل مع الراحة المناخية وهي أشهر أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول، والتي تشكل الفترة التي ذكرناها، أما الأشهر الباقية فتتناسب مع الراحة بنسب مختلفة تحت حدود الانزعاج.

٥ - ٢ - تطبيق قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح:

(Wind Chill Equivalent Temperature)

وضع هذه القرينة العالمان (Siple) و(Passel) عام ١٩٤٥ من خلال التجارب التي أجريها في القارة القطبية الجنوبية على معدلات تجمد الماء المحصور في أسطوانات بلاستيكية ضمن شروط حرارية وريحية معينة.

فهي تحسب قابلية سطح الأرض على امتصاص كمية الحرارة في حدود المتر الواحد المربع، أو على أنها درجة الحرارة التي تسبب الشعور نفسه بالبرد لدى الإنسان لو كانت الرياح ساكنة تماماً،

وغالبا ما تستخدم هذه القرينة في حالات الجو البارد، فسرعة الرياح لها تأثير كبير على الإحساس البشري بحالة الجو، فخلال الجو البارد تعمل حركة الهواء على إزالة الهواء الدافئ الملامس للجسم وإحلال بدله هواء أكثر برودة، ما يزيد الفرق الحراري بينهما فيؤدي إلى زيادة فقدان الحرارة من الجسم ما يعطي إحساساً بالبرودة، ويسمى التأثير الناتج عن حركة الهواء، بالتبريد الناتج عن هبوب الرياح، وهو ما تحدثنا عنه في التحديد الكمي للحرارة المحسوسة سابقاً.

تأخذ قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح الدالة الآتية: (Siple, P. A. and (Passel, C. F., 1945

$$Ko = (\sqrt{100} v + 10.45 - v)(33 - t)$$

حيث ان:

Ko = قدرة الرياح على التبريد في الظل بالكيلو كالوري م^٢/ساعة.

v = سرعة الرياح متر/ثانية.

t = درجة حرارة الهواء الجاف بالدرجة المئوية.

٣٣ = حرارة سطح الجلد بالدرجة المئوية

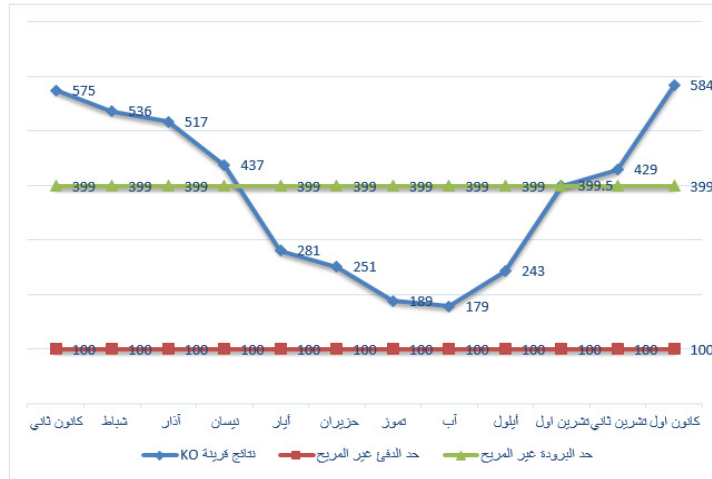
١٠٠ و $١٠,٤٥$ = ثوابت تم التوصل إليها بالتجربة

وتحدد درجة الإحساس بالتبريد الناتج

حتى ٣٩٩ كيلو كالوري م^٢/ساعة، فيكون المناخ لطيفاً أو مائل للبرودة أو يميل للبرودة وهي أوضاع مناخية مريحة للإنسان وتؤثر بشكل إيجابي على المستوى الصحي والنفسي للسكان، على العكس من ذلك أيضاً، فمن ٤٠٠ حتى أكثر من ٦٠٠ كيلو كالوري م^٢/ساعة، يكون المناخ بارداً أو شديد البرودة أو قارس البرودة وكلها أوضاع غير مريحة للسكان.

وبتطبيق قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح Ko على الداتا المناخية التي حصلنا عليها من مرصد تل عمارة، وهو نفس المصدر الذي اعتمدنا عليه في تطبيق قرينة THI، بانت النتائج بحسب الشكل رقم ٢.

شكل رقم (٢): النتائج الشهرية لقرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح Ko ضمن الراحة المناخية الفسيولوجية.



المصدر: عمل الباحث.

عن الرياح من نتائج المعادلة السابقة على النحو الموضح في الجدول الآتي:

جدول رقم (٥): نتائج تبريد الرياح وما يقابلها من شعور لدى الإنسان في مختلف البيئات.

الإحساس	دليل تبريد الرياح كالوري م ^٢ / ساعة
أقل من صفر	شديد الحرارة (غير مريح)
صفر - ٤٩	حار (غير مريح)
٥٠ - ٩٩	دافئ (غير مريح)
١٠٠ - ١٩٩	لطيف (مريح)
٢٠٠ - ٢٩٩	مائل للبرودة (مريح)
٣٠٠ - ٣٩٩	يميل للبرودة (مريح)
٤٠٠ - ٤٩٩	بارد (غير مريح)
٥٠٠ - ٥٩٩	شديد البرودة (غير مريح)
أكثر من ٦٠٠	قارس البرودة (غير مريح)

المصدر: (زكري يوسف، ٢٠٠٥).

يحدد دليل تبريد الرياح الذي يضع سلماً لنتائج لقرينة الحرارة المكافئة؛ لتبريد الرياح بما يتوافق مع شعور بالراحة

المناخية لدى الإنسان كما هو موجود في الجدول رقم ٥ فمن صفر حتى ٩٩ كيلو كالوري م^٢/ساعة، يُعدّ المناخ شديد الحرارة أو حار أو دافئ وكلها أوضاع مناخية غير مريحة للإنسان، أما من ١٠٠

كما هو ظاهر في الشكل رقم ٢، فإن خمسة أشهر في السنة، من شهر أيار حتى أيلول والتي تتضمن فصلي الربيع والصيف وبداية فصل الخريف، تتوافق مع الراحة المناخية بحسب نتائج قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح Ko.

وتجدر الإشارة إلى أن المدة نفسها تُعدّ مريحة مناخياً بحسب قرينة ثوم، أي أن القرينتين تتوافقان من حيث نتائجهما من ناحية الراحة المناخية، وهذا ما سيمكننا من وضع التصنيف أو الدالة الجديدة التي تقوم على دمج الدالتين السابقتين، فإذا ما تم تأكيد النتائج ووجدنا أن الدالة الجديدة أعطت النتيجة نفسها للقرينتين السابقتين، عبر التجربة طبعاً، هنا يمكن تعميم القرينة الجديدة والعمل بها، كونها تصلح لقياس الراحة المناخية في الأجواء الحارة والباردة في آنٍ معاً.

٥ - ٣ - تطبيق قرينة الحرارة - الرطوبة - سرعة الرياح (THS):

تعتمد القرينة الجديدة على دمج القرينتين الآتيتين:

Thom's Thermal Discomfort Index: THI = T - {0.55 x (1 - RH) x (T - 14.5)}.

Wind Chill Index : K0 = (√v*100 + 10.45 - v)(33 - T).

تأخذ القرينة الجديدة الدالة الآتية:

T/2 + (5√v + 5.225 - v/2)(33 - T) - 0.275(1 - 0.01Rh)(T - 14.5)

نستنتج من خلال الشكل السابق أن نتائج قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح الشهرية في منطقة الدراسة تظهر أن ستة أشهر تقع ضمن حدود الراحة المناخية من ١٠٠ حتى ٣٩٩ كيلو كالوري م^٢/ساعة كما ذكرنا، أي أن جميع النتائج التي تكون بين ١٠٠ و ٣٩٩ كيلو كالوري م^٢/ساعة تكون مريحة مناخياً، حيث يسجل شهر أيار أدنى قيمة ١٩٧ كيلو كالوري م^٢/ساعة بينما يسجل شهر أيلول أعلى قيمة ٢٤٣ كيلو كالوري م^٢/ساعة ضمن حدود الراحة المناخية، وعلى العكس منها تسجل أشهر تشرين الثاني وكانون الأول أدنى وأعلى قيمة على التوالي بقيم ٥٧٥ و ٥٨٤ كيلو كالوري م^٢/ساعة فوق حد الراحة المناخية.

وتجدر الإشارة إلى أن قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح، تصلح لقياس الراحة المناخية في العديد من المناخات المختلفة، صحيحٌ أن هذا القرينة طبقت في المناطق القطبية الباردة في البداية، لكنها طبقت لاحقاً في العديد من المناطق القارية كالعراق، والمتوسطة كبعض مناطق تونس والجزائر واليونان، ما يجعلها قابلةً للتطبيق على مناخ منطقة الدراسة المتوسطي المتأثر بالقاري، لأنها في الأصل اعتمدت لقياس درجة التبريد التي تؤدي إليها الرياح بحسب سرعتها بمعزل عن الظرف المناخي الموجود.

أيلول	٥٣	٢٠,١	١,٨٩	١٥٢,٣٥
تشرين الأول	٤٢,٧	١٥	١,٦٦	٢٠٢,٣٦
تشرين الثاني	٦٢,٨	١٢,٨	١,٧١	٢٢٧,٢
كانون الأول	٧٧	٤,٦	١,٩٨	٣٢٤,٧٦

المصدر: عمل الباحث.

نلاحظ من خلال تحليل الجدول رقم ٦ أن نتائج القرينة الجديدة THS تفاعلت عكسياً مع درجة الحرارة، حيث كانت النتيجة ترتفع مع انخفاض درجات الحرارة وتنخفض مع ارتفاعها، بالمقابل تفاعلت إيجابياً مع معدلات الرطوبة النسبية وسرعة الرياح، حيث انخفضت النتيجة مع انخفاض معدلات الرطوبة وسرعة الرياح وارتفعت مع ارتفاعها.

وقبل تأكيد نتائج التجربة سوف نضع جدولاً رقمياً بهدف وضع التصنيف المناخي الفسيولوجي للقرينة الجديدة.

حيث أن:

$T = \text{Air temperature } ^\circ\text{C}$ درجة

حرارة الهواء المئوية

$Rh = \text{Relative humidity } \%$ الرطوبة

النسبية %

Wind speed M/S § v سرعة الرياح

م/ث

الأرقام المدرجة في الدالة الجديدة هي

ثوابت حسابية تم التوصل إليها بالتجربة

سنقوم تالياً بتطبيق الدالة الجديدة على

الداتا المناخية التي عرضناها في الجدول

رقم (٣) بهدف استحصاال النتائج

وتحليلها، من أجل وضع التصنيف المناخي

الجديد.

جدول رقم (٦): تطبيق القرينة

الجديدة على معدلات العناصر المناخية

الشهرية في منطقة الدراسة.

الشهر	معدل الرطوبة النسبية الشهري %	معدل الحرارة الشهري بالدرجة المئوية	معدل سرعة الرياح الشهري متر/ ثانية	نتائج القرينة الجديدة THS
كانون الثاني	٨٠,٣	٦,١٥	١,٥٧٨٤	٢٩٣,٦٥
شباط	٧٦,٩	٨,١	١,٦٣	٢٧٤,٤٩
آذار	٥٩	١٠,٨	٢,٢٩١٩	٢٦٤,٠٨
نيسان	٦٢	١٢,٨	١,٦٧٨	٢٢٦,٤٥
أيار	٥٠	١٨,٥	١,٤٥٣٥	١٦٠,٧٣
حزيران	٤٢	٢١,٥	١,٧٣	١٣٤,٥٧
تموز	٤٦,٩	٢٣,٣	١,٦٨	١١٤,٥٨
آب	٤٣,٨	٢٣,٦	١,٦٣	١١٠,٨

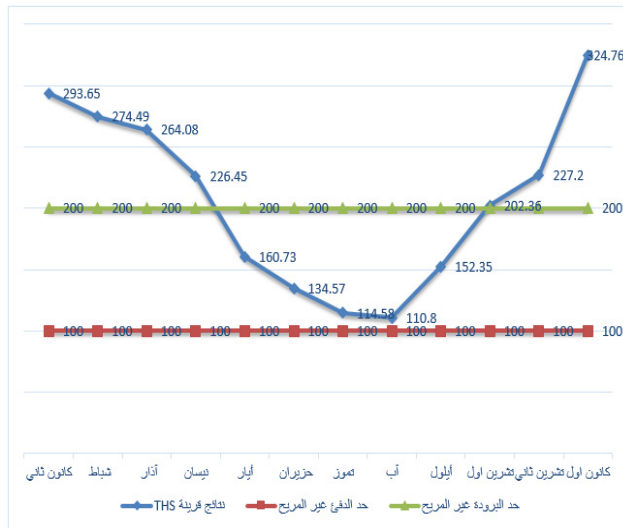
**جدول رقم (٧): جدول مقارنة
أوضاع الراحة المناخية مع نتائج قرينة
الراحة المناخية الجديدة THS.**

discomfort conditions according to Discomfort Index THS		
درجة الشعور بالراحة المناخية بناءً على قرينة THS		
نتائج قرينة THS	Feeling	Condition الطرف المناخي
الإحساس		
THS ≤ 50	حار جدًا	غير مريح
50 < THS ≤ 100	حار	غير مريح
100 < THS ≤ 150	لطيف	مريح
150 < THS ≤ 200	يميل للبرودة	مريح
200 < THS ≤ 250	مائل للبرودة	غير مريح
250 < THS ≤ 300	بارد	غير مريح
THS > 300	قارس البرودة	غير مريح

المصدر: عمل الباحث.

يتضح من خلال تحليل الشكل رقم ٣ أن الفترة الممتدة من أيار حتى أيلول، أي أشهر: أيار- حزيران- تموز- آب وأيلول، تتوافق مع الراحة المناخية بحسب نتائج قرينة THS، حيث تمحورت نتيجة هذه الأشهر بين ١٠٠ وهو ما يعتبر حد الدفاء غير المريح، وبين ٢٠٠ وهو حد البرودة غير المريح.

هذا ما يدل على توافق الأشهر الخمسة السابقة الذكر مع الراحة المناخية، في حين لا تتوافق الأشهر الباقية معها، فقد بلغت نتيجة شهر أيار ١٦٠,٧٣، حزيران ١٣٤,٥٧، تموز ١١٤,٥٨، آب ١١٠,٦، أيلول ١٥٢,٣٥، أما الأشهر الباقية فقد كانت جميع نتائجها أكبر من ٢٠٠ وهو حد البرودة غير المريح فسيولوجيًا كما ذكرنا سابقًا.



**شكل رقم (٣): النتائج
الشهرية لقرينة الحرارة
المكافئة لتبريد الرياح THS
ضمن الراحة المناخية
الفيولوجية.**

المصدر: عمل الباحث.

المناخية المختلفة وأهمها الرطوبة وسرعة الرياح كما رأينا سابقاً.

وبناء على ذلك يتطلب حساب هذا التأثير على الخصائص الفسيولوجية والحسية للإنسان، ترجمته إلى لغة القياس عبر القرائن الحسابية، حيث تعمل على قياس الراحة الفسيولوجية للإنسان تحت تأثير الظروف المناخية المختلفة.

تمحور بحثنا هذا حول ترجمة إحساس الإنسان بالظروف المناخية، عبر معرفة كيفية تغير إحساسه تحت تأثيره بالعناصر المناخية بتداخلها، وانصب اهتمامنا على إنتاج قرينةٍ تهدف إلى حساب الراحة المناخية من خلال شمولها لأهم تلك العناصر، وهي قرينة الحرارة - الرطوبة - سرعة الرياح.

تكمن أهمية القرينة الجديدة في قابلية تطبيقها في أنواع المناخات المتعددة الفصول كالمناخ المتوسطي، وهذا النوع من المناخ يتفاوت بحسب الفصول من ناحية ضمه لفترات باردة وأخرى حارة، حيث تضمن هذه القرينة (THS) قرينة ثوم والتي تصلح لقياس الراحة المناخية في المناخات الحارة بالدرجة الأكبر، كما تضمنت قرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح التي تصلح بالدرجة الأكبر لقياس الراحة المناخية في المناخات الباردة بالدرجة الأكبر.

تدل هذه المعطيات على صحة نتائج القرينة التي طرحناها، حيث توافقت النتائج وكانت مماثلة لبعضها عبر التجربة التي طبقناها على كل من: قرينة الحرارة - الرطوبة (قرينة ثوم) وقرينة الحرارة المكافئة لتبريد الرياح (Wind Chill Index) وعلى القرينة الجديدة (THS)، فقد توافقت الأشهر الخمسة مع الراحة المناخية في نتائج القرائن جميعها في حين لم تتوافق الأشهر الأخرى.

٦ - خلاصة:

تؤثر في راحة الإنسان واثم في مستوى نشاطه البدني والذهني مجموعة من العوامل المناخية والفسيولوجية المتنوعة والمتداخلة، وإذا تمكن الإنسان من تطويع الكثير من الظروف المحيطة به بما يخلق ظروف عمل وراحة مناسبة له، ويمكن من خلال دراسة موضوع الراحة المناخية معرفة الظروف المناسبة للقيام بالأعمال والمشاريع الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات.

من الصعب تقييم مدى استجابة الإنسان تجاه أحد عناصر المناخ المختلفة كالحرارة أو الرطوبة أو سرعة الرياح... لأن هذه العناصر يكون تأثيرها معاً وكل منها يعتمد على الآخر في درجة التأثير على أحاسيس الناس بالراحة، حيث يختلف الإحساس بالحرارة بحسب تأثير العناصر

- زكري، يوسف. (٢٠٠٥). مناخ ليبيا دراسة تطبيقية لأنماط المناخ الفسيولوجي، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم، الجزائر، جامعة منتوري.
- علي الجنابي، عبد الزهرة، والبيرماني، ضياء. (٢٠١٣). نحو بناء تقويم علمي دراسي في العراق، دراسة في المناخ التطبيقي، بغداد، مجلة البحوث الجغرافية - العدد ٢٠.
- موسى، علي حسن. (٢٠٠٢). المناخ الفسيولوجي، دمشق، دار نينوى.
- وزارة الزراعة اللبنانية. (٢٠١٥). فرع الري والأرصاد الجوية في مصلحة الأبحاث العلمية الزراعية، مرصد تل عمارة، البقاع، زحلة.
- Joseph, T., Kohler. (2001). The Meaning, Derivation, and Usefulness of Wind Chill Tables, Kohler and Lewis, Mechanical Engineers, Ph.D., P.E.
- Randal, Oscezevski, and Maurice, Bluestein. (2005). Reasons for revising the wind chill equivalent temperature chart in 2001 as well as the theory and assumptions behind the new calculation and weaknesses in the Wind Chill Equivalent Temperatures, Defense R & D Canada, Toronto, Ontario, University Indianapolis, American Meteorological Society, BAMS, 1453.
- Randal, J., Oscezevski. (1995). The Basis of Wind Chill, ARCTIC, Vol. 48, No. 4 December 1995, 372 - 382.
- Siple, P. A., and Passel, C. F. (1945). Measurements of Dry Atmospheric Cooling In Subfreezing Temperatures, Proc. Amer. Philos. Soc., 89, 177-199.
- Tawhida, A., Hisham, M. M. (2013). Application of Thoms Thermal Discomfort Index, journal of Forest Products and Industries, 2013, 2 (5), 36-38, ISSN: 2325-4513, 453 X.
- Thom, E. C. (1959). The Discomfort Index Weather Wise, Vol 12, N 2.
- Yoram Epstein, and Daneil S. Moran. (2006) Thermal Comfort and the Heat Stress Indices, Heller Institute of Medical Research, Sheba Medical Center, Tel Hashomer and the Sackler Faculty of Medicine, Industrial Health 2006, 44, 388-398.

هذا بالإضافة إلى أن القرينة الجديدة تشتمل على قياس ثلاثة عناصر مناخية، تُعدّ من أهم العناصر البالغة الأهمية في تحديد النوع المناخي لأية منطقة، وهي الحرارة والرطوبة وسرعة الرياح، بينما لم تشتمل القرينتين السابقتين إلا على عنصرين مناخيين.

كما توفر هذه القرينة مزيداً من الجهد، والوقت في دراسة الراحة الفسيولوجية المناخية، عبر اختصار العمليات الحسابية وسهولة تطبيقها.

وبهذا التصنيف الجديد، يمكن دراسة المتغيرات التي يسببها التلوث وغيره من الظواهر، على العناصر المناخية كالحرارة والرطوبة، حيث أن هذه الأخيرة - أي العناصر المناخية - تعمل كمنظومة متكاملة، ومتبادلة التأثير بين عناصرها المختلفة، وأثر هذه المتغيرات على الراحة الفسيولوجية عبر إجراء المقارنات الزمنية والمقاربات الدينامية.

٧ - المصادر والمراجع

- الصقرات، عمر فرحات. (١٩٨٩). العلاقة بين المناخ وطبيعة احساس الإنسان به، الأردن، الجامعة الأردنية.
- الراوي، عادل والسامرائي، قصي. (١٩٩٠)، المناخ التطبيقي، بغداد، دار الكتاب للطباعة والنشر.
- شرف، عبد العزيز طريح. (١٩٩٥). البيئة وصحة الإنسان في الجغرافيا الطبية، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة.

إعادة القراءة في الهوية القوميّة عبر الشخصيات الأسطوريّة في الأدبين الفارسي والعربي (أنموذجاً أخوان ثالث وأدونيس)

السيد سيد حسين هاشمي⁽¹⁾

شعر الشعارين أدونيس وأخوان لنكشف عن مرجعياتهما الثقافيّة ومدى تأثير الشعارين بالشخصيات الأسطوريّة. سنشير أيضاً إلى مقدار الظلّ الذي ألقاه إرثهما القومي على شعرهم. يمكننا القول إنّ هويّة الشاعر القوميّة ظهرت ضمن أشعار أخوان وقصائده بصورة مبرمجة، ذلك لأنّ هدف الشاعر هو إظهار حبّه لقوميته، وهنا ظهرت هويته القوميّة بصورة مبدعة. إذا كنا نعرف البيئّة الشاميّة والعربيّة التي نشأ فيها أدونيس، أمكن لنا أن نسوّغ مبدئياً سرّ اهتمامه بالموورث القومي - الأسطوري حيث تتقدّم شخصيّة مهيار الدمشقي وسائر الشخصيات الأسطوريّة لتمثّل ظاهرة مهمّة في الشعر الأدونيسي.

ملخص البحث:

من المسائل التي شغلت الدراسات النقديّة المعاصرة، مسألة التراث ومدى فاعليّته في التجربة الشعريّة، والمقدار الذي أفاده روّاد حركة الشعر الحديث. إن الوعي بالهويّة بأبعادها المختلفة ومنها الوعي بالتراث لا يعني وقوف الشاعر عند الأعمال التراثيّة وحفظ نصوصها، وإنّما يعني الغوص في الحالات الشعوريّة التي كتبت بها هذه التجارب الشعريّة والسعي للتشبع بها، وضمها لترسّب في اللاوعي، ولكنّها تظلّ القوّة الكامنة التي تمدّ الشاعر بدفقات الإبداع لحظة تجربته في الحاضر.

بناءً على هذا، تهدف هذه المقالة إلى إبراز الهوية القوميّة عبر الشخصيات في

(1) باحث إيراني وطالب دكتوراه في الجامعة اللبنانية.

مفاتيح البحث: أدونيس، أخوان^(١)،
الأدبان الفارسي والعربي، الهوية القومية،
المرجعيات الثقافية.

توطئة:

يُعبّر التراث عن الأمة وهويتها، بل هو
خير وسيلة للتعبير عنها كونه الجزء
الأساسي فيها، ولأن لكل أمة تراثها، لا
يمكن أن تؤسس أي أمة نهضتها على تراث
أمة أخرى، وبعبارة أخرى لا يمكن بناء
هوية واعتمادها إن كانت من دون تجذّر
عميق في التراث. التراث ليس أمراً ساكناً
ميتاً أفرزته هزائم الأمة وانكساراتها
التاريخية، وإنما هو ثمرة الحيوية والفعالية
المتدفقة في وجدان الأمة^(٢).

لقد أدرك الشعراء المعاصرون أهمية
توظيف التراث الغني في قصائدهم لما له
من تأثير يداعب مشاعرهم لا سيّما وأنّ
التراث يحمل ملامح الانتصارات التاريخية،

فتمسّكوا به. في العالم العربي أيضاً نلاحظ
ارتكاز الكثير من الشعراء على أمجادهم
التراثية يستلهمون منها لبث ما يريدونه من
الأفكار. وكانت شخصيات التراث
الأسطوري ورموزه وأيقوناته هي الأصوات
التي عبّر الشاعر العربي المعاصر من
خلالها عن هويته بكل ما فيها من المكونات
من جهة، ومن جهة أخرى عن كل أتراحه
وأفراحه، وأن ينشد للحرية أعذب الغناء
وأنبله^(٣). ومن ثمّ عقد الشعراء العرب
المعاصرون أواصر صلة بالغة العمق
بالتراث وبشخصياته...، وأصبحت هذه
الشخصيات وسيلة التعبير عن حياة الأمة
وهويتها^(٤).

لقد شغلت ظاهرة استدعاء الشخصيات
التراثية، العديد من الباحثين. وتعدّ مسألة
استلهم الشخصيات أحد الأشكال الحدائيه
التي تنم عن وعي الشاعر وأفكاره، كما
تؤكد القدرة الإبداعية لدى الشعراء.

(١) هو مهدي أخوان ثالث ولقبه (م - أميد)، ولد في مدينة مشهد العام ١٣٠٧ش [١٩٢٨م]. بدأ أخوان ثالث مسيرته
الشعرية منذ العام ١٦٢٣ش [١٩٤٤م] وأصبح من عشاق الشعر بعد أن اختار له الأستاذ نصرت مشي، وهو من مشاهير شعراء
خراسان، لقب «أميد». وأقرب معنى لهذا الاسم هو «الأمل». فقرأ أخوان ثالث الشعر الخراساني - حقبة أدبية مهمة
في تاريخ الأدب الفارسي - وفي ذلك الحين، تأثر أخوان بأسلوب شاعر الفرس الأكبر وصاحب ملحمة الشاهنامه
«الفردوسي» وانهج نهجه في نظم الشعر حتى حصل على لقب «رجل الشعر الملحمي المعاصر». يُعدّ أخوان ثالث
مؤسس مدرسة في الشعر الجديد في إيران يُطلق عليها اسم «المدرسة الخراسانية الحديثة».

(٢) الرفاعي، عبد الجبار، جدل التراث والعصر، الناشر: دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠١م، ص ١٨-١٩، بتصرف.
(٣) عشري زايد، علي، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٧م.
ص ٨ - ٧.

(٤) كمال زكي، أحمد، دراسات في النقد الأدبي، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٧٧م، ص ١٩٠.

والمقصود باستخدام الشخصية الأسطورية في الخطاب الشعري «استخدامها تعبيراً لحمل بعد من أبعاد تجربة الشاعر المعاصر أي تصبح وسيلة تعبير وإيحاء في يد الشاعر، يعبر من خلالها أو يعبر بها عن رؤياه المعاصرة»^(١).

من هذا المنطلق يهدف هذا البحث في ضوء المنهج الوصفي التحليلي إلى دراسة موضوع «إبراز الهوية القومية عبر الشخصيات في الأدبين الفارسي والعربي (أتمونجاً أخوان ثالث وأدونيس).

١-٢- خلفيّة البحث:

هناك دراسات عديدة أجريت حول الشعارين اخوان ثالث وأدونيس، والكثير منها يختص بموضوعات الرموز النباتية في الشعر الفارسي المعاصر؛ دراسة في أشعار «أخوان ثالث» و«شاملو» و«شفيعي كدكني» للباحثين عبد الحسين فرزاد؛ سيد ابراهيم آرمن؛ ليلي نادري (١٤٣٦) وقد بيّنوا فيها أنّ الظروف السياسية والاجتماعية التي أَلقت بظلالها على البلاد، ومعها دخول المضامين الجديدة في الشعر الفارسي المعاصر قد حتمت ضرورة استخدام الرمز في الشعر، ونالت الرموز النباتية حصّة الأسد من بين هذه الرموز، منها «أساطير في شعر شاملو وأدونيس

(دراسة مقارنه)» للكاتبين السيد فضل الله مير قادري ومنصورة غلامي (١٣٨٩) فهما قد درسا أهم الاساطير في أشعار هذين الشعارين دراسة مقارنة وهي: أساطير العشق والموت والبعث والألم والتمرد والتغرب. و«الأسطورة وتجلياتها في شعر أخوان ثالث»، للباحث محمد جعفر ورزي (١٣٩٠) وقد بحث حول بعض الأساطير التي استخدمها أخوان ثالث في أشعاره لتعرّف أهدافه من استخدام الأساطير. هناك أيضاً دراسة «أنوثة الأسطورة في شعر أدونيس» للباحثة كبرى روشنفكر وزملائها (٢٠١٧) تدل نتائج هذه الدراسة، أنّ الأساطير في أشعار أدونيس تظهر في هيئة المرأة كأساطير البعث والخصب وأساطير الظلّة والشهوة والتضحية والإيثثار؛ ومن جهة أخرى لا يستخدم أدونيس أنوثة الأسطورة إلاّ ولديه فكرة وابداع فنيّ، حين يصوّر مشاعره في قالب أنوثة الأسطورة، فيقصد إلى خلق عالم أساطيري ابطاله نساء عربيات مزيّنات بصفات البعث والإخصاب والعتاء والجمال. أمّا الناقدة «نجمة رجايي» فقد عرضت في مقالة بعنوان: «أدونيس شاعر الغربة والتمرد» ظاهرة الموت والانبعاث، وتناولت تجليّاتها في أسطورة «فُقنوس» لنيما

(١) عشري زايد، علي، إستدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص ١٣.

يوشيج و«تمون» لأدونيس. غير أنّ التحليل لم يخلُ - في بعض الأحيان - من الاستطراد إلى موضوعات أخرى.

أمّا في ما يتعلّق بالموضوع المطروح أي الأدبين الابرار الهوية القوميّة عبر الشخصيات في الفارسي والعربي (أنموذجاً أخون ثالث وأدونيس) فلم يتطرق أيّ باحث أو باحثة إلى هذا الموضوع، وتعدّ هذه المقالة أوّل مَنْفَذٍ يُفتح أمام الباحثين.

الف) إعادة القراءة في الهوية القوميّة عبر الشخصيات الأسطوريّة عند أخوان ثالث

١-١ - زال (البرص):

زال في الفارسية يعني شخص بشرته شديدة البياض وشعره أشقر فاتح جداً منذ نعومة أظفاره ويسمى بالعربية الأبرص أو الأمهق أو الأغرّب، لكنّه هناك اسم البطل الأسطوري الإيراني، هو ابن سام ووالد رستم. وأسطورة زال هي القصة الواردة في الشاهنامه للشاعر الفذّ أبو القاسم الفردوسي حيث بعد ولادة زال تركه أبوه باسم سام في جبال «البرز» حتّى يقع فريسة الطيور والسباع لبياض شعره، لأنّ

القدماء كانوا يعتقدون بأنّ هذا الطفل من الغيلان. وسمعت سيمرغ [العنقاء] بكاءه وحملته إلى عُشّها في «قاف» (الجبل الأسطوري الإيراني). تربّى زال في عُشّ سيمرغ وكبُر، فصارت سيمرغ ظهيرة زال وابنه المسمّى «رستم» حتى موتهما^(١).

أمّا في ما يتعلّق بأخوان ثالث، فيشير إلى أسطورة زال وسيمرغ في قصيدة «قصه ی شهر سنگستان [قصة المدينة الحجرية]» فيتحدّث عن بحثه لهويته القوميّة في قالب ملك خائب من ملوك الفرس حيث يقول:

لم يصدرُ أي صوتٍ لأنّ كلّ شيء أصبح فجأة متحجراً وبارداً

صدایى بر نیامد از سرى زيرا همه ناگاه
سنگ [سرد گرديدند

ومنذ ذلك الوقت أصبح اسمه ملك مدينة
الحجارة

از اينجا نام او شد شهریار شهر
سنگستان

التعيس والبائس يتجول وسط الحجارة
حاملاً الخنجر

پريشان روز مسكين تيغ در دستش
ميان سنگها می گشت

(١) كزاي، ميرجلال الدين، نامه باستان (ويرايش وگزارش شاهنامه ی فردوسي، از آغاز تا پادشاهی منوچهر) [رسالة من العصور القديمة (التدقيق والتقرير عن الشاهنامه للحكيم الفردوسي، من البداية إلى حكم سلطان منوچهر، [دار النشر: سَمْت]، طهران، ١٣٩٤هـ. ش[٢٠١٥م]، جلد المجلد الأول، ص٤٨٣-٤٨٤-٤٨٥-٤٩٠ باختصار وتصرف.

ويصرخ كالمجانين: أي

وچون ديوانگان فرياد مي زد «آي

ويسقط على الأرض وينهض ويصيح مرة
ثانيةً باكيًا

ومي افتاد وبر مي خاست، گريان نعره
مي زد باز:

«يا أبطال الشجعان!» لكن الأحجار كانت
صامة

« - دليران من! » اما سنگها خاموش...

نفر قلبه من جسده وهرمت روحه وأنهكت
دلش سير آمده از جان وجانش پير
وفرسوده ست

وظن أن لا حاجة للبحث الذي لا طائل منه
وپندارد كه ديگر جست وجوها پوج
وبيهوده ست

ولم يعد يريد أن يأتي زال كي يحرق ريش
العنقاء ويسأل

نه جويد زال زر را تا بسوزاند پير
سيمرغ وپرسد

عن حلّ وحيلة

[چاره وترفند^(١)

في القصيدة المذكورة أعلاه باسم «
قصه ي شهر سنگستان [قصة المدينة

الحجرية]» يتحدث أخوان عن ملك ومدينة
نهب الأجنب والقراصنة كل ما فيها، وأمّا
سكانها فتحوّلوا إلى أحجار هامة، ويتجوّل
الملك بينهم ويصرخ بهم حتى يستيقظوا
من النوم، لكنّ الأحجار ظلّت صامتة. وفي
نهاية المطاف يشعر الملك بالخيبة، فيظن
بأنّ كلّ الجولات والمحاولات عبثية،
وأصابته الخيبة وترك طريق البحث عن
الحل والبحث عن زال وسيمرغ.

الملك هنا رمز لشخصية الشاعر وهويته
الفردية، والأحجار الهامة رمز للشعب
الإيرانيّ الضائع وبلاهوية. وقام الشاعر
باستدعاء الشخصيات الأسطورية أمثال زال
والسيمرغ للإشارة إلى هويته القومية
الإيرانية، لكن هوية وقومية منسية وبلا
تأثير في روح الأمة الميّنة حتى أصبح
الملك (أخوان) خائبًا، وتوقّف عن البحث عن
الحل في النهاية.

في الشاهنامه كان زال رمزًا لطلوع
الحضارة الجديدة، لأنّ زال دخل المدينة
عند طلوع الشمس، وكانت سيمرغ رمزًا
للهداية لأنّ سيمرغ أعطت زال ورستم ثلاث
ريشات ليُشعلها عند الحاجة إلى الدليل
حتى تُغيثهما، فصار ريش السيمرغ رمزًا

(١) أخوان ثالث، مهدي، از اين اوستا [من هذا الأوستاق]، انتشارات زمستان [دار النشر زمستان]، طهران، ١٣٩١ هـ.
ش [٢٠١٢م]، ص ٢٢.

للاهداء^(١). لكنّ أخوان لا يبحث عن زال أي الحضارة الجديدة، ولا يبحث عن السيمرغ أي طريق الهداية والنجاح لشعبه الذي تخلّى عن هويته القومية - الإيرانية ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

٢-١- رستم بن زال:

هو بطل أسطوري فارسي أبعدهم صيتاً وأبقاهم ذكراً. وهو بحسب الأساطير الفارسية فارس ومغامر تغنى به الفردوسي في ملحمة الشاهنامه ومآثره تملأ القصص الفارسية، واسمه يتردد في الشعر القديم والحديث.

تزوَّج رستم من تهمينة ابنة ملك سمنجان (سمنگان، إحدى الولايات الأفغانية اليوم) وأنجب منها ولداً سمّاه سهراب. قُتل رستم على يد أخيه شغاد بعد قتله إسفنديار. كان له جواد أسطوري مشهور باسم «رخش». لقي رستم المنازل السبعة المشهورة في الفارسية بـ «هفت خوان رستم» (خوان أو خان بمعنى المنزل،

وهنا يعني المرحلة)، فهي سبعة مهالك عبرها رستم ورخش بنجاح، إذ كان ناهباً إلى مازندران ليقتل الغول الأبيض ولينقذ كيكاووس وأمراء الجيش، وحدث هذا في أيام شباب رستم^(٢).

إنّ شخصية رستم تُعدّ رمزاً لتاريخ إيران الأسطوري، وهو من أكثر الشخصيات التراثية الإيرانية استخداماً في الأدب الفارسي، وقد استدعاه مهدي أخوان ثالث في قصائد عديدة.

في القصيدة الشهيرة «خوان هشتم وأدمك ١ [المهلكة الثامنة والمجدار ١] يُنشد الشاعر في أسلوب روائي، بلغة فخمة فاخرة عن المقهى الذي يلتجئ إليه من صولة البرد. عندما يدخل المقهى يصوّر ما يجري فيه كالكاميرا: يغلي السموفر ويدخن الحضور، وينقل الرجل القصّاص رواية... وأمّا بعد فيتحوّل أخوان إلى القصّاص ويسمّي نفسه «ماث» (مأخوذ من أوائل اسمه مهدي أخوان ثالث) ويروي قصة «خوان هشتم [المهلكة الثامنة]»^(٣) ويقول:

(١) أبو محبوب، أحمد، زال نماد تمدّن است [زال رمز الحضارة]، محاضرة في موقع www.ibna.ir.

(٢) والمنازل السبعة لرستم هي: الأول: قتال رخش وأسد الغابة والثاني: عبور رستم التيه، الثالث: حرب رستم والتنين، الرابع: قتل رستم امرأة ساحرة، الخامس: حرب رستم وأولاد مرزبان، السادس: حرب رستم وأرجنگ (ارزنگ) السابع: حرب رستم وديو سييد (الغول الأبيض) للمزيد من الإطلاع انظر: كزاي، مير جلال الدين، نامه ي باستان (ويرايش وگزارش شاهنامه ي فردوسي، ازپادشاهي نوذر تا پايان رستم وسهراب) [رسالة من العصور القديمة (التدقيق والتقرير عن الشاهنامه للحكيم الفردوسي)، من البداية إلى حكم سلطان منوجهر]، المجلد الثاني، ص ٦٤-٧٥.

(٣) إنّما تنتهي خوانات رستم [المهالك لرستم] في الخوان السابع [المهالك أو المنازل]، أمّا الخوان الثامن فسمّاه أخوان هكذا، قتل رستم علي يد أخيه شغاد.

المهلكة الثامنة **خوان هشتم را**
أنا أرويها حالياً **من روایت میکنم اكنون،**
أنا اسمي ماث **من كه نامم ماث^(١)**

ويستمر أخوان في كلامه عن رستم
ويقول:

نعم الآن أسد إيران شهر
أرى اكنون شير ايران شهر،
البطل السجستاني المارد
تهمتن گرد سجستاني
جبل الجبال، وسيد الرجال
كوه كوهان، مرد مردستان،
رستم الزال رستم دستان،
في قعر البئر المظلمة والواسعة
در نك تاريكتر ف چاه پهناو،
(البطل) في قعر بئر الغدر السافلين
چاه غدر ناجوانمردان،

...
بطل المهالك السبعة، الآن
پهلوان هفت خوان، اكنون
صار طعمة في فوهة المهلكة الثامنة
طعمه دام ودهان خوان هشتم بود
فكر أنه ومي انديشيد

لئلاً ينبس ببنت شفة،
كه نبايستي بگويد هيچ
ما أشنع هذه الخدعة وما أشوها
بس كه بيشرمانه ويست ست اين
تزویر^(٢)

ويستمر أخوان في وصفه لرستم،
ويشير إلى مسقط رأسه سجستان، ويشبه
أخوان رستم في عظمته وجبروته بجبل
الجبال [كوه كوهان] ويصفه بسيد الرجال
والعملاق [مرد مردستان].

وأما بعد كل هذه الأوصاف فيرسم
اخوان صورة مؤلمة عن رستم الذي وقع
في بئر شغاد، بئر الغدر وبؤرة الخيانة.
ذلك الباسل الذي عبر المهالك السبعة
ناجحاً، قد وقع في شبكة «خوان هشتم».

استخدم أخوان شخصية رستم مقابل
شخصية شغاد أي أنه يضع الهوية القومية
- الإيرانية أمام الخيانة والغدر، ويريد
اخوان بهذة الوسيلة إبراز هويته القومية
وهي على وشيك الخراب والنسيان بين
أبناء شعبه كما يقول الباحث «يوسف عالي
عباس آباد: «تعدّ الأساطير عنصراً من
العناصر غير القابلة للانفصال عن الثقافة
القومية، ومن الطبيعي أنه ينبغي على أيّ

(١) اخوان ثالث، مهدي، سه كتاب [الكتب الثلاثة]، منشورات زمستان، طهران، ١٣٩١ هـ. ش [٢٠١٢م]، ص ٧٧-٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.

شخص اللجوء إليها ليحظى بهويته.. في شعر أخوان، كانت إحدى مقومات هوية الشاعر الثقافية والإيرانية اعتماده على الأساطير القوميّة - الإيرانية ورسمه للصور الشعريّة من خلالها»^(١).

ويصف أخوان رستم البطل الأسطوري بمنزلة الهوية القوميّة - الإيرانية أمام غدر أخيه شغاد كرمز لغفلة زبناء شعبه تجاه تحديات العصر الحديث ويقول:

رستم! البطل الذي قد قتل «ديو سپيد»

پهلوانِ كشتنِ ديو سپيد، آنگاه

يواجه غول الحزن الأسود،

ديد چون ديو سياهی، غم

- الذي كان مجهولاً له حتّى الآن -

کز برایش پهلوانِ ناشناسی بود تا آن دم-

قد تشبّث به،

پنجه افکنده ست در جانش؛

وتضغط الآلام قلبه.

ودلش را می فشارد درد

....

فجأة ناگهان انکار

على حافة البئر بر لبِ آن چاه

يُشاهد ظلّ الرهيب

سايه اي - پرهيب محو سايه اي - را ديد

هو شغاد، ذلك الأخ الخائن

او شغاد، آن نابردار بود

وهو ينظر إلى قعر البئر ويضحك

که درون چه نگه می کرد می خنديد^(٢)

يرسم أخوان في الأبيات المذكورة أعلاه صورة تراجيدية مأساوية عن موت رستم وافكاره تجاه اخيه الخائن المدعو شغاد، ويريد أخوان من خلال هذه الصورة المؤلمة أن يبين لأبناء شعبه ضعف الهوية القوميّة - الإيرانية بسبب خيانة المواطنين لا خيانة الأجنبي حيث يضحك شغاد أخو رستم حين وقع رستم في البئر في الأبيات المذكورة، وهو رمز لأشخاص من الأمة، وهم الخائنون لهويتهم بفخر واعتزاز.

ولم يكتف أخوان بهذا القدر من الاهتمام بالهوية القوميّة الإيرانية بل حاول إحياء أمجادها، ويرمز برستم مرة أخرى إلى الذين يريدون إحياء الهوية القوميّة الإيرانية، ويريدون إعلاء شأن الوطن في العصر الراهن، فقام بانشاد قصيدة «خوان هشتم وأدمك ٢» (المهلكة الثامنة والمجدار ٢). تُولد القصيدة في المقهى الذي يلتجئ

(١) علي عباس آباد، يوسف، ايران وهويت ملي در اندیشه مهدي اخوان ثالث [إيران والهوية القوميّة في آراء أخوان ثالث]، فصلية علمية - بحثية في الدراسات السياسيّة طهران، ١٣٨٩ [٢٠١٠م]، العدد ٤١، ص ٧٨.

(٢) أخوان ثالث، مهدي، سه كتاب [الكتب الثلاثة]، ص ٨٤.

إليه الشاعر من صولة البرد، ولكن قد
تغيّرت الظروف وليس الحكواتي من يتكلم
وسط المقهى أو أي تجوّل، بل تنقل القصة
جعبة الإفرنج السحرية (التلفاز):

مع أنّ الجميع يعلمون ويرون

گرچه می بینند و می دانند آن انبوه

أَنَّ ذلك الشخص الذي نقل حالياً

كَأنَّه اكنون نقل می گوید

من داخل الصندوق الإفرنجي السحريّ

از درون جعبه جادوی فرنگ آورد،

هو ذئب في لباس ثعلب ساحر ومخادع

گرگ روبه طرفه طراری ست افسونکار^(۱)

ويقول أخوان في الأبيات المذكوره
أعلاه إنّ الناس يستمعون إلى ما يبثّه التلفاز
عالمين بأنّ مصدره الذؤبان. ويرمز
بالذؤبان إلى الثقافة الأجنبية التي تهدد
الهوية القومية الإيرانية.

ثمّ يصوّر الشاعر القصّاص الذي جلس
وحيداً صامتاً في زاوية من المقهى، بعيداً
من الذين جلسوا قربه... غضبان، فيخجل
الشاعر:

آه آه

يا لخلتي، لخلتي شرم آید، شرم
من القصّاص القديم الجالس في زاوية، عند
الشباك

در سِکُنْجی، در کنارِ پنجره، نَقّال پارینه،
صامتاً ومتألّم القلب مستاءً

سوت وکور و سرد و افسرده^(۲)

يستخدم أخوان كلمة «نقّال پارینه
[الحکواتي القديم] مشيراً إلى من يريد
احياء الهوية القومية الإيرانية من طريق
رواية الأساطير القومية الإيرانية، وهو
محزون لأنّ الناس لا يستمعون إليه بعد
ظهور الجعبة السحرية (التلفاز وهو رمز
الغزو الثقافي). وتطلب الجعبة السحرية
(التلفاز) من الأطفال أن يتركوا التاريخ
والأبطال الإيرانيين:

آیها الأطفال

بچه ها جان! بچه های خوب!

مرحباً بالأبطال الأحياء

پهلوان زنده را عشق است

واستمعوا القصة منّا، مات الماضي

بشنوید از ما، گذشته مُرد،

فمرحباً بالحاضر والمستقبل

حال را، آينده را عشق است

واستمعوا إلینا، مرحباً بالأبطال الأحياء

بشنوید این پهلوان زنده را عشق است

...

(۲) المصدر نفسه، ص ۸۹-۹۰.

(۱) المصدر نفسه، ص ۸۹.

يا محبّي البطولة!

وائِ شمایان دوستدارِ پهلوانیها،

نحن سام وزال

سام نیرم، زالِ زر ماییم،

ورستم و سهراب الشجعان

رستم دستان و سهرابِ دلاور نیز،

وبرزو وفرامرز

ما فرامرزم، ما برزو

والملك الشهير أيضاً

شهریار نام گستر نیز^(۱)

يستخدم أخوان اسم الأبطال الأسطوريّة في الأبيات المذكورة أعلاها منها «سام» و«زال» و«رستم» و«سهراب» و«برزو» و«فرامرز» متأثرة عن هويته القوميّة الإيرانيّة. ثمّ يتأوّه أخوان وينادي رستم متحيراً بينه وبين رستم العصر:

وامصيبتا، بناءً على أي قيم

ای دریغا، با چه هنجاری

تتجلّى اليوم في أي شكل

در چه تصویری تجلّی کرده ای امروز،

یا رستم، یا ولیّی المحترم، یا ابن زال المسکین

رستم، ای پیرِ گرامی، پورِ مسکین زال^(۲)

يصف أخوان رستم بصفة «ولیی المبجل» [پیرگرامی] فیبرز حبه وعشقه للهوية القوميّة الإيرانيّة ويبرز لهفته وحنينه على ماضيه المنسي وهويته الضائعة مستخدماً كلمة «پور مسکین زال [ابن زال المسکین]».

هكذا، يتحدّث أخوان عن الغزو الثقافي الغربي الذي يرمز إليه بدخول التلفاز^(۳) في المقهى (المجتمع). نحن نرى أنّ التلفاز ينادي ويدعو الأطفال لكي يغيّروا أفكارهم، فيُعدّهم لقبول الثقافة الغربية. ثمّ يطلب إلى الأطفال أن يتركوا الماضي - التاريخ والثقافة الإيرانيّة - فيرغبوا في الوضع الذي يسيطر فيه الغرب على بلادهم، وفي المستقبل تتضاعف هذه السيطرة. يجعل الشاعر في قصيدة «خوان هشتم وأدمك»^۱ [المهلكة الثامنة والمجدار ۱] قوة واختياراً لرستم (الهويّة القوميّة الإيرانيّة) وهو يستطيع أن يخرج من البئر، ولكن في قصيدة «خوان هشتم وأدمك»^۲ [المهلكة والمجدار ۲] وقع رستم (الهويّة القوميّة الإيرانيّة) في بئر أعمق غوراً من بئر شغاد، لا يستطيع أن يخرج منها، لأنّ شغاد العصر سلب أنشوطته.

(۲) المصدر نفسه، ص ۹۰-۹۲.

(۱) المصدر نفسه، ص ۹۱.

(۳) أحمد پور، علي، رمز ورمزگرایی در اشعار مهدي اخوان ثالث [الرمز والرمزيّة في أشعار مهدي أخوان ثالث]، منشورات ترنج، مشهد، ۱۳۷۴ هـ. ش [۱۹۹۵ م]، ص ۱۵۴.

٣-١ - سهراب^(٤)

يستخدم أخوان شخصية سهراب متأثراً بالشاهنامه ليرمز هويته القوميّة - الإيرانية من زاويا متعددة بما فيها من الإزدهار والأفول والتضائل. ويستلهم أخوان هذه الشخصية الأسطورية في قصائد عديدة ويستدعيه رمزاً للبطولة والمظلومية في العصر الراهن، حيث يرسم أخوان فضاء السجن في قصيدة «نطفه ى يك قهرمان با توست» [أنت تحملين نطفة بطل]، والعجوز التي أعتقل ابنها لقضايا سياسية وهي

خلق أخوان قصيدتي «خوان هشتم وأدمك ١ [المهلكة الثامنة والمجدار ١]» و«خوان هشتم وأدمك ٢ [المهلكة الثامنة والمجدار ٢]» مستدعيًا شخصية رستم، فصار رستم روحًا للقصيدتين. وهنا كما في قصائد أخرى يستخدم فيها أخوان شخصية رستم، على نحوٍ عابرٍ، وعلى سبيل التعريض: ١ - قصيدة «جراحت [الجرح]»^(١) ٢ - «اي منطقي [يا منطقي]»^(٢) وأيضًا في «كيستان [من؟]»^(٣).

(١) اخوان ثالث، مهدي، آخر شاهنامه [نهاية الشاهنامه]، منشورات زمستان، طهران، ١٣٩١ هـ. ش [٢٠١٢م]، ص ١٣٠.

(٢) اخوان ثالث، مهدي، ترا اي كهن بوم وبر دوست دارم [أحبك أيها الوطن العريق]، منشورات زمستان، طهران، ١٣٩١ هـ. ش [٢٠١٢م]، ص ٣٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

(٤) من أشهر أبطال الشاهنامه، أبوه رستم وأمه تهمينة ابنة ملك سمنغان (أو سمنگان، من الولايات الأفغانية). مولده سمنغان التي كانت من طوران (منطقة تقع بعد ما وراء النهر وقد حدث الكثير من الحروب بين إيران والحكم الطوراني الأسطوري فيها). عند الولادة ربط رستم اسورة من الخرز على عضده كعلامة، ثم غادر طوران. عندما كبر سهراب عزم أن يفتح إيران ثم طوران فيجلس أباه على عرش البلدين. عرف أفراسياب (ملك طوران) عزمه، وأرسله مع جيش إلى إيران منتظرًا الفرصة. يسمع كيكاووس (ملك إيران) الخبر ويرسل رستم إلى ميدان القتال. يواجه سهراب رستم، ويريد منه أن يعرف عن نفسه، فيجيب بأنه رستم، وأما رستم فلا يُنازله،. تستخدم الحرب وتستمر... بعد ثلاثة أيام يواجه رستم سهراب في المعركة ويغرس الخنجر في ضلعه، ويمزق درعه... ههنا المأساة! شاهد رستم الخرز على عضد سهراب فعرف أنه ابنه. يرفع رأسه إلى السماء صارخًا، ولكن قد سبق السيف العذل. يبعث رستم رسولاً إلى كيكاووس يطلب منه الدواء. وأما كيكاووس فيخشى قوة سهراب، وتلكًا في إرسال الدواء حتى لقي سهراب حتفه. ويصل الدواء بعد موت سهراب، ولكن بلا جدوى! وصار هذا مثلًا في الفارسية: «نوش دارو پس از مرگ سهراب» (الدواء بعد موت سهراب)، يُطلق على العمل الذي لا فائدة منه وفي غير وقته، معادلًا في العربية للمثل «إلى أن يحيى الترياق من العراق». للمزيد من الإطلاع أنظر: كزاي، مير جلال الدين، نامه باستان (ويرايش وگزارش شاهنامه ى فردوسي، از پادشاهی نودز تا پایان رستم و سهراب) [رسالة من العصور القديمة (التدقيق والتقرير عن الشاهنامه للحكيم الفردوسي، من البداية إلى حكم سلطان منوچهر] (المجلد الثاني، ص ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠؛ ٦٣٢ حتى ٦٦٨ باختصار وتصرف.

جاءت لتُخلّصه، ولكنّ ابنها لا يتنازل عن هدفه وتريد من زوجة ابنها أن تستغل مكرها النسائي ودلالها من أجل انقاذ ابنها.

تخاطب زوجة ابنها على لسان الشاعر بأنّها امرأة قوية تستطيع أن تعتقل مائة بطلٍ مثل سهراب بوهق ذُؤابتها، الذي لم تنجح كُرد آفريد^(١) أن تعتقله:

أدعوك أنا، يا عزيزتي

با توام من، آى دختر جان!

يا من تستطيعين بحبال شعرك أن تصيد

كه به تارى از كمند گيسويت گيرى

مئة بطلٍ مثل سهراب

صد چندان سهرابِ يل را، آنكه نتوانست

الذي لم تنجح كُرد آفريد أن تعتقله

نازنين كُرد آفريد كُرد^(٢)

يستخدم اخوان اسماء الأبطال الإيرانيين أي سهراب وكرد آفريد المستمدة من الشاهنامه للفردوسي حتى ينقل الروح القوميّة الإيرانية من خلالها إلى الجيل الحالي ويذكّرهم بأمجادهم وهويتهم الشامخة في الأبيات المذكورة أعلاه، حتى تؤدي إلى النهضة والحراك في المجتمع للتخلص من السياط. ويواصل الشاعر كلامه ويقول:

إن أنجبت ابناً - فاعطيه حزام أبيه (كعلامة منه)،

گر پسر زادي، كمر بندِ پدر بسپار
وودارش

ليربطه على خصره بشجاعة ورجولة

همچنو مردانه وبى باكبر بندد^(٣)

يطلب أخوان على لسان السجين من زوجته أن تربط حزامه على خصر طفله إن أنجبت ابناً؛ كأنّ أخوان يتوحد مع رستم الأسطوري ويمارس دوره في عصرنا هذا.

يستخدم أخوان لفظ «كمر بند پدر [حزام الأب] ليشير إلى أسطورة رستم وولادة ابنه سهراب، وأصبح الحزام هناك رمزاً لمن يحمل طوال عمره تراثه وهويته، كما ربط رستم إسورة الخرز على عضد سهراب. يقصد الشاعر بحزام الرجل روح الهوية القوميّة الإيرانيّة التي تنتقل من جيل إلى الأجيال القادمة.

في قصيدة «لعنت پيرى» [لعنة الشيخوخة] يُشير الشاعر إلى مظلومية سهراب الذي يصله الدواء بعد أن حلّق طائر الموت فوق رأسه:

أعطى الشاه كاوس لسهراب الترياق

نوشدارو مى دهد سهراب را كاوس شاه
لكن يا أميد^(٤)!

(١) البطلّة الأسطورية الإيرانية التي قاتلت سهراب وفشلت فاعتقلها سهراب، ولكنها تخلّصت منه .

(٢) اخوان ثالث، مهدي، سه گتاب [ثلاثة كتب]، ص ٢٣٤ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٦ .

(٤) أميد هو الاسم الشعري المستعار لأخوان .

بعد أن استلقى سهراب على تربة العدم

ليك اميد! أنكه كه بر خاك عدم پهلو
نهاد^(١)

٥-١- كاوه ي آهنگر^(٢) (كاوة

الحداد)

الشخصية الأسطورية الإيرانية الذي ثار
على الضحّاك (الملك السقّاح) وأطاح
بحكمه. كان كاوة الحداد رمزًا للثورة على
الظلم في الثقافة الأسطورية الإيرانية.

في قصيدة باسم «كاوه يا اسكندر؟
[كاوة أم الإسكندر؟]» يصوّر أخوان مدينة
صامتة لا يُسمع فيها أيّ صوت حتّى من
اليوم في المقابر، كأنّ سكّانها قد ماتوا منذ
أعصار:

في مزارات هذه المدينة الخاملة

در مزار آباد شهرِ بى تپش

لم يعد يُسمع حتى نعيب اليوم

واي جغدى هم نمى آيد به گوش

أهلها متألّمون متصلّبون صامتون

دردمندان بى خروش وبى فغان

يستخدم أخوان شخصية رستم رمزًا
للهويّة القوميّة الإيرانيّة، ويرمز بشخصيّة
سهراب لمن يبتعد عن جذوره وتراثه
وهويّته، ويصوّر نهاية هذا الأمر أي موت
من يبتعد عن هويته وتراثه في نهاية
المطاف كما مات سهراب في إثره. ويرمز
بشخصية كاووس شاه إلى الخائنين الذين
يستغلون الفرصة ليُبعدوا الأمة عن هويتها،
كما يتردد كاووس شاه في ارسال الدواء
لسهراب.

والفاظ «نوشدارو[الترياق]» و«سهراب»
و«كاووس شاه» كلّها إشارات إلى التراث
الأسطوري - القومي عند الإيرانيين، وتعلّق
الشاعر بقوميته وإيرانيته، وهو يقتبسها من
الشاهنامه حفاظًا على أمجاده، ونفوره من
الثقافة الأجنبية.

- (١) اخوان ثالث، مهدي، ترا اي كهن بوم وبر دوست دارم [أحبك أيها الوطن العريق]، ص ٤٩
- (٢) بعد أن جلس الضحّاك على العرش قبل الشيطان كتفيه وظهرت منهما حيّتان. بعد ٨٠٠ سنة بدأت الحيّتان تتألّمان. قال له الأطباء: يجب أن تأكل كلّ واحدة من الحيّتين مُمّخ شاب كلّ يوم. فكان عمّاله يقتلون كلّ يوم رجلين. ذات يوم اعتقل عمّال الضحّاك في إحدى القرى ولدي رجل حدّاد اسمه «كاوه ي آهنگر» وذهبوا بهما إلى الضحّاك، فأمر الضحّاك بقتلهما. عندما سمع كاوة الخبر دخل المدينة واستعان بالناس على الثورة. رفع كاوة مئزره على الرُمح كالراية، وهاجم مع الناس الضحّاك، وسحبه عن العرش واعتقله في جبل «دماوند». كان كاوة رمزًا لثورة الشعب طالبًا الحرية، ويرمز برايته المشهورة بـ«درفش كاويان» إلى مجد إيران. للمزيد من الإطلاع انظر إلى: معين، محمّد، فرهنگ فارسي [المعجم الفارسي]، ج ٦، ص ١٥٤٢ أيضًا: كزازي، ميرجلال الدين، نامه ي باستان) فردوسي، از آغاز تا پادشاهي منوچهر] رسالة من العصور القديمة (التدقيق والتقرير عن الشاهنامه للحكيم الفويرايش وكزارش شاهنامه ي ردوسي)، من البداية إلى حكم سلطان منوچهر]، المجلد الأوّل، ص ٣٤٨ حتّى ٤٠٠.
- (٣) أخوان ثالث، مهدي، آخر شاهنامه [نهاية الشاهنامه]، ص ٢٤.

وهو غاضب من ذلك الصمت والسكون

خشمناك ان بي فغان وبى خروش^(١)

يستخدم أخوان في الأبيات المذكورة
أعلها عبارة «مزار آباد شهر بي تپش»
[مزار المدينة الهامدة] كي يقول عن الشعب
إنه بلا هويّة، وكأنتهم في السبات الشتوي،
وحتى البومة تغضب منهم ولا تغني،
مشيرًا إلى الأوضاع المؤلمة في المجتمع
الإيراني في الحقبة التي عاش فيها أخوان.

ويجري الحديث عن الحكّام والأجانب
الذين نهبوا هذه المدينة ثمّ انصرفوا إلى
شأنهم، وأمّا نحن فبقينا بؤساء في كلّ
العصور وفي ظلّ كلّ الحكام:

كلّ من جاء حمل نصيبه وغادر

هركه آمد بار خود را بست ورفت

لكن نحن بقينا بؤساء، أذلاء، مُعدمين

ما همان بد بخت و خوار وبى نصيب

ماذا نتج عن ذلك غير الكذب وغير الكذب؟

زآن چه حاصل، جز دروغ و جز دروغ؟

ماذا نتج عن هذا غير الخداع وغير الخداع؟

زين چه حاصل، جز فريب و جز
فريب^(٢)؟

ويستمع الشاعر إلى الناس وبعضهم
يقول للبعض الآخر:

اصبر! حتى يأتي غدًا حاكم آخر

صبر كن تا ديگری پيدا شود

لن يأتي كاوة

كاوه اي پيدا نخواهد شد، اميد!

فيا ليت الإسكندر هو الذي يأتي!

كاشكى اسكندرى^(٣) پيدا شود^(٤)

يوظف أخوان شخصيّة كاوة في الأبيات
المذكورة أعلها رمزًا للإيرانيين الذين
يريدون إحياء هويتهم، ويريدون التخلّص
من الهويّة الأجنبيةّة (الضحّاك) لأنّه عربيّ،
ويُنسب إلى اليمن في الأساطير الإيرانيّة^(٥).

لكنّ أخوان لم يكتف بهذا الحد، وإنّنا
نشاهد اليأس واضعًا حين يوجّه السؤال

(١) الموضوع نفسه.

(٢) الملك المقدوني - ابن فيليب الثاني - الذي هاجم إيران في العهد الأخمينيّ وفتحها. للمزيد من الإطلاع انظر:
معين، محمّد، فرهنگ فارسي [المعجم الفارسي]، المجلد ٥ [المجلد الخامس]، ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) اخوان ثالث، مهدي، آخر شاهنامه [نهاية الشاهنامه]، ص ٢٢-٢٦.

(٤) للمزيد من الإطلاع انظر: دكتر مهشيد اسدي وجمعي از نويسندگان، هندات (گاهنامه ي فرهنگستان جهاني كورش)
[المجمع اللغوي باسم الكوروش]، لوس انجلس، ناشر: شركت كتاب، شماره يك [العدد الأول]، ٢٠١٦م،
ص ٢٨١-٢٨٣.

(٥) انظر إلى: موريسن، جورج واخرين، تاريخ أبيات إيران از آغاز تا امروز [تاريخ الأدب الفارسي من البداية حتى
الآن]، ترجمة يعقوب آرند، منشورات گستره، طهران، ١٣٨٠هـ. ش [٢٠٠١م] ص ٤٧٢.

الأسطورية لإبراز هويته القومية - الإيرانية
ويعدّد أسماء الأبطال الأسطوريين ذوي
الطابع القومي أمثال بهرام وتوس
وگرشاسب وگيو في القصيدة المذكورة
أعلاه، ويوظّف أيضاً الفاظ أنيران [غير
إيراني] وما يشبهها ليشير إلى الأجنبي
وأعداء الهوية الإيرانية.

ب) إعادة القراءة في الهوية القومية عبر الشخصيات الأسطورية عند أدونيس

يسعى أدونيس إلى أن يكون شاعراً
مميّزاً، لهذا السبب ينظر إلى العالم من زوايا
متعدّدة، من أهمّها: التراث الأسطوري ليُعبر
عن مأساة الإنسان العربي. يعبر أدونيس
عن الأحداث والقضايا السياسيّة، والفكريّة
والاجتماعيّة المعاصرة ومنها قوميّته عبر
الأساطير، وهذا مقالته ربيعة بديع أبي
فاضل في حقّه: «وقد نمت الأسطورة، عنده،
من مدلولها الفرديّ إلى المساحة الجماعيّة،
من الخيط الأحاديّ الاتّجاه، إلى النسيج
الجماليّ الملحميّ الإنسانيّ الرّاقِي»^(٣).

وفي سياق هذا التوجه، تقول خالدة
سعيد «لقد اختار علي أحمد سعيد لنفسه
اسم أدونيس إعجاباً بهذه الشخصية

في هذه الأبيات المذكورة أعلاه إلى الشعب
الصامت الميّت، بقدر ما يرضى الشاعر
بمجيء الأجنبي حتى يخلّصوا الشعب من
مستنقع السكون والجمود. إنّا يستدعي
أخوان شخصية «الإسكندر» استدعاءً فنيّاً
طريقاً بجانب شخصيّة كاوة، لأنّ كاوة رمز
القائد الإيراني الذي يطالب بالهويّة القومية
الإيرانيّة والحرية - لكنّه غير موجود -
السؤال هنا لماذا يطلب أخوان وهو يحبّ
هويّته وقوميّته وإيرانيّته إلى هذا الحد
الجنونيّ المساعدة من الأجنبي
(الإسكندر)؟

الجواب هو خيبة الشاعر، فبعد انقلاب
«٢٨ مُرداد [برج الأسد]» العام ١٣٣٢ هـ
ش[١٩٥٣م] وإسقاط حكومة مصدّق
وعودة الشاه محمد رضا البهلوي عمّت
موجات اليأس والتشاؤم والشعور بالهزيمة
الأوساط الأدبيّة التي كانت تحمل طابعاً
سياسياً أو اجتماعياً^(١)، لاسيّما أخوان ثالث
الذي أصيب بصدمات روحية عميقة وأليمة
بعد الانقلاب، حتّى لُقّب بـ «شاعر
الهزيمة»^(٢).

لذا يستدعي أخوان ثالث الشخصيات

(١) انظر: عالي عباس آباد، يوسف، جريان شناسی شعر معاصر [تعرف تيارات الأدب الفارسي الحديث]، انتشارات
سخن، طهران، ١٣٩٠ هـ. ش[٢٠١١م]، ص ٢٣٧.

(٢) أبي فاضل، ربيعة، أثر أنطون سعادة في أدباء عصره، دارالركن للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، ص ٩٥.

(٣) سعيد، خالدة، حركة الإبداع (دراسة في الأدب العربي الحديث)، دارالعودة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٧.

١-١ - أدونيس:

«أدونيس إله الجمال والخصب
والإنبعث في بيلوس عند الفينيقيين قتله
خنزير بري فبعثته عشتروت من الموت
وأحبته وهو تموز البابليين»^(٤).

انطلق أدونيس إلى عالم الأسطورة
متقنًا بواحد من تجلياتها الأخاذة، فأصبح
(أدونيس) الأسطوري الذي انبثقت من
دمائه شقائق النعمان، والمرتبط في
الأسطورة الشرقية بدورة الفصول وتجدد
خصب الأرض وحياة النبات في كل عام
شاعرًا معاصرًا تدور فصول الرؤي في
يديه، فيتجدد خصب هويته القوميّة -
السوريّة - العربيّة، وتنمو حياتها النقديّة
بشجرته المباركة أحيانًا والمحرّمة أحيانًا
كثيرة.

ويظهر توظيف أسطورة أدونيس عبر
شخصيتها المحورية في العدي دمن
قصائده في حركة قوامها توظيف
الأسطورة الفينيقية القديمة التي يجتهد في
إبرازها في إطار مسعاه الفكري الحزبي
القومي، لاسيما في بداياته منطلقًا من

الأسطورية منذ العام ١٩٤٨^(١) ولم يكن
هذا الإعجاب وحده المحرك لهذا الاستدعاء
الحافل حد التقنع والتماهي بل لقد كان
لانتمائه الفكري والسياسي إلى الحزب
القومي السوري أثره في موقف فكري حادّ،
كان من تجلياته الإيمان بحضارة وادي
الرافدين فطفق يسبر أعماقها المعرفية
والثقافية فقد «كان مولعًا ببعث تراث بلاد
الرافدين ترسيخًا لانتمائه الحزبي»^(٢).

هذا، وتبدو الشخصية ذات المرجعية
الأسطورية متجذرة في نصّ أدونيس فهي
تمتد بامتداد مجاميعه الشعرية وتنوع
بتنوع المتغيرات في نصه ومتطلباتها
وتحضر متفاوتة بتفاوت المؤدّي الدلالي
الذي يسعى إليه لكنه يبقى في كل ذلك
متحرّكًا في وحي حداثة شعرية قوامها
محاولة إعادة الطاقات الخارقة إلى
الأساطير «وقدرتها غير الطبيعية التي
فقدتها في عصر العلم وذلك من طريق بعث
أبطالها ليجسد من خلالهم أفكاره ومشاعره
التي تجد في هؤلاء الأبطال صورتها المثلى
ومن ثم تمتزج أبعاد تجربته بمعطيات
الأسطورة»^(٣).

(١) بن زرقعة، سعيد، الحدائث في الشعر العربي أدونيس أنموذجًا، الناشر: أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت-
لبنان، ٢٠٠٤م، ص ٢٣٧.

(٢) عشري زايد، علي، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص ١٧٦.

(٣) فراس، السواح، مغامرة العقل الأولى (دراسة في الأسطورة سوريا وبلاد الرافدين)، دار النشر: سومر للدراسات،
نيكوزيا، الطبعة السادسة، ١٩٨٦م، ص ٣١٨.

(٤) أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، الناشر: دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، المجلد الأول، ١٩٩٦م، ص ٤٨١.

رومانسية تحاول أن تركز على الصورة
العاطفية في تجذير الموقف الفكري يقول
في القصيدة التي تحمل اسم (أدونيس):

قال: هذا الشجر

لا يزال، كما كنت في سنوات الصغر

الدروب إليه كتاب

والحقول الصور^(١)

ويوظف أدونيس في الأبيات المذكورة
أعلاها لفظ «الشجر» ليشير الي أسطورة
«أدونيس» السوري الأصل على أساس فكرة
أستاذه أنطون سعادة ليبرز هويته القوميّة -
السوريّة، حيث كانت تلك الهوية في بداية
حياتها وطفوليتها وبحاجة إلى الكثير من
الاهتمام للوصول إلى سن البلوغ.

أمّا قصيدة (مراكش - فاس والفضاء
ينسج التأويل) فتشتغل على ما هو أكثر
واقعية تبياناً للصورة الأسطورية في
شخصية أدونيس في نص الشاعر، فيغدو
الواقع البائس رهناً بحلم خصب لا يعود إلا
بالهدم المؤجل، إنه نفي للذاكرة يعيد
تشكيلها في نص مغرق بالسؤال:

أدونيس،

إنها اللحظة إياها تتسرب إليه،

وترفع أحزانه جبلاً يتدور على حناياه

وينكسر في زحام يتهودج أعراساً
أعراساً
ماذا ستفعل أيها الشعر، ما بذارك
الجديد؟

في بلدان تزدهي بجدها

في لغات تفرز الأوبئة

هل يكفي أن تتطوفن وأن تتبركن؟

إذن قل أنا الطاغية، واعلن جمهوريّة
الهدم^(٢)

يتغني أدونيس الشاعر بأدونيس
الأسطوري في الأبيات المذكورة أعلاها،
ويوظف الاسم «أدونيس» المستمد من
الأساطير الفنيقيّة كما قلنا للإشارة إلى
جذوره القوميّة - الفنيقيّة. ويقول إنّ هذه
الأسطورة تتسرب إليّ، وتريد هذه
الأسطورة من الشعر والشاعر حياة جديدة،
أي بعبارة أخرى يريد أدونيس الشاعر
إعادة الهوية المفقودة عبر الزمان حتى
تفرز في اللغة كإحدي أركان الهوية القوميّة
بمساعدة أدونيس الأسطوري (الطاقة
الكامنة في الأمة).

والجدير بالذكر، أنّ النصّ يتحرّك من
مرجعيّة النصّ الأسطوريّ لاسيّما كتاب
الغصن الذهبي لفريزر في مجلده الرابع،

(١) المصدر نفسه، المجلد الثالث، صص ١٦٧-١٦٨.

(٢) علي، عبدالرضا، الأسطورة في شعر السياب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨م، ص ٥١.

والنفي لك، أيها الرضى^(٢)

يتحدّث أدونيس في الأبيات المذكورة أعلاه عن زاوية من زوايا هويّته الفرديّة وهي التمرد مستخدمًا عبارة «حقًا أنا الطاغية»، ويريد هدم القديم بعبارة «أعلن جمهوريّة الهدم» لكن لم يكتف بهذا بل يدعو الجميع أن يأخذوا أفكارهم «مكان الشجر» لتتأصّل.

وهكذا، يوظّف أدونيسُ الشاعر أسطورة أدونيس مستخدمًا لفظة «الشجرة» أيقونةً للهوية القوميّة والحضارة الفينيقيّة القديمة، لكن يريد تأصيل هذه الأسطورة عند أبناء أمّته، وبناء الهوية القوميّة الحقيقيّة والمتجدّرة.

إنه لا يتوقف في رمزية المعنى عند الحضارة الفينيقيّة القديمة بل نجده يوظف الشخصية ذاتها الأسطورية والمنتقاة في لعبة التداخل الشعري والتلبس المقصود عبر استنطاق (تموز) «حيث ان الكلمة الموازية لأدونيس في الحضارة البابلية هي تموز، وهي كلمة سومرية تعني الابن الحق للحياة العميقة»^(٣) إذ إن أساطير الخصب والنماء ذات طقوس متشابهة في

الذي يتحدث عن طقوس الحضارات القديمة في محاولة السيطرة على خصوبة الطبيعة وتعليل موتها وعلاقتها بالآلهة^(١) موظفًا الشخصية الأسطورية في تناول يمتدّ بمكان الحدث في الأسطورة إلى مداها الأخير من منطقة الخصوبة إلى الخصب، الذي يشتمل عليه ساحل المتوسط، ولكنّ رغبة الخصب وإعادة الحياة إلى الهوية القوميّة - السوريّة ينقلب في شخصية أدونيس الشاعر (الهوية الفرديّة) إلى رغبة في تغيير هذا العالم القديم وبلا حراك بقوّة بناء وخالقة حيث يقول:

حقًا أنا الطاغية وأعلنُ جمهوريّة الهدم/

ألا، فلنكن شغلك الرئيس، أيها الانشاق وليهتزّ تحت حواسنا عرش

الأشياء ولنتزلزل دولة الموازين، -

قولوا لأحلامكم أن تأخذ مكان النجوم وتتدلّى

قولوا لأفكاركم أن تأخذ مكان الشجر وتتأصّل،

أحتضنًا، يا جنس الوله - ما بعد الملاك ما قبل الشيطان

(١) أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الثالث، ص ١٦٨.

(٢) زدادقة، سفيان، الحقيقة والسراب (قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعًا وممارسة)، الناشر: الدار العربيّة للعلوم ومنشورات الإختلاف، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٤٣١.

(٣) علي، عبدالرضا، الأسطورة في شعر السياب، ص ٥٢.

الحضارات القديمة^(١). وهكذا يرسم أدونيس خريطة القومية ذات النطاق الواسع من الحضارة الفينيقية وصولاً إلى الحضارة البابلية أي من المحيط ومنطقة الشام الكبرى إلى العراق الحالي مستخدماً أسطورة أدونيس، لأنه يعتقد بوحدة العالم العربي على أساس خريطة زعيم الحزب السوري القومي الإجتماعي أي الهلال الخصيب كما قلنا سابقاً.

٢-١ - فينيق وبعبك:

العَنْقَاءُ أو العَنْقَاءُ الْمُعْرَبُ أو عَنْقَاءُ مُعْرَبٍ بالعربية أو الفينيق أو الفينكس بالإنكليزية أو السيمرغ بالفارسية كما ورد في كتاب منطق الطير ويسمى الجارودا في الهندية، طائر خيالي ورد ذكره في قصص مغامرات السندباد وقصص ألف ليلة وليلة، وكذلك في الأساطير العربية القديمة، وينحدر من أصل فينيقي ودخل إلى سائر الحضارات القديمة^(٢).

يمتاز هذا الطائر بالجمال والقوة، وفي معظم القصص أنه عندما يموت يحترق ويصبح رماداً ويخرج من رماده طائر عنقاء جديد. وهكذا أصبح رمز التضحية

والحياة في الأدب الحديث شعراً ونثراً. من هذا المنطلق، يوظف أدونيس هذه الأسطورة في أعماله الشعرية ويقول في قصيدة (البعث والرماد):

فِينِيقُ خَلٍ بِصِرِي عَلَيْكَ، خَلٍ بِصِرِي

فِينِيقِ مَتِّ، فِينِيقِ مَتِّ

فِينِيقِ - تَلِكْ لِحِظَّةِ انْبِعَاثِكَ الْجَدِيدِ:

صَارَ شَبَهَ الرَّمَادِ، صَارَ شَرِّراً

وَالْغَابِرِ اسْتِفَاقِ مَن سِبَاتِهِ

وَدَبَ فِي حُضُورِنَا:

الْبَطْلُ اسْتَدَارَ صَوْبَ خُصْمِهِ

لِلْوَحْشِ أَلْفِ خَنْجَرِ

أَنْيَابِهِ مَطَاحِنِ

وَالظَّفْرِ السَّنِينِ سَمِ حِيَةِ

وَالْبَطْلُ الْقَوِي مِثْلَ حَمَلِ

تَمُوزِ مِثْلَ حَمَلٍ - مَعَ الرَّبِيعِ طَافِزٌ

مَعَ الزُّهُورِ وَالْحَقُولِ وَالْجَدَاوِلِ

النَّجْمِيَةِ الْعَاشِقَةِ الْمِيَاهِ

تَمُوزِ نَهْرٍ شَرِّرٍ تَغُوصُ فِي قَرَارِهِ

السَّمَاءِ، تَمُوزِ غُصْنِ كَرْمَةِ

تُخَبِّئُهُ الطَّيُورُ فِي أَعْشَاشِهَا

(١) للمزيد من الإطلاع حول أسطورة «طائر الفينيق» في الثقافتين الفارسية والعربية أنظر: لسان العرب، مادة عنقاء وأيضاً: بورنامداريان، تقي، ديدار با سيمرغ [لقاء العنقاء]، منشورات پژوهشگاه علوم إنساني ومطالعات فرهنگي [مركز أبحاث العلوم الإنسانية والتطبيقية]، طهران، ١٣٧٤هـ. ش [١٩٩٥م].

(٢) أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الثاني، ص ٨٠.

تموز كالإله^(١)

ادونيس الشاعر ويطير إلى مدينة «بعلبك»
وينزل فيها، ويرى هناك بنات مدينة
قرطاجة حيث يقول:

أحلم أنّ في يديّ جمرة
آتية على جناح طائر
من أفق مغامر
أشمّ فيها لهباً
قرطاجة العصور
ألمح فيها امرأة
يقال صار شعرها سفينة
ألمح فيها امرأة ذبيحة المصير
أحلم أنّ رثتيّ جمرة
يخطفني بخورها
يطير بي لبعلبك
بعلبك مذبح
يقال فيه طائر موله بموته
وقيل باسم غده الجديد
باسم بعثه
يحترق
والشمس من حصاهه والأفق^(٢)

وفي الأبيات المذكورة أعلاها يوظف
الشاعر أدونيس أسطورة «طائرالفنيق»
وينتظر انبعاثه من جديد، وبعبارة أخرى
يريد أدونيس الشاعر إعادة بناء هويّته
الفنيقيّة - السوريّة، ويريد من مواطنيه أن
يستفيقوا من سباتهم وعدم حراكم وصولاً
إلى هويته القوميّة والعربيّة حيث يستخدم
أسطورة «تموز» البابليّة ويصفها بعبارة
«تموز مثل حمل» و«تموز نهر
شرر» ليشجع شعبه على الانبعاث والنهضة.
وهكذا النص يتحرك من الهوية الفينيقية
المحدّدة إلى هويّة أوسع تمتد من أرض
الشام إلى أرض العراق.

هكذا، تتحرّك الشخصية الأسطوريّة
الثابتة إلى عالم متحوّل سعياً لخلق هويّة
جديدة، لم تعد الشخصية الرئيسيّة فيها
ثابتة في مواقفها ومواصفاتها الأولى أو
البدائيّة وإنّما انتقلت إلى مستوى تفجيرها
بما يؤهّلها لتشكيل عالم معاصر جديد
للإنسان العربي.

وفي قصيدة «البعث والرماد» يحلم

(١) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٦٧.

(٢) أسست قرطاج بحسب الأسطورة أميرة فينيقية هي آيسة وذلك سنة ٨١٤ ق.م، لكن من المحتمل جداً ان يكون
الملاحون الفينيقيون قد اعدوا أول الأمر محطة توقف في هذه البقعة لأنها حازت على اعجابهم كما نلاحظ أيضاً أنّ
قرطاج تعني المدينة الحديثة. للمزيد من الأطلاع حول الأميرة آيسة ودور المرأة القرطاجية أنظر: فنطر، محمد
حسين، عليسة وتأسيس قرطاج: محاضرة في إطار ندوة علميّة نظمتها الجمعية التونسية حول «المرأة والمجتمع في
تونس عبر التاريخ»، تونس، ٢٠١٥ على الموقع الآتي: <http://www.jomhoria.com>

الهوية القومية - الوطنية. وفي النهاية يقول أدونيس عن غده وغد أمته وشعبه «الغد الجديد» كأنَّ الشاعر يتوقع بعث أمته وبناء هويتها القومية من جديد.

وفي قسم آخر، تنتقل الجمرة المباركة المذكورة أعلاه إلى رثتي الشاعر، فكأنَّها الهوية الجديدة التي يتنفسها، وبذلك يتقدم خطوة نحو إعادة التراث والحفاظ على الهوية القومية والوطن من طريق التضحية والفداء، كما ينشد الفينيق الموت، ولكنَّه بعد ثلاثة أيام يتحوّل رماده إلى طائر جديد أكثر فتوةً وشباباً.

إذا فالفينيق وتضحيته هو طريق التجدد في الهوية، بوساطته يمكن القول إنَّه طريق التجدد في هوية أمته وتجدد في هوية الشاعر أيضاً حيث يقول:

غربتك التي تميت يا فينيق، غربتي

أزحت عن وجودي الركاب والفراغ

والدجي

بلهفتي إلى السوى - بحبي العظيم،

.....

يوظف ادونيس الفاظ «قرطاجة»^(١) و«بعلبك» و«جناح طائر» و«سفينة» ليشير إلى جذوره المستمدة من الحضارة الفينيقية، وهويته القومية والفينيقية، حيث كانت مدينتنا «قرطاجة» و«بعلبك» من مدن الفينيقيين وأيضاً كلمة «طائر» إشارة إلى طائر الفينيق الأسطوري في حضارته القديمة، وأيضاً يرى الشاعر امرأة تصنع من شعرها سفينة، ويرمز الشاعر بلفظة السفينة إلى زاوية من حضارة الشاميين القدماء، أي موهبتهم في الرحلات البحرية^(٢) حيث يقول الباحث «جان نعوم طنوس»: «فهو يحلم أن في يده جمرة آتية على جناح الطائر (الفينيق)، وهذه جمرة مطهرة لما تنطوي عليه من دلالات دينية وروحية سامية... وتترأى له صور النساء القاطنات المضحيات في سبيل الوطن، حيث يجعلن من شعورهن حبالاً للسفن المقاتلة»^(٣). إنَّ هذا الحب الكامن في نفس الشاعر لأرضه وتراثه وهويته السامية يتجلى في صور النساء القرطاجيات، لتشجيع النساء في بلده للحراك نحو بناء

(١) امتلك القرطاجيون مهارات عالية في بناء السفن التي استخدموها للسيطرة البحرية طوال قرون، كما عُرفوا بمهارتهم وخبرتهم في خوض غمار البحار، فسعوا لاكتشاف أسواق وأفاق جديدة، فأبحروا صوب الأماكن المجهولة في تلك العهود ولهم رحلات معروفة في التاريخ ومنها: ١-رحلة هملكون: وصلوا إلى شواطئ فرنسا وبريطانيا. ٢- رحلة ماغون: رحلة قرطاجية إلى إفريقيا... الخ. للمزيد من الإطلاع حول المدن الفينيقية والرحلات الفينيقية أنظر: أبو المحاسن عصفور، محمد، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، صص ٥٣-١٠٧.

(٢) طنوس، جان نعوم، الوجه الآخر لأدونيس (دراسة تحليلية نقدية)، الناشر: دارالمنهل اللبناني، بيروت، ٢٠١٠م، ص ١٤٠.

أحترق،

يكبرُ في الأفق - يولدُ في الأفق^(١)

وفي الأبيات المذكورة أعلاها، يوظف أدونيس أسطورة الفينيق، يريد الفداء والتضحية في سبيل الوطن، ويريد إعادة الهوية الحقيقية لشعبه والخلاص من الفراغ والتخلف. ويريد أن يزيل غربة المجتمع عن هويته بالموت والجهاد. ولم يكتف بهذا ويذكر عن معلمه أنطون سعادة في هذا النهج حيث يقول:

وأمس مات واحدٌ

مات على صليبه

خبا وعاد وجهه

كان يرى بحيرة من الكرز

حريقةً من الضياء وموعداً^(٢)

يوظف أدونيس الشاعر الطائر الأسطوري أي الفينيق ابرازاً لهويته الفينيقية لكن هذه المرة يموت على صليبه، كأنه يتحول إلى السيد المسيح أو معلمه في الحزب القومي السوري انطون سعادة الذي أُعدم. بعبارة أخرى يريد الشاعر الحركة والانتقال من شخصية إلى شخصية لبناء

هويته القومية والشامية بصورة مقبولة عند كل الأمة بمساعدة عناصر أو اشخاص قوميين ودينيين أسطورياً وواقعياً أمثال الفينيق (شخصية أسطورية) وسيدنا المسيح (ع) ورئيس حازب القومي (شخصيتان واقعتان) حيث يقول «أنطون كرم»: «فلماذا لا يقلد أدونيس طائر الفينيق، والمسيح، ويموت في سبيل وطنه رجاء أن يتجدد ويتخلص من قيوده؟ هذا هو منطق قصيدة «البعث والرماد» المستلهم من الأساطير الوثنية ومن العقيدة المسيحية مع اختلاف في التفاصيل. وأكثر من ذلك، لقد مات «أمس» بطل عظيم (أنطون سعادة) في سبيل قضية، فلا مانع أن يقلده الشاعر»^(٣).

٥-١- مهيار:

إنَّ الإبداع والخلق يَصِلان زمن الحال بالزمن الذهني والخيالي. ويدخل الإنسان الحضري - بمساعدته مرّة ثانية - إلى عالم غير متحضّر وبدوي^(٤). يَصِف جوزف كامبل في كتابه «البطل بألف وجه» عالم الأبطال في رحلتهم الأسطورية بهذه الكلمات: «هذا الطور الأوّل من الرحلة الأسطورية يشير إلى أن القدر قد دعا البطل

(١) أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الثاني، ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٠.

(٣) طّوس، جان نغوم، الوجه الآخر لأدونيس (دراسة تحليلية نقدية)، ص ١٤٤.

(٤) زرين كوب، عبد الحسين، در قلمرو وجدان [في حياض الوجدان]، سروش، طهران، ١٣٧٥ ش [١٩٩٦ م]. صص ٤٠٣-٤٠٦.

حول مركز جذبه الروحي من داخل مجتمعه إلى منطقة مجهولة»^(١).

هكذا يخلق أدونيس شخصياته الأسطورية من التاريخ والواقع والطبيعة، ويدخلهم في أرض الأسرار ويلصقهم بعالم الأساطير والخيال، من ذلك مثلاً شخصية مهيار الديلمي الشاعر الشعبي الفارسي الذي كان مجوسياً ثم أسلم، وقد أطلت أدونيس الاحتفاء بهذه الشخصية، فذكره في شعره مرّات لا حصر لها، وأسبغ عليه من أوصاف البطولة والتنبؤ والثورة ما لا نظير له، ولم تكن شخصية مهيار سيرة ذاتية عند أدونيس وحسب، بل كانت بعثاً أسطورياً. وها هو الشاعر يتقنّع بشخصية مهيار، هو يحمل لقب الدمشقي، ويجد نفسه في مرآته، واستمع إلى بعض الأوصاف الأسطورية التي أضفاها أدونيس على مهيار:

مَلِكٌ مَهْيَارٌ

مَلِكٌ وَالْحَلْمُ لَهُ قَصْرٌ وَحَدَائِقُ نَارٍ^(٢)

وهكذا، يأخذ أدونيس مهيار التاريخي، فيخلقه بخميرة جديدة، مالكا على أرض الأسرار، وله حدائق نار ليبرز هويته

القومية للجيل الجديد وتشجيعهم للتقدم والبعث نحو إعادة المجد القومي الضائع عبر الزمان، لكنّ أدونيس سرعان ما يرسم من هذا الملك الجبار صورة مقلوبة، وها هو موته وخراب كبريائه وجبروته في قصيدة «الرأس والنهر» حيث يقسم أدونيس الشاعر قصيدته هذه إلى عدة أقسام: القسم الأوّل هو «القول» حيث يجري الحديث عن الحرب وموت القومية والحضارة عند الشاعر حيث يقول:

أَلْحَرْبُ زَرِيْبَةٌ

غَنَمٌ...^(٣)

ويستمد صوت الحكيم حكمته من الماضي البعيد المتصل بخيوط دقيقة في ثقافة الأمة وتراثها، ليؤكد حقيقة معاناة الأمة، وأنتك عند هذا الحد لا تستطيع أن تقر ما إذا كان الشاعر يوضّح الحقيقة أو المعاناة بالأسطورة، أو يرسّخ الأسطورة بالمعاناة المعاشية ليعطيها أبعاداً أخرى، وعندما يتأكد هذا الربط فإن الرمز المستمد من الموروث القديم بما فيه من صدق وشمولية يتجذّر ويصبح أكثر تجسيدا وتعبيراً وانعكاساً في نفسية المتلقي حيث يقول الشاعر:

(١) كامل، جوزيف، البطل بألف وجه، ترجمة حسن صقر، الطبعة الأولى، ناشر الترجمة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، قاهره، ٢٠٠٣م، ص ٦٧.

(٢) أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، الطبعة الخامسة، المجلد الثاني، ص ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ١٤٣.

قوافل سوداء مجهولة

تكمن تحت الماء^(١)

يوظف ادونيس في الأبيات المذكورة أعلاها «الماء» وهو رمز الحياة والازدهار حيث يخفي تحته عناصر الهوية العربية مستخدمًا عبارة «قوافل سوداء» ونرى الشاعر يصرخ في أثناء ذلك:

هل أنت يا سلالة الآباء

هل أنت يا سلالة الأمواج^(٢)

ويخاطب أدونيس في الأبيات المذكورة أعلاها المياه بما فيها عن قوميته المتخفية تحتها، وكأنَّ حضارة العرب وأمجاد العرب قد طمست، وأمَّا القسم الثاني فعنوانه «الزمن المكسور»، وفيه إشارة إلى الرأس المقطوع أو الشهيد الشبية بأورفيوس حيث يقول الشاعر:

حلمت أن رأسًا

في النهر

....

هل سمعته يتغني

كرأس أورفيوس^(٣)

يرسم ادونيس في حلمه صورة رأسٍ يطوف في نهر كأنه رأس أورفيوس، ويرمز بهذا إلى الهوية القومية والحضارة العربية

الخامدة، حيث يطوف جسدها أمام الجمهور ويرمز بالنهر إلى تجدد الحياة والبعث. ويضع أدونيس الرأس في مركز الاهتمام والتوجه والسؤال للقارئ، فأصبح رمزًا للشعب الضائع، وغير القادر على فهم هويته، وهو أمام عيونهم كالرأس المقطوع في النهر.

ويعلن الشاعر موته أيضًا حيث يقول:

مات مهيار مات

مثلما تنضج العناقيد أو يزهر النبات

مثلما يكسر القمر

وتهدُّ البيوت

مثلما يطفأ الشرر

مثلما تحضن البراكين أسرارها

وتموث^(٤)

لكنَّ موت مهيار من نوع آخر، ويبين لنا أن الموت حصل في عزِّ الحياة، أي عندما تنضج العناقيد ويزهر النبات. وهكذا يوظف أدونيس شخصية مهيار من بداية قصيدته هذه، بصور ومشاهد مختلفة رمزًا للهوية القومية الضائعة بين الأمة، حيث يظهر هويته في النهاية مهما كان في بداية الأمر مجهولاً، وفي مكان السخرية، لكنَّ في نهاية المطاف أصبح واضحًا للأمة وقادرًا على أن

(٣) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ١٤٧.

(٤) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ١٥٥-١٥٦.

(١) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ١٤٥.

يُبعث من جديد، وبهذا يروي أدونيس لأبناء
أمّته قصة هويتهم على مر الأزمان
بمساعدة الأساطير حيث يلقي إليهم أملاً
بالمستقبل وإعادة الهوية والحياة من خلال
التضحية والفداء في سبيل الهوية والوطن
والقوميّة، حيث يقول الرأس لمهيار في
نهاية القصيدة لشعبه:

لي وطنٌ

لا يعرف التّخوم، لا تحدّه الشّطانُ

تحدّني علامتان - الشّمس
والإنسان^(١)

هكذا، يقول الشاعر إنَّ الوطن له
علامتان اي هويتان بعبارة أدق ومنها
الإنسان أي الشعب السوري - العربي
وقوميته.

٣ - عشتار:

وكما ذكرنا سابقًا، يعتقد أدونيس
بجغرافيا السعادة في تعبير عن قوميته
ولهذا يتحرك أدونيس الشاعر في سفره هذا
من أرض الشام إلى أرض سومر القديمة
أي العراق الحالي، يعبر عن قوميته ذات
النطاق الواسع، ويوظف ادونيس أسطورة
«عشتار»، وهي روح الخصوبة، بعد أن
جفّت الأرض وتوقّف النسل، وتعطلّ كلُّ

مظهر من مظاهر الحياة المتجددة على
الأرض^(٢) حيث يقول:

رقصت بين جفوني الخائفة

جثة الليل وحرباء المدينة

فتقنعت بعشتار الحزينة

ورسّمت العاصفة^(٣)

يوظف أدونيس شخصيّة «عشتار» (رمز
من رموز القومية السوريّة) في الأبيات
المذكورة أعلاه، لكنها حزينة حيث جاءت
العاصفة (رمز الدمار والخراب) بحضورها،
وهذا الحضور الذي قد يتحدد بحسب
مقتضيات النص، يبقى في نص أدونيس
سابقًا لتفاصيل الأسطورة العراقية كجزء
من القومية العربيّة المترامية من الخليج إلى
المحيط قادرًا على خلق التجاوز في دلالاتها
الأصلية والأسطوريّة إلى مواقع أكثر تقدّمًا
في إسقاطها على ذات الشاعر، بما يبّد
التنوع بين كلية الحضور وجزئيته
والتفاوت الواضح في الظهور والذوبان،
وإذا كان هاجس أدونيس الدائم هو البعث
والحياة والحضور، فإنّه يقّدم الأسطورة
دائمًا كي تفضح «الواقع المضمحل بكل
تعفّناته الحضارية، وتقدم بطلاً منقذًا
يخلص الشعب بالتضحية والفداء. فهي

(١) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ١٦٤.

(٢) القمني، سيد، الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة، قاهره، ١٩٩٩م، ص ٧٣.

(٣) أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الأول، ص ١٠٦.

معادل للخصب والاختصار مع تجدد الحياة، وتختصر رحلة تموز بين الحياة والموت التحول الفكري والثقافي والحضاري من القحط إلى البعث مع التجديد وفق رؤية مستقبلية^(١). وما هي هذه الرؤية؟ الرؤية هي بناء مستقبل على أساس التراث القومي السوري، مستمدة من أفكار أستاذه أنطون سعادة حيث يصرح أدونيس في قصيدة «قصائد الأولى» إلى هذا الموضوع حيث تحترق عشتار كأسطورة الفينيق حيث يقول:

يا شعر هبه أن يغني مع اليأس

ويعتاد على النهار

اطفأت البذور في أرضه

شموعها واحترقت عشتار^(٢)

في الأبيات المذكورة أعلاه يوظف أدونيس شخصية «عشتار» من الأساطير العراقية مباشرة، لكنها تحترق كطائر الفينيق، وهكذا يقيم الترابط والاتصال بين أسطورة من الشام وأسطورة بابلية من العراق الحالي وأصبحت عشتار طائر فينيق في أرض العراق، بعبارة أخرى أراد أدونيس التوسّع في مصطلح الهوية القومية كأستاذه سعادة.

خاتمة:

نقاط التشابه:

١ - يهتم الشاعران بالتراث الأسطوري كجزء لا يتجزأ من الهوية القومية، وفي هذا المسار يستخدم الشاعران أدونيس وأخوان الكثير من الشخصيات الأسطورية لإبراز هويتهما القومية، وقد قام الشاعران بإعادة قراءة هويتهما القومية عبر الأساطير لتلقيها للجيل الحالي.

٢ - يستخدم الشاعران أخوان وأدونيس الشخصيات المصطنعة لإبراز هويتهما، حيث يخلق أخوان شخصية شهريار شهر سنغستان [ملك المدينة الحجرية] لإبراز هويته القومية الفارسية، ويخلق أدونيس شخصية مهيار الدمشقي [مستلهماً شخصية مهيار الديلمي] لإبراز هويته القومية السورية - العربية بشكل مبدع وأسلوب بديع، ليؤثرا في ذهنية القارئ والمخاطب أكثر، ولينقل آراءهما كما يريدان بحسب حاجات العصر.

٣ - يظهر الشاعران أخوان وأدونيس في قراءتهما عدم اهتمام المجتمع بالتراث أمام الغزو الثقافي، حيث يروي أخوان قصة العجوز في المقهى في هذا السياق،

(١) يحيوي، راوية، شعر أدونيس البنية والدلالة، الناشر: إتحاد الكتاب العرب، سوريا، ٢٠٠٨م، ص ٢٤٨.

(٢) أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الأول، ص ١٨.

ويتحدّث نظيره السوري عن رأس مهيار ويرمز به إلى عدم وعي أبناء المجتمع تجاه هويتهم القومية وتراثهم القديم. هكذا يرسم كلا الشاعرين خطة لإحياء التراث والهويّة القوميّة عبر توظيف الشخصيات الأسطوريّة من التراث القومي.

نقاط الإفتراق:

١ - تأثر أخوان في توظيفه الشخصيات الأسطورية بملحمة الفردوسي «الشاهنامة» وأولى كالفردوسي جلّ اهتمامه للشخصيات الأسطوريّة كرستم وزال وسهراب من الأبطال الأسطوريين والقوميين، لكنّ أدونيس بسبب عدم وجود الملاحم في التراث العربي يأتي بشخصياته الأسطوريّة من الأساطير الفنيقيّة والشاميّة في البداية، ثمّ يوسّع دائرة اهتمامه إلى سائر الدول العربية ومنها العراق ومصر وتونس والجزيرة العربيّة، واهتمامه بالأساطير يعود إلى حقبة انتمائه إلى الحزب القومي السوري.

٢ - يرتكز أخوان ثالث على شخصيات من الأساطير الإيرانيّة ولا يوسّع دائرة اهتمامه إلى أساطير أخرى، لكنّ أدونيس وإن كان قد اهتم في بداية الأمر بالأساطير السوريّة - اللبنانيّة (الشاميّة) عاد ووسّع

من بعد نطاق هذه الدائرة، وبهذا نستطيع أن نقول إنّ أدونيس قام حيناً بالقبض في دائرة هويّته وحيناً آخر بالبسط في دائرته القوميّة، وهو يدور في مسار القبض والبسط ليصل إلى هويته الدقيقة والملائمة لعصره^(١).

المصادر والمراجع

- ١ - لسان العرب
- ٢ - معين، محمّد، فرهنك فارسي [المعجم الفارسي].
- ٣ - أبي فاضل، ربيعة، أثر أنطون سعادة في أدباء عصره، دار الركن للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
- ٤ - أحمد پور، علي، رمز ورمزگرایي در اشعار مهدي اخوان ثالث [الرمز والرمزيّة في اشعار مهدي اخوان ثالث]، منشورات ترنج [دار النشر تُرنج] مشهد، ١٣٧٤هـ. ش [١٩٩٥م].
- ٥ - أخوان ثالث، مهدي، از اين اوستا [من هذا الأفتساق]، منشورات زمستان، طهران، ١٣٩١هـ. ش [٢٠١٢م].
- ٦ - أخوان ثالث، مهدي، ترا اي كهن برو بوم دوست دارم [أحبك أيها الوطن العريق]، منشورات زمستان، طهران، ١٣٩١هـ. ش [٢٠١٢م].
- ٧ - أخوان ثالث، مهدي، سه كتاب [ثلاثة كتب]، منشورات زمستان، طهران، ١٣٩١هـ. ش [٢٠١٢م].

(١) أول من إستخدم مصطلح القبض والبسط في العقيدة كان الدكتور عبدالكريم سروش في كتابه «قبض وبسط شريعت [القبض والبسط في الشريعة]» الذي قامت الدكتورة دلال عباس بترجمته من الفارسيّة إلى العربيّة.

- ٨- اخوان ثالث، مهدي، آخر شاهنامه [نهاية الشاهنامه]، انتشارات زمستان، طهران، ١٣٩١هـ. ش [٢٠١٢م].
- ٩- أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، دار المدى للثقافة النشر، دمشق ١٩٩٦م.
- ١٠- أسدي، مهشيد وآخرون (گاهنامه ي فرهنگستان جهاني كورش) [تقويم مجمع قورش اللغوي العالمي] لوس انجلس، الناشر: شركة الكتا، العدد الأول، ٢٠١٦م، ص ٢٨١-٢٨٣.
- ١١- بن زرقه، سعيد، الحدائنه في الشعر العربي أدونيس أنموذجاً، الناشر: أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ٢٠٠٤م، ص ٢٣٧.
- ١٢- پورنامديريان، ديدار با سيمرغ [لقاء العنقاء]، انتشارات پژوهشگاه علوم إنساني ومطالعات فرهنگي مركز أبحاث العلوم الإنسانية والتطبيقية]، طهران، ١٣٧٤هـ. ش [١٩٩٥م].
- ١٣- الرفاعي، عبد الجبار، جدل التراث والعصر، الناشر: دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠١م.
- ١٤- زرين كوب، عبد الحسين، در قلمرو وجدان [في حياض الوجدان]، سروش، طهران، ١٣٧٥هـ. ش [١٩٩٦م].
- ١٥- سعيد، خالدة، حركية الإبداع (دراسة في الأدب العربي الحديث)، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م.
- ١٦- طنّوس، جان نَعوم، الوجه الآخر لأدونيس (دراسة تحليلية نقدية)، الناشر: دار المنهل اللبناني، بيروت، ٢٠١٠م.
- ١٧- خير بك، كمال، حركة الحدائنه في الشعر العربي المعاصر، الناشر: دار نلسن، لبنان، ٢٠٠٩م.
- ١٨- علي عباس آباد، يوسف، جريان شناسي شعر معاصر [تعرف تيارات الأدب الفارسي الحديث]، انتشارات سخن، طهران، ١٣٩٠هـ. ش [٢٠١١م].
- ١٩- عشري زايد، علي، استدعاء الشخصيات التراثية، قاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٧م.
- ٢٠- علي عباس آباد، يوسف، إيران وهويت ملي در اندیشه مهدي اخوان ثالث [إيران والهوية القومية في فكر مهدي فصلية علمية - بحثية في الدراسات السياسية] طهران ١٣٨٩ [٢٠١٠م]، العدد ٤١، ص ٧٨.
- ٢١- علي، عبد الرضا، الأسطورة في شعر السياب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨م، ص ٥١.
- ٢٢- فراس، السواح، مغامرة العقل الأولى (دراسة في الأسطورة سوريا وبلاد الرافدين)، دار النشر: سومر للدراسات، نيكوزيا، الطبعة السادسة، ١٩٨٦م، ص ٣١٨.
- ٢٣- القمني، سيد، الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة، قاهره، ١٩٩٩م، ص ٧٣.
- ٢٤- كامل، جوزيف، البطل بألف وجه، ترجمة حسن صقر، الطبعة الأولى، ناشر الترجمة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، قاهره، ٢٠٠٣م، ص ٦٧.
- ٢٥- كزازي، مير جلال الدين، نامه باستان (ويرايش وگزارش شاهنامه ي فردوسي، از آغاز تا پادشاهي منوچهر) [رسالة من العصور القديمة (تدقيق وتحرير الشاهنامه للحكيم الفردوسي، من البداية إلى حكم منوچهر]، منشورات سمت، طهران، ١٣٩٤هـ. ش [٢٠١٥م]، المجلد الأول، ص ٤٨٣-٤٨٤-٤٨٥-٤٩٠ باختصار وتصرف.

٢٦ - كمال زكي، أحمد، دراسات في النقد الأدبي، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٧٧م.

٢٧ - موريسن، جرج وآخرون، تاريخ أدبيات إيران از آغاز تا امروز [تاريخ الأدب الفارسي من البداية حتى الآن]، ترجمة يعقوب آزندمنشورات گستره، طهران، ١٣٨٠هـ. ش [٢٠٠١م].

٢٨ - يحيى، راوية، شعر أدونيس، البنية والدلالة، الناشر: إتحاد الكتاب العرب، سوريا، ٢٠٠٨م.

المصادر الإلكترونية:

٢٩ - أبو محبوب، أحمد، زال نماد تمدن است [زال رمز الحضارة]، محاضرة في موقع

www.ibna.ir

بلدة الفوارة

قضاء الشوف، دراسة في جغرافية التهجير

د. صلاح عصام أبو شقرا^(١)

المقدمة

بعد اندلاع الحرب اللبنانية سنة ١٩٧٥م نتج عنها تداعيات عديدة، أبرزها التهجير، الذي طاول جميع الطوائف والمذاهب والمناطق. ترك التهجير آثاراً بارزة على كل من المناطق التي هجر منها أهلها، والمناطق التي استقبلت المهجرين، كما على البلدات والقرى التي عاد إليها المهجرون بعد انتهاء الحرب رسمياً سنة ١٩٩٠م.

إن بلدة الفوارة في قضاء الشوف، من القرى والبلدات اللبنانية التي تعرض أهلها للتهجير، ثم عادوا إليها بعد إتمام المصالحة في الجبل. وقد ظهرت تغيرات ديموغرافية لافتة في البلدة جراء ذلك التهجير كانت الدافع إلى المبادرة إلى هذه الدراسة في جغرافية التهجير، التي تصنف ضمن جغرافية السكان.

يهدف هذا البحث إلى دراسة تداعيات

التهجير على بنية السكان العمرية والتنوعية، ومن ثم أثر ذلك على النمو الطبيعي والخصوبة الكلية للسكان، والتوزيع الجغرافي للسكان في البلدة. إضافة إلى أثر كل تلك العوامل على الحالتين الاجتماعية والاقتصادية للسكان. كما تهدف الدراسة إلى اقتراح مشروع لإعادة إحياء البلدة بتشجيع السكان على العودة، والاستثمار والاستقرار فيها.

إشكالية البحث

يعالج البحث مجموعة تساؤلات، وهي كما يلي:

- مدى تأثير النزوح والهجرة من البلدة على التركيب العمري والتنوعي للسكان.
- مدى تأثير التركيب العمري للسكان على النمو الطبيعي، والخصوبة الكلية لسكان البلدة.

(١) لم تستخدم بعض أسئلة الاستمارة، لعدم حاجة البحث إليها.

- تأثر التوزيع الجغرافي للسكان بالنزوح والهجرة من البلدة.

- تقدير عدد المقيمين في البلدة في المستقبل.

- كيفية انعكاس التهجير على الحالتين الاجتماعية والاقتصادية في البلدة.

مدى توفر فرص وإمكانات للعودة.

فرضيات البحث

- إنَّ النزوح والهجرة قد تسببا بتحويل مجتمع البلدة إلى مجتمع معمر.

- النُّمو الطبيعي للسكان سلبي، نتيجة ارتفاع نسبة المسنين وتدني نسبة الشباب.

- الكثافة العامة للسكان متدنية، بسبب نزوح وهجرة السكان.

- سوف تخلو البلدة من سكانها بعد فترة زمنية، مع بقاء النُّمو الطبيعي سلبياً.

- تدني كل من المستوى التَّعليمي، والمداخيل نتيجة اقتصار المقيمين في البلدة على المسنين، الموظفين وبعض العاملين في الزراعة وتربية الحيوان.

منهجية البحث

تعتمد هذه الدراسة على عدة مناهج علمية، وهي المنهج التاريخي، لتحديد أعداد

السكان في السنوات السابقة ومقارنتها بالأرقام الحالية، ولتحديد أصول السكان وأسباب مغادرتهم البلدة. كما تعتمد على المنهج الوصفي، لتحديد موقع البلدة، والخصائص الطبيعية لذلك الموقع. إضافة إلى المنهج التحليلي الكمي، وذلك من خلال معالجة الأرقام والمعطيات الإحصائية، التي تم الحصول عليها من الدراسة الميدانية. وقد اعتمدت الدراسة على مصادر ومراجع متعددة، ولكن مادتها الأساسية هي المعطيات الإحصائية، التي تم الحصول عليها عبر المسح الشامل لكل المساكن المأهولة بشكل دائم في البلدة، من خلال استمارة استبيان عن السكان، تشمل أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية^(١)، وهي مرفقة بملحق خاص بالبحث. كما اعتمدت المقابلة كوسيلة لجمع وتوثيق المعلومات الضرورية للبحث، وأبرزها مع رئيس المجلس البلدي لبلدة الفوارة - الشوف، وبعض المسنين المقيمين والملمين بمختلف أوضاع البلدة.

١ - أهمية الموقع الجغرافي لبلدة الفوارة

الفوارة، بلدة شوفية تقع في شمال القضاء، يحدها نهر الدامور شمالاً^(٢)، الذي يفصلها عن بلدتي البيرة ووادي الست من

(١) يسمى محلياً، نهر الصفا، كونه ينبع من نبع الصفا.

(٢) تم الحصول على مساحة البلدة من خلال خريطة صادرة عن الموقع الإلكتروني للمركز الوطني للبحوث العلمية.

الشمال، بريح المطيلة من الشرق، وكفر نبرخ من الجنوب والغرب (الخريطة - ١). يبلغ متوسط ارتفاعها نحو ٤٩٠ مترًا فوق سطح البحر، مساحتها ٥٩,٧٣٥,٠٧٢ هكتارًا، أي ما يعادل ٠,٥٩٧٣٥١ كيلومترًا مربعًا^(١).

الخريطة - ١: موقع بلدة الفوارة - قضاء الشوف^(٢).

الجارية، من نبع الصفا، وتلك المتدفقة من نبع الباروك. كما أسهمت قلة انحداره بجعله منطقة زراعية بامتياز، ولا سيما وادي البصيل، الذي سمي في الخمسينات من القرن الماضي بوادي الذهب، نظرًا لغزارة إنتاجه الزراعي، وعلى وجه الخصوص محصول التفاح، الذي كان يؤمن معيشة معظم عائلات تلك المنطقة.

أما بالنسبة إلى بلدة الفوارة، فهي تقع على السفوح الجنوبية لذلك الوادي، الغني بالتربة الفيضية، نتيجة تلقيه مياه الأمطار المتساقطة على القرى والبلدات التي تعلوها مثل كفر نبرخ، بتلون، والباروك، التي يصب أحد فروع نبعها بنهر الدامور، مرورًا بالبلدة، جارفًا بمسيره المكونات العضوية



والفتات الصخري التي تجدد التربة. والجدير بالذكر هو غنى البلدة بالمياه، فهي سميت الفوارة، بسبب غزارة المياه التي تفر من ينابيعها والتي تظهر بالينابيع الآتية: التينة، والفوارة، المتقاربين وهما

تشكل الفوارة جزءًا من وادي نهر الدامور، الذي يمتد من نبع الصفا شمال شرق البلدة، وينحدر غربًا باتجاه الساحل ليصل إلى مصب النهر في البحر المتوسط. يتميز وادي نهر الدامور بوفرة المياه

(٢) من المشاهدة الميدانية.

(١) الخريطة من عمل الباحث.

الأغزر تدفقاً، يليهما نبع الحورة، فنبع الزيتون، إضافة إلى بعض العيون والينابيع الصغيرة منها «حسين» و«كنعان»، في الجزء السفلي من البلدة^(١).

برزت أهمية موقع الفوارة، وغناها بالمياه، والتربة الخصبة، والأرض المنبسطة بوفرة الإنتاج الزراعي الذي بلغ نحو مئة ألف صندوق من التفاح سنوياً، وذلك سنتي ١٩٥٤ و ١٩٥٥^(٢)، أي ما يقارب ألفي طن من التفاح^(٣)، وبما أن سعر الصندوق آنذاك تراوح بين ٢٥ و ٣٠ ليرة لبنانية^(٤)، فقد بلغ دخل البلدة من موسم التفاح بين ٢,٥ مليون و ٣ مليون ليرة لبنانية، وهي مبالغ ضخمة وثروات كبيرة لبلدة لم يتعد عدد سكانها آنذاك ٣٠٠ نسمة، ما يدل أن حصة الفرد من إنتاج التفاح نحو عشرة آلاف ليرة لبنانية، أي ما يعادل ٣١٢٥ دولارًا أميركيًا في حينها، من التفاح فقط. هذا إضافة إلى نقل مقدار شاحنتين من الخضار، ولا سيما البندورة واللوبياء، يوميًا وعلى مدى شهرين، من كل سنة، إلى الأسواق الاستهلاكية^(٥).

٢ - لمحة تاريخية عن بلدة الفوارة

إن الفوارة بلدة حديثة العهد، أسستها العائلات المارونية، النازحة من الشمال ومن قضاء جبيل، سنة ١٧٩٠^(٦)، والتي استقرت في الجزء الشمالي من بلدة كفر نبرخ، أي في وادي نهر الدامور، وبحسب كبار السن في البلدة، الذين نقلوا بدورهم تاريخ البلدة عن أسلافهم، فإن أراضيها كانت تتبع سابقًا لبلدة كفر نبرخ، وكانت مملوكة من آل العماد، العائلة الإقطاعية الشهيرة في ذلك الزمن. استقلت البلدة إداريًا، من خلال قرار إنشاء بلدية خاصة بها بتاريخ ١٧ شباط ١٩٦٤ وفق القرار ٢١٩^(٧). ويؤكد كبار السن أن الوفود إلى البلدة تزامن مع الهجرات المسيحية المارونية من جبل لبنان الشمالي، وبلدات الشمال باتجاه قرى وبلدات جبل لبنان الجنوبي للعمل في الأراضي الزراعية، وهو ما يؤكد معظم المؤرخين، يكتفى بأربعة منهم، كمال الصليبي^(٨)، عمر عبد العزيز

(١) طانيوس، سامي إسبر. نشرة الرعية. صادرة عن رعية مار أنطونيوس الكبير - الفوارة. العدد ٩٧، أيار ٢٠١٨.

(٢) سعة الصندوق ٢٠ كيلوغرامًا. (٣) طانيوس. المرجع السابق.

(٤) من مقابلة مع عدد من المزارعين في تلك الحقبة الزمنية، والمتقاعدين حاليًا.

(٥) مقابلة مع سامي طانيوس، أحد المسنين من أبناء البلدة. أجريت المقابلة بتاريخ ٦/٧/٢٠١٨.

(٦) الجريدة الرسمية. العدد ٢٠. في ٩ آذار ١٩٦٤. ص: ٧٤٠.

(٧) الصليبي، كمال. تاريخ لبنان الحديث. دار النهار للنشر. ط: ٧. بيروت ١٩٩١. ص: ٢٠.

(٨) عبد العزيز عمر، عمر. تاريخ المشرق العربي (١٥١٦ - ١٩٢٢). دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٤. ص: ١٧٠.

الفتن الطائفية التي عصفت بجبل لبنان الجنوبي بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٠.

وقد كان النشاط الاقتصادي الأساسي هو الزراعة الاكتفائية وتربية الحيوانات لتأمين قوتهم اليومي، إضافة إلى الزراعة التجارية المتمثلة بزراعة التوت لتربية دود القز وإنتاج الحرير، التي سادت منذ وفودهم إلى البلدة ولغاية خمسينيات القرن العشرين، حين تراجع الطلب على الحرير الطبيعي المحلي لمصلحة الحرير الصناعي المستورد. ومع انكفاء زراعة التوت في جبل لبنان عموماً، حلت مكانها زراعة التفاح بشكل أساسي، إضافة إلى مساحات متفرقة خصصت لزراعة الإجاص، وغيره من الأشجار المثمرة. بلغت ذروة الإنتاج في الخمسينيات، كما ورد آنفاً، واستمر بوتيرة أبطأ حتى السبعينيات، إلى أن بدأت الحرب الأهلية سنة ١٩٧٥، واستمرت حتى اندلاع ما سمي بحرب الجبل، وحصل التهجير سنة ١٩٨٣.

٣ - أسباب النزوح وأنواعه

شهدت بلدة الفوارنة نزوحاً ريفياً تقليدياً في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي

عمر^(١)، بطرس فهد^(٢)، وموسى متى^(٣)، الذين أجمعوا على تشجيع المعنيين والشهابيين للموارنة للهجرة من الشمال وجبيل، باتجاه الشوف والجبل الجنوبي، منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر، للعمل في زراعة التوت وإنتاج الحرير.

إستناداً إلى ما تقدم، فإن أصول السكان في بلدة الفوارنة الشوفية، ولا سيما بالنسبة إلى العائلات المارونية هو على الشكل التالي: بلدتي بحديدات، والمغيرة في قضاء جبيل، التي قدم منهما آل طانيوس^(٤)، وآل بو حبيب^(٥)، على التوالي، وبلدة قنات في قضاء بشري، التي قدم منها آل إيليا، إضافة إلى آل منصور، الذين قدموا من بنشعي في قضاء زغرتا، وآل توما، الذين قدموا من الشمال أيضاً، فضلاً عن آل موسى من سبعل في قضاء زغرتا، الوافدين حديثاً إلى البلدة. أما بالنسبة إلى العائلات الكاثوليكية، فقد وفدت إلى الفوارنة من بلدة كفرنبرخ المجاورة منذ نحو مئة وخمسين عاماً^(٦). ويعود قدوم معظم تلك العائلات إلى ما قبل

(١) فهد، بطرس. علاقات الطائفة المارونية بالكرسي المقدس. دار لحد خاطر. بيروت. لا تاريخ نشر. ص: ٦٤ - ٦٥.

(٢) موسى، متى. الموارنة في العصور الحديثة.

(٣) American Foundation for Syriac Studies. www.syriacstudies.com.

(٤) تنفخ عائلة نجار، من آل طانيوس.

(٥) يتفرغ من آل بو حبيب عائلتي عيد وشكر الله، وهما من عائلات البلدة.

(٦) من المقابلة مع سامي طانيوس.

الساحقة من أبناء البلدة المسجلين. ولكن مجرد دراسة النازحين والمهاجرين من المساكن المأهولة بصورة دائمة يعطي فكرة واضحة عن أسباب النزوح والهجرة من البلدة، إضافة إلى وجهة المغادرين ومناطق سكنهم الجديدة.

تجدر الإشارة إلى أن ستة مساكن فقط من المساكن الـ ٢٣ المأهولة في البلدة، لم يسجل فيها أي نزوح أو هجرة، ومن ثم يتضح أن المساكن الـ ١٧ التي سجل فيها نازحين ومهاجرين، بلغ معدل النزوح من كل منها نحو ٣,٨٢، وبتعبير أوضح أربعة بين نازحين ومهاجرين من كل مسكن.

أما بالنسبة إلى وجهة النازحين، فهي محصورة في الأحياء الشرقية من العاصمة بيروت وضواحيها، وهي وجهة الأكثرية الساحقة من النازحين من القرى والبلدات المسيحية عموماً. ويتوزع المهاجرون من أبناء المساكن المذكورة على عدة دول، أبرزها الولايات المتحدة الأميركية، تليها كندا، وأستراليا، ثم النمسا، فرنسا، والأرجنتين. ومعظم المهاجرين إلى العالم الجديد هجرتهم دائمة، ولا سيما أنهم يحملون جنسية تلك الدول، المستقبلية للمهاجرين، والتي أسسوا فيها أعمالاً خاصة بهم.

كما بينت الدراسة أن للتهجير الأثر الأكبر في نزوح أبناء الفواراة عن بلدتهم،

باتجاه المدن، ولا سيما باتجاه المدينة الأقرب والأكبر بيروت. وهي بذلك لا تختلف كثيراً عن القرى الأخرى في الأرياف اللبنانية، التي عانت ولا تزال من الإنماء غير المتوازن مع العاصمة، ومعها بعض المدن الساحلية من جهة، والأرياف من جهة أخرى. لكن النزوح من بلدة الفواراة يختلف في أسبابه ونتائجه عن باقي البلدات والقرى، فهي تندرج مع البلدات والقرى التي تعرض سكانها لنزوح قسري، نتيجة الحرب الأهلية، وما تفرع عنها من حروب ونزاعات وتهجير. وقد هجر كل سكان البلدة إبان حرب الجبل، التي دارت رحاها خلال العام ١٩٨٣.

بداية، فإن النزوح يأخذ شكلين رئيسيين، الأول طوعي، والثاني قسري، أظهرتهما الدراسة الميدانية على الشكل الآتي:

بلغ عدد النازحين، أو المهاجرين من أبناء الأسر في المساكن الـ ٢٣ التي تناولتها الدراسة نحو ٦٥، أي أكثر من المقيمين في تلك المساكن والبالغ عددهم ٥٣. ولكن هذا العدد لا يعبر مطلقاً عن إجمالي عدد النازحين أو المهاجرين، لأن في بلدة الفواراة أكثر المساكن ليست مأهولة بشكل دائم، ويرتادها مالكوها في فصل الصيف والعطل والمناسبات، وبالتالي فإن النازحين والمهاجرين هم الأكثرية

هؤلاء من النازحين، أو المهاجرين قبل وقوع حرب الجبل وحصول التهجير الشامل.

الجدول - ١: أسباب النزوح والهجرة من بلدة الفوارة^(١).

العدد	النسبة %	سبب النزوح/الهجرة	
٣	٤.٧	عدم توفر فرص عمل	١
٢	٣	متابعة الدراسة	٢
٢	٣	الزواج	٣
٠	٠	التهجير	٤
١	١.٥	٣ و ١	٥
٦	٩.٣	٤ و ٣ و ١	٦
٤٠	٦١.٥	٤ و ٣ و ١	٧
١١	١٧	٤ و ٣ و ٢ و ١	٨
٦٥	١٠٠	المجموع	

يستنتج مما تقدم أن الأكثرية الساحقة من المغادرين للبلدة من مجمل أبنائها يعود إلى التهجير، الذي نتج عنه استقراراً وتركز في المناطق الجاذبة لهم، ومن ثم بات عامل عدم الرغبة بالعودة اقتصادياً واجتماعياً. وحقيقة الأمر، أن غياب السكان لنحو ١٨ سنة عن بلدتهم أسهم في ارتباطهم بالوظائف، والأعمال المختلفة في أماكن وجودهم، وشرائهم لمساكنهم، سواءً خارج لبنان أم في داخله، ما أدى إلى استقرارهم حيث هم.

على الرغم من أنه لم يحصر أحد إجابته بالتهجير، وإنما أتت إجابة نحو ٧٨,٥٪ من الأسر التي نزح بعض أبنائها إلى بيروت، أم هاجروا إلى خارج البلاد، مقترنة بعوامل أخرى مضافة إلى التهجير، اجتماعية أو اقتصادية. ومن خلال قراءة الجدول - ١، يتضح أن ٦١,٥٪ من النازحين أو المهاجرين من أبناء الأسر التي شملتها الدراسة الميدانية قد تركوا البلدة بسبب التهجير، إضافة إلى عدم توفر فرص عمل في البلدة، أو في البلدات المجاورة عموماً، كذلك بسبب الاقتران، ولا سيما الإناث، اللواتي ينتقلن إلى مسكن الزوج.

وفي السياق نفسه يظهر الجدول - ١ أن نحو ١٧٪ من النازحين من أبناء الأسر التي شملتهم الدراسة، قد عزوا سبب نزوح أبنائهم إلى التهجير والأسباب الثلاثة الأخرى المبينة في الجدول، وهي التي ذكرت أعلاه، مع إضافة عامل آخر هو متابعة الدراسة. وقد يكون عدم حصر أحد إجابته بالتهجير، بسبب انتفاء أسبابه مع عودة المهجرين، ولا سيما بعد مصالحة الجبل الشهيرة في الخامس من آب ٢٠٠١. كما أن هناك نحو ١٠,٨٪ من النازحين والمهاجرين لم يعزوا مغادرة أبنائهم للبلدة للتهجير، معددين أسباباً أخرى، والأرجح أن

(١) الدراسة الميدانية - ٢٠١٦.

٤ - انعكاس النزوح على الواقع الديموغرافي لبلدة الفوارة

بينت الدراسة الميدانية أن حجم السكان المقيمين في البلدة سنة ٢٠١٦ هو ٥٣ نسمة، موزعين على ٢٣ وحدة سكنية، عدد الناخبين بينهم هو ٤٠ ناخبًا. علمًا أن عدد الناخبين سنة ٢٠١٧، من مجمل السكان المسجلين هو ٨٨٢^(١)، وهو ما يساعد على تقدير نسبة المقيمين من مجمل سكان البلدة، أي نحو ٤,٥٣٪ من مجمل الناخبين من أبناء البلدة. ولا تختلف نسبة المقيمين كثيرًا إذا تم احتساب ٥٣ مقيمًا من مجمل السكان المسجلين في البلدة، الذين يقاربون ١٢٥٠ نسمة، فتصبح نسبة المقيمين ٤,٢٤٪.

أ - التركيب العمري والنوعي للسكان.

تم تقديم دراسة التركيب العمري والنوعي للسكان على النمو الطبيعي والخصوبة، نظرًا لتأثير الأولى على الثانية، وليس العكس، كما هو شائع في الدراسات السكانية، وذلك لأن مجتمع البلدة مجتمع نازح بامتياز. وقد اختصر الهرم العمري والنوعي للسكان في أربع مراحل عمرية^(٢)،

فئة الفتيان، الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة، فئة البالغين الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٤٤ سنة، فئة البالغين الكبار الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٥ و ٦٤ سنة، والمسنين الذين تفوق أعمارهم ٦٤ سنة (الشكل - ١). ولكن تحليل الهرم اعتمد الفئات العمرية الخمسية، التي تم الحصول على معطياتها الإحصائية من الدراسة الميدانية.

الشكل - ١: الهرم العمري والنوعي لسكان بلدة الفوارة - الشوف^(٣).

الفئة العمرية	ذكور	إناث
أقل من ١٥ سنة	١٥	١٥
١٥ - ٤٤ سنة	١٥	١٥
٤٤ - ٦٤ سنة	١٥	١٥
أكثر من ٦٤ سنة	١٥	١٥

وقد انعكس ذلك النزوح بشكل بارز على التركيب العمري لسكان البلدة، حتى بات الهرم العمري والنوعي للسكان غير منتظم، فهو يشبه الهرم الفتي المقلوب، أي أنه أقرب إلى الهرم المتجه نحو الشيخوخة. حيث بينت الدراسة الميدانية أن نسبة الفتيان (٠ - ١٤ سنة) لا تتعدى ٩,٤٣٪، وهي نسبة متدنية جدًا، تقل عن مثلتها في بلغاريا، التي لا تتعدى ١٤٪ سنة

(١) وزارة الداخلية. لوائح الشطب سنة ٢٠١٧.

(٢) أبو عيانة، فتحي محمد. جغرافية السكان. دار النهضة العربية. الطبعة الثالثة. بيروت ١٩٨٦. ص: ٤٠٣.

(٣) الدراسة الميدانية - ٢٠١٦.

٢٠١٦^(١)، والتي تتسم بأدنى نسب الفتوة في العالم. بالمقابل ترتفع نسبة المسنين (٦٥ سنة وما فوق) ٣٧,٧٣٪، وهي معدلات تفوق مثيلاتها في الدول المتطورة، المتجهة نحو الشيخوخة، والتي لا تتعدى في مجتمعاتها نسبة الذين تفوق أعمارهم ٦٥ سنة ٢٥,٩٪ في اليابان^(٢).

يستنتج ممّا تقدم أن الارتفاع اللافت للمسنين والتدني الكبير للفتيان ليسا نتيجة تحولات ديموغرافية طبيعية، بل نتيجة حتمية لنزوح الفئات الشابة، ممن هم في سن الإنجاب، عن البلدة وبقاء المسنين، مع بعض العائلات. وهو ما ينعكس سلبيًا على الأوضاع الاقتصادية والمعيشية للسكان، ومن ثم استمرارهم في البلدة، بل يهدد استمرارية البلدة نفسها.

كما يتضح من قراءة الهرم السكاني (الشكل - ١) أنه هرم مقلوب، يعبر عن المجتمعات المتجهة نحو الشيخوخة، وهو يختلف عن هرم الدول المتطورة، وذلك لسببين:

الأول، هو أن مجتمع بلدة الفوارة، مجتمع معمر، يعكس حالة تعيشها العديد من البلدات اللبنانية، أي عند التقدم بالسن،

أو بلوغهم سن التقاعد يعودون إلى بلداتهم، وهو ما يفسر سبب تدني نسبة الفتيان إلى دون ١٠٪، أما إذا استثنت فئة (١٠ - ١٤ سنة) فتصل نسبة من هم دون العشر سنوات إلى ١,٨٨٪ من مجمل السكان^(٣). بالمقابل تتخطى نسبة المسنين ثلث سكان البلدة، ولا سيما الذين تخطوا الخامسة والسبعين، الذين يشكلون أكثر من ربع السكان.

أما الثاني، فهو أن العينة المدروسة، وإن كانت شاملة كل سكان البلدة، إلا أنها قليلة العدد، وهو ما يسبب بعض الثغرات في النتائج.

وتجدر الإشارة إلى أن نسبة الإناث في سن الإنجاب (٢٠ - ٤٤ سنة) لا تتعدى ٦,٩٪ من مجمل الإناث، بينما نصف الإناث في البلدة تعدين الستين سنة. وكذلك فإن عدد المتزوجين من الذكور في سن (٢٥ - ٦٠ سنة) لا تتعدى الخمسة أفراد، وكلهم تخطوا الخامسة والأربعين، وقد كونوا عائلاتهم، وهو ما يقلل فرضية الإنجاب بالنسبة إليهم. وتخلو البلدة من المقيمين الذكور، الذين تتراوح أعمارهم بين ٣٠ و ٤٤ سنة^(٤)، وفي ذلك دلالة واضحة على نزوح المتزوجين وعائلاتهم عن البلدة.

(١) The World Bank Group 2017. Population Ages 0 - 14 (% of Total).

(٢) Japan Statistical Yearbook, Chapter 2: Population and Households. 2016.

(٣) الدراسة الميدانية - ٢٠١٦.

(٤) الدراسة الميدانية - ٢٠١٦.

في السياق نفسه، تبين من الدراسة أن نسبة النوع Sex Ratio هي ٧٦,٦٦ / ١٠٠ = ٧,٦٦ / ١٠، أي نحو سبعة ذكور لكل عشر إناث، حيث بلغ إجمالي عدد الذكور ٢٣ مقابل ٣٠ من الإناث. ويعود سبب هذا التفاوت لأمر رئيسي، هو تفوق معدل العمر المتوقع عند الولادة للإناث على مثيله للذكور، ويظهر ذلك جلياً في الفئات العمرية، التي تخطت الرابعة والسبعين، إضافة إلى الفئة العمرية (٦٥ - ٦٩ سنة) والتي تبين تفوق عدد الإناث على عدد الذكور^(١). أما بالنسبة إلى باقي الفئات العمرية، فنسبة النوع متفاوتة، ومن ثم فهي ليست ذات دلالة، ربما بسبب قلة عدد المقيمين.

تتضح خطورة الخلل في التركيب العمري لسكان البلدة بارتفاع معدل الإعالة العام، والذي يضع الفتيان، ممن هم دون ١٥ سنة، وكبار السن، ممن تخطوا الخامسة والستين في خانة غير العاملين، والبالغين الذين تتراوح أعمارهم، بين ١٥ و٦٤ سنة في خانة الناشطين، سواء أكانوا

من العاملين أم من الطلاب، وهكذا تطبق القاعدة الآتية:

معدل الإعالة العام = عدد الفتيان والمسنيين $\times ١٠٠ /$ عدد البالغين $= (٥ + ٢٠) \times ١٠٠ / ٢٨ = ٨٩,٢٨ \%$ ، وهي نسبة مرتفعة، ولا سيما إذا تم احتساب معدل إعالة كبار السن، التي تصل وحدها إلى ٧١,٤٢٪. وهي نتيجة طبيعية بالنسبة إلى مجتمع مسن.

أما بالنسبة إلى التركيب الديموي والمذهبي للسكان، فهي بلدة مسيحية بالكامل، ويتوزع سكانها بين موارد بنسبة ٩٥٪، وكاثوليك بنسبة ٥٪. وقد تم الحصول على هذه النسب من خلال أعداد الناخبين، المحددة من قبل وزارة الداخلية والبلديات لسنة ٢٠١٧.

ب - تطور عدد سكان البلدة.

بعد أن كان عدد سكان البلدة ٣٠٠ نسمة سنة ١٩٥٤^(٢)، تضاعف مرة ونصف سنة ١٩٦٥ ليبلغ ٧٤٣ نسمة^(٣)، على أثر تجنيس بين ٢٠٠ و٢٥٠ شخصاً، من غير أبناء البلدة، في عهد شارل حلو^(٤). وقد

(١) الدراسة الميدانية - ٢٠١٦.

(٢) من مقابلات متنوعة مع بعض المسنيين في البلدة.

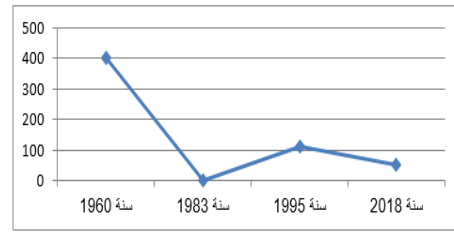
(٣) فاعور، علي. جغرافية التهجير، دراسات ميدانية، وقائع وحلول. ط: ١. المؤسسة الجغرافية. بيروت ١٩٩٣. ص: ٨٨.

(٤) رئيس الجمهورية اللبنانية (١٩٦٤ - ١٩٧٠).

ارتفع عدد الناخبين سنة ٢٠١٠ إلى ٨٢٢ ناخباً^(١)، أي نحو ١١٦٥ نسمة^(٢). أما عدد السكان سنة ٢٠١٨ فقد تخطى ١٢٠٠ نسمة^(٣)، وهو رقم منطقي استنتج أيضاً، من خلال عدد الناخبين، سنة ٢٠١٧ البالغ ٨٨٢^(٤).

أما الأبرز في هذا المجال، هو عدد المقيمين بصورة دائمة في البلدة، حيث لم تتوفر معطيات موثقة عنهم سوى لأربع سنوات وهي: ١٩٦٠، وقدروا بنحو ٤٠٠ نسمة^(٥)، ١٩٨٣، تهجير جماعي، ١٩٩٥، عودة ١١٠ أشخاص^(٦)، ٢٠١٨، تدني عدد المقيمين إلى ٥٣ نسمة. وهي مبينة بالشكل - ٢.

الشكل - ٢: تطور عدد المقيمين في بلدة الفوارة.



بناءً على ما تقدم من معطيات، سيتم التركيز على سنوات ما بعد التهجير، ومن ثم عودة أبناء البلدة بعد انتهاء الحرب، حيث بدأت العودة منذ العام ١٩٩٣، وبلغت الذروة سنة ١٩٩٥ حين بلغ عدد المقيمين بشكل دائم ١١٠ أشخاص. ومن ثم الأمر المستغرب هو تراجع عدد المقيمين بشكل دائم إلى نحو النصف بعد ٢٣ سنة، على الرغم من حصول مصالحة الجبل التي ذكرت آنفاً. والمرجح هو أن تراجع هذا العدد ناجم عن النمو السلبي للسكان، بسبب عودة المسنين بنسب أعلى، والنزوح في آن معاً، لأن معدل النمو السنوي للسكان بين عامي ١٩٩٥ و٢٠١٨ هو -٣٪، وهو ما يؤكد أن النزوح من البلدة أدى دوراً إضافياً، ورئيساً، لأنه من المستحيل أن يشهد أي مجتمع نمواً طبيعياً سلبياً بهذا الحجم. وقد تم الحصول على معدل النمو السنوي لسكان البلدة من خلال تطبيق المعادلة الأسية، Exponential Equation، التالية^(٧):

$$\text{لو (ك} / \text{ ٢ ك)} = \text{ن} \times \text{لو (١ + ر)}.$$

- (١) الدولية للمعلومات. الانتخابات البلدية والإختيارية ٢٠١٠. أيار ٢٠١٠. ص: ١٣.
- (٢) قدر عدد السكان نحو ١١٦٥، باعتماد المعامل ١,٤١٧، الذي تم الحصول عليه من قسمة عدد السكان حالياً، وهو نحو ١٢٥٠ على عدد الناخبين سنة ٢٠١٧ وهو ٨٨٢، ثم ضربه بعدد الناخبين سنة ٢٠١٠.
- (٣) طانيوس، سامي إسبر. نشرة الرعية. صادرة عن رعية مار أنطونيوس الكبير - الفوارة. العدد ٩٨. حزيران ٢٠١٨.
- (٤) وزارة الداخلية. لوائح الشطب سنة ٢٠١٧.
- (٥) طانيوس. المرجع السابق.
- (٦) نفس المرجع.
- (٧) أبو عيانة. المرجع السابق. ص: ٥٦١.

أما بالنسبة إلى عناصر المعادلة، فهي كما يلي:

(ل)، نسبة اللوغاريتم Logarithm.

(ك١)، حجم السكان سنة ١٩٩٥.

(ك٢)، حجم السكان سنة ٢٠١٨.

(ن)، هي الفترة الزمنية بعد التعدادين، بالسنوات، وهي ٢٠١٨ - ١٩٩٥ = ٢٣ سنة.

(ر)، معدل النمو السنوي للسكان، وهو ما تمّ احتسابه بتطبيق المعادلة.

تُعدّ الفوارة نموذجًا حيًا عن البلدات المهجرة، والتي لم تشهد عودة جدية بعد انتهاء الحرب، وهو ما ظهر جليًا بتدني نسبة الفئات السكانية الشابة، وبالتالي انعدام الولادات في المرحلة بين ٢٠١٢ و٢٠١٦^(١)، ومن ثمّ فإنّ معدل الخصوبة الكلية هو «صفر». وتجدر الإشارة إلى أنّ العوامل التقليدية الاقتصادية والاجتماعية المؤثرة في النمو الطبيعي للسكان تغيب بشكل شبه تام عن حالة بلدة الفوارة، ويكاد ينحصر سبب تراجع النمو السكاني بكثرة المعمّرين من السكان، وتدني نسبة الشباب. وفي السياق نفسه، فقد بينت الدراسة الميدانية، أنّ عدد المتوفين خلال الفترة ٢٠١٢ - ٢٠١٦ هو ثلاثة، وبالتالي فإنّ

معدل الوفيات هو $3 \times 100 / 53 = 5,66\%$ ، وللحصول على المعدل السنوي للوفيات يقسم الحاصل الأخير على أربعة: $5,66 / 4 = 1,41\%$. بالمقابل لم تسجل أي ولادة في البلدة خلال السنوات الأربع المشار إليها، وبالتالي فإنّ معدل النمو الطبيعي لسكان بلدة الفوارة سنة ٢٠١٦ = $0 - 1,41 = -1,41\%$ ، أي يشهد مجتمع القاطنين في البلدة بصورة دائمة نموًا سكانيًا سلبيًا.

ومع تطبيق المعادلة الأسية نفسها، تبين أنّ عدد المقيمين بصورة دائمة في الفوارة مهدد بالزوال بعد ما يقارب ٢٦٣ سنة، في حال بقاء معدل النمو الطبيعي للسكان سلبيًا، $-1,41\%$ ، كما في حال لم تشهد نزوحًا عكسيًا من سكانها باتجاه بلدتهم، أمّ نزوحًا وافيًا إليها من غير أهلها. وهو أمر غاية في الخطورة، ويهدد وجود البلدة برمتها.

بالمقابل فإنّ تم احتساب معدل نمو عدد الناخبين في البلدة يعطي فكرة تقريبية عن النمو الطبيعي للسكان المسجلين في البلدة عمومًا، وذلك يتضح من خلال التزايد في عدد الناخبين بين عامي ٢٠١٠، حيث كان ٨٢٢ ناخبًا، و٢٠١٧ عندما بلغ ٨٨٢ ناخبًا. إذن التزايد هو ٦٠ ناخبًا خلال سبع

(١) الدراسة الميدانية ٢٠١٦.

سنوات، ما يساوي ٧,٢ ٪ خلال سبع سنوات، أي أن النمو الطبيعي السنوي للناخبين هو ١,٠٤ ٪، وهو يصنف نمو متباطئ أو متوسط. وهي نتيجة تختلف تمامًا عن النمو الطبيعي للمجتمع المقيم، التي تمت معالجتها آنفًا.

من جهة ثانية، لم يسجل بحسب الدراسة الميدانية أي حركة نزوح معاكس باتجاه البلدة، حتى أنه لم يغادر أحد البلدة خلال السنوات الأربع الأخيرة بشكل نهائي ومن ثم فإن معدل النمو الطبيعي للسكان هو نفسه معدل التغير الديموغرافي العام، وهو ما يفسر انحسار النمو السلبي للسكان إلى أقل من النصف، مقارنة بالتسعينات ومرحلة ما قبل هذه الدراسة. ولكن لا يزال عدد سكان بلدة الفوارة يتدنى مع مرور الزمن.

ج - التوزيع الجغرافي للسكان.

تبلغ الكثافة السكانية العامة للمقيمين في البلدة، ٥٣ / ٠,٥٩ = ٨٩,٨٣ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد. وهي كثافة متوسطة، نظرًا لضيق مساحة البلدة، التي تقل عن كيلومتر مربع واحد. أما إذا تم احتساب الكثافة العامة للسكان المسجلين، والذين تقدر أعدادهم بنحو ١٢٥٠ نسمة، فتصل إلى ١٢٥٠ / ٠,٥٩ = ٢١١٨ نسمة

في الكيلومتر المربع. وهي كثافة عالية جدًا، أي أن مساحة البلدة تضيق بحجم السكان المسجلين في البلدة، فيما لو استقروا كلهم داخل حدودها الإدارية. وما يؤكد ذلك انفلاش مساكن أبناء البلدة إلى خارج حدودها الإدارية، إذ بينت الدراسة الميدانية أن نسبة العقارات المبنية لأبناء الفوارة خارج حدودها الإدارية هو ربع المساكن، موزعة بين كفر نبرخ نحو ١٥,٧ ٪ وبريح نحو ٦,٤ ٪ (الجدول - ٢).

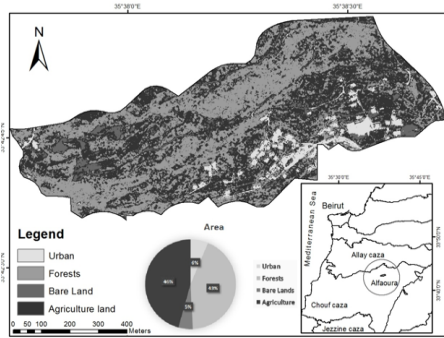
الجدول - ٢: التوزيع الجغرافي للعقارات المبنية لأبناء الفوارة^(١)

البلدة	العدد	النسبة/٪
الفوارة	١٣٤	٧٧,٩
كفر نبرخ	٢٧	١٥,٧
بريح	١١	٦,٤
المجموع	١٧٢	١٠٠

أما بالنسبة إلى الكثافة الزراعية فهي بدورها متدنية جدًا. إذ بينت الدراسة الميدانية أن عدد العاملين في قطاع الزراعة والثروة الحيوانية هو ثلاثة فقط. ومن جهة ثانية، تم التوصل إلى تحديد المساحات الزراعية باعتماد تقنية «نظم المعلومات الجغرافية» GIS، وهي تشكل نحو ٤٦ ٪ من مجمل مساحة البلدة (الخريطة - ٢)، ومن ثم فهي توازي ٠,٢٧١ كيلومترًا

(١) الدراسة الميدانية - ٢٠١٦.

السكنية متدن بدوره، فهو $23 / 53 = 2,3$ ، أي نحو شخصين في المسكن الواحد.
الخريطة - ٢: استخدام الأرض في بلدة الفوارة - الشوف^(٤)



٥ - الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للسكان المقيمين في البلدة

ينعكس النزوح من بلدة الفوارة بشكل كبير على الحالتين الاجتماعية والاقتصادية للسكان المقيمين، وفي هذا المجال لا بد من تناول كل حالة منفردة قبل تكوين تصور عام عن سكان البلدة، كما يستنتج من الدراسة الميدانية أن النزف السكاني من البلدة أرحى بثقله على التركيب العمري للسكان، الذي سبب بدوره نمواً طبيعياً سلبياً، والعوامل المذكورة مجتمعة، تسببت بتداعيات الواقع الاجتماعي الاقتصادي.

مربعاً^(١). وبما أن الكثافة الزراعية = عدد العاملين في قطاع الزراعة / إجمالي المساحة المزروعة، أي $3 / 0,271 = 11$ مزارع في الكلم ٢ المزروع.

من جهة ثانية، لا بد من اعتماد «درجة التزاحم السكاني» (crowding rate) كمؤشر مساعد للوقوف عند المستوى الاقتصادي والاجتماعي لسكان البلدة، وهو يحتسب كما يلي: عدد السكان المقيمين في البلدة / عدد الغرف الإجمالي للمساكن^(٢). وقد بينت الدراسة الميدانية أن عدد الغرف في المساكن الثلاثة والعشرين هو ٨٣^(٣)، وبالتالي فإن درجة التزاحم السكاني في بلدة الفوارة = $83 / 53 = 0,63$ شخص في كل غرفة، أو بتعبير أدق، ١,٥٦ غرفة لكل شخص. وهذه النتيجة تظهر مدى تدني درجة التزاحم السكاني، ولا تدل على ارتفاع المستوى المعيشي للسكان فحسب، بل على النزوح شبه الكلي من البلدة.

من ناحية أخرى، وبسبب تركيز المسنين عموماً في البلدة، ونزوح العائلات إلى المدينة، فإن توزيع السكان على الوحدات

(١) المساحة الزراعية تساوي ٤٦٪ من المساحة الإجمالية البالغة ٠,٥٩ كيلومتراً مربعاً. ومن ثم $0,59 * 0,46 = 0,271$ كلم ٢.

(٢) أبو عيانة، فتحي محمد. جغرافية السكان. دار النهضة العربية. الطبعة الثالثة. بيروت ١٩٨٦. ص: ٥٣.

(٣) الدراسة الميدانية - ٢٠١٦.

(٤) الخريطة من عمل محمد عواض - أستاذ في قسم الجغرافيا في الجامعة اللبنانية.

أ - الحالة الاجتماعية لسكان البلدة.

تتناول الحالة الاجتماعية الجانبين التعليمي والصحي، وفي هذا السياق يتضح تأثير تركيبة السكان العمرية، الناتجة عن الهجرة والنزوح، في هذين الجانبين.

* المستوى التعليمي:

سوف يتم التركيز في هذا الجانب على المستوى التعليمي للسكان المقيمين كتعبير عن الحالة الاجتماعية العامة في البلدة، وفي هذا المجال بينت الدراسة الميدانية (الجدول ٢ - ٢)، أن معدل الأمية العام بين المقيمين الذين تزيد أعمارهم عن ١٥ سنة هي ٢٧ ٪، وهي نسبة عالية جداً مقارنة بباقي البلدات، وكذلك قياساً للمعدل الوطني البالغ ٦ ٪^(١).

$$\text{معدل الأمية} = \text{عدد الأميين البالغين} \times \frac{100}{\text{إجمالي عدد البالغين}} \text{ (٢)}$$

يتضح أثر الخلل الديموغرافي، الناتج عن التقدم العمري في السكان، في ارتفاع معدل الأمية للإناث، الذي بلغ ٤٢,٨٥ ٪ من مجمل البالغات، وهي نتيجة غير منطقية بالمقارنة مع أي من البلدات الريفية اللبنانية، إلا أن حالة الفوارة استثنائية، نظراً لبلوغ نسبة الإناث اللواتي تخطين سن الخامسة والسبعين نحو ٣٩,٢ ٪ من مجمل

الإناث البالغات، وهذه الفئات العمرية تشهد ارتفاعاً في معدل الأمية حتى على المستوى الوطني، مقارنة بالفئات العمرية الأصغر. إذًا حالة الأمية في البلدة ناتجة عن ارتفاع نسبة المسنين، ولا سيما عند الإناث.

أما بالنسبة إلى الذكور فالأرقام أكثر واقعية، حيث بلغ معدل الأمية نحو ٥ ٪ من البالغين، ولهذه النتيجة مسبان أساسيان، هما التركيز على تعليم الذكور قديماً، وإهمال الإناث وتشجيعهن على الزواج المبكر والانصراف لرعاية أسرهن، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن نسبة المسنين من الذكور، الذين تخطوا الخامسة والسبعين لا تتعدى ١٥ ٪، أي أقل من نصف مثيلتها عند الإناث، وهو عامل إضافي يقلل احتمال وجود أميين.

تجدر الإشارة إلى أن نسبة الجامعيين في البلدة مرتفعة نسبياً، وهي تصل إلى ٢١ ٪ من مجمل البالغين، ولكن يصعب الاعتماد على هذه النسبة من الجامعيين في إنماء البلدة وتطويرها لأن نصف الجامعيين هم من الطلاب، وهم عرضة للنزوح من البلدة باتجاه العاصمة بعد تخرجهم نظراً لوجود فرص عمل تليق بشهاداتهم، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن نسبة الذكور

(١) UNESCO Institute for Statistics. 2015. List of countries by Literacy rate.

(٢) البالغون هم الذين بلغت ١٥ سنة وما فوق.

٢٠١٥^(٢)، أي بنحو ٣٠٪، وهو من مؤثرات النزوح وارتفاع السن في السكان المقيمين في البلدة.

الجدول - ٢: المستوى التعليمي في بلدة الفوارة (ذكور وإناث)^(٣)

الفترة العمرية	أمي	إبتدائي	متوسط	ثانوي	جامعي
15 - 19	-	-	1	3	3
20 - 24	-	-	-	-	3
25 - 29	-	-	-	-	2
30 - 34	-	-	-	-	-
35 - 39	-	-	-	-	-
40 - 44	-	-	-	1	-
45 - 49	-	2	1	1	1
50 - 54	1	3	3	-	-
55 - 59	-	-	-	-	-
60 - 64	-	1	-	1	1
65 - 69	-	4	1	-	-
70 - 74	-	1	-	-	-
75 - 79	7	1	-	-	-
80 - 84	2	-	1	-	-
٨٥ سنة وأكثر	3	-	-	-	-
المجموع	13	12	7	6	10
النسبة٪	27	25	5.14	5.12	21

* الخدمات الصحية.

وفي سياق تقويم أثر النزوح على الحالة الاجتماعية في البلدة، لا بد من الإشارة إلى

للإناث بين الطلاب الجامعيين غير متكافئة، وهي طالب جامعي واحد من الذكور لكل أربعة طالبات جامعات، وهو ما يزيد فرضية مغادرة البلدة، ولا سيما بعد الزواج، إن كان الزوج من خارج البلدة. واستناداً إلى هذا التحليل فإن نسبة الجامعيين المتخرجين هي ١٠٪ من مجمل البالغين المقيمين في البلدة، وهي نسبة قليلة.

من ناحية ثانية، فإن تدني المستوى التعليمي في البلدة عموماً يظهر من خلال تفوق نسبة كل من الذين بلغوا المرحلتين الإبتدائية والمتوسطة على الذين بلغوا المرحلة الثانوية (الجدول - ٢).

وكذلك فإن متوسط سنوات الدراسة، من العناصر المهمة التي تدل على المستوى التعليمي في البلدة، وقد بلغ ٦,٠٣ سنوات للفرد، وقد تم احتسابه كما يلي:

متوسط سنوات الدراسة العام (ذكور وإناث) = $(175 + 145) / 53 = 6,03$ سنوات^(١).

يقبل هذا المعدل بأكثر من سنتين ونصف السنة عن مثيله على المستوى الوطني، البالغ نحو ٨,٦ سنوات سنة

(١) مجموع عدد سنوات الدراسة لكل من الذكور: ١٤٥ سنة والإناث: ١٧٥ سنة، وقد تم التوصل إليهما من الدراسة الميدانية.

(٢) الدراسة الميدانية ٢٠١٦.

(٣) UNDP - Human Development Report 2016.

الجدول - ٣: توزيع الأسر حسب
نوع الضمان الصحي^(٢)

٤	١	تعاونية موظفي لدولة
٢٢	٥	ضمان المؤسسات العسكرية والأمنية
٤٨	١١	الضمان الاجتماعي
٤	١	تأمين خاص
٢٢	٥	غير مضمون
١٠٠	٢٣	المجموع

ب - الحالة الاقتصادية لسكان
البلدة.

* النشاط الاقتصادي للسكان.

تبين من الدراسة الميدانية أن الفواردة بلدة ريفية بامتياز، فقد بلغت نسبة المتفرغين كلياً للعمل الزراعي وتربية المواشي والدواجن نحو ثلث العاملين في القطاعات الاقتصادية الثلاثة. أما بالنسبة إلى القطاع الصناعي فهو يخلو من العاملين، نظراً لعدم وجود مصانع في البلدة من ناحية، وضعف القطاع الصناعي في قضاء الشوف عموماً من جهة ثانية. أما قطاع الخدمات فهو يشغل خمسة عاملين، ثلاثة منهم في الأجهزة العسكرية والأمنية، وواحد في الإدارة العامة، وآخر في مجال التمريض، في القطاع الخاص. وهناك شخص واحد لديه محل سمانة، يصنف

الجانب الصحي، حيث بينت الدراسة الميدانية أن نزوح وهجرة الفئات الشابة، وبقاء المسنين أدى إلى ارتفاع متوسط أعمار المتوفين (ذكور وإناث)، الذي بلغ ٨٤,٦٦ سنة^(١)، ٨٦ سنة عند الإناث و٨٤ سنة عند الذكور. وقد كانت أسباب وفاتهم الشيخوخة وتقدم السن، وليس عدم القدرة على الاستشفاء أو التقصير في شراء الأدوية.

ولا تقتصر هذه النتيجة على ارتفاع نسبة المسنين فحسب، بل يكملها حسن الرعاية الصحية، ولا سيما أن ٧٨٪ من الأسر المقيمة في البلدة مضمونة صحياً واجتماعياً (الجدول - ٣)، وهو ما يحفز السكان على الاهتمام بحالتهم الصحية، وعدم تحمل عناء تكاليف الاستشفاء والأعمال المخبرية والمعاينات الطبية، إضافة إلى العمليات الجراحية، وشراء الأدوية، وغيرها من الحاجات الطبية. أما بالنسبة إلى الأسر غير المضمونة والتي لا تتعدى ٢٢٪، فقد أظهرت الدراسة الميدانية أن عددها خمس أسر، وهي تتلقى الدعم والمساعدة المالية من الإخوة والأشقاء النازحين والمهاجرين من البلدة، ومن ثم فهي غير معرضة للاستهتار بأوضاعها الصحية للأسباب المالية.

(١) متوسط أعمار المتوفين = $(٨٤ + ٨٤ + ٨٦) / ٣ = ٨٤,٦٦$ سنة.

(٢) الدراسة الميدانية ٢٠١٦.

أمانًا اجتماعيًا يحفز الشباب من أبناء البلدة للإنخراط فيها.
* البطالة.

أما بالنسبة إلى البطالة فقد بلغ معدلها نحو ٣٦٪ من مجمل الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٦٤ سنة، وهي محصورة بين ربات المنازل والمتقاعدين من المؤسسات العسكرية والأمنية، الذين يتقاعدون في سن مبكر. ولم يُسجَل أية حالة بطالة بين الشباب، من غير المتقاعدين. ويعود ذلك لهجرة ونزوح تلك الفئات العمرية من البلدة. أما الأمر البارز فهو ارتفاع حصة ربات المنازل من مجمل العاطلين عن العمل والتي بلغت ٧٠٪ (الجدول - ٥)، ويعود ذلك بشكل أساسي إلى تدني المستوى التعليمي من جهة، حيث أظهرت الدراسة الميدانية أن نحو ٥٧٪ من الإناث بين ١٥ و ٦٤ سنة لم يتخطين المرحلة الابتدائية، ونحو ٣,٥٧٪ فقط من حملة الشهادات الجامعية، لأن باقي الجامعيات لا يزلن طالبات. وكذلك محدودية فرص العمل في المناطق الريفية عمومًا تزيد معدل البطالة.

ضمن العاملين في المجال التجاري. وبذلك يكون إجمالي العاملين في قطاع الخدمات والتجارة هو ثلثي العاملين في القطاعات الاقتصادية (الجدول - ٤). وتجدر الإشارة إلى أن العاملين في الزراعة هم المتقاعدين من أعمال سابقة. ما يدل أن قطاع الزراعة وتربية الحيوان لن يزول في تلك البلدة الريفية، مع رفده بمزيد من المتقاعدين من أعمالهم والعائدين إلى بلدتهم.

الجدول - ٤ توزيع القوى العاملة على القطاعات الاقتصادية^(١)

القطاع الاقتصادي	العدد	النسبة/٪
الزراعة والثروة الحيوانية	٣	٣.٣٣
الصناعة والبناء	٠	٠
الخدمات والتجارة	٦	٦٦.٧
المجموع	٩	١٠٠

يستنتج من الدراسة الميدانية أن نسبة العاملين في الخدمات تتزايد، نظرًا لتحسن المستوى التعليمي، الذي أهل الشباب للانخراط في الوظائف الخدماتية، الحكومية منها بشكل أساسي. كما أن ضمان الشيخوخة، والضمان الصحي والاجتماعي، الذي توفره الوظيفة الحكومية، قد شجعهم على الانخراط بالوظيفة العامة عسكرية، أمنية، أم إدارية. وكذلك الضمانات التي تؤمنها المؤسسات الخاصة، توفر بدورها

(١) الدراسة الميدانية ٢٠١٦.

الجدول - ٥: حالات البطالة^(١)

الحالة	العدد	النسبة%
متقاعد في سن العمل	٣	٣٠
ربة منزل	٧	٧٠
المجموع	١٤	١٠٠

أما بالنسبة إلى المتقاعدين من المؤسسات العسكرية والأمنية والذين تبلغ نسبتهم نحو ٣٠٪، من مجمل العاطلين عن العمل، فهم يتقاعدون في سن مبكرة، ولا يعملون، لذلك يدرجون في عداد العاطلين عن العمل، على الرغم من تقاضيهم رواتب شهرية.

* المستوى المعيشي.

يستدل على المستوى المعيشي لسكان البلدة من خلال حصة الفرد من الناتج المحلي، وقد تم تقديره بجمع مداخل كل العاملين المقيمين في البلدة، من دون احتساب التحويلات من أبناء البلدة النازحين أو المهاجرين منها، وذلك لصعوبة تقديرها^(٢). وقد بينت الدراسة الميدانية أن إجمالي مداخل العاملين والمتقاعدين المقيمين في البلدة هو ١٦٧ مليون ليرة لبنانية سنوياً، أي ما يعادل ١١١٣٣٣

دولاراً أميركياً. وبالتالي فإن حصة الفرد من الناتج المحلي السنوي لبلدة الفوارة هو $١١١٣٣٣ / ٥٣ = ٢١٠٠$ دولاراً أميركياً. أما إذا استثنى من يتقاضون تحويلات من خارج البلدة، وعددهم نحو ١٦، معظمهم من المسنين. يبقى نحو ٣٧ ممن يعيشون من مداخيلهم الذاتية، وبالتالي تصبح حصة الفرد من الناتج المحلي $١١١٣٣٣ / ٣٧ = ٣٠٠٩$ دولاراً أميركياً. وهي أرقام تقل عن الدخل الفردي لأبناء البلدة من محصول التفاح حصراً في خمسينيات القرن الماضي، الذي ورد في مطلع الدراسة، مع الأخذ بالحسبان، الفارق الكبير في القوة الشرائية للدولار الأميركي، منذ ستين سنة، إلى يومنا هذا.

في كلا الحالتين إن الدخل الفردي في البلدة متدن جداً، قياساً للبلدات الأخرى، أو حتى على المستوى الوطني، حيث بلغت حصة الفرد من الناتج المحلي في لبنان سنة ٢٠١٦ نحو ٧٠٠٠ دولاراً أميركياً^(٣)، أي أكثر من ضعفي مثيله في الفوارة. وفي هذا التفاوت مع المعدل الوطني دلالة واضحة على أثر هجرة ونزوح الشباب، أي القوة العاملة، عن البلدة، وبقاء المتقاعدين

(١) الدراسة الميدانية ٢٠١٦.

(٢) لقد تمتع معظم المبحوثين عن تحديد قيمة المبالغ المالية المحولة لحساباتهم من أبنائهم أو إخوانهم، خارج البلدة. واكتفوا بأنهم يعيشون من تلك التحويلات.

(٣) World Bank Group. Lebanon GDP Per Capita. 2016.

والمسنين والفلاحين ذوي الدخل المحدود والكفاءات العلمية المتواضعة.

٦ - الحلول المقترحة للعودة

أجريت مصالحة الجبل الشهيرة، وتم التعويض على من تهجر، وأعيد إعمار ما هدمته الحرب، لكن العودة اقتصرت على أقل من ٥٪ من مجمل أبناء البلدة، وهو أمر مقلق، وليس محصوراً بالفواردة، ولا حتى بالبلدات والقرى المهجرة، بل يطال كل الأرياف اللبنانية، التي تشهد نزحاً سكانياً نحو المدينة، مما أفرز اكتظاظاً في المدن وضواحيها من جهة، وإفراغاً للأرياف وتداخياً للقطاع الزراعي من ناحية أخرى. وهو ما يستدعي التحضير لخطة وطنية عامة، لتشجيع النزوح المعاكس والعودة إلى الأرياف وتطويرها وإعادة إحيائها، وذلك من خلال ما يلي:

- تشجيع العمل الزراعي، من خلال إعادة إحياء مصرف التسليف الزراعي والصناعي، وتقديم القروض الزراعية بفوائد رمزية، ولأمد طويل، وعدم استكمال مد المزارع بالتمويل إلا بعد إجراء متابعة وكشف على مشروعه من قبل المصرف، كي لا تضيع الجهود سدى.

- تشجيع صناعة المؤمن، وإظهار أهميتها وفوائدها الصحية بالنسبة إلى المستهلك، كما بالنسبة إلى المنتج. وتأمين تصريف الإنتاج القروي من خلال

المعارض الدائمة، والدعم الأهلي والحكومي المتلازمين، لتمكينه من منافسة المنتجات المشابهة المستوردة.

- تخصيص ضمان صحي واجتماعي للمزارعين، المستمرين في مهنتهم حصراً، وتشديد الرقابة من خلال استحداث جهاز تفتيش زراعي، يتبع للتفتيش المركزي كسائر أجهزة التفتيش الأخرى، وذلك يحمي المزارع ويحفزه على عدم النزوح إلى قطاع الخدمات، ومن ثم يثبتته في بلده.

- تأمين تصريف الإنتاج الزراعي من خلال المصانع الغذائية، المدعومة بدورها من قبل الأجهزة الحكومية، وتأمين العاملين فيها، بما يشبه المزارعين من ضمان صحي واجتماعي. إضافة إلى تفعيل التصدير إلى الأسواق العربية والأجنبية.

- تشجيع الشباب على التخصص في المجال الزراعي، سواءً في المرحلة المهنية، أو في المرحلة الجامعية، عن طريق المنح، وتأمين العمل بعد التخرج، وهو ما يضمن إقبال الشباب على دخول هذا القطاع ورفده في الطاقات العلمية، والتقنيات المتطورة، التي تزيد من كمية وجودة الإنتاج.

- إخضاع كل من عمل ويعمل في القطاع الزراعي، والصناعي لشرعة التقاعد، أي شأنه شأن باقي موظفي الدولة، يتقاضى راتباً تقاعدياً، بعد أن يمضي ما لا يقل عن خمس وعشرين سنة في العمل

استثمار الأراضي الزراعية. هذه العوامل مجتمعة أفرزت معدلاً مرتفعاً للأمية، وتدنيًا في المستوى التعليمي، كما في المداخيل. وبالتالي فإن التقدم العمري في البلدة تطلب اعتماد قسم من عائلاته على رواتب التقاعد للموظفين السابقين، وقسم آخر تأتي إعانتة بتحويلات من الأقارب، أو الجمعيات.

وتبين من الدراسة أن بلدة الفوارة هي نموذج مثالي عن بلدات الشوف، التي طالها التهجير الشامل، مما يستدعي الإسراع في إطلاق خطة عاجلة لإعادة جدية لسكان البلدة إلى أرضهم، وذلك من خلال إيجاد فرص عمل للشباب، على الأقل من يرغب في العمل الزراعي عن طريق القروض الزراعية الطويلة الأمد والمتدنية الفوائد، وإعادة الزراعة إلى سابق عهدها والاكتفاء والبجوحة إلى سكان البلدة.

إن كل المقترحات التي وردت في متن الدراسة ليست جديدة، وتواجه تقليدياً أن المشكلة في ارتفاع كلفة الإنتاج، وصعوبة تصريفه، وأن لبنان ليس الدولة زراعية، ولكن هذه الطروحات تجافي الحقيقة، لأن الريف اللبناني قادر على توفير كل حاجاته الزراعية والحيوانية، وإنما اصطدام مصالح المزارعين مع التجار، الذين يستوردون المحاصيل الزراعية المنافسة للإنتاج المحلي، كما للصناعات الغذائية المحلية، هو المشكلة الأساس، ومن ثم يجب على

الزراعي أو الصناعي. وفي ذلك ضماناً للشيوخوخة يوفر الاستقرار النفسي والطمأنينة على مستقبل المزارعين والصناعيين، ومن ثم تثبيتهم في بلداتهم وقراهم، وهو ما ينطبق تمامًا على بلدة الفوارة، موضوع هذه الدراسة.

- لتأمين تمويل هكذا مشروع وطني شامل لا بد من الحصول على التمويل من الأجهزة الحكومية، ولا سيما من خلال زيادة حصة وزارة الزراعة من الموازنة العامة.

الخاتمة:

بينت الدراسة أن التهجير ليس سبباً وحيداً لعدم عودة أبناء البلدة، وإنما هناك جملة أسباب اجتماعية واقتصادية، نتجت عن التهجير، وأسهمت بشكل كبير في الحؤول دون ذلك. وقد تبين أن فقدان البلدة للبلدة للعناصر الشابة والمنتجة، والتي تضمن استمراريته، قد أفضى إلى خلل كبير في الهرم العمري للسكان، الذي انعكس بدوره نموًا طبيعيًا سلبيًا للسكان، إن بقي على حاله ستفقد البلدة كل سكانها بعد قرنين ونصف القرن من الآن، هذا في حال عدم هجرة أو نزوح أحد من سكانها الحاليين. كما أن بقاء أقل من ٥٪ من أبناء الفوارة بشكل دائم في بلدتهم، قد أدى إلى كثافة سكانية متدنية، ومن ثم تراجعًا في

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

- 1 - Japan Statistical Yearbook, Chapter 2: Population and Households. 2016.
- 2 - The World Bank Lebanon GDP Per Capita. 2016 Group.
- 3 - The World Bank Group 2017. Population Ages 0 - 14 (% of Total).
- 4 - UNDP - Human Development Report 2016.
- 5 - UNESCO Institute for Statistics. 2015Á List of countries by Literacy rate.

المواقع الإلكترونية.

- موسى، متى. الموارد في العصور الحديثة.
American Foundation for Syriac
Studies. www.syriacstudies.com
وزارة الداخلية. لوائح الشطب سنة ٢٠١٧.

السلطة السياسية أن تتبنى سياسة جديّة
اتجاه قطاع الزراعة، لأنها السبيل الأهم
والأجدى لتجذير الإنسان بأرضه، ومن ثم
تعزيز انتمائه الوطني.

المصادر والمراجع العربية

- ١ - أبو عيانة، فتحي محمد. جغرافية السكان. دار النهضة العربية. الطبعة الثالثة. بيروت ١٩٨٦.
- ٢ - الجريدة الرسمية. العدد ٢٠. في ٩ آذار ١٩٦٤.
- ٣ - الصليبي، كمال. تاريخ لبنان الحديث. دار النهار للنشر. ط: ٧. بيروت ١٩٩١.
- ٤ - طانيوس، سامي إسبر. نشرة الرعية. صادرة عن رعية مار أنطونيوس الكبير - الفوارة. العدد ٩٧، أيار ٢٠١٨.
- ٥ - طانيوس، سامي إسبر. نشرة الرعية. صادرة عن رعية مار أنطونيوس الكبير - الفوارة. العدد ٩٨. حزيران ٢٠١٨.
- ٦ - عبد العزيز عمر، عمر. تاريخ المشرق العربي (١٥١٦ - ١٩٢٢). دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٤.
- ٧ - فاعور، علي. جغرافية التهجير، دراسات ميدانية، وقائع وحلول. ط: ١. المؤسسة الجغرافية. بيروت ١٩٩٣.
- ٨ - فهد، بطرس. علاقات الطائفة المارونية بالكرسي المقدس. دار لحد خاطر. بيروت. لا تاريخ نشر.
- ٩ - وزارة الداخلية. لوائح الشطب سنة ٢٠١٠.
- ١٠ - وزارة الداخلية. لوائح الشطب سنة ٢٠١٧.

الملاحق

الجامعة اللبنانية

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسم الجغرافيا

- استمارة استبيان عن الإسكان في بلدة الغزيرة - الشوف - 2016.
- كل البيانات الواردة في هذه الاستمارة مخصصة لغرض البحث العلمي و أن يسمح لأحد بالاطلاع عليها.

القسم الأول: بيانات عامة عن المسكن والأسرة

أولاً: بيانات عن المسكن:

- ١- نوع المسكن: حقة في حين مسكن مستقل
 مسكن مركب (شعبية - عربية - كراج)
- ٢- عدد غرف المسكن وما عدا المطبخ والشرفات:
 ٣- المساحة المبنية للمسكن: م² أو أقل م² بين ٣٠ و ٨٠ م²
 م² بين ٨١ و ١٤٠ م² م² بين ١٤١ و ٢٠٠ م²
 م² أو أكثر
- ٤- الوسيلة الرئيسية للتدفئة: مركزية وعلى مستوى المسكن أو الشقة
 غير مركزية:
 غاز - كاز - مازوت - كهرباء حطب
 لا يوجد تدفئة
- ٥- هل المسكن متوصول إلى شبكة للمياه?
 متوصول إلى الشبكة العامة للمياه
 متوصول إلى شبكة خاصة أو إلى بئر ارتوازي فقط
 غير متوصول إلى أي شبكة مياه

٦- المصدر الرئيسي لحياة التبريد:

- من الشبكة العامة أو الخاصة دون تعقيم أو تصفية
 من الشبكة العامة أو الخاصة مع تعقيم أو تصفية
 مياه نبع
 مصدر آخر

٧- وسيلة الصرف الصحي:

- شبكة مجاري عامة مجاري مكشوفة
 حورية صحية غير ذلك
 لا يوجد
 يأكمله ملك الأسرة حصة منه فقط ملك الأسرة
 بالإنبار غير ذلك

٨- هل المسكن:

- ٩- إذا كان المسكن بالإنبار، كم هو عدد الإيجاب السنوي للمسكن؟ (بالآلاف الفيرة اللبنانية)
 أقل من ١٠٠٠ من ١٠٠٠ إلى ١٨٠٠
 من ١٨٠٠ إلى ٢٤٠٠ أكثر من ٢٤٠٠

١٠- كم عدد السيارات الشخصية التي تمتلكها الأسرة المقيمة؟ العدد:

١١- كم عدد خطوط الهاتف التي تستخدمها الأسرة المقيمة؟ وما هو نوعها؟
 مركزي: العدد: خليوي: العدد:

١٢- المتفتحات الصحية: داخل المنزل خارج المنزل لا يوجد

١٣- المطبخ: داخل المنزل خارج المنزل لا يوجد

ثانياً: بيانات عن الأسرة:

١- في حالة حصول ولادات في الأسرة خلال السنة: الأصبغة، كم هو العدد؟ ذكور إناث

٢- في حالة وفاة أحد أفراد الأسرة (أو أكثر) خلال السنة: ذكور إناث

أ- العمر عند الوفاة: سنين أو أكثر مرض كامل مرض معتل
 ب- سبب الوفاة: شبحوية حادث غير ذلك (تحدد المستشفى)

ج- هل استشار طبيباً أو تلقى أي عناية طبية أو دخل المستشفى خلال الـ ١٢ شهر الأسرة؟

نعم لا

٣- كم عدد الأولاد الذين ألباهم الرخصة (فترة الحياة الرضعية)؟

ذكور إناث

٤- ما هو نوع الضمان الصحي؟

١ الضمان الاجتماعي
٢ المستشفى العسكري
٣ تأمين خاص آخر
٤ غير مضمون
٥ تعاونية موظفي الدولة
٦ تأمين خاص لحساب صاحب العمل
٧ تأمين صنف

٥- في حالة نقل أحد أفراد الأسرة (أو أكثر) إلى مركز صحي للعلاج (مستشفى أو مستشفى)، أين هو مكان هذا المركز؟
مستشفى مستشفى مستشفى

٦- في حالة متابعة الدراسة لأحد أفراد الأسرة (أو أكثر)، أين هو مكان المركز التعليمي (جامعة - مدرسة - معهد)؟ وهل هو رسمي أم خاص أم مجاني؟
الجامعة
المدرسة
المعهد

٧- في حالة عدم متابعة الدراسة، ما هي الأسباب؟

١ الإكتمال المادية محدودة
٢ بعد مكان (الجامعة - المدرسة - المعهد)
٣ العادات والتقاليد
٤ أسباب أخرى
٥ عدم توفر المواصلات
٦ الزواج
٧ عدم الرغبة

٨- كم عدد أفراد الأسرة المقيمين بعيداً عن المسكن؟

العدد مكان الإقامة في الداخل مكان الإقامة في الخارج

٩- ما هي أسباب تغير مكان السكن؟

١ عدم توفر فرص عمل
٢ متابعة الدراسة
٣ أسباب سياسية
٤ انخفاض الدخل
٥ الزواج
٦ أسباب أخرى

القسم الثاني: بيانات عن أفراد الأسرة

الاسم	النوع	العمر	حالة القرابة	الوضع العائلي	السن عند الزواج الأول	المسوى التعليمي	العمل	الدخل السنوي بالآلاف ل.ل.
١								
٢								
٣								
٤								
٥								
٦								
٧								
٨								
٩								
١٠								
١١								
١٢								

محمّد أبو علي^(١)

صوفيٌّ في بُردةٍ من ياسمين التجليات الصوفيّة في شعره

عصام حمدان

شَرَّه يصوف صَوْفاً: عَدَلَ. وصاف السهم
عن الهدف يصوف ويصيفُ: عَدَلَ عنه^(٤).
وفي مادة (صفا) في المعجم نفسه:
«الصَّفُوُّ.. والصِّفاء، ممدود: نقيض الكدر،
صفا الشيءُ والشرابُ يصفو صفاءً
وصُفُوًّا»^(٥).

هذه المعاني اللغوية مجتمعة تجعلنا
نستنتج أن التصوِّف يدور في فلك معانٍ
متنوعة، منها: الصُّوف، والإجازة في
الافاضة، والعدول، وأيضاً الصفاء.

التصوِّف لغةً واصطلاحاً:

ورد في معجم العين في مادة (صَوْفَ):
«الصُّوف للضأن وشبَّهه [...]، صُوفَة: اسم
حيٍّ من تميم، وآل صوفان: الذين كانوا
يجيزون الحجاج في عرفات، يقوم أحدهم
فيقول: أجزيت صوفة، فإذا أجازت قال:
أجزيت خندف^(٢)، فإذا أجازت أُذن للناس
في الافاضة»^(٣).

وردد أيضاً في لسان العرب لابن
منظور في مادة (صَوْفَ): «وصافٌ عني

(١) الشاعر هو الأستاذ الدكتور محمد توفيق أبو علي، من قرية كامد اللوز في البقاع اللبناني، عميد سابق لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، حائز دبلوم دراسات عليا في كلية التربية (١٩٨٢)، دكتوراه اختصاص في اللغة العربية وآدابها من جامعة القديس يوسف (١٩٨٣)، ثم دكتوراه الدولة اللبنانية من الجامعة اللبنانية (١٩٩٩) بتويته اللجنة والتوصية بالنشر. له جمهرة من المؤلفات منها: ديوان «ضوح الياسمين»، «صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية»، إضافة إلى معجم، وسلاسل تعليمية، وغيرها من البحوث العلمية والمقالات.

(٢) خندف أو العرب الخندفية أو الإلياسية هي مجموعة كبيرة من القبائل العربية تعرف باسم مضر الحمراء، وتنسب لإلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

(٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، الجزء الثاني، ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، المجلد التاسع، ص ٢٠٠.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع عشر، ص ٤٦٢.

ومن المعنى اللغوي ننطلق إلى المعنى الاصطلاحي:

كثرت الأقوال في معنى التصوف وتنوّعت، فقد ورد في كتاب اللمع للطوسي أنه «سئل الجنيد^(١) رحمه الله عن التصوف، فقال: أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة. وسئل رُويم بن أحمد^(٢) رحمه الله عن التصوف، فقال: استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده، وسئل سمنون^(٣) رحمه الله عن التصوف، فقال: أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء^(٤). وسئل أبو الحسن القناد^(٥) رحمه الله عن معنى الصوفيّ، فقال: مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عز وجل في كل وقت بشرط الوفاء^(٦).

التعريفات تتجه إلى أن التصوف يدور في فلك، العلاقة بالله تعالى، والقرب منه، من خلال مسلكٍ يجلّله الصفاء والوفاء، بالإضافة إلى ترك علائق الدنيا التي تُبعد الإنسان عن ذكر الله.

التعبير بالشعر عن نزعة التصوف:

١ - تأويل العنوان:

الشعر حالة من التوتر والانفعال، شعور يعتلّ في الذات الشاعرة يحتاج إلى قالب يصب فيه الشاعر لواعجه وأحاسيسه، فتظهر «لغة شعرية جديدة لا تصف الظاهر بذاته، وإنما تكشف عن معناه أو تأويله في النفس»^(٨).

والشاعر «محمد أبو علي» وجد في النص الصوفي برمزيته وسيلةً مؤاتية للتعبير عن ذاته وعالمه الباطني وتجربته الفريدة، والتعبير عن هذه التجربة هو «خروج من الذاتية والجوانية إلى

ويتبين من التعريفات السابقة أن المتصوفة لم يضعوا تعريفاً جامعاً مانعاً يدلّ على التصوف، لأن «كلاً منهم نطق عن حاله وذوقه ومشربه»^(٧)، إلا أنّ هذه

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي القواريري الخزاز، أبو القاسم (ت: ٢٩٧ هـ)، سيّد من سادات الصوفية، يعود مسقط رأسه إلى نهاوند، أما مولده ونشأته ووفاته، فيبغداد، واشتهر بصحبة خاله السري السقطي.

(٢) الإمام أبو الحسن، رويم بن أحمد بن يزيد البغدادي (ت: ٣٠٣ هـ)، شيخ الصوفية، ومن الفقهاء الظاهرية، كان في أيام المأمون.

(٣) سمنون بن حمزة، ملقب بسمنون المحب (ت: ٢٩٨ هـ)، شاعر متصوّف، ولد في البصرة وقضى حياته في بغداد يتعبد وينظم الأشعار في محبة الله تعالى.

(٤) الطوسي، اللمع، ص ٤٥.

(٥) علي بن عبد الرحيم أبو الحسن القناد، من مشايخ الصوفية المشهورين، دخل قزوين على ما حكاه الإمام هبة الله بن زاذان، وقال كان أوحد عصره علماً وأدباً وتحريراً وعبارة.

(٦) الطوسي، اللمع، ص ٤٦.

(٧) عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص ١٧. (٨) أدونيس، الثابت والمتحول، ص ١٥٤.

«الأخريين»، [هو] عودة الصوفي من رحلته من «الأعماق» إلى «الأفاق»^(١).

فهمًا وإن تفسيرًا، وإن تفكيكًا وإن تركيبًا^(٤).

أول ما يطالعنا في ديوان «محمد أبو علي»، «ضوع الياسمين»، مدخلُ الديوان، المتمثل بالعنوان، «ضوع الياسمين»، وبما أن الشعر لمح وتلويح ورمز وتخيل؛ فإن أذهاننا تُبعد المعنى الإبلاغي المباشر لهذا العنوان، وتدفعنا للخوض في يَمِّ التأويل، والكشف عما خلف العبارة.

وبالتالي فقد شكل العنوان «ضوع الياسمين» عتبة إلزامية، للعبور إلى مكامن العشق والجمال، القابعة في تكايا هذا المنتج الابداعي، وكان مفتاحًا إجرائيًا يمكن الاستعانة به في كشف دلالات النص الشعري.

تحدث النقاد قديمًا عن براعة الاستهلال أو براعة المطلع وحسن الابتداء، وهو أن يأتي الكاتب أو الشاعر بكلام «يجذب السامع إلى الإصغاء بكلّيته، لأنه أول ما يقرع السمع وبه يُعرف مما عنده»^(٢). هذا المطلع لا بدّ أن يأتي بومضات لامعة في سماء النص الفني الابداعي، هذه الومضات «تزداد حُسْنًا إذا دلّت على المقصود بإشارة لطيفة»^(٣) من دون الإفصاح والإعلان.

تتجلّى أهمية هذا التركيب العنوانية، من خلال الشحنة المجازية والتأويلية التي يمكننا أن نلاحظها فيه؛ فهو يتألف من كلمتين: ضوع والياسمين. وقد ورد معنى الضوع في لسان العرب كالأتي: «الضُّوعُ: تَضُّوعُ الرِّيحِ الطَّيِّبَةِ أَي نَفَحَتْهَا. وضاعت الرائحة ضَوْعًا وتضوّعت، كلاهما نَفَحَتْ»^(٥)، «وضاع المسكُ وتضوّع وتضَيَّع أي تحرك فانتشرت رائحته»^(٦)، فكلّمة «ضوع» مصدر^(٧) يدلّ على حدّث التحرك والانتشار من دون الاقتران بزمن، ما يفيد الاستمرارية والدوام، والكلمة الثانية «الياسمين» هي اسم مفرد، مضاف إلى كلمة ضوع، وهي الورد المعروف، الطيب الرائحة. وبالتالي، جملة العنوان، جملة

هذا و«يُعدُّ العنوان من أهم العتبات النصية الموازية المحيطة بالنص الرئيس، حيث يساهم في توضيح دلالات النص، واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية، إن

(٢) السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص ٢٦٠.

(٤) جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، ص ٨.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثامن، ص ٢٢٩.

(٦) م. ن، ص ٢٢٩.

(٧) يقول ابن مالك: «المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن في أمن».

راجع: ابن مالك، ألفية ابن مالك، ص ٢٥.

إسمية، لمبتدأ محذوف تقديره هو، وأصلها: «هو ضوع الياسمين»، «ورُبَّ حذفٍ هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد»^(١)، وقد أفادنا هذا الاختزال في تبيان الدلالة العميقة لهذه الجملة، حيث تم التركيز فيها على حدث الانتشار لطيب الياسمين، بالإضافة إلى ما تحمله دلالة الجملة الاسمية من تقرير وثبات، ما يعزّز فكرة هذا الانتشار المضطرد والدائم للضوع، فكأنّه، بعبقّه، وجود ويفيض على ما حوله.

يحيلنا هذا العنوان الجاذب المفعّم بالإشارة والتلويح إلى حضرة النص لنكتشف كُنّه «ياسمين» محمد أبو علي، لأنّه «لا يمكن مقارنة العنوان مقارنة علمية موضوعية إلا بتمثّل المقاربة السيميوطيقية التي تتعامل مع العناوين، على أساس أنها علامات وإشارات ورموز وأيقونات واستعارات»^(٢)، فهل «الياسمين»، هنا، هو الوردة المعروفة أم يحمل دلالات أخرى تقف خلف العبارة؟! وبطبيعة النص الشعري أنه لا يقف على حدود البنية السطحية، بل يغوص في الإيحاء والرمز، ما يتطلّب منا، الدخول من العنوان إلى متن النص، والولوج إلى عوالم قصائد الديوان، مع الحفاظ على خط العودة إلى العنوان ودلالاته.

في القصيدة الأولى من الديوان والتي تحمل عنوان «الياسمين»، يقول «محمد أبو علي»:

قالت الشمس لضوع الياسمين
إنّ ضوئي شاخ لولا عبق
يمحو عن الضوء أمارات السنين^(٣)

الشمس، على الرغم من أنها مكوّن أساسي من مكونات الحياة في الطبيعة، ولها أثرٌ فاعل في المخلوقات جميعاً، حيث تشكل مصدر الحياة لها، تراها تقف عاجزةً ضارعة، تدين للياسمين، فهو الذي يمدّها بعبقٍ يُحييها، ويعيد إليها شبابها، وهذا ما جعل الياسمين في مرتبةٍ عليا، تفوق الشمس عطاءً؛ فيتأجّجُ فينا السؤال عن ماهية هذا الياسمين الذي خرج عن معناه المعجمي الحقيقي الذي تحمله اللفظة، إلى دلالة مخبوءة لا بد من كشف سرّها!

ويستمر فعل القول المسند إلى عنصرٍ آخر من عناصر الطبيعة، وهو «الهواء» المتمثل بعبارة «قالت الريح».

قالت الريح لضوع الياسمين
نبضُ قلبي أنتَ يا ضوعٌ، فكنْ لي
رجعٌ ودٌّ للهات السالكين^(٤)

فضوع الياسمين يستمرُّ بإضفاء الحياة

(١) الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص ١٣٤.

(٢) محمد توفيق أبو علي، ضوع الياسمين، ص ٩.

(٣) جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، ص ٨.

(٤) محمد توفيق أبو علي، ضوع الياسمين، ص ١٢.

على عناصر الطبيعة، فهو ههنا نبض قلب
الرياح، ومحرّكها، والمؤثر في ديمومتها.

وهكذا، يستمر النداء، وتتداعى الطبيعة
بعناصرها طالبة المدد من الياسمين،
ويظهر ذلك مجدداً في قصيدة «قال الرماد»:

قال الرماد:

يا ياسمين متى يضوع شذاك في خلد السواد
حتى يؤوب الليل من تيه الأسي
ويعود للسمر الجميل بهاؤه^(١)

فإن «الرماد»، بهيئته «الترابية»، يطلب
من ضوع الياسمين أن ينير الليل لينجلي
الأسي ويحلو السمر.

إنّ هذه السيرورة الفنية التي أسند فيها
«محمد أبو علي» الفعل (قال) في قصائده
إلى المسند إليه الشمس / النار: (قالت
للشمس)، وإلى المسند إليه الرياح / الهواء:
(قالت الرياح)، فالمسند إليه الرماد / التراب:
(قال الرماد)، تشكّل مجتمعة، بنية المعنى
الشعري، «الشعر بنية ذات عناصر
متضافرة»^(٢)، وهذه العناصر المتضافرة
تجعلنا نلاحظ، عند تحليلها، المنحى
الصوفي الذي يسلكه «محمد أبو علي»، فإنه
باستحضاره رمز الشمس، الرياح، والرماد،

يستحضر العناصر الطبيعية الرئيسة: النار،
الهواء، والتراب؛ هذه العناصر التي أرجعها
ابن عربي إلى عنصر واحد أعظم هو «مبدأ
خلق العالم ومادته الأولى»^(٣)، و«العنصر
الأعظم هو الماء من حيث إنه أصل الحياة
ومنشؤها بالسند القرآني: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ
الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٤). وابن عربي يرى «أن
الماء الذي يجعله عنصراً أعظم يشبه بالاسم
فقط الماء الذي في عالمنا (عالم الكون
والفساد)، وقد سمي هذا الأخير باسمه
لصفة قامت به (الإحياء)»^(٥). وهكذا فإن
«العنصر الأعظم هو في الواقع «الحياة»
التي سببها «الماء»»^(٦).

وسيراً على نهج ابن عربي كان اختيار
«محمد أبو علي» للياسمين، فهو الحياة
الفاعلة في عناصر المخلوقات، وكما أن
الماء هو الباعث على الحياة، كذلك الياسمين
برمزيته الشعرية الصوفية التي تشابه
الماء، كان هو الباعث، من خلال ضوعه،
على حياة العناصر الأخرى.

ثم، بعد ذلك، وفي قصيدة «قالت
ياسمينة»، نجد أن هذا العنصر الأعظم
(الياسمين \ الماء \ الحياة) يستجيب لطلب
المخلوقات التائقة إلى مساعدته، فهذا مبعث

(١) م. ن، ص ١٣.

(٢) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص ٨٢٧.

(٣) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص ٨٢٧. (سورة الأنبياء، الآية: ٣٠).

(٤) م. ن، ص ٨٢٧.

(٥) م. ن، ص ٨٢٧.

سروره، وغايةً مناه، ويتّضح ذلك في قول
«محمد أبو علي»:

ثم قالت ياسمينه
يا رماد النور يا فيض الحياة
أنت عندي فرح تصبو إليه الأمنيات^(١)

وبعد ذلك كله، يفصح الشاعر «محمد
أبو علي» عن مكانن لوعته، وتباريح هواه،
فيستلم زمام المبادرة ويصرخ منادياً زهرة
الياسمين نداءً رمزياً رقيقاً، ويبثها شكواه
حيث يقول في قصيدة تحمل عنوان: «يا
ياسمين»!

يا ياسمين، إليك شكواي الهوى
تعب فؤادي، من تباريح النوى
كن في جفوني فتنةً، وكن المدى
وافتح لأشواقي مصاريع الكوى^(٢)

إنها حالة عشق لا يقوى الشاعر إلا على
البوح بها، فيشكو من تباريح البعد والنوى
عن معشوقه الياسمين، ويطلب اللقاء به،
والوصال. حاله كحال الحلاج المتفاني في
العشق الصوفي، والذي عنده «ترمز الوردية
للحبيب، الذي لا يحتمل منه الحلاج عتاباً أو
لوماً، فهو يتعدّب بهذا اللوم ولو كان

يسيراً»^(٣)، سلوته الحلول والفناء في هذا
الحبيب. وهذا دأب شاعرنا الذي يسعى إلى
الارتقاء في أحضان الياسمين، محبوبه
الرمزي الذي يمثل الاقتران به ذروة المنال،
حيث يخاطبه قائلاً: «وافتح لأشواقي
مصاريع الكوى».

وهكذا نجد أنّ العنوان «ضوع
الياسمين» كان انعكاساً للنص في بنيته
الدلالية العميقة، «والعلاقة بينهما تفاعلية
وجدلية، وهو كذلك بؤرة النص وتيمته
الكبرى التي يتمحور حولها»^(٤).

٢ - الحب الإلهي:

الحب شعور صادق جميل «دقت معانيه
لجلالته عن أن تُوصف»^(٥)، وهو أوسع من
أن يُقام له حدّ، أو أن يُزجّ بتعريف ضيق.
«والحقُّ يُقال إنَّ مَنْ عرفَ الحبَّ بالتجربة
والمعاناة فهو بغنى عن كل التعريفات
الفلسفية والتحديدات النظرية لماهيته مهما
دقت في عبارتها واتّسعت في شمولها»^(٦).

وقد عرفه ابن عربي بقوله: «الحبُّ هو
خلوص الهوى إلى القلب وصفاءه من
كدورات العوارض»^(٧). و«لقد أطل العطارُ

(٢) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ١٦.

(٤) جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، ص ٣٩.

(١) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ١٤.

(٣) ابراهيم منصور، الشعر والتصوّف، ص ١١٥.

(٥) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألف، ص ١١.

(٦) صادق جلال العظم، في الحب والحب العذري، ص ٩-١٠.

(٧) محمود محمود الغراب، الحب والمحبة الإلهية، في كلام الشيخ الأكبر ابن عربي، ص ٨١.

الحديث في منطق الطير على العشق، إذ إنَّ العشق هو القوَّة الخفية التي تدفعُ السالك على المضيِّ قُدماً في الطريق رغبةً في لقاء المحبوب الأزلي»^(١).

والشاعر المتصوِّف «محمد أبو علي» اختار هذا الطريق؛ طريق السير والسلوك في رحلة العشق الإلهي الذي بدأه بتجربة الحب الإنساني المحسوس، للوصول إلى المعشوق المطلق الأزلي؛ إنَّه حبٌّ صوفيٌّ بامتياز، ينطلق من الخلق ليصل إلى الحق^(٢)، اتخذ فيه «محمد أبو علي» من الحب العذري مسلماً، يؤدي به إلى منتهى الغاية.

عند تتبُّعنا لقصائد الديوان نجدُ أن «الشاعر» يكثر من ذكر اسم محبوبته «سمر»^(٣) في طيِّات القصائد، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنه يدلُّ على غرامه ومدى تعلقه بهذه المعشوقة، فإنَّ المتصوِّف «سمنون» عندما سُئل عن المحبة، قال: «إنها

صفاء الودِّ مع دوام الذكر: لأنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئاً أكثرَ من ذكره»^(٤).

وقد خصَّ «محمد أبو علي» «سمر» بقصيدة رمزية تعجُّ بالدلالات الصوفية، وفيها تصوير لسيرورة حبه الصوفيِّ من عالم المحسوس/الخلق، إلى عالم المجرّد/الحق، ليكون «الحق هو المحبوب على الحقيقة من خلف حجاب الرمز»^(٥).

يوحي العنوان «إلى سمر في ميلادها»^(٦) أن الشاعر يريد أن يقدم شيئاً قيماً كهدية إلى «سمر» في يوم ميلادها، فإذا بهذه القصيدة، هي، هذا الشيء، حيثُ تُشكل محبوبته «سمر»، عماد هذه القصيدة، وبنيانها الدلالي.

تبدأ القصيدة بقوله:

ولتَمَوِّزَ صَلَاةً وَصَلَاةً
ولتَمَوِّزَ أَغَانِ عَابِقَاتِ
دُوْحَةِ النَّارِ، تَوَاشِيْحُ التَّكَايَا، وَأَهَاتِ^(٧)

(١) فريد الدين العطار، منطق الطير، ص ٩٠.

(٢) ورد هذان المصطلحان: «الخلق»، و«الحق» في تقسيم صدر الدين الشيرازي للأسفار الأربعة بقوله: «واعلم أن للسلاك في العرفاء والأولياء أسفاراً أربعة، أحدها السفر من الخلق إلى الحق»... راجع: صدر الدين الشيرازي، الحكمة المتعالية، ص ١٣.

(٣) نماذج عن كيفية ورود اسم «سمر» في ديوان ضوع الياسمين: إلى سمر في ميلادها، سمري ص ١١ - للسمير الجميل ص ١٣ - سمراً ص ٢٣ - وسمر ص ٢٥ - السمير ص ٤٧ - سمير الليل ص ٥٠ - سمري حروف العشق... - سمري صلاة النور... ص ٦٥. إلخ.

(٤) الطوسي، اللع، ص ٨٦.

(٥) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ١١.

(٦) (م.ن، ص ١١).

تموز^(١)، زمن الولادة، ويبدو أنه الشهر الذي وُلدت فيه «سمر»، وتموز بطبيعته يرمز إلى الولادة والانبعاث، فمولد «سمر» انبعاثُ العشق المقدس المهيب، ويدل على قدسية هذا العشق لفظة «صلاة» التي تكررَت مرتين في السطر الأول، ونلاحظ أنّ «محمد أبو علي» يشارك العارف الكبير «حافظ الشيرازي» في فكرة قدسية العشق، فقد ورد في غزليات حافظ: «والعشق صلاة لا يجوز لها انعقاد، إلا بتطهير العاشق بدماء الفؤاد»^(٢). عشقٌ واتصالٌ بالحبیب في جوٍّ من الفرح عابق بالأغنيات: «ولتموز أغاني عابقات»، مكانها ومسرحها تكايا العاشقين، والتكّية مخصّصة للعارفين المتصوفين، فاستعمال الشاعر لهذا الحيّز المكاني، هنا، يعرّز لدينا فكرة السير والسلوك الصوفي لهذه الرحلة العشقية، إذ يقول: «دوحة النار تواشیح التكايا، وآهات». إنها «صلاة رتلّ فيها القلب الملتهب همسات وآهات حرّی».

ثم يتابع السالك السقيم بتّ لواعجه، ففي حوار داخلي مع ذاته يعترف أنّه في سقمه، أي؛ في «مرضه» بهذا الحب، يكمن الدواء: «إنّ في سقمي دواء». فيأتيه الإقرارُ من «شيخ طريقته الجوائني»، إن صحّ التعبير، أي؛ من ذاته العاشقة، أن عليه أن يواظب على الآهات، وبالتالي على الاكتواء بلوعة الحب: «رجع الآه، فبعض البرء داء»؛ لأنه إن قصّر وبرء من حبه هذا، فهنا مكن المرض، والسقم الحقيقي.

ثم يقول الشاعر في القصيدة نفسها:

فاسكبي الجمر، فبعض الجمر ماءً
وتعالّي لملي روعي، فروحي حزنٌ قفرٍ وخواءٌ
وبقايًا من بقايا من هباء^(٣)

إن مجموعة الأفعال الطلبية الواردة بصيغة الأمر (اسكبي - تعالّي - لملي) والموجهة إلى المعشوقة «سمر»، تؤشّر إلى دخول الشاعر في مقام الطلب^(٤) أو الإرادة^(٥)، والإرادة «هي الإجابة لدواعي الحقيقة طوعاً»^(٦)، فيأخذ زمام المبادرة

(١) تموز أو دموزي: ومعناه الابن المخلص، في الأسطورة هو أحد حراس بوابة السماء، يبعث حياً كل ستة أشهر. سقى التربة بدمائه حتى الارتواء، فانبعثت فيها الحياة. يعتبر موته وقيامته أحد الطقوس التراجيدية المهمة في قصته الأسطورية.

(٢) إبراهيم الشواربي، حافظ الشيرازي، ص ٣٠٣. (٣) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ١١.

(٤) يذكرنا برحلة الطائر، السيمرخ، عند فريد الدين العطار التي ترمز إلى مراحل الوصول الصوفي، والتي بدأت من الوادي الأول، وادي الطلب، لتصل إلى الوادي الأخير، وادي الفناء.

(٥) «والجدير بالذكر هو أن الإرادة عبّر عنها بالمنزل الأول... أي أنّ الإرادة تعدّ أول المنازل التي يصطلح عليها العرفاء بالاصول والتي تجلّي فيها العرفان الحقيقي بوضوح». راجع: مرتضى مطهري، العرفان، ص ٧٩.

(٦) عبد الله الأنصاري الهروي، كتاب منازل السائرين، ص ٦٦.

التشتت التي يحيها الشاعر؛ إلا أن هذه الحالة من التشتت لن تدوم طويلاً؛ لأن الشاعر كان قد عزم على سلوك مسلك أصحاب التكايا، برفقة حبيبته: «سمري ظمءً الينابيع... أنا» لارتواء من نبع الحب الحقيقي، حيث تُظهر بنية النص المتغيرة في الأسطر الشعرية اللاحقة، حالة التبدل والحركة، بعد السكون السلبي الذي كان يُطبق على الشاعر؛ فنرصده حقلاً معجمياً جديداً يضجُّ بالحركة والأمل والفرح: (بيد أني سأغني - لدي - الحب - زيتاً لسراجي - سنا). إن علاقة التضاد التي بُني عليها هذان الحقلان المعجميات توضح مجاهدة الشاعر نفسه لسلوكه مقام الإرادة، وقد أراد سلوكه بالحب: «فلدي الحب»، ذلك أن «الحب تعلق خاص من تعلقات الإرادة»^(٢) وهو، أيضاً، عازم على إكمال الطريق والتوسع في عملية السير، فقد أدخل «السين»، حرف الاستقبال، على الفعل المضارع أُغني؛ والسين «حرف توسيع وذلك أنها تقلب المضارع من الزمن الضيق وهو الحال إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال»^(٣)، ف «محمد أبو علي» سيظل يغني الحب، في رحلته الصوفية، لينير به دربه ومواجيدته.

(٢) سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، ص ٣٠٢.

ويقصد بدء السير والسلوك في هذا المقام. ولكن ما يجب أن نلتفت إليه ههنا، أن «محمد أبو علي» يوجه خطابه إلى المعشوقة، من خلال إسناد هذه الأفعال الطلبية إلى ياء المخاطبة، (اسكبي - تعالي - لملمي)، وليس إلى المتكلم، وفي ذلك دلالة صريحة على دور الأنثى / سمر، الأساس والفاعل في مؤازرة الشاعر للانطلاق في رحلته العشقية، فهي من تستسكب الجمر وتؤجج مشاعر الحب، وهي التي ستجمع شتاته التائه، وتضعه على درب الصحيح، هو، وإياها، وليس بمفرده.

ثم يتابع:

سمري ظمءً الينابيع... أنا

وأنا... ماذا أنا؟

بعض أشلاء مزق

تعب منها الورق

بيد أني

سأغني

فلدي الحب زيتاً لسراجي وسنا^(١)

في بداية هذه الأسطر الشعرية نلاحظ أن هناك حشداً للألفاظ التي تشكل الحقل المعجمي للوهن واليأس: (ظمء - ماذا أنا؟ - أشلاء مزق - تعب)، ما يدل على حالة

(١) محمد أبو علي، ضوع الياسمين ص ١١-١٢.

(٣) أحمد فارس، غنية الطالب ومنية الراغب، ص ١٥٣.

ثم يكمل:

وأرى النهر يعود القهقرى

يشكر النبع ويحنو للثرى

يُضرم النار بقلبِ الظامئين^(١)

في رحلة العشق هذه، يخبرنا «محمد أبو علي» عن مشاهداته وعما يرى، متوخيًا الرمز وسيلة في التعبير؛ فالنهر رمز للعشق، وبالتالي رمز للعاشقين السالكين، وشاعرنا واحد منهم، وهذا يتوافق مع رؤية حافظ الشيرازي التي تقول: «والعشق بعد ذلك كله نهر دافق»^(٢)، هذا النهر/العشق يراه محمد أبو علي «يعود القهقرى»، فلم هذه العودة!؟

النهر عندما يعود، يعود إلى النبع أو إلى الثرى، اللذين يرمزان إلى الأساس والبدائيات، فهو بذلك يحيلنا إلى نفسه التي تحن إلى بدايات العشق، إلى النبع، وكأن النبع هنا، هو (الأُنثى / الحبيبة / الأصل) الذي حرّك مشاعر الحب والوجدان؛ الأصل الحسي الذي سينقل الشاعر المتصوّف إلى عالم المطلق المجرد.

ويصلي مثل صوفي يرثم ذكره

فريحًا... تموز أوفي كيله^(٣)

النهر/العاشق أو السالك، «يصلى مثل

صوفي يرثم ذكره»، ماذا يقول؟

إنها لحظة الشهود والوصول إلى المعشوق الأزلي، حيث وفاء الكيل، وتمام الكمال، إنها النهايات السعيدة، فـ (تموز/العشق/الأُنثى أو سمر) أوصلت حبيبها، وأوفت الكيل بالحق، وقادت عاشقها إلى الحق، حتى «صار كل الجمر ماء»، ولم يعد «بعض الجمر ماء»، يشيّد «محمد أبو علي» من آلية التضاد بين (بعض الجمر كل الجمر) معمارية المعنى؛ وكأنه أراد أن يقول: المحبوبة الرمز (سمر)، في بداية القصيدة، أي، في بداية رحلة العشق كانت تشغل بعضًا من عشق، يحرك المواجيد، ويحاول إرواء السالك الظامئ: «فاسكبي الجمر، فبعض الجمر ماء»، وهو «إن بثها حبه وأشواقه، فإنما هو في الحقيقة يعبر من خلالها إلى ما ترمز إليه، إلى الحق: فالجمال المقيد المحسوس باب مفتوح على الجمال المطلق»^(٤)، وعندها «صار كل الجمر ماء» يعني ذلك الوصول إلى المعشوق الكليّ الإلهي والارتواء من معينه العذب. وهكذا نجد، وباختصار، أن «محمد أبو علي» يصوّر رحلة السير والسلوك في هذه القصيدة كما تصورها ابن عربي: ذوق، فشرب، فري^(٥).

(٢) إبراهيم الشواربي، حافظ الشيرازي، ص ٣٠٤.

(٤) سعد الحكيم، المعجم الصوفي ص ٣٠٥.

(١) محمد أبو علي، ضوع الياسمين ص ١٢.

(٣) محمد أبو علي، ضوع الياسمين ص ١٢.

(٥) م.ن، ص ٦٤٧.

٣ - ثنائية الرؤيا/اللغة:

جماليات الصمت:

عندما يحاورُ العارفُ بوجدِه الصوفي الغيبَ والباطنَ، ينشأ عنده ما يمكن أن نُسمِّيَه مشكلة التعبير، حيث تكون «اللغة هنا مغامرة لقول ما لا يقال»^(١). وهذه المغامرة يكابدها الشاعر، صاحب الرؤيا الصوفية، عندما ينتقل بأشعاره من مقام إلى مقام، ومن حالٍ إلى حالٍ، «كأنَّ الأمرَ حالةً من الفناء، تتحرَّرُ به النفسُ شيئاً فشيئاً من عالمها الحسِّي، لتتلاشى عن هذا العالم وتصير أشبه بالمادة الأثيرية»^(٢)، وحينها يتعطلُّ الكلام، وتغوصُ القصيدة في غموض الدلالة خلف حروفها؛ وعلى حدِّ تعبير النَّفري^(٣)، يصير: «الحرفُ حجاب، وكَلِيَّة الحرف حجاب، وفرعية الحرف حجاب»^(٤).

هذه المغامرة المبرَّحة يعانيتها الشاعر الصوفي «محمد أبو علي»، حيث صارت اللغة، ونظراً لخصوصية التجربة الشعرية الصوفية، عاجزةً عن الكشف عن

المشاهدات والرؤى، ولهذا قال النَّفري: «إن سكنتَ إلى العبارة نمتَ، وإن نمتَ ممَّ فلا بحياةٍ ظفرتَ ولا على عبارةٍ حصلتَ»^(٥).

في قصيدة «سرَّ الجذب»^(٦) يقارب «محمد أبو علي» سرّاً من أسرار العرفان، ألا وهو حالة الجذب التي تعتري المتصوف العارف فتقرِّبه من الحقِّ تعالى بسرعة متناهية، في جوٍّ من الصمت وإغفاء الحرف.

نلاحظ في هذه القصيدة، أن حركية الرؤيا، للتعبير عن الوجد الصوفي عند «محمد أبو علي» تجنحُ باتجاه الخفاء وضيق العبارة، محاكياً عبارة النَّفري الشهيرة «كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة»^(٧)، وكأنَّ المجاز في اللغة لا يكفيه فتراه يلجأ إلى الإيجاز، أيضاً.

يقول «محمد أبو علي» في هذه القصيدة:

من قبل أن تكشف التفاحة سرَّ الجذبِ
بصمتٍ، تساقطتْ قلوبُ أهلِ الجذبِ
على ترابِ الدهشة القانته
مقصلةً كان البوحُ^(٨)

(١) أدونيس، الشعرية العربية، ص ٦٤.

(٢) عبد الرحمن محمد القعود، الابهام في شعر الحدائث، ص ٤٥.

(٣) النَّفري: هو محمد بن عبد الجبار النَّفري (ت: ٣٥٤هـ)، ولد ببلدة نفر في العراق وإليها تُنسب. من كبار الصّوفية، عاش درويشاً جوالاً، وكان له من المريدين من يكتب عنه.

(٤) النَّفري، الموافق والمخاطبات، ص ٦٥.

(٥) م. ن، ص ٦٦.

(٦) النَّفري، المواقف والمخاطبات، ص ٤١.

(٧) محمد أبو علي: ضوع الياسمين، ص ٣٤ - ٣٥.

(٨) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ٣٤ - ٣٥.

من قبل أن تكشف التفاحة^(١) سر الجذب الوهمي إلى اللذة الفانية الذي يخاله الإنسان هو الجذب الحقيقي والذي فيه عدم رضا الذات النورانية، بهدوء وصمت، كان السقوط المبارك سقوط أصحاب القلوب العاشقة الوالهة في الجذب الحقيقي، أي؛ في حب ذات الحق، فقد عرفت نفوس هؤلاء «أنَّ معادها يكون باتصالها بالأنوار الإلهية التي تُعدُّ مصدرًا وعلّة لها، فمعنى ذلك أنَّ عودتها هي الخلاص والسعادة، وعدم عودتها هو السجن والشقاء»^(٢)، العودة الحقّة إلى المطلوب الحقّ.

مع «محمد أبو علي» عندما يحصل الجذب والارتقاء إلى الحضرة الإلهية يغدو الصمتُ أبلغ من الكلام، لا بل؛ يصبح الكلام جريمةً قطيعة تهدد بالانفصال والهلاك، وقد رمز إلى هذه الجريمة بـ «المقصلة» وما تحمله هذه اللفظة، من حدّةٍ وغلظةٍ في التعبير عما يحدث من قطيعة روحية، ومعنوية، إذا ما تمّ البوح بالكلام أثناء هذا الانخراط القلبيّ، «ففي مثل هذه الحال يهدّد البوح الصوفيّ، وتصير اللغة عدوّه الأكبر - من حيث هي حجاب - بعدما كانت أداة تواصل»^(٣).

ثم يقول:

**وكان الحرفُ يغفو في غياباتِ حلمٍ،
عميق الغورِ، شاسع المدى^(٤)**

حيث نجد أن هذه الرؤيا للحرف، تتواءم مع ما جاء به النفري، بقوله: «أوقفني بين يديه وقال لي اجعل الحرف وراءك وإلا ما تفلح وأخذك إليه»^(٥). فـ «محمد أبو علي» يجعل التركيب الإسنادي، في هذا السطر الشعري، دالاً بعمق على معنى خفاء الحرف الذي يريده والنفريّ؛ فقد أسند الفعل «يغفو» للمسند إليه «الحرف» ما يدلّ على اختباء الحرف وتعطلّ دوره الإبلاغي، ومن ثم، جاءت متمّمات الجملة لتزيد الدلالة على هذا الغياب، إيغالاً، وتُبيّن حركة السيرورة المضطربة باتجاه الصمت والسكون وغياب اللغة؛ الحركة الأولى في مجموعة المتمّمات، قوله: «في غيابات حلم»، فالحرف يغفو في (غيابات)، بصيغة الجمع، لا المفرد، وفي الجمع دلالة على كثرة هذه الغيابات، ما يعمّق فكرة المحو. الحركة الثانية: لفظة (الحلم) والحلمُ بحد ذاته مؤشراً إلى النوم والخفاء، مقابل الصحو والواقع. الحركة الثالثة في سيرورة السكون الصوفيّ،

(١) جرى الشعراء على جعل التفاحة رمزاً للشهوة المحفوفة بالمعصية. يستفاد من الآية الكريمة: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]. ملاحظة: (تحدثت كتب التفاسير عن أن المعصية إرشادية وليست مخالفة لأمر المولى عز وجلّ، فحاشا

للنبيّ عليه الإسلام أن يصدر عنه ذلك).

(٢) علي طالب، لاهوت الأنوار، ص ٤٣٨.

(٤) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ٣٥.

(٣) أحمد بوزيان، مجلة الأثر، ص ٩٧.

(٥) النفري، المواقف والمخاطبات، ص ٦٥.

وَصَفُّ الحِلْمِ أَنه عميق الغور، وشاسع المدى؛ مركّبات إضافية، تحمل كلها إشارات الإيغال في الخفاء والغموض والسكوت، وكان الشاعر في لحظة سكر وفناء مُطَبِّقِينَ. إلى أن ينهي قصيدته بقوله:

والكلام

فضاء الحروف الصّامته^(١).

وكأني بالشاعر «ينكشف له هذا الكلام وما فيه من الأسرار انكشافاً شهودياً»^(٢)، عمده صمت الحروف؛ فتجربته الصوفية «تجربةً جوّانية تتحرك في إطار ذاتية مَعيشة، بعيداً عن الحروف، والكلمات.. بعيداً عن الآخرين، وهي تجربةٌ قربٍ وعرّفان»^(٣)، فهو القائل: في قصيدة «ويحضرني السؤال»:

ويحضرني السؤالُ

وفي هُمسِ السكونِ الجوابُ^(٤).

اللغة من الصمت إلى النطق:

إن «محمد أبو علي» من منظور آخر

للتصوّف والذي يرى أنه لم يعد يحق للإنسان للصوفي «أن ينشغل بخلاصه الفرديّ [...] بل يتعيّن عليه الانفتاح على المجتمع التعدّدي المحيط به والسعي لممارسة دور فيه»^(٥). بالإضافة إلى كون الشاعر، بعامة، ابن بيئته، يتأثر بها، ويؤثر فيها محاولاً التغيير. نجد أن شاعرنا سلك هذا المنحى الرّياديّ في تعبيره الشعري الصوفي، فاتّخذ النطق باللغة والاعتزاز بها، وسيلةً للتعبير - بعد أن كان الصمت قد احتلّ حيزاً واسعاً في مسلكه الصوفي - عن هذا الانفتاح المجتمعي، حاله كحال «فريد الدين العطار» في «منطق الطير» حين طلب من قلبه أن يقلّ الكلام، فأجابه القلب: «أقلّ اللوم فأنا في نار، وإن لم أنطق احترقت»^(٦)

راح «محمد أبو علي» يتناول موضوعات حياتية شتّى، ويدافع عن القضايا الكبرى؛ الإنسانية والقومية والوطنية، في قصائد عديدة ومتنوعة^(٧)، بسلاح هو اللغة، فاللغة

(١) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ٣٥.

(٢) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص ١٤.

(٣) سعاد الحكيم، «لم يعد يحق للصوفي أن يشتغل بخلاصه الفردي»، جريدة الاتحاد، الصفحة الثقافية.

(٤) عبد الوهاب عزام، التصوّف وفريد الدين العطار، ص ٨٧.

(٥) من هذه القصائد الواردة في ديوان ضوع الياسمين: إلى الطفل السوريّ الغريق - إلى بيروت العظيمة - إلى أطفال العرب والكردي في حلب - إلى النقيب الشهيد علي أبو علي - رسالة حب إلى الثالث عشر من نيسان - إلى المدينة الفلسطينية المباركة - إلى جمال عبد الناصر - إلى الرئيس الشهيد رفيق الحريري . . . إلى المعلم كمال جنبلاط . . . إلى سماحة الإمام السيد موسى الصدر . . . إلى السيد محمد حسين فضل الله - إلى السيد حسن نصر الله - إلى المقاومة الإسلامية . . .

عنده «انتماء»^(١) إلى حاضره وماضيه مستقبله.

فهو بذلك، لا يصل في رحلته الشعرية الصوفية إلى حد الرفض المطلق للتعبير باللغة وبخاصة لغته العربية، ولا يميل كل الميل ويذرها معلقة في غياهب الرفض، بل نراه يبجلها وينعتها بالحبيبة ويكن لها الودّ كله:

بغداد وجه حبيبتي

وحبيبتي ضادّ تلعثم في مخارجها الغمام^(٢).

وهكذا تظل الكتابة باللغة العربية بالنسبة إليه «...تحديداً» [أ] للوجود إذا شئت، وحالة تخفيف وانتقال من الأنا إلى الآخر، من الاعجاب إلى الانكشاف، من الغياب إلى التجلي^(٣)، فهو القائل:

فيورقُ الصوتُ في أفياءِ كُنْجَرَةٍ

حتى تُظَلَّلَ في الواحاتِ آمادُ

ويشرقُ الزمنُ الموعودُ في لغتي...

ضادّ يردّها رجْعُ المدى... ضادّ!^(٤)

لائحة المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين بن عبد الله: ألفية ابن مالك في النحو والصرف، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.
- ٣ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد ٨ - ٩ - ١٤، د.ط، د.ت.
- ٤ - أبو علي، محمد توفيق:
 - خواصي الكلام، تلفزيون لبنان، حديث منشور على موقع (يوتيوب) ١٦/٤/٢٠١٧.
 - ضوع الياسمين، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٦.
- ٥ - أدونيس:
 - الثابت والمتحوّل، بحث في الابداع والاتباع عند العرب، دار الساقي، بيروت، الجزء الأول، الطبعة السابعة، ١٩٩٤.
 - الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.
- ٦ - الأندلسي، ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٢م. صدر الدين:
- ٧ - بوزيان، أحمد: «بلاغة الصمت في الخطاب الصوفي»، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورملة، الجزائر، العدد الثامن عشر (حزيران ٢٠١٣)، ٨٧-١٠٤.
- ٨ - الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الاعجاز، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م.

(١) محمد توفيق أبو علي، خواصي الكلام، تلفزيون لبنان، عند الدقيقة العاشرة، والثانية الخامسة والعشرين، من بداية التسجيل.

(٢) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ١٢٢.

(٣) ديزيرييه سقال، الكتابة والخلق الفني، ص ٨.

(٤) محمد أبو علي، ضوع الياسمين، ص ١٢٦.

- ٩ - الحكيم، سعاد:
- «لم يعد يحق للصوفي أن يشتغل بخلاصه الفردي»، جريدة الاتحاد، الامارات (الخميس، تشرين الأول ٢٠١٦)، الصفحة الثقافية. www.alittihad.ae.
- المعجم الصوفي، دندرة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ١٠ - حمداوي، جميل: سيميوطيقا العنوان، بلا دار نشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٥ م.
- ١١ - حمية، خنجر: اختبارات المقدس، مقاربات في الفلسفة والتصوف والتجربة الدينية، دار الأمير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- ١٢ - سقّال، ديزيريه: الكتابة والخلق الفنّي، دار الفكر اللبناني، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.
- ١٣ - الشواربي، إبراهيم أمين: حافظ الشيرازي شاعر الغناء والغزل في إيران، دار الروضة، بيروت، د. ط، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.
- ١٤ - الشيرازي، صدر الدين محمد: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠.
- ١٥ - طالب، علي: لاهوت الأنوار، مقارنة جديدة لمذهب السهروردي الإشراقي، دار الأمير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.
- ١٦ - الطوسي، أبو نصر السراج: اللُّمع، تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، مكتبة المثنى، بغداد، د. ط، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م.
- ١٧ - عزّام، عبد الوهاب: التصوّف وفريد الدين العطار، مركز المحروسة للنشر، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٧.
- ١٨ - العطار، فريد الدين: منطق الطير، ترجمة وتقديم بديع جمعة، دار آفاق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤.
- ١٩ - العظم، صادق جلال: في الحب والحب العذري، دار المدى، دمشق، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٢ م.
- ٢٠ - الغراب، محمود محمود: الحب والمحبة الإلهية في كلام الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، مطبعة نصر، دمشق، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٢١ - فارس، أحمد: غنية الطالب ومنية الراغب في النحو والصرف وحروف المعاني، الجوائب، تركيا، د. ط، ١٢٨٨ هـ.
- ٢٢ - الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، مرتباً على حروف المعجم، ترتيب وتحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٢٣ - القعود، عبد الرحمن محمد: الابهام في شعر الحدائث، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٧٩، مارس ٢٠٠٢ م.
- ٢٤ - المطهري، مرتضى: العرفان، ترجمة حسن علي الهاشمي، دار الولاء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- ٢٥ - مفتاح، محمد: ديناميّة النصّ، المركز الثقافي العربي، لبنان، د. ط، د. ت.
- ٢٦ - منصور، إبراهيم محمد: الشعر والتصوف، الأثر الصوفي في الشعر المعاصر، دار الأمين، مصر، د. ط، د. ت.
- ٢٧ - نصر، عاطف جودة: شعر عمر بن الفارض، دراسة في فنّ الشعر الصوفي، دار الأندلس، بيروت، د. ط، د. ت.
- ٢٨ - الثّفري، محمد بن عبد الجبار بن الحسن: المواقف والمخاطبات، دار المدى، دمشق، د. ط، ٢٠٠٥ م.
- ٢٩ - الهاشمي، السيد أحمد: جواهر البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٩ م.
- ٣٠ - الهروي، عبد الله الأنصاري: كتاب منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

عكار الأوضاع الاقتصادية والمادية

١٩١٠-١٩١٩

د. جهاد عيسى

تأثيراتها لفترة لاحقة. فما هو الواقع الاقتصادي - المادي لسكان عكار في نهاية عهد الحكم العثماني؟ ما هو الأثر الذي تركته الحرب العالمية الأولى على هؤلاء؟ إلى أي مدى كانت تداعياتها سلبية؟ هل سيشكل وجود سهل زراعي خصب في عكار، ضماناً للسكان في الأزمنة الصعبة وأيام المحن والأزمات؟ ما هي الصورة المطبوعة في ذاكرة العكاريين عن تلك الفترة؟ كل هذه الأسئلة وأخرى سنجيب عنها في هذا البحث.

أ - الأوضاع بين ١٩١٠ - ١٩١٤

عند الحديث عن الأوضاع المادية لسكان عكار، لا يمكن الإجمال والتعميم، بل يجب التمييز حسب الطبقة الاجتماعية، فإن الأحوال الاقتصادية للفلاحين والعمال، الذين هم الأغلبية الساحقة من العكاريين، تختلف جذرياً عن حال البكوات والأغوات. أسرة البكوات صاحبة النفوذ الأساسي

إن دراسة الأوضاع الاقتصادية والمادية في عكار بين العامين ١٩١٠ و١٩١٩، ستتناول شرائح المجتمع جميعها، وإن كان التركيز الأكبر على أوضاع الأكثرية الساحقة من سكانها أي العامة.

هذه الدراسة ستتناول حقيقتين تاريخيتين خطيرتين، الأولى بين ١٩١٠ - ١٩١٤، وهي أواخر سنوات الحكم العثماني للمنطقة، وقبل بدء الحرب العالمية الأولى، والتي من المفترض أن يكون لها سماتها الخاصة المميزة، فقد طبعت المجتمع العكاري بخصائص محددة.

المرحلة الثانية، التي كانت أشد خطورة هي بين عامي ١٩١٥ - ١٩١٩، أي زمن الحرب العالمية الأولى، والتي كان لها نتائج كارثية على سكان عكار. لم نتوقف في دراستنا عند العام ١٩١٨، عام نهاية الحرب، لأننا نعتقد أن مفاعيل الحرب لا تنتهي مع انتهائها مباشرة، بل تستمر

كانت أسرة آل مرعب، ومركزهم كان قرية البيرة في عكار في قلب الدريب. وقد انحدرت هذه الاسرة من صلب عبد القادر آغا بن شديد الناصر المرعبي، الذي التزم عهدة الدريب في بداية القرن التاسع عشر^(١).

التزمت هذه العائلة أراضٍ شاسعة في الدريب والسهل، وداخل الحدود السورية، وقد انحصرت سلطتها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى الحرب العالمية الأولى، في عائلة عبد الرزاق الياسين العبود، ومن أبرز وجهائها محمد رشيد الذي أدى دورًا مهمًا في بداية القرن العشرين وحتى سنة ١٩٢٠ وتأسيس لبنان الكبير^(٢).

بالتأكيد إن مساحة الأراضي الشاسعة التي التزمتها، أمّنت لهذه العائلة أوضاعًا مادية ممتازة، وان تفاوتت حسب مكانة الشخص داخلها، ومدى النفوذ الذي يتمتع به. لكن بالمجمل هذه الأسرة لم تعانِ مشاكل مادية تذكر، فعملية التزام أراضٍ في عكار، سوف تؤمن لها دخلاً معتبرًا.

الفئة الأدنى دخلاً من الأولى، هي عائلات الأغوات، مثل أسرة الأغوات «آل الدندشي»، والتي التزمت منطقة إقليم الشعرا بأكمله (يشمل قسم من الأراضي السورية القريبة من لبنان ومن قراه عزيز وعيون الشعرا وقرى لبنانية تقع على الحدود كمنجز، كفرنون ورماح)، ثم التزموا قرى رماح، شيخ لار، قبور البيض، منجز، ومزرعة العوينات^(٣).

مركز سكن هذه الأسرة كان قريتي مشتى حسن وحمود، والقريتان كانتا تتبعان لقضاء الحصن، وكانتا تعرفان بقريتي أغوات شدرة آل حسن وآل حمود^(٤). الأراضي التي التزمتها الأسرة المذكورة وصلت إلى حدود حمص نزولاً إلى مناطق قريبة من الساحل السوري.

البكوات والأغوات الصغار من كلتا الأُسرتين توزعوا على القرى والمزارع التي ورثوا فيها ملكيات واسعة وتعاطوا الشأن الزراعي، واستثمروا هذه الأراضي^(٥).

ما قلناه عن أسرة البكوات ينطبق أيضًا

(١) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، سجل رقم ٢٣، ص ٧٤.

(٢) كوثراني، وجيه، بلاد الشام، السكان الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٧٥ - ٢٧٩.

(٣) دندشي، حسن نمر، الثورة السورية الأم، الدنادشة في العام ١٩١٩، دار الانشاء، ١٩٨٥، ص ٣٢.

(٤) شريف، حكمت بك، تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمانها حتى هذه الأيام، حققه وعلق على حواشيه وفهارسه وقدم له منى حداد يكن ومارون عيسى الخوري، دار حكمت شريف ودار الإيمان، ١٩٨٧، ص ٢٢٦، ملحق رقم ٦.

(٥) سلوم، فؤاد، عكار ١٨٥٠ - ١٩٥٠، دراسة في التاريخ الاجتماعي، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٩٨.

على أسرة الأغوات، من ناحية الدخل المادي، لأن التزام الأرض الواسعة يؤمن مردوداً ودخلاً مادياً كبيراً.

أما بعد الفتنتين اللتين ذكرناهما، تأتي فئة المشايخ، وهم مجموعة مشايخ ومخاتير القرى، الذين كانوا مسؤولين تجاه السلطة العثمانية في قراهم وتمتعوا بسلطات واسعة على مواطنيهم. كان أولئك يكفلون الملتزمين تجاه الوالي لضمان دفع الضرائب^(١)، فنالوا حظوةً لديهم وجنوا ثروات صغيرة باقتطاعهم بعض المال المجبى^(٢). لقد أعطى الدستور العثماني صلاحيات عديدة للمخاتير كالإبلاغ عن الولادات والوفيات وعن الأرض المكتومة وغير ذلك^(٣)، الأمر الذي استفاد منه هؤلاء لتحسين أوضاعهم المادية.

هذه الأسر تملك مساحات أراضٍ

واسعة، في القرى التي وجدوا فيها مثل ما حصل مع عائلة المشايخ آل نفاع في عندقت^(٤)، التي امتلكت مساحة شاسعة من الأرض أصبحت تحمل اسمها، «وادي نفاع»^(٥).

لقد استفادت أسر المشايخ والوجهاء، من العلاقة الجيدة مع العثمانيين لتأمين إمكانية للزعامة المحلية، ثم أتت عملية تملك الأراضي لتثبت هذه الزعامة، إذ أمنت لهم مدخولاً مادياً يتناسب مع وضعهم الاجتماعي، وأصبح يرافقهم دائماً لقب «الشيخ» في الحياة العامة وفي صكوك البيع^(٦)، وحتى أن بعضهم قام بشراء ألقاب الزعامة من السلطات العثمانية^(٧).

الأوضاع المادية الجيدة للفئات الثلاث الأولى، ظهرت من خلال منازلهم، فالبكوات كان بيتهم هو السراي، ومركز سلطتهم^(٨).

(١) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، سجل رقم ١، ص ٦١ - ٦٣ وسجل رقم ٨، ص ٢٧٠ - ٢٧٩

(٢) سلوم، فؤاد، عكار ١٨٥٠ - ١٩٥٠، ص ٩٩.

(٣) عوض، محمد عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، ص ١٠٠.

(٤) أوراق خاصة الشيخ يوسف نفاع، حجج شراء أراضٍ في عندقت، أكثر من ٨ صكوك لشراء أراضٍ من قبل شيخ آل نفاع منذ سنة ١٨٦٠ وصعوداً حتى عهد الانتداب، وهذه الوثائق هي ما تبقى من المجموعة الكاملة كون بعضها قد ضاع أو أعير ولم يُعاد.

(٥) عيسى، جهاد، عندقت التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ١٨٥٠ - ١٩٤٣، ميا برس [د.ت.ت]، ص ١٣٤.

(٦) عيسى، جهاد، مقارنة تاريخية اجتماعية لرعايا أبرشية طرابلس المارونية ١٨٢٠ - ١٩٧٠، بيروت، ٢٠١٣، ص ١٢٥.

(٧) غربية، مطانيوس، عندقت وقراها الخمس، بحث في أوضاعها الدينية والسياسية والاجتماعية عبر العصور، مؤسسة دكاش، ٢٠٠٤، ص ٣١٠ - ٣١١.

(٨) سلوم، فؤاد، عكار ١٨٥٠ - ١٩٥٠، ص ١٠٣.

الغرف، ويضاف إليها غرفة للنساء وأخرى للضيوف. أهم ما يميز بيوت هؤلاء هو وجود «المنزول»، حيث يتم عادة استقبال الغرباء خارج بيت العائلة، وعادة يكون منفتحاً على جهة القرية، ومقفل من جهاته الثلاثة الأخرى^(٣). هذه المنازل أيضاً استقبلت الزائرين من أبناء القرية للمراجعة في أمور محددة، أو للتهنئة في الأعياد، أو لحل مشكلة ما أو للحصول على خدمة أيضاً.

الفئة الأكثر انتشاراً بين سكان عكار، هم العامة، والتي كانت تضم الأكثرية الساحقة من الفلاحين، شركاء أو ملاكين، بالإضافة إلى الحرفيين وغيرهم. فقد تميزت الحياة القروية في ريف عكار بطغيان الأعمال الزراعية وتربية الماشية في برنامج العمل اليومي للفلاح طيلة فصول السنة^(٤).

من المؤكد أن أحوال الفلاحين الملاكين، كانت أفضل من هؤلاء الشركاء، الذين تحملوا أعباء كبيرة نتيجة شراكتهم مع الاقطاعيين. لقد تعرض هؤلاء لإجراءات من قبل الإقطاعيين أدت إلى تدهور وضعهم المادي وهي:

فالسراي كانت قلعة ضخمة مؤلفة من طابقين وعدد من الأجنحة المتشابهة التركيب، في الطابق السفلي مرابط الخيول. كما تتشابه بيوت بكوات الدرجة الثانية، وإنما يزيد بعضها أو ينقص غرفة أو غرفتين. إنها تتألف من طابق واحد مؤلف في العادة من أيوان مفروش بالحصر والبسط والسجاد والمساند، عن يمينه غرفة واسعة وعن شماله أخرى وفي الصدر ثالثة عميقة مخصصة للحريم، ويلحق به مطبخ وكلار^(١) (غرفة مؤونة).

منازل الأغوات الكبار من الدنادشة كانت كبيرة معممة بالقرميد الأحمر وعلى طراز حديث. تتألف تلك البيوت من طابقين، في الطابق السفلي مرابط الخيل وغرفة المؤونة والمطبخ والمنزول، وفي الطابق الأعلى غرف النوم والحريم والجلوس. أما الأغوات الصغار من آل مرعب وندندش فلم تكن بيوتهم تتميز كثيراً عن بيوت الفلاحين الأغنياء^(٢).

إن منازل المشايخ والوجهاء المحليين لم تختلف كثيراً عن تلك التي بناها صغار البكوات والأغوات، فكان فيها عدد من

(١) سلوم، فؤاد، عكار ١٨٥٠ - ١٩٥٠، ص ١٠٥. (٢) سلوم، فؤاد، عكار ١٨٥٠ - ١٩٥٠، ص ١٠٥.

(٣) رحلات الأب اليسوعي برنيه إلى بلاد عكار ١٨٩٣، تعريب وتحقيق الدكتور فرج زخور، دار زخور للطباعة والنشر، لبنان، ١٩٩٨، ص ٦٠.

(٤) حبلص، فاروق، تاريخ عكار الإداري والاجتماعي والاقتصادي ١٧٠٠ - ١٩١٤، دار لحد خاطر ودار الدائرة، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢١٧.

عشر، راوحت أجرة عمل يوم واحد لرجل بين ٣ و٤ قروش (لسنة ١٨٥٦)، أي ما يساوي نصف رطل أرز، أو نصف رطل لحم أو قنديلاً متوسط الحجم. ومعنى هذا أن الرجل كان بحاجة إلى أن يعمل ثلاثين يوماً بصورة متواصلة، كي يتمكن من شراء قلة زيت واحدة أو شنبل قمح واحد^(٢).

لقد سجّل دخل الفرد حوالي الـ ٨٠٠ قرش سنوياً، في ستينيات النصف الثاني من القرن التاسع عشر^(٣). إن تتبع مسار تطور دخل الأفراد يُظهر الآتي:

في سنة ١٩٠٠، كان أجر العامل يتراوح يومياً بين أربعة غروش وثمانية غروش ونصف، ثم في العام ١٩٠١، أصبح أكثرية العمال يتقاضون ٦ غروش ليوم عمل واحد^(٤). بقي الإيجار اليومي نفسه للعامل في سنة ١٩٠٢^(٥).

على الرّغم من تراوح دخل الفاعل بين ٣ و٨ قروش يومياً سنة ١٩٠٨، إلا أن أكثرية

«أولاً - يأخذون ثلث المحصول من حيث أنهم أصحاب الأرض، وعلى جري العادة.

ثانياً - يأخذون عشر مجموع المحصول، من حصة المزارع فقط.

ثالثاً - يتقاضون منهم مبلغاً معيناً في السنة باسم «الدخانية» و«ثلث الضرائب» و«أجرة المسكن».

رابعاً - يأخذون وباسم (الشكاره) شنبلًا عن كل (جفت) من حصة المزارع.

خامساً - يقرضون المزارعين شيئاً من الحب ويحسبون عليهم ثمن الشنبل بستماية غرش، مثلاً. ثم يتقاضونه عند وجود الحب فيشترون منهم الشنبل بمائتي غرش، وبهذا يكون ربهم ثلاثة أضعاف الدين^(١). كل هذه الأعباء تحملها الفلاح من دون أن يستطيع أن يتمرد أو يشتكي كونه لا يملك الأرض، ولأنه بحاجة إلى أي عمل للاستمرار في الحياة.

في النصف الأخير من القرن التاسع

- (١) بهجت، محمد - التميمي، رفيق، ولاية بيروت، جزآن، دار لحد خاطر، طبعة ثالثة، ١٩٨٧، ج ٢، ص ٢٨٠.
- (٢) الأحمر، نافذ، نواحي لبنان الشمالي في العهد العثماني (١٨٦٦ - ١٨٨٠) الجزء الأول، لا دار نشر، ٢٠١٠، ص ٢٨٢.
- (٣) الخوري، الأب اغناطيوس، مخطوط تاريخ أبرشية طرابلس المارونية، دفتر الزيارة ٢، ص ١١١؛ عيسى، جهاد، المخطوط المتسني نظرة في العمق، تحقيق حول مخطوط أبرشية طرابلس المارونية للأب اغناطيوس طنوس الخوري، مكتبة السائح، ٢٠١٤، ص ٨٣.
- (٤) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ٣٨، يختص بالاملاك والضمان، لوائح عمال... وثيقتان بأجور العمال لعامي ١٩٠٠ و١٩٠١.
- (٥) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ٣٨، يختص بالاملاك... "علم بيان الشغل في اجبع خاصة سيادة المطران اسطفانوس عواد، تاريخ ٥ آيار ١٩٠٢.

أكثرية العمال يتقاضون عن كل يوم عمل بين الثمانية والتسعة غروش^(٤). إن احتساب متوسط الدخل الفردي الشهري للعمال، بمعدل ٢٥ يوم عمل، بتسعة غروش لليوم يكون: $25 \times 9 = 225$ غرشاً، قد يكون هذا المبلغ كافياً لإعالة أسرة صغيرة، لكنه بالتأكيد لا يسمح بذلك إذا كانت الأسرة كبيرة، وإذا كان العامل المنتج شخصاً واحداً فقط في الأسرة. من هنا، فإن متطلبات الحياة الأسرية اليومية، تحتم وجود أكثر من منتج، ومحاولة إيجاد أكثر من مجال واحد للعمل، فبالإضافة إلى عمل الفاعل اليومي لتحصيل الأجر المذكور، ترتب على الشخص نفسه العمل في حراثة الأرض لتأمين دخل كافٍ للأسرة.

بسبب تدني الدخل، والعمل الزراعي الذي يوفر الوقت الكافي للفلاح لممارسة نشاطات أخرى إضافية، بدأ هؤلاء البحث عن عمل أو حرف تعينهم على تحسين أوضاعهم المادية^(٥)، أو الهجرة، فقد بلغ عدد المهاجرين من موارد عكار في العام

العمال في تلك السنة كانوا يتقاضون عن يوم العمل بين ٧ - ٨ قروش^(١). فإذا افترضنا أن دخل العامل هو ٨ قروش، ووجد عملاً لـ ٢٥ يوماً في الشهر، يصبح دخله الشهري ٢٠٠ قرش، وهو المبلغ المطلوب لشراء شنبيل قمح الذي كان ثمنه ٢٠٠ قرش في العام ١٩٠٩^(٢). الدخل المسجل في هذه الفترة، يظهر ضعف القدرات المادية لهؤلاء العمال، فإنه لا يسعفهم في تغيير حياتهم نحو الأفضل، بل فقط يؤمن لهم الاستمرارية ليس أكثر.

في العام ١٩١٠، أجور بعض العمال كانت كالآتي^(٣):

المهنة	الأجر بالقرش	المهنة	الأجر بالقرش
فاعل	١١,٥ - ٥	مكاري	٢٥ - ١٢
عامل في المطبخ	٦ - ٤	عامل في المطحنة	٩ - ٥
عاملة في المطبخ	٣	معلم بناء	٢٣ - ١٦
دهان المهارة	٢٣ - ٦ حسب	معلم تلبس	١١,٥

ثم تحسنت أيضاً أجرة العامل اليومية بين العامين ١٩١٣ - ١٩١٤، فقد أصبح

(١) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ٣٨، يختص بالاملاك... وثيقة باجار عمال في أراضي المطرانية لسنة ١٩٠٨.

(٢) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ١/٥٦ - ٢، موازنات الأبرشية، دفتر المدخول والمصرف على كرسي أبرشية طرابلس من سنة ١٩٠٨ حتى ١٩١٨.

(٣) م. ن. ص ٣ - ٣٠

(٤) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ١/٥٦ - ٢، موازنات الأبرشية، دفتر المدخول والمصرف... ص ١٠٨.

(٥) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٢٧٧.

١٩١١، ١٩٨٧ مهاجرًا من أصل ٩٦٢١ نسمة من الموارد سكان عكار، أي ما نسبته ٧،٢٠٪ من هؤلاء^(١).

من أبرز المهن أو الحرف التي عمل فيها سكان عكار هي صناعة الحرير التي كادت تنحصر في ماروني عكار، وكان ثمانية أعشار الواردات التي تحصل في ناحية وسط عكار هي من تلك الصناعة^(٢). لقد تركزت القدرة الإنتاجية في صناعة الحرير في القرى المسيحية، أو التي كان أكثر سكانها من المسيحيين في منطقة وادي النصارى^(٣). أما في القبيات كان عدد الخلاقين ١٤٠ وعندقت ١٤٤^(٤). فقد أحصى التميمي وبهجت ستة مصانع للحرير في عندقت والقبيات^(٥). لكن على الرغم من الدخل الذي أمّنته يبدو أن كثيرًا من الفلاحين لم يتجرأوا على توسيع

نشاطهم وتطويره خوفًا من المصاعب التي قد تواجههم في تصريف إنتاجهم^(٦). ولكن الأهم أن أكثرية من عملوا في صناعة الحرير كنّ من النساء، وهذا يعني عمليًا إشراك فئة الإناث في الدخل، وإن سبب الأمر مشاكل للواتي ذهبن للعمل خارج عكار^(٧).

من الصناعات الراقية أيضًا في عكار كانت صناعة السجاد، التي من المرجح أنها انتقلت من الأتراك لسكان القضاء، وكان السجاد الذي يصنع في هذه الأثناء مرغوبًا كثيرًا لدى السوريين^(٨). يضاف إلى المهن المذكورة، المهن البيئية، أي التي تؤمن للبيت المؤونة الضرورية، ونذكر منها إنتاج البرغل، الكشك، حفظ الزيتون، الباذنجان، الخضار للشتاء وغيرها الكثير. المرأة كانت شريكًا أساسيًا للرجل في

(١) عيسى، جهاد، موارد أبرشية طرابلس في العام ١٩١١ الديموغرافيا والهجرة، بحث غير منشور، ص ١٧٣.

(٢) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٢٦٩.

(٣) Labaki, Boutros, *Introduction à l'histoire économique du Liban, soie et commerce extérieur en fin de période ottomane (1840-1914)*, publications de l'université libanaise, 1986, p113.

(٤) شهاب، الأمير موريس، دور لبنان في تاريخ الحرير، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٨، ص ٥٥.

(٥) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٢٦٩.

(٦) Touma, Toufic, *paysans et institutions féodales chez les Druses et les Maronites du Liban du XVII siècle à 1914*, publication de l'université libanaise, 2 tomes, Beyrouth, 1971, V2, p 788-789; Weulersse, Jacques, *paysans de Syrie et du proche -orient*, Gallinard, 7ème édition, 1946, p 171.

(٧) محفوظات الخوراسقف مخايل الزبيبي، وثيقة رقم ٧٦، حرمان صادر عن المطران اسطفانوس عواد للبنات اللواتي يذهبن للعمل في كرخانة نعمان سالم للحرير في حمص، تاريخ ١٩٠٦/٥/٥ والوثيقة رقم ٧٨، حرم بطريكي بنفس المعنى تاريخ ١٩٠٧/١/١٤، ووثيقة رقم ٨٦، حرم صادر عن المطران أنطون عريضة بنفس المعنى، تاريخ ١٩٢٣/٦/٢٧.

(٨) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٢٦٩.

عملية الانتاج، فهي كانت تشاركه في أكثرية أعماله، فكانت تعمل مثله، فتؤمن الماء من النبع، والحطب من البراري لتأمين النار^(١). كما ساعدته أيضاً في الزراعة، وقطاف المواسم وحصاد الزرع بالإضافة إلى اهتمامها بأمر المنزل.

الهجرة كانت أحد أبرز العوامل المساعدة في تحسين الأوضاع الاقتصادية للمسيحيين العكاريين قبل الحرب. إذ «كان للهجرة على نفوس هؤلاء المسيحيين سلطة عجيبة، ونتيجة اقبالهم عليها جعلت أكثر من خمس سكان هذا القضاء كان يعيش بما يصل إليه من النقود الأميركية... أما أفراد النصف الآخر من المسيحيين فهم أرباب مشاغل ومهن. ويشتغل ثلثاهم بصناعة الحرير، والثلث الآخر بالزراعة»^(٢).

يتضح من الأسباب المذكورة، أن سكان عكار، تفاوت وضعهم المادي «فالنصارى... هم في الحياة الاجتماعية أرقى وأسعد من القرويين المسلمين. فقراهم أكثر إعماراً ومنازلهم أوفر انتظاماً، وأنظم ترتيباً وأوفر أثاثاً، وأغنى قرى النصارى قرية «منيارا»؛ أما أعظمها عمراناً وأرجحها مدنيةً هي قرية «به نو» (بينو الحالية)، وأفقر العائلات المسيحية لها بيت مفروش بصورة منتظمة

على قدر ما يمكنها»^(٣). نحن نرجح أن سبب هذا الواقع المتردي عند المسلمين يعود إلى عامل أساسي هو عملهم كشركاء مع الإقطاعيين، الأمر الذي انعكس مردوداً مادياً ضعيفاً.

يمكن وصف الأوضاع المادية لمعظم سكان عكار بالايجاز كالاتي: فعند المسيحيين، «الأروام أغنياء بالنسبة إلى المارونيين وحتى بالنسبة إلى المسلمين أيضاً. ويعثر بينهم على من تربو وارداته على خمسة عشر ألف غرش في السنة. والباقون يعيشون كالمسلمين بحالة يرثى لها. وقسم من المسيحيين يشتغل بالحرثة والزراعة ثم منهم من يشتغل بمهانة المكاراة... إن حياة الحلباويين من مسلمين ونصارى هي على الغاية من الضنك. وهذا الحال يتضح بصورة ملموسة إذا أبصرنا داخل بيوتهم التي يأوون إليها. وقليل من هذه البيوت... مطلي الداخل بالطلاء والكلس، ثم معظمها إما ملطخ بالطين، أو متروك على حاله بحجارته التي بني فيها. ومن العيب أن نرتاد في حجراتهم الأثاث أو سائر أسباب الزينة. بل أثاثهم عبارة عن حصير أو سجادة أو فراش. وكلهم على هذا النمط، أما ضنك عيشهم فهو محسوس جداً»^(٤).

(١) weulersse, Jacques, paysans de Syrie, p 223.

(٢) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٢٨٢.

(٣) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٤) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٢٨٢.

هكذا يمكننا أخذ فكرة واضحة عن أوضاع العكاريين الاقتصادية والمادية، فيمكن إيجازها أن الصفة الملازمة لهؤلاء هي «فقر الحال». هم بالمجمل كانوا يعيشون حالة تجسدها العبارة «خبزنا كفاة يومنا»، فالدخل لم يسمح لهم بالإدخار للأيام القادمة، بل كان جلّ همهم، أن تكون مواسمهم على قدر طموحاتهم وآمالهم، لأن عكس ذلك يعني أياماً من العسر والشدة على العائلة.

ب - الأوضاع بين ١٩١٥ - ١٩١٩:

اندلعت الحرب العالمية الأولى في صيف سنة ١٩١٤، بين دول الحلفاء ودول التحالف الثلاثي، فلم تستطع الدولة العثمانية أن تتأى بنفسها عن هذا الصراع، بحكم العلاقات والمصالح التي نسجتها مع الدول الأوروبية، فعلى الرغم من أنها في البدء أعلنت حيادها، لكنها فعلياً كانت تميل للانضمام إلى المانيا وحلفائها^(١).

كان لدخول السلطنة العثمانية تداعيات كبيرة على سكانها، فظهرت الآثار السلبية على الاقتصاد، السكان أي على جميع نواحي الحياة. فالإجراءات التي اتخذتها زمن

الحرب كان لها أبلغ الأثر على السكان، نذكر منها: التجنيد الإجباري، انخفاض سعر العملة، قطع العلاقات مع دول الحلفاء، حيث قام هؤلاء بحصار شواطئ السلطنة بأساطيلهم البحرية. كل هذه الإجراءات، ومع وصول أسراب الجراد، ظهر شبح المجاعة، ثم انتشرت الأمراض والأوبئة، الأمر الذي كان له نتائج كارثية على السكان.

بالطبع فإن عكار كجزء تابع لسلطة العثمانيين، كان له كسائر أجزاء السلطنة نصيب من هذا الواقع الرديء.

فبسبب التجنيد الإجباري «وبسبب وجود الشبان في الخدمة العسكرية، لا يوجد في حلبا أكثر من عشرين أو ثلاثين رجلاً من المسلمين. أما النساء فقد يصيب كل رجل أربع أو خمس منهن»^(٢).

لقد أثر هذا الأمر على عدد القوى العاملة التي تراجعت بشكل كبير، فبلغ عدد العاملين في القطاع الزراعي، في سنة ١٩١٥، ما يقارب ١٣٧٩٠ شخصاً من مجموع عدد سكان القضاء البالغ ٤٢٣٦٣ نسمة، أي بنسبة ٣٢،٥٪ تقريباً، وهي نسبة ضئيلة بسبب التجنيد الإجباري خلال الحرب^(٣).

(١) Hokayem, A.D. Bou Malhab Attalah et J. Charaf, *Documents diplomatiques Français relatifs à l'histoire du Liban et de la Syrie à l'époque du mandat, 1914-1946*, tome 1, le démantèlement de l'empire ottoman et les préludes du mandat, 1914-1919, Beyrouth, 2003, Document 1,8 Août 1914, p 1-2.

(٢) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج٢، ص٢٧٦.

(٣) زخور، فرج، تاريخ عكار السياسي والاداري والاقتصادي والاجتماعي ١٩٠٨ - ١٩٤٣، دار زخور، طبعة ثانية، ٢٠٠٠، ص٢٠١.

ويرجح أن كثير من الذين توفوا من ابناء القرى في خارج مناطقهم، كان ذلك بسبب تجنيدهم وإرسالهم إلى الجبهات، كما في عندقت التي توفي فيها ستة أشخاص في القدس ودمشق^(١)، ونرجح أن يكون ذلك أثناء تجنيدهم وخدمتهم في تلك المناطق. المهم أن عملية التجنيد العسكري التي تعرف تاريخياً باسم «سفر برلك» قد ضربت اليد العاملة المنتجة ضربة قاسمة.

أما من وجدوا لهم عملاً في الزراعة أتى الجراد ليجهز على مواسمهم وبالتالي على مدخولهم، كما في قرية إيلات، التي دون فيها أسماء خمسين شخصاً «هم محتاجين وفقير الحال ولا يوجد عندهم حاصلات نظراً لوجود الحرقص الذي تلف مزروعاتهم بهذه السنة بكاملها»^(٢).

المسيحيون الذين كانوا يعتاشون من الأموال المرسله إليهم من ذويهم المغتربين في زمن الحرب العالمية الأولى «سقط ذوو هذه الطبقة إلى حضيض الذل والفاقة منذ إشهار الحرب ولا سيما منذ انقطاع العلائق بين الدولة وحكومة اميركا»^(٣).

المسلمون لم تكن أحوالهم أفضل، فمثلاً في حلبا كانت حياة هؤلاء «على غاية من الفقر والحاجة ويندر فيهم من يكون دخله السنوي سبعة أو ثمانية آلاف غرش. ثم ما بقي منهم أما يشتغلون في الزراعة بصورة محدودة، وأما يتخذون الحوانيت ويتعاطون البيع والشراء ويحصلون على أقواتهم اليومية بكل مشقة وعسر»^(٤).

مع بدء الحرب، لم تتغير نسبة الأجور بشكل عام، إذ كانت أجرة العامل في العام ١٩١٥ تتراوح بين ٧ و ١٠ غروش يومياً^(٥). لكن العام ١٩١٦ شهد تراجعاً في مستوى الأجر فقد أصبحت أجرة العامل اليومية بين الخمسة والستة غروش^(٦). وبقية الأجرة منخفضة سنة ١٩١٧، فتراوحت الأجرة اليومية للفاعل من أربعة إلى خمسة غروش بشكل عام^(٧). شكل تراجع الأجر ضربة قاسية لجهود الأسر المبدولة لتأمين الاستمرارية، وليس هذا هو الأمر الوحيد السلبي، فأصلاً لم تعد تتوفر فرص للعمل في تلك الفترة أساساً.

(١) سجل الوفيات في عندقت، ص ١٢ - ٢٠.

(٢) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ٤١، تبرعات للمهجرين خلال الأحداث، وثيقة عن فقراء ايلات للخورى يوسف غيا و٣ شهود، تاريخ ١٥ أيار ١٩١٩.

(٣) التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٢٨٢. (٤) م. ن. .

(٥) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ١/٥٦ - ٢، موازنات الأبرشية، دفتر المدخول والمصروف. . . ، ص ٥٣.

(٦) م. ن. ، ص ٥٧.

(٧) م. ن. ، ص ٦٩.

تراجع مستوى الأجر، لم يكن العامل الوحيد الذي أدى إلى تقهقر الحالة المادية للسكان زمن الحرب العالمية الأولى. فكان جنون الأسعار وتراجع قيمة العملة ليأتي على مدخرات هؤلاء السكان.

العملة فقدت قسمًا من قيمتها، فمثلًا قبل كانون الأول ١٩١٥ كانت بعض العملات تساوي من القروش كالأتي «المجيدي» تساوي ٢٣ قرشًا، والذهب العثماني ١٢٣ ق، والذهب الإنكليزي ١٣٥ ق، والذهب الفرنسي ١٠٧، ٥ ق. أما بعد ١٥ كانون الأول ١٩١٥، أصبحت المجيدي تساوي ٢٠ ق، الذهب العثماني ١٠٨ ق، الذهب الإنكليزي ١٢٠ ق، والذهب الفرنسي ٩٥ ق. الدولة العثمانية كانت تتقاضى العملة من المواطنين بأسعار أرخص، فالمجيدي كانت تقبضه من المواطن بـ ١٩ قرش والذهب العثماني بـ ١٠٢، ٥ قرش بدل ١٠٨ السعر الرسمي ثم هبطت مجددًا قيمة بعض العملات في العام ١٩١٦ فليرة الذهب العثماني أصبحت تساوي ١٠٠ قرش، والذهب الإنكليزي ١٠٨ قروش، والذهب الفرنسي ٨٥ قرش فقط^(١).

فمن كان يدخر بعض الأموال النقدية (إن وجدت لدى قلة من الناس)، فقدت

قسمًا من قيمتها، ما أدى إلى تراجع القدرة الشرائية لدى هؤلاء. يطرح هنا السؤال الآتي: كم من المقدر نسبة الذين كانوا يدخرون بعض الأموال أصلاً؟ أن نظرة منطقية على الواقع الاقتصادي في عكار آنذاك ترجح أن لا تزيد النسبة عن ١٠٪ في احسن الأحوال، ونحن نعتقد ان من كان لديه بعض النقود المدخرة يعود مصدرها إلى أموال مرسله له من أقارب في بلاد الاغتراب.

جنون الأسعار كان عاملاً حاسماً في تدهور الوضع الاقتصادي، فتلف المواسم نتيجة غزو موجات الجراد، بالإضافة إلى الحصار البحري والبري المفروض أدى إلى ارتفاع خيالي لأسعار المواد الغذائية.

فعلى سبيل المثال، ارتفع ثمن شنبل الشعير من بين ٧٥ إلى ٨٠ قرش سنة ١٩١٠، إلى ٢٦٥ قرشًا في العام ١٩١٧، وإلى ٤٠٠ قرش سنة ١٩١٨. شنبل القمح ارتفع سعره من ٢٠٠ قرش سنة ١٩٠٩، إلى ٧٥٠ قرشًا في العام ١٩١٨. رطل الأرز ارتفع من ٦ قروش في العام ١٩١١ إلى ما بين ١٨ و ٢٢ قرشًا سنة ١٩١٥. رطل الملح ارتفع سعره من ٢٥،١ - ٢ قرش العام ١٩٠٩ إلى ما بين ٦ - ٧

(١) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ١/٥٦ - ٢، موازنات الأبرشية، دفتر المدخول والمصرف...، ص ٧٠.

قروش عام ١٩١٨، ورطل السكر من ٧ قروش العام ١٩١١ إلى ٢٨ قروشاً سنة ١٩١٥ و٣١ قرشاً سنة ١٩١٨^(١).
 وفقدت في سنوات الحرب ٤١٧ من أبنائها، ونسبتهم ٣٥٪ من سكان البلدة^(٤).
 بقيت المداخيل منخفضة على الرغم من انتهاء الحرب، ففي قرية عندقت سجلت في العام ١٩١٩ المداخيل التالية^(٥):

المهنة	الدخل (قرش)	المهنة	الدخل	المهنة	الدخل	المهنة	الدخل
فلاح ربع	٦٠٠ - ٥٠٠	فاعل	٦٠٠ - ٣٠٠	قطّاع خشب	٣٠٠ - ٢٠٠	جلّيس	٤٠٠
فلاح نصف	٨٠٠ - ٦٠٠	مكاري	٤٥٠	اجير	٣٠٠	نجار	٥٠٠
فلاح	٦٥٠ - ٤٠٠	ملاك	٦٠٠ - ٢٠٠	مشحرجي	٢٠٠		

الانهيار الاقتصادي والمالي الذي شهدته المنطقة. فإذا كان على وجه التقريب يحتاج العامل إلى إجار عمل ٤ أشهر لشراء شنبل القمح، من دون أن يصرف أي قرش مهما كان السبب، فكيف سيعيش العامل أو الفلاح أو جميع العامة؟

الفقر المدقع للسكان، أدى إلى انتشار المجاعة، الأمر الذي أدى إلى ضعف جهاز المناعة، فانتشرت الأمراض والأوبئة فأماتت خلقاً كثيراً^(٢). فمثلاً (ص) قرية عندقت توفي فيها العام ١٩١٦، ٢٤٤ شخصاً^(٣)

- (١) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ١/٥٦ - ٢، موازنات الابرشية، دفتر المدخول والمصروف على كرسي أبرشية طرابلس المارونية من سنة ١٩٠٨ حتى ١٩١٨.
- (٢) عيسى، جهاد، مقارنة تاريخية اجتماعية، ص ٢٢٨ - ٢٣١.
- (٣) سجل الوفيات في عندقت، سجل رقم ١، ص ٢ - ٥١.
- (٤) عيسى، جهاد، عندقت، ص ١٦٩.
- (٥) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ٤١، مساعدات للمهجرين خلال الأحداث، تقرير عن عندقت.
- (٦) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ٤١، مساعدات للمهجرين، وثيقتان «للحارة الغربية» و«الذوق الفوقاني» في القبيات للخورى يوسف الحاج من الحارة الغربية + ٣ شهود والخورى يوسف ابراهيم الزريبي + كاهن و٨ شهود عن الذوق بتاريخ ١٥ و١٧ ايار ١٩١٩.

المهنة	الدخل (قرش)	المهنة	الدخل	المهنة	الدخل	المهنة	الدخل
فلاح	٢٠٠٠ - ٣٠٠٠	بيطار	١٤٠٠ - ٢٠٠٠	سكاف	٢٠٠	فاعل	١٠٠ - ٦٠٠
فردحجي	١٣٠٠	تاجر	٥ - ٦ يومياً	راعي	-		

أما في بعض القرى العكارية الصغيرة، فكان دخل الفاعل في «خريبة الجرد» يتراوح بين ٢٠٠ و ٤٥٠ قرش، وفي الدورة

القرية	عدد عائلات الفقراء	عدد العائلات المديونة	قيمة الدين (قرش)	القرية	عدد عائلات الفقراء	عدد العائلات المديونة	قيمة الدين (قرش)
ايلات	١٧	١١	١٠٠٠ - ٥٠٠٠	الذوق التحتاني (القيبات)	٦٣	٥٠	٨٠٠ - ٢٢٤٠٠
بيت غطاس	١٦	٧	٢٥٠٠ - ٢٠٠	القطلبة (القيبات)	٣٥	٨	٢٠٠٠ - ١٥٠٠٠
بقرزلا	١١٣	٥٤	٥٠٠ - ٥٠٠٠٠	ضهر البلان (القيبات)	٨٨	٤٨	٩٩٠٠ - ٨٦٠
سيسوق والحميرة وقلود الباقية	٤١	٢٢	٥٠٠ - ١٠٠٠٠	كرم عصفور	١٠	٥	١٠٠٠ - ٤٠٠
الشيخ طابا	٣	٢	٣٠٠٠ - ٥٠٠٠	منيارة	١٦	٤	٦٠٠٠ - ٨٠٠
القنطرة	١٩	١٤	١٠٠٠ - ٤٠٠٠٠				

بين ٢٥٠ و ٤٠٠ قرش. أما في القرى، فكان دخل الفاعل بين ٤٥٠ و ٥٠٠ قرش، والراعي ٢٥٠ قرش، وفي منجز دخل الفاعل بين ١٠٠ و ٢٠٠ قرش والفلاح بين ٣٧٠ و ١٢٠٠ قرش^(١). كل العوامل التي ذكرناها، أدت بالعائلات في قرى عديدة إلى حالة من

(١) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ٤١، مساعدات للمهجرين، تقرير خاص بكل بلدة مذكورة أعلاه لكهنة القرى نفسها، تعود تواريخها إلى شهر آيار من العام ١٩١٩.

(٢) محفوظات أبرشية طرابلس المارونية، ملف رقم ٤١، مساعدات للمهجرين، ١١ وثيقة تعود للقرى المذكورة في الجدول، تاريخ آيار ١٩١٩.

هي من المسيحيين. الهجرة ساهمت في تحسين أوضاع أهالي وأقارب المهاجرين في قراهم عبر الأموال التي أرسلوها لهم من الخارج.

لقد أتت الحرب العالمية الأولى، لتزيد من محنة ومعاناة العكايريين، فتدهور الوضع الاقتصادي وتراجع دخلهم، فانتشر الفقر وعمت المجاعة، فمات خلق كثير في العديد من القرى. كل ما ذكرناه خلق أزمة اقتصادية - اجتماعية، لا طاقة لأحد على احتمالها، لقد كانت أعوام الحرب، أعوام كارثة على العكايريين.

لم يشفع لعكار احتضانها لسهل زراعي خصب، فهي لم تستطع استثماره بالشكل المناسب، لا في الزمن السابق للحرب ولا في الحرب. فخيرات الأرض كانت من نصيب فئة صغيرة وهي كبار الملاكين. تروي الكثير من الحكايات المتداولة عن تلك الفترة، أن عدداً كبيراً من الأشخاص هاموا على وجوههم طلباً للقمّة تسد رمقهم وتنقذ حياتهم.

مرّت سنوات الحرب قاسية جداً على العكايريين، فقد تعطلت عملية الانتاج وانهارت مقومات الحياة الكريمة، وفوق كل ذلك انتشرت الأمراض والأوبئة فقتلت كثيراً من الخلق في بعض القرى. فما تأصل في ذاكرة هؤلاء عن تلك الفترة هي ذكرى أيام سوداء مؤلمة، لم تعرف عكار مثيلاً لها في تاريخها الحديث.

وجب عليه تحمل تبعاتها من خلال الديون المتركمة والتي ستكلفه جهد سنوات قادمة لتسديد كل ما ترتب عليه من ديون مستحقة.

لقد أرخت الحرب بظلالها القاتمة على غالبية العكايريين، الذين لم يكن ينقصهم سواها، لتزيد وضعهم الاقتصادي والمادي الرديء رداءً، وتضيف على معاناتهم اليومية مأس وويلات لم يكن لهم طاقة على احتمالها.

استنتاج:

في بداية القرن العشرين، كانت الأوضاع المادية للغالبية العظمى من العكايريين، متواضعة للغاية. فقد طغى النشاط الزراعي على ما عداه، فكانت الزراعة وتربية الماشية المصدر الأساسي للدخل لدى هؤلاء.

فئة صغيرة من البكاوات والأغوات والمشايخ على اختلاف درجاتهم تمتعوا بدخل مادي جيد. أما الفلاحون الملاكون، وإن كانوا أفضل حالاً من أمثالهم الشركاء، فكانوا جميعاً يؤمنون قوتهم اليومي بكل مشقة وعسر، فلجأوا إلى الحرف وأبرزها الحرير لتأمين مدخول إضافي يساعدهم في التغلب على العجز الموجود وتحسين أوضاعهم.

الحالة الاقتصادية والمادية الرديئة، دفعت بقسم كبير إلى الهجرة، بحثاً عن حياة أفضل، وكانت الأكثرية الساحقة من هؤلاء

لائحة المصادر والمراجع

- ١ - أوراق خاصة الشيخ يوسف نفاع، حجج شراء أراضي في عندت أكثر من ٨ صكوك لشراء أراضي من قبل شيخ آل نفاع منذ سنة ١٨٦٠ وصعوداً حتى عهد الانتداب، وهذه الوثائق هي ما تبقى من المجموعة الكاملة كون بعضها قد ضاع أو أعير ولم يعاد.
- ٢ - الأحمر، نافذ، نواحي لبنان الشمالي في العهد العثماني (١٨٦٦ - ١٨٨٠) الجزء الأول، لا دار نشر، ٢٠١٠.
- ٣ - بهجت، محمد - التميمي، رفيق، ولاية بيروت، جزآن، دار لحد خاطر، طبعة ثالثة، ١٩٨٧.
- ٤ - حبلص، فاروق، تاريخ عكار الاداري والاجتماعي والاقتصادي ١٧٠٠ - ١٩١٤، دار لحد خاطر ودار الدائرة، بيروت، ١٩٨٧.
- ٥ - الخوري، الأب اغناطيوس، مخطوط تاريخ أبرشية طرابلس المارونية، دفتر الزيارة ٢.
- ٦ - دندشي، حسن نمر، الثورة السورية الأم، الدنادشة في العام ١٩١٩، دار الانشاء، ١٩٨٥.
- ٧ - رحلات الأب اليسوعي برنيه إلى بلاد عكار ١٨٩٣، تعريب وتحقيق الدكتور فرج زخور، دار زخور للطباعة والنشر، لبنان، ١٩٩٨.
- ٨ - زخور، فرج، تاريخ عكار السياسي والاداري والاقتصادي والاجتماعي ١٩٠٨ - ١٩٤٣، دار زخور، طبعة ثانية، ٢٠٠٠.
- ٩ - سلوم، فؤاد، عكار ١٨٥٠ - ١٩٥٠ دراسة في التاريخ الاجتماعي، بيروت، ٢٠٠٠.
- ١٠ - سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس: سجلات رقم ١، ٨، ٢٣.
- ١١ - سجل الوفيات في عندت.
- ١٢ - شريف، حكمت بك، تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمانها حتى هذه الأيام، حققه وعلق على حواشيه وفهارسه وقدم له منى حداد يكن ومارون عيسى الخوري، دار حكمت شريف ودار الايمان، ١٩٨٧.
- ١٣ - شهاب، الأمير موريس، دور لبنان في تاريخ الحرير، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٨.
- ١٤ - عوض، محمد عبد العزيز، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩.
- ١٥ - عيسى، جهاد، موازنة أبرشية طرابلس في العام ١٩١١ الديموغرافيا والهجرة، بحث غير منشور.
- ١٦ - عيسى، جهاد، المخطوط المنسي نظرة في العمق، تحقيق حول مخطوط أبرشية طرابلس المارونية للأب اغناطيوس طنوس الخوري، مكتبة السائح، ٢٠١٤.
- ١٧ - عيسى، جهاد، عندت التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ١٨٥٠ - ١٩٤٣، ميا برس [د.ت].
- ١٨ - عيسى، جهاد، مقارنة تاريخية اجتماعية لرعايا أبرشية طرابلس المارونية ١٨٢٠ - ١٩٧٠، بيروت، ٢٠١٣.
- ١٩ - غربية، مطانيوس، عندت وقرائها الخمس، بحث في أوضاعها الدينية والسياسية والاجتماعية عبر العصور، مؤسسة دكاش، ٢٠٠٤.
- ٢٠ - كوثراني، وجيه، بلاد الشام، السكان الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٨٠.
- ٢١ - محفوظات أبرشية طرابلس المارونية: -م لف رقم ٣٨، يخص بالأملاك والضمان، لوائح عمال.
- ملف رقم ١/٥٦ - ٢، موازانات الأبرشية، دفتر المدخول والمصرف على كرسي أبرشية طرابلس من سنة ١٩٠٨ حتى ١٩١٨.
- ملف رقم ٤١، تبرعات للمهجرين خلال الأحداث.
- ٢٢ - محفوظات الخوراسقف مخايل الزريبي، وثيقة رقم ٧٦، ٧٨ و ٨٦.
- 1-Hokayem, A.D. Bou Malhab Attalah et J. Charaf, *Documents diplomatiques Francais relatifs à l'histoire du Liban et de la Syrie à l'époque du mandat, 1914-1946*, tome 1, le démantèlement de l'empire ottoman et les préludes du mandat, 1914-1919, Beyrouth, 2003,
- 2- Labaki, Boutros, *Introduction à l'histoire économique du Liban, soie et commerce extérieur en fin de période ottoman (1840-1914)*, publications de l'université libanaise, 1986.
- 3- Touma, Toufic, *paysans et institutions féodales chez les Druses et les Maronites du Liban du XVII siècle à 1914*, publication de l'université libanaise, 2 tomes, Beyrouth, 1971.
- 4- Weulersse, Jacques, *paysans de Syrie et du proche-orient*, Gallinard, 7ème édition, 1946.

صورة الإسلام والعرب في الإعلام الغربي «الإعلام الفرنسي أنموذجاً»

د. عبد الله السيد^(١)

بأشكالها كافة - أصبحت أداة مهمة وفعالة في يد السلطات السياسية الغربية التي تعمل على هذا التمايز بين الأنا الغرب، والآخر الشرق في صور مختلفة ومظاهر عديدة تؤكد تفوق الغرب على الشرق، الغرب الحضاري بكل المضامين الحضارية، والشرق المتخلف أيضاً بكل المضامين.

بناء عليه، فإن معرفة فلسفة ظاهرة هذه الوسائل وفهمها كإحدى المكونات الأساسية المهمة والفعالة من ذاك (الأنا)، ودوره في صراع الحضارات بين (الأنا والآخر) الغرب والشرق وخاصة المسيحية والإسلام، باتت أمراً ملحاً يجب كشفه من قبل الباحثين بغية العمل على التقارب بين هذين العالمين. من هنا، سنحاول أن نجيب على بعض الأسئلة، التي قد تساعدنا على فهم هذا (الأنا) ومعرفة «المنطق الداخلي»

المقدمة

«الأصولية»، «الإرهاب»، «التطرف»، «البدعوة»، «التخلف»، «العنف»، «البيترودولر»، «الحجاب»، كل هذه المفاهيم والمصطلحات (برأي وسائل الإعلام الغربية والفرنسية بشكل خاص) سمات وخصائص (الآخر) الشرق وخاصة العرب المسلمين على حد سواء. وبما أننا ذكرنا الشرق، فهذا يعني وجود (الأنا) الغرب، الذي يتمتع بخصائص (أيضا كما تظهرها وسائل الإعلام الغربية والفرنسية بشكل خاص)، «الديمقراطية»، «حقوق الإنسان»، «التسامح»، «التقدم التكنولوجي»، «المدنية»، وكل هذه الخصائص على ما يبدو مخالفة تماماً، وبشكل كامل، مع خصائص (الآخر) الشرق.

من اللافت أن وسائل الإعلام -

(١) أستاذ الأنثروبولوجيا الدينية، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية.

بالقول إنها عوامل وأسباب تتصل بآلية (Mecanisme) سيكولوجية من الرغبات الدفينة التي ترغب بالآخر وتحتاج اليه (النفط والموقع الاستراتيجي) من جهة، وتريد التخلص منه (المهاجرين) من جهة أخرى (الجابري، ١٩٩٥، ص ٩٢).

إلا أننا نعتقد - من جهتنا - أن جذور الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام والعرب في العقل الغربي والفرنسي، قد بدأت وتطورت مع نشوء الإسلام في القرن السابع الميلادي. فخلال هذه القرون تكونت صورة سلبية وقاتمة، ظلت مسيطرة على الفكر والعقل الغربي حتى يومنا هذا، مع اختلاف هذه الصورة المشوهة وأشكالها من مرحلة إلى أخرى (يسين، ١٩٩٣، ص ٩٢)، تبعاً لطبيعة العلاقة بين الإسلام والغرب - قوة كانت أو ضعفاً - من دون أن يمنعنا ذلك أن نقول، إن الصورة العامة لدى الغرب عن الإسلام إنه دين غازٍ ومعادي.

ويمكن إجمال تاريخ العلاقة الجدلية بين (الإسلام والمسيحية)، أو (الشرق والغرب)، بأربع مراحل متداخلة ومتتالية على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: مرحلة ظهور الإسلام

وقد بدأت هذه المرحلة مع بداية الدعوة الإسلامية، والفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام، وهي الفترة الزمنية التي تمتد من

«La Logique Interne» لفكره وسلوكه، حسب تعبير المفكر الفرنسي ريمون أرون (Seurien, 1989, p36). ومن ثم الوصول إلى حوار حقيقي وبناء من منطلق «الندية»، كما يقول المفكر الفلسطيني أحمد صدقي الدجاني في كتابه «العلاقات العربية الأوروبية بعد عقد من الحوار» (الدجاني، ١٩٨٠، ص ٦).

إذاً، وبناءً على ما سبق، سنحاول الإجابة عن سؤالين أساسيين ومهمين لفهم هذه الظاهرة:

السؤال الأول: هل للجذور التاريخية بين الإسلام والغرب أثر في سلوك وسائل الإعلام الفرنسية حالياً؟

السؤال الثاني: كيف تتناول وسائل الإعلام الفرنسية صورة الإسلام والعرب؟

I - هل للجذور التاريخية بين الإسلام والغرب أثر في سلوك وسائل الإعلام الفرنسية حالياً؟

الواقع أن السؤال الذي يطرح نفسه دائماً وباستمرار، في نقاشات وحوارات المثقفين، والسياسيين والعرب والمسلمين، وحتى العامة، ما هي العوامل والأسباب الكامنة وراء صنع الإعلام الغربي لهذه الصورة السيئة والقاتمة عن الإسلام والعرب؟

على الرغم من أن المفكر المغربي محمد عابد الجابري طرح هذا السؤال وأجاب عنه،

على أوروبا والغزوات العربية. ولا تزال هذه الأفكار حية في أذهان بعض المفكرين الغربيين إلى يومنا هذا، ولم يستطع الغرب، طوال العصور الوسطى، أن يفرز صورة متماسكة واضحة، وصحيحة عن الإسلام.

ولقد صور الأدب الشعبي في الغرب (بالقرون الوسطى) المسلمين صورًا لا تزال ماثلة في اللاشعور الجمعي للغربيين على أنها:

- تُعدّ الإسلام دينًا وثنيًا.
- تُعدّ النبي (ص) ساحرًا وداعيًا إلى اللذات الحسية.
- تُعدّ القرآن خرافات مستعارة من الإنجيل بعد تشويهاها.
- تُعدّ الإسلام جزءًا فاسدًا من المسيحية.
- تُعدّ الإسلام قائمًا على البطش والقوة حقيقة تاريخية.
- تُعدّ أن صورة الجنة في القرآن صورة مادية وجسدية.
- تُعدّ التشريع الإسلامي ترسيخًا لهذه الصورة (تعدد الزوجات) (بكري، ١٩٨٠، ص ١٩٠).

بإختصار، لقد كان محمد (ص) - بالنسبة إلى الغرب - ساحرًا دمر الكنيسة في إفريقيا والشرق بسحره وخداعه، وعزز نجاحه هذا بالسماح بالانحلال الجنسي (بكري، ١٩٨٠، ص ١٩٠).

القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، حيث كان الغرب يعيش في حالة انحطاط فكري، وثقافي، ومادي - بالمقارنة مع الدين والحضارة الجديدة الفتية المتمثلة بالإسلام.

فمنذ القرن الثاني عشر، وهو تاريخ ترجمة القرآن من قبل رجال الدين المسيحيين إلى اللغة اللاتينية، كانت صورة النبي (ص) محمد - في أذهان الغربيين - على أنه نبي كاذب، كافر، داعر وزان، أما مفهوم الإسلام في المخيلة الغربية، كان مرتبطًا بروح الغزو، والعنف، والتعصب (Cesari, 1994, p10).

وفي هذه المرحلة تكرست النظرة المسيحية (الغرب) للإسلام وحضارته (الشرق) بنقطتين أساسيتين:

الأولى: أن الإسلام دين شهواني ومادي في فكره، مستندين في ذلك إلى قضية تعدد الزوجات.

الثانية: القوة والعنف والعدوان، مستندين في ذلك أيضًا إلى مسألة الجهاد (جعيط، ١٩٩٥، ص ١٣).

وهنا يجب الإشارة إلى أنه في حين كان المسيحيون العرب في نجران معتدلين تجاه الإسلام، فإن الغرب قد احتفظ عن الإسلام بصورة قاتمة، لأن ثمة إرتباطًا في ذهنية الغربي ومشاعره بين الهجمات البربرية

ويعود السبب في تكوين هذه الصورة المشوهة عن الإسلام برأي المفكر التونسي هشام جعيط، في كتابه «أوروبا والإسلام» إلى التحدي الذي كان يطرحه الإسلام هناك، وعدم المرور بتجربة التعدد الديني في المجتمع المسيحي، بينما تكون الإسلام على أساس التعايش مع الديانات السماوية الأخرى منذ البداية (بكري، ١٩٨٠، ص ١٩٠).

وقد لخص المستشرق الفرنسي، ماكسيم رودنسون في كتابه «روعة الإسلام» (La Fascination de L'Islam) بداية العلاقة والاتصال بين الغرب والإسلام، بالقول «لقد كان المسلمون خطراً قبل أن يصبحوا مشكلة» (Rodinson, 1980, p27).

المرحلة الثانية: مرحلة الحروب الصليبية:

وتبدأ هذه المرحلة من منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (١٠٩٦-١٢٧٠)، وتمتاز باشتداد الصراع والنزاع بين مختلف القوى الإسلامية، حيث كان العالم الإسلامي آنذاك، يمر بمرحلة خطيرة من التفكك والتجزئة، فالخلافة العباسية كانت رازحة تحت سلطان السلاجقة الذي كان - بدوره - على نزاع مع الفاطميين، وهنا ظهرت أوروبا كمهددة للشرق (عباس، ١٩٨٢، ص ٤٤)، مستخدمة السيف من

جهة، والشعارات والدعايات الدينية من جهة أخرى، لتؤكد - من جديد - استمرار الصراع (الإسلامي المسيحي)، أو بشكل أصح (الشرق والغرب)، ولذا فقد تم تصوير الإسلام على أنه دين وثني، وأن محمداً رسول ساحر، وشخص فاسد (طاش، ١٩٩٥، ص ٤٨)، إضافة إلى الادعاء أن العرب والمسلمين، يقومون بمنع الحجاج المسيحيين من زيارة بيت المقدس، وبالتالي كان هناك - ولا يزال - أدب وثقافة يحاولون أن يبرروا الحملات الصليبية الغربية تجاه الشرق، فالحروب الصليبية لم تكن كما وصفها الكاتب اللبناني، أمين معلوف في كتابه الصليبيون من وجهة نظر عربية «Les Croisades Vues par les Arabes» حرب دامية، عنيقة، بربرية (Maalouf, 1989)، بل كانت - ولا تزال تراها الثقافة الغربية حالياً - «حروباً سمحت بالاتصال بشعوب لها ثقافات مختلفة، وأنها عرفت بحضارة الشرق (مارلين، ١٩٩٥، ص ٩٢). وهذا التفسير أو بشكل أصح التبرير يرضي الذوق الأدبي والثقافي المسيحي (الغربي) في الماضي والحاضر.

المرحلة الثالثة: مرحلة الغزو الإستشراقي والتبشيري:

وهي الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، ويمكن عدّ

الاستشراق مختلف عن التاريخ، حيث أن هذا الأخير يحاول أن يفهم فقط، ولا يضع موضع الشك أسس المجتمع الذي يدرسه، في حين يعطي الاستشراق نفسه حق الحكم، بل وحتى الاتهام والرفض (جعيط، ١٩٩٥، ص ٤٧).

فمثلاً، عبّر المستشرق الفرنسي فولنييه عن آرائه حول القرآن، في نص يستحق منا، أن نسرده لتوضيح الفكر الاستشراقي الفرنسي، وتأثيره على تكوين العقل الغربي ووسائل الإعلام الحالية، قيقول: «إن أبعد ما يكون عن روح الإسلام هو إصلاح مفسد الحكم، ويؤسفنا القول على العكس من ذلك إنه السبب الرئيسي لها، ولحصول الاقتناع، يكفي أن نتفحص الكتاب الذي استوعب هذه الروح. من يقرأ القرآن - يضيف فولنييه - سيضطر إلى الاعتراف، إنه لا يقدم أي مفهوم عن واجبات الناس في المجتمع، ولا عن تكوين الهيئة السياسية، ولا عن مبادئ فن الحكم، وبكلمة واحدة لا شيء مما يشكل نظاماً تشريعياً. إن القوانين الوحيدة التي توجد فيه - يتابع فولنييه - يمكن ردها إلى أربعة أو خمسة أوامر، خاصة بتعدد الزوجات، والطلاق، والرق والإرث... وأنه من خلال هذه الفوضى للهذيان المستمر، فإن الفكر العام السائد، والمعنى المكثف يتمثلان في التعصب الحاد والعنيد... ولم يكن هدف محمد الهداية، بل

هذه الفترة تمهيداً للغزو الاستعماري الجديد - متمثلاً بشكل خاص في بريطانيا وفرنسا وهولندا - الذي استمر حتى استقلال الدول العربية والإسلامية في الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن.

لقد ارتبط الاستشراق L'Orientalism

بالنصرانية أو التبشير بها، من خلال الحملات التي كان يقوم بها الرهبان، من أجل نشر أفكار هذا الدين. بحيث أن الأديرة أصبحت بمثابة وزارات دعاية منظمة، تمكن السلطة السياسية بما يلزمها من الرسائل السياسية المناوئة للإسلام (السندور، ١٩٨٣، ص ٦٦). لقد ارتبطت هذه النشاطات الدينية والإنسانية أيضاً - بشكل أو بآخر - بأهداف استعمارية سواء من الناحية الثقافية، السياسية أو الاقتصادية، وفي هذه المرحلة كانت الصورة العامة عن الإسلام أنه دين جامد وغير قابل للتطور.

وإذا كان هناك بعض المفكرين أمثال ألبرت حوراني في كتابه «الإسلام في الفكر الأوروبي»، يحاول تبرير الاستشراق وإظهار «حسن نيته الفكرية والحضارية»، بالقول مثلاً إن الاستشراق جاء نتيجة النظرة الناجمة عن المعرفة المتزايدة، لما يؤمن به المسلمون، وما فعلوه في التاريخ، وناجمة أيضاً عن الأفكار المتغيرة في أوروبا ودور الدين والتاريخ (حوراني، ١٩٩٤، ص ٩)، إلا أنه يبدو لنا، أن

السيطرة، ولم يكن يبحث عن أتباع بل عن رعايا» (بكري، ١٩٨٠، ص ١٩٠).

أما المستشرق الفرنسي الآخر شاتوبريان، فلم يكن أقل تهجماً وعنفاً من فولنييه، حيث يرى الإسلام في كتابه «الطريق من باريس إلى القدس» أنه البربرية المنتظمة التي نسخها الدين (بكري، ١٩٨٠، ص ١٩١).

أما في مرحلة الغزو الاستعماري، فقد تبلورت في أوروبا النزعة ضد العرب، ولم يقنع الغرب كما يقول المفكر المصري السيد ياسين في كتابه «الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر» بالترويج لصورة مزيفة عن العرب تتسم بالإجمال، بل أنه حرص - عن طريق فلاسفته وعلمائه الاجتماعيين - على رسم صورة تفصيلية تركز على قصور العرب وتخلفهم. وفي هذه الصورة سنجد عدداً من الأحكام، من بينها ما قرره جورج ديهاميل - عضو الأكاديمية الفرنسية - في كتابه «حضارة فرنسا» من أن «الذهنية الشرقية عاجزة تمام العجز عن التفكير التركيبي وعن تجاوز الذات» (يسين، ١٩٩٣، ص ٩٥).

وحتى المفكر والمستشرق الفرنسي أرنست رينان، الذي أظهر وأبدى إعجابه في بعض أمور الدين والحضارة العربية والإسلامية، حاول من خلال مقالاته وكتبه، التقليل من شأن العرب ودورهم في حمل

رسالة الحضارة، برد علومهم إلى الفرس واليونانيين، إلى أن يقول «إن مستقبل البشرية تحتضنه أيدي الشعوب الأوروبية» (حوراني، ١٩٩٤، ص ٤١).

الشيء الملاحظ، أن الكنيسة في مرحلة القرون الوسطى، والعلم المدرسي في مرحلة الاستشراق والاستعمار، يجهلان الإسلام غالباً، وأن الشعور بالتفوق وامتلاك الحقيقة تتلازم مع وعي بتفوق سياسي وحضاري لدى الأوروبيين (جعيط، ١٩٩٥، ص ١٥).

وبغض النظر عن حسن أو سوء نية المستشرقين والاستشراق، إلا أن الشيء المؤكد، أن هناك تعاوناً واتصالاً وثيقاً بينهم وبين الدولة والنظام السياسي الذي ينتمون إليه. ولهذا السبب وجدنا في فرنسا عدداً من المستشرقين، الذين عملوا مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا. فعلى سبيل المثال، فإن المستشرق دي ساسي، كان يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية. كما كان ماسينيون إلى عهد قريب مستشاراً للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشؤون الإسلامية (سعيد، ١٩٨١، ص ١٤٦).

وهنا يجب الإشارة، إلى أنه قد يكون هناك شيء من الصدق أو الحقيقة في ما ذكره المستشرقون عن العرب والمسلمين،

إلا أننا نأخذ عليهم أنهم اختاروا أكثر مراحل الإسلام والضعف من تاريخ العرب والمسلمين على أنها (النموذج) للدين الإسلامي والعرب، الأمر الذي ساهم في استمرار التشويه وتعميقه تاريخياً وعملياً.

المرحلة الرابعة: المرحلة المعاصرة:

وهي المرحلة الممتدة من استقلال الدولة العربية والإسلامية، منذ الأربعينات والخمسينات حتى هذا التاريخ، حيث انتشرت في أوروبا مراكز البحث، والجامعات المتخصصة والمكتبات المهمة بقضايا العرب والمسلمين والشرق بشكل عام، كنوع من الامتداد الطبيعي والمنطقي لظاهرة الاستشراق، أو كما سماها أستاذ العلوم السياسية اللبناني غسان سلامة، في تعليقه على ظهور كتب كثيرة ومتنوعة بشكل واضح ومثير للانتباه، حول العرب والإسلام في فرنسا «بمرحلة الاستشراق الجديدة» (سلامة، ١٩٨٠، ص ٢٢٣).

وفي هذه المرحلة، نلاحظ أن الصورة النمطية «السيئة» «والقاتمة» للإسلام والعرب في العصور الوسطى، وما تلاها من مرحلتى استشراق واستعمار، لا تختلف كثيراً عن الصورة النمطية المرسلّة عن طريق وسائل الإعلام الغربية الحديثة التي يصوغها السياسيون والإعلاميون، ومن يسمون اليوم «بخبراء الإسلام والدراسات

الشرقية وشؤون الشرق الأوسط»، في المجتمعات الغربية (طاش، ١٩٩٥، ص ١١١).

ومما هو جدير بالانتباه في هذه المرحلة، أن نتائج الباحثين الغربيين المعاصرين، تؤكد آراء وأفكار ما قاله وما توصل إليه المفكرون في القرون الوسطى وفي مرحلة الاستشراق، والتمثلة في فكرة أن الإسلام وانتشاره يمثلان خطراً حقيقياً، حيث أن الإسلام دين غير حضاري، ولا يساعد على التطور والتقدم، بل إنه قد يؤدي إلى تدمير الحضارة الغربية والقضاء عليها.

ويبدو، أن هذه الأفكار والطروحات (القديمة الجديدة، والمتجددة باستمرار) عادت إلى أرض الواقع السياسي - في هذه الأيام - من خلال كتابات البعض من أمثال صمويل هنتنغتون وكتابه «صراع الحضارات» (هنتنغتون، ١٩٩٣)، مشيراً إلى أن العدو الجديد - بعد اختفاء الخطر الشيوعي - يتمثل في الإسلام، وكذلك كتاب «نهاية التاريخ» (فوكوياما، ١٩٩٣) للكاتب الأمريكي من أصل ياباني فرنسي فوكوياما، الذي يرى في النظام الرأسمالي (الخلاص الأبدي للبشر على الأرض)، وأن الإسلام على الرغم من ضعفه وتفككه، قد يهدد (الرأسمالية)، بوصفها الدين الجديد إلى أبد الأبد.

الجدير بالذكر، أن مرحلة القرن

الدول الغربية (الأنا) صاحبة النفوذ والقوة الاقتصادية والسياسية تجاه (الأخر) الضعيف المتفكك أسير نزاعاته الداخلية والخارجية المتمثل في الشرق، والعرب والمسلمين بشكل خاص، ودول الجنوب بشكل عام؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه، في الجزء الثاني من هذه الدراسة، بالتركيز على دور الإعلام الفرنسي وتأثيره، من خلال تحليل وجهات نظر إعلامها المختلفة حول العرب والمسلمين الذين يشكلون - حسب الإحصاءات الفرنسية الرسمية - ثلاثة ملايين نسمة، حيث يُعدّ الإسلام ثاني أكبر طائفة دينية في فرنسا بعد المسيحية الكاثوليكية (أبو حسان، ١٩٩٥، ص ٦٩).

II - كيف تتناول وسائل الإعلام الفرنسية صورة الإسلام والعرب؟

بناءً على ما قلناه في الجزء الأول من دراستنا، أعتقد أن وسائل الإعلام الفرنسية، ليست السبب الرئيس والوحيد في إعطاء صورة مشوهة وسلبية عن الإسلام والعرب، وإنما سلوك هذه الوسائل الإعلامية وتأثيرها، وقد جاء كنتيجة حتمية ومنطقية، لوجود موروث حضاري وثقافي سلبي، متراكم في الذاكرة والتاريخ والعقل الغربي بشكل عام والفرنسي بشكل خاص.

وبهذا يمكننا ربط العلاقة الجدلية بين

العشرين هي محور الدراسة، حيث سنلقي الضوء على مجمل جوانبها الإعلامية والسياسية والفكرية الغربية، حيث نبدأ بالإشارة إلى ديباجة ميثاق منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم، عن أسباب الحروب، والفوضى في العلاقات الدولية - حيث تؤكد - هذه الديباجة على أهمية دور الإعلام في الوصول إلى السلام والأمن، وأن جهل الدول لأنظمة حياة بعضها البعض الآخر، هو الذي يخلق الشك وعدم الثقة بين شعوبها، ذلك الشك الذي يقود إلى الصراعات والحروب... وأن وظيفة الإعلام تكمن في المساعدة على أن يتعرف العالم على جذور المشاكل من أجل إقرار العدالة بين الشعوب، ووقف العدوان، وأشكال الاستعمار الجديدة كافة.. وأن دور الإعلام أيضًا يكمن في تعامله في كيفية التفاهم الدولي، وتنشيط العناصر التي تساعد على تلاقي الثقافات والحضارات ونشر المعرفة، والتذكير بأهمية حياة الإنسان (مصالحة، ١٩٩٥، ص ١٥٢).

ولا شك أن هذه الديباجة تظهر دور الإعلام وأهميته في الاتصال الدولي، لتكريس مفهوم السلام والتعايش والتعاون بين الشعوب والحضارات. إلا أن السؤال المهم والضروري الذي يجدر بنا طرحه: هل هذه الآراء والأفكار، والمقترحات، والمبادئ الأخلاقية، هو ما تقوم وتعمل به

«صراع الحضارات» من خلال الاستعمار أولاً، ومن خلال الحملات العسكرية المتكررة ثانياً، كعدوانها المشترك على مصر عام ١٩٥٦، «كمحاولة يائسة» منها للرد على دعم جمال عبد الناصر للثوار الجزائريين، إضافة إلى بحثها الدائم والمستمر عن دور في الشرق الأوسط ومكانه.

وعلى الرغم من وجود قيادي قومي قوي مثل شارل ديغول عام (١٩٥٨-١٩٦٩) الذي حاول أثناء الحرب الباردة «أن يخط طريقاً ثالثاً مستقلاً يختلف عن القوتين العظميين آنذاك، إلا أن الإعلام الفرنسي كان أقوى منه واتهمه باللاسامية (Anti-Semitisme)، لوصفه شعب إسرائيل في مؤتمره الصحفي المنعقد في ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧ أنه من النخبة، واثق من نفسه وميال إلى السيطرة «Sur de soi et Dominateur» (Raymond، ١٩٨٣، ص٤٩٨)، لمحاولته أخذ موقف محايدة نسبياً من الصراع العربي الإسرائيلي عام ١٩٦٧» (بوقنطار، ١٩٨٧، ص٢٠٦).

ويمكن فهم دور وتأثير الإعلام الفرنسي على الرأي العام الفرنسي، بمناقشة بعض مواقف الرأي العام الفرنسي، ورأيه في بعض القضايا السياسية العربية الدولية، خاصة القضايا المتعلقة بفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

الصور القروسطية Mōyenageuse للعرب والإسلام، والصور المعطاة حالياً في وسائل الإعلام الفرنسية، والمقارنة بينهما، من خلال القاء الضوء على بعض هذه الوسائل، التي يحسب البعض أنها تتمثل: في الصحافة، الراديو والتلفزيون، والسينما وأيضاً الكتب المدرسية.

إذاً، من أجل فهم هذه العلاقة الجدلية للصورة القديمة، المتكررة والمتجددة باستمرار، سنقوم بعرض وتحليل بعض مواقف الرأي العام الفرنسي تجاه الإسلام والعرب، ومن ثم، ننتقل إلى مناقشة موقف الصحافة المطبوعة والمرئية من هذه القضية، إلى أن نصل إلى المقررات المدرسية، حيث نختم تحليلنا، بالإشارة إلى قضية تأثير وسائل الإعلام على مشكلة الهوية والاندماج للعرب والمسلمين في المجتمع الفرنسي.

أ - الرأي العام الفرنسي والقضايا العربية

إن موقف فرنسا من العرب والإسلام لا يختلف عن بقية الدول الغربية التي ترى أن العرب شعب بدائي، متخلف، بدوي. ولذلك لم تتردد فرنسا في الاعتراف بإسرائيل عام ١٩٤٨، ومساعدتها في بناء ترسانتها العسكرية وحتى الذرية منذ الخمسينات من هذا القرن. وقد حاولت فرنسا تثبيت مفهوم

فمثلاً في حرب ١٩٦٧، استطاعت وسائل الإعلام الفرنسية أن تخلق رأياً عاماً - أو فلنقل على الأقل - أن تكون أو تشكل رأياً عاماً فرنسيًا مؤيداً للمواقف والسياسات الإسرائيلية. وهذا ما لمسناه ولاحظناه أثناء حرب حزيران ١٩٦٧، أو حسب تعبير الصحفي المصري محمد حسنين هيكل «نكسة ٦٧».

الواقع يقول، إن الخط الثابت في تعامل (L'Opinion Publique Française) «الرأي العام الفرنسي» مع العرب وإسرائيل، هو مساندة التاريخية والتقليدية للدولة اليهودية. هذه الحقيقة تتأكد باستمرار، كلما شعر، أن إسرائيل تواجه خطر الزوال «بسبب السلوك العدواني لجيرانها العرب. فخلال حرب حزيران ١٩٦٧، وفي استطلاع حول سؤال: في حالة نزاع بين إسرائيل والبلدان العربية مع من تتعاطف؟ كان الجواب كالاتي: إسرائيل ٥٨٪، البلدان العربية ٢٪. وحتى بعد عدوان ١٩٦٧ على مصر وسوريا والأردن واغتصاب الأقصى واحتلال أجزاء كبيرة من الأراضي العربية، فإن مشاعر الرأي العام الفرنسي لم تتغير كثيرًا كما تدل على ذلك نتائج الاستطلاع الآتي: المساندون لإسرائيل ٥٦٪، أما البلدان العربية ٢٪. وحول سؤال من المسؤول عن الحرب كان الجواب كالاتي: إسرائيل ٦٪، والبلدان العربية ٥٤٪ (بوقنطار، ١٩٨٦).

وقد استمر هذا الدعم المادي والمعنوي لإسرائيل، من خلال الرأي العام الفرنسي في حرب أكتوبر ١٩٧٣، حيث عبر ٥٥٪ من الفرنسيين عن عدم ارتياحهم، وعدم مشاطرتهم لموقف حكومة بلادهم - المتوازن والحيادي إلى حد ما - ازاء الشرق الأوسط، وفي مقابل ٣٠٪ فقط أعلنوا مساندة لهم لهذه السياسة (L'express، ٢٢ تشرين الأول، ١٩٧٣).

وفي عام ١٩٨٢، وعلى الرغم من غزو إسرائيل للبنان، وتورطها في مذابح صبرا وشتيلا ضد الفلسطينيين، فإن استطلاعاً للرأي العام، أثبت أن ٣٧ بالمائة من المستجوبين عبروا عن استمرار تعاطفهم العميق مع إسرائيل، في حين لم يتجاوب مع مطامح الشعب الفلسطيني سوى ٢١٪ (بوقنطار، ١٩٨٦، ص ٢٠٦).

أما في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، كانت غالبية الفرنسيين ضد الحرب، وقد عبرت صحيفة ليبراسون «Liberation» عن ذلك في عنوان صارخ، «لا دم من أجل النفط الأمريكي» «ولا تضحيات أوروبية من أجل مصالح أمريكية» وقد أظهرت مراكز دراسات واستطلاعات الرأي العام أن ٩٢٪ من الفرنسيين يعارضون الحرب (كيلو، ١٩٩٤، ص ٢٢٤). ولكن قبل أسبوع من بداية المعارك، خرج الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران ليقول وبصراحة وبالحرف

تصاعد وتيرة الحملة السياسية والإعلامية ضد العراق والعرب، بدا للعيان أن الرأي العام - المعارض للحرب بنسبة ٩٢٪ في البداية - مستعد لسفك الدم الفرنسي من أجل النفط الأمريكي.

إن التحول والتغير «المفاجئ» للرأي العام الفرنسي يثبت ويؤكد ما قلناه سابقاً، وهو أن وسائل الإعلام بأنواعها كافة، كانت - ولا تزال وحسب الظروف والتطورات السياسية - تخاطب الضمير النائم في الذاكرة التاريخية «La mémoire historique» للفرنسي. وهي ذاكرة مليئة بالصور القاتمة، المرعبة، والسلبية. وهكذا، كان لا بد - أثناء حرب الخليج الثانية ١٩٩٠ - من ربط التاريخ بالحاضر، والشرق بالغرب، والإسلام بالمسيحية، فقيلت ورددت أفكار قديمة، مغلفة بعناوين إعلامية جديدة حديثة ذات مغزى سياسي، مثل: «جزار بغداد»، «خليفة بغداد الجديد»، و«بختنصر» (El - Karez، ١٩٩١، ص ٧٢).... الخ

وهنا يبرز سؤال مهم جداً حول «الرأي العام» و«الديموقراطية»، وهو ما الذي جعل انقلاب الرأي العام ممكناً في دولة ديموقراطية مثل فرنسا، يقال فيها إن السياسة تتعين بالإرادة العامة «للمواطنين»، كما حددها جان جاك روسو؟ وكيف يمكن لحفنة من الساسة أن تنجح خلال فترة

الواحد: «بعد الحرب، سيكون هناك اقتسام جديد للمصالح». ثم ذكّر الرأي العام الفرنسي برفض العراق للدور الفرنسي والأوروبي في حل الأزمة، وأكد أن الكويت عضو في الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، قبل أن يعرج على الحرب العالمية الثانية، ويشرح كيف نشبت بسبب تقصير أوروبا في وضع حد لهتلر بعد دخوله إلى تشيكوسلوفاكيا. عند هذا الحد أعلن الرئيس الفرنسي أن حرباً عالمية ثالثة قد تنشب، إذا ما سكت العالم عن استيلاء العراق على الكويت، ويصبح صدام أكبر مالك للنفط واحتياطاته (كيلو، ١٩٩٤، ص ٢٣١).

انطلاقاً من هذه الحجج: «تقاسم المصالح الذي سيلي الحرب، وضرورة منع دكتاتور من العالم الثالث، وهو فوق ذلك عربي مسلم، من امتلاك إمكانات قد تساعد على التدخل في تغيير نمط حياة الغرب»، بدأت حملة على العراق - وعلى العرب عموماً - تغذت من «دلالات ومعارف» كامنة في الموروث التاريخي الغربي، تعبر عنه جملة أحكام مسبقة ومشاعر معادية حيال «العربي المسلم»، ترى فيه كياناً مجبولاً بنار حقد عنصري ديني أعمى على الآخر، وعلى من ليس عربياً ومسلماً، تاريخه هو تاريخ تحينه فرص الغدر بغيره، لذا تنتفي منه الأعمال المفيدة للبشر ويزخر بالشر (كيلو، ١٩٩٤، ص ٢٣٢). ومع

أن الشيء المؤكد والملموس، هو أن الصورة المعطاة مسبقًا وتأثيرها على الرأي العام الفرنسي كان كبيرًا وواضحًا - ليس لهذه الحرب فقط - وإنما لصورة ودور وتأثير العرب على الساحة الدولية بأسرها مستقبلاً.

الواقع أن هذه النتائج والحقائق التي توصل إليها الرأي العام الفرنسي، حول صورة ودور العرب على الساحة الدولية، جاءت لتؤكد وتعزز الرأي الذي قام به مركز المعلومات والعلاقات العامة في الجيش الفرنسي سنة ١٩٨٦ «Service d'information et de relation publiques des Armées (SIRPA)»، الذي أظهر أن نصف طلاب المرحلة الثانوية الذين يبلغون بين ١٦-١٨ عامًا، يحسبون أن من أهم الأسباب التي قد تؤدي إلى حرب عالمية مفاجئة هي الأصولية، L'intégrisme ٢٦٪، الإرهاب Le Terrorisme ٢٢٪ (Liauzu، ١٩٨٨، ص ١٦٦). وعلى ما يبدو، أن هذه المصطلحات والمفاهيم كانت تشير بشكل أو بآخر إما للعرب أو للمسلمين.

ولكي تكتمل الصورة، وتتضح أبعادها، ولكي نكون قريبين من الدقة والموضوعية، يجب الإشارة والتأكيد على أن الموقف الفرنسي، أو بشكل أصح موقف «الرأي العام» الفرنسي حول القضايا العربية لم يأت من فراغ، وإنما كان هناك - ولا يزال

وجيزة جدًا - أقل من ثلاثة أشهر - في تغيير عقول غالبية شعب متحضر ومشاعره، وفي تحويله من مؤيد متحمس للسلام إلى متحمس للحرب؟ وما معنى ديموقراطية الشعب للشعب بالشعب. إذا كان يمكن لقلّة صياغة ووعي مجتمع حسب الظروف والمصالح السياسية (كيلو، ١٩٩٤، ص ٢٣٢).

على كل حال، لقد أثارت المعالجة الإعلامية - المطبوعة منها أو المرئية - لحرب الخليج الثانية، العديد من التساؤلات والطروحات، حول دور الصحفي ومهمته، وهل هو مجرد شاهد فقط، «un témoin» كما يقول البعض أم أنه فاعل سياسي، «un acteur» أو مشارك في العمل الدبلوماسي «un participant à la diplomacie» (Kareh، ١٩٩١، ص ٧٢).

وكتأكيد على الدور الفعال والمهم الذي قام به الإعلام، قبل وأثناء الحرب، أطلق البعض على حرب الخليج الثانية، «حرب بالصورة» «Guerre en image»، وبعضهم فضل استخدام مصطلح «حرب صور» «Guerre des images» (Serg، ١٩٩١، ص ٥٢).

وبصرف النظر عن النتائج السياسية أو العسكرية التي أسفرت عنها هذه الحرب، وبصرف النظر عن «طبيعة المعركة الإعلامية» وشكلها وصورها وألوانها، إلا

- عدد من العوامل الموضوعية التي ساعدت على خلق وتكوين وتشكيل هذا الموقف يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١ - العلاقة التاريخية الطويلة بين اليهود والفرنسيين، بداية من الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨، مروراً بعقدة الذنب الناتجة عن قضية الفرد دريفيس «Alfred Dreyfus»، ضابط يهودي فرنسي اتهم بالتعاون والتجسس للألمان، وقد سجن عام ١٨٩٤، إلا أن القضية أعيدت للمناقشة، تحت ضغط الرأي العام، وتمت تبرئته في (١٩٠٦) وصولاً إلى مظاهر اللاسامية ومجازر الغزو النازية في ظل حكم أدولف هتلر (١٩٣٣-١٩٤٥).

٢ - المصير المشترك الذي ربط الفرنسيين والإسرائيليين في خندق واحد عام ١٩٥٦ في العدوان الثلاثي على مصر.

٣ - سيطرة بنية ثقافية صهيونية، ويسارية (وليست يمينية كما يؤكد ذلك بوقنطار حسان في كتابة السياسة الخارجية الفرنسية إزاء الوطن العربي منذ عام ١٩٦٧) (بوقنطار، ١٩٨٧، ص ٢٠٩) على دور النشر، ووسائل الإعلام، وهي في مجملها متضامنة مع إسرائيل، ولا تتردد في الدعاية لها، والدفاع عنها. ولا شك، أن القضية الفلسطينية كانت - ولا تزال - مرتبطة بالفكر والروح الأوروبية بالمشكلة أو المسألة اليهودية La question Juive،

وقد عبر عن هذه الحقيقة، المفكر والفيلسوف الوجودي جان بول سارتر، بالقول: «لقد وجدنا أنفسنا ممزقين، بين علاقات صداقة ووفاء متناقضة، لذلك نشهد اليوم مجابهة بين العالم العربي وإسرائيل، وكأنها مجابهة تمزقنا نحن، ولذا نعيش هذا التعارض بينهما، وكأنه مأساتنا الخاصة» (Liauzu) «Notre tragédie Personnelle»، ١٩٨٨، ص ١٧١).

٤ - وهذا ما يهمننا في دراستنا بشكل مباشر، فعلى نقيض القوالب الإيجابية السابقة الجاهزة التي صنعها الرأي العام لإسرائيل، فإن صورة العرب في فرنسا مشوهة، ومغلقة بالحق والكراهية والتعالي، فالذاكرة الفرنسية في استرجاعها للعرب لا تنسلخ عن القيم الاستعمارية الغابرة: التقدم / الانحطاط - التحضر / التخلف - الرقي / الهمجية. والفرنسي العادي لا ينظر إلى الإنسان العربي خارج نموذجين: مهاجر ينتمي إلى عالم متخلف، رحل إلى فرنسا، حاملاً معه تراثه وقيمه البالية، وغير قادر على الاندماج في المجتمع الفرنسي المتحضر، وأصبح في خضم الأزمة الاقتصادية، بمثابة المتهم الذي سرق عمل الفرنسيين، وعمق من المشاكل الاجتماعية التي تعيشها البلاد من بطالة وجريمة. أما النموذج الثاني فيتمثل في الشيخ القادم من الصحراء، والذي يملك أباراً نفطية ومثقالاً

بالدولارات، ينفق من دون حساب من أجل إشباع رغباته، ولا يتردد في رفع أسعار النفط لخنق الاقتصاد الغربي (طاش، ١٩٩٥، ص ١٠٥).

ب - صورة العربي في الصحافة المطبوعة والمرئية الفرنسية

وبعد أن رأينا كيف أن الرأي العام الفرنسي، الموجه من قبل وسائل الإعلام المعتمدة على الذاكرة التاريخية في معالجتها الصحفية للأحداث، وقف موقفًا منحازًا لإسرائيل، وعدائيًا تجاه القضايا العربية التي طرحنا بعضًا منها، سنتعمق قليلًا في هذه الوسائل الإعلامية - من دون أن يعني ذلك الدخول في التفاصيل - بإلقاء الضوء على بعض الصور النمطية المعطاة للعربي والمسلم على حد سواء، علمًا أنه لا يوجد فرق كبير في المعالجة الإعلامية، الفرنسية أو الإنجليزية أو الأمريكية، لصورة العربي في وسائل الإعلام المختلفة، ويبدو أن هناك صورة للعرب لا يمكن تجزأتها أو التخلي عنها.

وقبل أن تستعرض بعض نماذج الصورة الذهنية (L'image) المرسلة من الذاكرة والإرث الحضاري والتاريخي والثقافي الغربي، والمعبر عنها عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، تلك الصورة التي يتلقاها الجمهور أو الرأي العام الغربي بشكل عام والفرنسي بشكل خاص، يجدر

بنا أن نميز بين مفهومين متداخلين إلى حد كبير:

الأول: يتعلق بمفهوم الصورة الذهنية (L'image)، ونقصد به «تلك التصورات العقلية الشائعة بين أفراد جماعة معينة، والتي تحدد اتجاه هذه الجماعة نحو شخص، أو شعب، أو فكرة أو شيء معين».

الثاني: يتعلق بمفهوم الصورة النمطية (Le Stereotype): ونقصد بهذا المفهوم تلك الصور الذهنية التي تتحول إلى صور «نمطية» عندما تتكرر على نحو ثابت وجامد، وتتسم بالتبسيط المفرط، والحكم القيمي العاطفي (طاش، ١٩٩٥، ص ١٠٥).

تجدر الإشارة إلى أن الدعاية الإعلامية سواء كانت عبر الصحافة المطبوعة أو المرئية أو المسموعة تعرّف على أنها «السعي المخطط والمنظم لتشكيل تصورات المتلقين، والتلاعب بمعارفهم، وتوجيه سلوكهم، وذلك من أجل تحقيق استجابات لديهم تتفق مع ما يريده الداعية» (عثمان، ١٩٩٢، ص ٨٢).

من جهته عرّف المفكر الفرنسي - ذو الأصل الجزائري - محمد أركون، الصورة، أو بشكل أصح التصور L'imagination، بالقول: «إن تصور فرد، أو مجموع اجتماعي، أو أمة: هو مجموعة التصورات المنقولة من الثقافات الشعبية في الماضي، كالملاحم البطولية، والشعر، والخطاب

الديني، أما اليوم، فيتم نقل هذه التصورات عن طريق وسائل الإعلام بشكل أساسي، ومن ثم المدرسي» (Arkoun، ١٩٨٩، ص ١٤).

ومن هذا التعريف يظهر - حسب تعبير محمد أركون - أن كل شخص، وكل مجتمع له تصورات المرتبطة باللغة المشتركة، فهناك تصورات فرنسية، إنجليزية، ألمانية، حول الإسلام، وهناك تصورات جزائرية، ومصرية وإيرانية وهندية... الخ حول الغرب (Arkoun، ١٩٨٩).

أما في ما يتعلق بمسألة الصورة العربية في الصحافة المطبوعة والمرئية الفرنسية، نجد أن الصورة المعطاة، تلخص المضامين السياسية والدينية للعلاقة بين الغرب والعرب، والتي جعلت من الموروث التاريخي وسيلة للحشد والضعيفة ضد العرب المسلمين، وإخراج الغرب من حرج الازدواجية الناجمة عن أخذه بالديموقراطية في عصرنا الراهن، اندفع لتبرير سياسته باستخدام وسائل الإعلام، وإعطاء صورة سلبية عن الإسلام والعرب مستغلاً كل ما يمكن أن يسيء إليهم وإلى قضاياهم. وقد اخترنا بعض النماذج فقط لهذا السلوك (الإعلامي - السياسي) الفرنسي، والتي على ما يبدو كان هدفها إعطاء صورة سلبية للعرب والمسلمين، عن طريق خلق انطباعات وتصورات «ذاتية» «تلقائية»، بحيث لا

يشعر الرأي العام والجمهور، أن هذا الأمر مقصود ومخطط له.

فنجد مثلاً ملصقات دعائية لقاموس لاروس Larousse الفرنسي، توضع بأمكنة بارزة بمحطات القطار، تحمل صورة رجل يرتدي ملابس عربية بهيئة مزرية، ويجلس على الأرض ماسكاً برسناً جملة بيده اليسرى، وبالقاموس مفتوحاً بيده اليمنى، ليعني أن العرب على جهلهم يقدرون هذا القاموس (أبو هلاله، ١٩٨٦، ص ١٦). وصورة أخرى تظهر احتقار العربي والمسلم للمرأة، مثل إعلان مثلجات «البوظة» حيث يظهر رجل على هيئة بدوي، يرتدي ثياباً رثة، ويمتطي جملاً في صحراء قاحلة وتقوده فتاة بدوية، يغطي وجهها حجاب سميك، ولا يبدو منه سوى العينين، وتسير أمامه وهي حافية القدمين، وفجأة يخرج البدوي قطعة البوظة من تحت إبطه ويلتهمها بنهم شديد (أبو هلاله، ١٩٨٦، ص ١٧). وأحياناً أخرى، تستخدم الصحف والمجلات الفرنسية المطبوعة، «هجوماً مباشراً وواضحاً لا لبس فيه، باستخدام الكلمات الجارحة، والشعارات الساخرة. فمثلاً صحيفة L'express التي يملكها اليهودي جيمس غولد سميث، تظهر على غلافها صورة الكعبة، في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٧٩م وقد كتب بالخط العريض «الإسلام يعني الحرب». أما في صحيفة باري ماتش

Paris - Matche نجد على الغلاف «الحرب المقدسة، مراسلون في النقاط الساخنة من العالم الإسلامي» (طاش، ١٩٩٣، ص ٨٩).

وبالنسبة إلى دور التلفزيون في نقل صورة الإسلام والعرب للرأي العام الفرنسي، نجد أن سبعة أعشار الفرنسيين يعتمدون في معلوماتهم ومرجعياتهم على التلفزيون، وهو لا يختلف في تعامله مع العرب والإسلام عن أسلوب الصحافة المطبوعة، بل إنه أكثر فاعلية وتأثيراً، لأن هناك الصوت، والصورة، واللون، ويأتي في كثير من الأحيان بشكل حي ومباشر (El - Kareh، ١٩٩١، ص ٦٣).

ولكي لا نضيع في الأمثلة المتكررة والمتعارف عليها للجميع، كتسليط الكاميرات على بعض العامة الذين يصرخون: «الموت للغرب» أو «الموت للإمبريالية والصهيونية» أو تسليط الكاميرات والأضواء على امرأة محجبة، أو رجل ملتجئ، سنعطي مثلين ولكنهما معبران عن الحكم المسبق والجهل المقصود أحياناً عن العرب والإسلام، فأثناء حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠، خرج مقدم أخبار القناة الثانية الفرنسية A2، ليقول: «رئيس لبنان المسلم الياس الهراوي» (El - Kareh، ١٩٩١، ص ٦٥). أما المثال الثاني فبطله برنارد بيفوه «Bernard Pivot» أحد أشهر مقدمي البرنامج الثقافي «Bouillon de

culture» في القناة نفسها، والذي استضاف في برنامجه التلفزيوني المفكر والمستعرب الفرنسي المعروف جاك بيرك، بمناسبة انتهائه من ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية، حيث طرح عليه السؤال الآتي: هل تُعدّ القرآن كتاباً مقدساً؟ وحين أجاب بيرك بالإيجاب، هب مقدم البرنامج صارخاً «ألا ترى أنه كتاب يدعو للحرب ونبذ السلام وأنه مسؤول عن مآسٍ كثيرة حلت بالإنسانية على يد المسلمين والعرب»؟ (كيلو، ١٩٩٤، ص ٢٣٢).

وقد شرحت الدكتورة مجالي موريس، أستاذة تاريخ العرب الحديث في جامعة السوربون، دور التلفزيون ومشاركته للصحافة في إعطاء صورة معينة للعرب والمسلمين قائلة، «من السهل إرسال» كاميرات التلفزيون للشوارع، والطلب من بعض الباعة المتجولين التعبير عن رأيهم في آيات شيطانية... أو الاستفسار عن وضع المرأة «المزري» في الإسلام، وهو موضوع، كما تقول الدكتورة موريس، يثير الخيال الغربي في علاقاته مع الشرق (Magali، ١٩٩٢، ص ١٢٤).

ويعلق الصحفي الفرنسي لوسيان بيتلرن على دور الإعلام وتأثيره، بقوله: «يلزمنا في الحقيقة ساعات طوال حتى يتسنى لنا تعداد الجرائد اليومية والدوريات الأوروبية، التي تلجأ إلى تضخيم الأحداث

الفعلية أضعافًا مضاعفة، ليس فقط لجذب القراء والمستمعين خدمةً لأغراضها السياسية، كما يؤكد علماء الاجتماع، بل أيضًا لهدف تجاري، إذ من حق التضخيم أن يزيد من مبيعات الجرائد ومبيعات البرامج البصرية (التلفزيون) والسمعية (الإذاعة) (بيترلن، ١٩٨٢، ص ١٢٢). وهنا يظهر العربي، وكأنه وسيلة ربح وتشويق للرأي العام، ولجمهور القراء الفرنسيين مع وجود أهداف سياسية خفية تظهر إلى السطح حسب الحاجة والظروف السياسية والمصلحة الوطنية لفرنسا. وقد انتبه لهذه العلاقة بين «الحدث» و«عملية التسويق» والعلاقات السياسية المفكر والفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي في كتابه الهدامون Les Fossoyeurs حيث يقول:

«أصبح الإعلام أولاً سوقًا هائلة، أكثر اتساعًا من سوق الصناعة وسوق المال، ضمن نطاق «رأسمالية وسائل الاتصال» المتممة للثالث الذي يشكل أساس الترابط الاجتماعي. فجاء بيع قنوات التلفزة في فرنسا إلى القطاع الخاص، تبعًا للنموذج الأمريكي، ليجعل «الحدث سلعة تفضل على ذوق الزبون. وأصبحت الأخبار والاستعراضات مسندًا للإعلانات التي تتحكم بتمويل البرامج وانتقاء مقدميها تبعًا لمؤشر نسبة الاستماع والمشاهدة. ويُعدّ سادة الإعلام الكبار، من أمثال مردوك

وماكسويل في بريطانيا، وهيرسانت في فرنسا، يرون الإعلام - والأخبار - سوقًا كغيرها، تباع فيها الصور والمشاهد كما تباع الأحداث والوقائع. وكما أن ثلاث وكالات أنباء وهي رويتر ووكالة الصحافة المتحدة الأمريكية ووكالة الصحافة الفرنسية، تغربل وتفرز للعالم كله ما ينبغي قوله و«رفعه» إلى مرتبة «الحدث» وما لا ينبغي أن يحظى بهذا المقام. بالإضافة إلى ذلك هناك وكالة تبادل الأخبار الفيديوية التي تحدد ما يجب أن يشاهد وما لا يجب. وبالطبع، الذي يجب أن يشاهد هي الأفلام التي تخدم صورة العربي الرديء أو المسلم الرديء (Garaudy، ١٩٩٢). وقد حدث في العام ١٩٨٨ أن توفي ثلاثة آلاف شخص في السودان، وجرت مجزرة في زائير راح ضحيتها ثلاثماية طالب جامعي. ولكن الكاميرات التلفزيونية ظلت موجهة على ثلاثة حيطان احتجزها الجليد في ألسكا».

ج - صورة العرب في الكتب المدرسية:

إذا كانت وسائل الإعلام، من صحافة مطبوعة، وصحافة مرئية، قد أسهمت بشكل واضح ومؤثر في إعطاء صورة سلبية، وقاتمة للرأي العام الفرنسي عن العرب، فما هو الدور الذي لعبته المقررات المدرسية؟ لقد قامت جمعية «الإسلام والغرب» وهي جمعية تحاول، التقريب بين وجهات

النظر الغربية ووجهات نظر الأقليات الإسلامية في أوروبا وخاصة في فرنسا، فقدمت دراسة حول الكتب المدرسية في المرحلة الثانوية وقد جاء فيها: «إن معظم الكتب المدرسية في أوروبا الغربية وفي فرنسا بالذات، تجمع على أن الرسول (ص) كان تاجرًا ونبياً وقائداً، وأن شخصيته شاذة نوعاً ما، فهو قد قضى طفولته معذباً وتزوج من خديجة زوجاً مصلحياً، وأنه كان يسعى إلى تحقيق مآرب سلطوية ومادية عبر الدعوة إلى الديانة الإسلامية، على أساس أنه كان محباً للمال، ويحلم بالمركز والسلطة والحكم» (طاش، ١٩٩٣، ص٧٨).

أيضاً فقد قام الباحث اللبناني / مارسيل بوازار بتقديم رسالة ماجستير في جامعة تولون عام ١٩٨٠، عن صورة الإسلام في القرون الوسطى عبر الكتب المدرسية من ١٩٤٥-١٩٧١، وقد لاحظ أن الحضارة الإسلامية حظيت بنصيب ضئيل من الذكر في الكتب المدرسية. ويعرض بوازار نماذج لما ورد في هذه الكتب المدرسية عن الإسلام والعرب، كوصف النبي (ص)، بأنه «شخصية مستبدة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام». وأنه أخرج من مكة، فظل مشغولاً باسترجاعها حيث التجأ للعنف وبث روح التعصب عند أنصاره الذين وعدهم بالجنة.

من جهتها، قامت الباحثة اللبنانية مارلين نصر بدراسة حول «صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية» حيث تكمن أهمية هذه الدراسة، في أنها حديثة نسبياً، صدرت في العام ١٩٩٥ وبالتالي فإنها تعطينا صورة نموذجية، كاملة متكاملة، لرؤية الفرنسيين للعرب والإسلام. لقد وجدت الباحثة، أن صورة العربي في كتب المرحلة الابتدائية كانت سلبية، خاملة، ومتخلفة، ويتميز دورها بالعداء تجاه الآخرين. هذا إلى جانب أن الصورة المعطاة باستمرار عن العرب، على أنهم «بدو صحراء» (نصر، ١٩٩٥، ص٢٩)، في حين نجد أن صورة الفرنسي كانت على العكس تماماً، فهو يتصف بالتفوق والذكاء، والرقية، مما ينشئ لدى القارئ الفرنسي، الشعور بالدونية تجاه كل من هو ذو أصول عربية أو إسلامية.

أما في المرحلة الثانوية، فقد وجدت الباحثة اختفاء صورة العربي من الصفات الإيجابية، فقد وردت إشارات إلى أنه يقاتل بشجاعة في العصور الوسطى على الرغم من هزيمته المحققة، وهناك الكثير من السمات السلبية التي الصقها الفرنسيون بالعرب ومنها: الغزو والعدوانية والتطفل، الكسل والبطء والتراخي، الفشل والهزيمة في كل مواجهة، ولا سيما مع الفرنسيين.

بسط هيمنتها على الشرق الأوسط»، ثم قامت بإخلاء سيناء عام ١٩٨٢. وترى الباحثة اللبنانية مارلين نصر، أن هناك خلطاً وتداخلاً في ذهن وفكر الأوروبيين والفرنسيين في المفاهيم المتعلقة بالشرق، كعدم التمييز بين تعبيري (الإسلام، والعرب) وتعبيري (الإسلامي والعروبي)، حيث نجد خلطاً واضحاً ما بين ثورة جمال عبد الناصر والمظاهرات المؤيدة له، وما بين ثورة الخميني ١٩٧٩ وتعطيها مضموناً واحداً (نصر، ١٩٩٥، ص ٢٢٠).

أما في ما يتعلق بالدين الإسلامي، فقد صورته الكتب المدرسية الفرنسية، على أنه دين خضوع، تكوّن بشكل أساسي من مجموعة من القواعد والشعائر والممارسات الخاصة بالتوسع العسكري والجغرافي. أضف إلى ذلك، أن كتب التاريخ حاولت تبرير الحروب الصليبية، بالقول إنها كانت لإنقاذ قبر المسيح وحماية الحجيج من اعتداءات المسلمين، وبمعنى آخر، خلعت على تلك الحروب دوافع دينية، إنسانية، وأخلاقية، ولم تذكر الكتب الأسباب الحقيقية لهذه الحملات العسكرية، السياسية، الاقتصادية.

ولإتمام الصورة المعطاة عن العربي في الكتب المدرسية، سنشير أخيراً، إلى الموسوعة الثقافية الفرنسية، التي تُعدُّ أهم

وهنا نلاحظ، أن الصورة المعطاة للعرب والإسلام في مقرر التاريخ بالمدارس الفرنسية، ليس إلا إنعكاساً للتراكم التاريخي والثقافي للصورة الشرقية والعربية منها، في ذهن العديد من المفكرين الفرنسيين والغربيين. فمنذ ميكافيلي وجان بودان، وبشكل خاص، شارل مونتسكيو، فإن الفكر الأوروبي ينظر للشرق، من خلال المقارنة بين الاستبداد الشرقي والديمقراطية الغربية. حيث أصبح هذا الفكر نموذجاً (Archetype) في عصرنا الراهن.

أما في ما يتعلق بالتاريخ المعاصر والقضية الفلسطينية، التي هي أحد محاور الصدام والاختلاف بين العرب والغرب، فعلى الرغم من النصر - على الأقل السياسي - لجمال عبد الناصر عام ١٩٥٦، وعلى الرغم من «نصف الانتصار» عام ١٩٧٣، في حرب رمضان، الذي استطاع أن يكسر الحاجز النفسي للعرب تجاه الدولة العبرية، إلا أن الكتب المدرسية الفرنسية - التي تعبّر بشكل أو بآخر عن التفكير الغربي العام التي تتجاهل هذه الحقائق وترفضها جملة وتفصيلاً، وتدعي لنفسها الحيادية، والموضوعية والدقة قائلة: «لقد خاضت إسرائيل في عام ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ على التوالي ثلاثة حروب ظافرة». وتقول كذلك «تمكنت إسرائيل خلال الحربين الظافرتين الأخيرتين ١٩٦٧، ١٩٧٣ من

العربي والإسلامي بسبب عدم الدقة،
والحكم المسبق (Arkoun، ١٩٨٩،
ص ١٣).

وقبل أن نختم في هذا الموضوع، يبدو
لنا أن اختيار الكتب المدرسية الفرنسية
والثقافية لبعض المختارات الأدبية والفنية،
عن العرب والإسلام، تؤكد ما ذهبنا إليه منذ
البداية، وهو أن هناك «روحاً فكرية واحدة»
تشكل وتتلون حسب الوقت، وحسب
المصلحة الوطنية، وحسب الظروف
السياسية. يكفي أن نذكر هنا بعض عناوين
القصص والروايات التي كانت الأساس في
مراجع الكتب المدرسية لتتحدث عن نفسها،
فمثلاً هناك عنوان في «بلد الخوف» «Au
pays de la peur»، «القتال ضد العرب»
«Le combat contre les maures»، «أفضل
الصحراء» «Je préfère le desert»، «أجانب
غرباء» «Etranger étrangers»، «البطالة»
«Le Chomage».

وهنا سؤال يطرح نفسه: هل طبقت
ونفذت المدارس الفرنسية تعليمات
وتوجيهات وزارة التعليم الفرنسية والتي
دعت ولا تزال تدعو، إلى إختبار المواضيع
التي تدعو إلى الانفتاح على الثقافات
«واحترام الاختلافات» وإلى إدانة العنصرية
المعادية للأجانب والعرب، إدانة شديدة،
إضافة إلى تشجيع التعرف على الثقافات
الأجنبية عامة والعربية خاصة؟ وهل هذه

المراجع المعرفية والمعلوماتية للطلبة
والمتقنين وغيرهم... فيصف بيدرو المحرر
في هذه الموسوعة الرسول الكريم (ص)
بأنه «قاتل دجال، وخاطف نساء، وأكبر عدو
للعقل الحر» (أبو غنيمة، ١٩٨٩، ص ١١٦).
أما موسوعة «تاريخ الجنس البشري
وتقدمه الثقافي والعلمي التي أصدرتها
منظمة اليونسكو، فتقول عن الإسلام إنه
«تركيب ملفق من المذاهب اليهودية
والنصرانية، بالإضافة إلى التقاليد الوثنية
العربية التي أبقى عليها الإسلام كطقوس
قبلية تجعلها أكثر رسوخاً في العقيدة» (أبو
غنيمة، ١٩٨٩، ص ١١٦).

وبعد كل الصور المشوهة والمغلوبة
في معظم الأحيان، هل من الممكن الحديث
عن إمكانية تكوين معرفة علمية للإسلام في
الغرب؟ أو بشكل أصح «الحديث عن تخيل
أو تصور حقيقي غربي للإسلام»؟

هذا هو السؤال الأساسي الأول، الذي
طرحه المفكر محمد أركون، في كتابه
«انفتاح على الإسلام» (Ouvertures sur
L'islam) حيث يظهر من خلال هذا الكتاب،
عدم وجود حيادية، وموضوعية، من قبل
الإعلام، والمتقنين الغربيين الفرنسيين في
دراستهم للإسلام وللعرب، بل يظهر
الكاتب، أن هناك تياراً يحاول أن يكرس
الصورة القديمة الحديثة للإسلام وإبقاء
حالة العداء والصدام بين أوروبا والعالمين

الدعوة والتوجيهات، ترجمت على أرض الواقع في المدارس والكتب والمقررات المدرسية في فرنسا؟!؟

د - العربي / المسلم ومشكلة الهوية والإندماج:

في ظل المناخ الإعلامي الفرنسي المعادي للإسلام والعرب، والمعبر عنه بوضوح من خلال وسائل الإعلام المختلفة، كيف يمكن أن يفسر الجدل الكبير الذي يدور في فرنسا منذ مدة حول سؤال هام: هل ينبغي أن يندمج Intégrer المهاجرون تمامًا في المجتمع الفرنسي، ويكون بذلك مجتمعًا متعدد الثقافات ما يسهم في إثرائه وتقويته، أم أنه سوف يحافظ على أحادية الثقافة والهوية والعادات والتقاليد؟

يقول ديدييه باديني صاحب كتاب (المهاجرون مع فرنسا أم ضدها): «لقد اعترفت فرنسا دائمًا بالحق في الاختلاف فأصبحت منذ فترة طويلة وكأنها بوتقة تنصهر فيها الأجناس كافة، وتتعايش جنبًا إلى جنب كل الجاليات الدينية من الكاثوليكية إلى البروتستانتية إلى اليهودية» (الشوباشي، ١٩٩٢، ص ٥٩). وإذا كانت هذه المقولة تنطبق على الأجناس والأديان المختلفة، فمن الواضح أنها لا تسري على الجاليات العربية والإسلامية، فهذه المناقشة حول «ثقافة واحدة أم ثقافات متعددة؟» موجهة بصفة أساسية إلى ما يفرزه الوجود

العربي الإسلامي من صدام حضاري مع المجتمع الفرنسي. إن هذا الصراع الحضاري، يتمثل من خلال قضايا طالبات الحجاب الإسلامي والهوية الثقافية، وإلقاء اللوم على المهاجرين على أنهم سبب البطالة والجريمة.

ولذلك، فإن الجبهة الوطنية المتطرفة Le Front National التي يقودها جان ماري لوبن، تُعدّ المبرر الأساسي لوجودها، هو تمثيلها للثقافة والهوية الفرنسية، التي تدعي أن الأحزاب السياسية الأخرى وأجهزة الإعلام، لا تعبر عنها بصدق، كما أنها تتحرك بدعوى الدفاع عن التقاليد الفرنسية التي هي أقدم من دستور الجمهورية الخامسة (عبد الناصر، ١٩٩٤، ص ٩).

وما يلفت النظر، أن الرأي العام الفرنسي - وحتى الواعي والمثقف منه - لا يقبل بشكل طبيعي وإرادي، التسليم بأن المسلم، أو الإسلام، جزء داخلي من المجتمع الفرنسي، حتى لو لم يكن هذا المسلم أجنبيًا دائمًا، وإنما قد يكون أحيانًا مواطنًا فرنسيًا، أو فرنسيًا اعتنق الإسلام (Morsy، ١٩٩٢، ص ١١٩).

وهناك بعض الباحثين والمهتمين في مسألة الهجرة والهوية الفرنسية، يشيرون إلى وجود فكرة شائعة في المجتمع الفرنسي مفادها: أن الثقافة العربية القائمة

في العمل أو المقهى. أما العربي المهاجر إلى أوروبا فإنه يفهم كشخص غير مرغوب فيه، عاملاً كان أو لاجئاً سياسياً (الجابري، ١٩٩٥، ص ٨).

وهذا التحليل للجابري، لظاهرة العربي المسلم في أوروبا، تعكسه رؤية الشارع الفرنسي الذي ينظر إلى المهاجرين على أنهم يعيشون على «التعويضات العائلية» التي تصرف لهم من الدولة، وأنهم يستعمرون أحياء بكاملها كذلك فإنهم يغرقون المدارس الفرنسية بصغارهم وبالتالي فإنهم يخلون بالأمن.

إنطلاقاً من هذه التهم والحجج السابقة، كانت الجبهة الوطنية المتطرفة الفرنسية (FN) أول الأحزاب اليمينية الأوروبية، التي ربطت بين تردي الأوضاع في فرنسا، وبين قضية الهجرة، وأكدت منافسة المهاجرين للسكان الأصليين في الوظائف العامة والخاصة، في حين أن هناك إحصائية تظهر أن فرنسا بين عام (٢٠٠٠-٢٠٣٩) ستحتاج إلى ما بين ١٦٥٠٠٠، ٣١٥٠٠٠ مهاجرًا جديدًا سنويًا (عبد الناصر، ١٩٩٤، ص ١٦).

وهنا يجب الإشارة إلى أنه في فترة حكم الرئيس فرانسوا ميثيران (١٩٨١-١٩٩٥) ظهرت قضية التطرف والإرهاب والهجرة على السطح بشكل واضح وملحوس، حيث انقسم اليسار الفرنسي

على التعاليم الإسلامية تخلط بين الدين والسياسة، فيما الثقافة الأوروبية تفصل بينهما، وبالتالي، فالسؤال الذي يلاحق كل عربي أو مسلم هو: هل يمكن أن يتعايش المسلمون مع نظام علماني؟ وقد أجاب عدد لا يستهان به من الفرنسيين أن ذلك غير ممكن، وأيدهم في ذلك مرجعيات الجالية الإسلامية هناك، وهذا الأمر هو الذي يثير ردة الفعل العنصرية تجاهها، فالإسلام عند الفرنسيين يعني الأصولية، طالما أنه لا يفرق بين الدين والسياسة، وبالتالي فالأصولية هي قرينة العنف والتطرف (الشوباشي، ١٩٩٣، ص ١٩٩).

وقد انتبه لهذه «الجدلية في الهوية» بين الدين والسياسة، والغرب والشرق، والغربي والعربي، المفكر المغربي محمد عابد الجابري، الذي أصدر كتابًا بعنوان «مسألة الهوية: العروبة والإسلام... والغرب». حيث يختار المؤلف كمدخل للكتاب سؤالاً موجهًا إلى القارئ الفرنسي، ما هو العربي؟ وهو سؤال كما يقول: لا يحتمل إجابة واحدة، في الظرف الراهن على الأقل، لتعدد زوايا النظر لمن يوجه إليه السؤال، تعددًا ينبع أساسه من تعدد المصالح وتنوع الحساسيات، وهل السؤال يطرح من «موقع الأنا» أم من موقع «الأخر»؟ فالأوروبي - يقول الجابري - يفهم العربي كفرد قادم من منطقة فيها نطق وجماعات إسلامية، أو كمهاجر يزاحمه

حول قضية الهجرة، «فالييسار العمالي» يريد إيقاف الهجرة في حين أن «الييسار المثقف» كان متحفظاً على ذلك، وقد استفادت الجبهة الوطنية من شكاوي المواطنين التي بدأت تزيد يوماً بعد يوم، حيث جمعتها وعبرت عنها علناً، وبصوت مرتفع وقد استغلت هذا الأمر في الانتخابات التشريعية الفرنسية.

ومن المتناقضات التي صاحبت هذا الموقف، أن وسائل الإعلام الفرنسية بأشكالها المتنوعة والمتعددة، حاولت تهميش زعيم الجبهة اليمينية المتطرفة جان ماري لوبن واستبعاد دوره وأفكاره لأسباب تتعلق بالصراع الإيديولوجي على السلطة وليس لأنها تتعاطف مع المهاجرين والعرب والمسلمين ما أظهره أمام الجمهور الفرنسي، على أنه ضحية التعقيم الإعلامي والصحفي، ما ضاعف شهرته وقوة موقفه.

ولا شك في أن أوروبا، على الرغم من تفوقها المادي والتكنولوجي، فإنها تعيش حالة من الخوف والهلع من الآخر (الشرق)، وخاصة العالمين العربي والإسلامي، وتعبّر عن هذا الشعور تجاه الأقليات العربية والمسلمة في بلدانها، وهذا يفسر الحملات الإعلامية المنظمة، المدروسة والفاعلة، التي تحاول أن تخلق نوعاً من الدونية والنقص لدى الشعوب الأخرى بما فيها الأقليات

الموجودة في أوروبا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص.

إن الشعور بالرفض، والازدراء من المجتمع الفرنسي، تجاه الأقلية الإسلامية، يفسر رد فعل مدير معهد ومسجد باريس، د.ليل بويكر، عند ظهور كتاب آيات شيطانية باللغة الفرنسية عام ١٩٨٩، حيث يتطرق إلى وضع العرب والمسلمين في فرنسا بالقول: «لسنا جالية من الدرجة الثانية». ويبدو أن هذه الجالية - بغض النظر عن كونها جالية من الدرجة الأولى أو الثانية - غير مرغوب فيها في فرنسا، وهذا الأمر نلمسه من خلال مصطلح «الطبقات الجديدة الخطيرة» «Les nouvelles classes dangereuses» لوصف أبناء هذه الجالية.

وقد اشتد التخوف الفرنسي والأوروبي بعد تفكك الكتلة الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق، وانهايار جدار برلين ١٩٨٩، إضافة إلى بروز المشاكل الاقتصادية، المتمثلة بالبطالة ٥.١١٪، والتضخم، وارتفاع معدل الجريمة، والهجرة الخفية، ولذلك كان على أوروبا البحث عن عدو جديد، ولو كان وهمياً لتوحد قواها، وتنهض هممها، وتعد العدة لمواجهة بالحديث عن قضية الهوية الوطنية، حتى أن إشكالية الهوية الفرنسية أصبحت إشكالية الهجرة.

وقد أشار إلى هذا الموضوع أيضاً

المفكر المغربي محمد عابد الجابري بطريقة أكثر عمقاً ووضوحاً، متطرقاً إلى المستقبل فيقول: «إن المستقبل يتحدد بوجود الآخر وبمقارنة أنفسنا به، فمعطيات الحاضر تتحدد بمحددتين إثنتين:

أ - إسرائيل بتموحياتها الصهيونية.

ب - الغرب بمصالحه الإمبريالية» (الجابري، ١٩٩٥، ص ١٤٠). ولذلك فإن «الأخر» ينظر إلى الإسلام والقومية العربية كخطر عليه خاصة بعد زوال الخطر الشيوعي.

وقد أشار الجابري كذلك، إلى أن أوروبا منذ العصور الوسطى، حاولت أن تكون مركز العالم ومحوره، سواء عن طريق نظرية البابا لتوحيد العالم تحت الراية المسيحية، أو سواء عن طريق الفلسفات التي حاولت أن تؤكد - محورية أوروبا - من خلال كتابات وفلسفات كانت وهيكل ومونتسكيو وماركس، فهل يعني ذلك جهلاً بالآخر؟ يجيب الجابري ليس للجواب على السؤال صفة الإيجاب أو الإثبات. لأن الغرب - برأيه - لم ينغلق على نفسه، بل راهن إستراتيجياً على غزو الآخر (الشرق) كما راهن معرفياً على تفكيكه وتجزئته وفهم آليات مدنيته وذلك من خلال الاستشراق. وقد كانت لإدوار سعيد، كما يؤكد الجابري، قوة النفاذ إلى عمق بنى هذا الآخر وأدواته وإزالة الستار عن أسسه في مؤلفه الرائد

«الاستشراق» (الجابري، ١٩٩٥، ص ١٣٤). إن هذا التحليل يبدو منطقياً ومقبولاً إلى حد ما، لأننا نرى بعض الكتاب الغربيين، أمثال ماكسيم روندسون الفرنسي، يشير إلى صاحب كتاب الاستشراق وكتابه قائلاً: «إن الاستشراق اليوم في قفص الاتهام، بسبب ذلك الشيطان إدوارد سعيد على الأخص. من جهته عبر الكاتب البريطاني - من أصل عربي - ألبرت حوراني عن دور إدوارد سعيد في خلخلة الاستشراق قائلاً: «لقد بات من المستحيل تقريباً استخدام تعبير الاستشراق كمفهوم محايد، حيث بات تعبيراً قدحياً في المقام الأول» (Magazin Le Monde، ١٩٩٤، N4، ص ٣٩).

إن الاستشراق «كمدرسة فكرية» كما يراه إدوارد سعيد هو عبارة عن أداة استعمارية، مهدت للغزو الاستعماري، الذي أرسلها للكشف والتعرف عن قرب على الحضارة العربية والإسلامية وتاريخها وجغرافيتها ودينها من أجل استعمارها. ويرى إدوارد سعيد أن هذا الأمر لم يتغير حالياً، فالاستشراق موجود الآن لصالح «الإمبريالية الأمريكية والإسرائيلية» والأدوات المستخدمة لا تزال كما هي لم تتغير. وهنا يطرح سؤال جدير بالتفكير والنقاش حول طبيعة العلاقة بين المعرفة والسلطة.

نحن من جهتنا، نؤكد أنه من الصعب

بالذات، لأن المشكلة في الغرب، كما يتضح، ليست مقتصرة على العامة، أو البسطاء كما يقال أحياناً، بل امتدت لتشمل المثقفين، والصحفيين، وغيرهم. وتتبلور هذه الصورة وتتضح من خلال تسليط الضوء على بعض الكتب والمقالات لهؤلاء المفكرين والصحفيين، والذين يقومون - بحجة - الفهم والتحليل، بالالتقاء ببعض المهتمين من العرب والمسلمين في فرنسا، وطرح أسئلة كبيرة، وحساسة، ومعقدة عليهم، وأخذ إجاباتهم على أنها تمثل الفكر الإسلامي ووجهة نظره.

فمثلاً يشير أحد الكتاب والمؤلفين باهتمام إلى جملة الطفل - من أصل جزائري - والبالغ من العمر ١٥ عاماً، والذي يقول فيها، «عندما يبدأ المسلم في طرح كثير من الأسئلة لا يعد مسلماً» (Leveau, Kepel, ١٩٨٨، ص ٦٥). لإعطاء الانطباع لدى القارئ الفرنسي، أن الدين الإسلامي دين جامد ولا يحث على التفكير والتطوير.

أو سؤال أحدهم لأحد الفرنسيين (أيوب)، الذي اعتنق الإسلام حديثاً لإجراء حوار مباشر معه بالشكل الآتي:

الكاتب: هل أنت من الإخوان المسلمين؟

أيوب: نعم، بالتأكيد.

الكاتب: هل تعتقد (مثلهم، أي مثل

فصل المعرفة عن السلطة - على الأقل الأيديولوجية - التي يتبناها الباحث، العالم، أو المستشرق، أو الصحفي، وإلا فكيف نفسر ظهور كتب تتغنى بالنصر الغربي على المعسكر الشرقي، أمثال صمويل هنتجتون في كتابه «صراع الحضارات»، وفرنسيس فوكوياما وكتابه «نهاية التاريخ»، وغيرهم؟

وقد عبر الصحفي الفرنسي إيريك لورا، عن هذه الحقيقة في مجال الإعلام، مخاطباً المشاركين في ندوة دولية عن الإعلام الغربي والعرب عقدت في لندن سنة ١٩٧٩م قائلاً: «إسمحوا لي - بادئ ذي بدء - أن أعترف بالتحيز، ذلك أننا معشر الصحفيين متحيزون بطريقة أو بأخرى. مَنْ يمكن أن يكون موضوعياً أكثر من المصور؟ ومع ذلك فإن نوع العدسة التي تستعمل، والزاوية التي يلتقط منها الصورة التي يريد، تؤثر في الصورة التي يمكن أن تخرج عن مصور آخر يمتاز بالموضوعية والتحيز كالمصور الأول. نحن لسنا أولاد الأنابيب والمختبرات، نحن بشر، ولكل منا ثقافته وخلفيته وجذوره. لكل منا فلسفته في الحياة وتجاربه وأيضاً حساسياته الخاصة» (لورا، ١٩٧٩، ص ٢١٧).

إن هذا الاعتراف - إذا اعتبرناه كذلك - يظهر صعوبة وحساسية وضع وموقف العرب والإسلام في أوروبا وفي فرنسا

الإخوان المسلمين)، أن اليهود من طبعهم الفساد؟

أيوب: نعم هذا كان دائماً وباستمرار (Briere، ١٩٨٣، ص ٣٢).

إن مثل هذه اللقاءات والإجابات تملأ الكثير من الكتب والصحف والمجلات، وحتى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في فرنسا. ولا شك أن هذه الآراء والأفكار، تثير حساسية المجتمع العلماني الفرنسي وتحفظه، ما يزيد من عمق الفجوة بين الشعب الفرنسي وجالياته الإسلامية.

من جهة أخرى، هناك أيضاً العناوين الكبيرة والرنانة (لغايات دعائية وتجارية) لكتب مفكرين معروفين مثل كتاب «الإسلام المتطرف» (L'islamism radical) لمؤلفه Bruno Etienne، أو كتاب «الإسلام حرب على الغرب؟» (L'Islam guerre a l'occident) لمؤلفيه Olivier Carree, Briere Claire وغيرها من الكتب المشابهة.

وهكذا أصبح الرأي العام الغربي سجين الصورة التي تقدم له عبر الوسائل السمعية البصرية، كما صار رهين استطلاعات الرأي، التي تصنع النتيجة المرغوب فيها من خلال نوع الأسئلة ونوعية المستجوبين، وظروف الاستجواب، وأيضاً من خلال النتيجة المعلنة نفسها.

وهكذا تبدو فكرة الاندماج، والانصهار للأقليات العربية والإسلامية في أوروبا عملية صعبة، إن لم تكن مستحيلة، على الأقل في ظل المناخ الإعلامي المعادي والمشوه، الذي يغذي العقل والفكر الغربي والفرنسي عن طريق وسائله المتعددة. ولهذا فإن الإعلام الفرنسي مطالب اليوم أكثر من أي وقت مضى أن يتمتع بالمهنية والموضوعية تجاه موضوع الأقليات المسلمة في فرنسا، عندها يمكن الحديث عن إمكانية الإندماج (integration)، والتأقلم (adaptation) والاستمرار في الحياة هناك، كرسلكسفر الحضارة الأخرى، الحضارة العربية والإسلامية.

الخاتمة

أخيراً، ماذا نستطيع أن نقول بعد هذه الجولة، في عالمين مختلفين، ومتصارعين، ومع ذلك لا يمكن تصور عالماً من دونهما معاً؟

لقد اتضح أن هناك استراتيجية إعلامية فرنسية سياسية، ثابتة ومخططاً لها، ومستمرة، معتمدة على التاريخ كمرجع، وعلى وسائل الإعلام كوسيلة، وصراع حضاري كغاية.

ويمكن القول، إنه ليس من السهل - ولا يعني ذلك الاستحالة - تغيير صورة العرب والإسلام في عقول الرأي العام، والشعوب

الغربية - ومنها الفرنسية - لأن هناك شعورًا بالتفوق والتميز، خاصة وأن الميزان الحضاري والعلمي لصالحهم. وقد عبر المفكر الفلسطيني هشام شرابي عن هذه الحقيقية قائلاً: «إن مصدر التشويه في الصورة العربية في الغرب، ليس مجرد جهل، ولكنه نمط محدد من المعرفة تمتد جذورها إلى عدا ديني وعرقي تجاه العرب والإسلام. وأن الإكثار من المعلومات عن العرب والإسلام وتحسين نوعيتها - كما يرى شرابي - غير كافيين لحل هذه المشكلة، فالحقائق في النتيجة، تذوب في نمط التفكير السائد الذي يصعب تغييره (شرابي، ١٩٧٩، ص ١٩٧).

وهذا الرأي أكده ولكن من منظور آخر، المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» حينما يقول: «إن الصور النمطية، وأساليب التعبير هي تعبير عن القوة المسيطرة، وبالتالي فإن أي محاولة جدية لتصحيح التشويه الممارس ضد الإسلام والعرب هي مسألة سياسية تتضمن استخدام القوة» (سعيد، الإستشراق، ١٩٨١).

وهنا يجب التأكيد أن الخلل في العلاقة الجدلية بين الغرب والإسلام والعرب، لا يعود فقط إلى الغرب وإنما أيضاً تعود إلى سلوكيات وممارسات العرب والمسلمين

السياسية، والدينية، والاجتماعية سواء على مستوى الدول أو الجماعات أو الأفراد:

أولاً: مشكلة العرب - كما يقول الدبلوماسي والكاتب الإيراني فريدون هيفودا في كتابه «ماذا يريد العرب؟» (Que Veulent Les Arabes?)، أنهم يريدون ويرغبون أشياء كثيرة، وغالبًا ما تكون هذه الأشياء متناقضة، فإضافة إلى المشاكل التي تفرض عليهم من الخارج، فإنهم يسببون لأنفسهم عراقيل لا تساعد في تحقيق طموحاتهم ورغباتهم. وما يريد قوله الكاتب الإيراني، أن هناك حالة من التشرذم والانقسام العربي الواضح في السياسة، والاقتصاد، والثقافة، وهذا كله يثبت الصورة السلبية المأخوذة عنهم في الغرب، لا سيما إذا اقترن الانقسام بالصراع والحروب الدائمة (Hoveyda، ١٩٩١، ص ١٨).

ثانياً: إن معظم الدول العربية، لا تحترم حقوق الإنسان، والأنظمة السياسية في معظمها أنظمة ديكتاتورية شمولية، مع تعدد أشكالها وألوانها، رغم إدعائها الدائم والمستمر أنها دول ديموقراطية أو تسعى لخلق نظم ديموقراطية.

ثالثاً: إن الممارسات الخاطئة من قبل الجماعات التي تدعي حمل رسالة الإسلام، والدفاع عن مبادئه، شوهدت قيم هذا الدين وهذه المبادئ، ما كرس الصورة المشوهة

مسبقًا في الفكر والرأي العام الغربي والفرنسي، والأمثلة كثيرة في أفغانستان ومصر، والجزائر وغيرها.

رابعًا: إن الأقليات الإسلامية والعربية في فرنسا بالذات، كانت من الأيدي العاملة ذات الثقافة البسيطة جدًا، ما انعكس على سلوكياتهم، التي لا تتلاءم والمجتمع الفرنسي الذي يعيشون فيه، وكل هذه الممارسات ساعدت، وبلورت، وأكدت الصورة النمطية التي كان يملكها الفرنسي بشكل خاص والغربي بشكل عام.

وبناءً على ما سبق، نرى أنه من الضروري إيقاف المؤتمرات والندوات التي تحمل عناوين مثل (الشرق الأوسط وأوروبا) أو (أوروبا والبحر والمتوسط) أو (اللقاء المسيحي الإسلامي). وهذه الدعوة لا تهدف - كما يبدو للوهلة الأولى - إلى قطع الاتصال والحوار مع الآخر، ولكن تهدف إلى إعطاء الفرصة للمتخصصين في مجالات السياسة، والاجتماع، وعلم النفس، والإعلام من أجل إيجاد صيغة وآلية تسمح بتغيير العقلية وطريقة التفكير، من خلال وسائل الإعلام والكتب المدرسية - ليس فقط في أوروبا ولكن أيضًا في العالم العربي والإسلامي - لأننا نعتقد أن لقاءات القمة العربية الأوروبية، وأن لقاءات النخبة الثقافية، ليس لها أثر يذكر على صعيد تغيير عقلية الرأي العام والشعوب.

وفي النهاية، لا بد من الإشارة أيضًا إلى ضرورة انتهاج سياسة إعلامية عربية - إذا أردنا التخفيف من حدة هذه الصورة وليس إلغائها - مشابهة للسياسة التي اتبعتها الصهيونية في أمريكا، والتي أثبتت نجاحها وفعاليتها، حيث تعتمد هذه السياسة على:

أولاً: تحليل علمي لواقع المجتمع الغربي ونقاط قوته وضعفه. ومعرفة دقيقة للقوى المؤيدة والمعارضة والمحايدة، ثم رسم سياسة إعلامية ودعائية على أساسها، للتأثير على هذا المجتمع.

ثانيًا: تنظيم دقيق قوامه الجاليات العربية التي يمكنها التغلغل في سائر مجالات المجتمع، بهدف شرح المواقف والقضايا العربية، إضافة إلى استخدام الصوت المسلم والعربي بشكل خاص في الانتخابات البرلمانية وغيرها، كذلك ضرورة الانتماء إلى الأحزاب القائمة هناك، وأن يكون لديهم مرشحين إلى الندوات النيابية بغية إيصال الصوت المناسب لهم.

ثالثًا: ضرورة أن تتوحد جهود المبدعين المسلمين والعرب في عموم أوروبا والغرب عامة في مجالات الطب والهندسة والأدب وغيرها من حقول المعرفة، إضافة إلى أساتذة الجامعات وهم كثر من أجل أن يشار إلى أن العقل الإسلامي والعربي تمامًا مثله مثل العقل

- العربي منذ عام ١٩٦٧»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٠٦.
- بيتزلن لوسيان، دور الإعلام العربي في أوروبا، مجلة شؤون عربية، عدد ١٧، يوليو ١٩٨٢، ص ١٢٢.
- الجابري، محمد عابد، «مسألة الهوية: العروبة والإسلام... والغرب»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٦٧.
- جعيط، هشام، «أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة» دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٣.
- حوراني، ألبرت، «الإسلام في الفكر الأوروبي»، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٤، ص ٩.
- الدجاني، أحمد صدقي، «العلاقات العربية الأوروبية بعد عقد من الحوار»، منظمة الأقطار العربية المصدرة للبتترول، الكويت، ١٩٨٠، ص ٦.
- سعيد، إدوارد، «الإستشراق»، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٤٦.
- سلامة غسان، «العرب والمسلمين في كتابين جديدين»، مجلة الفكر العربي، السنة الثانية، العدد ١٤، ١٩٨٠، بيروت، ص ٢٢٣.
- الشوباشي، شريف، «هل فرنسا عنصرية؟ إشكالية الهجرة العربية والإسلامية في أوروبا»، مركز الأهرام للنشر والتوزيع، لاقاهرة، ١٩٩٢، ص ٥٩.
- طاش، عبد القادر، «الإعلام وقضايا الواقع الإسلامي»، مكتبة العبيكان - الرياض، ١٩٩٥، ص ١١١.
- طاش، عبد القادر، «صورة الإسلام في الإعلام الغربي»، الزهراء للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٤٨.
- عبد الناصر، هدى، «صعود اليمين المتطرف في فرنسا في الثمانينات»، السياسة الدولية، أكتوبر، ١٩٩٤، عدد ١١٨، ص ٩.
- العربي/ عثمان، «الدعاية، النظريات والتوجهات الحديثة»، مطابع دار طيبة، الرياض، ١٩٩٣، ص ٨٢.
- علاء الدين، بكري، «حول كتاب أوروبا
- الغربي في الإبداع والمعرفة من أجل أيضًا إيصال الصوت المناسب.
- رابعًا: وضع ميزانية مالية خاصة من الجهات المعنية (دول عربية، مؤسسات خاصة، مراكز أبحاث) وغيرها... تساعد على تنفيذ هذه المقترحات.
- فإذا طبقنا هذه الاستراتيجية بمهنية، وبفاعلية، وبمرونة، عندها - وعندها فقط - نستطيع أن نشكل ونكون رأيًا - فرنسيًا غربيًا - إن لم يكن مؤيدًا لقضايانا، يمكن أن يكون محايدًا، وبالتالي يمكننا مناقشة علاقة الغرب - ومنها فرنسا - مع العالم العربي والإسلامي بطريقة أكثر موضوعية وفعالية وأكثر إيجابية.

الهوامش

- أبو حسان، محمد، «الأقليات الإسلامية بين تحديات الحاضر وآمال المستقبل»، مجلة الندوة، العدد ٤، عمان، ١٩٩٥، ص ٦٩.
- أبو صالح عباس، «الأمراء التنوخين والحملات الصليبية»، مجلة الفكر العربي، العدد ٢٨، السنة الرابعة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٤.
- أبو غنيمه زياد، «السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية»، دار عمان، ١٩٨٩، ص ١١٦.
- أبو هلاله يوسف محيي الدين، «الإعلام الغربي المعاصر وأثره في الأمة العربية»، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ١٩٨٦، ص ١٦.
- بوزاني، السندور، «تطور أوروبا الغربية للحضارة العربية وتجاوبها معها: عرض تاريخي وتفسير»، مجلة شؤون عربية، عدد ٢٨، حزيران، ١٩٩٣، تونس، ص ٦٦.
- بوقطار، حسان، «السياسة الفرنسية إزار الوطن

- "L'express", 22 Octobre 1973.
- Arkoun Mohammed, "Ouvertures Sur L'Islam", Ed Grancher, Paris, 1989, P14.
- Aron Raymond: "Mémoire 50 ans de réflexion politique", Ed Juillard, Paris, 1983, p 498.
- Briere Claire, Carre Olivier, "Islam Guerre à l'occident?" Ed autrement à ciel ouvert, Paris, 1983, P32.
- Cesari Jocelyne, "être musulman en France: Associations, Militants et Mosquées", Ed karthala, Paris, 1994, p10.
- Claude Liauzu, "L'orient miroir de la crise de l'occident", Revue d'études palestiniennes, 8ème années 1988, V38, p 166.
- Dany Serg, "Avant et après L'image". Rvue d'études palestiniennes 10ème années, 1991, V40, P52.
- El - Kareh Rudolf. "Les Médias Français et la crise du Golfe", Rvue d'études palestiniennes, 10ème année, 1991, V38, p 72.
- Ibid, P 65
- Leveau, Rémy, Kepel Gilles, "Les Musulmans dans la société Française", Ed Presses de la foundation nationale des sciences politiques, Paris, 1988, P 65.
- Maalouf Amin "Les Croisades Vues par les arabes" Ed, jclattes, Paris, 1989.
- Magazin le monde Arab dans la recherché scientifique (M.A.R.S) 1994, N4. Ed I.M.A, P39.
- Morsy Magali "Rester musulman en société étrangère", pouvoir, N62, Ed P.U.F, 1992, P 124.
- Rodinson Maxim, "La Fascination de L'Islam", Ed libraire François Maspero, Paris, 1980, p27.
- Roger Garaudy, "Les Fossoyeur", Ed Arhipel. Paris, 1992.
- Seurin J.Louis, "Cours de théorie politique", Faculté de Droit, Des Sciences Sociales et Politiques de Bordeaux, 1989, p.36.
- والإسلام، مجلة الفكر العربي، السنة الثانية، عدد ١، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٩٠.
- فوكاياما فرنسيس، «نهاية التاريخ»، ترجمة وتعليق الدكتور حسن الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٩٣، طبعة أولى.
- كيلو ميشيل، نظام التضليل العالمي مجموعة باحثين، ترجمة غازي أبو عقل، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩٤، ص ٢٢٩.
- لورا إريك، «مفاهيم خاطئة في وسائل الإعلام»، أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية، لندن، منشورات وزارة الإعلام والثقافة- الإمارات العربية المتحدة، ١٩٧٩، ص ٢١٧.
- مصالحة محمد، «الاتصال السياسي»، دار وائل للنشر، عمان، ص ١٥٢.
- نصر مارلين، «صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٩٢.
- هنتغتون صموئيل، «صراع الحضارات»، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣.
- يسين السيد، «الشخصية العربية: بين صورة الذات ومفهوم الآخر»، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣، طبعة ١، ص ٩٢.

منزلة الإبداع في ميزان النقد وجدلية الأخلاق والإباحية المطلقة في بسط الآراء الشخصية

نزير عادل الدهيبي

احترمت، راعت شعور جمهورها؟ سئل فرويد ذات مرة عن الأساتذة الذين أثروا في تكوينه، فكان جوابه إشارة من يده نحو مكتبته حيث اصطفت روائع الآداب العالمية. وليس يعنينا من جواب فرويد المسرحي إظهار موسوعية ثقافته قدر ما يهمننا إظهار الصلة الوثيقة بين الآداب وعلم النفس. من هنا العلاقة الوثيقة بين الأدب والنفس. كما أنّ الشعراء هم علماء النفس الأوائل الذين سهلوا لمن جاء بعدهم من علماء العصور الحديثة، اكتشاف أقاليم النفس المعتمة (*). ومن هذا المنطلق قسمنا أو صنفنا الأدباء إلى صنفين:

* كاتب أصيل بفن أصيل.

* كاتب أصيل بفن غير أصيل.

أما بالنسبة إلى الأمور العالقة، نأخذ على سبيل المثال لا الحصر قضيتين: المرأة والدين. فالكاتب الأصيل بالفنّ الأصيل هو ذاك الذي يتناول الأمور المصيرية

يشهد الأدب بشتى أنواعه، وفي كل مكان، وعلى مر العصور، تطوراً تفرضه الأحداث، فينصاع الأديب لهذه التطورات، لما يحمل في نفسه من مشاعر وأحاسيس، تفرض عليه التعليق عليها من خلال فنه وأدبه والتي عادة ما تكون أليمة ومصيرية، بمعنى آخر، إنسانية بحتة.

ولا ننكر أن بعضاً من دول العالم، قد استطاعت أن تعالج هذه القضايا الإنسانية العالقة، وإن بشكل نسبي، وذلك بفضل وعي جمهور تلك الدول، وفضل أدبائها. ونحن في وطننا العربي نعاني هذه المشكلة، ومنذ زمن بعيد، ولم نجد لها حلاً ولو بنسبة محدودة. ولهذا عدة أسباب، منها الجمهور أي الشعب، والأدباء والفنانون والسلطة والاستعمار و...

وما يهمننا في بحثنا، الأديب الذي أبدع من الناحية الفكرية. لكن هل إبداعاته وجدت آذاناً صاغية لها؟ وهل إبداعاته تلك

والمتعلقة بالإنسان والمجتمعات، بطريقة
فنية وإبداعية رائعة، تحترم مشاعر
جمهوره. أما الكاتب الأصيل بالفنّ غير
الأصيل، فذاك الذي يتناول هذه الأمور
بطريقة إبداعية وفنية رائعة، لكنه لا يراعي
مشاعر جمهوره أو البعض منهم. ومن
هؤلاء الأدباء نأخذ مثلاً نزار قباني. فنزار
يتناول قضية المرأة، يتباهى بجعلها عارية
أمام الجمهور، ويتغنى بمفاتن جسدها،
متناسياً أنّها إنسانة لها كرامتها ومشاعرها،
وإنّ لها الفضل الكبير في بناء المجتمعات،
وأنها مع الرجل جسم متكامل، ولا ينكر هذا
إلا كل جاحد وغير عاقل. ولا ننكر أصالة
نزار، ولو كان القصد غير ما نقول، لكنه
بهذه الطريقة يفرّ من قراءة شعر قسم كبير
من الجمهور، وهذا ما عبناه على نزار.
يقول:

«طارحيني الحب... تحت الرعد، والبرق

اصلبيني بين نهدك مسيحاً»^(١)

«عارية أنت... كنصل السيف

ونهدك يحملني... ويطير»^(٢)

«وتعري

فأنا أعرف أن لن تجدي
غاية فيها تنامين كصدري»^(٣)

«كنت جعلت نهدها

حمامة شامية»^(٤)

«خلي نهدك فوق سريري

يحفر قدره

كي لا يروي يوماً عني

أني كنت أضاجع.. شجرة»^(٥)

«كان في صدرك ديكان جميلان

يصيحان كثيراً

وينامان قليلاً»^(٦)

«كان نهدك خروفين صغيرين

وكانا يأكلان العشب من صدري»^(٧)

الأمر الذي حدا البياتي على أن يتهم
نزار في حديث لإحدى المجلات، أنه يكتب
شعراً يلائم الذوق العربي المتخلف، مثل
بعض الأغاني الرخيصة، وأنه يكتب من أجل
التسويق وبيع الإنتاج. همّهُ التّعبير عن
أحاسيس قارئه نصف المثقف لا التّعبير عن
أحاسيسه هو تجاه المرأة^(*).

وأيضاً مسألة الدين، تلك القضية التي

(١) أشعار خارجة عن القانون - نزار قباني - ص ٢٠.

(٢) ن م ص ٤٤.

(٣) ن م ص ٨٢.

(٤) ن م ص ٨٧.

(٥) ن م ص ٥٤.

(٦) ن م ص ٩٠.

(*) النرجسية في أدب نزار قباني - د. خريستو نجم - دار الرائد العربي - بيروت - ١٩٨٣ - ص ٩.

لم تحل حتى الآن وعلى الرغم من خطورتها، نرى بعضاً من أدبائنا يتناولونها من دون مراعاة شعور جماهيرهم، فمحمد الماغوط عندما يتناول قضية الفقر والظلم، يبدأ بلوحة فنية رائعة، لكنه سرعان ما يختمها بإلحاد صمّ بعض الأذان، وفرّ معظم جمهوره منه، يقول بهذا الصدد:

«إنني أعد ملفاً ضخماً

عن العذاب البشري

لأرفعه إلى الله

فور توقيعه بشفاه الجياح

وأهداب المنتظرين

ولكن أيّها التعساء في كل مكان

جل ما أخشاه

أن يكون الله أمياً»^(١)

كذلك بالنسبة إلى أدونيس، عندما يتناول قضية الظلم والاستبداد من قبل الحكام، يقول:

«لا الله اختار ولا الشيطان

كلاهما جدار

كلاهما يغلق لي عيني

هل أبدل الجدار بجدار»^(٢) إلى الله

لتنظيم شؤونه»^(٣)

ففي عام ١٩٨٨م، حضر أدونيس لإلقاء ندوة عن شعر الحداثة أمام نقابة الصحافيين المصريين، وراح يلقي قصيدة بعنوان «الله والشاعر طفلان ينامان على حجر»، فاعترض الشاعر محمد التهامي على القصيدة بشدة، وقام إلى المنصة، ومنع أدونيس من إكمال قصيدته، وقال له: «كل الحاضرين مسلمين ومسيحيين لا يرضون إطلاقاً صفة طفل على الله ولا يقبلون أن ينام»^(٤) والكل حاربه على هذه القصيدة، أمثال البياتي وغيره من النقاد.

لو أن معظم هؤلاء الأدباء والشعراء وغيرهم من الفنانين، لم يصوروا هذه القضايا بما يقلل من جمهورهم، لكانوا بصف الأنبياء والقديسين، لماذا لم يرثوا من أقرانهم الغربيين سوى صفة الإلحاد؟ فالأدباء والمفكرون الغربيون، لا يضعون اللوم على الله، بل يضعون اللوم على أنفسهم وعلى جمهورهم، لذا يضعون الحلول أمام جمهورهم وإلى جانبهم يسرون للخروج إلى الحرية. ونأخذ مثلاً فيكتور هيغو في كتابه الشهير (البؤساء)، ففي هذا العمل الفني الرائع، يتناول قضايا اجتماعية، سياسية، ثقافية، دينية عدة ولناخذ مثلاً من هذه القضايا، مشكلة

(١) الأعمال الشعرية - محمد الماغوط - ص ١٨٦ .

(٢) - (٤) www.almeshkat.net.showthread

لكن الفترة التي كتبوا بها غير التي نعيشها الآن متشظين، والجمهور آنذاك غير اليوم، وربما الفترة المقبلة ستكون غير سابقاتها، وما نحتاجه فن يصلح لكل الأزمنة؛ ويروق للإنسان أينما وجد وفي أي زمن.

المراجع والمصادر

- (*) النرجسية في أدب نزار قباني - د. خريستو نجم - دار الرائد العربي - بيروت - ١٩٨٣ - ص ٩ .
- ١ - أشعار خارجة عن القانون - نزار قباني - ص ٢٠ .
- ٢ - ن م ص ٤٤ .
- ٣ - ن م ص ٥٤ .
- ٤ - ن م ص ٦٧ .
- ٥ - ن م ص ٨٢ .
- ٦ - ن م ص ٨٧ .
- ٧ - ن م ص ٩٠ .
- (*) النرجسية في أدب نزار قباني - د. خريستو نجم - دار الرائد العربي - بيروت - ١٩٨٣ - ص ١٠١ .
- الأعمال الشعرية - محمد الماغوط - ص ١٨٦ .
- (٩ - ١٠ - ١١) www.almeshkat.net.showthread
- (١٢) البؤساء - فيكتور هيغو - ترجمة وليد محمد - دار الحكايات - ص ٤٠ .

اجتماعية اقتصادية، وهي كيف أنّ فرنسا كانت تعتمد على استيراد الزجاج والخرز من ألمانيا وإنكلترا، فهذا كان يكلف فرنسا الكثير من المال، لكن الأب مادلين أنشأ مصنعاً واعتمد على صنع الزجاج والخرز بدل استيراده. فخلق بذلك فرص عمل لأهل القرية، وتمكن من رفع أجر اليد العاملة، فغدت المدينة/البلدة مركزاً تجارياً مهماً، وأصبحت تصدر مقادير هائلة من إنتاجها إلى الأسواق الإسبانية، وخاصة الخرز الأسود. ولم يكتف بهذا، بل أنشأ مصنعين واحداً للرجال، وآخر للنساء، فاصلاً بذلك الرجال عن النساء، لما في جمعهما مع بعض في العمل هدر للوقت، وإفشاء للرزيلة. كما كرر هذا العمل حين بنى مدرستين، واحدة للصبيان وأخرى للبنات، ولهذا الفصل كان الدور الكبير في نهضة الصناعة والتعليم في فرنسا والمضي قدماً نحو ركب التطور^(١) بينما يتقاتل شعبنا ومفكروننا من أجل عملية الاختلاط. ناهيك عن أن الأب مادلين لم يستخدم الدين لمصلحته الشخصية، بل لخدمة الناس كافة وخاصة الفقراء منهم، على عكس رجال الدين عندنا.

في النهاية جاهل من ينكر إبداعات نزار والماغوط وأدونيس، وأنهم أرباب الحداثة،

(١) البؤساء - فيكتور هيغو - ترجمة وليد محمد - دار الحكايات - ص ٤٠ .

أثر النشاط التمثيلي في تنمية مهارات الاستماع وزيادة التحصيل الدراسي في اللغة الفرنسية

ملاك حاتم الطفيلي^(١)

مقدمة

إنسانية سامية وقيم خلقية راقية. فاللغة تؤدي دوراً مهماً في حياة الشعوب الإنسانية، فهي أداة التفكير والتعبير عن حاجات الإنسان وأحاسيسه وعواطفه، حيث لا يستطيع الإنسان أن يفكر من دون اللغة وهي أداة اتصال بين الأفراد، فعن طريق الكلام والاستماع يستطيع أفراد الجماعة التعرف على ما لديهم من أفكار ومعارف وآراء ومشاعر، وعن طريق القراءة والكتابة يستطيع الفرد أن يخرج عن حدود الجماعة الصغيرة ويتصل بالمجتمع الكبير ليحقق مطالبه^(٢). لذلك أصبح الاهتمام بمسألة تعلم اللغات ضرورة حتمية؛ لما له من أهمية في حياتنا اليومية، وتحديد المكانة الاجتماعية للفرد. في أنها من أول الدراسات التربوية بالمحافظات اللبنانية التي لم يسبق تناولها بالبحث.

١ - تحديد الموضوع وأهميته وسبب الاختيار

تُعرف طريقة التدريس أنها الأسلوب الذي يتبعه المعلم لايصال المعلومات إلى أذهان التلاميذ، وهي مجموعة الإجراءات التي يؤدي تطبيقها إلى التعلم، وتعد مادة اللغة الفرنسية مهمة كونها تقدم للطلاب عدّة ميزات. وخصوصاً أنّ الطفل الذي يتعلم لغة أجنبية يصبح لديه تقبل للاتصال بطرق لغوية جديدة، لأنّ تعلم لغة أجنبية وخاصة تلك التي لها رصيد حضاري وتراث ثقافي، بات من الضروري ومن متطلّبات العصر، لأنّ تعلمها معناه انفتاح على العالم الخارجي وعلى ثقافات العالم التي تمكّن صاحبها من اكتساب خبرات جديدة في ميادين شتى، في تذوق الآداب وما تنطوي عليه من أفكار

(١) طالبة دكتوراه في المعهد العالي للدكتوراه/ سنّ الفيل/ بيروت.

(٢) أحمد، محمد عبد السلام، القياس النفسي والتربوي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية؛ ١٩٨١.

والدراسة في هذا الموضوع حيث:

١ - يستفيد منها معلّمو اللّغة الفرنسيّة في المدارس العربيّة، للوقوف على بعض الصّعوبات التي تواجه الطلبة في مادة اللّغة الفرنسيّة بغية تدليل الصّعوبات.

٢ - تعرف المعنيين، والمسؤولين في وزارة التربية والتّعليم على أهميّة النّشاط التمثيليّ، مما يتيح لهم وضع علاج لهذه الصّعوبات.

٢ - الإشكاليّة:

إنّ مشكلة الدّراسة تتلخّص في
الأسئلة الآتية:

- ما أثر استخدام النّشاط التمثيليّ على تنمية بعض مهارات الاستماع في اللّغة الفرنسيّة؟ وما مدى فاعليّته؟

- وهل ثمة فروقات بين متوسّط درجات التّلامذة الذين درسوا النّص باستخدام النّشاط التمثيليّ، ومتوسّط درجات التّلامذة الذين درسوا النّص نفسه بالطريقة التّقليديّة في مهارة الاستماع؟

٣ - المنهج المتّبع:

- وقد اعتمدت في بحثي هذا المنهج التّجريبيّ، وهو منهج يقوم على تثبيت

جميع المتغيّرات التي تؤثّر في مشكلة البحث، باستثناء متغيّر واحد محدّد تجري دراسة أثره في هذه الظروف الجديدة. وهذا التغيير والضبط في ظروف الواقع يسمى بالتّجربة^(١). ويتميّز المنهج التّجريبيّ عن غيره من باقي المناهج في أنّ الباحث يتدخّل في الظاهرة المدروسة ويؤثّر ويتحكّم في المتغيّرات من أجل قياس أثرها الدقيق على المشكلة، وفي البحث التّجريبيّ يقوم الباحث بدور فاعل في الموقف البحثي. والبحث التّجريبيّ يتضمّن محاولة لضبط كلّ العوامل الأساسيّة المؤثّرة في المتغير أو المتغيرات التابعة في التّجربة ما عدا عامل واحد يتحكّم فيه الباحث ويغيّره على نحو معين بقصد تحديد وقياس تأثيره على المتغير أو المتغيرات التابعة^(٢).

وقد انقسمت دراستي إلى مبحثين
اثنين:

المبحث الأوّل: النّشاط التمثيليّ
وأهميّته في تنمية المهارات التّعليميّة.

القسم الأوّل: ماهيّة اللّغة الفرنسيّة
والنّشاط التمثيليّ.

١ - تعريف النّشاط التمثيليّ.

٢ - أهميّة النّشاط التمثيليّ.

(١) أبو حطب، فؤاد وآمال صادق: مناهج البحث وطرق التحليل الإحصائي في العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة؛ ١٩٩٦.

(٢) الرضي، فرح موسى وعلي مصطفى الشيخ، مبادئ البحث التربوي، دار العربية للنشر، بيروت ١٩٦٠.

٣ - تعريف اللغة الفرنسية وأهدافها في المنهج اللبني.

٤ - العلاقة بين اللغة الأم واللغة المتعلمة.

المبحث الثاني: الوسائل التي يجب اتباعها لتطوير كفاءة التّخاطب اللّغويّ.

١ - الأسباب التي تجعلنا نتعلّم لغة أجنبية.

٢ - السّماع والاستماع والإنصات (الإصغاء).

٣ - أهداف الاستماع.

٤ - أهداف النّشاط التّمثيليّ.

خاتمة الدّراسة والاستنتاج.

المبحث الأوّل

النّشاط التّمثيليّ وأهميّته في تنمية المهارات التّعليميّة

القسم الأوّل

ماهية اللغة الفرنسيّة والنّشاط

التمثيليّ

١ - تعريف النّشاط التّمثيليّ

هو جزء أساسيّ من لعبة يبتكر فيه

المتعلم أشخاصاً ومواقف ويرتجل حوارات بصورة تلقائيّة وعفويّة. وبالتالي يتلاءم مع ما يتسم به طفل مرحلة الإعداديّة من خصائص نمائيّة عقليّة حيث نجده يتمتّع بخصائص تميّزه من غيره وله قدرته الخاصة على الخلق والإبداع. فالتّفكير لا يأتي فجأة من دون مقدّمات، وتزيد من دافعيّة الطفل للإقبال على التّفاعّل معها، كونها تراعي روح الطفولة وخصائصها. كما يُعدّ التّمثيل طريقة جديدة للتّفاهم ونشر الأفكار بين العامّة، والدعوة إلى المبادئ والتوعية بالمفاهيم التي يصعب فيها بالألفاظ^(١). فعلى الطفل أن يتبع عدّة خطوات منهجيّة منظمّة وهي (الشّعور بالمشكلة - تحديد المشكلة - جمع المعلومات حولها - وضع الفروض المناسبة - اختيار صحّة الفروض - التّوصّل إلى النّتائج وتعميمها).

ويُعرف النّشاط التّمثيليّ: أنّه «نشاط هادف يتم في وقت الحصّة ليساعد التلاميذ على التّعليم الجيّد، ولتحقيق أهداف لغويّة عن طريق الممارسة، والمشاركة الإيجابيّة فالنّشاط التّمثيليّ يحتاج إلى إعادة عرض الموضوع السّرديّ إلى موضوع حواريّ من خلال إعادة الكتابة وفقاً لسناريو محدّد

(١) المصراي، عبد القادر «المعلّم والوسائل التّعليميّة»، ط٢، الجامعة المفتوحة، الجماهيرية العربيّة المفتوحة، ١٩٩٧.

شائق محبّب، ويعرّفهم إلى نماذج من الأدب.

- يثري معاجمهم اللغوية بأساليب، ومفردات ربما لا يتحصل عليها من خلال دروس المنهج، يضاف إلى ذلك أن التمثيل وسيلة ناجحة لإشباع الميول عندهم بطريقة طبيعية تلقائية.

- يضفي روح المرح والسّرور على الحياة المدرسيّة، كونه نشاطاً محبباً إلى الطّلاب جاذباً لهم، وهذا يعنى في المجال اللّغويّ: إقبال التلاميذ على تعلم اللغة، واكتسابهم مهاراتها بطريقة محببة طبيعيّة، فإذا اتسمت القصّة الممثّلة باللّغة الفصحى، فإنّ ذلك مع تكرار الأدوار، يزيد من اكتسابه لغة القراءة والكتابة، أعني اللّغة الفصحى^(٣).

- يساهم في تنمية المهارات اللّغويّة وزيادة المعجم اللّغويّ لدى المتعلّم، فهو من جهة يقدّم الجديد له، ومن جهة أخرى يفتح أفقاً جديدة لاستخدام ألفاظ موجودة في سياقات متنوّعة، ما يثري حصيلته اللّغويّة واكتسابه الأنماط اللّغويّة^(٤).

ملائم لأهداف الموضوع. ويمكن تعريف النّشاط التّمثيليّ إجرائياً في هذا البحث بأنه: «نشاط تعليمي، يقوم التلاميذ بتمثيل درس في اللّغة الفرنسيّة بعد تحويله إلى تمثيليّة حوارية، من خلال حفظ النّصّ مسبقاً. ويقوم دور المعلّم على توزيع الأدوار على التّلامذة، وذلك بهدف تنمية مهارات الاستماع في اللّغة الفرنسيّة، على أن يتمّ ذلك داخل الصّف وبإمكانات بسيطة.

٢ - أهميّة النّشاط التّمثيليّ

يمكن توضيح أهميّة النّشاط التّمثيليّ على النّحو الآتي:

- الأهميّة اللّغويّة.

- يكتسب الممثل مهارات الأدوار والتّعبير والنطق الصحيح^(١).

- يساعد على اكتشاف مواهب الطّلبة والعمل على تنميتها من خلال الأدوار التي يقوم بها وبخاصّة التّعبير اللّغويّ بشكلٍ دقيق.

- يثري قاموس المتعلم اللغوي^(٢).

- يكسب الطّلاب حصيلة لغويّة بأسلوب

(١) الرئيس، ص ٥٢٠، ١٩٩٩.

(٢) إسكندر وسلامة، «مقدمة في التكنولوجيا التعليمية»، ط ٢، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٩٨.

(٣) البجة عبد الفتاح، «أصول تدريس العربية بين النظرية والممارسة» ط ١، دار المسيرة للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن ٢٠٠٠.

(٤) عفانة، عزو، اللوح، أحمد «التدريس ال مسرح»، ط ١، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن (٢٠٠٨).

عصرنا الحالي في عدد من مناطق العالم، كما أنّها لغة عظيمة ارتبطت بها أعداد كبيرة من الإنتاجات الأدبية والعلمية، وفي ما يأتي نسلط الضوء على أصل هذه اللغة، وعلى بعض المعلومات المتعلقة بها.

٤ - العلاقة بين اللغة الأم واللغة المتعلّمة

تساءلت (Courtillon 2003)^(٢) عن عملية التداخل المنهجية الآخذة بالحسبان لصفة قرب أو بعد اللغة الأم عن اللغة المتعلّمة. وحسب ما اعتقدت فإن تعلم لغة أجنبية يعتمد على عمليتين أساسيتين هما:

(La reception) عملية الاستقبال حتى يستطيع الإنسان التعود على لغة جديدة يجب أن: يكون قادرًا على فك شيفرتها واستقبال هذه اللغة من حيث: مقاطع ونبرات الصوت، والمفردات: معاني الكلمات والقواعد).

إذا كانت اللغة الأم واللغة المتعلّمة متقاربتين فإن هناك احتمالاً جيداً لإمكانية فهم النصّ من خلال استقباله، وبالتالي تنبؤ المعنى دون أن يكون المتعلم بحاجة إلى تقسيم النصّ إلى عناصر جزئية من أجل محاولة فهمه، وهذا يكون غالباً صحيحاً عند تعلم لغة في المراحل الأولى؛

إنّ التّمثيل يكون أداة فاعلة لنمو اللّغة عند الأطفال واكتساب مهارات متعدّدة، وهو يعطي التّلميذ فرصة لاستخدام اللّغة والتّعامل معها بموجب المواقف، ولكلّ موقفٍ متطلّبات لغويّة مختلفة في استخدام المصطلحات، وهذا الأسلوب يفيد بصورة خاصّة في تنمية القدرة على التّعبير اللّغويّ^(١).

يمرّن على التّعبير الصّادق الحي عن نفسه، وعلى إجادة النّطق في وضوح ودقّة في جو طبيعيّ، ويتعوّد نطق الحروف من خارجها، وطريقة الكلام والأدوار، والتّحكّم في الصّوت وتعبيرات الوجه وحركات اليدين، ويضيف إلى حصيلته اللّغويّة ذخيرة طيّبة من المفردات والتّراكيب.

٣ - تعريف اللّغة الفرنسيّة وأهدافها في المنهج اللّبنائيّ

تعتبر اللّغات من أهم العناصر المكوّنة للهويّة الثقافيّة لأيّة أمة من الأمم، ولكلّ مجموعة من اللّغات أصل معيّن تنحدر منه بحيث تشترك اللّغات التي تنحدر من أصل واحد بعدد من القواسم المشتركة التي تميّزها من اللّغات الأخرى، ولعلّ اللغة الفرنسيّة هي من أهم اللّغات المنتشرة في

(١) الدليمي، طه، الوائلي، سعاد، الدليمي، طه، الوائلي، سعاد، «اللغة العربية مناهجها وطرائق تدريسها» ١، ٢٠٠٣.

(٢) Courtillon Janine (2003) Elaborer un cours de FLE -Hachette.

لذلك يجب على المعلمين الذين يدرّسون المستويات الأولى والذين تكون لغتهم الأصلية قريبة من اللغة المتعلّمة أخذ هذه النقطة بالحسبان.

وبالتالي سيدرك أنّ اللغات سواء أكانت اللّغة الأم أم اللّغة الأجنبية ستتمكّنه من أن يتواصل مع العالم على الرغم من الاختلافات الموجودة.

(La mémorisation) إنّ عملية التذكر ضرورية في عملية تعلّم اللّغة (عملية التذكّر الأجنبية، وهي عملية مرتبطة بعملية الاستقبال، فبعد استقبال النصوص ووجودها في الذاكرة، فإنّ عملية الإعادة والتكرار للنصوص المتعلّمة، يساعد الطالب على التعبير باللّغة الأجنبية المتعلمة، وكلّما كانت اللّغة المتعلّمة قريبة من اللّغة الأم كانت عملية التعلّم أسهل وأسرع.

٢ - إنّ تعليم الطفل لغة أجنبية سوف يساعده على الاتّصال بالآخرين، لأنّه سوف يتعلّم اللّغة بوظائفها الأصلية في الحياة إذ إنّّه هو يروي، ويسأل، ويجيب، ويفهم، ويعطي تعليمات في سياقات مختلفة في الحياة، وبالتالي فإنّ هذه اللّغة تمكّنه من التصرّف مع الآخرين، وتساعد على التواصل الشفويّ والكتابي، إنّها في النتيجة تخدمه كما تخدمه لغته الأم.

المبحث الثاني

الوسائل التي يجب اتباعها لتطوير كفاءة التّخاطب اللّغويّ

١ - الأسباب التي تجعلنا نتعلّم لغة أجنبية؟

أشار (Vanthier 2009)^(١) إلى أن هناك عدّة أسباب تجعل الأطفال يحبّون تعلّم اللّغة الأجنبية:

١ - حتّى يفتح الطفل على العالم، لأنّ العالم الذي نعيش فيه يوجد فيه الكثير من اللّغات التي تساعد على التواصل الإنساني،

٣ - تطوير إدراك ما وراء اللّغة للطفل، فالطفل الذي يتعلّم لغة أجنبية يصبح لديه تقبّل للاتصال بطرق لغوية جديدة، وبالتالي من أجل تطوير لغته فإنّ الطفل يجب أن يتعوّد على الإحساس والتّفكير بلغته الأم أولاً، ثم بعد ذلك مقارنتها باللّغة المتعلّمة، وبالتالي وحسب ما يقول Louis Dabene «إنّ اللّغة تختلف عن غيرها بأنّها تسمح للطفل أن يوسع عالمه التّفكيري، وإدراك ما وراء اللّغة، وتوسيع لامركزيّته، أخذًا بالحسبان اللغات والثقافات»^(٢).

كما أنّ (Tagliante) أشارت إلى أنّ

(١) Vanthier Hélène (2009) L'enseignement aux enfants en classe de langue CLE international, Paris.

(٢) Louis Vincent (2009)- Interaction verbales et communication interculturelle en FLE, E. M. E, Paris.

ويقصد بالسمع مجرد حاسة لا يتميز بها سامع عن سامع ولا إنسان عن حيوان، وهو عملية بسيطة يعتمد على فسيولوجية الأذن. ومما سبق يتبين أن السمع لا يتعلمه الإنسان (٢٠٠٨:٢٢)^(٣).

أما الاستماع:

فهو عملية مركبة متعددة الخطوات بها يتم تحويل اللغة إلى معنى في دماغ الفرد، وهذا يعني أن الاستماع أكثر من السمع. مع أن السمع يمثل أحد مكونات عملية الاستماع. أما الجزء الحاسم فيه فهو التفكير^(٤). الاستماع ثلاث خطوات: الاستقبال، والانتباه، وإعطاء معنى للمسموع. (عاشور ومقداي، ٢٠٠٥).

الإنصات يعني في اللغة السكوت والاستماع للحديث، وأنصت بمعنى سكت وسكوت معناها مستمع، والإنصات في الاصطلاح تركيز الانتباه لآراء الآخرين وأفكارهم ومشاعرهم وتعبيراتهم اللغوية والجسدية، والإنصات عملية اتصالية في المرتبة الأولى ممثلة بالإحساس بالموجات الصوتية وترجمتها، حيث يتحقق الإنصات

الإنسان البالغ يختار أن يتعلم لغة أجنبية إما بإرادته، وهذا يتطلب منه جهداً مالياً وزمنياً، وبالتالي إما أن يتعلم اللغة لأسباب خاصة، كأن يكون لديه رغبة في التعمق في التفكير، أو توسيع ثقافته العامة، أو التحضير لرحلة سياحية، أو قراءة كتب بلغات أخرى، أو إحياء لمعلوماته السابقة، أو الاتصال بأصدقائه وأقاربه. وإما أن يهدف إلى أن يقوم بنشاطات مهنية، والبحث عن وظيفة تتطلب معرفته للغة الأجنبية، وبالتالي فالبالغون لديهم في العادة دوافع قوية لتعلم لغة أجنبية تعود عليهم بالفائدة^(١).

٢ - السماع والاستماع والإنصات (الإصغاء)

السمع في اللغة هو حس الأذن، وهو ما وقر في الأذن من شيء يسمعه. والسمع في اللغة هو السمع وهو ما تلذذته الأذن من صوت حسي. أما اصطلاحاً: فهو نشاط الأذن المتمثل في تلقي الأصوات وتوصيلها إلى العصب المختص بإدراك الذبذبات الصوتية وهو فطرة ونشاط لا إرادي^(٢) (الهاشمي والغزاوي، ٢٠٠٤:٤٢).

(١) Tagliante Christine (2006) La classe de langue, CLE international, Paris.

(٢) عبد الرحمن، الغزاوي، فائزة الهاشمي، «تدريس مهارة الاستماع من منظور» ط١، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان الأردن،

(٣) السليتي، فراس «فنون اللغة»، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط١، اربد.

(٤) عاشور، راتب قاسم، مقداي، محمد فخري «المهارات القرائية والكتابية» ط١ دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن (٢٠٠٥).

وهو الجانب العضوي في عملية الإنصات^(١). (السعيدو عابد، ٢٠١).
والإنصات يتضمن الاستماع

والإنصات يتضمن الاستماع

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

أي استمعوا استماع تحقيق؛ وتدبر ومداومة من دون انقطاع وأنصتوا أي اسكتوا خلال القراءة. ثمة فرق بين الاستماع والإنصات، فالإنصات هو أن تستمع إلى الشيء باهتمام وانتباه ولذلك يقال: أنصت فلان لفلان إذا مال بسمعه نحوه ومن هنا جاء الفرق بين مجرد السمع والإنصات^(٣). (زايد، ٢٠٠٦).

والاستماع يكون منقطعاً كاستماع التلاميذ لشرح المدرس، أمّا الإنصات: أعلى درجات الاستماع، ويلزمه الفهم والانتباه والتحليل والتقويم والمقارنة، ولا ينقطع لأي من العوامل لوجود العزيمة القوية لدى المنصت. كما إن مهارة الاستماع أكثر المهارات استخداماً في مجال اللغة، ويعد الاستماع كالقراءة من حيث أن كلا منهما

وسيلة للتعليم في المدرسة، وخارجها إذ إن بإمكان الدارس أن يتعلم في الصف بالاستماع إلى شرح المعلم، ومناقشات طلاب صفه، كما يمكن أن يتعلم خارج قاعات الدرس في المنزل، الشارع، والعمل عن طريق الاستماع إلى الندوات والمحاضرات، والمناقشات وما أشبه^(٤). (البجة، ٢٠٠١)، ويمكن التفريق بين ثلاثة مصطلحات كما يلي:

السمع أو السماع وهو يحدث بمجرد استقبال الأصوات الخارجية، ولا يتطلب تفاعلاً ولا مشاركة نشطة، ووظيفته فسيولوجية تشمل استقبال الرسالة من دون قصد. والاستماع هو العملية النشطة التي تتضمن ربط المعنى بالصوت، وتتطلب انتباهاً أي أن الاستماع له وظيفة عقلية، وتعني فهم الرسالة ويكون بقصد. أمّا الإصغاء وهو الإنصات أي الفهم لرسالة المتحدث، وإدراك ما يرمي إليه من مقاصد وهو يختلف من شخص لآخر تبعاً لمستوى الاستماع؛ وله وظيفة عقلية أعلى من الاستماع من حيث الدرجة، وليس في

(١) أبو السعيد، أحمد، عابد، زهير «مهارات الاتصال وفن التعامل مع الآخرين ط١، مكتبة الجزيرة (٢٠١٠).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) زايد، مهند خليل (٢٠٠٦) «أساليب تدريس اللغة العربية بين المهارة والصعوبة» ط١، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن (٢٠٠٦).

(٤) البجة، عبد الفتاح «أساليب تدريس مهارات اللغة العربية وآدابها» ط١، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة (٢٠٠١).

طبيعة الأداء، فالإنصات أو الإصغاء أكثر دقة في وصف المهارة التي يجب أن نعملها أو نكوّن لها لدى التلاميذ.

٣ - أهداف الاستماع

١ - إكساب الطالب آداب الاستماع ومهاراته^(١).

تنمية قدرة التلاميذ على متابعة الحديث وفهمه واستيعابه، وعلى التمييز بين الأفكار الرئيسية والثانوية^(٢).

تنمية جانب التذوق الجمالي من خلال الاستماع إلى المستحدثات العصرية واختيار الملائم منها^(٣).

تعويدهم على الاستماع إلى الآخرين استماعاً جيداً ليتمكنوا من فهم ما يقرأ ويقال فهماً سليماً، وندرك من هذا أن هذه المهارة تتصل بمهارتي المحادثة والقراءة اتصالاً وثيقاً، والدليل على هذه الصلة فهم التراكيب والتعابير اللغوية مثلاً.

تنمية القدرة على إدراك الكلمات المسموعة وعلى الاستجابة لإيقاع موسيقى في الشعر والنثر.

٥ - تنمية القدرة على توقع ما سيقوله المتكلم وإكمال الحديث فيما لو سكت المتكلم.

٦ - تنمية قدرتهم على عمل الملخصات السريعة، والشاملة لجوانب الموضوع المتسع إليه^(٤).

وهذه الأهداف تنمو من عملية التدريب المستمر على الاستماع، بحيث تتبلور في النهاية إلى مهارات تصاحب الفرد في شتى مواقف الاستماع.

٤ - أهداف النشاط التمثيلي

يضع ريتشارد كورنر ثلاثة أهداف لهذا النشاط وهي:

- تعزيز تعليم الطلاب.
- تعزيز حياة الطلاب.
- تعزيز قدرات الطلاب في شكل النشاط المسرحي.

ويضيف آخرون أهدافاً أخرى منها:

- شغل أوقات فراغ الطلاب في أنشطة تربوية هادفة تحت إشراف ذوي الخبرة

(١) عبد الحميد، هبة، «أنشطة ومهارات القراءة والاستذكار في المدرستين الابتدائية والإعدادية» ط١ دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٦.

(٢) محمود رشدي وآخرون، «طرق تدريس اللغة العربية والتربية الدينية في ضوء الاتجاهات التربوية الحديثة» ط٢ دار المعرفة، القاهرة ١٩٨١ خاطر.

(٣) عبد الهادي، نبيل وآخرون، «الفن والموسيقى والدراما في تربية الطفل»، ط١، عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع ٢٠٠٣.

(٤) زقوت، محمد شحادة (١٩٩٩) «المرشد في تدريس اللغة العربية» ط٢، الجامعة الإسلامية، غزة ١٩٩٩.

- ربط المواد الدراسية المتشابهة بعضها ببعض.

- تحويل جزء من محتوى المنهاج يتسم بالصعوبة، وجفاف الأسلوب إلى خبرات ذات معنى يمكن فهمها وتذكرها مثل اللغات والدراسات الاجتماعية^(٥).

خاتمة الدراسة والاستنتاج

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة فاعلية الأنشطة التعليمية لتحسين تعلّم اللغة الفرنسية من خلال النشاط التمثيلي على أنه خير وسيلة تعليمية لتحويل المجرّد إلى محسوس والخيال إلى واقع. لذا بات من الضروري اهتمام المسؤولين بتطوير برامج إعداد معلّم اللغة الفرنسية في المدارس، وإخضاعه للدورات المطلوبة للنهوض بالمستوى العلمي، وإيجاد برنامج للأنشطة التعليمية الفاعلة المساعدة في حصص اللغة الفرنسية مع الأخذ بالحسبان الأهداف الرسمية لتعليمها، إضافة إلى العمل على تطوير مهارات الاستماع لدى التلاميذ من خلال اعتماد الأنشطة وتقنيات

للتغلب على الانطوائية والعدوانية، واللإنسانية وحب الذات واللامبالاة وتعميق البعد الاجتماعي^(١).

- يفسح المجال لكثير من المواقف التعليمية التي يصبح فيها المعلمون على وعي، وشعور بأهمية العمل الجماعي التعاوني، والحاجة إليه فضلاً عن ممارستهم الفعلية لألوان من هذا النشاط.

- تنمية اتجاهات اجتماعية مرغوب فيها وذلك من خلال دراسة المفردات الدراسية ودراسة التلاميذ لأوجه النشاط المدرسي المختلفة^(٢).

- خير وسيلة تعليمية لتحويل المجرّد إلى محسوس والخيال إلى واقع^(٣).

- احتضان مسرحية المنهاج للمواد الدراسية كافة.

- دفع الملل والرتابة عن جو المدرسة وعن جو الصف^(٤).

- تنويع وتحسين طرائق التدريس المستخدمة.

(١) عفانة، عزو، اللوح، أحمد، «التدريس المسرح»، ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن ٢٠٠٨.

(٢) المصراطي، عبد القادر، «المعلم والوسائل التعليمية» ط٢ الجامعة المفتوحة الجماهيرية العربية الليبية ١٩٩٧.

(٣) دراسة حلس (٢٠٠٣) دراسة اللوح (٢٠٠١) دراسة زاهر (١٩٩٤) دراسة كريج، هدفت للكشف عن تأثير أسلوب الخبرة الدرامية على بعض فروع اللغة العربية. ١٩٩١.

(٤) أبو السعيد، أحمد، عابد، زهير، «مهارات الاتصال وفن التعامل مع الآخرين»، ط١، مكتبة الجزيرة ٢٠١٠.

(٥) أمير اللقاني، أحمد «المناهج والمدخل الدرامي» ط١، عالم الكتب للنشر والتوزيع ٢٠٠١ القرشي.

التّدرّيس، وتدريب التّلاميذ على اكتساب
مهارة الاستماع منذ المراحل التّعليميّة
الأولى استعداداً لمرحلة القراءة وبطرق
تربويّة خاصة، ومشاركة الآراء والأفكار
بين المدارس من خلال تخصيص أسبوع
في السّنة تشترك به المدارس كافة ضمن
مهرجان يطلق عليه تسمية معيّنة حيث تتمّ
مبادلة الخبرات، والتّعرّف على نقاط القوّة
والضعف عند الطّلاب.

وأيضاً اعطاء الأهميّة القصوى لنظام
التّعليم الرسمي، وتطوير المناهج لما يتلاءم
مع تقدّم المجتمعات والنضوج الفكريّ
للطّلاب في لبنان.

الشعرية في النصّ عند الشاعر إلياس أبو شبكة دراسة في ديوان: «أفاعي الفردوس»

فدى عبس

مقدمة:

يضم ديوان «أفاعي الفردوس» ثلاث عشرة قصيدة تفوح بكلمات العشق والحبّ وتقع في ثلاثة عشر نشيداً نذكر منها: الصلاة الحمراء، الأفعى، سدوم، شمشون، والدينونة والقاذورة والطرح وهيكل الشهوات...

الشاعر إلياس أبو شبكة كان واحداً من الشعراء الذين أسسوا المنطلقات الأولى للحدأة الشعرية، لا في لغته فحسب ولا في أساليبه المتعددة، إنما أيضاً في روحه الشعرية.

إذا وبناء على ما تقدّم من معطيات، سنرى كيف تجلّت هذه الأمور الفارقة في شعره في ديوانه الآنف ذكره «أفاعي الفردوس» وذلك عن طريق دراسة كل من المستويين الأثنين: المستوى الإيقاعي والمستوى البلاغي.

المستوى الإيقاعي

إذا كان النصّ الشعري ثرياً، فهذا يعني

الشاعر إلياس أبو شبكة شاعر لبناني. كان أحد مؤسسي «عصبة العشرة». يتميز نتاجه الابداعي بغنى الأوجه وتعددتها. ولد في بروفيدانس بالولايات المتحدة عام ١٩٠٣ وتوفي عام ١٩٤٧م. لقد خلّف هذا الشاعر على قصر عمره ما لا يقل عن ثلاثين كتاباً مطبوعاً في مختلف المواضيع بين ترجمة وتأليف. وله في الصحف والمجلات العربية مقالات متنوعة وقصائد ودراسات وترجمات. كان شعره وليد حالات نفسانية، وكان ذا نفس متّقدة، فعبر في قوافيه عن آلام لا حدّ لها ولا طرف واتسمت قصائده بالواقعية والنضج. وقد أحدث ديوانه «أفاعي الفردوس» ضجة في الأوساط الثقافية العربية، إذ رسم بمهارة فنية عالية لوحات نابضة بالحياة عكست حالته النفسية الثائرة مستخدماً تراكيب لغوية مبتكرة وصوراً خيالية جديدة. وقد ساهم هذا الديوان في شهرته كشاعر.

أنه ثري، لا بما يحمله من موضوعات نبيلة، أو أفكار وقيم وعادات وتقاليد، ولكن ثراءه بما فيه من أسرار عميقة، وتوهج دفين وتجربة ورؤى مختلفة.

إن المدلول أو المعنى الغائب أو البنية العميقة يمثل حالة الغياب في النصِّ الثري وحده، ولا يكون الغياب كلياً، إنما تظلَّ هناك إشارات وعلامات ومضات تدلُّ على مكان هذا الغياب، واستخراج الغائب يحتاج إلى قارئٍ مختلف، يعرف كيف يفكك بنية النصِّ بتأنٍّ، فيُخْرِج أولاً البنية السطحية ويتفحصها ويصفها، ثم يضعها جانباً للوصول إلى الكنز الشعري، أو البنية العميقة.

ويبحث الشاعر إلياس أبو شبكة في «أفاعي الفردوس» في القاذورات عن تمثاله المقدس المفقود، وهو يختار عنواناً لقصائده متمثلة بالواقع الفاسد الذي تتخبط فيه الجسدية المقدسة كـ: «سدوم» و«شمشون» و«القاذورة» و«الشهوة الحمراء» و«الطرح»، وهي عناوين دالة على ما تحتها من دلالات الشهوة والدمار والتخريب للروحية والقيم النبيلة.

إن القصيدة عند أبي شبكة كلٌّ لا يتجزأ، بل هي وحدة فنية متماسكة من حيث الشكل والمضمون. أما الموسيقى في رأيه لا ينبغي جعلها أساساً للشعر بل هي عنصر من الشعر لا كلّه. لقد نظم قصائد

الديوان على الطريقة التقليدية الموزونة. بيد أن هذا التقيد جاء في الشكل الذي عكس مضموناً مغايراً، متفلتاً من القيود، متعدد المواضيع، لنلمس بذلك حداثة الشاعر إلياس أبو شبكة في التعبير، واختيار الألفاظ المتجددة الملائمة للموضوعات الحديثة.

نظم الشاعر أبيات قصائده معتمداً العديد من الأوزان لبحورٍ مختلفة سنسرد تباعاً أي بحر اعتمد في بعض هذه القصائد:

١ - شمشون:

مَلَّقِيهِ بِحَسَنِكَ الْمَاجُورِ
وَادْفَعِيهِ لِلْإِنْتِقَامِ الْكَبِيرِ
فَاعَلَاتِ مَفَاعِلِنِ فَعَلَاتِنِ

فَاعَلَاتِ مَسْتَفْعَلِنِ فَاعَلَاتِنِ

نظمت هذه القصيدة على وزن البحر الخفيف. وهي قصيدة رائية تنتهي بحرف الرءاء المكسور في أغلبها، ماعدا سبعة أبيات فقط انتهت بياء المتكلم.

٢ - القاذورة:

حَلَمْتَ بَدْنِيَا لَيْتَهَا لَا تَبَدُّ
لِذَائِدْ أَحْلَامِي وَلَا كَانَ لِي غَدُ
مَفَاعَلْتِنِ مَسْتَفْعَلِنِ فَاعَلَاتِنِ
مَفَاعَلْتِنِ مَسْتَفْعَلِنِ فَاعَلَاتِنِ

نظمت هذه القصيدة على وزن البحر الخفيف. وهي قصيدة دالية تنتهي بحرف الدال المضموم

٣ - الأفعى:

ستملكها ما شئت، بعدُ، فلا تخفُ
فإنَّ ابنها لما يزل يجهل الأمرا
نظمت هذه القصيدة على وزن البحر
الطويل، وهي قصيدة رائية تنتهي بحرف
الراء مع الألف.

٤ - سدوم:

فبكلِّ صقع من ضلوعك قسمة
خلع على لهب الشَّباب موزَّعه
متفاعِلن مستفعلن متفاعِلن
مستفعلن مستفعلن متفاعِلن

نظمت هذه القصيدة على وزن البحر
الكامل. وهي قصيدة عينية في قسمها الأوَّل
مقترنة بحرف الهاء. وهي ميمية في القسم
الثاني بحيث اقترن حرف الميم بحرف
الياء.

٥ - الشهوة الحمراء:

غير قطرة المساء
لا أحبُّ في السَّحر
فاعِلن مفاعِلن
فاعِلن مفاعِلن

نظمت هذه القصيدة على وزن البحر
الكامل المجزوء. وهي قصيدة رائية في
قسمها الأول وقافية في قسمها الثاني.

- أخذت هذه النماذج لأبين قدرة الشاعر
إلياس أبو شبكة على التعبير المتجدد
في المواضيع المعاصرة، على الرغم

من اعتماده القصيدة التقليدية وارتباطه
بقيود الرُّوي والقافية. إلا أنَّه أظهر
مقدرة هائلة في السِّبك فأعطى نكهة
جديدة للقصيدة القديمة. فضلاً عن
استخدامه العديد من البحور الخليلية
بفنٍّ وبراعة كبيرين.

لقد أكثر الشاعر من استخدام التكرار
الذي ولد إيقاعاً موسيقياً، إضافة الى عدد لا
بأس به من المتوازيات.

«عهدان: عهد هوى نقبي
مات في شرف وجاه
وهوى يعربد في دمي
وتنشُّ في كأس دماه»
«صرت أمقت الصِّفاء
صرتُ أعشقُ الكدر»
«غير قطرة المساء
لا أحبُّ في السَّحر
غير مشهد الدِّماء
لا أحبُّ في الصَّور»
«تلك البقايا عظام الـ
زمان للإنسان
تلك البقايا رموز
لسخريات الأمانى»

فالقصيدة الجيدة إذًا، هي تلك التي
تجعلنا نقرأ روح صاحبها في السطور
الأولى ونرى العالم الذي استحضره في
ذهنه أثناء الكتابة، حتى ولو كانت - أي
القصيدة - خارج السِّياق المألوف من حيث

الشكل والعنوان، وكيف بالحريّ إذا كان الشكل والعنوان متلازمين في قالب دلالي واحد؟ هذا ما تفعله قصيدة الشاعر إلياس أبو شبكة في مجموعته.

المستوى البلاغي:

كثرت الصّور البلاغية في مجمل قصائد الشاعر إلياس أبو شبكة، فأتى بعضها ليعبر عن ذات الشاعر وانفعالاته وأحاسيسه، بأسلوب انسيابي سهل وبلغ في الوقت عينه:

وأوقظت مذعورًا إلى شرّ هاجس
كأنّي روح، في جثام مشرّد
(القاذورة)

بينما ظهر بعضها الآخر معبرًا عن نموذج المرأة في شخصياتها المختلفة:

إنني أرى القلب في عينيك يلتهبُ
أليس للنار، يا أخت الشقا، سبب؟
(هيكل الشهوات)

فضلاً عن التشابيه المستخدمة التي قرّبت الصورة البلاغية من الواقع، وأظهرت قدرة الشاعر على توظيف الدلالات المتعدّدة في هذه الصّور، لخدمة المعنى العام بأفضل الطرق:

دوى كنافخ في صور (شمشون)،
وإذا لبوة مخدّرة الحسن
تردّت من كهفها المخدور

تنضج اللذة الشّهية منها
خمرةً من جمالها المأثور
(شمشون)

يسيطر أيضًا التّناس الديني في هذا الديوان. وقد شكل ركيزة أساسية ارتكز عليها الشاعر في تجسيد أفكاره وتجاربه. لا تناس من دون نص غائب، ولا نص غائب من دون تناس. ولذلك تحدد جوليا كريستيفا التناص بالتعريف الآتي:

«كل نص هو امتصاص وتحويل لكثير من نصوص أخرى» فأى نص جديد تشكيل من نصوص سابقة أو معاصرة وردت في الذاكرة الشعرية تشكيلاً وظيفياً، هو حيث يغدو النص الحاضر خلاصة لعدد من النصوص التي أمحت الحدود بينها، فيعاد تشكيلها وإنتاجها، حيث لا يبقى بين النص الجديد وأشلاء النصوص السابقة سوى المادة وبعض البقع التي تومئ وتشير الى النص الغائب. وهذا ما ظهر جلياً عند أبي شبكة، إذ يحيلنا الى العهد القديم في كلّ مرّة أراد فيها التعبير عن نظرته للمرأة. فيكون التناص عنده تناصاً دينياً مسيحياً مستوحى من التّوراة، وقد وظّفه في هذه المجموعة على أحسن ما يكون، وذلك عبر إيراد شخصيات من العهد القديم، يسرد عبرها ما يحدث معه فتكون خير مثال على تجربته. وهنا تكمن أهمية هذه الاستخدامات، وهذه بعض الاستشهادات:

إن في الحسن يا دليلاً أفعى
اسكرت خُدعة الجمال هرقلاً
قبل شمشون بالهوى الشرير،
قومي ادخلي، يا بنت لوط على الخنى،
ماذا فعلتِ، سدومُ أين جواذبُ
كانت على تلك الخدود مجمعة
خاتمة البحث:

يتضح لنا مما سبق أن المستوى
البلاغي والمستوى الإيقاعي في شعر
إلياس أبي شبكة قدما لنا فهماً أعمق
للجمالية الكامنة في النصوص. لقد كان ابن
ذاته الوجدانية والثقافية والاجتماعية
والدينية... على تفرّدٍ، إنما، على تناغم
وانسجام مع قناعاته وإن تعارضت مع
مجتمعه من وجوهه كافة. إنه ابن الحرّية
المضيئة في شعرنا العربي واللبناني.
ويبقى العلامة الفارقة على الزمن. ويمكننا
القول نقلاً عما قاله وعبر عنه ولاسيما في
«حديث الشّعر» أي مقدمة «أفاعي
الفردوس» التي تبدو مثل دعوة لأن يكون
الشعر حرّاً طليقاً من كل قيد.

إن الشعر عنده لغة القلب وخيره ما كتب
بدم القلب، أو ليس هو القائل:

إجرح القلب واسق شعرك منه
فدم القلب خمرة الأقلام

فهرس المصادر والمراجع

- (١) المجموعة الكاملة لديوان «إلياس أبو شبكة» -
أفاعي الفردوس.
- (٢) Le plaisir du texte, seuil points 1982
- (٣) أبو جهجة خليل، الحداثة الشعرية في لبنان، بيروت
١٩٨٢.
- (٤) أبو ديب كمال، في الشعرية، بيروت، مؤسسة
الأبحاث العربية ط١، ١٩٨٧.
- (٥) عيد يوسف، مرجع العبور إلى النص الآخر، دار
لقمان للثقافة- جونية لبنان. ط٢٠١٣.
- (٦) أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، بيروت
١٩٩٥.
- (٧) الملائكة نازك- قضايا الشعر المعاصر، دار العلم
للملايين- ط٦- ١٩٩٦.

قراءة في كتاب «من وحي المسيح» لميخائيل نعيمة

روبير البيطار

المقدمة

الكنيسة التي أقرت هذه الأناجيل وتركت سواها.

٢. فكرة الخاطئ عند الله الكوني، والفرق بينه وبين الإله السماوي الذي يختص بالأرض،

٣. المسيح الذي يعرفه، هو مسيح يؤمن بالتقمص، بل هو روح الله المتقمص في جسد شخص يدعى المسيح.

٤. إظهاره أن الغاية من معجزات المسيح، كنوع من السحر والشعوذة لإيمان التلاميذ به، أكثر من الاهتمام بالبشر، وإظهار حبه لهم.

٥. إذا كان الروح القدس هو الذي قاد الرسل، ومن بعدهم تلاميذهم، فكيف يقود هذا الروح القدس الكنيسة اليوم، وهي كمؤسسة تخطئ مثلها مثل بقية المؤسسات؟ فكم من حروب ونزاعات قادتها الكنيسة. ومن ثم يرفض قيادة الكنيسة فكره الشخصي الخاص.

نشهد منذ القرون الأولى للمسيحية صراعاً بين ما جاء في الكتاب المقدس وما كان يستنتجه العقل من أمور بديهية. فالإنسان يبحث دائماً عما يشبع حواسه وعقله، والإيمان في شكله الأول لا يخاطب العقل بل يخاطب القلب. وكان الإنسان يشعر أنه منقسم بين ما يدركه بعقله وما أوحى به الكتب المقدسة. شأنه في هذا شأن الحداثيين الذين نصبوا العقل إماماً وحاكماً، ما وضع الحرية والمقدس في وضع جديد^(١).

من هذه المقدمة البسيطة، ننطلق إلى غايتنا في تحليل الكتاب:

أ - الأفكار الرئيسية:

١. عصمة التلاميذ الإنجيليين تحديداً في ما روه عن المسيح، ومن بعدهم

(١) فهمي جدعان، المقدس والحرية، ص ٢١.

٦. الطقوس والعقائد والممارسات الدينيّة في الصلوات الجماعيّة عادة وثنيّة.
٧. تسليطه الضوء على الإنسان والإنسانيّة، طالباً احترامها إلى أقصى الحدود والتي تُفضي إلى تهديم السجون والمعتقلات.

ب - عرض الكتاب

● المناجاة:

يبدأ نعيمة فصول الكتاب بما يشبه مناجاة يخاطب فيها المسيح، يطرح عليه تساؤلاته، ويؤكد له إيمانه به كما يعيشه هو. ويشهد ميخائيل نعيمة بحضور المسيح في حياته. (يا مسيحي). يتحدّث إلى الله وعنه في آنٍ معاً معلناً انبهاره بحضوره في حياته.

١ - ما قيل في المسيح وكتب عنه منذ فترة عماده، إذا جُمع كلّ، لضاقت به أوسع المكتبات.

٢ - يعرف بنفسه على أنّه ليس بالمؤرخ، ولا بالباحث، ولا بالأهوتيّ الملمّ بالتفسير والتأويل. ولكنّه

على ضالّة ما يملك من تلك المعلومات، يستنتج منها أشياء كثيرة، وهو في ما يستنتج لا يسير على هُدْي عقله، بل على نور محبّته لله، ومحبة الله له. (ولكنني، على

ضالّة ما أملك من هذه المعلومات، أستنتج منها أشياء وأشياء وأنا في ما أستنتج لا أسير على هُدْي عقلي، بل على نور محبّتي لك ومحبتك لي^(١). كما يعرف بنفسه في موضع آخر من الكتاب فيقول: «ولكنني رجل لا ينفك عن التفكير في الإنسان ومصدره ومآبه. ولذلك يستهويني المسيح وتستهويني حياته»^(٢). فالمسيح عنده هو كمال الإنسانيّة، وهو المعلّم الأوحد الذي جاء يهدي الناس إلى حقيقتهم التي تتجاوز حدود الدم واللحم، الزمان والمكان^(٣).

● بين الشعور والمنطق:

ثمّ يعود نعيمة ويتساءل: لولا الأناجيل الأربعة التي وصلت إلينا، لما عرفنا شيئاً عنك (المسيح). فهل يجوز أن يأخذ حقائق من هذه الأناجيل ويرفض أخرى؟ أي هل يستطيع أن ينقد ويحلّل الإنجيل ككتاب علمي أو أدبي؟ وإن لم يفعل ذلك، فكيف يوفّق بين شعوره بعصمة يسوع، وشعوره بإنسانيّة الإنجيليين غير المعصومين من الخطأ؟ وهذا الأخير هو السؤال المركزيّ الذي يدور حوله الجزء الأول من مناجاة نعيمة.

أ - ويُعلّل تساؤله هذا بأنّ اثنين من الإنجيليين (متى ويوحنا) من تلاميذ المسيح، وهما لازماه طوال رسالته العلنيّة،

(٣) ص ٢١.

(٢) ص ٢١.

(١) ص ٨.

فحديثه وتعاليمه نجدها كافية لشرح معالم الإنسان، أي إنسان، فيكون هو يسوع المسيح. وهذه أسئلة تحدّ من المسيح الذي هو الله، فهو والآب واحد: «فكلّ من الآب والابن موجود في الآخر... والآب موجود في الابن لأنّ الآب هو نفس ذاته ويُشرك الابن في ذاته...»^(١).

يطرح نعيمة تساؤلاته العقلية حول الإنجيل، في صورة مناخاة كما ذكرنا سابقاً، ومنها سؤاله حول:

أولاً: ولادة يسوع العجائبية، فيقوم بدراسة تحليلية ويقارن بين الأناجيل حول هذا الحدث، فيتوقف عند بعض النقاط مستغرباً مثلاً أنّ يسوع لم يأت على ذكر أمر ولادته العجيبة من عذراء ولو مرّة واحدة في حياته، ولا استخدمها أيّ من تلاميذه الإثني عشر كسلاح لتأكيد شخصيّة يسوع أنّه المسيح المنتظر. ويسرد مواقف تؤكّد تعجّبه، منها...

١ - اللغظ الذي أخبرنا إياه يوحنا أن الجميع كانوا ينتظرون مسيحاً من الناصرة ومن عذراء.

٢ - رفض الجموع لك في الناصرة، بلادك التي تربيت فيها. وقد سفّهوك وأنت لم تردّ.

والآخرين (مرقص ولوقا)، لم يكونا من الرّسل الاثني عشر، «بل عرفاك وسَمِعَا منك وعنك الكثير» (هذا في نظرنا سبب كافٍ كي يؤمن بما قالاه عن يسوع). والغريب أنّه لم يخطر لأيّ من الأربعة أن يدوّن ذكرياته عن يسوع من يوم إلى يوم، أو حتى من عام إلى عام، وما فطنوا إلى الكتابة إلا بعد سنوات! ويذكر في افتتاحية لوقا أنّ الذين كتبوا عنك (يقصد المسيح) قبله كانوا كثيرين، حتى في هذا الزمان السحيق. فكيف انطمس بل كيف طُمِس هذا؟

ب - رغبة إنسانية مُلحّة في تمثّيه أن يصف له أحد شكل يسوع وملامح وجهه، ويتعجّب من ذكر الإنجيليين للمناسبات الثلاث التي بكى فيها وعدم ذكرهم ولو مرّة واحدة أنّ يسوع ابتسم أو ضحك. وكأنّه يرى في الإنجيليين حال الكنيسة في حياته فنرى نعيمة يتّهم الكنيسة أنّها توجه الأنظار إلى الحزن مع يسوع أكثر من الفرح والبهجة والفرح في التعرف به، وأنه مصدر الفرح والسعادة لا الشقاء والبكاء والنحيب.

يبدو نعيمة في سؤاله عن شكل المسيح وملامح وجهه، مهتمّاً بظواهر الأمور، على عكس ما يظهر، فإنّ أهمّ ما في موضوع معرفة المسيح، هو هذه الخبرة الروحية معه ومع الآخرين، والتي من خلالها نعرفه.

(١) القديس توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، المجلد الأول، ص ٥١٤.

٣ - ثورة الجموع عليك، عندما نسبت إلى نفسك نبوة أشعيا التي قرأتها في المجمع.

٤ - متى في سرد نَسَبِكَ، يردّه إلى يوسف، متجاهلاً أنّك لم تأت من صُلب يوسف بل من الروح القدس.

٥ - ويعود يتساءل مجدداً عن الولادة العجائبية، هل الله الأب الخالق، يرى نجاسة في العلاقة بين الذكر والأنثى، ويرى في ولادتك من رجل وامرأة أمراً مهيناً لكرامته وكرامتك.

ثانياً: حول العلاقة بين يسوع ومريم.

٦ - جوابك لها في عرس قانا الجليل «ما لي ولك أيتها المرأة؟ لم تأت ساعتي بعد».

٧ - استنكاره الشديد لوجود فترة طويلة جداً من حياة يسوع على الأرض تمتد بين الثانية عشرة من عمره وحتى الثلاثين، أي ثماني عشرة سنة سكت عنها الإنجيليون سكوتاً مطبقاً، وتجاهلوا تجاهلاً مجحفاً! ويرجع استنكاره إلى أهميّة هذه السنوات التي اكتملت فيها رجولة المسيح، ونضجت رسالته فانطلق يذيعها للناس.

كما ترجع أهمية الجواب عن السؤال أنه

المفتاح الذي يمكّننا من تفهّم يسوع وحياته وبشارته^(١).

ويُعَلّل نعيمة هذا الصمت المطبق عن هذه المرحلة أنّ الرسل لم يكونوا يعرفون شيئاً عن المكان الذي أمضى فيه يسوع تلك الفترة من حياته. لقد كان سرّاً لم يبح به يسوع لأحد^(٢). ويفترض أنّ يوحنا المعمدان كان الوحيد الذي وقف على ذلك السرّ من بين الذين ورد ذكرهم في الإنجيل.

يهتدي نعيمة بتفكيره ويطرح بعض الفرضيات ويبرهن مدى صحّتها أو خطئها بالآتي:

الفرضية الأولى:

كانت هذه الفترة في بلاد فارس، أو بلاد الهند. وقد استند في هذه الفرضية إلى رواية الإنجيل عن المجوس الذين جاؤوا من المشرق ليسجدوا للطفل يسوع، فيرى أنّه من غير المعقول اهتمامهم بالطفل وهو في المهد وإهمالهم له بعد ذلك. فيفترض أنّهم أخذوا يسوع اليافع إلى ديارهم ليديروهم على طريق المعرفة وليكشفوا له أسراراً لا تُكشَف عادة إلا للمختارين.

ولكنّه يعود وينقض هذا الافتراض، حيث أن كرازة يسوع لا تشمل أيّ مسحة من بونا أو آخرين من رموز هذه المنطقة،

(٢) ص ٢٠.

(١) ص ٢١.

بل نرى المسحة الطاغية في الأناجيل عبرية بحثة. فيبدو من كل ذلك أن يسوع تثقّف ثقافة عبرية خالصة، وأنه لم يكن له أيّ إمام بأية ثقافة غيرها. ومن ثمّ هو لم يبرح أرض فلسطين، ولم يتقن أية لغة غير اللغة المحكية في محيطه، في ذلك الزمان، وتلك التي خاطب بها تلاميذه والجموع.

الفرضية الثانية^(١)

وهي تنشأ نتيجة اكتشاف جماعة «قمران»... ويستنتج منها أنّ جماعة مثل هذه عاشت طيلة قرنين من الزمان، وإنّ من تولّوا أمرها، رجال بلغوا من الحكمة والمعرفة شأنًا بعيدًا جدًّا. والمعرفة هنا المقصود بها معرفة القوى غير المنظورة. وبالتالي فقد قرأ هؤلاء علامات الأزمنة، وانتبهوا إلى ولادة طفلين عجيبين مثل يوحنا ويسوع، فانتظروا حتّى يبلغا السنّ الذي يستطيعان فيه أن يتقبّلا بالتدرّج التمارين القاسية والكشوف الروحية التي ستمكّن كلّ منهما من تأدية الرسالة الموكلة إليه. كما يرجّح نعيمه أنّ حكماء هذه الجماعة كانوا يعرفون أنّ رسالة يسوع هي الأهمّ، فهو المسيح المنتظر. أمّا رسالة يوحنا فلم تكن أكثر من تمهيد لرسالة يسوع. ومن هنا جاء لقبه: «يوحنا السابق». وهكذا يفترض ويؤكد نعيمة، بأنّ يوحنا

ويسوع انضمّا إلى الأخوية الأسينية وهما في الثانية عشرة. ولم ينفصلا عنها حتى بلوغهما الثلاثين، وهي سنّ اكتمال الروح والرجولة. أمّا كيف انضمّا؟ فيقدّر ذلك أن دعاة الأخوية جاؤوا إليهما بطريقة سرّية.

● المعجزات:

يستنتج نعيمة من الإنجيل، أنّ هدف يسوع هو ملكوت السموات، وطريق الملكوت هو التوبة. ويتساءل: ما هو ملكوت السموات هذا؟ وأين هو؟ وهل كان بعيدًا واقترب بمجيء يسوع؟ وما هي التوبة؟ وعمّ نتوب؟ وكيف نتوب؟ يقول نعيمة إنّ يسوع حاول أن يجيب عنها خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياته.

كانت مشقّة يسوع في رسالته، أنّ الجموع يهتمّون بالأمر المادية ولا يلتفتون إلى كلّ ما هو فوق هذه الحاجات. وقد اختار تلاميذه من البسطاء الذين لاتزال في قلوبهم جذوة الإيمان الحيّ، والمؤهلين أكثر من سواهم لتقبّل الكلمة الجديدة^(٢). وبما أنّ الأناجيل لا تروي إلاّ اليسير من أعمال يسوع وأقواله، فيجب علينا الانتباه وقراءة ما بين السطور في علاقة يسوع بتلاميذه، وتلمّس المشقّة التي عاناها في تثقيفهم وفتح بصائرهم على حقيقته وحقيقة رسالته.

(٢) ص ٥٣.

(١) ص ٣٠، ٢.

ويرجّح نعيمة أنّ هذه المعاناة الأليمة مع التلاميذ كانت الدافع الأقوى وراء عجائب يسوع الكثيرة التي قام بها في سنواته الثلاث الأخيرة. فهذه العجائب عند نعيمة مظاهرات بعيدة عن المألوف وخارقة لقوانين الطبيعة، وبالتالي، يمكن بسهولة التأثير بها أكثر من الكلمة النيرة والتي لا تستوعبها إلاّ القلوب النيرة^(١).

ويسرد نعيمة دوافع يسوع لصنع المعجزات، فيرى أنّها إمّا بدافع الشفقة والمحبة، وإمّا بدافع التأثير على الجماهير كي تؤمن أنّه المسيح المنتظر. وإمّا على مضضٍ لأنّ الناس حوله لا ينفكّون يطلبون آية.

وهنا نقول، إنّ إله المسيحية لم يفعل المعجزات كالسحرة، ولكن يجب النظر إلى رمزية المعجزة، وهي أنّ الله يقبلنا كما نحن، يبادر نحونا، يشعر بنا، ويسأل عن إرادتنا. يسوع كان يُدخل ذوي الأمراض بشفائهم إلى الجماعة، فحسب التقليد اليهودي، كلّ من كان ذا مرض أو عاهة، هو إنسان خاطئ، وبالتالي مفضول عن الجماعة. وهنا يأتي اللقاء مع يسوع، في عمق فشل الإنسان وضعفه ليعلن الولادة الجديدة، الخلق الجديد. فمن التفاهة والسطحية أن نفرض أنّ يسوع كان يقوم بالمعجزات كي يؤمن به

التلاميذ. فهل يقبل نعيمة أن يكون متفرجًا على مسرحية أو فيلم بطله يسوع والمجتمع اليهودي؟ هكذا يضع نعيمة نفسه، وهكذا ينظر إلى الأناجيل، ليست ككتاب حياة وبشرى جديدة، بل كرواية فيها البطل وباقي الشخصيات، وهو القارئ الذي يُعمل مخيلته فيها فيراها كفيلم ذي أحداث غير منطقية. وفي هذه الحالة نرى أنّه من الطبيعي أن يقع نعيمة في فخ هذه التساؤلات الجوفاء.

● الملكوت:

ويعود نعيمة ويتحدث عن فهمه لمسألة الملكوت، فيبحث عن «الملكوت» في القاموس اللغويّ فإذا هو، «المُلك العظيم»، العزّة والسلطان. ويرى نعيمة أن الملك العظيم ما هو إلاّ «السموات». وهنا يتغيّر السؤال فما هي السموات؟ وأين هي؟

على عكس ما ظنّ القدماء، يرى نعيمة أنّ السماء ليست دائمًا فوق، نقيض الأرض. ولا هي مصدر كلّ خير ونعمة، والأرض هي الشرّ الذي يقابل الخير. بل يرى أنّ في السماء شعورًا بالوجود الذي لا يعرف الحدود، حدود الزمان والمكان. ولكن يعود نعيمة فيسأل أين هي؟ يجد ضالته في واحدة من تعاليم يسوع «ملكوت الله في قلوبكم»^(٢)، فهو ليس مُلكًا يسعى إليه

(٢) ص ٦٢.

(١) ص ٥٥.

بأنّها الرجوع عن الخطأ رجوعاً يرافقه الندم الصادق، العميق، على ارتكاب ذلك الخطأ مع التصميم الحازم، الصارم، على عدم الوقوع فيه مرّة أخرى.

ولكن ما هي الخطيئة؟ تلك هي التي توهم الإنسان أنه يملك حياة غير حياة الله، وإرادة غير إرادته، وملكوته مستقلاً عن ملكوته، وأنه يستطيع التصرف بذلك الملكوت على هواه، وهي ما يسميها نعيمة الخطيئة الكبرى، التي منها كلّ خطايا الإنسان، وهذه الخطيئة مثلها يسوع في مثل الابن الضالّ. في هذا المثل يجد نعيمة خلاصته الإيمانية السابق ذكرها في الخطيئة والتوبة والخلاص. ويستقي نعيمة من هذه الزاوية فهمه معظم أقوال يسوع وأعماله. فيرى في العظة على الجبل أنّ الإنسان أخو الإنسان، وأن البشرية تتمثل بكاملها في كلّ فرد من أفرادها، وأن الله أبو الجميع، لذلك لا بدّ للإنسان من أن يعامل أخاه الإنسان معاملته لنفسه.

والخطايا كثيرة، هي خطايا الفعل والقول والفكر والنية وجميع الشهوات. وهذه جميعها لا مناص من الرجوع عنها لطالب الخلاص.

ويسرد نعيمة من الإنجيل ما يدلّ على خطايا، الكبرياء وحبّ السلطان، حبّ المال،

الإنسان، بل هو كنز مخبأ في قلب كلّ إنسان. وعلى كلّ إنسان أن يكتشفه بجهد الخاصّ. إنّه حالة من وعي الإنسان لنفسه وعياً شاملاً لا مجال فيه لأيّ فاصل بينه وبين ربّه الذي منه وفيه كلّ منظور وغير منظور في الكون. هو وعي حاضر أبدياً وغير منقطع لوحدة الإنسان بالكون وربّ الكون. ومن شأن ذلك الوعي أن تنهار معه حدود الزمان والمكان، وتتلاشى المخاوف على أنواعها، بتلاشي الشهوات التي تثيرها^(١).

ويعود نعيمة فيؤكد بأن يسوع واثق ومؤمّن بقدرته الإنسان على اكتشاف الملكوت الذي في قلبه، وإلا لكان تبشيره بهذا الملكوت ضرباً من ضروب الخيال. ولكنّه أدرك ذلك الملكوت بنفسه، وبات همّه الأكبر أن يُعلم الناس كيف يكتشفونه في نفوسهم^(٢).

وهنا نتفق معه بحسب فهمنا للمكتوب، وبعيداً عن تحريف الكلمات وإضفاء معنى غير المقصود، مع نعيمة في ما هداه فكره إلى الملكوت.

● معنى التوبة والخطيئة:

يرى ميخائيل نعيمة، أن التوبة، في نظر يسوع، هي الخطوة الأولى والأهمّ في طريق الملكوت. ولكن ما هي التوبة؟ يعرفها

(٢) ص ٦٣.

(١) ص ٦٢ : ٦٣.

الشيوعي، حيث يطلب الذهاب إلى أبعد، إلى أن يترك الإنسان كل شيء من أجل الله، هذه الغاية أو الفكرة.

يعتبر نعيمة عيشه أربع سنوات في الناصرة تدبيراً إلهياً. فيصف ما رآه وعاشه، ومشاعره وهو يعود يتذكر الأرض التي مشى عليها المسيح. وهذا يعبر بشدة عن إيمانه القوي بيسوع المسيح.

يقارن بين إله موسى وشريعته، وإله يعقوب وشريعته. فيرى أن المسيح قد فهمها بطريقة خلاقة ومبدعة أكثر من أتباعه اليهود الذين عاشوا في الجو المغلق والخانق نفسه.

وهنا يلمح نعيمة إلى موقفه المعارض لإيمان الرسل وإيمان الكنيسة، تبريره بقراءة الأحداث الإنجيلية وفهمها بطريقة خلاقة، على مثال يسوع.

● فعل الإنجيل في الشرق والغرب:

وقد نفى نعيمة، أن يكون الإنجيل لكل زمان ولكل إنسان. ويرى أن الغربيين ليسوا على الإيمان القويم. وهذا منافٍ للواقع تماماً. فكما يفهم الشرقيون الإنجيل يستطيع الناس في المقلب الآخر من الأرض أن يفهموه، وإلا لكان المسيح، أو الرسل من بعده، أو الكنيسة، حكراً على الجزء الشرقي من العالم. وإن كان الغرب قد أولوا تعاليم

واهتمام الإنسان بحاجاته الدنيوية أكثر من اهتمامه بحاجاته الروحية، والرياء والدجل والتظاهر بما ليس في القلب وكأته من القلب في الصميم، وخطيئة الفريسيين وغطرستهم.

هنا يتساءل نعيمة: «تُرى لو عاد يسوع اليوم إلى الأرض فهل كان يقول في الذين يتولون تعميم تعاليمه وتطبيقها ما قاله في الكتبة والفريسيين؟ أم أنه كان يضيف شيئاً من متفجرات هذا العصر؟»^(١)

وهنا تلوح لنا في الأفق، ما يمكن تسميته بأزمة جبران مع رجال الدين، والتي يعبر عنها بالكلمات السابقة، فيرى رجال الدين في عصره امتداداً لهؤلاء الكتبة والفريسيين. وكأته نسي أن الإنسان هو الإنسان، والعالم هو العالم، قديماً وحديثاً.

ينبّه نعيمة إلى أن يسوع كما يراه، شخص واقعي، لا ينكر الجهاد وصراع الإنسان ضد ذاته وضد العالم، بل يقبلها ويجتازها بسلام لثقتة في الأب.

لا يطلب نعيمة الزهد في العالم، بل الذهاب إلى أبعد، إلى التحرر من الممتلكات والأقارب، بل من النفس التي لها كيان خارج عن كيان الله، وإرادة خارجة عن إرادة الله.

وهنا يتجلى لنا فكر ميخائيل نعيمة

(١) ص ٧٥.

يسوع، أوليس بقدره أيّ شخص آخر على سطح الكرة الأرضيّة، أن يؤوّل هذه التعاليم، بما يتناسب وفكره وفهمه؟ أوليس نعيمة نفسه قد فكّر وأوّل بحسب قدرته وفهمه؟ هنا أيضًا تتجلى المتاهة الفكرية التي وقع فيها نعيمة والتي أشرنا إليها في بداية قراءتنا.

● الأب والآب:

يوضح نعيمة أنّ الترجمة العربية للإنجيل استعملت كلمتين «الآب» و«الأب». الأولى من اللغة المحكيّة زمان يسوع، وهي تعني الأب بالعربية. ولم يتطرق إلى الكون الشامل وكيف تكوّن، وكيف خُلق الإنسان. وهذا معناه قبوله بما جاء في سفر التكوين في التوراة. أي أنّ أباه السماويّ الذي نادى به هو نفسه ربّ موسى الذي خلق العالم في ستّة أيام ثمّ أستراح في اليوم السابع.

ثمّ لا ينفكّ نعيمة يُعالج موضوع اليوم السابع، مُعْتَبِرًا أنّ الله لم يسترح منذ خلق الإنسان، فهو منذ ذاك الحين ما برح يوليه اهتمامًا خاصًا. وقد جعل الأرض مسكن الإنسان وباتت الأرض محور الكون، أو حبة قلبه، أو بؤبؤ عينه، حسب تعبير نعيمة.

إنطلاقًا من رواية موسى، ومقارنتها بما توصل إليه العلم أيام نعيمة حول عمر الإنسان وعمر الكون كلّه، والأرض خصوصًا. ينفى نعيمة أن تكون كلّ هذه الأجرام في الفضاء زينة للأرض فقط،

ويؤكّد أنّنا لا نزال نجهل الكثير ممّا يجري على الأرض، وما يجري في كلّ كوكب في الفضاء.

ويعود فيؤكّد أنّ عالمنا الشمسيّ واحدٌ من عوالم كثيرة في هذا الفضاء المترامي الأطراف، وأن لكلّ واحد من هذه العوالم نظامه الخاصّ به، ولكنّها ترتبط في النهاية بنظام واحد وهو نظام الكون الأكبر أو الشامل إذا جاز لنا التعبير. والمهيمن على ذلك النظام وهو ما نسميه اصطلاحًا «الله»، كما يفترض أن المهيمنين على العوالم الأخرى التي تشكّل العالم الكوني الشامل هم «أرباب»، يستمدّون وجودهم وسلطانهم من «الله».

في ضوء هذا الافتراض، يلوح نعيمة أنّ هذا الآب الذي تكلم عليه يسوع، لم يكن الروح الكوني المنزّه عن الصفات والحالات، أي «الله»، بل هو الربّ المسؤول عن عالمنا الشمسيّ بالدرجة الأولى وعن الإنسان الذي هو زهرة هذا العالم.

وذلك الآب له مقرّ يدعى السماء، وله عرش فيها. وله يمين ويسار، واليمين مقام الشرف عنده، في إشارة إلى ما جاء في المزامير والأنجيل.

وصورة نعيمة عن هذا الآب أنّه، يحصي على الناس أنفاسهم، لا تفوته شاردة أو واردة من أفعالهم وأقوالهم ونيّاتهم، بل يحاسبهم عليها أدقّ الحساب يوم الدين.

واستكمالاً لصورة الأب، يرى نعيمة التجسّد، بأن الأب عندما رأى أنّ الناس موغلون في المعاصي، ارتأى أن يسند مهمّة إنقاذهم من ضلالهم إلى ابنه الحبيب والوحيد، فتجسّد هذا الابن في يسوع الناصريّ. وهنا نلاحظ أن نعيمة قد فصلت تمامًا بين المسيح الابن والله الأب وذهب باتجاه التقمّص الإلهيّ.

أما العلاقة الحميمة بين يسوع والأب، فيرى فيها أن كلّ من آمن بيسوع متّحد بالأب، وهذا الاتحاد يعني الألوهة. ما يُعني أن في استطاعة كلّ إنسان أن يتّحد بالأب إذا آمن بالابن وسلك طريقه. بمعنى آخر أنّ في استطاعة أيّ إنسان أن يكون كاملاً أي أن يتألّه.

ولكنّه يعود فيرى يسوع ليس إلا رسولاً، ويستند في ذلك إلى قول يسوع مميّزاً بينه وبين الأب عندما يعترف لتلاميذه بأنّ الأب «أعظم» منه. ويستنتج عقل نعيمة أنّ يسوع لم يفعل شيئاً إلاّ الذي أمره به أبوه. فقد كان حسب نعيمة ترجماناً لأبيه ومنقذاً لإرادته. وقد نسيّ نعيمة كلام يسوع لتلاميذه أيضاً في إنجيل يوحنا حين يقول: أنا والأب واحد^(١).

ويعود إلى الإنجيليين فيتساءل، إذا صدق كلّ ما يرويه متى ويوحنا لأنّهما

لازماً يسوع في حياته، وكانا شاهدي عيان، فما وضع لوقا ومرقس، اللذين نقلنا عن غيرهما؟ كما أن هناك أشياء عن يسوع دوّنها الإنجيليون وكلّهم ما كانوا شهود عيان لها ولا سمعوها، كالحوار بينه وبين الشيطان في التجارب الثلاث، أو صلاته في البستان.

وهنا يتجلّى لنا أنّ الله الذي كان نعيمة يناجيه، ويعبده ويؤمن به، لم يكن إله الكنيسة، بل إله من محض تفكيره، وخياله الأدبيّ والفلسفيّ والعلميّ.

● مفهوم الصلاة:

يتوقف نعيمة في هذا الجزء ليتساءل عن كنه الصلاة في نظر يسوع وقيمتها في حياة الإنسان التّواق إلى الخلاص. فكثيراً ما كان يختلي يسوع بذاته ويصليّ كما تذكر الأنجيل، ولكنّ ما من أحد يعرف كيف كان يصليّ في خلواته، وطريقة صلته وأسلوبها.

يستنتج نعيمة من عظة يسوع على الجبل، عندما علم أن الصلاة ليست بإطالة الكلام عبثاً كالوثنيين، أنّ الصلاة ليست بالكلام كثر أو قلّ. ولا هي طلب حاجة من الحاجات، أو طلب تغيير حالة من الحالات. لأنّ الله يعرف ما نحتاج إليه قبل أن نسأله. ويرى أنّ ما نحتاج إليه قد يكون غير الذي

(١) يوحنا، ١٠: ٣٠.

نسأله، أو نقيضه تمامًا. ويرى نعيمة أن يسوع أدرك تمامًا هذه الحقيقة، ويتجلى إدراكه لها في صلاته في بستان الزيتون «...ولكن لا كما أنا أريد، بل كما أنت تريد».

ومن هذا الاستنتاج وهذه الحقيقة المستخلصة، يعود فيتساءل: ما دامت إرادة الأب هي الغالبة في النهاية، ومادام الأب يعلم ما نحتاج إليه خيرًا منّا، وقبل أن نسأله، فما معنى صلاتنا؟

يعود نعيمة إلى نهي يسوع عن صلاة الوثنيين، ليجد الصلاة الحقّة عنده كما يستنتجها نعيمة، هي في انفتاح القلب على الأب، لا في تحريك اللسان بكلمات وعبارات من شأنها أن تلهي القلب وتحجبه عن الأب. إنّها في اتحاد المصلّي بالمصلّي إليه، وفي التنازل عن مشيئة الأول لمشيئة الثاني تنازلاً لا غصّة فيه ولا إكراه، بل ملوّه الرضا والشكر والمحبة.

هنا تظهر قيمة صلاة الجماعة التي يؤلف بين قلوبها شعورٌ واحدٌ. فمن شأن هذه الصلاة التي تصدر من القلب واللسان معاً، أن تكون مولدًا عظيمًا للخير والمحبة.

إنّ يسوع، بحسب نعيمة، لم يحدّ المغفرة بعدد معيّن من المرّات، فهي كالمحبة لا تعرف الحدود. وهي إمّا توجد في القلب أو لا توجد. ويرى من خلال واقعة رجم الزانية، أن جميع الناس في نظر

يسوع رهائن للخطيئة. وحيثما كانت المحبة كانت المغفرة، فالمغفرة تُلازمُ المحبة.

ولكن عندما يسمع نعيمة يسوع يتحدّث عن يوم الدين يصاب بما يشبه الصدمة العنيفة. حيث يفصل الناس بعضهم عن بعض، ثم يمضي يمتحنهم، بما أدّوه، أو أحجموا عن تأديته. وبالنتيجة يضعهم عن يمينه وعن يساره. يبارك أصحاب اليمين، ويلعن بقسوة أهل اليسار. أين المغفرة التي تحدث عنها من كلّ هذا؟ فالإنسان شخص بشريّ، مدعوّ إلى أن يغفر، فما بالنا بآبن الله الوحيد. وهو الذي أعطانا مثالاً في حياته، يوم علّق على الصليب فغفر بمحبة عميقة لصالبيه.

يرفض نعيمة الطريقة التي يأتي بها يسوع يوم نهاية العالم، لأسباب عديدة:

- لأنه يجدها تتنافى تمامًا مع وداعته في مجيئه الأوّل.

- كما تتنافى مع واقع الأرض، حيث يرى عدم إمكانية أن يرى أهل الأرض جميعاً غمامة واحدة مهما يكن حجمها. فكيف بحجم الإنسان الراكب عليها؟

- إذا كان راكب تلك الغمامة بجسد إنسان، فمن أين له بهذا الجسد، والسماء لا أجساد بشرية فيها؟

- ما معنى أنّ الملائكة يجمعون مختاربه من الرياح الأربعة، أو ليس في استطاعة

ابن الإنسان أن يجمع مختاربه من دون الحاجة إلى الملائكة؟

يرى نعيمة بعد كل هذه التساؤلات إلى أن تلك الهالة من العزة والجلال التي يخلعها يسوع على مجيئة الثاني ليست سوى الرمز إلى سموّ الآتي وسموّ رسالته، وأن أخذها بحرفيتها يؤدي إلى عكس ذلك. وهنا يطلب نعيمة إلى الناس أن يقرأوا ويفهموا أكثر من الحرف وأبعد منه.

● التقمّص والتجسّد:

يخصّص نعيمة بوضوح بالغ من بين جميع عجائب يسوع، عجيبة واحدة (المولود أعمى)، لأنها

تسلط الضوء بقوة على الصراع العنيف الذي خاضه يسوع في حياته مرغمًا، ضدّ أئمة اليهود. ويأخذ من الموقف العنيف لرؤساء الكهنة والكتبة والفرّيسيّين ضدّ يسوع وضدّ المولود أعمى، الذي أفضى بطرد الأخير من المجمع، ما يُشبه صورة رجال الدين في زمانه، إذ يقفون على الشريعة والحرف، يطردون ويحرمون، في إشارة إلى ما عاناه مع رجال الكنيسة وما يعيشه من صراع معهم أدّى إلى حرمانه من الكنيسة، بل يفعلون أفظع من ذلك، فهم يصلبون ويحرقون ويقتلون بحدّ السيف.

يرى في ردّ يسوع على سؤال التلاميذ «هل هذا أخطأ أم أبواه حتّى ولد أعمى؟»

تهرّبًا من جواب صريح واكتفى بالقول «لا هذا ولا أبواه». حيث يرى نعيمة أن بنفيه الخطيئة عن الرجل وعن والديه، اعتراف ضمناً بأنّه كان في مستطاع ذلك الرجل أن يخطئ قبل أن يولد. بل يبدو لنعيمة تلميحًا صريحًا إلى التقمّص.

وما يدعم فكرة نعيمة، حدث إنجيلي آخر حيث سأل تلاميذه عمّن هو ابن الإنسان في قول الناس؟

فجاءته إجابات متعدّدة، يستنتج منها نعيمة أنّ اليهود ومنهم يسوع وتلاميذه، كانوا يؤمنون بأنّ أرواح الذين ينفصلون عن الأرض يمكن أن تعود إلى الأرض، فتلبس كلّ روح جسدًا أو قميصًا جديدًا يتناسب مع ماضيها ومع حاجاتها الجديدة في حياتها الجديدة «التقمّص».

وهنا حان الوقت للتمييز بين «التقمّص» و«التجسّد»، وهذا خطأ جوهري وقع فيه نعيمة، إذ إنّ العمل الإلهي الذي أدّى إلى حلول المسيح في جسد بيننا، لا علاقة له بتناسخ الأرواح، أو بحلول الأرواح البشريّة في أجساد مولودة حديثًا بعد موتها. وقد يكون هذا الأمر مفصلاً أساسياً في البنية الفكرية التي بنى عليها نعيمة تحليله في هذا الكتاب. إنّ المسيحيّين المؤمنين يشعرون بتعزية عظيمة في اعترافهم بهويّة يسوع الإلهية، إذ يستنتجون أنّ الله أحبّنا حتّى إنّه دخل هذا العالم الظالم والعنيف، وأصبح

إنساناً ضعيفاً حتى الموت على الصليب. أما بديل ذلك فهو أن يكون يسوع غير إلهي، بحيث وغير مستعداً لأن يصبح إنساناً، وأن قيمتنا لديه ليست ذات شأن. وهذا ما يتناقض وجوهراً الرسالة التي حملها المسيح بتجسده.

ونعيمة لا يعترف بيسوع إلهاً، بل يراه إنساناً اتحد بالله في الصميم، هذا يدعونا لأن نبين دلالات إنسانية يسوع وأهميتها. فالاعتراف بإنسانية يسوع الحقيقية والكاملة أمر مهم جداً في الإيمان المسيحي:

أولاً: ما عاد عالمنا هو ابن الله فحسب، بل أصبح ابنُ الله جزءاً منه. وما عاد ابن الله يرى من بعيد حياة العالم، بل التحق بها. أصبح يختبر مثلنا عالمنا، أفراحه وأحزانه، الجوع والتعب والبغض، الخوف والألم. وعندما اتحد الحالة الإنسانية، لم يكن له أي إمتياز، بل شاركنا في كل شيء، وعاني مثلنا محدوديتنا، بما في ذلك حدنا الأخير - الموت. وبالتالي فهو يعرفنا معرفة تامة. مكّنه ذلك من أن يمثل البشر لدى الله، فإن كان غريباً عن حالتنا، لا يمكنه أن يمثلنا كبشر تمثيلاً كاملاً. ومن ثمّ ساعدنا على أن نكتشف كيف يجب أن تكون الحياة البشرية أمام الله.

ثانياً: به عرفنا كيف أنّ الله يحبنا، ويفهمنا. ومن هنا تأتي ثقنا بأننا محبوبون وجدديرون بالاهتمام. ومن ثمّ نستطيع أن

نتمثّل بالمسيح بحبّ، ونتبعه كتلاميذ أمناء لأننا نعلم أنّه يشارك في حالتنا الإنسانية.

● الإنسان الإنسان:

حفظ السبت، وتقديس يوم الربّ: هذه هي الوصية الرابعة من الوصايا العشر. وميرزاها الله عن باقي الوصايا، بأن جعل القتل عقاباً لمن خالفها، بعكس باقي الوصايا التي لم يُحدّد لها قصاصاً. ومن يتتبع تاريخ اليهود يلاحظ أنهم انحرفوا غير مرّة عن تنفيذ الوصايا ماعدا هذه الوصية، حفظ السبت. فللسبت اعتبار مهمّ عندهم لا يضاويه اعتبار حتى لربّ السبت. ومن هنا كان صراع بين يسوع الذي يعمل في السبت وبين الكتبة والفريسيين الذين يشدّدون على اليهود تقديس السبت.

ويُعدّ نعيمة المرّات العديدة التي صنع فيها يسوع عجائبه يوم السبت، والتي خالف من خلالها شريعة اليهود. وتعاليم يسوع التي تفيد بأن السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت. ومن هنا ينتقل إلى يسوع الذي جاء ليحطّم قيود الشريعة، ويعطيها مساحة المحبة. ويحرّر الإنسان من قيود روحه وأصفاها. وشريعة يسوع كما يراها نعيمة، هي الإنسان والإنسان وحده.

ومن هنا يتوقّع نعيمة أنّ يسوع لو كان يعيش في واقعنا اليوم، لأفرغ السجون، وزاد من تقديس الإنسان، لأنّ الأرض

سجن الإنسان، وجسده سجن أيضًا، وجهله سجن ثالث.

ويستند نعيمة إلى أنّ شريعة المحبة هي ما يتحتم على الإنسان أن يعيش بها ولها، ولكنّه يرى اليوم أنّ قلوب الناس رهن العادات والتقاليد والطقوس والشرائع، والتي أصبحوا يقدسونها أكثر من الإنسان. وهي كلّها إفرازات عقل الإنسان الظاهر وجسده، وليس عقله الباطن وروحه.

هنا، لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ نعيمة يفصل بين الإنسان قيمةً، وبين الإنسان مشروعاً للتأله، وبين الإنسان صورةً وجوهراً. فإذا كان الإنسان مشروع كمال، فهو روح فريدة غير متعدّدة اللبوس...

ولمزيد من التشكيك، يورد نعيمة حديث يسوع والسامرية. فيعود ويتساءل: كيف عرف التلاميذ حوار يسوع مع السامرية ودونوه، وهم لم يكونوا حاضرين؟

ينظر نعيمة إلى الإنسان ويرى في هذا الحدث، اهتمام يسوع به، في حين يحتقر اليهود السامريين، فيصرخ ويقول على لسان المسيح: «الإنسان! الإنسان! كيفما كان وأينما كان. إنه أخي، وأنا وإياه واحد مثلما أنا والآب واحد!»⁽¹⁾. وهنا تتجلى نزعتة الإنسانية.

ويعود إلى مثل السامريّ الصالح ويفهم أن يسوع يريد به نفس التعاليم والتقاليد والطقوس البالية، التي من شأنها أن تمسح صورة الله في الإنسان، وأن تقيم الحواجز بين الإنسان وأخيه الإنسان. ويرى نعيمة أن المهمّ في علاقة الإنسان بالإنسان هو الشعور بوحدة المصدر والمصير.

وعلى جواب يسوع المرأة بأنّ الله روح، يجد نعيمة أنّ الاتصال به لا يتمّ إلا بالروح. وذلك ميسور لكلّ إنسان، في كلّ زمان ومكان، لا في أماكن بعينها ولا في أوقات معيّنة. ويجد أنّ العمل الصالح، اتّصال بالله، وكذلك الفكرة الصالحة، والنية الصالحة، والكلمة الصالحة. كما يستنتج من هذا التفسير عدم أهميّة الفرائض للعبادة عند المؤمن، بل المهم أن يستنير العابد في كلّ ما ينوي ويفكر ويعمل بنور الحقّ.

وردّ يسوع على المرأة السامرية بأنّ «من يشرب من الماء الذي أعطيه إياه فلن يظمأ أبداً...»، ويرى أنّ هذا الماء معرفة الحياة، تلك المعرفة التي أدركها يسوع عندما أدرك أنّ الله هو الحياة، والمعرفة التي حاول يسوع نقلها لتلاميذه، وأنّ ذلك جاء من دون جدوى، لأنّ معرفتهم الخير والشرّ تقف سداً منيعاً بينهم وبين معرفة الحياة التي تفوق الأولى. ولكنّه يعود فيبيّن أن

(1) ص ١٦٥.

التلاميذ تذوقوا معرفة الحياة هذه بعد انفصال يسوع عنهم، وإرساله الروح القدس، الذي هو روح الوعي الشامل الذي فتح بصائرهم على الحياة.

وهذا القول لنعيمة دليل على أن العالم الروحي، وإن أثبتته نعيمة وأنكره أحياناً، يُظلل قيمة الإنسان، ويرفع من شأنها، ويحيل مرجعيته من الذاتية إلى الروحية، أي إلى العالم الأشمل والأوسع.

● في الإيمان:

يُعرف ميخائيل نعيمة بالأنبياء على أنهم أشخاص يدعون أنهم عرفوا الكون، لا عن طريق الحواس الخارجية، بل عن طريق حواس أطف بكثير. وعلى كل إنسان أن يصدّقهم أو لا. وتصديقه إذ ذاك لا يأتيه نتيجة لخبرته الخاصة، بل لإيمانه بصدق هذا الرسول أو ذاك. أي إن الإيمان هو الركيزة الأولى التي يقوم عليها أي كشف ديني. وما تعدّد الأديان غير شاهد على أن الناس ليسوا في مستوى واحد من الإيمان.

الإيمان، هو اعتراف المؤمن بحدود العقل المقيّد بالمحسوسات ثمّ تخطّيه تلك الحدود إلى حقيقة الوجود التي لا تُحسّ، التي لا يطرأ عليها أيّ تغيير. ويختم قوله بأنّ ذلك هو الإيمان المبصر، وقليلون هم المبصرون.

ويُعرف الإيمان الأعمى، ومبعثه الخوف

ورفيقه التعصّب، وهو أخطّ مظاهر الإيمان، بأنّه هروب المؤمن من نفسه وتعلّقه بأذيال شبحٍ يخيل إليه أنّه يستطيع أن يدفع عنه الشرّ في الدنيا، ويغمره بالخير في الآخرة. ويرى أنّ هناك مراتب عديدة بين هذين الإيمانين منها إيمان البراءة، التي لم تفسدها مقاييس الخير والشر. فالشكّ ضد الإيمان. ومن ذلك يبرر نعيمة أن يسوع لم يقدّم بأيّ معجزة في الناصرة.

يرى نعيمة بأنّ المؤمن يستطيع كلّ شيء، فالإيمان هو الكنز الذي إذا اكتشفه الشخص بات في غنى عن كلّ كنوز الأرض. والإيمان المستنير الواعي في نظر نعيمة هو أن يكون «أنا» و«غير أنا» هما في الواقع واحد. وهذا عند نعيمة الإيمان الذي جاء به يسوع ليهدي الجميع.

انطلاقاً من هذه القراءة، يُغفل نعيمة مسألة مهمّة، وهي أنّ الشكّ أحياناً طريق إلى الإيمان. لذا فإنّ الإيمان الأعمى الذي لا يمرّ بمراحل أبرزها الشكّ يكون إيماناً سطحياً غير مبنيّ على عمق تأمليّ حقيقيّ.

الغريب في رأي نعيمة، أمر العشاء الأخير، وهو أنّ يوحنا وحده تفرّد بذكره، أما الثلاثة الباقون من الإنجيليين فقد سكتوا عنه سكوته مطبقاً. يغفر نعيمة للوقا ومرقص ذلك السكوت لأنّهما لم يشتركا في ذلك العشاء، أمّا متى فلا يعرف كيف يغفر

له؟

يسوع قبل موته، حذر تلاميذه، بعد أن خشي عليهم من الاختلاف، من أن القضية ليست قضية مراتب، بل قضية رسالة ينبغي أن تنشر لخلاص الناس، إنها قضية بذل وعطاء وخدمة بغير حدود.

أن يأكل التلاميذ جسد معلمهم، وأن يشربوا دمه، يعني أن يصبحوا وإياه واحداً في الحياة السرمدية.

والسؤال هنا يُطرح على نعيمة نفسه: أين هذه الحياة السرمدية؟ هل في تعدد الأجساد أم بجوار الخالق؟ وهل التجرد من المادة ومن اللحم والدم يُبقي على نظرية التقمص؟

● عن الكنيسة:

ويرى نعيمة أن آباء الكنيسة الذين رتبوا عقائدها وطقوسها وتقاليدها، أضفوا عليها ألواناً من السر، والبهرجة والقداسة، فكانت الأسرار والليتورجيا نوعاً من مناظرة الوثنيين واليهود.

وفي نقده الأسرار، يقرأ نعيمة تعاليم الكنيسة التي تقول بأن هذه الأسرار كلها لا تتم إلا «بنعمة الروح القدس». ونعمة الروح القدس لا تحل إلا بواسطة كاهن سبق أن نالها من أسقف بمجرد أن وضع الأخير يده على رأسه، وهنا يفهم نعيمة أن الروح القدس ما برح ينتقل بوضع اليد منذ أن نزل على الرسل بعد انفصال معلمهم عنهم.

ويتساءل: هل يصدق أن الذين جاؤوا منذ أيام الرسل وحتى اليوم كانوا كلهم أنية صالحة للروح القدس؟ فلماذا إذن انقسمت الكنيسة إلى كنائس؟ ولماذا اختلف رؤساؤها في من يكون الأول بينهم؟ ولماذا قامت الحروب بين المسيحيين؟ أكل ذلك بمعرفة الروح القدس وبركته؟

ويجد أن الكنيسة باتت مؤسسة كباقي المؤسسات، ويراها تحافظ على كيانها هذا بكل ما أوتيت من قوة. وهي تدعي أنها تستمد قوتها مباشرة من السماء.

هنا يشكو نعيمة مشكلته في فهم الكنيسة وحياتها، ومتخذاً بصورة أدبية مقارنة وضع التشابه بينه وبين المسيح، والتي تستمر في مناجاته حتى اتهام كليهما بالكفر، أي يسوع ونعيمة. فقد حكم رجال الدين اليهود على يسوع بأنه كافر، خوفاً على مناصبهم وسلطتهم. ويسأل: ما هو الكفر في نظر رجال الدين؟ هل هو أن يعبد الشخص رباً غير الذي يعبدونه؟ أو بطريقة غير التي يمارسوها؟ أو أن لا تعبد الله على الإطلاق؟

يسرد نعيمة من التاريخ أشخاصاً من مختلف المراحل حكم عليهم بالكفر، منهم سقراط، غاليليو، الحلاج وغيرهم. ويرى أن هذه الأحداث والأحكام فجيعة في تاريخ الفكر الإنساني.

يرى نعيمة أن الدين هو المجال الرحب،

والأعمق والأبعد لتجوال الفكر وتطوره واستكشافه لذاته وللمجاهل الكثيرة التي لا تزال قائمة في تلك الذات.

أما الكنيسة فهي حدود الإيمان، لأنها جسد المسيح السرّي، وهي جماعة المؤمنين. هي ليست رابطة أدبية ينتمي إليها الشخص، ويعمل فكره في ضوءها، بل هي إيمان الرسل، وهذا الإيمان هو حدودها.

● القيامة:

يرى نعيمة أن كلام يوحنا عن صلب يسوع وقيامته أجدر بالاهتمام من غيره، لأنه كلام شاهد عيان على الأحداث. ولكنّه يترك في نفسه الكثير من علامات الاستفهام.

ليس في روايات الأناجيل عن القيامة ما يمكن القارئ من تحديد المدة التي قضاها يسوع في القبر؟ والمدة التي فرغ فيها القبر بعد القيامة.

من الذي أزاح الحجر الكبير عن باب القبر؟ وما دامت الأكفان كانت ملقاة على أرض القبر، ماذا كان يرتدي يسوع؟ وإلى أين ذهب بعد خروجه وهو عريان؟ لماذا لم يظهر لبطرس ويوحنا كما ظهر لمريم المجدلية؟ وعندما ظهر لمريم المجدلية ولم تعرفه وظنّته البستاني، هل تغيّرت هيئته إلى هذه الدرجة؟ وإذا لم تعرفه من شكله، فكيف عرفته من صوته؟ لماذا طلب إليها أن لا تلمسه؟ هل إذا لمستّه لا يستطيع أن

يصعد إلى أبيه؟ وها هو يدعو توما بعد ثمانية أيام أن يضع يديه في جروحاته لا أن يلمسه فقط؟ والأغرب من ذلك، في لقائه تلميذي عمّاس، حتى وقد شاركهما الحديث، لم يعرفاه من شكله، ولا من زيّه، ولا من صوته مثلما عرفته المجدلية، بل عرفاه عند كسر الخبز ومن ثمّ ما لبث أن توارى عنهما.

أربعون يوماً قضاها يسوع بين قيامته وصعوده قضاها على الأرض، لم يظهر لتلاميذه أو لسواهم سوى مرّات معدودات، فإذا كان قد قام بجسده، فأين كان ينام ويمضي معظم وقته، وماذا كان يفعل؟

كلّ هذه الأسئلة وغيرها الكثير لا يجد نعيمة إجابة عنها سوى أنّ الجسد الذي قام فيه المسيح، غير الجسد الذي كان له قبل موته. ويزيد هذا الافتراض ليصل مبلغ اليقين عنده، معنى القيامة كما يراها نعيمة.

● الخاتمة:

نجد بعد هذه القراءة السريعة لكتاب «رسائل من وحي المسيح» لنعيمة، أن الروابط القويّة بين الإيمان والعقل أخذت في التباعد في القرون الأخيرة، بسبب تحويل المقولات الإيمانية الموحى بها إلى مقولات عقلية في متناول الإدراك العقلي. فنشأة مذاهب فلسفية وفكرية وضعيّة لم تكتفِ بالابتعاد عن كلّ نظرة مسيحية إلى

العالم، بل أهملت أيضًا، على مثال ميخائيل نعيمة، كل مرجعية ورؤية ميتافيزيقية وأخلاقية. ولذلك ينادي البابا يوحنا بولس الثاني في رسالته العقل والإيمان^(١) بضرورة عودة تلك العلاقة لتقوية كل منهما الآخر، فمن العبث أن نعتقد بأن الإيمان يقوى بجانب عقل ضعيف بل بالعكس سوف يتعرض لأن يصبح أسطورة أو خرافة، كذلك من جانب العقل إذا لم يواكبه إيمان بالغ واع، فلن يهتم بما هو جديد وجذري في الحياة.

ثم يأتي بعد ذلك دور الكنيسة كسلطة تعليمية لا تتبني أي فكر فلسفي وعقلي على حساب الآخر، بل تتصدى بقوة لكل طرح فلسفي يهدد فهم الوحي بوجه صحيح، وينادي البابا الأساقفة فيقول «نحن الأساقفة، علينا أن نكون شهودًا للحقيقة في ممارسة خدمة متواضعة وحازمة». فواجب السلطة التعليمية السهر على متابعة أي انحرافات في التفكير الفلسفي بصفتها حامية الإيمان الحق. كذلك تقف السلطة التعليمية في وجه أي إيمانية متطرفة تنكر أهمية المعرفة العقلانية والخطاب الفلسفي الذي يساعد على فهم الإيمان فهمًا صحيحًا من دون الوقوع في إيمان ضعيف ينهار أمام الأسئلة العقلية التي يعجز الإيمان الهش أمامها.

ويحث البابا ويشجع الفلاسفة المسيحيين وغيرهم، على أن يثقوا بقدرات العقل البشري وألا يكتفوا بأهداف متواضعة في تفكيرهم الفلسفي والفكري، فالإيمان هو الذي يدفع العقل إلى الخروج من عزلته وأن ينظر في الأمور الماورائية نظرة إيمانية حقيقية. فهناك رباط عميق بين العمل اللاهوتي والبحث الفلسفي عن الحقيقة، فواجب السلطة التعليمية تحديد مجال فكري لا يتنافى مع الإيمان.

الإيمان لا يتعارض مع البحث العقلاني، والعقل ليس مدعواً إلى الحكم على محتوى الإيمان، فمهمة العقل كشف الأسباب التي تساعد الجميع على فهم الإيمان. أما الإيمان فيرغب في أن يُعرف محتواه عبر العقل. القديس توما فنور العقل ونور الإيمان كلاهما من عند الله، فلا يمكن أن يتناقضا، فالإيمان لا يخشى العقل بل يلتمسه ويثق به، والعقل المستنير بالإيمان يتحرر من الأوهام والمحدودية.

أخيرًا نرى أن الحقيقة مطبوعة في قلب الإنسان، وهو يحاول جاهداً اكتشافها عن طريق العقل، فالمعرفة الحقيقية قائمة على ما جاءنا عن طريق الوحي، وما اكتشفناه عن طريق العقل. فالعقل يفسر ويؤول ما جاء بالوحي، وينقل الإنسان من معرفة

(١) يوحنا بولس الثاني (البابا)، رسالة جامعة في الإيمان والعقل، اللجنة الأسقفية لوسائل النشر، بيروت، ١٩٩٨.

ثبت المصادر والمراجع

- الإنجيل المقدّس .
- نعيمة، ميخائيل، من وحي المسيح، مؤسسة نوفل، ط٢، بيروت، ١٩٨٧ .
- أغسطينوس (القديس)، اعترافات القديس أغسطينوس، ترجمة الخوري يوسف العلم، المعهد الإكليريكي الفرنسيسكانيّ الشرقيّ، ط٦، الجيزة، ١٩٨٧ .
- توما الأكوينيّ، الخلاصة اللاهوتيّة، ترجمة الخوري بولس عوّاد، المطبعة الأدبيّة، بيروت، ١٨٨١ .
- جدعان، فهمي، المقدّس والحرّيّة، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٩ .
- دوكنز، ريتشارد، وهم الإله، ترجمة بسّام البغدادي، ط٢، لا تاريخ .
- يوحنا بولس الثاني (البابا)، رسالة جامعة في الإيمان والعقل، اللجنة الأسقفية لوسائل النشر، بيروت، ١٩٩٨ .

سطحيّة إلى معرفة يقينيّة. ومن دون الصراع بين الإيمان والعقل سيظل الإنسان في نطاق أضيق من إمكانيّاته سواء العقليّة أم الإيمانيّة، فالإيمان سرّ يتطلّب منّا البحث الدائم عن تعابير وكلمات تعبر عنه، والعقل هو الأداة التي تربط بين ما نؤمن به وما نستنتج من خلال أفكارنا، لذلك يجب أن يكون هناك أوقات للصراع بينهما، وأوقات تلاقٍ من منطلق التغيّرات الواردة على نموّ العقل في الحصول على الحقيقة الكاملة. ونحن نؤمن باستقلاليّة الفلسفة والعلم في مجالات أبحاثهما، مع الحفاظ على العلاقة فيما بينهما وبين الوحي، حتى وإن كانت هذه العلاقة صراعاً وتحديّاً، لا لإثبات رأي أيّ منهما بل للسعي وراء اكتشاف الحقيقة. فكما أنّ العقل يتطوّر في بحثه، كذلك فهمنا الوحي يتقدّم لأنّه لا أحد يملك كمال الحقيقة. فالسعي للمعرفة وحده هو طوق النجاة. شرط ألاّ تكون هذه المعرفة نسبيّة ومنقوصة على ما جاء في كتاب ريتشارد دوكنز، «وهم الإله»: الفلاسفة وخصوصاً الهواة منهم، بمعرفة قليلة عن الفلسفة، وبالأخصّ هؤلاء المصابون بما يُسمّى بالثقافة النسبيّة، يأتون بشكوكٍ مُنهكة...»^(١).

(١) ريتشارد دوكنز، وهم الإله، ص ٢٨٥ .

البنية الإيقاعية الموسيقية في قصيدة «كازو» للشاعر مصطفى قاسم عباس

إعداد سهى يونس الشمعة

المنزاحة البائة للدَّفَق الشعريّ إلى عناصر أخرى في النَّصّ، تسمى عناصر لغويّة محايدة حياداً فنياً إيجابياً، يمكنها من استقبال الدَّفَق الجماليّ وبثّه في المتلقّي. فاللغة الفنّية تعبير عن الحياة بكلّ أبعادها ومملكة التّعبير في الشّاعر مزيج من الطاقتين التعبيريتين بين المباشرة والإيحائية.

وبما أنّ الدراسات البنيويّة السيميائيّة تحتل مكانةً خاصّةً بين الدّراسات الأدبيّة الحديثة، إذ إنّها نظرة في علاقات البنية اللغويّة للقصيدة وما تحمله من دلالاتٍ، فقد اعتمدت المنهج السيميائي، لدراسة قصيدة للشّاعر مصطفى قاسم عباس، وهو شاعر وكاتب سوري ولد عام ١٩٧٩ في قريته كازو، حائز على إجازة في اللغة العربيّة من جامعة دمشق، وعلى إجازة من كليّة أصول الدّين - جامعة الأزهر. صدر له

I - المقدّمة:

الشّعر في جوهره هو اللّغة ذاتها، حيث لا يمكن الفصل بينهما، فلا وجود للمعنى الشعريّ خارج نطاق النظام اللّغويّ فمجال لغة الشّعر يعود إلى نظام المفردات وعلاقاتها بعضها ببعض متوجّها بالانفعال وبالتّجربة.

ولا شك في أنّ الشّاعر مطالب بلغة مبتكرة، وهذا ليس معناه ابتكار دلالات لغويّة غير واردة في المعاجم، إلا أن الابتكار يكون في التشكيل وهو التركيب المميّز للدّالات^(١).

الشّعر خطاب لغويّ يفرغ في قالب نظام اصطلاحي، يشكّل بالضرورة عمليّة اتّصال. وليس هناك من نتاج شعريّ لا يتضمّن عناصر مرجعيّة مهما كان مشحوناً بالقوّة وبالتّعبير، فتتألف هذه الأخيرة مع العناصر

(١) المسدي، عبد السلام، النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنّشر، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٧.

- ديوان بعنوان «صور من مأساتنا» عام ٢٠٠٥ وآخر بعنوان «بدر الدجى سيّدنا محمّد» عام ٢٠٠٧، كما صدر له كتابان؛ الأوّل «من بساتين الكتب» عام ٢٠١٠ والثّاني «مقالات ودراسات إسلاميّة أدبيّة فكريّة» عام ٢٠١٤. حاز على جوائز عديدة كان آخرها المركز الأوّل في جائزة البردة العالميّة عام ٢٠١٧. له الكثير من القصائد والمقالات والبحوث في المجالات العربيّة والصّحف الدّوريّات ومواقع الانترنت^(١).
- موسيقىّة محكمة السّبك.
- انتقال الأسلوب بين الخبر والإنشاء.
- قدرة عالية وبراعة في استخدام العبارات البلاغيّة المنسجمة مع الصورة الشعريّة.
- اعتماد المكان (القرية) لبلوغ المرئي إلى اللّامرئي.
- انتقال المكان من حيّزه الواقعي إلى المتخيّل عبر الانزياح.

II - اختيار القصيدة:

أطلّ طيف كازو - قرية الشاعر - من نواحي حماه ككوكب درّي على حدود تركيا، في مدينة رأس العين، وهو يناجي الظلام ويناجيه، فانساب في مخيلته ومشاعره، فصاغ الشّوق والحبّ أحرفاً، وكلمات حنين، ثمّ نثرها في السّفر.

وقد اختيرت هذه القصيدة للدراسة في هذا البحث نظراً لما يلي:

III - عناصر البنية الإيقاعيّة الموسيقيّة:

١ - بين الوزن والإيقاع:

يرى أحمد بزّون «أنّ الإيقاع ينقسم إلى جزئين: الأوّل «التّناغم الشّكلي الذي يتضمّن في رأيه إيقاع المفردات بالنّظر إلى بنيتها المقطعيّة، وتبيان التّناغم الذي تحدّثه الطّواهر الصّوتيّة في بعض مفرداته، وإيقاع الجمل التي تقوم بنيتها على أساس التّصدّع، وتقوم حركتها بتقديم تشكّلات مقطعيّة، وفاعليّة نبر وفاعليّات صوتيّة ودلاليّة. والثّاني «التّناغم الدّالي» الذي يضمّ إيقاع التّواصل، أي انسجام حركة الدّلالات في ما بينها، ممّا يدفع إيقاعاً يحمل خصائص متشابهة، ممّا يفيد ولادة حركات جديدة، وقد يحتمل خصائص مغايرة»^(٢).

- تراوح القصيدة بين الأصالة والتّجدّد.
- التّكرار الذي يعدّ سمة بارزة فيها.
- ظاهرة التّوازن والتّوازي.
- الثّنائيّة التي تظهر ملامحها واضحة.
- الخفّة في الانتقال بين الفواصل والأوتاد والمقاطع لرسم هندسة

(١) Pulpit.alwatanvoice.com.

(٢) بزّون، أحمد، قصيدة النّثر العربيّة، دار الفكر الجديد؛ بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٤١.

تفرزه من انفعالات وخواطر، تحدّد مقاطع البيت، وتنظم ضروب الوقفات والسكنات^(٢).

والوزن هو المفهوم الافتراضي القديم للشعرية العربية التي كانت ترى أنّ الشعر هو الكلام الموزون المقفى، ولعل أدقّ عبارة حسنت من هذا التعريف عبارة «ابن سينا» حين قال «نقول نحن أولاً إنّ الشعر هو كلام متخيّل مؤلّف من أقوال موزونة متساوية^(٣) الوزن، إذًا قالب مفترض مفرغ من الكلمات يملؤه الناظمون وفقاً لتعاليمه الصارمة المتعالية، فيجعلهم متشابهين جميعاً، وعليه يمكن التعبير عن الوزن بصور مختلفة، وهي ليست من الوزن ولا من الشعر في شيء»^(٤).

الوزن الشعري عبارة عن مجموعة من التفعيلات التي يتألّف منها البيت، بكيفية معينة وترتيب معيّن^(٥)، وجعل العروضيون «المتحرّكات والسواكن عناصر للوزن ثمّ افترضوا وحدات أكبر هي الأسباب الخفيفة

والإيقاع في القصيدة هو العنصر الذي يميّز الشعر عمّا سواه، فضلاً عن أنّه يتخلّل البنية الإيقاعيّة للعمل، ولذا فإنّ العناصر اللغويّة التي يتشكّل منها ذلك العمل، تحظى من تلك الطّبيعة المميّزة بما لا تحظى به في الاستخدام العادي. وثمة أمر آخر وهو «أنّ البنية الشعريّة لا تبدو في بساطة تلك الظلال الجديدة لدلالات الألفاظ، بل إنّها تكشف الطّبيعة الجدليّة لهذه الدلالات، وتجلو خاصيّة التناقض الداخلي في ظواهر الحياة واللّغة، الأمر الذي تعجز وسائل اللّغة العاديّة عن التعبير عنه^(١).

تكمّن أهميّة الموسيقى في الشعر العربيّ الحديث في دورها في تفجير الطّاقة الدلاليّة، والإيحائيّة للّغة، وقدرتها على الكشف عن طبيعة المشاعر والأحاسيس التي تعتمل في وجدان الشّاعر. «وموسيقى الشعر تسهم اسهاماً فاعلاً في خلق الجو النّفسي الذي يرسم الصّورة الشعريّة، ويعبّر عمّا تحمله التجربة الشعريّة، وما

(١) لوتمان، يوري، تحليل النّصّ الشعري، بنية القصيدة، تحقيق محمّد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥، ص ٧٠ - ٧١.

(٢) صبحي، محيي الدين، مطارحات في فن القول، محاورات مع أدباء العصر، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٨٨.
(٣) ابن سينا، الشّفاء (الشّعر)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنّشر، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، ١٩٦٦، ص ٢٣.

(٤) البصري، عبد الجبّار داود، فضاء البيت الشعري، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، لا ط، ١٩٩٦، ص ٢٩.

(٥) السيد، صبري ابراهيم، أصول النغم في الشعر العربي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ١٩٩٣، ص ٣٩.
أو - البحراوي، سيّد، العروض وإيقاع الشعر العربي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٣٥.

حفلت بالوزن، وكان أبرز خصائص الشعريّة فيها. إنّ القصيدة الحديثة لم تعد تعتمد اعتماداً كبيراً على الوزن بقدر اعتمادها على الإيقاع الذي يتموضع في مساحات متعدّدة من النّص سواء أكانت داخلية أم خارجية. وسواء تعلّقت بالنّسق أم بالمتلقّي، ولعلّ هذه المزية من التّعدّد والتنوّع هي الصّق بالإيقاع ففي حين يقوم الوزن على الأسباب والأوتاد، يقوم الإيقاع على الارتفاع والانخفاض، والصّعود والهبوط، والشّدّة واللين، والبساطة والتّركيب، والسّرعة والتّباطؤ والاختلاف والائتلاف^(٦)...

وهذا يعني أنّ البحر الواحد قادراً على بثّ تنوعات لا نهائية من الإيقاع، ولو كان البحر هو المجد الوحيد للموسيقى الشعريّة لوجدنا للبحر الواحد إيقاعاً واحداً. يقول «ت. س. إليوت» T. S. Eliote «إنّ القصيدة الموسيقيّة هي القصيدة التي لها نمط

والثّقيلة، والأوتاد المجموعة والأوتاد المفروقة والفواصل الصّغرى والكبرى، تليها التّفاعيل ثمّ الأشرط والأبيات»^(١)، والوزن عند كولردج^(٢) (Colredj) يرجع إلى ناحيتين: التّوقّع وعدمه (عنصر المفاجأة أو خيبة الظّن)^(٣) ولا شكّ في أنّ الاختلاف والتنوّع بين العناصر ينتجان إيقاعاً كذلك، من خلال امتزاج التجربة بالوزن.

والإيقاع الشعري: هو تنظيم لأصوات اللّغة بحيث تتكرّر في نمط زمني محدّد^(٤) والنغمة التي تتكرّر على نحو ما في الكلام، أي توالي الحركات والسّكنات على نحو منتظم^(٥) من علوّ الصّوت وانخفاض نبره قوّة وضعفاً، وتردّده في التّركيب، إذ يشمل النّسيج اللّغوي للشّعر وينظّمه.

الوزن يختلف عن الإيقاع، على الرّغم من التّقاطعات والتّداخلات بين هذين المصطلحين، والقصيدة العربيّة التّقليديّة قد

- (١) يونس، علي، نظرة جديدة في موسيقى الشّعر العربيّ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٢٤.
- (٢) شاعر وناقد وأحد أبرز وجوه الحياة الثقافيّة الانكليزية في الحقبة الإبداعية الرومنسيّة وتعد بعض مؤلفاته من أهمّ انجازات تلك المرحلة ونموذجاً يحتذى ومرشداً لكل من انتمى إلى تلك المدرسة في انكلترا.
- (٣) العشماوي، محمّد زكي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، دار النهضة العربيّة للطباعة والنّشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٦٢.
- (٤) إليوت، ت. س، الشعر والشعراء، ترجمة محمد جديد، دار كنعان للدراسات والنّشر، دمشق، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٢.
- (٥) موافي، عثمان، دراسات في النقد العربي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، ط ٣، ٢٠٠٠، ص ١٣٧.
- (٦) حمدان، ابتسام أحمد، الأسس الجماليّة للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، دار القلم العربي، سورية، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢٧.

موسيقى من الأصوات، ونمط موسيقي من المعاني الثانوية للكلمات التي تُولفها، وإن هذين النمطين هما شيء واحد لا ينفصلان... وإن موسيقى الكلمة تنبع من علاقتها بالكلمات السابقة عليها والتالية بعدها مباشرة، وبصورة غير محدّدة من علاقتها بسائر سياقاتها. والأهم من ذلك، ولعلّه ما وجّه النقاد إلى مباحث أكثر عمقاً في الإيقاع تأكّده بأنّ موسيقى الشعر ليست شيئاً يوجد مستقلاً عن المعنى.

٢ - الترخيص العروضي:

تسعى القصيدة العربيّة في الشعر الجديد إلى استثمار كل الإمكانات الشعريّة والطاقت الإيقاعيّة التي تكتنز بها البحور الشعريّة، وقد دعم إمكانية الاستثمار تلك القابليّة التي تميّز بها التفعيلة، والقابليّة للانتشار في مساحة النصّ بوجوه متنوّعة بواسطة ما يعرف في العروض التقليدي بـ «الرّحافات والعلل» والرّحاف عند العروضيين هو «تغيير ينتاب التفعيلة مرّة، ويسمّى مفرداً ويسمّى مركّباً، ويقتصر على

الحرف الثاني من السّبب الخفيف أو التّثقيّل فيسكنه أو يحذفه»^(١). والعلّة هي «تغيير لازم يدخل على الأسباب والأوتاد معاً في عروض البيت وضربه دون حشوه»^(٢).

راحت القصيدة تستثمر هذه الآليّة التي بعثت «تنويعاً في موسيقى القصيدة يخفّف من سطو النغمات ذاتها التي تتردّد في إطار الوزن الواحد من أوّل القصيدة إلى آخرها»^(٣).

٣ - النظام التقفوي:

القافية ركن أساسي من أركان الشعر العربي القديم تتدخّل في معماريّة القصيدة، فقد عرفها «ابراهيم أنيس»^(٤) بأنّها «عدّة أصوات تتكرّر في أواخر الأَشطر، أو أبيات القصيدة وتكرّرها هذا يكون جزءاً [مهمّاً] من الموسيقى الشعريّة فهي بمثابة الفواصل الموسيقيّة يتوقّع السّامع تردّدها ويستمتع بمثل هذا التردّد، الذي يطرق الأذان في فترات زمنيّة منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاصّ يسمّى وزنًا»^(٥).

(١) شريفي، عبد اللّطيف، محاضرات في موسيقى الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ١٩٩٨، ص ٢٠.

(٢) م. ن، ص ٢٥.

(٣) بكار، حسين يوسف، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، بيروت، ٢، ١٩٨٣، ص ١٧٢.

(٤) رائد الدراسات اللغويّة العربيّة، باحث لغوي ولد في القاهرة، نال عضويّة مجمع اللغة العربيّة في سنة ١٩٦١م، والمجلّات العربيّة تزخر ببحوثه ومقالاته اللغويّة.

(٥) أنيس، ابراهيم، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ٦، ١٩٨٨، ص ٢٤٦.

في حنايا روحه، هو هذا الحبّ المتجدّد في عروقه، النابض بانكسار قلبه والذي عبّرت عنه هذه النهاية لكلّ بيت من أبيات القصيدة (لي، ل).

IV - المستوى الإيقاعي:

ولقد اختار مصطفى عباس لقصيدته «كازو» قافية اللّام الممدودة حيناً والمكسورة حيناً آخر، وهو حرف مجهور، فنفتح بين الشدّة والرّخاوة⁽¹⁾ يمتاز بقدرته على تفجير ما يختلج نفسه من شوق وحنين. إنّ إحساسه هو هذا المدى المتوغّل

مقاطع زائدة الطّول	مقاطع طويلة	مقاطع قصيرة	
	7	7	1- هل تعلّمين بأنّ هجرَك قاتلي $\begin{array}{ c c c } \hline \circ//\circ//\circ// & \circ//\circ//\circ// & \circ//\circ/\circ/ \\ \hline \text{مستعلن} & \text{متفاعل} & \text{متفاعل} \\ \hline \end{array}$
	8	5	والذكريات وطيفها في داخلي؟ $\begin{array}{ c c c } \hline \circ//\circ/\circ/ & \circ//\circ//\circ// & \circ//\circ/\circ/ \\ \hline \text{مستعلن} & \text{متفاعل} & \text{مستعلن} \\ \hline \end{array}$
	8	5	2- يا قرية كم كنت بين ربوعها $\begin{array}{ c c c } \hline \circ//\circ//\circ// & \circ//\circ/\circ/ & \circ//\circ/\circ/ \\ \hline \text{متفاعل} & \text{مستعلن} & \text{متفاعل} \\ \hline \end{array}$
	9	3	ألهو ولم يك أيّ همّ شاغلي $\begin{array}{ c c c } \hline \circ//\circ/\circ/ & \circ//\circ/\circ/ & \circ//\circ/\circ/ \\ \hline \text{مستعلن} & \text{مستعلن} & \text{مستعلن} \\ \hline \end{array}$
	8	5	3- كازو وبُعْدُ الدار زا د بيّ الجوى

(1) أخاري، بكاي، تحليل الخطاب الشعري، قراءة أسلوبية في قصيدة «قذى بعينيك» للخنساء، وزارة الثقافة، الجزائر، ص 63.

مقاطع زائدة الطول	مقاطع طويلة	مقاطع قصيرة	
			<p>○//○// / ○//○/○ / ○//○/○ / مستعلن / مستعلن / متعاعن</p> <p>والشوق بحر لا يحاط بساحل</p> <p>○//○// / ○//○/○ / ○//○/○ / مستعلن / مستعلن / متعاعن</p>
	8	5	
			<p>4- فإذا هجرت رباك يوماً مرغماً</p> <p>○//○/○// / ○//○// / ○//○// / متعاعن / متعاعن / متعاعن</p>
	7	7	
			<p>سأل الحنينُ الروح : أين منازلِي؟</p> <p>○//○// / ○//○/○ / ○//○// / متعاعن / مستعلن / متعاعن</p>
	7	7	
			<p>5- فعن الطفولة والبراءة حَبْنِي</p> <p>○//○// / ○//○// / ○//○// / متعاعن / متعاعن / متعاعن</p>
	6	9	
			<p>وعن السَّامر في ظلالك سائلي</p> <p>○//○// / ○//○// / ○//○// / متعاعن / متعاعن / متعاعن</p>
	6	9	
			<p>6- مضتْ الطفولة ، وانقضتْ بنعيمها</p> <p>○//○// / ○//○// / ○//○// / متعاعن / متعاعن / متعاعن</p>
	6	9	
			<p>أيامٌ نُمضي دهرنا بتفاؤل</p>
	8	5	

مقاطع زائدة الطول	مقاطع طويلة	مقاطع قصيرة	
			<p>○//○// ○//○/○/ ○//○/○/ مستعلن / مستعلن / متفاعلن</p>
	8	5	<p>7- يا جنّة الدنيا كأن حياتنا ○//○// ○//○/○/ ○//○/○/ مستعلن / مستعلن / متفاعلن</p>
	9	3	<p>مَرَّتْ كَطَيْفٍ أَوْ كظَلِّ زَائِلٍ ○//○/○/ ○//○/○/ ○//○/○/ مستعلن / مستعلن / مستعلن</p>
	6	9	<p>8- ذُرْفَ القريضِ دموعه، وبكى معي ○//○// ○//○// ○//○// متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن</p>
	8	5	<p>والليلَ يَمْضِي مُثْقَلًا بِطاولٍ ○//○// ○//○/○/ ○//○/○/ مستعلن / مستعلن / متفاعلن</p>
	8	5	<p>9- لا ذَنْبَ للكلماتِ إلا أنها ○//○/○/ ○//○// ○//○/○/ مستعلن / متفاعلن / مستعلن</p>
	9	3	<p>لم تستطع تفسيرَ شوقِ القائلِ ○//○/○/ ○//○/○/ ○//○/○/ مستعلن / مستعلن / مستعلن</p>
	8	5	<p>10- يا قريتي : أنتِ الجمالُ بأسره</p>

مقاطع زائدة الطول	مقاطع طويلة	مقاطع قصيرة	
			<p>○//○//○//○ / ○//○/○/ / ○//○/○/ / مستعلن / مستعلن / متعاعن</p>
	8	5	<p>فلِكوكِبِ الجوزاءِ حُسناً طاولي ○//○/○/ / ○//○/○/ / ○//○// متعاعن / مستعلن / مستعلن</p>
	7	7	<p>11- هل تذكِرينَ طفولتي وصفاءَها؟ ○//○// / ○//○// / ○//○/○/ / مستعلن / متعاعن / متعاعن</p>
	8	5	<p>لكنْ مضتْ ، وغدثْ كوزِدِ ذابلِ ○//○/○/ / ○//○// / ○//○/○/ / مستعلن / متعاعن / مستعلن</p>
	8	5	<p>12- أمي ، أبي ، والأصدقاءُ كلِخوتي ○//○// / ○//○/○/ / ○//○/○/ / مستعلن / مستعلن / متعاعن</p>
	7	7	<p>والدوخُ يَكُنُّفُنَا بشَجْوِ بلايلِ ○//○// / ○//○// / ○//○/○/ / مستعلن / متعاعن / متعاعن</p>
	6	9	<p>13- فمتى أراكِ بِمقلتي ، وجفونِها ○//○// / ○//○// / ○//○// / متعاعن / متعاعن / متعاعن</p>
	7	7	<p>سقتِ الرُبوعُ ضحىً بدمعِ هاطلِ؟</p>

مقاطع زائدة الطول	مقاطع طويلة	مقاطع قصيرة	
			<p>○//○/○// ○//○// ○//○// متفاعلن / متفاعلن / مستقلن</p> <p>14- وسقى الحيا تلك الديار وأهلها</p> <p>○//○// ○//○/○/ ○//○// متفاعلن / مستقلن / متفاعلن</p> <p>حُباً فَرَاتاً مِثْلَ غَيْثٍ وَأَبِلَ</p> <p>○//○/○/ ○//○/○/ ○//○/○/ مستقلن / مستقلن / مستقلن</p> <p>15- من ظنُّ أن الكونَ يُغني عن ترى</p> <p>○//○/○/ ○//○/○/ ○//○/○/ مستقلن / مستقلن / مستقلن</p> <p>وطنٍ يَعيشُ به فليس بعاقِلٍ</p> <p>○//○// ○//○// ○//○// متفاعلن / متفاعلن / متفاعلن</p>
صفر	225	180	العدد
	% 5,55	% 44,5	النسبة المئوية

اعتمد مصطفى قاسم عباس في قصيدة «كازو» تفعيلة بحر الكامل «متفاعلن»: ٤٤ مرّة مع جوازها المضمّر «مستفعلن» ٤٦ مرّة. وقد سمّي بحر الكامل بهذا الاسم لتكامل حركاته^(١). وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على التزام الشّاعر بماضيه وإخلاصه له، وكأنّه لجأ إلى أعماق الأصالة ليفجّر حيناً وينعم بدفء يفتقده دومًا.

ومن التوغّل في أعمال التّفعلية الرّئيسة (متفاعلن) نعرف ما أصابها من زحاف، حيث سكّن المتحرّك الثّاني من السّبب الخفيف الأوّل فتحوّلت (متفاعلن) إلى (مُتفاعلن) وقلبت إلى (مستفعلن)، إنّ الرّحاف الذي حوّل متفاعلن إلى مستفعلن، ما هو إلاّ هروب من الثّقل والقوّة. فالشّاعر في هذه القصيدة حزين، مشتاق، يستسلم لذكرياته، ساكن وهادئ في تفعيلة (متفاعلن)، التي تألّفت من فاصلة صغرى ووتد مجموع يناسبان حنينه. وما الرّحاف الطّارئ إلاّ لحظات ألم تقوى من حين إلى آخر.

من التحليل السّابق نرى أن مصطفى عبّاس اعتمد المقاطع الطّويلة التي تدلّ على شجنه ولوعته، فهو عاد إلى أيام الطفولة

التي لا زال طيفها مستقلًا في داخله، وهجره كازو زاد جواه وأفقده أيّام التّفاؤل والفرح فبات يسير وحيدًا يسحب أوزانه وتفعيلاته كما يسحب الخيال شالًا من الحرير ليعيده إلى أيّام رقيقة عذبة.

ولقد تميّزت لغة الشّاعر الفنّيّة في مبناها ومعناها لاحتكامها لمجموعة قواعد متناسقة أفرعت الألفاظ في قوالب دلالاتها مصحوبة بمحسنات لفظيّة ومعنويّة من علم البديع أسهمت في كشف جماليّة إيقاعات تراكيبها (يومًا مرغمًا - كطيّف أو كظلّ - مضتّ وغدث - أمّي أبي - حبًا فراتًا) واللّغة الشعريّة الإيقاعيّة الرّاقية إنّما يحصل لها ذلك عندما تكون بنياتها متشابهة ومعانيها مختلفة لتتجلّى فيها أهميّة التّوازي الذي يحتفي بالهندسة الصّوتيّة والدّلالة اللّفظيّة «يتخذ من اللّغة التي رافقت الإنسان مذ صارت له وسيلة للتّواصل نقطة انطلاق ووصول في الآن نفسه»^(٢).

وها هو مصطفى عباس يكرّر عبارات متوازنة متوازنة وذلك في ما يلي:

- كازو وبُعْدُ الدار زاد بيّ الجوى
- والشوقُ بحرٌ لا يُحاطُ بساحلٍ
- فعن الطفولة والبراءة حدّثي

(١) التبريزي، الخطيب، الوافي في العروض والقوافي، تحقيق الدكتور فخر الدّين قباوة، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط ١١، ٢٠١١، ص ٧٨.

(٢) عبد الواحد الشّيخ، البديع والتّوازي، ط ١، ١٩٩٩، مكتبة الإشعاع الفنّيّة، القاهرة، ص ٧.

- وعن التَّسامرِ في ظلالك سائلي
- والليلُ يَمْضِي مُثْقَلًا بِتَطاولِ.
- وبالعودة إلى الشطور التالية:
- هل تعلمينَ بأنَّ هجرَكَ قاتلي
- فإذا هجرتُ رُبَاكَ يوماً مرَعَمًا
- سألَ الحنينُ الروحَ: أينَ منازلِي؟
- هل تذكرينَ طفولتي وصفاءها؟
- والدوحُ يَكْنُفُنَا بِشَجْوِ بلابلِ
- سقتِ الرُّبوعَ ضُحَى بدمعِ هاطلِ؟
- وسقى الحيا تلكَ الديارَ وأهلها

نلاحظ أن المقاطع الطولية والقصيرة تتساوى (٧، ٧)، وهذا خير دليل على مهارة وإبداع الشارع في تسخير الموسيقى لخدمة المعنى.

فها هي المقاطع تتساوى عند تناوب الخبر والإنشاء فيصير الشاعر السائل وكازو المخاطبة واحداً، فهو المولع المتيم وهي المفتقدة المتحسرة. إنَّ القرية البعيدة اللامرئية تستحضرها المقاطع الطويلة التي تفيض شوقاً وبالتالي تؤدِّي المقاطع إلى القصيرة مهمّة الإسراع والخفة واللين فتغدو كازو ماثلة أمام عيني مصطفى عبّاس برباها ودوحها وبلابلها وربوعها وديارها وأهلها.

٧ - خلاصة واستنتاجات:

التكرار يكشف موهبة الشاعر وبراعة في دقّة اختياره لانتقاء الألفاظ والأصوات والمقاطع والوحدات الصرفيّة والتراكيب النحويّة التي تغدو ظاهرة فنيّة تدعم الحركة الدلاليّة والإيقاعيّة في نصّه الشعري على اعتبار أنّ هذا التكرار عنصر بنائي يسهم في فهم أبعاد تجربته الشعريّة.

إنّ قصيدة كازو تمتاز ببنية موسيقيّة إيقاعيّة محبّكة، وبهندسة إيقاعيّة قائمة على التكرار ما يخصّها بجرس موسيقي ينتشر في كلّ أجزاءها يخلق بناءً متماسكاً متآلفاً هو خير دليل على ملكة مصطفى عبّاس الشعريّة. وما الهندسة الموسيقية الغنيّة فيها إلاّ شاهداً على تميّزها وفرادتها.

التكاذب الافتراضي على مواقع التواصل الاجتماعي (دراسة اجتماعية حول علاقات الجمهور على صفحات الفيسبوك)

فاطمة درويش

من مصادر ومواقع عديدة. وهي شبكة معلومات عالمية تربط الناس والمعلومات بحيث تسمح بالاتصال بين شخص وآخر، وباسترجاع المعلومات من خلال الذاكرة الإلكترونية. وعليه، أفضى التّقدم الهائل في التكنولوجيا منذ نهاية القرن الماضي إلى إنتاج وسائل إلكترونية حديثة على التواصل الاجتماعي، عملت على إحداث تغيير في الأطر العلائقية للأفراد وأشكال تفاعلهم. ويأتي «الكمبيوتر» في مقدمة هذه الوسائل من دون منافس، لتحديث تغييرات جذرية في بنى العلاقات، ويعادلها في تأثيراتها الهاتف الخليوي (Mobile phone) جعلت هذه التطورات السريعة والمتلاحقة، العالم قرية صغيرة تتفاعل وحداتها مع بعضها البعض، ويتأثر كل جانب منها بما يحدث في جوانب أخرى. إنّ «الشبكة العنكبوتية» اليوم هي التقنية والوسيلة الفعّالة في عملية التواصل الاجتماعي من حيث قدرتها على تسهيل العلاقات وتحقيقها، وتقريب

المقدّمة:

تُعَدُّ الدّراسات السوسولوجية تقنيات «التواصل الاجتماعي» رافداً أساسياً، وركناً مهماً في بناء منظومة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في المجتمع المعاصر، في ظل التّحولات والتّطورات المعرفيّة الحاصلة خلال العقد الأخير بشكل متسارع ومتلاحق على المستوى التكنولوجي للتواصل. ولعل أهم الاكتشافات في هذا المجال شبكة المعلومات العالميّة، أو «الإنترنت» التي تعد من أهم الإنجازات في عصر المعلوماتية.

تصنّف شبكة الإنترنت أو ما يسمّى بالشبكة «العنكبوتية» من أحدث التواصل الاجتماعي، ويعرّفها بيل جيتس (Bill Gates) بأنّها مجموعة كمبيوترات موصولة معاً تستخدم بروتوكولات قياسية لتبادل المعلومات، وتوفّر للفرد إمكانية الحصول على كم هائل من المعطيات والموضوعات

العلمية والأدبية والفلسفية وغيرها، وعرض الصور المعدلة على التطبيقات المختلفة، والمبالغة في التعبير تجاه منشورات الآخرين، كأسلوب تفاعلي يطرح مسألة الإندماج والتواصل الحقيقي بعيداً من التكاذب بوصفه كإشكالية سوسيولوجية تستحق الدرس والتحليل.

لقد استطاع «الفايسبوك» الدخول إلى مجتمعنا اللبناني، مع كل الانتقادات التي تتعرض لها الشبكات الاجتماعية كالتأثير السلبي على المجتمع وتفككه، يعتبرها البعض مصدرًا للتفاهم والتعارف، وتقريب النفاهيم، والاطلاع والتعرّف على ثقافات الشعوب المختلفة.

في هذا الصدد تشكل شبكات التواصل الإلكتروني موضوعاً تصطدم فيه أطروحتان مختلفتان: الأولى تحسبها فرصة ذهبية لتبادل العلم والمعرفة، وتقصير المسافات، أما الثانية فتُعدّها مصدر الخطر الحقيقي على العلاقات الاجتماعية، وتؤدي إلى إبراز مجتمع يحمل عوامل القطيعة مع التقاليد الثقافية.

«لقد غاب الحوار في زمن عزّ فيه الوصال» وإلى العزلة وتفكك نسيج المجتمع، إذ يرى أصحاب هذا التوجه أن الوسائل قد اقتحمت الحياة الاجتماعية والعائلية، إذ قللت من فرص التفاعل والتواصل داخل الأسرة.

المسافات بين الأفراد والجماعات، خصوصاً بعد إنتشار مواقع التواصل الاجتماعي وصفحاته (Social Media) مثل «التويتر» (twitter) و«الفايسبوك» (Facebook) و«الإنستغرام» (Instagram) و«السناب شات» (Snap chat) وغيرها الكثير.

علاقات الجمهور على مواقع التواصل الاجتماعي:

تأتي دراستنا مقارنة لمسألة علاقات الجمهور الافتراضية على صور الطفرة «الإنترناتية» التي أثرت في الإشكالية الثقافية والسلوكية لجيل الشباب الذي يستخدم شبكة «الإنترناتية» التي أثرت في الإشكالية الثقافية والسلوكية لهذا الجيل الذي يستخدم شبكة الإنترنت مستمداً فيها المبادئ والأفكار، فضلاً عن منظوماته الفكرية، الثقافية، التربوية، خصوصاً من خلال تواصله الإلكتروني / الافتراضي أو «الوهمي» عبر صفحات «الفايسبوك» فسعة إستعمال الشباب لهذه الأخيرة بهدف عرض الصور والأفكار والمعلومات والدردشة يضع المسألة السلوكية والأخلاقية والثقافية على المحك، خصوصاً في ما يطل مفاهيم مصداقية الفرد أو خصوصيته ضمن إطار الجماعة، ومدى جدية وصدق مستخدمي الفاييسبوك. أما ما نسميه بـ «الفايسبوكيين» في تبادل المشاعر والمنشورات والمعلومات الشخصية أو

دوافع استخدام الفايسبوك:

في ضوء ما سبق، تأتي هذه الدراسة لرصد دوافع استخدام «شبكات التواصل الاجتماعية» وتحديد أثر «الفايسبوك» على العلاقات الاجتماعية، وقدرة هذه الصفحة على خلق عالم وهمي يدفع بالفئات الشابة التي تستخدمه إلى الإنغماس به، والتخفي من ورائه. إضافة إلى الكشف عن اللجوء إلى التكاذب في عرض المعطيات والصور، والمبالغة في التعبير ضمن إطار العالم الافتراضي الذي تفرضه، وفتح حسابات صفحات مزيفة تحمل أسماء لا تعبّر عن صفة المستخدمين الحقيقية، وتضع نشاطاً مغايراً لا يتطابق مع واقع المستخدم الاجتماعي.

قد يلجأ البعض إلى استخدام الاسم المستعار على «الفايسبوك» في مجتمعنا اللبناني لدواعي أمنية حيناً وتخوفاً من تقاليد المجتمع حيناً آخر، أو لضمان عدم وصول أشخاص غير مرغوب بهم إلى حسابهم. وقد يلجأ البعض إلى ممارسة أقوال وأفعال غير أخلاقية تحت غطاء الاسم المستعار، ويعمدون إلى تزوير معلوماتهم الشخصية، مثل العمر والمهنة والمستوى التعليمي، أو حتى الصورة الشخصية بهدف الظهور بحالة اجتماعية أفضل من واقعهم لخوض تجربة حياة افتراضية بعيدة من إنتمائهم «الإيكو - اجتماعي» وتوسيع

دائرة التفاعل الافتراضي مع الفئات الاجتماعية المختلفة. وقد يتنكر بعض مستخدمي حسابات «الفايسبوك» أيضاً وراء صور وأسماء وهمية كي يخفوا مكنوناتهم المتحررة من القيود الاجتماعية التقليدية، أو كي يمارسوا الإنحراف من دون التعرض إلى العقاب الاجتماعي. إنّ الأضرار التي يتسبب بها هذا التكاذب الاجتماعي لا تقتصر على الأثر المعنوي والمادي للمستخدمين فحسب، بل تنعكس على المجتمع عموماً أيضاً حيث انعدام الثقة اللاحق لهذه الحوادث يخرج من نطاق العالم الافتراضي ليصبح حالة يسقطها الأفراد على حياتهم الواقعية، وعلى الأشخاص خارج النطاق الإلكتروني. وعليه سندرس آليات استخدام «الفايسبوك» بوصفه كصفحة للتواصل الاجتماعي بين الفئات الشابة المتعلّمة التي عي أكثر ما تنكبّ على استخدامها في مجتمعنا المعاصر، ودراسة أثر التواصل الافتراضي في عملية التفاعل والاندماج الاجتماعي في ما بينها.

دراسة ميدانية:

تُعد صفحات التواصل الإلكتروني/ الافتراضي/ «الوهمي» الاجتماعي وأهمها «الفايسبوك» الأكثر انتشاراً على شبكة الإنترنت لما تمتلكه من خصائص تميزها عن المواقع الإلكترونية الأخرى، حيث يقبل

عليها بشكل متزايد، متصفحوا الإنترنت من أنحاء العالم كافة مع كل الانتقادات التي تتعرض لها، مثل التأثير السلبي والمباشر على الأسرة، مثلاً الطلاق «التفكيك الأسري» علماً أنّ البعض الآخر يجد فيها وسيلة مهمة للتنامي والإلتحام بين المجتمعات، وتقريب المفاهيم والرؤى بين الأفراد، والاطلاع والتعرف على ثقافات الشعوب المختلفة كما سبق وذكرنا.

لقد تطرقت دراسات ميدانية عربية عديدة إلى أثر استخدام مواقع التواصل الاجتماعي على شخصية الشباب، وتوصلت إلى نتائج مهمة على هذا المستوى، وفي ما يلي مثال موجز لبعض منها، تناولت استخدام الإنترنت وتأثيره على العلاقات الاجتماعية لدى الشباب الجامعي مثل الدراسة التي أجراها الباحث «فايز المجالي» في العام ٢٠٠٧ في المجتمع الأردني، من خلال استطلاع آراء عينة من طلبة «جامعة مؤتة» بلغ تعدادها ٣٢٥ مبحوثاً ومبحوثة، وهدفت إلى تحليل ظاهرة استخدام شبكة الإنترنت من حيث إبراز التأثيرات الاجتماعية المترتبة على استخدامها على فئة الشباب الجامعي. والكشف عن أهم الخصائص العامة لسلوك مستخدمي الإنترنت، وتأثيراته على علاقاتهم الاجتماعية. وقد اعتمد الباحث على منهج المسح الاجتماعي، وأداة الإستبيان لجمع

البيانات، وتوصلت الدراسة إلى أثر استخدام الإنترنت على العلاقات الاجتماعية، يزداد في حال استخدام الطالب للشبكة بمفرده. في حين يتناقص هذا الأثر في حال قضاء الطلبة وقتهم أمام الإنترنت بمشاركة الآخرين، كذلك تبيّن أنه كلما زاد عدد استخدام الإنترنت، ارتفع أثره على تراجع العلاقات الاجتماعية، وأنه كلما ارتفع المستوى الدراسي لدى الطلبة، انخفض أثر استخدام الإنترنت على اندماجهم، حيث أنه كلما ازداد العمر انخفض الأثر على العلاقات في الحياة اليومية.

ونعطي مثلاً آخر حول دراسة أجراها مركز شؤون المرأة في غزة - فلسطين تحت عنوان: «الشباب وشبكات التواصل الاجتماعي» على عينة مقدارها ١٥٠٠ مستجوباً من مختلف فئات المجتمع الفلسطيني في القطاع العام والخاص، والمنظمات الأهلية، والمنظمات الحقوقية والنسوية، والنقابات المهنية والموظفين، والطلاب الأكاديميين، وتوصلت إلى نتائج عدة أهمها: يستعمل غالبية مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي أسماء مستعارة، وتأتي أدوات التواصل الاجتماعي المستخدمة وفق الترتيب الآتي: البريد الإلكتروني، محركات البحث، وموقع «الفايسبوك» وبينت النتائج أن أهم أسباب المشاركة والاستخدام هي التعبير عن

من ٥٠ في المئة ينشرون صورًا لأشياء و أماكن معينة فقط من أجل تحفيز شعور الغيرة في قلوب الأصدقاء المضافين على الموقع.

كما تسمح الشبكات أو المواقع الاجتماعية التواصل في بيئة مجتمع افتراضي عن طريق خدمات مختلفة، مثل إرسال الرسائل والاطلاع على الملفات الشخصية للآخرين ومعرفة خبراتهم ومعلوماتهم التي يتيحونها للعرض. وهي شبكة فعّالة في تسهيل الحياة الاجتماعية بين مجموعة من الأصدقاء التي تمكنهم من تجديد علاقاتهم عن طريق الاتصال ببعضهم البعض بعد طول سنوات، والتواصل المرئي والصوتي، وتبادل الصور وغيرها من الإمكانيات التي توطد العلاقة الاجتماعية بينهم. كما يختلف التكاذب الاجتماعي عن الكذب على اعتباره سلوكًا اجتماعيًا يقوم به الفرد عن سابق إصرار وتصميم. ولا ينحصر التكاذب في واقعنا المعاش، بل يدخل في صلب العلاقات الافتراضية الحاصلة على مواقع التواصل الاجتماعي. ولهذا التكاذب الافتراضي أساليب وطرق عديدة منها تسمية حساب «الفايسبوك» (أي الصفحة الشخصية للفرد) باسم مزيف، وتحميل وتعديل صور لا تمت لواقع المستخدم الحياتي بصلة، والمبالغة في التعبير

المواقف والآراء بحرية بعيدًا من القيود الاجتماعية الضابطة، وتنمية المهارات المختلفة، وتعزيز الذات والتواصل، وإنشاء الصداقات، والتعبير عن المشاعر والتنفيس عن الإنفعالات المكبوتة.

يقدر عدد الحسابات المزيفة على «الفايسبوك» حول العالم بحوالي ٨٣ مليونًا، ويُعد ذلك مؤشرًا مهمًا لإجراء البحوث السوسولوجية بهدف تحليل مسببات هذه الظاهرة الاجتماعية وتأثيراتها المنتشرة في المجتمعات المختلفة.

طالت استطلاعات أخرى إشكالية تزيف مستخدمي «الفايسبوك» حياتهم الحقيقية لتبدو أكثر إثارة وسعادة أمام الآخرين. فالاستطلاع البريطاني الذي أجرته شركة «أتش تي سي» (HTC) للهواتف الذكية مثلاً، أظهر أن أكثر من ٤٠ في المئة من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي ينشرون صورًا على حساباتهم الشخصية لتبدو حياتهم أكثر إثارة ومليئة بالمغامرات، وإن أكثر من ٧٥ في المئة منهم يضيفون أصدقاءهم على أساس ما يرونه على حساباتهم الشخصية على «الفايسبوك» كما وجد الاستطلاع، وفقًا لصحيفة (Daily Mail) البريطانية أن ٦ في المئة منهم استعانوا بصور فوتوغرافية لا تخصهم على حساباتهم الشخصية لتبدو صفحة «الفايسبوك» أكثر إثارة وجمالية. وأن أكثر

والتعليقات، وإظهار مشاعر المحبة والود على صفحات الآخرين، في ظل غلبة مشاعر الغيرة والحسد أحياناً.

٣٢ مليون منهم في المجتمع العربي وإلى ٦٨٠ مليون مستخدم على الهاتف النقال عالمياً.

وأكثر ما يحصل أن يضع الأشخاص أسماء مستعارة يعتمدها المستخدم ليخفي هويته الحقيقية. وعلى الرغم من تقديم موقع «الفايسبوك» الرسمي في بادئ تأسيسه إرسال صورة عن بطاقة هويته، إلا أن سياسة الاسم الحقيقي هذه كانت موضوع احتجاجات بهدف الحفاظ على الخصوصية، والمعطيات الشخصية والأمن الفردي، وغابت آلية التأكد من شخصية المشتركين وعليه، يمكن لأي شخص إنشاء حساب على «الفايسبوك» باسم مستعار أو اسم مطابق لأحد معارفه بنية إنتحال شخصية الآخر، واستغلال الثقة والحصول على المعلومات.

للفايسبوك أهداف عديدة، منها ما هو تثقيفي وترفيهي واجتماعي. كما يمكن اعتبار الاكتشاف والتقارب والاقناع من أبرز أهداف «الفايسبوك» العامة في الحياة المعاصرة. وهو موقع إلكتروني للتواصل الاجتماعي يتيح للأشخاص العاديين والاعتباريين (كالشركات) بهدف الإعلان والتواصل وإنشاء الروابط مع الآخرين.

ومن جهة أخرى، تأتي نظريات سوسيولوجية حول المفهوم الاجتماعي للفايسبوك كمقاربة تبحث عن عولمة العلاقات الاجتماعية حيث يتواصل «الفايسبوكيون» مع بعضهم عبر أفراد أو مجموعات تتميز بخصائص مشتركة، وتُعد أنماطاً للتواصل ضمن أعداد بشرية كبيرة تتشاطر الإهتمامات وتلتقي حول قضية ما، وتعبّر عن غايات معينة، وتناقش القضايا، وتنشر الصور، وتتبادل المحتويات ذات صلة.

أهمية مواقع التواصل الاجتماعي ومميزاته:

تتيح شبكات التواصل الاجتماعي إذًا المجال للتعبير عن الآراء ومشاركة المشاعر والأفكار مع الآخرين، حيث لا تقوم

في لمحة تاريخية، أسس مارك زوكر بيرج «الفايسبوك» في شهر شباط (فبراير) ٢٠٠٤، واقتصرت عضوية الموقع آنذاك على طلبة «جامعة هارفرد» ثم امتدت لتشمل الكليات الأخرى في مدينة «بوسطن» و«جامعة آيفي ليغ» و«جامعة ستانفورد» إلى أن اتسعت الدائرة لتشمل أي طالب جامعي، ثم طلبة المدارس الثانوية، وأخيراً أي شخص يبلغ من العمر ١٣ عامًا فأكثر حتى وصل عدد مستخدمي «فايسبوك» في العالم اليومي حوالي ١,٣ مليون مستخدم

للمستخدمين الانضمام واكتشاف العديد من المشتركين، شغل الكثير من العلماء لجهة سعة استخدامه وانتشاره وتأثيره الكبير على العلاقات، خاصة بين فئة الشباب الأكثر إقبالاً على استعماله ليدخل على عادات حياتهم اليومية، حيث يسمح لهم بالاطلاع على الصور والفيديوهات والتعليقات (Comments) والردودشة (Chatting) والتفاعل (Inenaction) والبحث (Search) عن أصدقاء والاشتراك (Group Member) في مجموعات افتراضية ما ساهم في إعادة وتشكيل وصياغة سلوكهم في الحياة اليومية وفق ما توصلت إليه الدراسات السوسولوجية الحديثة.

فقدان التفاعل الاجتماعي:

إنّ الاستخدام المفرط لصفحات «الفايسبوك» يؤدي إلى غياب التفاعل الاجتماعي، لأن التواصل يحصل عبر شاشات، وليس مباشرة ويطغى طابع الفردانية على الاستعمال مثل الدردشة والتسوّق ومشاهدة البرامج والصور.

التأثير على القيم الاجتماعية:

يتلقى الشباب قيماً اجتماعية خاصة من خلال التربية وبيئة الجماعة الأولية التي يعيش ضمنها، لكن التأثير الضاغط من خلال الشبكة العنكبوتية، وصفحات

الإحتياجات الإنسانية من دون تواصل مع البيئة المحيطة على اعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي لا يمكن أن يعيش بمعزل عن الآخر. وتتميز شبكات التواصل عن غيرها من مواقع الشبكة العنكبوتية بخصائص عدّة، ومن أبرزها: التواصل في مجتمع افتراضي (virtual) وتقني (technical) يجمع أشخاصاً تختلف وجهاتهم ومستوياتهم من مناطق ودول مختلفة بهدف التعارف والترفيه، أو التعاون والتشاور وتكوين علاقات جديدة وحب الاستطلاع والاستكشاف. ويكون الفرد في هذا المجتمع الافتراضي عضواً فاعلاً يرسل ويستقبل، ويقرأ ويكتب ويشارك ويسمع ويتحدث، فيتجاوز الدور السلبي من الاستماع والاطلاع والترقب فقط ويوجه الموقع للتواصل الفاعل.

إذن تبقى التفاعلات الاجتماعية على صفحات «الفايسبوك» إطاراً مترابط العناصر من الأغراض والأهداف والحاجات المشتركة بين الأعضاء، وأيضاً الأنماط التي تفرز من خلالها ما يدعم الثقافة المشكلة من جراء التفاعلات الجديدة في البيئة العلائقية التي تتكوّن في المجتمع الافتراضي.

التأثيرات السلبية للفايسبوك:

«للفايسبوك» إذا موقع اجتماعي يسمح

التواصل يُعيد تشكيل مبادئه من خلال الجماعة التي يتماهى بها.

الإساءة إلى الأشخاص:

يلجأ بعض الأفراد إلى التشهير والمضايقة على صفحات «الفايسبوك» في حال الخلافات، خصوصاً أنها ذات اتصال جماهيري واسع، وتُستغل على نطاق واسع في حملات الإساءة والتجريح بالآخرين.

تكوين علاقات مشبوهة بين الجنسين:

للمجتمعات المحافظة في لبنان خصوصية نابعة من ثقافتها التقليدية غير المحبذة لاختلاط الجنسين بشكل يتخطى الأخلاقيات والقيم الاجتماعية السائدة. غير أن الوسائل الاتصالية أعطت الفرصة لتكوين علاقات بينهما قد تؤدي إلى الزواج حيناً وتصل إلى حد الخروج عن القوانين الاجتماعية حيناً آخر، كردّ فعل مبالغ بها للتعويض عن الكبت بمختلف أشكاله، والضغط الاجتماعي الذي يتعرّض له الشباب، ويمنعهم من التعبير للجنس الآخر.

الخاتمة

تستحق ثورة المعلومات والاتصال عبر شبكة الإنترنت، الاهتمام والدراسة لمعرفة آثارها الاجتماعية والنفسية، وسُبل استخدامها وانعكاساتها على سلوكيات الأفراد، خاصة فيما يطال مواقع وصفحات

التواصل الاجتماعي وأهمها «الفايسبوك» لجهة سعة انتشار المشتركين فيها من الفئات الشابة التي رأت في التماس الشاشات الإلكترونية دردشة وتواصلًا افتراضياً، وفي ذلك تغيير جذري في منظومة القيم الاجتماعية.

وتوجّه حتمي نحو «الفردانية» والعزلة عن الآخرين وتقليص من فرص الاندماج الاجتماعي. فالتواصل غير المباشر عبر الشاشات الإلكترونية يفقد مصداقية التواصل والأحاسيس، بخاصة في ظل غياب التواصل اللفظي وغير اللفظي، والإشارات الجسدية من خلال الأحاديث وجهاً لوجه. وعليه نلاحظ المبالغيات في التعبير عن المواقف والآراء والاطراء والهجاء والاستهجان وغيره من خلال صفحات «الفايسبوك» من دون رقيب.

ناهيك عن الصور المعدّله على تطبيقات وبرامج تجميلية، إضافة إلى الحسابات المزيفة أو التي تحمل معلومات وصوراً لا تمت إلى صاحبها بصلة. كل ذلك بهدف إبراز خصائص مثالية مبالغ فيها للجذب والتسلية بعيداً عن منظومات التفاعل الواقعي أو الاجتماعي المنتج والمفيد في دائرة العلاقات والأدوار الاجتماعية التي تسهم في بناء المجتمعات السلمية.

إن ميل الإنسان إلى الاستطلاع، ورغبته في السيطرة على العالم الخارجي، وحُب

المعرفة، ورغبته في الكسب المادي عن طريق التجارة، أمور دفعته منذ أقدم العصور إلى التنقل والرحلات، فاندفع من إقليمه إلى الأقاليم المجاورة يكتشف آفاقها، ويرتاد مجاهلها، وكان له في كل عهد رحلات ومغامرات دلّت عليها النقوش والآثار والكتب. كما اهتمّ بالدراسة التحليلية Ethnologie, Ethnology فهو العلم الذي يهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة بهدف الوصول إلى تصوّرات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتنوعها. إذاً هناك قواسم مشتركة بين ما قدّمته الرحلات قديماً والفايسبوك من التزوّد بالعلم والمعرفة إلى نشر علوم مختلفة في مختلف الميادين. وهناك أهداف مشتركة بينهما طلب الإستشفاء، الفرار من البلدان المنكوبة بالحروب أو بالأوبئة والاطلاع على طبائع وثقافات البشر ومعالِم حضاراتهم، لكن مواقع الفاييسبوك اليوم لها أكثر فعالية لأن وسائل التواصل أسرع.

يتمخض عن هذا الواقع الاتصالي مشكلة معرفية، بعيداً عن وهم الاعتقاد بأن التقدم التكنولوجي هو مصدر حتمي للتقدم الاجتماعي.

في هذا الإطار تعد شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي فضاء ليبرالياً متفلتاً من قيضة الجغرافيا والثقافة والأعراف، حيث يبقى المستخدم مبهوراً بحجم المعلومات والأحاديث والأخبار الاجتماعية التي يمكنه الوصول إليها، من دون طرح السؤال المتعلّق بما يضع منها اجتماعياً، بل يتستر وراء أقنعة تتناسب مع طبيعة التواصل، ويدخل في فضاء العزلة الاجتماعية من دون قصد أحياناً. وتلحظ الدراسات في هذا المجال، أن صفحات التواصل الاجتماعي تلبّي احتياجات الأفراد

المعرفة، ورغبته في الكسب المادي عن طريق التجارة، أمور دفعته منذ أقدم العصور إلى التنقل والرحلات، فاندفع من إقليمه إلى الأقاليم المجاورة يكتشف آفاقها، ويرتاد مجاهلها، وكان له في كل عهد رحلات ومغامرات دلّت عليها النقوش والآثار والكتب. كما اهتمّ بالدراسة التحليلية Ethnologie, Ethnology فهو العلم الذي يهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة بهدف الوصول إلى تصوّرات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتنوعها. إذاً هناك قواسم مشتركة بين ما قدّمته الرحلات قديماً والفايسبوك من التزوّد بالعلم والمعرفة إلى نشر علوم مختلفة في مختلف الميادين. وهناك أهداف مشتركة بينهما طلب الإستشفاء، الفرار من البلدان المنكوبة بالحروب أو بالأوبئة والاطلاع على طبائع وثقافات البشر ومعالِم حضاراتهم، لكن مواقع الفاييسبوك اليوم لها أكثر فعالية لأن وسائل التواصل أسرع.

تردنا مواقع التواصل إلى ذاكرة الرحلات في تراثنا الأدبي، إذ تحضر لدينا ما كانت تقدمه هذه الرحلات من قيم اجتماعية ومعرفية وإنسانية في أثناء القيام بها، وتدوين ما يشاهده الرّحالة في رحلته.

خلاصة القول، يُعد الفاييسبوك وسيلة من وسائل «الإعلان الجمعي والتواصل

الاجتماعية. لكنها تصيبهم بخيبة أمل، وعادة ما يلجأ الأشخاص الذين يشعرون بالوحدة إلى صفحات التواصل للحصول على دعم وتعويض عاطفي بما يتعارض مع شروط الحياة الاجتماعية الواقعية، حيث تتيح تلك الصفحات علاقات تواصلية وهمية وسطحية تدمج الذات بالموضوع بعيداً عن عمق العلاقات الإنسانية المستبدلة للتفاعل المباشر وجهاً لوجه. إذا أصبحت وسائل التواصل الافتراضي اليوم ركناً أساسياً من أركان البنية الاجتماعية.

فآثاره تظهر على مستوى الإدراك الاجتماعي ليصبح مدمراً عندما يقع المستخدم في فخ الإدمان وشعور الحسد والغيرة، وعدم الاكتفاء على مستوى دراستنا والمعطيات الميدانية، لنصل إلى نتيجة مفادها أن «الفايسبوك» أوجد نوعاً جديداً من التواصل الاجتماعي القطعي والسلبى، وساهم في بناء ثقافة علائقية غير مترابطة بين العالمين الواقعي والافتراضي.

إذا تردنا هذه المواقع إلى ذاكرة الرحلات في تراثنا الأدبي إذ مثلت الرحلة سواء كانت برية أو بحرية في المفهوم العام، إنجازاً أو فعلاً فردياً أو جماعياً لما يعنيه إختراق حاجز المسافة وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر. ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معين

ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر.

وقد تكون الرحلة هواية، تشبع حاجة في نفس الإنسان وترضيه، وقد تكون الرحلة احترافاً يخدم حاجة الإنسان ويشبعه، ولكنها تكون - في الحالتين - استجابته مباشرة لحوافر ودوافع محدودة تدعو بكل الإلحاح للحركة والانتقال من مكان إلى مكان آخر.

بمعنى أن من شأن دوافع معينة أن تدعو الإنسان الفرد أو الجماعة دعوة صريحة وملحة، لكي يخترق حاجز المسافة، ولكي يتحمل مشقة السفر ومتاعب الإغتراب وصولاً إلى غاية مباشرة أو تحقيقاً لهدف معين.

ومن غير الدخول في تفاصيل كثيرة، ينبغي أن نذكر كيف أن المدنيات العتيقة التي ترعرعت في أحضان الزراعة، وضعت أسباب الاستقرار وأطلقت العنان للإبداع الإنساني من وراء كل الحواجز والدافع التي دعت إليها - بل والحث - إلى تنظيم وتحريك وتوجيه الرحلة وجني ثمراتها. كما ينبغي أن نلفظ بالضرورة أيضاً إلى دور هذه المدنيات الإيجابية، في مجالات تهيئة وتطوير وسائل الانتقال في البر أو في البحر على حد سواء.

المصادر والمراجع

- الموقع فايسبوك، جامعة جويا، كلية دراسات الحاسب الآلي، السودان، دارفور. الفاشر.
- المواقع الإلكترونية: www.euneighbours مركز المعلومات الجوار الأوروبي. استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، طبعة 2014.pdf.
- أدب الرحلات - الرحلة العربية في المحيط الهندي، المجلد الثالث عشر - العدد الرابع - فبراير - ١٩٨٣.
- الأميوني: وديعة، كلود: العلاقات الاجتماعية بين العالم الافتراضي والواقعي، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ٢٠١٥.
- بوستن وماجد: ثقافة الإنترنت وأثرها على الشباب، دار الثقافة والمعلومات، جامعة الشارقة، ٢٠٠٦، المجلة التربوية توظيف الإنترنت في التعليم ومناهجه العدد ٧٤.
- الشهري، حنان بنت شعشوع: الفايسبوك وتويتر نموذجا.
- عارف محمد جعفر: الإنترنت والبحث العلمي، خوارزم العلمية للنشر والتوزيع، جدة ٢٠٠٧.
- العبد الله سنو، مي: الاتصال في عصر العولمة. دار النهضة العربية للطباعة والنشر ٢٠٠١.
- علي محمد بن فتح محمد: مواقع التواصل الاجتماعي وأثارها الأخلاقية والقيمية، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية PDF عن الشبكة الإلكترونية.
- عماد عبد الغني: منهجية البحث في علم الاجتماع دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط ٢٠٠٧.
- قهمي محمد سيد: تكنولوجيا الاتصال في الخدمة الاجتماعية، الإسكندرية ٢٠٠٠.
- محمد المنصور: تأثيرات شبكات التواصل الاجتماعي على جمهور المتلقين، رسالة ماجستير، PDF عن الشبكة الإلكترونية.
- نصر مهاب «الفايسبوك» صورة المثقف وسيرته العصرية - جريدة القيس الكويتية اليومية العدد ١٣٤٤٦، ٢٠١٠.
- النور، أحمد مدثر: شرح كيفية التسجيل في

دور التنشئة السياسية في استقرار النظام السياسي والتحول الديمقراطي

د. محمد حسن دخيل^(١)

المقدمة

النظام السياسي السائد والمبادئ التي يستند إليها ويتبنّاها.

ويفترض البحث أن التنشئة السياسية تؤدي إلى استمرارية الوضع القائم الذي يؤكد الاستقرار، بمعنى الرضا عن النظام السياسي واستمرارية نظام الحكم القائم.

ويضاف إلى ذلك، فإنّ ثمة إشكاليات ترتبط بمدى إسهام الأحزاب السياسية في التنشئة السياسية وعوامل نجاحها ونتائج تطبيقها والفئات المؤثرة فيها.

تعالج هذه الدراسة التنشئة السياسية في مفهومها وأبعادها والعناصر المؤثرة فيها، وأهدافها ومراميها، ومدى إسهامها في تطوير النظام السياسي، وقد اعتمدنا المنهج العلمي المتمثل بالموضوعية وعرض الآراء بحيادية والاستعانة بالمصادر ذات القيمة العلمية.

تمثل التنشئة السياسية إحدى العمليات الاجتماعية التي عن طريقها يتحصّل الأفراد على المعلومات والقيم والاتجاهات التي ترتبط بالنسق السياسي للمجتمع.

إنّ التنشئة السياسية هي عملية مستمرة يتعرّض لها الفرد في مختلف مراحل حياته. ويدور مفهوم التنشئة السياسية حول عملية استيعاب الأفراد والجماعات لمنظومة المعتقدات والرموز المتعلقة بالظاهرة السياسية السائدة في كيان سياسي معين.

تُطرح، في هذه الدراسة، إشكاليات عدّة، يرتبط أبرزها حول تأثير التنشئة السياسية في عملية التحول الديمقراطي، وفي تطوير المجتمع واستقراره. وكذلك، مدى ارتباط التنشئة السياسية بطبيعة

(١) كلية العلوم السياسية جامعة الكوفة - العراق.

أولاً: مفهوم التنشئة السياسية

تعرف التنشئة السياسية بأنها «عملية تعلم القيم والتوجهات السياسية بواسطة أدوات التنشئة مثل الأسرة والمدرسة ووسائل الاعلام. وهي العملية التي يتم من خلالها نقل الثقافة السياسية للمجتمع من جيل لآخر، وترتبط بمفاهيم أخرى، مثل: الشرعية والولاء والمواطنة وتهدف لتحقيق الاستقرار في العلاقة بين الشعب والدولة»^(١).

ومن جانب آخر، تُعرف التنشئة السياسية على أنها «عملية تطويرية يتبنى من خلالها الافراد توجهات سياسية ما وأنماطاً للسلوك السياسي، الأمر الذي يسمح للفرد بدرجة أعلى من الاختيار الإرادي لقيمه وتوجهاته في مرحلة ما بعد الطفولة».

وقد عرفت التنشئة السياسية بأنها «تلك العمليات التي من خلالها يكون المواطن رأيه بخصوص عالمه السياسي»^(٢).

وهي، بالتالي عملية مكتسبة ومستمرة يتعرض لها الفرد طيلة حياته. وهي مرتبطة بنمو الفرد وتطوره وتمرّ بمراحل عدّة،

حيث يتحدّد السلوك السياسي للفرد بخبرات التنشئة التي يكتسبها في مرحلة الطفولة والمراهقة. فالإنسان في مختلف مراحل حياته يعايش مؤسسات عديدة مثل الأسرة والمدرسة والرفاق، ويتلقى من كل هذه المؤسسات خبرات وقيماً واتجاهات ومبادئ يختزنها في ذاكرته ووجدانه^(٣).

وتشمل التنشئة الديمقراطية كل قطاعات المجتمع ابتداءً من الأسرة إلى المدرسة إلى النادي إلى جماعة العمل في المصنع ووحدة الخدمات، فهي تبدأ منذ الصغر وتستمر مع الإنسان في كل مراحل حياته، حيث يتعين أن نغرس في وجدان الأطفال والشباب مجموعة القيم والسلوكيات الديمقراطية لتكون أساس تصرفاتهم مع الأهل والأصدقاء والزملاء، فما لم تكن هذه القيم والسلوكيات أساس التعامل وأساس العلاقات في المجتمع فإنه من المشكوك فيه أن يشهد هذا المجتمع ديمقراطية سياسية، بل يصبح العمل السياسي والنشاط الحزبي والانتخابات العامة ظواهر معزولة عن السياق العام لحركة المجتمع، ومقطوعة من جذورها وبيئتها، وبالتالي

(١) S.I. Sergeichik: Factors of the Civic Socialization of young people in School, Russian Education and Society, vol.46, no.2, February 2004, p.6.

(٢) Dawson Richard E. Prewitt Kenneth, Political Socialization. Little Brown and Company. Boston, 1969, p.6.

(٣) د. ياسين البكري وهالة تركي، التنشئة الاجتماعية السياسية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٣، ص ٢٣.

فإنها تصبح مجرد شكليات أو طقوس تمارس من دون جدوى^(١).

ثانياً: القوى والهيئات المؤثرة في التنشئة السياسية

١ - الأسرة:

إن إعطاء الدور الرئيسي للعائلة في عملية التنشئة السياسية يجعلها أول هيئة مسؤولة في هذا المجال. ويكفي معرفة تأثيرها ليس فقط بترسيخ الأفكار وإنما في النمط السلوكي الذي تمهد له لشخصية الفرد المستقبلية وخصوصاً فيما يسمّى بظاهرة تحديد الهوية الحزبية للفرد بوصفها تعبيراً عن الهوية السياسية للأب. ويقصد بهوية الآباء هنا هو تقمص الآباء بشكل وراثي وغير شعوري للمعتقدات السياسية للآباء باتجاه المواضيع السياسية المتعلقة بالنظام السياسي والحزبي^(٢).

تعدّ الأسرة أبرز مؤسسات التنشئة السياسية، وهي تكتسب محوريّتها من خلال بعدين أساسيين: الأول: إن كل فرد في المجتمع من الطبيعي أن ينتمي لمدة طويلة من حياته لأسرة، ومن ثم فإنه من

الطبيعي أن يمرّ كل شخص بخبرة الحياة الأسرية. والثاني: أن الفرد يعتمد عليها عاطفياً ومادياً، الأمر الذي ييسّر قبوله الصعوبات التي يتعرض لها أثناء عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية^(٣).

وترجع أهمية الأسرة بوصفها وحدة التنشئة السياسية إلى كونها تضمّ أول نمط للسلطة يعايشه الطفل، ومن ثم تؤثر طريقة ممارسة هذه السلطة فيه وعلى اتجاهاته ومعارفه. فإذا كان الأب متسلطاً في معاملته لأفراد أسرته بات من المحتمل أن تتأكد لدى الأبناء قيم الإكراه والسلبية. وبالمقابل، إذا كان الأب ديمقراطياً يتربى الأولاد على قيم الحرية والاهتمام بالجماعة^(٤).

إلى ذلك، تمثل الأسرة، المؤسسة الاجتماعية، الجماعة الأولى للفرد، فهي أول جماعة يعيش فيها الطفل، ويشعر بالانتماء إليها، وبذلك يكتسب أول عضوية له في جماعة، وبالتالي فإن نمط عضويته في جماعة الأسرة يمتد معه ويؤثر في نشاطه وارتباطاته.

ووفقاً لما سبق، فإن هناك دوراً غير مباشر يعود إلى أسلوب التربية الذي تسلكه الأسرة في تربية أبنائها مما يكون له آثاره

(١) عبد الغفار شكر، العرب بين السلطوية والديمقراطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١٢٤.

(٢) د. سويم العزي، علم النفس السياسي، مكتبة الجامعة، الشارقة، ٢٠١٠، ص ١١٧.

(٣) عيسى أبو زهرة، التسامح والمساواة، في مجلة تسامح، العدد الرابع، السنة الثانية، آذار، ٢٠٠٤، ص ٣٢.

(٤) وحيد هاشم، العلاقة بين التنشئة الوطنية والاستقرار، ندوة المجتمع والأمن، كلية الملك فهد الأمنية، الرياض،

١٤٢٤هـ، ص ٩.

في سلوكه السياسي. فإذا كانت الأسرة تربي الأبناء بأسلوب ديمقراطي، فإن ذلك يساعدهم على الإيمان بقيم الحرية والمشاركة، بينما تؤدي سيادة التسلطية على الأبناء إلى إنزوائهم وسلبيتهم. من هنا، يرى «كونفوشيوس» أن حبَّ الأمير هو امتداد لحبِّ الأم، وأن الولاء السياسي للنظام الحاكم يعدّ انعكاساً للولاء للأسرة. وقد أثبتت كثير من الدراسات أن معظم الأشخاص الذين لديهم صورة إيجابية عن الأب تنعكس كما هي على أشكال السلطة وخصوصاً الرئيس^(١).

من هنا، تتعدد أنماط الأسرة وتتباين، إلا أنه تبقى حقيقة هامة، وهي أن كل فرد من بني البشر في أي زمان ومكان قد ولد وتربى في أسرة تتكون كل منها في مجموعها من ثلاثة أفراد على الأقل، وينتميان إلى جيلين فقط: جيل الآباء، وجيل الأبناء. وهي تشتمل على شخصين بالغين هما الذكر والأنثى يعرفان بأنهما الأبوان البيولوجيان للأطفال وهما يقومان في العادة بالالتزامات الاقتصادية تجاه الوحدة الأسرية^(٢).

٢ - المدرسة والمؤسسات الثقافية والتربوية:

يمكن أن تؤدي المؤسسات الثقافية والتربوية مثل المعاهد والمدارس والجامعات والمكتبات ومراكز البحث العلمي الدور الكبير والمؤثر في نشر الأفكار والقيم الوطنية والقومية والانسانية بين الناشئة وترسيخها في نفوسهم وحثهم على الالتزام بها والتصرف بموجبها^(٣).

من هنا، تقوم المدرسة بالتنشئة السياسية من خلال جوانب عدة، هي:

– **نقل المعرفة السياسية:** حيث تعدّ عملية نقل المعارف والمفاهيم السياسية عملية على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لدور مؤسسات التعليم. ويشمل ذلك المعرفة بمتطلبات المواطنة من حقوق وواجبات، والمعرفة بالبناء الرسمي للحكومة ورؤسائها وموظفيها.

– **غرس القيم السياسية وتنميتها:** ولعلّ ما يساعد على ترسيخ القيم الوطنية إحساس الفرد بالأمان وتمتعه بالحماية في وطنه عن أية انتهاكات.

(١) حنان كفاي، التنشئة السياسية لتلاميذ مرحلة التعليم الأساسي في مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، تربية عين شمس، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٨٦.

(٢) د. حسين رشوان، الأحزاب السياسية وجماعات المصلحة والضغط، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، ٢٠٠١، ص ١٩٩.

(٣) Davis, K. Human Society, New York, 1967, p.209.

– تنمية مهارات المشاركة السياسية:

ويمكن أن يتم ذلك عن طريق:

– المقررات الدراسية.

– والأنشطة المدرسية المختلفة^(١).

إنَّ التوجهات والقيم السياسية التي يتبناها النشء تنمو معه خلال مراحل نموه. ومن المعلوم أن نموَّ الطفل يتم من خلال حلقات متتابعة تتحقق كل حلقة منها باتساع الدائرة التي يعيش فيها، فالطفل يستقلُّ عن أمه، ليصبح عضواً في مجتمع الأسرة، ثم يستقل عن الأسرة، ليندمج في مجتمع الرفاق والأصدقاء، ثم يتسع هذا إلى مجتمع المدرسة، ثم إلى المجتمع الأكبر الذي يعيش فيه. وهذه الخطوات متصلة ومتداخلة، ولا يمكن أن تتحقق أي خطوة منها إلاَّ عندما تتحقق الخطوة التي تسبقها^(٢).

وإذا كانت العائلة والمدرسة الوسيطين الثقافيين الأكبر، أي بوصفهما الأدوات الأساسية اللتين يحصل بواسطتهما نقل الثقافات، إلاَّ أنهما ليستا الوحيدتين. لذا، فإنَّ قسطاً مهماً من عملية جعل الولد مجتمعياً يحصل خارج العائلة والمدرسة، إذ

أن ثمة عملية مجتمعية تتم عبر الاحتكاك بالبيئة والقرية والشارع والحي، وبواسطة الكتب والصحف والمجلات والرسوم المتحركة، عبر السينما والتلفاز. إضافة إلى عملية مجتمعية عبر المجموعات العفوية مثل: زمر زملاء الدراسة أو رفاق الحي والقرية، حيث تحتل هذه المجموعات مكانة هامة في حياة الولد، فهي تشكل جماعات حقيقية مستندة إلى معايير وقيم وأدوار خاصة^(٣).

٣ - الأقران والصدقة:

يمكن ملاحظة دور الشارع وعلاقات الصداقة في تأثيرها على سلوكية الأفراد من زاوية المواقف السياسية باتجاه بعض القضايا السياسية المطروحة التي تتعارض مع الاتجاهات السياسية للأباء. من هنا، فإنَّ في داخل إطار هذه العلاقات – البيت والمدرسة والأصدقاء والجيرة والشارع – يكتسب الفرد الشعور بالـ «نحن»، وتتكون هويته الاجتماعية بفعل عاطفة العيش سوية وبفعل أهداف المجموعة فيتعلم من خلالها أهمية التنازل عن المصلحة الشخصية لصالح المصلحة العامة^(٤).

(١) د. سعيد اسماعيل علي، الأصول السياسية للتربية، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٢، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٢) د. السيد عبد القادر شريف، التنشئة الاجتماعية للطفل العربي في عصر العولمة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٢.

(٣) موريس دوفرجيه، علم اجتماع السياسة، ترجمة د. سليم حداد، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٩١، ص ١٠٥.

٤ - جماعات المصالح:

تعمل هذه الجماعات على تنشئة أعضائها بصورة تتناسب ومواقفها السياسية وتعمل على إقناعهم بالفكرة أو المصلحة الرئيسية التي تتبناها وتهيئهم للتضحية من أجل هذه الفكرة أو المصلحة، وتدفعهم لمعارضة السياسات المتناقضة مع مصالحها، كما أنها تقوم بإعداد الدراسات في المجال الذي يعينها وتقديم هذه الدراسات للمسؤولين. وبهذا تسهم في التنشئة السياسية^(١).

٥ - وسائل الإعلام والاتصال:

تؤدي وسائل الإعلام دوراً في عملية التنشئة الاجتماعية - السياسية، عبر:

- صياغة مفاهيم الأفراد وتصوراتهم بالنسبة للحقائق في مسالك الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.
- تزويد الأفراد بالخبرات السياسية التي يتشكل عبرها الرأي العام في المجتمع.
- يخلق الإعلام تماسكاً بين أفراد المجتمع في المواقف السياسية العامة، وعند الحاجة إلى اتخاذ مواقف سياسية مصيرية.

- دعم العقائد المكتسبة أو زيادة التركيز على قيم معينة من القيم السياسية^(٢).

لذا، يمكن للاعلام أن يؤدي دوراً محورياً في التأثير على مواقف الأفراد وتوجهاتهم ومواقفهم السياسية، وفي التأثير على أذواقهم ومجمل نمط حياتهم. ونظراً لأهمية الاعلام تسعى الأنظمة السياسية للسيطرة عليه وتوجيهه لخدمتها، موظفة المتخصصين في مجالات الاعلام حتى تحقق النتيجة المرجوة، والتي تتمثل في الهيمنة على أفكار الناس وعقولهم^(٣).

ووفقاً لما سبق، تعدّ وسائل الاعلام والاتصال من أبرز عوامل التأثير في الجمهور. وتأثيرات وسائل الاتصال عديدة، ومنها:

- **التنشئة الاجتماعية؛** أصبحت وسائل الاعلام إحدى وسائل التنشئة الاجتماعية التقليدية: الأسرة، المدرسة، المجتمع.. حيث تساعد وسائل الاعلام على دمج الأفراد في السياق الاجتماعي، من خلال التقديم الايجابي للمعتقدات

(١) Chanial Philippe, Lademocratie et les habitudes du Coeur. IN. Sous la direction de Alexandre Dorna et Patrice Georget, IN press editions, 2004, p.158.

(٢) د. بهاء قبلي، المدخل إلى علم السياسة، جامعة العلوم التطبيقية، مملكة البحرين، ٢٠١٤، ص ١٨٨.

(٣) G. Almond and B.Powell, Comparative Politics: Development Approach. Boston Little Brown, 1966, p.97.

والسلوكات التي تنسجم مع توجهات المجتمع^(١).

ومما يُلاحظ، في هذا الإطار، أن الاعلام ليس حيادياً في أية مؤسسة، ولا في أية منظمة أو أي نظام للعلاقات الإنسانية. إن الاعلام هو السلطة، وفي بعض الأحيان الأداة الأساسية للحكم ولو لمدة قصيرة. ولا أحد ينقل المعلومات من دون أن يحرص بصورة عفوية، على الأقل، على النتائج التي قد تنجم عنها وعلى علاقتها بمركزه في السلطة^(٢).

وانطلاقاً من ذلك، على وسائل الاعلام أن تتبنى بعض المهام لترسيخ المبادئ والقيم والاتجاهات الفكرية والسياسية الايجابية عند الأفراد والجماعات:

- تطوير الجوانب الفكرية والتربوية والأخلاقية والإنسانية عند الفرد وذلك لما يتمتع به من أهمية بالغة في تكوين المجتمع ورسم صفاته الأساسية.

- تركيز وسائل الاعلام على تنمية الممارسات الديمقراطية في المجتمع.

- قيام وسائل الاعلام بالتأكيد على أهمية الذات الوطنية وإعادة بناء الشخصية واستعادة الهوية الوطنية وإعادة الثقة بالنفس^(٣).

ثالثاً: دور الأحزاب السياسية في التنشئة السياسية

تؤدي الأحزاب السياسية دوراً هاماً في عملية التنشئة الاجتماعية - السياسية. علماً أن دورها لا يقتصر على فئة الشباب بل تؤدي دوراً حتى مع الأطفال الذين عادة ما يوجه لهم بعض البرامج من أجل تنشئتهم على قيم الديمقراطية والولاء والانتماء للوطن والتسامح واحترام الرأي والرأي الآخر^(٤).

ومن جانب آخر، تساعد الأحزاب السياسية بوظائفها على ديمومة النظام السياسي عبر التوظيف والاعداد والتنشئة السياسية. ويختلف دور التنشئة السياسية للأحزاب حسب كل مجتمع. فمما يلاحظ أن دور الأحزاب في بعض الدول يسهم في تنشئة سياسية قائمة على تقوية العوامل الثقافية الموجودة وذلك للمحافظة عليها كما

(١) عبد الله طلال، الرقابة التلفزيونية كآلية للتنشئة السياسية، <http://www. Alittihad.press.ma/comment. Asp?>

Codelague = 6 and codeinfo = 23232.

(٢) Price (Stuart), Media Studies, Pitman Publishing, 1993, د. هشام المكي، الاتصال الجماهيري وسؤال القيم، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٦، ص ٨٧.

(٣) شوميليه، جاندر و كورفوازييه، مدخل إلى علم الاجتماع السياسي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٥٣.

(٤) د. إحسان الحسن، علم الاجتماع السياسي، دار وائل، عمان، ٢٠١٠، ص ٢٧٤.

هي. بينما تقوم الأحزاب السياسية في مجتمعات أخرى باتخاذ سياسة تنشئة تقوم على تبديل الأسس الثقافية للمجتمع وذلك بخلق نمط آخر للحياة^(١).

رابعاً: أهداف التنشئة السياسية

تهدف التنشئة السياسية لتحقيق جملة من الأهداف ولعلّ منها:

١ - غرس الهوية القومية

إذا كانت التنشئة السياسية تعني تربية الفرد وتوجيهه، والإشراف على سلوكه، وتلقينه لغة الجماعة التي ينتمي إليها، وتعويدته على الأخذ بعاداتهم، وتقاليدهم وأعرافهم وسنن حياتهم، والاستجابة للمؤثرات الخاصة بهم، والخضوع لمعاييرهم وقيمهم والرضا بأحكامهم، وتطبيعهم بطباعهم وتمثله لسلوكهم العام وما توارثوه وأدخلوه إلى ثقافتهم الأصلية من الثقافات الأخرى، فإن الفرد، في هذه الحالة، سيصبح اجتماعياً يمثل المجتمع الذي ينتمي إليه ويسلك وفق السلوك المثالي والمطلوب والمرغوب للجماعة المحيطة، وبهذا يكون مثال المواطن الصالح الذي ينتمي لثقافة وطنه وأمتة وقومه^(٢).

٢ - التعبئة الاجتماعية - السياسية

يمكن تحليل جوهر عملية التعبئة الاجتماعية - السياسية من خلال تحليل العناصر الآتية:

- **طبيعتها؛** حيث تهدف عملية التعبئة الاجتماعية إلى الانتقال إلى مجتمع الحداثة، الذي تتعدد فيه المهمات والمؤسسات السياسية والاجتماعية.

- **مصدرها؛** بمعنى تحديد العنصر الدافع للتغيير، فالتحديث يفترض أن ينبثق ابتداءً من المجتمع.

- **دينامية انتشارها؛** غالباً ما تبدأ عملية الوعي الاجتماعي - السياسي لدى فئات محددة ثم تتسع في تأثيرها في البنية الفوقية.

- **سلوكها؛** ينبغي أن تأخذ التعبئة بطريقة التنمية التدريجية، ذلك أن التحول السياسي هو نتاج تدريجي يتولد عن سلسلة من عمليات التحول الاجتماعي^(٣).

٣ - التجانس الاجتماعي

تسعى التنشئة السياسية إلى تحقيق التجانس الاجتماعي والمساواة بين أفراد المجتمع، على أساس من قيم المواطنة، دون اعتبار للتباينات التي يؤسسها الاختلاف في الدين أو العرق أو الخلفية الاجتماعية.

(١) د. صالح الصقور، الاعلام والتنشئة الاجتماعية، دار أسامة، عمان، ٢٠١٢، ص ١٢٨.

(٢) د. حسان العاني، الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة، المكتبة القانونية، بغداد، ص ٢٦٠.

(٣) د. ابراهيم ناصر، علم الاجتماع التربوي، دار الجيل، بيروت، ص ٥٧.

نموه النفسي، والواقع أن الأسرة تنجح في تحقيق النضج النفسي للطفل إذا ما نجحت في توفير العناصر التالية:

- تفهم الوالدين وإدراكهما الحقيقي في معاملة الطفل وإدراك الوالدين ووعيهما بحاجات الطفل السيكولوجية والعاطفية المرتبطة بنموه وتطور نمو فكرته عن نفسه وعن علاقته بغيره من الناس وإدراك الوالدين لرغبات الطفل ودوافعه التي تكون وراء سلوكه، وقد يعجز عن التعبير عنها^(٢).

إن للتنشئة الاجتماعية والسياسية بعدين يعبران عن كونهما يمثلان وظيفة ضرورية لاستمرار البناء الاجتماعي والسياسي: الأول، هو البعد العمودي أو الرأسي، ويتحدد مضمونه في أن الجيل القائم ينقل ثقافته إلى الجيل اللاحق. والبعد الثاني، وهو الأفقي، يتحدد مضمونه في وجود اتساق بين القيم والاتجاهات والسلوكيات لأفراد الجيل السائد بما يضمن للبناء السياسي والاجتماعي تحقيق قدر مناسب من التلاحم والترابط، وهو ما يعدّ أساسياً لتحقيق الأمن والاستقرار^(٣).

وعلى هذا النحو، فإنه كلما كانت التنشئة السياسية أكثر فعالية وكلما أكدت على قيم المواطنة أضعفت الانتماءات الاثنية للمواطنين ودفعت بها إلى خلفية المسرح. بل إن مثل هذا الوضع يعدّ دلالة على قدر التحديث والتقدم الذي قطعه المجتمع على طريق التطور. والعكس صحيح، فإنه في حالة ضعف التنشئة السياسية، فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تراجع الانتماء من مرجعية المواطنة إلى مرجعية الجماعة الاثنية^(١).

خامساً: عوامل نجاح التنشئة السياسية، ونتائج تطبيقها

١ - عوامل نجاح التنشئة السياسية

- توفير الجو الاجتماعي السليم الصالح واللازم لعملية التنشئة الاجتماعية، حيث يتوفر الجو الاجتماعي للطفل عبر وجوده في أسرة مكتملة تضمّ الأب والأم والأخوة، إذ يؤدي كل منهم دوراً في حياة الطفل.

- تحقيق النضج النفسي حيث لا يكفي لكي تكون الأسرة سليمة متمتعة بالصحة النفسية أن تكون العلاقات السائدة بين هذه العناصر متزنة سليمة وإلاّ تعثر الطفل في

(١) بيرتراند بادي، التنمية السياسية، ترجمة محمد نوري المهدي، تالة للطباعة، طرابلس، ٢٠٠١، ص ١٠٢.
(٢) د. السيد عمر، وآخرون، موسوعة التنشئة السياسية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠١٣، ج ١، ص ٢٧٩.
(٣) سامي الأخرس، الأسرة والتنشئة الاجتماعية، الحوار المتمدن، العدد ١٨٧٩، بتاريخ ٢٠٠٧.

٢ - نتائج التنشئة السياسية

يعدّ توجيه التعصب إلى فرد معين أو جماعة معينة سلوكاً مكتسباً، والتعصب تحدّد المعايير والقيم الاجتماعية التي يتعلمها الاطفال من آبائهم ومعلميهم ومن وسائل الاعلام وسائر عوامل التنشئة الاجتماعية دون نقد أو تفكير. فهو نتاج اجتماعي لميول الفرد. وينمو التعصب مع نمو الفرد تدريجياً، إذ يرجع التعصب إلى مراحل مبكرة من حياة الفرد، وأن الفرد في بدء حياته يعيش متمركزاً حول ذاته، وينمو ليصبح متمركزاً حول الجماعة.

وينمو الشعور بالـ «نحن»، ويزداد ارتباطه بجماعته، إذ تؤدي عوامل التنشئة الاجتماعية دوراً في إكساب الطفل وتعليمه إتجاهات مناهضة أو معادية لإحدى هذه الجماعات، ما ينمي الاتجاه السالب لدى الطفل مع زيادة الشحنات الانفعالية ليصبح بعد ذلك تعصباً مكتسباً ضدّ جماعة ما^(١).

سادساً: النظام السياسي والتنشئة السياسية

ينطوي أي نظام سياسي على بناءات سياسية، وأدوار سياسية يؤديها الفاعلون ونماذج للتفاعل تقوم بينهم، سواء كانوا أفراداً أو جماعات.

لذلك، تقسم وظائف النظام السياسي إلى وظائف المدخلات ووظائف المخرجات، وتمثل وظائف المدخلات في التنشئة السياسية، والاعلام السياسي والمعرفة السياسية، والتجنيد السياسي، إذ تتناول التنشئة السياسية التعليم السياسي، ويتناول التجنيد السياسي اختيار القيادات السياسية وتدريبها.

ووفقاً لما سبق، يقوم النظام السياسي بتشجيع الأفراد على المساهمة في شؤونه واشغال الأدوار المهمة فيه بعد الحصول على التدريب والمهارة والكفاءة الادارية والمهنية مع مكافأة شاغلي هذه الادوار وتحفيزهم على تقديم المزيد من الخدمات والفعاليات المفيدة والتي من شأنها أن تطور نوعية العمل السياسي في المجتمع^(٢).

إلى جانب ذلك، تُعدّ التنشئة السياسية وسيلة أساسية لدعم النظام السياسي وتأييده، فهي عملية يتم من خلالها خلق قيم ومعارف مناسبة لدى المواطنين تجاه نظام سياسي معين، على أساس افتراض أن التأييد السياسي عامل ضروري لاستمرارية أي نظام سياسي عبر الزمن^(٣).

(١) ثامر كامل محمد، المجتمع المدني والتنمية السياسية، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي، ٢٠١٤، ص ٨٧.

(٢) د. محمود التميمي، ود. ميثم الساعدي، علم النفس والسياسة، دار صفاء، عمان، ٢٠١٦، ص ٣٣٩.

(٣) Don Martindale, The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, Houghton Mifflin, 1981, p.479.

من هنا، ترتبط التنشئة السياسية بطبيعة النظام السياسي السائد وأيديولوجيته التي يتبناها في أسلوبه وتعامله مع الناس. فإذا كان النظام ديمقراطياً فإنه يسعى إلى تكريس قيم الديمقراطية في ممارسات الافراد وسلوكياتهم خلال مراحل التنشئة المختلفة بدءاً من مرحلة الطفولة ثم المراهقة وأخيراً مرحلة الاعتدال والنضوج. أما إذا كان النظام استبدادياً فإنه يسعى إلى إيجاد تنشئة قائمة على دعم النظام السياسي وتعظيم رموزه ونشر ثقافة يشعر الفرد عبرها بأنه مؤيد للنظام السياسي في كل شيء ورافض لمنطق التطور والتغير^(١).

لذلك، فبقدر ما يتفهم المواطن جوهر النظام السياسي والحكم في بلده ودوره في بناء وطنه سياسياً واجتماعياً، وبقدر ما يعايش بتفهم هذا النظام والحكم والدور بقدر ما ينغرس في نفسه شعور الانتماء إلى وطنه وإلى نظامه مقتنعاً بمحاسنه ومصالحاً لمساوئه مطوراً دائماً لمفاهيمه وأساليبه تحقيقاً لغايته القصوى وهي سعادة المجتمع وانتظامه في سبيل تحقيق أمنه الاجتماعي والسياسي.

إن تفهم المواطن لنظامه السياسي يسهل عليه فهم ما يطلبه منه هذا النظام من التزام وواجبات. فالنظام السياسي بحاجة لوعي وإدراك لواقع البلد الداخلي والخارجي كما هو بحاجة لحماية وإنعاش ومادة تخوّله تحقيق المشاريع والتنمية. فإذا طلب من المواطن الانخراط في سلك الجندية أو الشرطة وطلب منه دفع الضرائب والقيام بواجبات سياسية معينة أدرك أنه يقوم بذلك، لأن تعلّقه بنظامه السياسي يفرض عليه هذا الواجب. ومن ثم إن سنّ القوانين والشرائع هو من الأعمال التشريعية السياسية التي تمارس في سبيل خير المجموعة. فإذا أدرك الإنسان فحوى القوانين وغايتها أصبح التوافق معها أسهل وأبسط عما لو كان يجهلها ويجهل وظيفتها، فيصبح في وضع الراض لها^(٢).

وفي هذا الصدد، يطرح التساؤل حول كيفية حدوث عملية اكتساب أفراد المجتمع لثقافة المجتمع السياسية. إن هذه الوسائل متعددة، ويصعب ترتيبها من حيث الأهمية، ذلك أن نوع الثقافة السياسية في كل مجتمع ودرجة النضج المؤسساتي وطبيعة

(١) د. خالد الشريدة وآخرون، الديمقراطية والتربية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠١، ص ٤٠٤.

(٢) قاسم الزبيدي، التحول الديمقراطي في الوطن العربي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة النهدين، العراق، ٢٠٠٩، ص ١٣٨.

النظام السياسي كل ذلك يؤدي دوراً في تحديد أيّ من الوسائل أنجح في القيام بمهمة التنشئة السياسية، فبينما نجد وسائل الاعلام تؤدي دوراً مركزياً في الدول الديمقراطية، نجد المؤسسات الدينية والأسرة في المجتمعات التقليدية أكثر أهمية من وسائل الاعلام^(١).

سابعاً: أثر التنشئة الاجتماعية السياسية في التحول الديمقراطي

تؤثر التنشئة الاجتماعية - السياسية تأثيراً بالغ الأهمية في عملية التحول الديمقراطي، لما لها من أهمية في تنمية المجتمع وتطويره واستقراره، عبر القدرة على تغيير نمط اجتماعي معين بما يحتوي من قيم وعادات اجتماعية أو الحفاظ عليه والعمل على استمراره وديمومته والحيلولة دون تغييره. ويتجلى ذلك الأثر عندما تتفق مؤسسات التنشئة الاجتماعية - السياسية على هدف مشترك وهو خلق مجتمع متماسك واع لحقوقه وواجباته وقادر على أداء دوره الاجتماعي عموماً والسياسي بشكل خاص^(٢).

وعليه، سوف نتناول أثر التنشئة الاجتماعية - السياسية على التحول

التدريب على الأدوار ورفع الوعي السياسي: تقوم مؤسسات التنشئة السياسية بعملية الاعداد والتدريب على الأدوار السياسية، إذ تقوم كل مؤسسة بدورها في سبيل إعداد أفراد قادرين على أداء أدوارهم السياسية، بما تقوم به تلك المؤسسات من تعليم الأفراد الاتجاهات السياسية ورفع مستوى وعيهم. فالعلاقة بين التنشئة السياسية ورفع مستوى الوعي السياسي والتدريب على الأدوار السياسية علاقة مباشرة، لأن توعية الفرد وإرشاده لحقوقه وواجباته تعني تهيئة لدور سياسي معين، وتتوقف طبيعة الدور السياسي على نوعية الوعي السياسي^(٣).

الثقافة السياسية: تؤثر الثقافة السياسية في سلوك الأفراد، سواء أكانوا مواطنين أم قادة أثناء قيامهم بأعمالهم السياسية، أو استجاباتهم للأحداث السياسية. فالثقافة السياسية المساهمة تقوم على حالة الاتفاق بين الفرد ونظامه السياسي، حيث يكون الفرد فيها على

(١) د. مصطفى العوجي، الأمن الاجتماعي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، ٢٠١٥، ص ٣٦٣.

(٢) د. ابراهيم ابراش، علم الاجتماع السياسي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨، ص ٢١١.

(٣) د. ياسين البكري، وهالة تركي، التنشئة الاجتماعية السياسية، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠١٣، ص ٢٢٨.

معرفة تامة بالعملية السياسية وله القدرة على التأثير فيها.

– **المشاركة السياسية:** وهي تمثل العملية التي يؤدي من خلالها الفرد دوراً في الحياة السياسية لمجتمعه، وتكون لديه الفرصة بأن يسهم في وضع الأهداف العامة لذلك المجتمع، وتحديد أفضل الوسائل لانجازها، وذلك من خلال نشاطات سياسية مباشرة، كأن يقوم بترشيح نفسه للانتخابات، أو مناقشة القضايا العامة، أو الاشتراك في الحملات السياسية، أو من خلال نشاطات سياسية مباشرة^(١).

ووفقاً لما سبق، فإن للتنشئة السياسية أثراً كبيراً في عملية المشاركة السياسية التي هي من مستلزمات التحول الديمقراطي وذلك عبر ما تغرسه من قيم وخبرات بواسطة مؤسساتها المختلفة، وبالنتيجة يتحدد دورهم في العملية السياسية بوصفهم مشاركين أو غير مشاركين في العملية السياسية. فهي تهدف إلى تعزيز دور المواطنين في إطار النظام السياسي^(٢).

الخاتمة

للتنشئة السياسية دور فاعل في تثبيت ركائز المجتمع السياسية، وبالتالي فإنها تؤدي وظائف أساسية عبر نقل الثقافة السياسية من جيل إلى جيل، وتغيير الثقافة السياسية، وبلورة مفاهيم وآراء سياسية.

من هنا، تحاول كل النظم السياسية أن توظف عملية التنشئة السياسية لغرس القيم والتوجهات والأفكار السياسية التي تتفق مع توجهات السلطة الحاكمة. ويتم ذلك عن طريق المؤسسات والقنوات التي تخضع لسيطرة السلطة مثل المؤسسة التعليمية ووسائل الاعلام.

لذلك، تساهم التنشئة السياسية في عملية التحول الديمقراطي من خلال تعزيز الثقافة السياسية ورفع مستوى الوعي السياسي وتطوير مجالات المشاركة السياسية الفاعلة.

وثمة ملاحظة يجدر إيادها، هنا، أن ليس كل تنشئة تؤدي إلى استقرار سياسي ووعي ديمقراطي، بل هناك أحياناً تنشئة خاطئة تدفع إلى المزيد من التقهقر والتراخي والمصالح الفئوية.

(١) محمد الخفاجي، أثر القيم الاجتماعية في السلوك السياسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين، العراق، ٢٠٠٤، ص ١٧٢.

(٢) د. عاطف غيث وآخرون، مجالات علم الاجتماع المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٢، ص ٥٢.

المصادر

- ١٤ - شوميليه، جاندر و كورفوازيه، مدخل إلى علم الاجتماع السياسي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٨.
- ١٥ - د. إحسان الحسن، علم الاجتماع السياسي، دار وائل، عمان، ٢٠١٠.
- ١٦ - د. صالح الصقور، الاعلام والتنشئة الاجتماعية، دار أسامة، عمان، ٢٠١٢.
- ١٧ - د. حسان العاني، الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة، المكتبة القانونية، بغداد.
- ١٨ - د. ابراهيم ناصر، علم الاجتماع التربوي، دار الجيل، بيروت.
- ١٩ - بيرتراند بادي، التنمية السياسية، ترجمة محمد نوري المهدي، تالة للطباعة، طرابلس، ٢٠٠١.
- ٢٠ - د. السيد عمر، وآخرون، موسوعة التنشئة السياسية الاسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠١٣، ج ١.
- ٢١ - سامي الأخرس، الأسرة والتنشئة الاجتماعية، الحوار المتمدن، العدد ١٨٧٩، بتاريخ ٢٠٠٧.
- ٢٢ - ثامر كامل محمد، المجتمع المدني والتنمية السياسية، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠١٤.
- ٢٣ - د. محمود التميمي، ود. ميثم الساعدي، علم النفس والسياسة، دار صفاء، عمان، ٢٠١٦.
- ٢٤ - د. خالد الشريدة وآخرون، الديمقراطية والتربية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠١.
- ٢٥ - قاسم الزبيدي، التحول الديمقراطي في الوطن العربي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة النهدين، العراق، ٢٠٠٩.
- ٢٦ - د. مصطفى العوجي، الأمن الاجتماعي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، ٢٠١٥.
- ٢٧ - د. ابراهيم ابراش، علم الاجتماع السياسي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨.
- ٢٨ - د. ياسين البكري، وهالة تركي، التنشئة الاجتماعية السياسية، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠١٣.
- ٢٩ - محمد الخفاجي، أثر القيم الاجتماعية في السلوك السياسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة النهدين، العراق، ٢٠٠٤.
- ١ - د. ياسين البكري وهالة تركي، التنشئة الاجتماعية السياسية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٣.
- ٢ - عبد الغفار شكر، العرب بين السلطوية والديمقراطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣.
- ٣ - د. سويم العزي، علم النفس السياسي، مكتبة الجامعة، الشارقة، ٢٠١٠.
- ٤ - عيسى أبو زهرة، التسامح والمساواة، في مجلة تسامح، العدد الرابع، السنة الثانية، آذار، ٢٠٠٤.
- ٥ - وحيد هاشم، العلاقة بين التنشئة الوطنية والاستقرار، ندوة المجتمع والأمن، كلية الملك فهد الأمنية، الرياض، ١٤٢٤هـ.
- ٦ - حنان كفاقي، التنشئة السياسية لتلاميذ مرحلة التعليم الأساسي في مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، تربية عين شمس، القاهرة، ١٩٩٥.
- ٧ - د. حسين رشوان، الأحزاب السياسية وجماعات المصلحة والضغط، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، ٢٠٠١.
- ٨ - د. سعيد إسماعيل علي، الأصول السياسية للتربية، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٢، ج ٢.
- ٩ - د. السيد عبد القادر شريف، التنشئة الاجتماعية للطفل العربي في عصر العولمة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢.
- ١٠ - مورييس دوفرجيه، علم اجتماع السياسة، ترجمة د. سليم حداد، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٩١.
- ١١ - د. بهاء قبلي، المدخل إلى علم السياسة، جامعة العلوم التطبيقية، مملكة البحرين، ٢٠١٤.
- ١٢ - عبد الله طلال، الرقابة التلفزيونية كآلية للتنشئة السياسية، [http://www. Alittihad.press.ma/ comment. Asp? Codelague = 6 and codeinfo = 23232.](http://www. Alittihad.press.ma/comment. Asp? Codelague = 6 and codeinfo = 23232)
- ١٣ - Price (Stuart), Media Studies, Pitman Publishing, 1993, د. هشام المكي، الاتصال الجماهيري وسؤال القيم، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٦.

٣٠ - د. عاطف غيث وآخرون، مجالات علم الاجتماع المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٢.

٣١ - د. محمد علي محمد، أصول الاجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٠.

32 - S.I. Sergeichik: Factors of the Civic Socialization of young people in School, Russian Education and Society, vol.46, no.2, February 2004.

33 - Dawson Richard E. Prewitt Kenneth, Political Socialization. Little Brown and Company. Boston, 1969.

34 - Davis, K. Human Society, New York, 1967.

35 - Chaniel Philippe, Ladémocratie et les habitudes du Coeur. IN. Sous la direction de Alexandre Dorna et Patrice Georget, IN press editions, 2004.

36 - G. Almond and B.Powell, Comparative Politics: Development Approach. Boston Little Brown, 1966.

37 - Don Martindale, The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, Houghton Mifflin, 1981.

الأحداث الغرائبية في «مناهة الأرواح المنسية» و«استراحة مفيستو» لبرهان شاوي

د.نازك سلمان بدير

ويبدل في تصرفاتها، كما يترك بصمته في لغتها، وفي مستوى القول والخطاب. وقد يمكن القول إنَّ الأمكنة الغرائبية، تُظهر مدى سيطرتها على مجرى السرد.

الإشكالية

يطرح هذا البحث عدداً من الإشكاليات لعلَّ من أبرزها: هل عطّل المكان برامج الشخصيات وأحدث تبدلات جذرية في مسار النصّ؟ إلى أيّ حدّ تدخل المكان في بنية العمل الروائي؟ أاستحالت الأمكنة الواقعية أمكنةً مهمورة ببصمة غرائبية تخرج عن حدّ المعقول وتتجاوز المنطق؟ هل تحوّلت الأمكنة الأليفة أمكنةً معادية؟ هذه الإشكاليات وغيرها سنحاول أن نجيب

المقدمة

تتسم أعمال الكاتب برهان شاوي^(١) الروائية بالإحاطة بالذات الإنسانية، ومتابعة قضايا الفرد، والغوص على تفاصيل حياته في عوالمه الخارجية، والداخلية، ليجد المتلقّي نفسه أنه أمام مناهات حقيقية، قد لا يجد لها حلاً، كما هو الحال في الحياة الواقعية. بدءاً من الجحيم المقدّس^(٢) (أولى رواياته)، مروراً بمناهة الأرواح المنسية^(٣)، وصولاً إلى استراحة مفيستو^(٤) (الروايتين الأخيرتين ستكونان موضوع الدراسة) يسيطر المكان على نتاج شاوي.

كما سيظهر من خلال هذا البحث أنّ المكان يؤثّر في الشخصيات وفي أفعالها،

(١) روائي وشاعر عراقي، صدرت له إحدى عشرة رواية، وسبع مجموعات شعرية، وله العديد من الكتب الفكرية منها: وهم الحرية. ترجم عن الروسية أشعار كلّ من: أوسيب ماندلشتام، يوسف برودسكي، آنا آخماتوفا، فلاديمير فيسوتسكي. .

(٢) منشورات ضفاف، بيروت، طبعة ١، ٢٠١٤.

(٣) دارالأصدقاء، بغداد، ط ١، ٢٠٠٧.

(٤) منشورات ضفاف، بيروت، طبعة ١، ٢٠١٦.

على أنه أبعاد هندسيّة فحسب، بل صار إطاراً «يواجه غرابة العالم على نحو مستمرّ. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الخيال بسبب طزاجته وفعاليته قادر على تحويل العادي إلى واقعة غريبة»^(٣).

نبدأ من العنوان: يهيمن المكان على عنوان رواية «مناهة الأرواح المنسيّة» إنّ علاقة الإنسان بالمكان ليست حديثة، فالارتباط به، في الأصل حسّي. يقيم المرء - منذ النشأة - صلةً مع مكان، هو الجسد، «وإلى جانب الجسد ثمة حيّز يشغله الإنسان ويحيا حياته فيه»^(٤). كما يعدّ المكان عنصراً رئيساً، لا يمكن تجاوزه في أيّ عمل روائي، فالشخصيّات تحتاج إلى مكان تتحرّك فيه، «والزّمان يحتاج مكاناً يحلّ فيه ويسير منه وإليه، والأحداث لا تحدث في الفراغ، وسردها يستحيل إذا تمّ اقتطاعها وعزلها من الأمكنة، فلا شيء يجري ما لم يجد ما ينشئ جريانه عليه»^(٥)، ولا يمكن تصوّر وقوع أيّ حدث «إلا ضمن إطار مكانيّ معيّن، لذلك فالروائي دائم الحاجة إلى التّأطير المكاني»^(٦). ومن

عنها في هذا البحث، حيث سيتركز العمل على ما خلخل وعي العوامل، وما شكّل صدمةً بالنسبة إليها، فتحوّل المكان إلى بؤرة الدّلالة.

المنهج

بالنسبة إلى المنهج المعتمد في هذا البحث، يبدو المنهج الظّاهراتي هو المنهج الملائم لدراسة الأمكنة، وإظهار أهميّتها بالنسبة إلى السرد، وما تكتنزه من علامات دالّة. و«الظّاهراتية، كفكر فلسفي، أوجدها هوسرل. والفكرة المركزية فيها هي قصدية الوعي، أي أنّه دوماً متّجه إلى موضوع. وهو بهذا يؤكّد المقولة التي تذهب إلى أنّه لا يوجد موضوع دون ذات»^(١).

وإنّ كُنّا قد اعتمدنا المنهج الظّاهراتي في تحليل الأمكنة الغرائبيّة في روايتي برهان شاوي، فلأنّه يصلح لدراسة موضوع الخيال «ويلغي موضوعيّة الظّاهرة المكانية - أي كونها ظاهرة هندسيّة - ويحلّ مكانها ديناميّته الخاصّة - المفارقة -»^(٢) وهذا ما سيظهر من خلال البحث؛ إذ لم يتمّ التّعامل مع المكان

(١) باشلار، غاستون، جماليّات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤، ص ١٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠.

(٣) نور الدين، صدوق، البداية في النّصّ الرّوائي، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاذقيّة، ط ١، ١٩٩٤، ص ٤٦-٤٧.

(٤) صالح، صلاح، قضايا المكان الرّوائي، دار شرقيّات، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧، ص ١٢.

(٥) لحمداني، حميد، بنية النّصّ السّردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٠، ص ٦٥.

الصَّعب الابتعاد من المكان في الأعمال الروائية، ولا سيَّما أنَّ الزَّمان والمكان والشَّخصيات وسماتها السِّكولوجية تتجلى وتتحرَّك داخل المكان^(١). هو بمثابة العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية، ويسم الأَشخاص والأحداث الروائية في العمق^(٢).

والمكان بيت الوجود، ورحم الحياة، الرواية مكان، كما أنَّها، في الآن نفسه، حدث يجري في المكان، فتكون من هذا المنطلق هي أيضًا «بيت الوجود، ورحم الحياة»^(٣).

أبرز الأمكنة التي ستتم الإضاءة عليها في «متاهة الأرواح المنسية» وفي «استراحة مفيستو» هي: المتحف، المقهى، البيت، المصعد، الممرات. وتبدو في غالبيتها أمكنة مغلقة حيث يصبح المكان الداخلي خانقًا أشبه بزنانة، ويتحوَّل، تاليًا، إلى مكان معادٍ. «إنَّ المكان الذي يجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانًا لا مبالياً، ذا أبعاد هندسية وحسب. (...) إنَّ مكان

الكراهية والصراع لا يمكن دراسته إلا في سياق الموضوعات الملتهبة انفعاليًا والصور الكابوسية»^(٤).

١ - المتحف: «امرأة اللوج»

في الواقع، المتحف مكان تُحفظ فيه القطع الأثرية ويرتاده الزوار، حيث يشكّل مساحة للتعرف إلى حضارة الشعوب وتراثها. ولكن في متاهة الأرواح المنسية، يتَّخذ المتحف بعداً آخر، يشحنه الكاتب بدلالات غريبة، فيحمل «المكان الروائي الدلالات الحضارية، والتي تكون مرتبطة بثقافة معينة، أو رؤية خاصّة إلى العالم»^(٥).

تخرج اللوحة الفنية في المكان المتحف المقفل عن الدلالة المألوفة، كونها تحفة شهيرة «اسمها اللوج للرَّسام بيير رينوار»^(٦) تتحوَّل امرأة اللوج من ظلال وخطوط وألوان، إلى امرأة من لحم ودم، ذات سحر خاص، «تنبض بالحياة بكل جمالها الآخاذ، تنظر إلى حواء ذو النورين

(١) المحادين، عبد الحميد، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص. ٩.

(٢) شليل، عبد العزيز، الفن الروائي عند غادة السَّمان، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط. ١، ١٩٨٧، ص. ٤٧.

(٣) عياشي، منذر، قراءة على هوامش السرد، دار نينوى، دمشق، ط ١، ٢٠١٧، ص. ١٦٢.

(٤) باشلار، غاستون، جماليات المكان، مرجع سابق، ص. ١٩٧.

(٥) Krsiteva, Julia, Le texte du roman, Mouton, Paris, 1976, p.182.

(٦) (Pierre-Auguste Renoir)؛ بيير أوجاست رينوار؛ رسام فرنسي ولد (١٩١٩ ديسمبر ٣ - ١٨٤١ فبراير ٢٥) لأسرة عاملة. وهو من رواد المدرسة الانطباعية، اهتم في أعماله بتصوير الملامح البشرية ومشاهدات من الحياة العامة السعيدة.

أيضاً وعلى وجهها ابتسامة غامضة»^(١).
اقتربت حواء ذو النورين من اللوحة وأخذت
تتأملها بدهشة وانتباه كامل.

«بقيت مسمّرة أمامها لا تتزحزح وكأنّها
تحت تأثير سحر خاص... وقف إلى جانبها
بعض الأشخاص... مرّت دقائق... ذهبوا...
بقيت هي تتأمل اللوحة، وكأنّ هذه المرأة
في اللوحة تبتمس لها أو تودّ أن تقول لها
شيئاً»^(٢). يبدو أنّ هذه الصّور تدين
بوجودها إلى التعبير الشعري، وهذا الوجود
سوف يتضاءل إذا نسبناه إلى الواقع. ولا
تحتاج هذه الصّور أن تكون واقعية. «إنّها
توجد، وتمتلك السمات المطلقة للصّورة،
وهي قد تخطّت الحدود الفاصلة بين التّكليف
والنّسامي المطلق»^(٣).

لا يتوقّف سحر امرأة اللوج والحدث
الغرائبي المرافق لها داخل أروقة المتحف،
إنّما ينسحب أثرها إلى ما هو أبعد من ذلك
فإذا بها تظهر في أمكنة أخرى مقلّدة من
الرّواية، حيث المكان المغلق يحتفظ
بذكريات، «ويتيح لها في الوقت ذاته
الاحتفاظ بقيمتها الأساسيّة كصور»^(٤)
فتظهر مخلخلة بنية السّرد، مؤرّقة
الشّخصيّات التي تتراءى لها.

٢ - المقهى: دائرة اللامنطق

تتمرّد امرأة اللوج على المكان، تخرج
من المتحف، تلاحق حواء ذو النورين إلى
المقهى، تقارن بين فستان المرأة التي
أمامها، وبين فستان المرأة في اللوحة.
تدخل إلى وعي الشّخصية: «ظننت أنّ ما
تراه ليس سوى وهم... بيد أنّ امرأة اللوج
ابتسمت لها وأومأت لها برأسها تحية...
فأومأت هي برأسها لإرادياً». ومن دون
إرادة منها نهضت من مكانها واتّجهت إلى
حيث كانت امرأة اللوج تجلس، لتتأكد من
وجودها، لكنّها لم تجد أحداً.

ما يتراءى لها هو خاصّ بها وحدها:
نظرت إيّفا سميث إليها مستفسرة، وسألتها:

- ما بك يا حواء...؟ هل هناك شيء ما...؟
ارتبكت حواء ذو النورين قليلاً وقالت
بتردد: - لا أبداً... تراءى لي أنّي رأيت أحداً
ما أعرفه... لكنّه اختفى فجأة...^(٥).

..... «ابتسمت إيّفا سميث لها برقّة
وبموذّة، وقالت لها باسترخاء:

- يعني أنّك قد توهمت في أنّك رأيت
تلك المرأة التي رسمها رينوار... امرأة
اللوج... ربّما لأنك انبهرت باللوحة التي

(١) متاهة الأرواح المنسية، مصدر سابق، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) متاهة الأرواح المنسية، مصدر سابق، ص ١٦٤ .

(٣) باشلار، غاستون، جماليات المكان، مرجع سابق، ص ٣٥ .

(٤) متاهة الأرواح المنسية، مصدر سابق، ص ١٣٦-١٣٧-١٤٢ .

معنى لما يقع (كما حصل مع إيفا) وقد يبدو له العالم غريباً ومقلّماً.^(٣) يقول الحدث ما هو غير قابل للتفسير، ويبدو اللامعقول غير قابل للوصف...

كما أنّ امرأة اللوج تتملّكها، ترافقها إلى حيث تقييم، في قوقعتها. فأين تظهر؟ وكيف تتعامل معها حواء ذو النورين؟ أتجد تفسيراً منطقيّاً لما يجري أمامها؟

٣ - البيت: قوقعة الخوف

«إن أوّل مهمة للظاهراتي في كل بيت أن يجد القوقعة الأصليّة. وبالنسبة للظاهراتي (إلى الظاهراتي) يتوجّب عدم اعتبار الظلال زخرفاً سطحياً وعلينا تفسير الكيفية التي نسكن فيها بيتاً وأن ينفذ هذا التفسير إلى شرح الوسيلة التي نرسي بها جذورنا يوماً بعد يوم في زاوية من هذا العالم»^(٤) فهل تعامل برهان شاوي مع المكان من هذا المنطلق؟ أم ماذا عكست تلك المساحة؟

البيت عند باشلار هو المكان الذي يصار إلى الدّفاع عنه ضدّ القوى المعادية. إنّ هذا المكان هو، الحيز المحبوب، وقبل ذلك بالطبع، الحيز الحميم، الحيز الملاذ، أي وفي كلمة أكثر بساطة: البيت، هذا البيت

شاهدتها اليوم في المتحف، ولاسيّما أنّك بقيت واقفة أمامها فترة طويلة... لذا يبدو أنّها خلقت تأثيراً قوياً في نفسك... وبدون أن تدري توهمت الآن أنّك رأيتهما... لا أكثر... فهي حتى لو كانت تعيش إلى الآن لكان عمرها الآن قرن ونصف من السنوات... سكّنت حواء ذو النورين. أحسّت بأنّ تفسير صديقتها منطقي، لكنّها في أعماقها ظلّت ميّالة إلا أنّها رأت امرأة اللوج فعلاً. فهي لست مجنونة... وليست متوهّمة... وليست في حالة نفسية غير طبيعيّة بحيث ترى أشباحاً أو رؤى وأوهاماً^(١).

أدى ظهور امرأة اللوج في المقهى إلى خلخلة في منظومة وعي حواء ذو النورين، وجعلها تعيش حالة تناقض مع نفسها ولا سيّما بعد الحديث المقتضب مع إيفا سميث. الحدث الغرائبي في المكان أنتج دلالة جديدة وموقفاً جديداً من النّصّ ومن زمنه ومن تاريخه.^(٢)

ينطلق برهان شاوي من في هذا المشهد، كما في غيره من المشاهد في «مناهة الأرواح المنسيّة»، من أمكنة واقعيّة، لكن ما يحدث في عوالمه يبدو لا معقولاً، لا يخضع للمنطق أو للعقل. قد لا يجد الإنسان

(١) مناهة الأرواح المنسيّة، مصدر سابق، ص ١١٢.

(٢) إبراهيم، عبدالله، المتخيّل السردّي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص ١٧٤.

(٣) المودن، حسن، الرّواية والتّحليل النّصي، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٥٧.

(٤) باشلار، غاستون، جماليّات المكان، مرجع سابق، ص ٣٤.

الذي نجده في حلم اليقظة وفي كتابات الشعراء، يظهر بصفته «مبدأً حقيقياً» للاندماج السيكولوجي للعالم في داخل الأنا، يصبح البيت في هذا السياق وفي هذا المعنى، في الوقت نفسه: الأصل، مسقط الرأس وحيز المستقبل. انه، في اختصار، البيت الذي نعلم به، يسكن أحلامنا، حتى وإن كان وجوده المادي حقيقياً^(١).

لكنّه لم يتشكّل على هذا النحو مع برهان شاوي ولا سيّما الشقّة التي أقامت فيها حواء ذو النورين؛ لجأت إلى هذا البيت ليكون ملاذاً آمناً لها، ومن ثمّ تحوّل المكان، مع مرور الوقت، إلى مكان معادٍ، إلى مساحة تقضّ مضجعها نتيجة اجتياح شبح امرأة اللوج، وهي في غرفتها، باتت تكسر عزلتها، تتراءى لها من خلال النافذة والستارة.

شقة آدم سميث:

«حين أضاءت حواء ذو النورين المصباح في غرفة النوم أحسّت بقلبها يكاد يخنقها من شدّة خفقانه بسبب هول المفاجأة. لمحت قرب النافذة شبح امرأة بملابس سوداء».

وتكون الصدمة عندما تنطق المرأة الشبح باللغة العربيّة، وتحاول طمأنة حواء،

وتذكّرها أنّها هي نفسها التي كانت في لوحة (اللوج) وقابلتها في المتحف... وتخبّرها أنّها حاولت الحديث معها كما رأتها في المقهى:

– لكن لِمَ أنت هنا...؟ لِمَ أنت في شقة مدام إيفا سميث...؟

صممت إيفا نيني لحظة وسألت: – من هي مدام إيفا سميث...؟

أجابتها حواء ذو النورين بهدوء، وبشيء من الألفة الممزوجة بالتوجّس، وكأنّها تعرفها:

– صاحبة الشقة... صديقتي ومضيفتي...^(٢).

ومن ثمّ تزداد الأحداث تنامياً، وتتكثّف غرائبيّتها، ويكشف تواترها أنّ امرأة اللوج إيفا نيني، كغيرها من شخصيات اللوحات في المتحف، تخرج، كما في كلّ ليلة، من لوحاتها، عندما تغلق المتاحف أبوابها! وما يضاعف الأمر غرائبيّة أنّ الرّسام رينوار هو أيضاً، كما سائر الشخصيات التي رسمها، يخرج من إطار لوحته... هي تتحوّل جميعاً إلى أرواح تهيم في الأمكنة، في شوارع باريس...

هذا السيناريو تراءى لحواء ذو النورين

(١) العريس، ابراهيم، شاعرية المكان «الغاستون باشلار»: البيت في كل تجلياته، صحيفة الحياة اللندنية ٠٦/٠٩/٢٠٠٨.

(٢) متاهة الأرواح المنسية، مصدر سابق، ص. ١٤٢.

٤ - المصعد: جدلية الدّاخل والخارج

يشكّل المصعد مكاناً لافتاً في «متاهة الأرواح المنسيّة» كما في «استراحة مفيستو»؛ لم يرد هذا الحيز الضيق نسبياً، والمقفّل، وسيلةً للصعود والهبوط، إنّما ظهر مكاناً لأحداث تتسم باللامنطق والانحراف عن المعايير العاديّة. المصعد هو انقلاب الوقائع، هو المكان الذي تنقلب فيه الحقائق، ويصبح اللامعقول فيه معقولاً، والغريب فيه بديهياً، وإلا كيف نفسّر الظواهر التي حصلت مع الشخّصيات في داخله وهي في معظمها خارجة عن المألوف؟ هذا المكان - المصعد، نتيجة الأحداث التي حصلت في داخله، وسم الشخصيات بطابعه، فإذا بها تكتحل بهذه الغرائبيّة في ردود الأفعال والتصرّف «أتجه نحو المصعد الذي على الجانب الأيسر، والذي يتوسّط الممرّ. وقبل أن يضغط على الرّزّ الذي يشير للنزول فُتح باب المصعد. دخل (...) وقبل أن يضغط على زرّ الطابق الأرضي تحرّك المصعد نازلاً. (...) أحسّ آدم المسكين بغرابة حركة المصعد، فقد كانت سريعة جداً وكأنّه نيزك يسقط من

وحدها، هي التي ترى «إيفا نيني»، وتصغي إليها، وتحاورها، في حين أنّها لا تظهر على مضيفتها إيفا التي تشكّ في أنّ صديققتها تحاور شخصاً ما:

«- خُيل لي بأني سمعتك تتكلّمين... تتحدّثين مع شخص ما... فظننت أن ثمة شيئاً ما قد حصل... ارتبكت حواء ذو النورين لثوان ثم قالت بلهجة واثقة:

- أتحدث مع شخص ما...؟ مع من... مثلاً...؟ ارتبكت إيفا سميث أيضاً لأنها وجدت تساؤلها غير منطقي، فمع من يمكن أن تتحدث حواء ذو النورين في مثل هذا الوقت...؟»^(١).

يبدو العالم الذي تصوّره «متاهة الأرواح المنسيّة» كأنّه يتركّب من صور منتمية إلى سجل الغرائبيّة؛ فهل يتعلّق الأمر بحكاية واقعيّة حقيقيّة أم أنّها مجرد حلم، «أم أنّ الأمر كلّه مجرد تهيّؤات وتخيلات؟»^(٢).

ولم يكن الأمر محصوراً بحصول حوادث غرائبيّة في شقّة آدم وإيفا سميث، إنّما ثمة مكان آخر تبدّت له تداعيات تخطّت حدود المنطق. ويصحّ هنا أن نذكر أنّ الظاهراتي له وسيلة مختلفة يأخذ الصورة - الغرفة كما هي «ويدفعها إلى أقصى حدود ما يستطيع تخيله»^(٣).

(١) متاهة الأرواح المنسيّة، مصدر سابق، ص. ن.

(٢) المودن، حسن، الرواية والتحليل النصي، مرجع سابق، ص. ١٢٩.

(٣) باشلار، غاستون، جماليات المكان، مرجع سابق، ص. ٢٠٣.

السما إلى الكرة الأرضية. لكن الكابينة كانت برغم ذلك آمنة فلم يشعر بالخطر»^(١).

تجدد الإشارة هنا إلى الحركة الغرائبية العمودية في المكان - المصعد صعودًا هبوطًا، شعر آدم المسكين وكأنه يهبط بسرعة نيزك من السماء، لكن الغريب والمفاجئ أنّ الهبوط آمن لم يصاحبه أدنى شعور بالخوف، فكيف يكون الهبوط من هذا الارتفاع بهذه السرعة والقوة، وهو محصن بالأمان؟ كل ما في المصعد يكتسي بالفتنات، منذ ما قبل الدخول يُفتح الباب بقوة سحرية كما في عالم الخيال، لا يحتاج سوى إلى بصمة العين، وبعد أن يصبح في داخله، يتحرك نزولاً من دون الحاجة إلى طلب زرّ الطابق المقصود.

أما المفاجأة، فهي أن يجد نفسه، بعد أن يخرج من المصعد، في الطابق التاسع مع أنّه ما زال يشير نزولاً: «فجأة توقّف المصعد. نظر آدم المسكين إلى شاشة أرقام الطوابق فوجد أنها تشير إلى الطابق التاسع... استغرب ذلك!!! إذن إلى أين كان يهبط المصعد نازلًا...؟ فُتح الباب... ازداد استغرابه حينما وجد نفسه في الطابق الأرضي. كان آدم المسكين يسائل نفسه وكأنه يريد أن يعرف لغز كل ما يجري... ويتمرد شيئًا فشيئًا على مخادعة نفسه

بالقبول بدوره في هذه التمثيلية الغامضة»^(٢).

لم يتوقف الأمر على غرائبية الأحداث داخل المصعد، إنّما عليه كحيز مكاني، كيف تتبدل المقاييس بالنسبة إلى المصاعد الأخرى، لا بل كيف يتحوّل فجأة من مصعد يتسع لعشرة أشخاص، ليضيق إلى مصعد يكاد لا يتسع سوى لشخصين! الأمر العجيب الآخر أنّه يضغط على الزر رقم ٧ لكن لم يتحرك المصعد. وفجأة، فُتح باب المصعد... فانتبه إلى أنّ الممرّ المقابل ليس هو ممرّ الطابق الأرضي... فكّر مع نفسه بأنّ المصعد لم يتحرك أبدًا فكيف صار في الطابق السابع...! أترأه لم ينتبه لحركته السريعة...؟ تحرك خارجًا قليلًا... فوجد أنّه في جناح أنيق جدًا... وردّي اللون... انتبه إلى لافتة برونزية لامعة مقابل المصعد كُتب عليها «الطابق السابع».

جعل آدم يشكّ في نفسه، يظنّ أنّه هو أخطأ لم من الإحاطة بحركة المصعد السريعة. لم يبق تأثيره الغرائبي في حيز الدائرة المغلقة، إنّما تغلغل في وعي الذات، وجعلها تقلق، وتعيد التفكير، على الرغم من أنّ الموضوع يفترض أن يكون من المسلمات.

نستنتج ممّا تقدّم، أنّ المكان نجح في

(١) استراحة مفيستو، مصدر سابق، ص ٥٩

(٢) استراحة مفيستو، مصدر سابق، ص ٥٩-٦٠.

خلخلة المعيش، وبذلك يكتسب المكان بعداً جديداً مع الكاتب، لا يبقى في حيز العادي، إنّما نجده في استراحة مفيستو يهشم المؤلف، ويعيد بناء المكان بمعايير جديدة تتلاءم مع فنون التصوير التي تنقل المتلقي من حيز القراءة، إلى حيز المشاهدة وإعادة التفكير وطرح الأسئلة بصيغ جديدة.

تعود تيمة الهبوط المتلازم مع الخوف في المصعد إلى الظهور مجدداً في «استراحة مفيستو»، لكن هذه المرة يهبط المصعد إلى قاع الأرض، ما يستحضر التناسّ مع جحيم الكوميديا لدانتي ولا سيّما مشاهد الهبوط والمخاوف والأهوال والمخاطر التي يصفها: «كان في مصعد يهبط إلى قاع الأرض... وكان المصعد يهبط ويهبط... وكان يشعر وكأنه يقطع مجرّات هائلة، ألوان وأمطار غزيرة من الشهب... ثم اجتاز أمواجاً متلاطمة من الظلام الذي يحسه كأعماق محيط مهول»^(١).

في كلّ مشهد، يستخدم الكاتب المكان المصعد على أنّه وعاء لأحداث غرائبيّة، صار دالاً على ما له علاقة، لا بالدهشة فحسب، بل بما يسلب الشخصية من عالمها الحقيقي الواقعي، ويأخذها إلى عالم آخر شبيه بعالم الحلم، والقصص الخياليّة، والأفلام العلميّة.

كما وتتجلّى من خلال المصعد، وما يقع في داخله وخارجه من أحداث، جدليّة الدّاخل والخارج: تكاد الأحداث التي تقع خارجه لا تقلّ غرائبيّة عمّا حصل في داخله، فبعد أن كان في حدّ ذاته أشبه بمتاهة تبدأ من السّماء وحدودها أعماق الأرض، إذا بالدائرة المكانيّة خارج باب المصعد لا تقلّ غرابة عمّا تقدّم، هي مساحة عائمة في الضّباب. ولعلّ هذا يشير إلى انعدام الرّؤية، وعدم وضوحها بالنّسبة إلى بني آدم بعد هبوطهم إلى الأرض «فإذا بهم يتخبّطون على غير هدى يغرقون في متاهات الحياة من دون الوصول إلى باب الخلاص»^(٢) كما جاء على لسان حواء الدلو.

كما تتدافع الأحداث الغرائبيّة في المصعد مع إيّفا سميث حيث تصادف الشّيخ المبارك صاحب الكرامات، والنّسوة المتّشحات بالسّواد اللواتي يظهرن فجأة أمامها: «ضغطت هي على زر الطّابق الأرضي، لكن الغريب أنّ باب المصعد لم يغلق... ضغطت على زرّ الإغلاق والهبوط... إلا أنّ الباب لم يُغلق (...). ظهرت أمام باب المصعد راهبة كبيرة في السنّ ما إنّ دخلت إلى المصعد حتّى ظهرت خلفها مباشرة أربع نساء من مكان لامرئي...» فجأة سمعت اثنتين منهنّ يتحدثن في ما بينهما...

(١) استراحة مفيستو، مصدر سابق، ص ٨٠.

(٢) متاهة الأرواح المنسيّة، مصدر سابق، ص ١٢٣.

الفتازيا والانزياحات التي تحدث في المكان، إلى طرح الأسئلة بشكل مستمر، فيعمد القارئ إلى إعادة تخيل النص، وإلى إعادة تشكيل المكان تبعاً للتصورات التي بناها، فيكون بذلك مشاركاً في فعل الخلق الروائي لا مجرد متلقٍ سلبي.

٥ - الممرات: متاهة لا نهائية

إضافة إلى المتحف والمقهى والبيت والمصعد، نجد حضوراً لحيّز مكاني من أبرز سماته الضيق، ألا وهو الممر. وهو هنا جانبي، ومتغير بشكل سريع «بلمح البصر يباغت الشخصية» لا يترك لها فرصة للتعرف إلى المكان الموجودة فيه لتألفه، فإذا به ينقلب بشكل مباغت. ينزع المكان هنا عنه أي صفة من الصفات الطبيعية، ويجنح نحو المكان العادي لتصبح الشخصية الحاضرة فيه شخصية خائفة وجلة متوجسة تشعر بحق أنها ليست في ممر، إنما في متاهة لا تعرف لها نهاية، متاهة متحوّلة في كل آن؛ جدرانها من جيلتين شفاف تارة، وتارة أخرى يكون الممر زجاجياً طويلاً، وطوراً يجد آدم نفسه كأنه يقف في ممر أشبه بقطار سريع ينظر من خلاله إلى المدينة التي باتت جزءاً من فندق استراحة مفيستو. وطوراً آخر، يتحوّل

قالت ذات الشعر الأشقر بأنهن يجب أن يسرعن في الوصول إلى صديقتها حواء ذو النورين قبل أن تتوجّه للمغرب... فهي تريد أن تسألها عن الصغير هابيل وعن المخطوطات...! (١). إضافة إلى ظهور النسوة المفاجئ، ومعرفتهنّ بقصة المخطوطات، والطفل المخطوف هابيل، والأخطار المحدقة بحواء ذو النورين، تتنامى الأحداث الغرائبية بسرعة فائقة داخل المصعد، فيعمّ الظلام، ويسيطر السكون على المكان، عندها «أحسّت إيّفا سميث وكأنّها ليست في كابينة مصعد بنايتها وإنما في مصعد سماوي يخترق الغيوم هابطاً إلى الأرض... أين هي الآن؟ (...) وانفتح باب المصعد... لكن ثمة مفاجأة أذهلت إيّفا سميث لحظتها... إذ لم تجد أي شخص معها في المصعد... كانت كابينة المصعد فارغة... ولا أثر للشيخ المبارك ولا للنسوة الخمس...!» (٢) ما حدث في المصعد يربك «إيّفا» ويدفعها إلى الشكّ في نفسها، تجد نفسها عاجزة عن تفسير ما حصل «ففي مكان ما يترنّح الخيال تحت ضغط التوتّر الهائل، وتضطرب البصيرة، فلا تعود تستطيع التمييز بين الحقيقي والزائف» (٣).

يدفع النصّ الروائي المتلقّي، نتيجة

(٢) متاهة الأرواح المنسية، مصدر سابق، ص. ٣٦٢.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٣) وولف، فرجينيا، غرفة تخصّ المرء وحده، ترجمة عهد صبيحة، دار نينوى، دمشق، ط ١، ٢٠١٧، ص. ٩٥.

هذا الممر المتاهة إلى ممرٍ عريض، كما هي متاهات الحياة المتشابكة، إلى أن يفضي في النهاية إلى غرفة كأنها في اللامكان فوق الغيوم. هناك، يشعر آدم أنه كان في ذلك المكان سابقاً قبل أن يطرد من الجنة: «فجأة تغير شكل المكان... وأعيدت صياغته بلمح البصر... انتبه آدم المسكين إلى أن التغيير في المكان يجري مثلما يجري عند اللعب بالأبعاد الثلاثية في تخطيطات الكمبيوتر (...). بدا له الأمر وكأنه لا يمشي، وإنما يقف في ممرٍ أشبه بقطار سريع..! سأله نفسه: أين أنا...؟ هل من المعقول أن المدينة جزء من «استراحة مفيستو»؟!»^(١).

قدم الراوي المكان - الممر والأشياء من منظور الشخصية (آدم) وحملها رؤيته إلى الحياة، وبذلك لم يكن المكان مسطحاً أو محايداً، أو عارياً من أية دلالة، وإنما ساهم في خلق المعنى داخل الرواية، ولم يكن تابعاً أو سلبياً، وبذلك يكون برهان شاوي للروائي قد حول عنصر المكان إلى «أداة للتعبير عن موقف الشخصيات من العالم»^(٢).

وعلى الرغم من أن الغرائبية قد شاعت في الرواية والقصة القصيرة، إذ يرسم

القاصّ التفاصيل رسماً موهلاً في البساطة والألفة ما يزيد «من حدة الاصطدام بالغريب والمستحيل الحدوث حين يجاوره ويتداخل فيه»^(٣) إلا أن الروائي في «استراحة مفيستو» ابتدع طريقاً آخر في التصوير الغرائبي للأحداث التي تحصل مع الشخصيات في الأمكنة، مستفيداً من خلفيته السينمائية، فتأتي المشاهد معززة بمختلف عناصر التشويق التي تضع القارئ في صلب المکانالحدث الغرائبي، نظراً إلى استخدامه تقنيات الإضاءة متلازمة مع الظهور والكمون للشخصية وما يتركه ذلك من أثر في نفس المتلقي: فجأة انطفأت الأضواء في الممر لثوان... أضيء الممر مرة أخرى، فوجد نفسه في ممرٍ آخر ضيق تغمره إضاءة حليبية شديدة تكاد تغشي العين، حيث اختفت الملامح والحدود بين الجدران والأبعاد... وفي لحظات انسحبت هذه الإضاءة وكأنها شفطت بشكل غامض، فوجد نفسه وحيداً في ممرٍ أنيق يشبه أحد طوابق فندق «استراحة مفيستو»، لكنه طابق مختلف نوعاً ما... فقد كان الممر مزيناً بلوحات فنية عالمية شهيرة... عرف منها لوحة «ولادة فينوس»... ولوحات أخرى لنساء عاريات، ولوحات تمثل بورترية

(١) استراحة مفيستو، مصدر سابق، ص ١٦٨.

(٢) لحمداني، حميد، بنية النصّ السردية، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٣) الرّويّلي، ميجان، والبازعي، سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٢، ص ٣٤٨.

لوجوه نسائية تذكره كلها برغم اختلافها
بجارتها حواء الدلو...!

خاتمة

يبدو أنّ معظم الأمكنة التي دارت فيها
أحداث غريبة أو سحرية هي أمكنة مغلقة،
تجد الشخصية نفسها محاصرة فيها. كما
أنها، في غالبيتها، ضيقة، موحشة، تسليخ
صاحبها مؤقتًا عن العالم المحيط به، وتنقله
إلى عالم آخر، له خصائص ومواصفات
مختلفة تمامًا عن المكان المجاور
والملاصق له في الحيز المادي. يستطيع
برهان شاوي، بخلفيته السينمائية، أن ينقل
المتلقي، عبر المكان الروائي، من مشهد
واقعي، متكرر، يومي، نقع عليه في الحياة
العادية، فإذا به عبر تقنياته الخاصة، يحول
المكان إلى ما يشبه محلول سحري، يسكبه
في مجرى السرد، فيلون تفكير الشخصية،
ويغير في سلوكها.

ويمكن القول، إن الكاتب استطاع من
خلال تحولات المكان التي أحدثها في
الرواية أن يحرض القارئ على إعادة النظر
إليه بطريقة مغايرة، وتالياً، إعادة بنائه مع
كل قراءة بأسلوب يحرض على طرح
تساؤلات تفتح المزيد من المتاهات.

(...) كان المكان وكأنه ليس في غرفة
وإنما هو فوق الغيم أو في بحر من
الضباب. شعر أنه كان في هذا المكان
سابقًا... وكأنه رأى كل ما يدور هنا... بل
وتوقع ما سيحدث أيضًا...^(١)

كل ما في هذا المكان يوحى بالغموض
والخوف... لقد تمكّن الروائي من التلاعب
بصورة المكان، وأسقط الحالة النفسية
للبلبل على المحيط الذي يوجد فيه فجعل
للمكان دلالة تفوق دوره المألوف كديكور
أو كوسط يؤطر الأحداث، متحولاً «إلى
محاور حقيقي ويقتحم عالم السرد محرراً
نفسه من أغلال الوصف»^(٢).

تبدو المعطيات في هذا النص خيالية، لم
ير إليها آدم، ومن خلفه الروائي، كما هي
في الواقع، إنما الصوت الطافي كان للخيال،
لا للمنطق «في خيال كهذا نجد روح
الملاحظة معكوسة كلياً. فهنا يسلك العقل
الذي يتخيل الطريق المعاكسة للعقل الذي
يلاحظ»^(٣).

(١) استراحة مفيستو، مصدر سابق، ص ١٦٦-١٦٨.

(٢) لحمداني، حميد، بنية النص السرد، مرجع سابق، ص ٧١.

(٣) باشلار، غاستون، جماليات المكان، مرجع سابق، ص ١٤٤.

المصادر والمراجع

المصادر

- ١ - شاوي، برهان، الجحيم المقدّس، دار الأصدقاء، بغداد، ط ١، ٢٠٠٧.
- ٢ - شاوي، برهان، استراحة مفيستو، منشورات ضفاف، بيروت، ط ١، ٢٠١٦.
- ٣ - شاوي، برهان، متاهة الأرواح المنسية، منشورات ضفاف، بيروت، ط ١، ٢٠١٤.

المراجع العربية

- ٤ - ابراهيم، عبدالله، المتخيّل السّردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠.
- ٥ - الزّويلي، ميجان، والبازعي، سعد، دليل النّاقذ الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٢.
- ٦ - شبيل، عبد العزيز، الفنّ الرّوائي عند غادة السّمّان، دار المعارف للطباعة والنّشر، تونس، ط ١، ١٩٨٧.
- ٧ - صالح، صلاح، قضايا المكان الرّوائي، دار شرقيات، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧.
- ٨ - عياشي، منذر، قراءة على هوامش السّردي، دار نينوى، دمشق، ط ١، ٢٠١٧.
- ٩ - لحمداني، عبد الحميد، بنية النّص السّردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٠.
- ١٠ - المحادين، عبد الحميد، جدليّة المكان والزّمان والإنسان في الرّواية الخليجيّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠١.

١١ - المودن، حسن، الرّواية والتّحليل النّصّي، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩.

١٢ - نور الدّين، صدّوق، البداية في النّصّ الرّوائي، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاذقيّة، ط ١، ١٩٩٤.

المراجع المعرّبة

- ١٣ - باشلار، غاستون، جماليّات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤.
- ١٤ - وولف، فرجينيا، غرفة تخصّص المرء وحده، ترجمة عهد صبيحة، دار نينوى، دمشق، ط ١، ٢٠١٧.

المراجع الأجنبيّة

15 - Krsiteva, Julia, Le texte du roman, Mouton, Paris, 1976.

الصّحف

١٦ - العريس، ابراهيم، شاعريّة المكان «لغاستون باشلار»: البيت في كل تجلياته، صحيفة الحياة اللندنية ٠٩/٠٦/٢٠٠٨.

نصوص زائدة

محمود وهبة

- ١ -

أنا
وفستانك الأخضر
ورائحة فمك عند الصباح
وفاتورة الكهرباء
والضجر في نهاية الأسبوع
ونسيانك لي في أغلب الأحيان
كل هذا الفراغ
وأنا

- ٢ -

هكذا
عينان فارغتان
ظلّ أسود داكن
سائق «تاكسي» لا يعرف شوارع المدينة
خيمة تتمزق فوق رأسي
عكازتان
حانة قديمة لصديقي فلوبيير
ديوان شعر لابن الرومي
هكذا
هدية منتهية الصلاحية من بابا نويل
كأس نبيذ فاسد لونه أخضر
رائحة القهوة المطعمّة بالترمس
Piscine فارغ في حر الصيف
هكذا هي حياتي
«هذيان»

- ٣ -

تنزف السمكة دمها
ملء قلبها الفاني
للسلالم أدراج كثيرة
ها أنت الآن هنا
أبْحْ قلبك للتراب
تناثر كغيمة في دهليز
...
ثم ابتعد

- ٤ -

أرجعت أشيائي إلى أماكنها
قلبي إلى قفصه الصدري
نقطة الدم إلى شرياني الأبهري
رافقت زوجتي إلى حتفها
ألقي التحية على الحضور
أرسم موتي على جدران شارع الحمراء
أخرج صورتي من ذاكرة الآخرين
أمسحها
Delete
Delete
Delete
- ٥ -
أنا وحيد
وحيدك أيتها الحياة.

ليته يحين الوطن!

د.سمية طليس

ويمرُّ قبلي كلُّ عهدِ الفاتحينَ على الرِّمالِ
وليبيقَ منْ قلبي على الدَّرْبِ الوحيدِ
صنْفانٍ منْ أَلَمِ القبورِ...
والرَّيْحُ تقرأُ في حناياي الشُّعورِ...
هي مثلُ عمرِ الشَّمسِ يندى حينَ يحتفلُ
المغيَّبِ،
أو يعلِّقُ الغيمَ المهاجرُ في أناملِ منْ غبارِ
يطفو بلا شكِّ، ويعتلُّ السُّؤالُ...!
* * *
ولكَمَ تمدَّدَ في مقاصيرِ الرَّجولةِ منْ بعيدٍ...
كهفانِ، إذْ تغدو الطُّفولةُ في حدائقِ موطني
وجعاً،
ويزورُ السَّوادُ على الجدارِ،
ويُصلِّبُ الرِّمَّ الوجيرُ يعادلُ الكفنَ المبلَّلَ
كلَّ عيدٍ...
والكهفُ جمرتهُ عيونٌ تُنشدُ الصَّوتَ المنزَّلَ
منْ سُلالاتِ الفقيرِ لكي، بمنديلِ الوداعِ
الحرِّ، يدخلُ في النهارِ
أو يرمي الوطنَ النَّحيلَ بغربةٍ فيها يخونُ...
ويجوعُ في كلِّ اللُّغاتِ
ويعودُ يلقي جذرَه بالطَّفِّ يحترفُ الجنونَ
* * *
أو ممكناً أنْ يأسرَ الرُّبَّ الغوايَةَ كلَّ صيحاتِ
الحقولِ،
بلْ يتلَفُ اللِّهفاتِ، إذْ تتعانقُ الأفواهُ في ظلِّ
الرَّغيفِ...
أويهزمُ الضَّوءُ المنى، ويسيلُ في وزنِ
الخفيفِ
فيحومُ وجهُ الطِّفلِ في قنديلِهِ...
منْ عادَ في فمِهِ الحروفُ، بلا جفافٍ؟!
أو ممكناً؟!
* * *
أو ممكناً أنْ تُطفئَ الأرحامُ في وجدِ اليتامى
كلَّ أسرارِ الجليدِ...

أَوْ يَأْتِي النَّائِي الْمَخْلَعُ، فِي ضَوَاحِي الدَّمَعِ،
فِي حَالِ الْمَرِيدِ...
وَيَظَلُّ مَضْفُورًا بِجُرْحِي وَالْعَتَابِ بِأَمْسِيهِ
نُعِي الْوَطْنَ؟!
أَوْ مَمَكْنُ؟!
وَيَمُوتَ فِي كِتَابِي الْمَعْمَدَةِ الْهَوَى الْمَغْتَالَ
بِالْهَمِّ، الْبَرِيدُ...
وَأَظَلَّ أَمْرُضُ مَنْ مَشِيِبِ النَّفْيِ فِي حَجْمِ
الشَّهِيدِ...!!
أَوْ مَمَكْنُ؟
أَوْ مَمَكْنُ؟! أَنْ تَطْفُوَ الْأَسْمَاءَ فِي حُضْنِ
الْمَوْلَةِ حَامِلًا وَجْهَ الْقَصِيدِ...

إنّه اللّيل

محمد إقبال حرب

الفضول لأسترقِ السمع من شقوق
حيطانها حيث يتسرّب أنين الجياح في
عصر الضياع.

أسمع لطم الفضحية التي يخفيها رجال
فقدوا إنسانيتهم تحت أقدام تنتعل جلود
آبائهم. نواح أطفال سُرقت طفولتهم قبل
سن الفطام ونساء فقدن براعم أنوثتهن قبل
سن البلوغ.

ما كادت مشاعري تحاول فكّ الرموز
حتى تدفقت روافد لا تحصي من أصوات
البشر المتسلّلة إلى بحر الضمير الذي
صادره السلطان بذاك الفرمان المدموغ
على أجبن السفهاء الذين اتّخذوا أرواح
البشر قرابين سلطانية.

ذهولي لا ينفع، عيوني لا تدمع وإنساني
بات تائهاً كأمة العربان. ها هي جحافل
الأصوات المشبّعة بمعاناة الرعاع تُزاحم
طوفان الموت والعوّز عبر فجوات بين قطع

يتمواج الهمس بين ظلمات الليل أهات
عشق وأنفاس عشاق جمعهم اللقاء بعد
التملّص من عسس البشر، وكثير ممن ضاق
بهم الليل فاتّخذوا الوحدة متنفساً لنهدات
وجدهم.

يأخذني الخجل والغيرة من عالم الحب
المكنون فأنزوي بعيداً حتى لا تصطادني
الظنون فيُظن بي سوءاً. بعد ربح من
الوحدة خلعت نفسي الأمانة بالسوء،
لأنّس في بعد آخر من فضاء العتمة أنشد
قرابين صوفية يرتلها إنسان عتقه الزمان
في خوابي العمر.

رغم السكون المطبق شتّفت أذني
لأقتنص صوتاً عابراً، صلاةً ما تساعدني
تلاوتها في التقرب من ذات نسيتهها.

تسربت أمواج أصواتٍ منخفضة من
بحر العشوائيات وبيوت متواضعة
جاورتني مذ تجال عنها كبريائي. شدّني

بنو البشر، جفّت مصادر الرزق وامتزج
مأكلي مع مخلفاتي فحجّلت من نفسي التي
لا تقوى على ذبّ ذبابة، يا الهي ذهب عملي
هباء منثورًا فكان زرع عقيمًا وابن بجدتي
لئميًا وجسدي سقيماً».

مناديل إنسانيتي لم تكفٍ لستر دموعي
فجرفني نهر عجزي إلى عصر التردّي حيث
تتساوى البشرية بأصحاب الأظلاف.

الليل. تشرئب أصوات العبيد الجياع معلنة
فقدان الأمل كما يترنّح نواح المشردين
المطرودين من رحمة الوطن فتاهوا في
غربته لاجئين منبوزين. يا لذاك الصوت
العجوز المحشرج الذي يطلق أنات الفناء
طالبًا النجدة من ربّ السماء لينهي ارتباطه
بوسائل الحياة. ما أصدق الصلاة التي
تسعى للفناء بكرامة «وهنت قواي، غدرني

Koda, K. (2005). *Insights into second language reading: A cross-linguistic approach*. Cambridge, Cambridge University Press.

544 Zahra Zarrati et al. / *Procedia - Social and Behavioral Sciences* 118 (2014) 537 - 544

Laureate Martínez, A. C. (2008). Analysis of ESP university students' reading strategy awareness. *IBERICA*, 15, 165-176

Logsdon, A. (2016). Understanding regression and why kids lose skills during school breaks.

About Health. Retrieved from <http://learningdisabilities.about.com/od/publicschoolprograms/g/rgssndefinition.htm>

Meyer, B. J. F., & Poon, L. W. (2001). Effects of the structure strategy and signaling on recall of text. *Journal of Educational Psychology*, 93, 141- 159.

Meyer, J.B.F. (1985). Prose analysis: Purposes, procedures, and problems. In B.K. Britten & J.B. Black (Eds.), *Understanding expository text: A theoretical and practical handbook for analyzing explanatory text* (pp. 11-64). Hillsdale, NJ: Erlbaum.

Meyer, J.B.F. (2003). Text coherence and readability. *Topics in Language Disorders*, 23(3), 204-224. doi:10.1097 /00011363 -200307000 -00007

Meyer, J.B.F., Brandt, D.M., & Bluth, G.J. (1980). Use of top-level structure in text: Key for reading comprehension of ninthgrade students. *Reading Research Quarterly*, 16(1), 72-103. doi: 10.2307/747349

Nambiar, R.M.K (2005). *Language learning and language use strategies for tertiary learners for academic literacy: towards a theoretical and pedagogical model of language processing*. Phd Thesis, Universiti Kebangsaan Malaysia, Bangi.

Ness, M. (2011). *Explicit Reading Comprehension Instruction in Elementary Classrooms: Teacher Use of Reading Comprehension Strategies*. *Journal of Research in Childhood Education*, 25(1), 98-117.

RAND Reading Study Group. (2002). *Reading for understanding: Toward an R&D program in reading comprehension*. Santa Monica, CA: RAND.

Snyder, L. (2010). Reading expository material: Are we asking the right questions? *Topics in Language Disorders*, 30(1), 39-47. doi: 10.1097/TLD.0b013e3181d098b3

Tompkins, G.E. (1998). *Language arts: Content and teaching strategies*. Upper Saddle River, NJ: Merrill

Torgesen, J.K., Houston, D.D., Rissman, L.M., Decker, S.M., Roberts, G., Vaughn, S., et al. (2007). *Academic literacy instruction for adolescents: A guidance document from the Center on Instruction*. Portsmouth, NH: RMC Research Corporation, Center on Instruction.

Villanueva de Debat, E. (2012). *Applying current approaches to the teaching of reading*. On-line, Available in:

<http://www.scribd.com/doc/98645273/Applying-Current-Approaches-to-the-Teaching-of-Reading>.

Williams, P. (2017), *Text Structure Should Be Taught Starting in the Primary Grades*, Teachers College, Columbia University

Bibliography

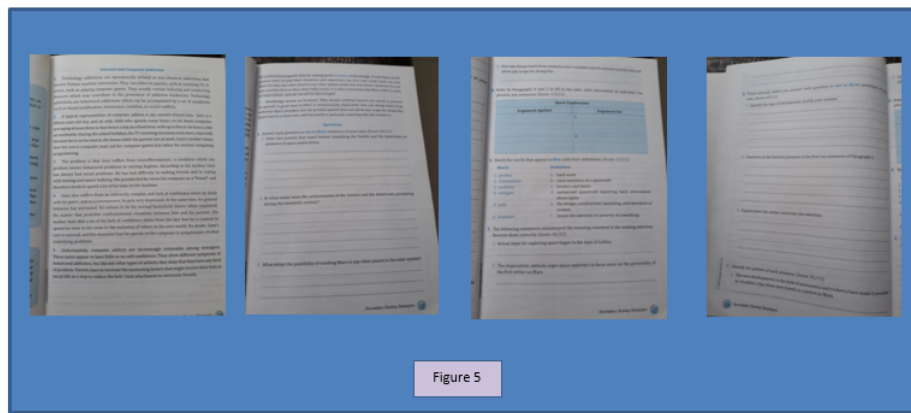
- Armbruster, B. B., Anderson, T. H., & Ostertag, J. (1987). Does Text Structure/Summarization Instruction Facilitate Learning from Expository Text? *Reading Research Quarterly*, 22(3), 331-346.
- Carrell, P.L. (1984). The effects of rhetorical organization on ESL readers. *TESOL Quarterly*, 18 (3): 441-69.
- Carrell, P.L. (1985). Facilitating ESL reading by teaching text structure. *TESOL Quarterly*, 19, 727-752.
- Carrell, P.L., (1992). Awareness of text structure: effects on recall. *Language Learning*, 42(1), 1-20.
- Dole, J.A., Duffy, G.G., Roehler, L.R., & Pearson, P.D. (1991). Moving from the old to the new: Research on reading comprehension instruction. *Review of Educational Research*, 61(2), 239-264.
- Dymock. (2005). Teaching expository text structure awareness. *Teaching tips: the reading teacher*, 59(2), 177-182.
- Fisher, D., & Frey, N. (2012, November). Close Reading In Elementary Schools. *The Reading Teacher*, 66(3), 179-188. Fletcher, 2006;
- Grabe, W. (2009). *Reading in a second language moving from theory to practice*. Cambridge University Press.
- Grabe, W. (2002). Dilemmas for the development of second language reading activity. In J.C. Richards, W.A. Renandya (Eds.): *Methodology in language teaching an anthology of current practice* (pp. 276-286). Cambridge University Press, 276-286.
- Grabe, W. (1991). Current developments in second language reading research. *TESOL Quarterly*, 25(3), 375 - 406. doi:10.2307/3586977
- Grabe, W. (2004). Research on teaching reading. *Annual Review of Applied Linguistics*, 24, 44-69. doi:10.1017/S0267190504000030
- Grabe, W. (2008, May, 29-31). Using graphic organizers to help develop reading and writing skills. Paper presented at the TESOL conference, Toronto, Ontario, Canada.
- Hall, K.M., Sabey, B.L., & McClellan, M. (2005). Expository text comprehension: Helping primary-grade teachers use expository texts to full advantage. *Reading Psychology*, 26(3), 211- 234. doi:10.1080/02702710590962550
- Horiba, Y. (2000). Reader control in reading: Effects of language competence, text type and task. *Discourse Processes*, 29(3), 223-267. doi:10.1207/S15326950dp2903_3
- Kamil, M.L., Borman, G.D., Dole, J., Kral, C.C., Salinger, T., & Torgesen, J. (2008). *Improving adolescent literacy: Effective classroom and intervention practices: A practice guide (NCEE#2008-4027)*. Washington, DC: U.S. Department of Education, Institute of Education Sciences, National Center for Education Evaluation and Regional Assistance. Kendeou & van den Broek, 2007;

She/he should introduce and work on a single text structure in each lesson. For example in Unit one, the focus was on the parts of the text: the introduction, the body and the conclusion. In Unit Two, the focus is on unity and coherence. Do not combine them. A teacher should work on one text structure for three or four sessions, then proceed to the next one. Moreover, she/he should try to highlight and emphasize the signal words and phrases in each text and elaborate on a series of signal words for each text structure. She/he tells students that authors of informational texts use specific signal words and phrases for each rhetorical structure.

On the other hand, working with graphic organizers is the next step after teaching signal words and phrases. For the first few sessions of working with graphic organizers, a teacher should prepare for her/his students a completed graphic organizer before they start working on the text. This will help them create a better image of the hierarchy of ideas and their interrelationships discussed in the passage. Graphic organizers help students to list major ideas under the main idea of the text and put the supporting details under the related major idea. Having a graphic representation of the text's ideas helps readers comprehend and retain the content. At this stage, the students would be able to work on a blank graphic organizer independently, elicit the ideas from the text, and demonstrate the hierarchy of the ideas in a graphic organizer. These activities may vary from partially blank graphic organizers to totally blank schematic representations. Variables like the text length and text difficulty will determine how much of the text may appear in this schematic diagram.

In conclusion language teachers especially reading teachers are encouraged to incorporate instruction of a wide array of strategies in their reading classes. The strategy instruction should not be as a separate teaching session but it should call students' attention when the time is ripe in all pre, during, and post reading activities. Introducing and instructing specific strategies do not suffice; strategies should be introduced, modelled, and practiced continuously until it finally leads to independent use of strategies by students.

After students acquire a full knowledge and make deep analysis of text structure, their comprehension of the text is enhanced. To check this progress, students are asked to complete Practice Test One. In this part they make use of what they have learned and apply to comprehend a new text. First, they answer literal, inferential and critical questions on the text. These questions improve students literal comprehension level, higher order reading comprehension level, and beyond the literal level., according to CERD (2017). This requires comprehension processes of interpretive/inferential and evaluative / critical reading. Next, they answer questions on the structure of the text. Finally, they are asked to fill in a graphic organizer with ideas from the text using phrases. Other exercises include word definition and correcting false statements (Check Figure 6).

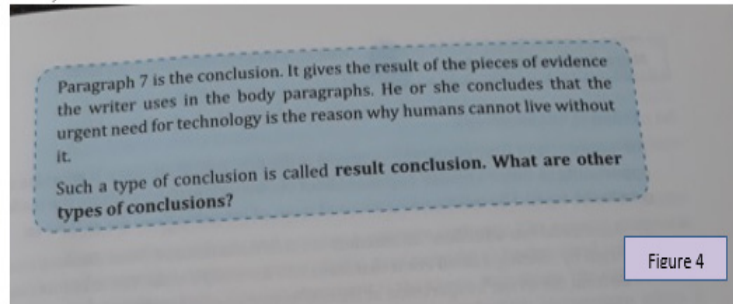


This Textbook corresponds with the recommendations of the reading comprehension part in the Lebanese official English exam and helps measure students' abilities to closely read, think about what they have read, and fully understand literary and informational passages independently and proficiently. It helps these students succeed in the official exam in English language by improving their reading comprehension skill through the strategy of close reading to identify and analyze text structures in order to help students comprehend and retain information longer.

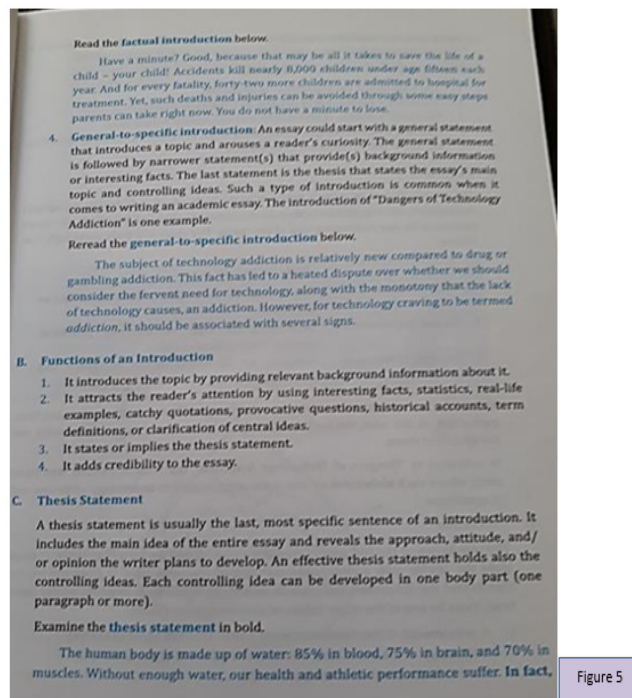
The remaining units of this textbook tackle other types of organization questions and reinforce the strategies to answer reading comprehension questions on the ideas of the text. In each unit, close reading strategy is applied to allow the students to look at the different text elements and text structures for two purposes: first, to correctly identify the purpose for reading, what the meaning is, and what the main idea could be; second, build knowledge, gain insights, explore possibilities and broaden their perspective. Consequently, while the students are advancing in using this textbook, they should gain deeper understandings of what they read each time.

As a recommendation for teachers of English as a first foreign language, the first and most important thing for a teacher is to be well informed about different text structures for expository texts, the signal words and phrases for each text structure, and the appropriate graphic organizer specific to each text structure. Before a teacher prepares any instructional plan to start training students and embark on reading activities, she/he must model all the procedures. Meanwhile, the students watch their teacher focusing on the steps mentioned to introduce the text structures in order.

Closing with the last blue box, we notice a commentary note on the conclusion, its type and functions. Then the author ends with a question to students about other types of the conclusion (Check figure 4 below).



After students explore the text taking into consideration the highlights in the blue boxes, they read and reflect on the explanatory notes that follow which include more information and details about the text features discussed in the reading text. The purpose of this part is to extend students' knowledge about text structure and improve reading comprehension. It includes details about the types and function of introduction, supported with examples for more illustration. In addition, there is explanatory note about the thesis statement and its function with examples also. Next are details about the body parts with a graphic organizer to highlight the parts and functions of each body paragraph. Finally, a note is given about the conclusion in relation to its functions and types and again supported with examples (Check Figure 5).



text structure analysis. For this purpose, one unit of the textbook is chosen for analysis and description to highlight the method used to improve student's reading comprehension. Unit one is chosen for analysis. Its main theme is technology. It includes two parts. The first part is a sample essay under the microscope which is dissected to provide the students with explanatory notes on how an essay is developed. Then it is followed by additional notes including more information on types of comprehension questions and text structure. The second part is a practice test which includes different types of questions that the students have to answer based on knowledge gained from part one.

Beginning with the first part, students can notice that the text is dissected. Each paragraph is followed by a blue box introducing one feature of the text, specifically related to the part dissected. In this text, the first dissected part is the introduction and the box introduces the functions of the three main statements in the introduction: the general statement, the narrower statement and the thesis statement. Then, the type of the introduction is identified and justified (Check figure 1 below).

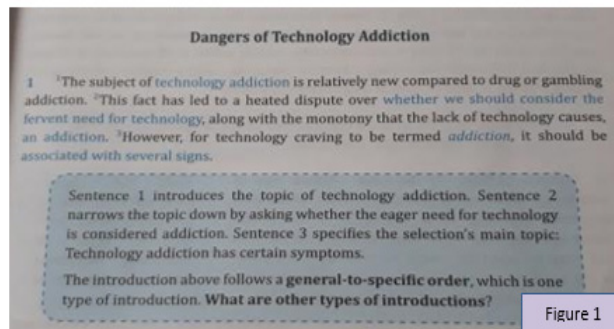


Figure 1

Then boxes two, three, four, and five respectively related to the five body paragraphs [2, 3, 4, 5, 6] answer a question on the body of the reading text. The authors explain into how many parts is the body divided and introduce the main idea of each part. The authors show that the body is divided into three parts each of which includes a number of paragraphs that support and develop one idea of the general topic of the text. This is another strategy to comprehend a text (Check figures 2, and 3 below).

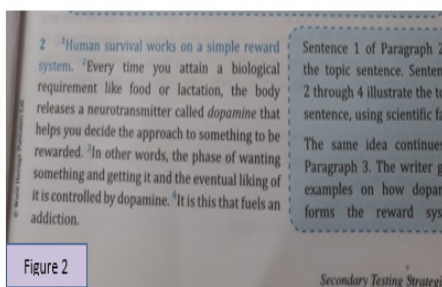


Figure 2

Secondary Testing Strategy

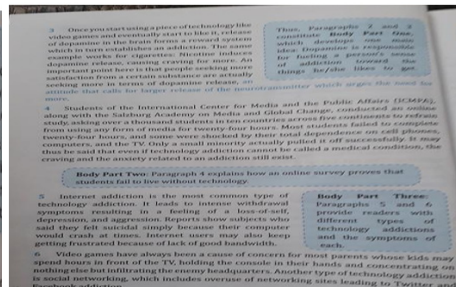


Figure 3

teacher hands out a new textbook, he or she takes students on a "virtual tour" to show them different elements of the text, and explain how the text is organized. Once students learn how to recognize these elements, they will be able to preview the text independently. Teachers should remember that students need to know how to use a tool in order for it to be helpful.

This textbook helps student move beyond words and sentences to discourse and be equipped with knowledge of certain textual characteristics and strategies that guide their reading. Generally, texts have two kinds of information: content information (content schemata) and structural information (formal schemata) (Carrell, 1987). During reading, students use content information to construct a meaningful mental representation of a text; and they use structural information to help them organize the content and thus facilitates the process of making meaning of a text. Lack of sensitivity to structural information of texts is stated as one of the factors that leads to comprehension difficulties (Williams, 2007). Text structure awareness which according to Grabe (2009) includes recognizing, and attending to, a number of discourse-signaling systems, has been shown to be an effective reading strategy for improving reading comprehension and recall of information (Carrell, 1984, 1985, 1992; Meyer & Poon, 2001; Koda, 2005; Laureate Martinez, 2008). Making students aware of the rhetorical organization of texts also contributes to reading fluency and efficiency (Villanueva de Debat, 2012). Similar terms such as discourse structure, discourse pattern, text type, rhetorical organization, and top-level structure are used interchangeably with text structure and refer to the way information is organized in a text. According to Grabe (2002: 10) "Discourse, or text, structures can be understood as knowledge structures or basic rhetorical patterns in texts."

Many students are unaware of the structural organization of texts, especially expository text and face many problems while reading such texts. Considering the fact that most academic texts are expository in nature, making students aware of expository text structure seems to be a necessity (Nambiar 2005). They should be taught to recognize and use structural organization of text to improve comprehension and recall. As a reading comprehension strategy, expository text structure awareness should be explicitly taught (Dymock, 2005). Grabe (2009) states that students need to know that texts are not the collection of words or sentences but they have rhetorical structures that organize information in a way that serve writers' purposes and when instructing text organizing features, students should be made aware that it is writers' goals and expectations that determine basic discourse organization.

In an English as a Foreign Language (EFL) setting like Lebanon where English has very little or no use in the everyday lives of EFL learners, English texts are the main source of language input. Thus, reading comprehension is the most important skill which is believed to have a central role in learning new information and in students' academic success. For this reason great emphasis is given to enhance learners' reading abilities. What learners can get help from is employing some more effective reading strategies which enable them to have a global look at a text and use some textual features of texts to help them in comprehending a text. However, they have not acquired this ability in school and most of them face reading comprehension difficulties when they enter university.

The following part describes how the textbook "Secondary Testing Strategies 2" (Koujan & Bazzi, 2013) model strategy teaching to improve reading comprehension through close reading and

Cause/effect-The author delineates one or more causes and then describes the ensuing effects.

Problem/solution-The author poses a problem or question and then gives the answer.

The ability to identify and analyze these text structures in expository texts helps readers to comprehend the text more easily and retain it longer (Meyer, 1985).

How to teach expository text structure? Tompkins (1998) suggested the following three steps to teach expository text structures:

- Introduce an organizational pattern-The teacher introduces the signal words and phrases that identify each text structure and gives students a graphic organizer for each pattern.
- Give students opportunities to work on the text-The teacher provides the students with chances to analyze the text structures in informational books, not stories. At this stage, students learn the signal words and phrases in the text that identify each text pattern. They also may use graphic organizers to illustrate these patterns.
- Invite students to write paragraphs using each text structure pattern-The students' first writing activity should be a whole-class activity, followed by small-group, partner, and independent writing activities. This involves selecting a topic and using a graphic organizer to plan the paragraphs.
- Finally, the students write a rough draft using signal words and phrases for the text structure, revise, and edit the paragraph to produce the final product. The teacher can then repeat these steps for each of the five text structures to ensure a comprehensive text structure coverage.

Having reviewed literature on researches which consider comprehension and text structure as key areas for intervention and content reading instruction, the researcher would like to share her own experience in teaching expository text structure and shed more light on the practical aspects of teaching text structure in reading classes. The Textbook entitled "Secondary Testing Strategies 2" (Koujan & Bazzi, 2013) is a full-year intervention developed to teach text structure to secondary students to help them improve reading comprehension and succeed in the official exams. Specifically, students are introduced to content in small increments, moving from the simple to the complex. Teachers provide modeling, including opportunity for guided and independent practice and ongoing feedback. Students are exposed to either a passage using more than one storyline (flashbacks, multiple characters or scenes) and using organization and connections between ideas that are implicit or a passage using one plot explicitly or chronologically organized and using connections between ideas that are explicit.

Through practice, students can more quickly develop a specific mental representation for each individual structure of the text. This mental representation serves as a template that they then can bring to bear (as prior knowledge) on the longer and less-well-structured texts that they encounter in their regular reading. Students do close reading and analysis of these texts taking into consideration the types and function of the introduction, the Organizational methods and patterns of the body paragraphs, the types and functions of the conclusion, the thematic relations among paragraphs, coherence, unity, type of text, the writer's purpose and tone, figures of speech, text's mood, types of audience, credibility, cohesive link, and graphic organizers.

Using this textbook, the teacher acts as if taking the students on a tour of the text. Each time a

tant information in a text and are aware of how other textual information relates to the important propositions.” They can do this even when, as often happens, the text is not well organized. These readers are applying cognitive patterns-rhetorical structures-that they have already acquired, first via their oral language experience and later via their reading (Williams, 2017). These patterns guide them to the recognition that a given text compares two entities, or that it presents a problem and a solution to that problem. Readers who can identify the structure of a text are better able to locate the information they need for successful comprehension (Williams, 2017).

Expository text is challenging for many students as it often deals with complex and unfamiliar content and is structured in a variety of ways. Although recently there has been a press toward providing all students with more exposure to expository text, many students are still often finding expository text hard to understand. One problem is that the instruction in many classrooms is discussion-based, with little or no explicit instruction (Williams, 2017). In addition, because content-area textbooks may be too difficult for students to read easily, teachers often read them aloud in class and rely on this approach in conjunction with class discussion to impart information. This has the adverse and unintended consequence of further reducing opportunities for students to develop their ability to read expository text on their own (Williams, 2017).

Most expository texts are structured to facilitate the study process for prospective readers. These texts contain structural elements that help guide students through their reading. Authors of expository texts use these structures to arrange and connect ideas. Students who understand the idea of text structure and how to analyze it are likely to learn more than students who lack this understanding (RAND Reading Study Group, 2002). The research literature in this field reveals that students’ reading comprehension skills improve when they acquire knowledge of texts’ structural development and use them properly.

Carrell (1985) argued that instruction on text structure indeed has a positive effect on the students’ recall protocols. Meyer (1985) stated that knowledge of the rhetorical relationship of the ideas-main idea, major ideas, and supporting details-helps readers with their comprehension of the expository texts. Reading researchers have argued that knowledge of text organization or structure is an important factor for text comprehension (see Aebersold & Field, 1997; Fletcher, 2006; Grabe, 1991, 2004, 2008; Hall, Sabey, & McClellan, 2005; Horiba, 2000; Kendeou & van den Broek, 2007; Meyer, 2003; Meyer & Poon, 2001; Snyder, 2010).

Structural elements in expository texts vary; therefore, it is important to introduce students to the components of various texts throughout the school year. It is also important to teach and model the use of these components properly at the beginning of the school year. The recognition and use of text organization are essential processes underlying comprehension. As early as the third grade, students are expected to recognize expository text structures. Meyer (1985) classified these text structures as follows:

Description-The author describes a topic.

Sequence-The author uses numerical or chronological order to list items or events.

Compare/contrast-The author compares and contrasts two or more similar events, topics, or objects.

with opportunities to gain a deeper understanding; however, it has been concluded that many students do not know how to analyze and evaluate an informational complex text (Fisher & Frey, 2012). Maples (2013) agrees that the close reading strategy allows the students to look at the different text elements and text structures to correctly identify the purpose for reading, what the meaning is, and what the main idea could be. Furthermore, the strategy provides students a close reading that helps students build knowledge, gain insights, explore possibilities and broaden their perspectives (Maples, 2013). Consequently, while the students are advancing in grade level, they should gain deeper understandings of what they read each time.

Over the past 60 years, reading comprehension has changed its emphasis from the mastery of skills and subskills that are learned by rote and automatized to a focus on learning strategies, which are adaptable, flexible, and, most important, in the control of the reader (Dole, Duffy, Roehler, & Pearson, 1991). One of the most efficient strategies for which there is an influx of research and practice is training students on text structure knowledge to facilitate their comprehension of the expository texts.

Readers of all ages must be aware of text structures if they are to be most successful (Meyer, 2003). The structure or organization of the text is the arrangement of ideas and the relationships among the ideas (Armbruster, 2004). Readers who are unaware of the text structures are at a disadvantage because they do not approach reading with any type of reading plan (Meyer, Brandt, & Bluth, 1980). However, readers who are familiar with text structures expect the information to unfold in certain ways (RAND Reading Study Group, 2002).

Research considers comprehension and text structure as key areas for intervention and content reading instruction (Torgesen et al., 2007; Kamil et al., 2008). Torgesen and his colleagues make these specific recommendations:

□ Comprehension strategies-Educators can use multiple approaches to help struggling readers become more active and strategic readers. Strategy instruction should be explicit and include modeling, guided practice, feedback, and scaffolding. Student collaboration in comprehension strategies has also been shown to be helpful (Torgesen et al., 2007).

□ Text structure-Helping students organize the information through the use of graphic organizers and providing direct instruction on text structures and organizational patterns is helpful (Torgesen et al., 2007).

According to Logsdon (2013), reading comprehension requires that the students have adequate processing and working memory skills, which enable them to take in new information, identify and categorize it, merge it with previously learned information, and respond. Logsdon (2013) emphasizes that reading comprehension requires the students to acquire concrete skills including vocabulary, main idea, fact or opinion, sequencing, following directions and reading for details. Students who are able to comprehend what they are reading, verify that what they are reading makes sense and if not use strategies to comprehend the text when it stops making; whereas, students who are struggling to comprehend the same text need to be provided with strategies that work best for their learning style to help them gain the meaning (Logsdon, 2013).

Williams (2017) draws attention to the fact that text structure is one specific type of prior (or background) knowledge that skilled readers possess. He adds, "Good readers can identify impor-

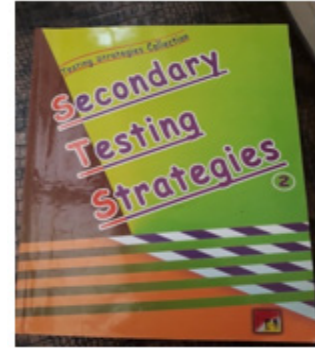
phora (pronoun/ adverb referent). They have to use contextual clues to infer the meaning of vocabulary words or technical terms and determine the subtle shades of meaning of words or phrases. Also, students may infer cause-effect relationships that are not directly stated, determine author's purpose, attitude or mood in a specific section of the passage or in the passage as a whole. Students need to analyze characters, draw conclusions based on explicit and implied information and understand comparisons, contrasts or analogous ideas (CERD, 2017).

□ Critical / evaluative reading (or reading beyond the lines) is examining passage content and structure, evaluating evidence and making judgments about characters, author or information. Students consider the passage critically by recognizing language used to present a viewpoint and by identifying facts and opinions. Students draw upon knowledge, ideas, or attitudes beyond the passage in order to relate the information provided in the passage to their own conceptual and experiential frames of reference (CERD, 2017).

□ Questions on the organization of the passage (*main idea with supporting details, thematic relationship, pattern of organization, paragraph headings, comparison vs contrast, flashback, problem and solution, conflict and resolution*) (CERD, 2017).

□ Types of testing items may include wh-questions, completing sentences, multiple choice, filling in the blanks, matching headings with paragraphs, completing a graphic organizer, identifying true and false statements, paraphrasing, expanding a passage, rewriting an improved version of a poorly written sentence or summary, correcting misinterpreted statements, interpreting informational graphics (CERD, 2017).

The purpose of this research paper is to investigate how analyzing text structure helps students improve their reading comprehension skill and succeed in the English official exam. For this goal, the researcher takes into consideration an English language practice textbook composed by the researcher herself with coauthor, Fatima Bazzi, entitled "Secondary Testing Strategies 2" published by World Heritage Publishers Ltd in 2013. The reason for choosing this textbook is that it implements the method of analyzing text structure to enhance reading comprehension. This textbook is designed to supply secondary class students with reading passages of appropriate complexity level for assessing comprehension skills. These passages are neither too basic or too simple for the grade level nor too complex for the grade level. The passages include the necessary structures, vocabulary, syntax and content development needed for assessing grade-level skills.



Being able to comprehend what is being read is an essential skill that many students are struggling with according to Ness (2011). Fisher and Frey (2012) recommended one strategy known as "close reading" to be a part of the schools' curriculum in all subject areas. The researchers explain that in school's curriculum, reading instruction is laid out like a "staircase" and as students go through each grade level, the texts become more rigorous and increases in complexity for them to be ready for the demands of their college and career. The rigorous reading has presented students

Essay under the Microscope: Essay Dissection to Improve Reading Comprehension

Laila Koujan

Reading comprehension is one of the most valuable skills a student can learn. However, students must actively work at improving their reading skills, a task that can be difficult in a world that offers so many distractions. Comprehension is the goal of reading, but it can be the most difficult skill to master, especially for learners of English as a first foreign language (EFL). Students in Lebanese Secondary public schools are required to apply for the Lebanese official exam in English as a first foreign language administered at the conclusion of the Third Secondary. The examination is designed to assess students' achievement of the language skills by the end of the secondary grades. One of these skills is reading comprehension which is very crucial that each student learns how to read and derive meaning from a text. Students need the reading comprehension skill for success in the official exams. However, many adolescent students in Lebanese public schools are becoming more and more behind grade level in their reading level. Moreover, reading comprehension involves many processes happening in one's brain at once, and thus it can be easy for some aspects of a text to get lost in the muddle. However, reading comprehension is a skill just like any other. It must be learned through practice, focus, and diligence, but it absolutely can be learned.

The reading comprehension part in the Lebanese official English exam measures students' abilities to closely read, think about what they have read, and fully understand literary and informational passages independently and proficiently. To help these students succeed in the official exam in English language, they need to improve their reading comprehension skill which can be done through different reading strategies. One strategy is to close reading to identify and analyze text structures in order to help students comprehend and retain information longer.

The Center for Educational Research and Development (CERD) in Lebanon demanded in its Secondary Education Certificate Specifications for English Language Exam (2017) that students should be assessed on different levels of reading comprehension: Literal comprehension level, higher order reading comprehension level, and beyond the literal level. According to CERD (2017), higher order level requires comprehension processes of interpretive/inferential and evaluative / critical reading. The following is a description of these types of reading comprehension.

□ Literal comprehension (or reading the lines) is understanding and locating basic information explicitly stated in the passage. Students go through the passage and retrieve one or more distinct pieces of information. They may identify sequences, stated causes and effects, clearly stated main ideas, supporting details or elements of a story (CERD, 2017).

□ Interpretive / inferential comprehension (or reading between the lines) is constructing meaning and making inferences from one or more parts of the passage or deriving implied meaning or idea. Students need to interpret figurative language or symbols used by the author or interpret ana-

Sochen, June. Enduring Values: Women in Popular Culture. New York: Praeger, 1987.

Sullivan, Ellie Ragland. "Jacques Lacan: Feminism and the Problem of Gender Identity". Substance 11:3 (1982): 6-20.

Weinstock, Jeffery Andrew. "In Possession of the Letter: Kate Chopin's 'Her Letters'". Studies in American Fiction 30:1 (Spring 2002): 45-62.

Wolff, Cynthia Griffin. "Kate Chopin and the Fiction of Limits: 'Desiree's Baby'". The Southern Literary Journal 10:2 (spring 1978): 123-133.

Wright, Elisabeth. Psychoanalytic Criticism: Theory in Practice. London: Methuen, 1984.

Vine, Steve. Literature in Psychoanalysis. New York: Polgrave Macmillan, 2005.

Bibliography:

Primary sources

Chopin, Kate. "Her Letters". September 23, 2013. <http://classiclit.about.com/library/bl-etexts/kchopin/bl-kchop-herletters.htm>

---. "Desiree's Baby". October 20, 2012. <http://www.pbs.org/katechopin/library/desireesbaby.html>

---. "A Point at Issue". December 10, 2013. <http://www.Katechopin.org/a-point-at-issue.shtml>

Secondary Sources

Cutter, Martha J. "Losing the Battle But Winning the War: Resistance to Patriarchal Discourse in Kate Chopin's Short Fiction". Legacy 11:1 University of Nebraska Press (1994): 17-36. www.jstor.org/stable/25679112

Farca, Paul Anca. "Foucault Informs Kate Chopin's Short Fiction". Academic Exchange Quarterly 11.1 (Spring 2007). 14 October, 2013. www.questia.com/libaray/journal/

Gallop, Jane. "Reading the Mother Tongue: Psychoanalytic Feminist Criticism". Critical Inquiry 13-7 (winter 1987): 314-329. www.jstor.org/action/showshelf

Gasperoni, John. "The Unconscious is Structured Like A Language". Qui Parle 9:2 (spring/summer 1996):77-104.

Green, Suzanne Disheroon, and David J. Caudle. Kate Chopin: An Annotated Bibliography of Critical Works. Westport, CT: Greenwood Press, 1999.

Guerin, Wilfred L, et. al. A Handbook of Critical Approaches to Literature. New York: Oxford University Press, 2005.

Jackson, Stevi. "The Desire for Freud:"Psychoanalysis and Feminism". Ed. Deborah Cameron and Joan Scanlon. 1983. 23 January, 2014. www.bloomsburyacademic.com

Koloski, Bernard. Kate Chopin: A Study of the Short Fiction. New York: Twayne Publishers, 1996.

Macdonald, Erin E. "Necessarily Vague: Kate Chopin's Gender Awakening". January 17, 2011. < <http://www.Womenwriters.net/domesticgoddess/macdonald.html> > .

Merle, Rubin. "Revisiting Kate Chopin's Questions". The Washington Times (Washington, D.C.) October 13, 2002. July 14, 2014. www.questia.com

Rabate, Jean- Michel. Jacques Lacan: Psychoanalysis and the Subject of Literature. N.p.: Palgrave, 2001.

Rivkin, Julie, and Michael Ryan, eds. Literary Theory: An Anthology. Oxford U.K.: Blackwell, 1999.

Ryan, Michael. Literary Theory: A Practical Introduction. Malden: Blackwell Publishing Ltd, 2007.

Selden, Roman, Peter Widdowson, and Peter Brooker. A Reader's Guide to Contemporary Literary Theory. London: Prentice Hall, 1997.

language can reflect people's emotions, reactions and feelings. The silence of not writing is very significant. In this case, it reflects a parallel conflict between the reason and heart of the male character, so it is not only women who can be driven by their emotions. All humans are emotional at certain instances; even further repressed thoughts and desires orient people's behavior at most times.

The unsettled clash within the two main characters is not settled until the "talking cure" comes forward. Faraday, imprisoned by his "ugly thoughts", sees his wife laughing cheerfully with a young man. He is enraged and his blood flushes into "his veins like fire"; he feels ready to "tear the scoundrel from his seat and paint the boulevard red with his villainous blood". This wild behavior challenges his reason and self-control; it renders him human capable of loving and falling under the control of the unconscious with all what it bottles up. However, this possibly destructive passion for his wife and anger after suspecting that she might have an affair is busted. He goes back to the pension because he sees Eleanor impatiently waiting for him to show him his portrait in a magnificent piece of art; thus, he discovers that the man she was with was only the artist helping her with the painting. Only after the married couple undergoes the same experience of suspicion that they relinquish to direct speech in the story, and talk about Eleanor's sudden change which she bravely and frankly announces. She acknowledges her jealousy of Kitty Beaton after his letter. Despite Eleanor's courageous statements Charles Faraday fails to open up to and acknowledge his own feelings of jealousy. On the contrary, he exclaims, "But Eleanor! In the name of reason! It isn't possible!" The three Exclamations do nothing but accuse the wife of superficiality and illogicality and emphasize the superiority of the Law of the Father when he himself had been through more severe and destructive anger only due to suspicion. Eleanor undergoes a certain conflict which was based on reality, written evidence (his letter), while his conflict was due to imaginary thoughts. What makes things worse is that the educated, intellectual Eleanor surrenders to the claimed fact that all women are emotional and instinctual. She also expresses it through spoken language saying that she has "found out that there are certain things a woman can't philosophize about", and Charles Faraday pities his wife in his mind and says, "My Nellie is only a woman".

Nevertheless, Chopin refuses to end the story at this level; she adds a critical line saying, "With man's usual inconsistency, he had quite forgotten the episode of the portrait". Hence, Chopin does justice to Eleanor specifically and to women generally. She emphasizes through language the fake image of women promoted by the patriarchal system. She highlights the contradictions and inconsistencies of the male power.

Concluding Perspectives

Chopin voices through her writing and the language she employs the situation of women at that era, and rarely a story ends with women being harmed except by the language of the patriarch. She reorients the function of language; language is always employed either by the female character or the writer to overthrow the dominance and superiority of men. Chopin strives in her fiction to expose the stereotyped image of women; however, she never fails to lift women's spirits by highlighting the inevitable human weaknesses of men. This article proves that psychoanalysis gives readers, who choose not to psychologically resist the written text, some power to rewrite it through analysis and scrutiny of language; nonetheless, such analysis does not slam the door in the face of other possible interpretations.

to present a fake image, thus allowing herself to survive in the harsh social system, yet without cancelling her real desires. Finally, and after running out of possible sources for answers, language does the husband injustice and does not provide him with any fitting answers. That is why he chooses to “join her and her secret” and throws himself into the dark river; thus surrendering to the power of language and giving ultimate power to the deceased wife who had lived all her life under his power.

C- “A Point at Issue”: the Language of Reason and Desire

Lacan emphasizes in his theory the effect of the eye (body language), and argues that the “eyes, as one of the modes of access for libido to explore the world, becomes the instrument of this drive. A drive is not just pleasure-seeking, but is caught up in the signifying-system, characterized by the subject’s first entry into that system” (Wright 117). In fact, “A point at Issue” introduces a story of a married couple who is caught in the eye effect at first and venture through the battle of language. Chopin illustrates that Charles Faraday, the husband and the Professor of Mathematics, is captured in the net of the eye; “he had found her [Eleanor] extremely good to look at, with her combination of graceful womanly charms, unmarred by self-conscious mannerisms---. Talking to her, he had caught a look from her eyes into his that he recognized at once a free masonry of intellect”. This male character is often taken by the eye effect at first when he encounters his wife and later when he falls under the effect of the “soft shining light of” his friend’s young daughter (Kitty) and he expresses his desire of having satisfaction “in a kiss” to his own wife who is supposed to be intellectual and not feel jealous at such openness and frankness. Charles is greatly guided by the eye effect; he believes and expresses what he sees. He was attracted to his wife physically at first; then, he is attracted to the young Kitty through the eye effect. He likes her youth and beauty.

Charles and Eleanor are described to be at the onset of the story as an untraditional couple since the wife is equally logical and smart. In traditional terms, such a marriage can be threatening or ahead of its time for marriage was often considered “the closing period of a woman’s intellectual existence” as Chopin states in the story. What is more, Faraday approves of Eleanor’s stay in Paris for as long as she requires so that she would learn French. So far, such a marriage seems to be untraditional in the nineteenth century since it defies the status quo. Additionally, Faraday zooms out of the Law of the Father, and shows firm belief in the mother tongue. However, this bliss -if we were to use the psychoanalyst feminists’ aspirations- does not last too long for the couple’s relationship falls into torpidity after Faraday sends his wife a letter expressing “the interesting emotions which Miss Kitty’s pretty femininity aroused in him”.

The sent letter gives rise to a severe conflict between Eleanor’s reason and heart. It is true that she was a woman of intellect, logic and reason, but she is also a human with a “woman’s heart, backed by the soft prejudices of a far-reaching heredity”. This claim of women being biologically more sensitive and emotional hints at a fact that was argued later on by many feminists who acknowledged the biological differences between men and women but refused the dominance of one over the other. Despite her injured ego, Eleanor succeeds to keep her self-composure, and welcomes her husband in Paris warmly; however, it is the husband who senses “that Eleanor was losing something of her frankness”. Being disturbed by Eleanor’s elusive behavior, he fails to write the letters he wished to write; he only writes “a few urgent” ones. Such behavior hints to the readers how

Therefore, words or absence of words are employed by the wife to devalue the social dominance and power given to men. What is weird about the story is that it has no dialogues or direct spoken language. Characters are not only nameless but also silent, and all the conflicts that the characters undergo are stated by the narrator. Truth was silenced in the couple's real relationship as husband/wife. The wife had lived a life far from being honest in the social and marital sense. Therefore, all the language that she used to communicate with her husband becomes dishonest as the reader understands that she had been cheating on her husband for years. Therefore, any form of communication is greatly questioned by both the husband and the reader. The wife had successfully given her husband and the immediate community in which she lived the impression of being respectful, "cold and passionless" while- in reality- she was enjoying a fiery passionate extramarital affair. Hence, she played the role of an ideal wife excellently through masking her real personality and choosing the appropriate language that help stabilize the demanded social image.

The text presents a clear description of the double life the wife had lived; "she had never seemed in her lifetime to have had a secret from him". Even when the husband discovers the other image of his wife, he still depends on her skill with language to explain to him when they meet in afterlife. He thinks to himself that "[i]n that blessed meeting-time, soul to soul, she will tell me all; till then I can wait and trust". What gave him such trust is the language she had used to write her final note to him. He declares that she uttered her note "with all confidence in its power and potency. He was moved by the splendid daring, the magnificence of the act"; thus, this proves how the wife masters the word game. She leaves a note saying: "I leave this package to the care of my husband. With perfect faith in his loyalty and his love, I ask him to destroy it unopened"; this shows her ability to manipulate language and make it serve her needs. In doing so, she subverts the game of power from the male to the female.

This written piece of language entraps the husband and confuses him; he exerts a huge effort to master the gam as his wife. He becomes obsessed with inferring answers through employing the same weapon of language. He sits "before her writing desk" and scrutinizes all the letters she had written before; "He did not leave a scrap of anything unread". The puzzled husband keeps on hunting for answers in "sentimental passages in books of verse or prose... turning, page by page, the volumes that crowded her room-books of fiction, poetry, philosophy. She had read them all; but nowhere, by the shadow of a sign, could he find that the author had echoed the secret of her existence". By not leaving any clue behind, she again language move her into a position of power and dominance. She is in charge of the situation and possesses authority after her death through the presence/ absence of language.

Helplessly and after failing to receive a satisfactory answer from written texts, the husband resorts to spoken language, and shows no trust in getting the wanted answer from men; therefore, he investigates women speakers. He believes that only women "would talk of what they knew. ---. They did talk, unreservedly. Most of them had loved her; those who had not had held in respect and esteem". Freud's "talking cure" only adds pain to the husband and does not grant him the cure he desires. This again proves how skillfully the wife overturns the socially-structured image of women as passive and submissive and reclaims the power. She subverts and undermines the status quo at that time and the promoted concept that women "would talk of what they knew". She resists language and changes its function. Instead of revealing her real status, she employs language

is not white; it means that you are not white". This verdict is presented as a fact for he uses the present simple and verb to "be" only to confirm his judgment. His language bears no other possibilities; he does not use modals like "may" or "could". This confirmation is countered by another linguistic confirmation on the side of Desiree' who defies him, "Look at my hand; whiter than yours, Armand", but he only mocks her, "As white as La Blanche's".

This cruel dialogic confrontation changes form from verbal to written. Desiree' "when she could hold a pen in her hand, she sent a despairing letter to Madame Valmonde"; the reply comes "My own Desiree': Come home to Valmonde; back to your mother who loves you. Come with your child". In fact, it can be argued here that Valmonde represents the anti-patriarchal system. Desiree' is sentenced based on the laws of the Father. What is socially true or false is set by males; thus, only a female's world can bring justice to woman. Madame Valmonde embodies the voice of psychoanalytic feminism which focuses on "the pre-oedipal because the mother is a woman and she is suppressed in Oedipally organized narrative." Hence, like Valmonde, feminists, try to teach readers "not how to speak the mother tongue, not only how to see the mother as other and not mirror, but how to read the other within the mother tongue" (Gallop 320-329). It is the world of the mother, the pre-oedipal phase, which gives a sense of security and keeps humans' identity genuine and not reshaped by social norms and rules.

Despite the direct and essential call of Madame Valmonde, Desiree' is deeply rooted in her socially constructed identity. She tries her last shot with Armand and asks him if she should leave; again and verbally he sends her to her destiny; "Yes, I want you to go." Despite all the patriarchal authority given to Arman, language is more powerful. Chopin skillfully employs language to turn the story upside down. Armand, accidentally, comes across a letter written by his mother to his father saying "I thank the good God for having so arranged our lives that our dear Armand will never know that his mother, who adores him, belongs to the race that is cursed with the brand of slavery". Consequently, Chopin deflates the mighty patriarchal language that destroys Desiree' and eventually proves it wrong. It is through the written text, Armand's mother's letter, that this power is upended to give some justice to the oppressed woman.

B - "Her Letters": When Language Resists

Repetition is a key concept in psychoanalysis; Lacan asserts that repetition "is identity, and it projects the truths of an unconscious text onto the screen of the other [---]. Repetition gives the divided human subject a sense of unity and constancy" (Sullivan 18). Even Freud suggests that "play and repetition are means of dealing with trauma by controlling it" (Ryan 104). These psychological facts can be greatly applied to the husband's character in "Her Letters" who suffers from a traumatic experience due to his wife's death and his suspicion of her extra-marital affair. In the apprehensive world of silence that dominates "Her Letters", the husband is helplessly under the control of language. The repetition of one thought namely, "there is but one secret which a woman would choose to have die with her" recurs all through the text to summarize the futile attempts that might help the husband understand the wife's ironic request to destroy her letters unopened after her death. The deceived husband, caught in the web language, is transformed from a dominating male image to a fragile and insecure individual.

Chopin empowers her female character by providing her with the strongest weapon, language.

tion at work” (126). This is very dominant in Chopin’s short fiction since when the characters speak, they reveal a huge realm that had been hidden and repressed and when they remain silent reveal much more, too. Surely, their prominent speech is no ordinary one. It is important because it is uttered after certain events that they go through and after reflection and introspection. Therefore, bringing previously repressed desires into life again happens in a way or another, and this is the case in Kate Chopin’s short fiction. This is exactly what happens with the female characters in the short stories. Some of them reveal their desires in their language: lapses, elisions, jokes, slips of tongues, defenses... and they do fall under its control in some circumstances. These facts closely link psychoanalysis to literary criticism as it is well-known that literature speaks through language to imply any message be it social, political, psychological, or spiritual.

A- “Desiree’s Baby” Inverted Harm

Desiree, a woman who desires a socially acceptable and happy marriage, chooses death after her husband, Armand, linguistically sentences her to be colored and therefore unfit to be a white man’s wife. Desiree’ seems to be caught in the net of language from the very beginning of the story. It is language that labels her at the onset of the story to be of an “obscure origin” and “nameless”. Being of an unknown origin and having no name can be considered as a scar upon her life since social standards demand people’s need be part of families and carry the legitimate name of the Father. However, since love is sometimes blind, Armand does not mind this fact about his wife’s unknown background and chooses to marry her. Nonetheless, this marriage faces a critical condition after the birth of their son. The new-born seems to be colored, but the parents fail to notice or turn a blind eye to that fact at first. It is Madame Valmonde, Desiree’s foster mother, who utters the first words of surprise. She exclaims, “This is not the baby!” the “not” shows how unacceptable the baby is; however, Desiree’ chooses to slip the literal meaning of Valmonde’s words and overlooks the real signified of Valmonde’s discourse. She, in contrast, takes it as a word of astonishment at the baby’s fast growth. She even tries to reverse the real meaning of Valmonde’s exclamation by describing the baby as “the little cochon de lait!” the word “lait” is nothing but affirmation of the desired child’s color and a rejection to Madam Valmond’s suggestion.

The story continues to present more interesting issues of the patriarchal system and the man/woman dichotomy. When Desiree’ affirms that her husband is extremely happy to have a baby, she assures that this fact is “chiefly because it is a boy”. This throws a bright light on the way society sets gender differences and preferences at the very beginning of life. Definitely, this fact proves Lacan’s and the feminists’ argument that “gender is socially constructed”. Furthermore, Chopin states some details of the couple’s relationship by asserting that Desiree “trembled” when Armand “frowned” and “asked no greater blessing of God” when “he smiled”. It is this dominance of males that keeps showing in fiction only to assert how society is male-biased and only to establish and further strengthen the “Law of the Father”.

On the other hand, the linguistic game that Desiree’ chooses to play for some time turns over to tell her more horrifying facts. She can see those facts only when Armand shows some change in the way he treats her. Only then she opens up to the reality of her son’s color, and decides to face Armand. She asks him angrily to explain the child’s color. She says, “Look at our child. What does it mean? Tell me”, and through direct language he announces his verdict, “It means... that the child

Martha J. Cutter also argues that even though “Chopin is concerned with women’s relationship to discourse throughout her career” one “can discern a linear movement from silence to voice. Rather, as her career progressed Chopin continued to test the ways women could- and could not- achieve articulation, finding eventually a ‘voice covert’ which (at its most effective) undermined the patriarchy from within its own paradigms” (18). To clarify Cutter’s argument, one might take Chopin’s “Her Letters” as a prototype. “Her Letters” is a story that emphasizes sexuality and emphasizes the importance of language. In it, “the word becomes wholly sensual, yet wholly disembodied. It is not her lover’s presence which the woman relishes, but the tokens of their mutual esteem, the words which made up their dialogic” (26).

According to Weinstock, this story “is a decidedly Lacanian text, one which demonstrates at every turn the manner in which the subject is subject to the signifier”. He adds that “the letters possess each-and deprive each of life-in turn. The ‘truth’ of each character, the wife and husband, is figured as that which comes from without.” He emphasizes that “women, like men, do indeed have sexual needs and desires, and that love, not social or financial status is the foundation for marriage” (1).

Regarding Desiree, the passive and silent woman, she still occupies the minds of several critics, and many are still unable to grasp the main issue that “Desiree’s Baby” sets out to accomplish. For instance, Cynthia Griffin Wolff admits that this story “remains an enigma. We still tend to admire it and to demonstrate our admiration by selecting it to appear in anthologies; yet the admiration is given somewhat grudgingly - perhaps because we cannot fully comprehend the story” (125). After analyzing the themes of the story, Wolff concludes that Desiree’ was blindly in love with Armand, and this blind love is too dangerous and turns out to be fatal. She argues that “to be open to love is to be vulnerable to invasions that can neither foresee nor fully protect ourselves against” (130). According to Wolff, “the vision in all of Chopin’s best fiction is consummately interior and it draws for strength upon her willingness to confront the bleak fact of life’s tenuous stabilities”(133).

All these critiques give a great value to Chopin’s short fiction yet none of them seems to benefit from the importance and function of language as a means of exposing repressed desires as Lacan and Psychoanalytic feminism argue. By analyzing the language of the unconscious, this article shall conclude that it is language, the written texts, that contribute to empowering women in an age of neglect and marginalization.

III- Twist of Language: “Desiree’s Baby”, “Her Letters” and “A Point at Issue”

This article shall interpret three of Chopin’s short stories as they express some of the deeply sexual desires sternly repressed in the world of unconsciousness. It is important to psychoanalysts when the characters speak out their passions, desires, needs and anxieties. Lacan says, “Psychoanalysis has only a single medium: the patient’s speech” (Vine 7); and Freud talks about the “talking effect” in addition to the psychoanalyst feminists who also believe that language is repressed desires and each signifier may lead to more than one signified. Rivkin and Ryan argue that “literature displaces unconscious desires, drives, and motives into imagery that might bear no resemblance to its origin but that nonetheless permits it to achieve release or expression”. They add that “fiction might even be said to demonstrate these very processes of representation-through- indirect-

II- Chopin's Long-lasting Impressions

“There are some people who leave impressions not so lasting as the imprint of an oar upon the water.” Kate Chopin

Since the publishing of Chopin's fiction, critics have inspected her works and written rich material about her character, literature and historical era. Several critics and writers value her daring literature. David J. Caudle, for instance, argues in his article “The Fall and Rise of Kate Chopin and Her Works” that “The critical community of the late twentieth century largely argues that Chopin's fiction was ahead of its time. A similar perception among Chopin's contemporaries, coupled with her frank portrayal of female sexuality, is often cited as an explanation for the disappearance of most of her work” (31). Caudle clearly shows Chopin's anticipation of women's aspired freedom after their chronic struggle with the social system. However, being one of the pioneers cost her precious price; some of her writings were banned and others even disappeared.

Another article titled “Necessarily Vague: Kate Chopin Gender Awakening”, argues that “as a moderate feminist, Chopin desires an androgyny that reflects her beliefs. Women should be allowed a career, a chance for self-expression, and more leeway in terms of what social behaviors are deemed appropriate for them” (MacDonald 8). Again, here is Chopin lifting the voice of the voiceless women who desired freedom, space to express their ideas truly and without being deemed inferior or irrational.

On the other hand, June Sochen argues that many women writers in the past centuries “had to sacrifice their particular visions to conform to cultural expectations about women”. She also adds that “atypical characters, immoral heroines, or defiant women were unwelcome in fiction; female readers boycotted daring authors. Thus [--] women creators of fiction were not expected to be artists, but rather popular merchants satisfying their growing readership” (9). Kate Chopin, nonetheless, could in no way conform to those expectations. She gave “oppressed female protagonists” way to “challenge patriarchal structures and position themselves outside the strict social and moral codes of the nineteenth century that Foucault alludes to in *The History of Sexuality*” (Farca). This made her a rebel, but she was no violent rebel. In fact, she presented her liberal views moderately without undermining the other, the man. On the contrary, in many of her short stories, the reader tends to sympathize with the husband or the male partner and is somehow appalled by women's lust. However, she seems to insist on giving women their way to experience with their lives as they wished. She only called for freedom and not for antireligious acts. She did not state what is right and what is wrong in her fiction. She simply stated human experiences and let the reader judge.

Another critic, Rubin Merle, comments and asks, “How much of the attention that she has received is owing to the innate aesthetic value of her work and how much to the way in which her themes and subject matter appeal to current and political tastes?” Merle does not overestimate the courage that Chopin possessed as a nineteenth-century writer. He says, “Chopin was no D.H. Lawrence or Henry Miller breaking new boundaries in erotic writing. But she did go over the line of what was considered acceptable for a respectable Southern lady author of her era” (1). Martha J. Cutter criticizes Chopin's earlier work for it “depicts both silent, passive women- women who seem incapable of expressing themselves or their desires- and women who overtly attempt to enunciate their desires and experiences only to have their voices labeled meaningless or ‘insane’” (17).

thoughts. This article investigates Chopin's success at subverting the status quo and reclaiming female power and domination through manipulating language. This article, hence, analyses three short stories: "Desiree's Baby", "Her Letters" and "A Point at Issue" in order to prove Chopin's ability to put language at the service of women.

I- Language of the Unconscious: A Weapon to Fight

According to the renowned psychoanalyst Jacques Lacan, the repressed desires never fade away and disappear. They are always present at least in the unconscious. This is what most feminists also believe; it is argued that "the new readings [of feminism], say that we are not born feminine or masculine, but are constructed as 'sexed objects' through our acquisition of language. Language structures both consciousness and unconsciousness. It is also at this moment of 'our entry' into language and culture... that 'desire' is constituted" (Jackson). In addition, Lacan emphasizes the fact that the world of language is always slippery and it is impossible to be able to get the pure signified as each signifier would lead to another new signifier. He believes that the ego is not stable. It is always fluctuating, varying and developing. To him the unconscious is structured like language for both are slippery. In language we have metonymy and metaphor. It is based on binary oppositions, and the unconscious is always there. The unconscious is the result of the repressed desires. He adds that literature is highly significant and poses many simple questions that seem naïve to some like why do we write? Why do we read? Why do we enjoy some texts and prefer them to others? To him "the repressed desire does not go away and remains in the unconscious, thus producing a radically split subject" (Selden 163).

Elisabeth Wright asserts that Lacan's Freudian revolution is the systematic claim that the unconscious is more than the source of primal instincts linked at random to ideas and images. Lacan rejects this randomness". She affirms that Lacan insists on the co-presence of conscious/unconscious, and that "the inner structure maps the outer conceptualizations. This mapping is above all governed by linguistic experience" (107). Lacan argues that identity is shaped "as a composite of images and effects-i.e., mental representations- taken in from the outside world from the start of life, which are developed in relation to the Desire for recognition and the later social requirements for submission to an arbitrary Law" (Rabate 7). This brings to light the matter of men/women, and how the image of women is mostly socially-structured. According to Lacan, it is the language, the "words" that have historically exposed "man as complete within himself, a tout, while woman has been depicted as pas toute" (Sullivan 15). This idea is of great importance when it comes to literature for it mirrors reality in many ways, and the way women presented in literature is no more than a replica of the women's socially-formed identity through language because women have to submit to the "Father's rules", repression becomes "the tax exacted by the use of language" for if language was not the reason "there is neither gender nor gender-oriented desire. Once inserted into language the subject becomes at once 'discordant' with it" (Wright 109-10). Thus, it can be deduced that women have been dominated by men through the power of language which gives the weapon to the social system to label men as superior and women as inferior. Conversely, Kate Chopin overturns this categorization and rips men off their powerful weapon -language. She employs language to serve women's right and authorize their voice in society.

A Journey from Voiceless to Voiced: Kate Chopin's Short Fiction Empowers Women through Language

Khoulood al- Dimashki

Phd- Candidate- LU Doctoral School- Faculty of Letters and Human Sciences

Abstract

The function of language has been highly acknowledged by major psychoanalysts for it “can be studied as a means of instantiating unconscious processes” (Ryan 101). Language can uncover the hidden feelings, emotions, impulses and desires of the unconscious world. Both Sigmund Freud and Jacques Lacan believe that the unconscious is structured like language; “like language its power often arises from the sense of openness and play of meaning. When we ‘read’ language, we may identify gaps in what is signified as evidence of the unconscious” (Guerin et al 229). What a character says or writes may suggest much more than the literal words since each signifier can lead to another signified, and the chain continues. Every sign of language is significant in psychoanalysis and as Freud puts it “the slips and errors of daily social discourse... succeed in giving expression to a discourse that comes from another place” (Gasperoni 79). Even though psychoanalysis does not present a “one-to-one link between conscious and unconscious ‘language’, a person’s unconscious experiences will later govern their use of language in an invisible intentionality” (Sullivan 17). Therefore, this great emphasis that is given to language allows researchers to trespass the limits of words and read between the lines to infer human realities that might be repressed. Kate Chopin proficiently employs language to present powerful texts that show how the game of words might enhance women’s status in society and help them regain power. She deflates men’s dominance by making them submissive to the power of language.

Introduction

To be a female writer in the nineteenth century is a huge challenge for women were not taken seriously as producers of thought. Their talent was deliberately overlooked. However, some of them, Kate Chopin among them, had strong faith in their potentials and possessed a great will to venture through the world of creativity and literature to recuperate their social status. Some female writers struggled to change the sole role given to women as mothers, child carriers and cooks. They were determined to show the world that women had much more to give. They aspired to launch their crippled personalities. They craved for freedom of thought and self-expression and bravely challenged the chains of submissiveness and inferiority to men.

The nineteenth century American female writer Kate Chopin played a significant role in modifying the image of women. She wanted her fiction to uproot the status quo and plant new perspectives and conceptions especially when it comes to the women’s situation and role in society. Her writings in general and her short fiction in particular, presented mild and implicit revolutionary

References

- Arnold, L. R. (2016). "This is a Field that's Open, not Closed": Multilingual and International Writing Faculty Respond to Composition Theory. *Composition Studies*, 4472-88.
- Bacha, N. N. (2002). Developing Learners' Academic Writing Skills in Higher Education: A Study for Education Reform. *Language and Education*, 16pp 161-177.
- Bahous, R., Bacha, N., & Nabhani, M. (2011). Multilingual educational trends and practices in Lebanon: A case study. *International Review Of Education / Internationale Zeitschrift Für Erziehungswissenschaft*, 57737-749. doi:10.1007/s11159-011-9250-8
- Hogan, M. A. (2015). In the Digital Age, It's a Rhetorical Tetrahedron: Where Composition Theory Meets Media Literacy. *Journal of Digital and Media Literacy*, 3.

Another crucial method to consider using in the classroom is that of breaking up the writing process into steps. This is commonly used in institutions across the globe, where students' writing assignments are not just briefly discussed in one class period and then assigned for individual work or for an exam later on, but are given to students to work on step by step, turning each phase of the composition process into a graded assignment. This not only encourages students to manage their time and get a better idea of which steps in the writing process require more time and effort, but it also gives them the opportunity to thoroughly understand the importance of each step in the writing process in order to create a well thought out piece of work. In a study conducted by Bacha (2002), first year college EFL students were told to do just this. The writing process was split up into eight steps: 1) choosing a topic, 2) carrying out a survey and analysing the results, 3) carrying out an interview, 4) summarising an article, 5) writing the first draft, 6) revising the first draft, 7) writing a final draft, and 8) outlining and summarising the final draft. This method showed outstanding results among students who ended up turning in well constructed papers with better grades.

Research has also been conducted to emphasize the importance of acknowledging multilingual students' learning processes and accommodate their unique situations. Lisa Arnold, a faculty member at the American University of Beirut, sought to improve the composition and rhetoric discipline at the university while taking into consideration the mistakes being made by English instructors from different backgrounds that were not trained in a multilingual environment (2016). To improve and expand this discipline at AUB, Arnold (2016) organized a multitude of seminars that addressed topics such as "a general introduction to rhetoric and composition, the place of literature in the composition classroom, teaching writing as a process, writing as a social act, English as a global language, the effects of globalization on the teaching of writing, and translingual and transnational concerns in the teaching of writing" (p.75).

The feedback and results from these sessions provided to faculty members were very positive. One opinion given on the seminars acknowledged that composition and rhetoric was "a bridge between... the theory on language acquisition and... literature" (Arnold, 2016). This very much sums up the ideas in this article to say that the problems in teaching English in Lebanon arise from the fact that most of the lessons focus on learning the actual language and studying literary works of the language and culture, but that leaves the gap only able to be filled in with knowledge in composition and rhetoric, a discipline widely neglected across institutions in Lebanon. With a greater focus in rhetoric and writing, all students are seen as developing writings (Arnold, 2016). It puts all of the differences between native English speaking students and ESL students aside and allows room for the creation of an actual learning environment for all types of students.

I urge those who are in charge to be honest in the field of teaching and recognize that mistakes are being made when considering teaching methods, language barriers, and different viewpoints, because teaching is a responsibility and talent not meant for people who simply view it as an average job that allows one to make a living. Our students are paying for the negligence of their teachers. The teachers hold the future of these students in their hands, they shape the ways they think and help to carve out their paths.

that provides them with greater knowledge on the subject, and making the class engaging to their more advanced students who, even though they are quickly acquiring skills themselves, are unable to move forward onto organizational techniques and more formal methods of writing since the whole class is not on the same page.

This gap also presents the problem of lacking motivation. Our ESL students have already become aware of the significance of learning English and are motivated to do so, but those who switch to an English based curriculum might be doing it just because it is “easier” and not because they really care about becoming proficient in the language and instead are fine with having just enough knowledge to get by. This shows as the more advanced students speak

English more commonly in the classroom and among their friends, while the less advanced students tend to use colloquial Arabic a lot inside the classroom and speak it among their friends as well (R. Bahous, et al., 2011). The lack of motivation has been shown to be the top factor in preventing students from becoming better writers in university (Bacha, 2002).

A problem that reinforces this and that we face in both two-year and four-year colleges is that administrators allow class sizes to be too large to allow students, especially remedial students, to learn effectively and attain a deeper understanding from their classes. A study in 2009 found that not one college met the group’s standard of a 15-student cap in remedial writing courses. Students are required to complete impossible tasks, like writing an argumentative essay, with little experience.

In recent years, instructors have leaned more towards applying traditional methods of teaching that are not working. Course materials and books are not carefully chosen and are based solely on the teacher’s preference. But all of our teachers have not gone through proper training, not all of our teachers know how to build a curriculum and some do not even show high proficiency levels in their subject either. We need to carefully identify these factors especially when non-native English teachers are being put in the position to teach English and composition.

Everything put into the design of a course must be effective and proven to bring about results.

There are many schools of thought pertaining to writing in the English language and theories that teachers can be applying in the classroom. In an essay discussing compositional teaching methods, Hogan (2015) considers the traditional use of the communications triangle introduced by Kinneavy wherein the elements of speaker, message, and audience are all connected and related to each other during the writing process and presentation. And it is true that these three elements should be the basis of every composition course in every classroom, but we have the opportunity to introduce a fourth element for a modern generation. The elements, according to Hogan (2015) should now include medium, and not only that, but speaker should be changed to communicator and audience to community. Technology has greatly affected students’ learning processes and opportunities. We as teachers can take advantage of this and recognize that with the digital medium for writing, there are many new doors that open up giving students a myriad of writing opportunities that teach them to focus on how to communicate a message and, in turn, how it will be apprehended to the larger community that the internet creates.

These would assume students know nothing about sentences, taking them back to square one, and would proceed to build sentence and sentence forming understanding from the ground up.

Without these lessons, our students end up feeling like their assignments can be overbearing, they become desperate to pass and turn to inappropriate methods to get a good grade. Cheating and plagiarism is common in our schools and our students treat it to be a normal thing but really it is a big problem. There can be some major consequences that come with plagiarism in the real world. Students may be sheltered through their schools but universities and companies must be very careful about publishing plagiarised work, so in the event that it does happen, students are penalized and can be forced to deal with major consequences. In this developing world people are looking for original content anyway. The most successful players on the global stage are those that come up with ideas that haven't been heard of before. In writing, some practices include brainstorming and asking the right questions to lead your research down the right path that allows new discoveries to be made. This skill is so important, it is one our students can take with them wherever they go.

So what can we do to push our students to learn and create their own original content? Many of these students are ESL students, they are not native speakers of English but they learn the language alongside their other courses taught in English as well. These students already have the motivation to learn English, knowing that with the knowledge of the language they are able to attend universities or find jobs abroad (Bacha & Bahous, 2011). They realize the importance of being able to speak English in this globalized world and get engaged in western culture easily. Not only that, but our ESL students also find it more suitable to write in English; most have a harder time being able to express themselves through standard written Arabic. So with these motivational factors already existing, we need to address the other issues that arise from teaching ESL students.

Some of the barriers that arise stem from the language learning policies across institutions themselves. Foreign languages are being taught to all students, even those who do not exhibit any proficiency levels in another language (Bacha & Bahous, 2011). This causes some of our students to be left behind, as students who have been exposed to English and have already acquired some proficiency in it move further ahead in their studies, those who have not do not feel caught up to their classmates and begin to slack off since their needs are not addressed. This is especially common among students who switch between systems. Many students enrolled in the Lebanese Baccalaureate System, where all lessons are taught in Arabic, end up switching to another system, like the American system, and find themselves in a lower level of English proficiency the students around them. While the proficient English speakers in our classrooms are able to thoroughly understand the lessons in grammar and composition and read books and watch videos outside of school, they quickly advance their skills and start going down the path of mastering composition techniques but having such a large gap between students proficient in English and students unfamiliar with basic grammar creates obstacles for both groups of students. Teachers cannot create two lessons for one class and are caught between trying to make sure the less advanced students understand the lesson, even though they need much more time devoted to catching up and receiving coursework

ough time is being left for grammar, composition, and writing skills pertaining to research and citations. This has greatly to do with the inclusion of educational systems of other cultures. The American and British systems were organized to accommodate students whose native tongue is English. We aren't addressing the needs of our Lebanese students with unique backgrounds if we are educating them through systems not applicable to their cultures and ways of thinking.

How do our students think? How do they learn? What lessons would be more engaging to them? What assignments would make them interested to learn more? These are questions we must be asking. These are questions we must be addressing as we develop our curriculums throughout our schools and bring in college students into our universities. Our students want to be players on the global stage of development and we want to make them motivated to follow their dreams and advance their community.

Having proper writing skills and the ability to write in many different styles is crucial to success, no matter what path a student takes. Academically, in all classes a student takes, there will be requirements to write essays, reports, research proposals, and later on dissertations and theses. In the business world writing is used to record the minutes and topics of meetings, take formal notes, and write reports on varying topics. Presentational skills are important and students can't master those without basic writing skills. So writing is important in every field, and it is important to be able to write to express and share ideas. It doesn't help our students further their careers only, it also helps them in finding their own voice and figuring out what role they want to take on in their life. Students acquire new perspectives and ways of thinking through writing as well as their abilities to analyze, infer, connect points, detect patterns, think critically, etc. are all strengthened (Bacha, 2002). Just this basic skill can allow our students to be in control and not feel lost, wherever they end up in life, and it is our duty as instructors to make sure we equip our students with these tools.

Are we, as teachers, able to do this? If not, then there is a severe problem with the education system, that we have to reconsider. If yes, then we must ask how. In my experience as a teacher for these types of students, the teaching methods teachers used in writing was that students were asked to write forms of essays without knowing the basic writing rules, let alone the rules for the specific essays. I have known teachers to accept unorganised and fragmented sentences as reasonable efforts from the students and neglect correcting them to allow them to improve. Therefore, students who have been poorly trained graduate not knowing a sentence from a fragment, and go to college. There they are stuck. Also, the poor freshman course designs are not helping them go anywhere. Even though half of the incoming students are completely incompetent writers, colleges act like it does not matter. When teaching college students, we instructors automatically assume the students know how to form complete, complex sentences. Course syllabi and textbooks all go along with this idea that students can produce grammatical sentences without hesitance, leaving out rudimentary errors such as fragments, run-ons, or subject-verb disagreements. Teachers should be able to design a course based on students level, but they do not. Some of teachers try to start the writing course teaching students on basic grammar to bring them up to speed, or to catch-up grammar. This is natural, but it doesn't and cannot work since a class posed as a recap only helps those who once knew grammar. A few days of instruction cannot reverse years of poor teaching. A logical prescription would be that colleges design should offer sentence-focused composition courses.

Examining the Writing Proficiency of ESL College Students in Lebanon

Yusra Mazeh

Having the necessary skills to compose clear and professional written documents is crucial in the developing world to excel at the business, academic, and professional levels. In our education systems today, it is important to recognize that students are getting proper training and acquiring sufficient writing skills from grade school up to the college level. Students in their first year of college in Lebanon seems to struggle in this subject, however. This is a concern instructors need to be aware of because without being able to master the basic skills of writing and utilize proper grammar, students will struggle in their future careers when it comes time to write proposals, theses, research papers, etc. So, what should be addressed when looking at this problem? Lebanon is known for its diverse culture with many western influences; English and French are commonly spoken alongside Arabic, our institutions need to accommodate this culture and provide curriculums that address the unique needs of our students. However, the curriculums in schools throughout Lebanon are not engaging students in adequate writing classes and students entering college are subsequently unprepared to write for higher education. Institutions need to be making sure that they respond to the language needs of their students properly by incorporating the necessary techniques in their curriculums.

Being an instructor in a Lebanese university since 2009 I am surprised at students' inability to write a clear, concise sentence. These students totally depend on their instructors. More than 90% of them are lost and overwhelmed due to the high demand of writing throughout college that they struggle to keep up with having never learned basic skills such as sentence construction in secondary school. They not only have no knowledge of grammar, but also lack expressive qualities in their works. So now we have students going on to graduate without having received extensive knowledge on writing, let alone proficiency in the subject, and going into careers that put them in the place to teach, which puts us in this cycle of insufficient instruction in composition.

The issue is that some of our universities accept students without a placement exam, and give remedial courses that again do not teach them anything. Some universities even accept students regardless of their level of knowledge in the topic without remedial programs, acting on the aim to help each and every student since no student willing to learn and succeed should ever be left behind. But in order to help them in succeeding we need to provide them with challenges and opportunities to improve and reach their full potential, shaping them into students and later citizens able to attain, learn, practice, and master whatever skills they need to further their careers.

The organization of our institutions has been modified to incorporate American, British, and French educational systems, the Lebanese Baccalaureate system also requires the teaching of English or French as a foreign language. Having our students become bilingual and focusing on learning how to fluently speak another language might be getting in the way of the composition skills. For example, if English is being taught in terms of vocabulary and and speech skills, then not en-

KASSEM Naim. *Hezbollah el manhaj: expérience et futur*, Edition Dar el Nachr, Sl. (En arabe).

KHALIL Fouad (عشائر جرد الهرمل) *دولة العشيرة دولة المجتمع المحلي* Editions de la pensée libanaise, Beyrouth, 1990.

LE THOMAS, Catherine, *Les écoles chiïtes au Liban*, IFPO, Beyrouth, 2012.

MAHFOUZ Habib Abd el Karim, *L'histoire de Hermel: ancienne et récente*, édition El Nada, 1999, en arabe.

MOORE D, BLANCHET P, et RAHAL S, *Perspectives pour une didactique des langues contextualisées*, Éditions des archives contemporaines, 2008.

MORIN, E, *Communication et complexité, introduction à la pensée complexe*, ESF, Paris, 1990.

MOUSSAOUI, Ali, & YAZGI Serge, *Plan simplifié de développement local pour le regroupement de Hermel*, Beyrouth, 2005.

ARTICLES

BLANCHET, Philippe, «Contextualisation didactique: de quoi parle-t-on?», in *Le français à l'Université*, Bulletin de l'AUF, Paris, 2009.

BLANCHET, Philippe, «Laboratoire Plurilinguismes», Représentations, Expressions Francophones (PREFics EA 4246) Université Rennes 2, Bretagne, France

KERBRAT-ORRECHIONNI, Catherine, « La notion d'interaction en linguistique: origines, apports, bilan », *La linguistique comme discipline en France*, n117 de *Langue française*, Paris, 1998.

LE GAL, Damien, *La sociodidactique comme didactique de l'intervention*, revistas.unal.edu.com, Avignon, 2012.

MORIN Edgar, Actes du colloque du Comité National de la Recherche Scientifique *Interdisciplinarité*, Introduction par François Kourilsky, Éditions du CNRS, sl, 1990.

MUCCHEILLI, Alex, RECHERCHES QUALITATIVES - Hors-Série - numéro 3 Actes du colloque BILAN ET PROSPECTIVES DE LA RECHERCHE QUALITATIVE © 2007 Association pour la recherche qualitative ISSN 1715-8702

PERDRIZET Paul, *Le monument de Hermel*, in Syria, Tome 19 fascicule 1, 1938.

POITTIER, B, *Le domaine de l'ethnolinguistique*, dans B. POITTIER(dir), *L'ethnolinguistique*, revues *Langages* n18, 1970.

VÉRONIQUE D, «Comparer les langues: perspectives didactiques?», *Le français dans le monde*, janvier 2005.

Ils ont, donc, ce tempérament de résistance et de révolte face à tout ce qui est imposé. Cette dés-obéissance peut aussi toucher les langues et les cultures qui se présenteront comme des obligations dont le français. Pour cette raison, nous pensons que ce facteur est un phénomène pertinent à retenir pour notre étude.

BIBLIOGRAPHIE

LIVRES

ASTIER P., *Se voir dans les yeux d'un autre, Questions de Recherches en Education -2, Action et identité: enjeux pour la recherche en formation*, INRP, Paris, 2001.

BAYLON, Christian, *Sociolinguistique: société, langue et discours*, Nathan, Paris, 2002.

BACHMAN, C-J., *Langages et communications sociales*, 1981.

BAUTIER, E., *Comment naissent les inégalités d'apprentissage? Programmes, pratiques et malentendus scolaires*, PUF, Paris, 2009.

BERTHIER Nicole, *Les techniques d'enquête en sciences sociales méthodes et exercices corrigés*, 4eme édition, Armand Colin, Paris 2012

BLANCHET, Philippe, *La linguistique de terrain, méthode et théorie: une approche ethnosociolinguistique de la complexité*, 2^{ème} édition revue et complétée, Didact linguistique, Presses universitaires de Rennes, Rennes, 2012

BOYER H, *Éléments de sociolinguistique: langue, communication et société*, Dunod, Paris, 1991.

CALVET L.-J, *Les politiques linguistiques*, Presses Universitaires de France, Paris, 1996.

CAMBRA M, *Une approche ethnographique de la classe de langue étrangère*. Didier, Collection Langues et Apprentissage des Langues, Paris, 2003.

CASTELLOTTI V & CHALABI C, *Le français langue étrangère et seconde Des paysages didactiques en contexte*, L'Harmattan, collection «Espaces discursifs», Paris, 2006.

CONSEIL DE L'EUROPE, *Cadre Européen Commun de Référence pour les Langues, Apprendre, Enseigner, Evaluer*, 2001

COSTE. D, MOORE. D, ZARATE. G, *Compétences plurilingue et pluriculturelle. Vers un Cadre Européen Commun de référence pour l'enseignement et l'apprentissage des langues vivantes: études préparatoires*, Éditions du Conseil de l'Europe, Paris, 1999.

DORA F, *Découvrir le plurilinguisme dès l'école maternelle*, L'Harmattan, Paris, 2009.

EL JAWHARI Abbas-Ali, *Hermel: coutumes et traditions, Dar el hawraa*, Beyrouth, 2012. (En arabe)

FEUILLET J, *Les enjeux d'une sensibilisation très précoce aux langues étrangères en milieu institutionnel*, Editions du CRINI (Centre de Recherche sur les Identités Nationales et l'Interculturalité) Nantes, 2008.

FRIBOURG Jeannine, *Vers l'ethnolinguistique*. La Linguistique, PUF, Paris, 1978.

GUADAGNOLI, Giulia, *Hermel rich in resources and marginalized: survey of social and economic establishments in 5 municipalities*, sl, Janvier 2009.

tions se fait en anglais. La mobilité des Hermelois et le pic économique qui s'en est suivi a aussi favorisé l'anglais au dépend du français, en présentant l'anglais comme langue *clé de l'international*, et *clé des nouveaux métiers*.

La socialisation et la réussite sociale passent par l'anglais aussi. En effet, la langue française étant trop rattachée à la mémoire scolaire, aux erreurs et aux sanctions, les Hermelois appréhendent l'utilisation de cette langue car ils appréhendent l'erreur en français ou la moquerie. Alors que pour l'anglais tout est plus simple. C'est une langue à la mode et décomplexée.⁽¹⁾

Dans le contexte familial, la langue française est absente. Mais elle reste, dans le contexte social un signe de distinction pour ceux qui la maîtrisent. Or son utilisation est unilatérale, ce qui crée un certain malaise au sein des relations sociales:

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE15 «Ici à Hermel on te fait haïr le français car c'est obligatoire! La solution serait de simplifier l'enseignement de cette langue faire comme avec l'anglais: c'est tellement plus simple et motivant d'apprendre l'anglais! Ici celui qui parle français est sur un piédestal, il a un problème d'orgueil, il se croit supérieur aux autres, il parle français pour craner. Par contre, j'ai une amie qui a fait de la littérature française et bien figure-toi qu'elle déteste que ses enfants parlent le français à la maison. Parce qu'elle se sent avant tout arabophone et elle veut coûte que coûte préserver cette identité. Ma fille Myriam déteste le français à cause de sa maîtresse de français, à chaque fois qu'elle lui pose une question la maîtresse ne répond pas et ne remet jamais en cause sa façon d'expliquer ! Bah oui quoi, elle a fait des études de français, ce n'est pas rien (ton satirique). Il y a une maîtresse qui ne parle qu'en français et refuse d'utiliser l'arabe alors qu'elle est de la famille Jaafar (rire).. C'est un problème de hiérarchie ou quoi? J'ai une voisine qui étudie le français et quand elle vient chez moi elle me dit un mot en arabe et un mot en français! Moi j'aime pas ça, bah oui quoi je vis dans un pays arabe donc je parle arabe ça va de soi.»⁽²⁾

Rébellion et ouverture

Les identités Hermeloises se construisent donc en faisceau entre d'une part une posture de rébellion par rapport à ce qui est imposé et d'autre part, une posture d'ouverture aux langues et cultures porteuses d'opportunités. Nous ne pouvons pas clore une étude compréhensive et descriptive de Hermel sans parler de Hermel *la ville des Martyrs*. Les Hermelois ont ce tempérament rebelle directement hérité de leur fleuve, l'Oronte, le fleuve rebelle. Par exemple, face à la marginalisation exercée par l'Etat, un phénomène s'est créé: celui des Toufars, ce qui veut dire *ceux qui fuient la loi* ou *les hors la loi*. En réalité, les Toufars sont des condamnés pour délits et qui fuient les autorités pour ne pas purger leurs peines qu'ils considèrent comme injustes.

Ainsi, les Hermelois se définissent avant tout comme des résistants et des rebelles. Ils ont résisté aux différentes occupations qui ont touchées leurs villes, dont l'occupation des Français durant le mandat.

(1) Biographies langagières.

(2) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (15), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.

Les Hermelois interviewés utilisent des termes affectifs et émotionnels pour exprimer leurs représentations de la langue française, de la France et des Français. Leurs représentations révèlent un attachement ambigu. Cette langue fait partie de leur histoire personnelle. Ils sont à la fois fascinés par la langue de Molière qu'ils mettent sur un piédestal: *langue difficile, langue de salon, très belle langue, un échappatoire, une porte vers la modernité, une opportunité, la langue de la liberté, de l'amour*. Et à la fois railleurs face à son recul par rapport à l'anglais, le français devient *inutile, langue qui ne fait pas le poids face à l'anglais, langue qui recule et n'a plus sa place*.

L'anglais prend de l'ampleur, et les Hermelois interviewés ont intégré cette représentation de l'anglais, langue aux nombreux atouts: facile et offreuse d'opportunités:

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE6: *«La relation avec la France et les Français est une relation de perte de confiance, les Hermelois ne croient plus en la langue française. Ils sont persuadés que la maîtriser ne les mènera à rien, rien ne les motive à faire des efforts. La maîtrise de cette langue ouvre très peu de perspective à notre époque, l'anglais est plus important.»⁽¹⁾*

ACTSOCIO.NONAV.EP.LJE5: *«La culture et la langue françaises m'ont vraiment marqué même si je n'utilise la langue de Molière que rarement. Mais pour moi l'anglais représente aujourd'hui un enjeu primordial et devance le français et est la priorité pour faire des études supérieures, réussir, obtenir un emploi, voyager et avoir des amis. Le français recule beaucoup face à l'anglais.»⁽²⁾*

ACTSOCIO.NONAV.EP.LJE8: *«Je trouve que je ne parle pas assez bien français mais je n'ai pas de quoi me payer des cours. C'est trop cher, en plus si je devais payer des cours de langues je choisirais l'anglais car c'est une langue plus importante que le français surtout pour voyager et réussir économiquement.»⁽³⁾*

Les Hermelois expriment leurs attachements à la langue française, c'est la langue qu'ils aiment, la très belle langue, celle de l'amour et de la romance. Mais, il y a comme un sentiment d'amertume face à cette langue qu'ils ont appris durant toute leur scolarité mais qu'ils n'ont pas réussi à maîtriser, et qui en fin de parcours ne leur a servi à rien:

ACTSOCIO.NONAV.EP.LJE15 *«J'ai une relation normale avec la langue française, c'est une langue prestigieuse, je l'aime mais je ne la maîtrise pas bien. Je trouve que la situation du français à Hermel est très mauvaise.»⁽⁴⁾*

ACTSOCIO.NONAV.EP.LJE12 *«Je trouve que la situation du français à Hermel est faible en ce qui concerne son enseignement à l'école et dans la vie quotidienne c'est encore pire, elle est presque inexistante.»⁽⁵⁾*

Le développement et les nouvelles technologies ont favorisé l'anglais au dépend du français. En effet, la langue indispensable à la maîtrise des nouvelles technologies et de l'informatique est l'anglais puisque la majorité des appareils technologiques ont des claviers anglais ou leurs manipula-

(1) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (6), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.

(2) Extrait de biographie langagière auprès de lycéens ou jeunes étudiants Hermelois. (5)

(3) Extrait de biographie langagière auprès de lycéens ou jeunes étudiants Hermelois. (8)

(4) Extrait de biographie langagière auprès de lycéens ou jeunes étudiants Hermelois. (15)

(5) Extrait de biographie langagière auprès de lycéens ou jeunes étudiants Hermelois. (12)

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE 9: Les Hermelois sont des gens très bien, honnêtes et plein de courage. Ils sont braves et aiment apprendre et s'ouvrir aux autres mais ils souffrent de stéréotypes qui leur collent à la peau, ils sont mal vus par les Libanais. Ils font peurs aux autres.»⁽¹⁾

C'est à travers ces représentations que les Hermelois ont construit leur identité. Une identité vue comme un isolement social imposé et injuste. Il est important de comprendre ce phénomène en trois dimensions qu'est l'isolement de cette ville. Phénomène ancré qui en devient caractéristique de la ville. Phénomène qui s'inscrit en oxymore avec le troisième phénomène ancré de la ville.

Anglicisation des pratiques informelles versus français institutionnalisés.

Les écoles à Hermel sont toutes francophones mais on assiste dans cette ville à une anglicisation des pratiques informelles. En effet, l'anglais est préféré au français dans le choix des activités personnelles: les chansons sont écoutées en anglais, les films d'action américains ont la côte alors que les chaînes françaises sont absentes des foyers, les téléphones sont configurés en anglais⁽²⁾.

Le paysage linguistique s'anglicise. L'anglais est jugé plus facile, plus utile. Alors que le français est rattaché à l'école, jugé inutile en dehors des institutions scolaires. Dans les institutions, le français perd aussi de sa pertinence:

ACTSOCIOAV.EP.PF3: «Je rencontre aussi des difficultés avec les élèves. Ils ont beaucoup de préjugés par rapport au français:

- langue difficile,
- langue qui ne sert à rien,
- une langue qu'ils n'aiment pas,
- désintérêt total pour cette langue.

La note ne les intéresse pas, ils se contentent d'un dix sur vingt (10/20) ou même un sur vingt (1 /20) pour ne pas avoir de note éliminatoire.»⁽³⁾

ACTSOCIOAV.EP.PF2: «Par rapport aux classes secondaires, maintenant j'enseigne aux terminales, il y a pas mal d'élèves qui considèrent que c'est une matière à laquelle il faut pas faire attention, qu'elle ne pose pas un grand problème»⁽⁴⁾

Le français est absent du contexte informel du Hermelois. Dans les institutions publiques et sanitaires, dans les restaurants, dans les commerces, le français n'est pas utilisé. Il est aussi très peu présent visuellement. Les Hermelois n'en voient pas l'utilité. Leur relation à la langue française est affective et ambiguë. En effet, leurs représentations du français et de la France ont été influencées par leurs expériences scolaires, vu que cette langue n'est utilisée pour la majorité des interviewés, que dans le contexte scolaire. Elle est absente des contextes familial et social. Sur les réseaux sociaux, on lui préfère l'arabe d'internet ou l'anglais.

(1) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (9), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.

(2) Biographie langagière auprès des lycéens ou jeunes étudiants Hermelois.

(3) Entretien en français, avec un professeur (3), acteur averti de la vie pédagogique et éducative de la ville, retranscrit tel quel avec respect de la syntaxe utilisée.

(4) Entretien en français, avec un professeur (2), acteur averti de la vie pédagogique et éducative de la ville, retranscrit tel quel avec respect de la syntaxe utilisée.

ACTSOCIO.AV.EP.PF2: «Moi je peux parler par rapport à mes représentations de Hermel. Avant d'aller à l'université à Zahleh, je ne connaissais personne du Hermel, euh, vraiment personne! Eh comme je ne connaissais personne de cette région-là, j'imaginais que (rire) la fin du monde c'est à Maehne que c'est le dernier village du nord, la Bekaa du nord. On a toujours cette représentation que les villes les plus éloignées, de la capitale, (euh) de Beyrouth, ils vont avoir des difficultés à vivre ou on ne sait pas comment ils vivent. Donc vraiment, moi quand je suis allée à Hermel je m'étais étonnée de voir un grand nombre de personnes qui ont un très bon niveau, en français mais pas seulement aussi dans d'autres spécialisations»⁽¹⁾

ACTSOCIO.AV.EP.PF1 «Le vrai problème à Hermel c'est d'être loin et d'être défavoriser, c'est une ville (euh), si tu veux qui est parfois oubliée par l'Etat.»⁽²⁾

B- Deux marginalisations qui vont de pair: l'une géopolitique et l'autre sociale.

La situation frontalière de Hermel et l'engagement des Hermelois dans certains conflits régionaux, en réponse aux attaques et menaces dont ils étaient victimes. Puis l'engagement des Hermelois dans certains conflits idéologiques, comme le mouvement des déshérités conduit par l'Imam khoumeyni durant et après la révolution en Iran puis repris par le Libanais l'Imam Moussa el Sadr. Ces différents engagements géopolitiques ont conduit à une marginalisation internationale de la ville. Ainsi la France a placé Hermel en Zone Rouge. Cette mise en zone rouge de la ville par la France a indéniablement aggravé son isolement déjà caractérisé par sa situation géographique et la marginalisation exercée par l'Etat libanais à son égard.

Hermel souffre aussi de marginalisation sociale. La ville et ses habitants sont sujets de stéréotypes liés, notamment, au fait que la ville fut longtemps le lieu de culture de cannabis. Puis c'est une ville à caractéristique clanique et les lois claniques sont connues du grand public comme étant des lois rétrogrades et prônant la loi du plus fort. Les Hermelois déplorent ce fait et nombreux sont les informateurs qui se voient comme étant victimes de stéréotypes. En outre, ils vivent cette image, de gens à problèmes, *qui leur colle à la peau*⁽³⁾ comme une injustice:

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE1: «Hermel est la ville des Martyrs et des problèmes (rires). Les Hermelois souffrent d'une mauvaise réputation, ils sont victimes de stéréotypes.»⁽⁴⁾

ACTSOCIO.AV.EP.PF1 «Mais ils ne connaissent pas vraiment les gens d'Hermel, ils ont une image un peu (euh) disons noire, ils croient que ce sont, des gens armés qui tuent, des criminels, mais la réalité n'est pas vraiment comme ça.»⁽⁵⁾

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE 10: «Les Hermelois sont courageux, vaillants. On pense que ce sont tous des gens armés et à problèmes mais ce n'est pas vrai.»⁽⁶⁾

(1) Entretien en français avec un professeur (2), acteur averti de la vie pédagogique et éducative de la ville, retranscrit tel quel avec respect de la syntaxe utilisée.

(2) Entretien en français, avec un professeur (1), acteur averti de la vie pédagogique et éducative de la ville, retranscrit tel quel avec respect de la syntaxe utilisée.

(3) Pour reprendre l'expression utilisée par l'un des informateurs.

(4) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (1), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.

(5) Entretien en français, avec un professeur (1), acteur averti de la vie pédagogique et éducative de la ville, retranscrit tel quel avec respect de la syntaxe utilisée.

(6) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (10), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.

d'opportunités de travail, mais c'est une ville où il fait bon de vivre. (...) Nos obstacles face à la modernité sont surtout économique et géographique.»⁽¹⁾

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE 4: «Hermel est une ville qui souffre beaucoup économiquement, et elle est marginalisée.»⁽²⁾

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE 5: «Hermel est la ville des Martyrs, les Hermelois sont des résistants très attachés à leurs traditions. Ils sont forts mais marginalisés.»⁽³⁾

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE 7: «Hermel est une ville qui souffre d'un isolement et d'une marginalisation extrêmes de la part de l'Etat libanais. Les Hermelois sont des gens déterminés, ouverts, tolérants. Ils aiment se cultiver avoir des connaissances, des diplômes mais ils sont isolés et souffrent d'un Etat corrompu.»⁽⁴⁾

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE 8: «Les Hermelois sont des combattants, ils aiment la vie et la culture mais sont marginalisés.»⁽⁵⁾

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE9: «Hermel est une ville qui souffre de son éloignement géographique de tout, de la capitale, des grands hôpitaux, des universités. J'aime beaucoup cette ville mais il est de plus en plus difficile d'y vivre (pleurs). C'est difficile pour nous, pour nos enfants, sans pistons on ne peut pas leur assurer un avenir. C'est dur!! Et tellement dommage, la ville a tout pour elle mais cette marginalisation est insupportable.»⁽⁶⁾

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE 10: «Hermel est une ville d'hommes de vrais, mais c'est une ville isolée du reste du pays.»⁽⁷⁾

ACTSOCIO.NONAV.EP.LJE 17: «Les Hermélois sont des gens gentils mais extrêmes dans leur façon de penser. Les Achayers (tribus) ont encore des mœurs des temps passés. Puis les Hermélois sont marginalisés, déshérités et des victimes de l'Etat libanais, c'est pour ça que les Hermélois sont comme ça, c'est parce qu'ils sont oubliés, délaissés, marginalisés»⁽⁸⁾

ACTSOCIO.AV.EP.PF3: «Il y a aussi un réel problème de marginalisation de la part de l'Etat. Certaines associations travaillent pour combler ce problème, mais malheureusement rien n'est fait concrètement! Ça n'avance pas! Le but des associations est plus matériel qu'autre chose. C'est une ville marginalisée, très loin de la capitale. Si nous avons besoin de n'importe quel papier médical, il faut s'y rendre. Maintenant, avec l'entrée de mon fils à l'université, je vais partir sans réfléchir ni avoir de regret [...] Les Chiïtes sont marginalisés, surtout ceux de la région de Baalbek / Hermel, ceux du Sud ont une condition meilleure. Moi, j'ai eu de la chance mais je pense à mes enfants: est-ce que leurs compétences vont être appréciées à leurs justes valeurs?»⁽⁹⁾

-
- (1) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (1), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.
(2) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (4), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.
(3) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (5), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.
(4) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (7), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.
(5) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (8), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.
(6) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (9), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.
(7) Entretien en arabe traduit en français avec un parent d'élèves (10), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.
(8) Entretien en arabe traduit en français avec un lycéen (17), acteur non-averti de la vie pédagogique et éducative de la ville.
(9) Entretien en français avec un professeur (3), acteur averti de la vie pédagogique et éducative de la ville, retranscrit tel quel avec respect de la syntaxe utilisée.

Catégories conceptualisantes	
Phénomènes ancrés	Phénomènes d'adaptation
1 - Isolement	1 - anglicisation des pratiques informelles
2 - Homogénéité hétérogène	2 - Français entre institution et idéalisation
3 - Ouverture et tolérance	3 - Engagements et rebellions

Théorisation ancrée de la compréhension des phénomènes affectant la construction identitaire à Hermel

Dans cet article nous décrivons un seul phénomène de chaque catégorie: ancrée et d'adaptation.

Hermel une ville marginalisée

Un des premiers phénomènes observés à Hermel est l'isolement auquel cette ville est sujette. Un isolement que nous avons divisé en deux dimensions pour mieux le comprendre. Chaque dimension a des relations de conséquence/causalité avec l'autre:

- Marginalisation économique.
- Marginalisations géopolitique et sociale.

A - Marginalisation économique

Hermel est une ville qui souffre d'isolement économique de la part de l'Etat libanais et des différents partis au pouvoir. Cette marginalisation économique revient dans les propos de presque tous les informateurs que nous avons interviewés: acteurs sociaux avertis et non-avertis de la vie politique, économique, touristique, culturelle, éducative de la ville. Ce phénomène touche donc plusieurs paramètres et est même devenu une caractéristique de la ville et un qualificatif utilisé par différents acteurs sociaux libanais dans leurs propos sur Hermel.

En effet, Hermel est la ville marginalisée, la ville oubliée. Ce qualificatif fut au centre des slogans de l'opposition lors des législatives de mai 2018 et ceci pour dénoncer cette politique de marginalisation dont souffre la ville. Marginalisation, qui dure depuis la dépendance du Liban et dont la situation ne s'est pas améliorée après la guerre civile, ni même, après le passage au pouvoir de la classe politique d'après-guerre et qui, jusqu'aujourd'hui, est au pouvoir.

Ici, nous retenons un paradoxe, celui de la richesse de la ville en ressources naturelles (eau, air, sol, soleil) et sa richesse en patrimoines historique et culturel. Tant d'atouts économiques aux niveaux régional et national et qui paradoxalement ne sont ni investis, ni utilisés par l'Etat alors que ces atouts pourraient améliorer considérablement la situation économique de la ville. Les projets d'investissements culturel, économique, et d'infrastructure restent à l'état de projets et ne sont pas exécutés. Ce paradoxe accentue encore plus cette réalité de marginalisation dont souffre la ville.

Comme nous l'avons précisé plus haut, ce phénomène de marginalisation économique revient dans les propos de presque tous les informateurs interrogés.

Voici un échantillon non exhaustif des propos évocateurs de cette situation:

ACTSOCIO.NONAV.EP.PE 1: «Je dirais que ma ville est une ville pauvre, où il y a peu

quatre catégories (dans le but de couvrir un maximum d'angles nécessaires à la compréhension des phénomènes sociolinguistiques en relation avec les objectifs de notre recherche): des acteurs sociaux de la vie économique, touristique, sanitaire, politique, et culturelle de la ville. Puis des acteurs sociaux avertis et non-avertis de la vie éducative et pédagogique de la ville.

Six phénomènes observés

Les résultats de notre recherche ont fait émerger six phénomènes directement reliés à notre problématique.

Nous avons inscrit ces phénomènes dans un cadre espace-temps. Nous inspirant ainsi, du concept de phénomène, comme il est vu par Blanchet pour qui tout contexte s'inscrit dans une continuité, passé, présent, futur que nous nous devons de prendre en compte dans la contextualisation des phénomènes observés:

«L'un des défauts fréquemment relevé dans les démarches contextualisantes est l'oubli ou la négligence des temporalités: on observe en synchronie (en tout cas dans la seule temporalité de la recherche) une image arrêtée. On transforme un processus en objet sans prendre en compte l'histoire, les expériences, les projets, des acteurs sociaux et de leurs rapports au(x) phénomène(s) observé(s)/interprété(s). La contextualisation porte sur les processus (d'où les suffixes -iser, -isation) et non sur un contexte «donné» qui ne serait qu'un simple décor.»⁽¹⁾

C'est donc en questionnant cette temporalité que nous avons classé les phénomènes observés en prenant en compte les dimensions temporelles et spatiales, ainsi que les interactions entre ces contextes et leurs acteurs sociaux. Nous avons donc distingué deux dimensions.

1 - Une dimension acquise, figée et non ou peu changeante: les phénomènes classés dans cette dimension sont ceux que nous avons *les phénomènes ancrés*. Nous les avons défini ainsi: un phénomène ancré est présent implicitement ou explicitement dans le terrain étudié et ce de manière continue dans le temps, passé/présent/futur, indépendamment des paramètres contextuels. Il a peu ou pas de perspectives d'évolution. Il touche plus d'un paradigme du terrain. Enfin, c'est un phénomène qui, de par sa présence, devient caractéristique de la ville.

2 - Une dimension active, inter-changeante, influençable: les phénomènes classés dans cette dimension, sont ceux que nous avons nommé *les phénomènes d'adaptation*. Que nous avons ainsi défini: un phénomène d'adaptation est éphémère et influençable. Il est une réponse d'adaptation à une situation ou à un contexte. Enfin, il est interchangeable et actif.

Ces dimensions étant des éléments du contexte à analyser dans le sens qu'elles comportent des facteurs qui interviennent dans la construction d'identités culturelles, interculturelles et plurielles à Hermel.

Pour théoriser ces phénomènes, nous les avons conceptualisés. Nous les présentons dans ce tableau:

(1) BLANCHET Philippe., *La linguistique de terrain, méthode et théorie: une approche ethnosociolinguistique de la complexité*, 2^{ème} édition revue et complétée, Didact linguistique, Presses universitaires de Rennes, p66.

phénomènes dépassant géographiquement la ville de Hermel, a été nécessaire à la compréhension et description de notre terrain de recherche.

La ville de Hermel se trouve au sein d'une région dont l'histoire des trois derniers siècles fut fortement marquée par la structure tribale en guise de structure sociale. Aujourd'hui encore, Hermel est connue comme étant une région du Liban où règne les lois de clans ou loi tribale, même si il faut aujourd'hui voir ce paramètre sous d'autres perspectives.

Selon l'historien et professeur libanais Othman Daloul, le clan serait un groupe de personnes qui ferait partie d'une même lignée, et qui aurait un ancêtre commun. Formant ainsi une structure sociale. Il serait, aussi, lié par un dogme commun: celui de leur appartenance et leur dévouement extrême au clan et à son ou ses chefs. La force, le maintien et la persévérance du clan seraient donc à la base dépendants de l'intensité de ce sentiment d'appartenance et dévouement de la part des différents membres qui le composent⁽¹⁾.

Les clans se caractérisent par cinq traits prédominants:

- l'honneur;
- le pouvoir par la force;
- la violence (dans certaines de leurs pratiques comme la vendetta);
- la résistance;
- l'allégeance au clan.

Les méthodes de recueil l'information et d'observation: variété et pertinence.

Nous avons recueilli nos données de recherche par trois biais.

- Par documentation: nous avons consulté les différents écrits en rapport avec l'histoire ancienne et récente de la ville, les écrits ou études anthropologiques de Hermel et les articles résultants des différents projets économiques et culturels mise en place ou attendus pour la ville.

- Par observation directe de la ville, participation active à la vie de la ville: nous avons, via nos séjours saisonniers dans la ville, été une actrice active de notre recherche.

- Par lecture du paysage linguistique: Durant l'année 2015, nous avons effectué une lecture du paysage linguistique et urbain de Hermel.

- Par rencontre directe ou indirecte avec nos informateurs et entretiens enregistrés⁽²⁾ sur notre téléphone portable ou enregistrés via les messageries vocales des applications de discussions instantanées.

Nos informateurs et nos méthodes de recueil des données ont été choisis ou subis selon les besoins directs de l'enquête et les contraintes rencontrées de temps, de lieux, définies ou exigées par les informateurs.

Cependant, nos choix ont été réalisés suite à la définition de nos objectifs en relation avec chaque informateur et la pertinence de ces choix pour notre recherche.

Les résultats de notre recherche se sont basés sur l'étude ethnologique de la ville ou ce que nous avons nommé pré-enquête. Puis sur des entretiens avec différents profils d'informateurs répartis en

(1) KHALIL Fouad ، (عشائر جرد الهرمل)، العشيرة دولة المجتمع المحلي Editions de la pensée libanaise, Beyrouth, 1990, p23.

(2) 52 entretiens en tout.

Notre article s'inscrit à un moment de l'histoire où les problématiques de l'interculturalité et de l'ouverture aux autres, via l'apprentissage des langues, sont abordées en corrélation avec les problématiques de repli identitaire et du refus de l'altérité. Le deuxième phénomène se présentant comme une réponse paradoxale à cet élan d'ouverture voulu ou apporté par la mondialisation et les nouvelles technologies de l'information et de la communication. Ce repli identitaire et refus de l'altérité qui, quand il se manifeste, le fait violemment au sein de sociétés cosmopolites et hétérogènes. Qu'en est-il, alors, des sociétés de même couleur mais, qui se sont vu imposer, de gré ou pas, des apprentissages de langues et cultures autres que les leurs et qui se confrontent, via le développement sans précédent des moyens de communications, à cette culture et à cette langue de l'autre. Adopter une analyse qualitative et holistique est donc la façon la plus complète d'analyser les relations complexes que sous-tendent les recherches en sciences humaines. D'un point de vue éthique de la recherche, l'approche qualitative nous semble la plus appropriée.

Ainsi, pour comprendre le cheminement qu'ont pris les identités dans la construction de leur pluralité nous avons adopté une *méthode de la complexité*. Terme pris de Edgar Morin et qui définit toute recherche visant à intégrer une pensée «globalisante» qui essaie de cerner la complexité des phénomènes humains intégralement c'est-à-dire dans toutes leurs dimensions:

«Les théories, les concepts et les situations référentielles utilisés dans ce paradigme sont issus de la systémique et du constructivisme. Par ailleurs, l'attitude épistémologique de ce paradigme repose sur la volonté de produire des connaissances spécifiques aux sciences humaines et sociales à travers une attention particulière portée aux acteurs et aux significations»⁽¹⁾

Présentation de Hermel et questionnement du cadre spatio-temporel du terrain: six phénomènes observés.

Présentation du terrain.

Hermel est une ville libanaise au sein du Caza de Hermel (ou district) qui porte le même nom. Depuis 2003, il représente avec le district de Baalbek une mohafazat (département) avant les deux faisaient partie du département (la mohafazat) de la Bekaa.

Un district en deux parties: la plaine et El Jord.

1- La plaine qui comporte: la ville de Hermel, Rass el Assi, El chawaghir, le plateau el Masoud, El Mansouriya, El Bouwayda, Hawch el seyyed Ali, El Kassr, El Khwakh etc.

2- La montagne (el jord) qui comporte: Sahlate el may, Fissan, El Boustan, El Charbine, Zoghriine, El Booul, la vallée Ratl, la vallée El Turkman, Marjhin etc.

Le terrain de notre recherche est la ville de Hermel, représentée par la municipalité de Hermel. Donc la ville en tant que telle et non pas le département de Hermel ou la Casa en entier. Notre recherche s'attarde parfois sur des phénomènes dépassant les limites de la ville municipalement parlant, et ceci pour les besoins de la recherche. La ville n'étant bien évidemment pas un tout indépendant et totalement coupé de ses alentours plus ou moins proches. Donc, l'étude parfois de

(1) Morin, E, *Communication et complexité, introduction à la pensée complexe*, Paris, ESF, 1990.

Construction d'identités plurielles à Hermel

Approche phénoménologique à visées compréhensive et descriptive de la ville

Zeinab Hamade

Résumé

Nous abordons dans cet article les résultats partiels d'une étude holistique et qualitative de terrain de la ville de Hermel dans la construction de ses identités plurielles. Les résultats ici abordés sont analysés selon une perspective phénoménologique de théorisation ancrée. Nous y détaillons les phénomènes retenus et leur répercussion sur la construction d'identités plurielles des Hermelois dans leur rapport avec eux même et les langues et cultures avec lesquelles ils sont en contact.

Mots clés: phénoménologie, méthode qualitative, identité, pluralité, catégorisation, phénomène ancrés, phénomène d'adaptation, marginalisation, anglicisation.

Pour une compréhension holistique et une description phénoménologique de Hermel.

Nous avons visé une approche humaine pour des sciences humaines. Dans son acte de colloque mis en ligne «*Les processus intellectuels fondamentaux sous-jacents aux techniques et méthodes qualitatives*», le professeur Alex Muccheilli affirme que: «*Les processus intellectuels fondamentaux composant une méthode qualitative sont naturels: ce sont ceux de l'intelligence humaine*»

Puis il décrit «quatre grands processus intellectuels» qu'il dit être «à la base de toute méthode qualitative de recherche»:

1- La comparaison: Il explique que tout être humain va, pour comprendre les phénomènes qui l'entourent, les comparer c'est à dire faire des rapprochements, construire des analogies, et se situer par rapport à eux.

2- La catégorisation: Après avoir comparé ces phénomènes, il va les catégoriser, en les regroupant et les généralisant.

3- La mise en relation: Après avoir comparé et catégorisé ce qui l'entoure, l'esprit humain va mettre en relation toutes ces informations en leur cherchant des points communs et ou de divergences.

4- L'invention de forme et de sens: dernier processus intellectuel, Muccheilli explique que les trois processus premiers, sont déjà une recherche de sens en eux-mêmes, et que: «*La recherche du sens des éléments composant le phénomène et du sens du phénomène tout entier est donc l'aboutissement de la recherche qualitative et, tous les processus que nous avons vus y concourent.*»⁽¹⁾

(1) MUCCHEILLI, Alex, RECHERCHES QUALITATIVES - Hors Série - numéro 3 Actes du colloque BILAN ET PROSPECTIVES DE LA RECHERCHE QUALITATIVE © 2007 Association pour la recherche qualitative ISSN 1715-8702, p17, 21.